إنهيار الحضارة العربية الإسلامية وسبيل النهوض

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٢/١١/٤٢٢٧)

٩٥٦
أبو عزة ، عبدالله محمد
انهيار الحضارة العربية الإسلامية وسبيل النهوض / عبدالله محمد أبو عزة . – ط٢ . – عمان : المعد ، ٢٠١٢
(٥٦٥) ص .
ر .ا . : ٢٠١٢/١١/٤٢٢٧ .
الواصفات : /الحضارة العربية // التاريخ العربي الإسلامي // النهضة

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى .

إنهيار الحضارة العربية الإسلامية وسبيل النهوض

الطبعة الثانية: منقحة ومزيدة

الدكتور عبدالله أبـو عـزة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإهـــداء

إلى روح الأخ والصديق ، الداعية الإصلاحي المتميز المهندس سيف الدين حامد الشربيني نضر الله تلك الروح بالرحمة والمغفرة وحسن المثوبة

عبدالله ابو عـزة

المحتـــوى

الإهداء 7

مقدمة الطبعة الثانية 11

مقدمة 13

الفصل الأول : تمهيـد : النشأة الأولى للحضارة الإسلامية 23

الفصل الثاني : التصدع السياسي والاجتماعي 47

الفصل الثالث : الأمويون يغتصبون السلطة : أول انقلاب عسكري 99

الفصل الرابع : دولة بني مروان 131

الفصل الخامس : العباسيون يعتلون المسرح 193

الفصل السادس : الخلافة العباسية في مهب العواصف 227

الفصل السابع : الخلافة في مستنقع الفوضى والدمار 237

الفصل الثامن : الخلافة في سجن البويهيين 285

الفصل التاسع : الخلافة في سجن السلاجقة 301

الفصل العاشر : صحوة الموت ومرحلة الاحتضار 321

الفصل الحادي عشر : لمحات من الفوضى في الأقاليم 329

الفصل الثاني عشر : الشرائح الإجتماعية 335

الفصل الثالث عشر : الشتات الفكري ودور العلماء 377

الفصل الرابع عشر : تعثر محاولات الإصلاح 451

الفصل الخامس عشر : إنجازات الحضارة العربية الإسلامية 479

الفصل السادس عشر : سبيل النهوض وتجديد البناء 503

قائمـة المصادر والمراجع 557

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد للّه رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله الأمين ، وعلى أصحابه الطيبين الطاهرين ، ومن اتبعه وتولاه وسار على هديه إلى يوم الدين ، وبعد ،

كانت الطبعةالأولى من هذا الكتاب قد صدرت قبل أربعة أعوام ، ومر صدورها ببعض المصاعب التي ليس أقلها الضعف الجسدي للمؤلف ، بعد أن تقدمت به السن ، فضلاً عن أمور أخرى تتعلق بظروف النشر وتكاليفه ومشاكل التعامل مع الناشرين ، بجانب ضعف المكتبات العامة المتيسرة ، وغير ذلك من المثبطات .

ونظراً للأهمية البالغة لموضوع الكتاب فقد كنت مصمماً منذ صدور الطبعة الأولى على تهيئة النص وإعداده لطبعة ثانية تتناسب في مستواها مع أهمية الموضوع ، سيما وأنا من المؤمنين بأن الكتاب للمؤلف الجاد المؤمن بما يقول ويعمل إنما يشبه الولد من حيث اعتزاز والده به ، وحرصه على تنميته ورفع مستواه ما دام له – أي المؤلف – نفس يتحرك وقلب ينبض ، مهما كلفة ذلك من جهد ومال ، وعلى الرغم من كل المصاعب التي أشرت إلى بعضها .

وكان مما تركز عليه الجهد في هذه الطبعة الثانية تصويب الأخطاء الطباعية وتحسين إخراج الكتاب ونمط الخط المستخدم . كذلك فقد رأيت حذف الفصل الثالث عشر الذي ورد تحت عنوان «خلاصة محاولة التشخيص» لتلافي ما يكون قد تضمنه من أثر – ولو ضئيل – للتكرار .

وقد أضفت فصلاً غطى موضوعاً جديداً كنت استبعدت ضمه للكتاب في طبعته الأولى ثم اقتنعت بفائدة ظهوره ضمن هذه الطبعة الثانية ، وهو الفصل الرابع عشر الذي تناولت فيه أبرز إنجازات الحضارة العربية الإسلامية ، مع عدم الادعاء بأنني استقصيت كل الإنجازات ومع الحرص على استبعاد أية أثارة من تفاخر .

أما الفصل السادس عشر والأخير فقد لقي عناية وجهداً أكبر ، وتضمن بعض لمحات عجلى عن بعض ما ظهر خلال الصخب الذي طفحت به ثورات «الربيع

العربي» خلال انطلاقها وتعثراتها بالشراك والألغام التي بثت وما تزال تبث في مساراتها (٢٠١١-٢٠١٢م) .

واللّه تعالى نسأل أن يكون عملنا خالصاً لوجهه ، وأن يكون نفعه وأثره متناسباً مع ما بذل فيه من جهد صادق .

ويسرني أن أتلقى أي تعليق أو نقد مخلص من كل من قرأ واستوعب .

والسلام عليكم إخواني وأخواتي ورحمة اللّه وبركاته .

عبد الله أبو عزة
٢٠١٢/١٠/٨م

مقدمة

الحضارة اسم جامع ذو مدلول فضفاض ينطوي تحته عدد كبير من العناصر المعنوية ، كما تنطوي تحته بعض العناصر المادية بصورة غير مباشرة بحيث يصبح التعبير عنها معنويا أكثر منه ماديا . ويتماهى اسم الحضارة أحيانا مع اسم الثقافة بحيث يعتبره بعض المفكرين مرادفا له . وللحضارة تعريفات كثيرة ساهم في وضعها كثيرون من أعلام الفكر وغيرهم واستعرضها مؤلفون كثيرون .وقد ذهب جيمس هارفي روبنسون James Harvey Robinson إلى أن كل ما تضمه الموسوعة البريطانية يعتبر وصفا للحضارة ، لأنها – أي الموسوعة – تحتوي على قصة المنجزات الإنسانية في جميع تطوراتها المحيرة والمذهلة[١] .

وفي ***معجم التراث الأميركي*** (***American Heritage Dictionary***) نجد تعريف كلمة (***Civilization***) على النحو التالي :

(١) حالة متقدمة من التطور العقلي والثقافي في المجتمع الإنساني ، تتميز بالتقدم في الآداب والعلوم ، والاستخدام الواسع لحفظ السجلات ، بما في ذلك الكتابة ، وظهور مؤسسات سياسية واجتماعية مركبة .

(٢) نوع الثقافة والمجتمع الذي طورته أمة معينة ، أو منطقة ، أو في عصر معين ، مثل حضارة المايا ، أو حضارة روما القديمة .

(٣) فعل أو عملية التحضير ، أو الوصول إلى حالة متحضرة .

(٤) الارتقاء الثقافي والعقلي ، وارتقاء الذوق .

(٥) المجتمع الحديث بما يمثله من تسهيلات في الحياة ؛ كأن نقول : عاد إلى الحضارة

---

(1) James Harvey Robinson, Civilization and Culture, ***Encyclopedia Britanica***, 1973 ed., Vol. 5, p. 824; see also pp. 424- 833.

بعد أن أمضى فترة في الجبال ، أو في الصحراء ، بعيدا عن كل التسهيلات الحضارية[١] .

وليس في نيتنا أن نعيد استعراض التعريفات الكثيرة التي صيغت لتمكننا من فهم مدلول الكلمة بل سنكتفي بعرض تصورنا لمكنونات هذا «المصطلح» بغية ضبط دلالات الألفاظ عندما نتحدث عنها أو من خلالها للقراء .

ويستخدم اسم الحضارة بصيغة المفرد كما يستخدم بصيغة الجمع . والحضارة ، أو الوحدات الحضارية ، ذات مستويات متنوعة ومتعددة من حيث اتساعها المكاني والزماني ومن حيث مستواها ، كما أنها تختلف وتتفاوت تبعا للزاوية أو الإطار الذي ينظر منه المفكر والباحث والمتلقي . فنحن نقرأ أو نسمع مصطلحات مثل : «الحضارة الإنسانية» و«الحضارة الإسلامية» و«الحضارة السومرية» و«الحضارة الفرعونية» و«الحضارة الغربية[٢]» و«حضارة أم النار» .

وعندما نستخدم مصطلح «الحضارة الإسلامية» في دراستنا هذه نجد أن مدلول الاسم واسع جدا ، من حيث الزمان والمكان بحيث يتعذر أن يغطيه كتاب واحد ، إلا أن يعمد المؤلف إلى تحديد وتصغير مجال الدراسة في الزمان والمكان ، أو أن يكتفي بلمحات سريعة تنتج عنها انطباعات عامة ، وملاحظات واستنتاجات يغلب عليها الطابع الذاتي لا الموضوعي ، بشكل رئيس . وتجنبا للإنحصار في هذه السباحة السطحية فإننا سنجمع بين الإطارين : الإطار العام الواسع الذي يستوعب الصورة الكلية الشاملة ، مصحوبا بإطار محجم في المكان والزمان ، يعطي مثالا وأنموذجا للإطار الواسع ويرتبط به بطبيعته ، ويخضع لدراسة وتفحص أدق وأعمق ، وأكثر تفصيلا . ولذا فإننا سوف نركز على دراسة الحضارة الإسلامية في بلاد الشام والعراق ، حيث كان قلب الدولة الإسلامية سواء في فترة الفتوة والقوة ، أو في الفترة التالية التي شهدت عصر الذبول والتفكك ثم الانهيار . كما أننا سنمد رؤيتنا زمنيا من بداية العصر الإسلامي ونتابع البحث لنصل به إلى القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي ، تقريبا ، وذلك ما يغطي أكثر من خمسة قرون .

---

(١) ***معجم التراث الأميركي*** ، من خلال موقع «ياهو» على شبكة الإنترنت ، الجمعة : ٢٠٠٢/١/١١ .

(٢) حضارة أم النار ظهرت في جزيرة صغيرة عند شاطيء أبو ظبي في الألف الثالث قبل الميلاد .

مفهوم «الحضارة» كما نستخدمه في هذه الدراسة:

إن أولى خطوات الإنسان البدائي – غير المتحضر – في طريق التحضر تتمثل في تدرجه نحو الانتقال من حالة الخضوع لمؤثرات البيئة الطبيعية إلى حالة السيطرة على بعض جوانب ومكونات هذه البيئة وتسخيرها لمصلحته بقدر أو آخر ؛ ومن حالة الخضوع للدوافع الغريزية إلى حالة السيطرة على هذه الدوافع وتقنين تأثيرها المحرك ضمن تلك السيطرة وعلى ضوء مخزونه من التجارب والخبرات ، وما انتجته من حكمة وقيم وموجهات ، أو بما تلقاه وقبله من عقائد وقيم موجهة ، سواء من مصادر دينية سماوية ، أو من غير ذلك .

ومع تقدم الجماعة البشرية في هذين المجالين وحصولها على رصيد من الخبرات والتجارب في ميدان الحياة الاجتماعية ، وتوفر المطالب الحياتية الأساسية للفرد ، بجانب قدر من الاستقرار في ظل التنظيم الاجتماعي تتاح للإنسان فرص للتأمل والتفكير ، في الكون والطبيعة وعلاقة الإنسان بهما ، وفي أسس العلاقات الإنسانية . ومن هنا تنشأ الفلسفات والقيم الأخلاقية والاجتماعية . وفي هذا السياق تتطور أساليب تعبير الإنسان عن إحساسه بالألم وإحساسه بالسعادة وإحساسه بالجمال – ضمن مجموعة الأحاسيس الإنسانية النفسية والوجدانية – فتنشأ الفنون بمختلف فروعها ، وتنشأ ضروب من القيم الجمالية . تلك هي موجهات ومحركات انتقال الجماعات البشرية من الحالة «البدائية» إلى حالة «الحضارة . وعندما تقوم حضارة ما ، في مكان وزمان معين ، على النحو الذي ذكرنا ، فقد تستمر في النمو والتقدم وقد تقف وتتجمد عند حد تضعف عن تجاوزه ، وربما اقتحمت أرضها حضارة أخرى فتغلغلت(١) في كيانها وأذابتها وامتصتها .

وأهم العوامل المساعدة على استمرار نمو الحضارة وتقدمها ، في رأي الباحث الحالي ، هي الجهود الفردية والجماعية الطوعية المشتركة المتعاونة في سبيل تحقيق الخير والتقدم والنمو للفرد والمجتمع ضمن أطر التكوينات البشرية المتعددة . وهي تتمثل كذلك في قدرة الإنسان على السيطرة على نفسه ، وكبحه جماح النوازع الحيوانية الأنانية اللاعقلانية في داخله ، وقدرته على تنظيمها بشكل يتيح الفرصة لانطلاق طاقات أفراد الجماعة على نحو متناسق متكامل ، إلى أقصى حد ممكن .

---

(١) ليس المقصود هنا هو الاقتحام أو التغلغل العسكري .

والشرط الأساس للوصول إلى هذه الغاية هو توفر الحرية التي لا تستمر المشاركة الواعية والطوعية إلا في ظلها . والحقيقة أن هذا الذي اعتبرناه «أهم العوامل المساعدة على استمرار نمو الحضارة وتقدمها» إنما هو جوهر الحضارة ، هو أهم معاييرها وما تنطوي عليه من قيم . إنه ذروة التحضر والحضارة ، وما عداه يعتبر في مرتبة أدنى منه . إن السلوك الإنساني الفردي والجماعي ، في داخل أي شعب هو المكون الحضاري الأهم ، حيث يتسع نطاق شعور الفرد بالحب والأمل ، متجاوزا دائرته الذاتية الفردية لتمتد مشاعره فتشمل الأسرة والأقارب والأصدقاء والحي والمدينة ، ثم تستمر في الاتساع لتحتضن الأمة التي ينتمي إليها ، بل تشمل البشر جميعا ، ثم تتجاوز كل هذا لتشمل الكون المادي من حولنا أيضا ، باعتباره جزءا من صنع الله الخالق الواحد ، يسبح الله على نحو لا ندركه ، حسب إيمان المسلم .

وكما أن انتقال الإنسان من البدائية إلى التحضر يكون- في إحدى صوره- باتساع **دائرة شعوره وانتمائه على النحو الذي وصفنا فإن انكماش هذه المشاعر ينعكس في انكماش مدى الحضارة التي ينتمي إليها ، انكماش قيمها ، ثم انكماش قوتها وتأثيرها على المدى الطويل ، وتلك هي بداية الانحدار في تاريخ الحضارات .**

معايير التقدم والتفوق والتميز بين الحضارات:

ومن خلال استعراضنا السريع لظروف ولادة ونمو الحضارات نستطيع أن نوجز المعايير التي تقاس بها منزلة كل حضارة ومقدار تقدمها بالمقارنة مع الحضارات الأخرى ، على النحو التالي :

١- مقدار الترابط والتعاون الحر بين أفراد المجتمع في مساعيهم لتحقيق الأهداف والمصالح المشتركة ، وهذا يشمل النظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي .

٢- مدى نجاح الإنسان في السيطرة على البيئة الطبيعية وتسخيرها لمصلحته وحاجاته العملية . وهذا يشمل المنجزات المادية من صناعية وإنشائية وزراعية .

٣- المنجزات العقلية والأدبية والفنية وما تنطوي عليه من عقائد وقيم ومثل ، ومدى التوافق والانسجام بين السلوك والممارسة من ناحية ، والعقائد والقيم والمثل من ناحية أخرى .

٤- موقف الحضارة من غيرها من الحضارات ، وممن هم خارج دائرتها من الجماعات

البشرية وما إذا كان وديا أو عدوانيا .

٥- مركز الحضارة ومستواها بالنسبة للحضارات السابقة واللاحقة والمعاصرة ، ومقدار التأثير أو التأثر المتبادل بالنسبة لتلك الحضارات ، ثم مقدار ما أنجزته في سبل التقدم التي عددناها ، مقارنة بما أنجزه غيرها .

إن غرضنا من دراسة الحضارة لا ينحصر في تجلية نشأتها وتطورها ونموها وانحدارها ، في مشروع بحث علمي ، لانتاج معرفة علمية حضارية جديدة تنضاف إلى ما أنتجه غيرنا من معاصرينا وأسلافنا - مع أهمية مثل هذه الأبحاث - بل إن غرضنا الرئيس في هذه الرحلة هو أن نصطحب قراءنا لنكتشف معا العوامل التي ساعدت في إنجاز أو إحداث ما حققته حضارتنا العربية الإسلامية من إيجابيات ، ثم نرصد الإنتكاسات التي نشأت عنها السلبيات التي طوقتنا وما زالت تكبلنا . إن سعينا يهدف - بصفة أساسية - إلى التعرف على كيفة الإنحدار ، كيف ومتى ولماذا ، وفي ظل أي ظروف ، وفي أية أماكن . ومنهجنا الأساس في هذا الاستطلاع هو استعراض المشاهد التاريخية متصلة ومتتابعة لنكتشف فيها ومن خلالها النماذج السلوكية لمختلف شرائح المجتمع ، من تتبع حراكها الإجتماعي وتدافعها وصراعاتها ومساعيها وأهدافها ، وقيمها ، ومحصلة كل ذلك وأثره على الحالة العامة للأمة ، قوة وضعفا بشكل عام ، واستقرار أوضاعها وتوفر حد معقول من الرضا والقبول العام لتلك الأوضاع .

وسنحرص على عدم الانعطاف وراء التفاصيل التاريخية غير اللازمة للدلالة على ما نبحث عنه على الرغم من أن هذه التفاصيل قد تكون ممتعة ، أو مهمة ، لقسم من القراء . وقد يظن بعض الناس أن من الممكن تسجيل أحكام وأوصاف تطبق على مختلف الشرائح الاجتماعية دون الحاجة إلى المرور بالمشاهد والأحداث التاريخية ، كأن نقول : إن أكثر وزراء العصر العباسي كانوا خربي الذمة ، أو أن حكام الأقاليم كانوا نزاعين إلى الاستقلال عن الحكومة المركزية ، أو أن الجند كانوا فاسدين عديمي الولاء لوطن ، أو خليفة أو ملك او عقيدة ، وإنما كان ولاؤهم للمال ، ولمن يدفع المال . . . إلى آخر مثل هذه الأحكام والتقريرات العامة . غير أن هذه الطريقة وما شاكلها لا تصل بالقارئ إلى الاقتناع والتصديق ، ولا إلى الإحساس بعمق الآثار الناجمة عن الأنماط السلوكية لمختلف شرائح المجتمع . وفضلا عن ذلك فإن التوثيق العلمي المقنع ، لمثل هذه الأحكام العامة والمختصرة ، يبدو أمرا مستحيلا ، حتى لو

نقلناها عن مؤرخين سابقين مهما علت منزلتهم .

لا شئ يعدل المشاهدة المباشرة للأحداث وتتبع آثارها . وعندما تكون الأحداث مما جرى في أعماق القرون الماضية فإن استدعاء المشاهد التاريخية بعد إخضاعها للنقد والتمحيص الدقيق تعوض عن المشاهدة المباشرة ، وقد تنتج إدراكا أفضل من المشاهدة المباشرة ؛ ذلك لأن المشاهدة المباشرة التي توافرت لبعض الناس الذين عاصروا أحداث الماضي أو شاركوا فيها إنما كانت مشاهدة وتجربة جزئية ، مثل تجربة شخص جلس في شرفة منزله فمرت أمامه مظاهرة سمع بعض هتافاتها ، وقرأ بعض لافتاتها ، وتابعها ساعة أو ساعتين أو أكثر وأصبح في مقدوره أن يصف لك ما شاهده بنفسه مباشرة ، وسيكون وصفه صحيحا أو يقينيا ، بيد أن كل ما شاهده جزء صغير من المشهد العام الكلي الذي **غابت منه أجزاء** كثيرة قبل أن تصل المظاهرة في مسيرتها إلى الشارع الذي يقع فيه بيته ؛ كالداوافع المحركة ، والإعداد المسبق ، والفرقاء المشاركين . كما أن المشهد الجزئي ينقطع بعد أن تبتعد المظاهرة عن شرفته التي كان ينظر منها ، وما قد ينضاف إلى الحدث بعد ذلك ؛ فضلا عن أن النتائج النهائية تغيب تماما منقطعة عن المشهد . ولكن عندما يأتي مؤرخ متخصص ومتمرس وأمين ، بعد قرن من الزمان أو أكثر ، فإنه يستطيع أن ينفذ إلى أعماق الحدث (أي المظاهرة) ، فيكتشف ويحدد مقدماتها ودوافعها وأهدافها ، وما كان لها من أثر في وقتها . لذا فإننا نعتقد أن الإدراك المكتسب من متابعة المشاهد التاريخية التي يصل إليها ويستخرجها البحث العلمي والدراسة التاريخية الموضوعية المتسمة بالإحاطة والشمول والعمق واستيعاب التفاصيل الضرورية هي التي تؤدي إلى فهم متكامل ، ومعرفة أفضل .

وفي ضوء هذا البيان سوف نمر بأحداث العهد الإسلامي الأول – النبوي والراشدي – دون إطالة ، فنجمل مسيرة ذلك العهد في صفحات قليلة[1] ، مع التريث أوالتوقف ، وإطالة التأمل عند بعض المحطات ، أو الأحداث المفصلية التي تبرز وتجلي ما نبحث عنه من مشاهد وشواهد . ومن أهم هذه المحطات تلك الأزمة التي

---

(١) باعتبار أن المعلومات التاريخية المفصلة عن تلك الحقبة معروفة على أوسع نطاق ، إذ ظلت الأجيال المتتابعة تكررها وتحسن عرضها ، في آلاف الكتب والمناسبات ، والمقالات ، والقصائد الشعرية ، وخطب الجمعة ، والمحاضرات العامة ، وغير ذلك من الأوعية والمنافذ .

أدت إلى استشهاد الخليفة الثالث عثمان بن عفان - رضي الله عنه - وما تفجر من نزاع وصراع في خلافة الإمام علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، مهد لحدوث أول انقلاب عسكري وقيام الدولة الأموية . ثم إننا سنجمل سيرة العهد الأموي في صفحات ، مع التوقف وإمعان النظر عند بعض الأحداث المفصلية : ولاية العهد ليزيد بن معاوية ، واستشهاد الحسين بن علي رضي الله عنهما ، وإشراف الكيان الأموي على الانهيار بعد موت يزيد ، ودور عبدالملك بن مروان ، والصراع على الحكم داخل البيت الأموي ، لنصل إلى الانقلاب الثاني الذي حمل العباسيين إلى سدة الحكم .

وفي الفترة العباسية سنلحظ الصراعات المبكرة ، والحضانة الفارسية ، وتقسيم أقاليم دولة الخلافة بين ورثة الخليفة ، وما تبع التقسيم من صراع ، ولجوء الدولة إلى استخدام أدوات جديدة ، لنصل - بعد ذلك - إلى مصرع الخليفة «المتوكل على الله» سنة ٢٤٧هـ . وسيجد القارئ كل هذه الموضوعات ضمن الفصول الخمسة الأولى من الكتاب ، وهي الفصول التي تغطي فترة الفتوة والقوة في حياة المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية .

أما الفصول التالية فنتناول فيها مشاهد التصدع والانهيار وأسبابه المباشرة ، حيث نمر بفترة اضطراب دار الخلافة - قلب الدولة الإسلامية - (٢٤٧ - ٣٣٤هـ) ، والفترة البويهية (٣٣٤ - ٤٤٧هـ) ، ثم الفترة السلجوقية (٤٤٧ - ٥٥٢هـ) التي نلمح على بعد قليل من نهايتها جحافل المغول ونسمع صهيل جيادهم في زحفهم صوب بغداد . وأما الفصل الرابع عشر فسيجد فيه القارئ لمحة عن محاولات الإصلاح التي مضت في عصرنا ، ، ثم نستشرف سبل إزالة العقبات ، وإرساء الأسس ، وإقامة البناء المجدد على نحو أفضل مما كان ، إن شاء الله تعالى اسمه .

لماذا نكتب في هذا الموضوع؟ وما الهدف من هذه الكتابة؟؟

ليس الهدف من إقدامي على الشروع في هذا البحث والانتهاء إلى هذا الكتاب مجرد رغبة في ممارسة الكتابة في التاريخ كما يفعل كل متخصص يحب موضوعه ومادته ؛ ولا هو بهدف تسلية القراء المحبين لمطالعة تاريخ الأحداث والتطورات الماضية ؛ كما أنه ليس سعيا وراء أي كسب أو ربح مادي ، ولا من أجل أية سمعة علمية أو أدبية . فما الدافع إذن؟

إن أمتنا كانت قد وصلت إلى مرحلة الانهيار ، والشلل والجمود قبل قرون طويلة ؛ غير أن انتقالها إلى هذه المرحلة ، وغرقها في مستنقعها الآسن وعجزها عن

الخروج منه ، ظل مستورا ومجهولا بسبب ضعف وسائل الإدراك ، ولم نكتشف الحقيقة إلا بعد أن وجدنا أنفسنا في موقف الضعف المستمر أمام الحضارة الغربية . وقد بدا هذا الضعف في ميادين القتال أولا ، فظن الحكام أنهم يستطيعون سد تلك الثغرة بشراء السلاح من الغرب نفسه ، ونقل شئ من العلم العسكري الحديث ؛ بيد أن هذا لم يجد نفعا ، واستمرت حالة الضعف والقصور ، خاصة بعد أن اقتحمت قوى عالم الغرب حدودنا وتحكمت في حياتنا ، ووزعت بلادنا أسلابا . ومعرفتنا لحقيقة الانهيار ، ومظاهره وأعراضه ، وما كمن خلفه من أسباب هي العناصر المهمة التي تمكننا من البحث عن أساليب التخلص من حال الهوان والضعة ، وتمكننا من النهوض ؛ ولذا كان الشروع في البحث والدراسة ، ثم البدء بالكتابة بنية تأليف هذه الكتاب ، ووضعه بين يدي القراء المتعطشين إلى معرفة أسباب الانهيار . ثم إن هذا العمل جهد واجتهاد ، ؛ لا ندعي فيه أكثر من ذلك . هو استصحاب للقراء في رحلة عبر التاريخ ، نستعيد الأصوات والأقوال والمشاهد ، نفتش ونستطلع ونستقرئ وندقق فيما نشاهده ونقرأه ونسمعه لنصل إلى الحقيقة .

وعلى الرغم من ذلك فإن هذا **المؤلف** يدرك أن هناك من يعترض على طرق هذا الموضوع بهذه الكيفية لأن هذا الفريق يلتزم التقيد بالموقف التقليدي الذي اختار التعتيم على هذه الأحداث ، والاكتفاء برسم صورة زاهية شاملة ، والاعتذار عن «الأخطاء التي حطمت بنية المجتمع والحضارة الإسلامية» بالتهوين من شأنها ، على أساس عصمة أولئك الذين ارتكبوها . إن الانحرافات الفكرية التي شهدتها عصور التخلف أخرجت أجيالا وقرونا من بشريتها ، ورفعتها إلى درجة من القداسة وعدم القابلية للخطأ . وانسجاما مع هذا النهج فقد أنكرت أن تكون الحضارة الإسلامية قد أصابها أي مرض ، وعزت كل العثرات إلى عناصر خارجية شيطانية معادية ، كما اعتبرت بعض الأمراض قدرا إلاهيا لا يجوز الحديث عنه بما يخرج عن هذا التصور . إن هذا الفريق يشبه المريض الذي يحرص أن يظهر دائما بمظهر الصحة الكاملة والقوة ، ويرفض الاعتراف بمرضه ، ويستبعد فكرة زيارة الطبيب ، وعلى أساس ذلك يرفض فكرة تناول أي دواء .

إنني – في هذه الدراسة – أريد أن أسلط الأضواء على هذه الأمراض سعيا وراء إحداث اعتراف عام بها ، أو بالأخطر منها ، لإبراز الحاجة الماسة للعلاج ، لتسعى أمتنا بجهدها إلى علاج حقيقي ، يعينها على التخلص من أمراضها الخطيرة ،

ويضعها على أعتاب مرحلة جديدة من الثقة والنشاط والقوة تيسر لها إعادة تشييد البناء ، على الأسس المبدئية التي حملها لنا وحفظها القرآن الكريم ، وهدي رسول الله ﷺ تسليما كثيرا .

مصادر البحث:

وسيجد القارئ أننا استخدمنا أوثق المصادر الأصلية للتاريخ الإسلامي ، والتزمنا بمنهجية البحث التاريخي ، والأمانة العلمية إن شاء الله ، بأقصى درجة يمكن أن يلتزم بها إنسان . والله نسأل أن يكون عملنا خالصا لوجهه ، وأن يمنحنا التسديد فيما نقول ونفعل ، إنه على ما يشاء قدير .

عمان ، العشرون من تموز (يوليو) ٢٠٠٨ .

عبدالله أبوعزة

الفصل الأول

نشـــأة الحضارة الإســلاميــة

تمهيد:

ظهر الإسلام سنة ٦١٠م تقريبا ، أو سنة ١٣ قبل الهجرة . وكانت الرسالة التي حملها محمد ﷺ إلى عشيرته وقومه ، ثم إلى البشرية كافة هي أساس الحضارة الإسلامية ؛ لقد اشتملت هذه الرسالة على عدة عناصر ذات أهمية قصوى بالنسبة لمولد ونشأة ونمو هذه الحضارة :

١ – فقد قدمت لها عقيدة بينت وأكدت وجود الله الواحد الأحد ، القوي العزيز ، الغفور الرحيم .

٢ – وبينت وأكدت أن الله هو الذي خلق الكون والحياة ، ورعى ويرعى الكون والحياة بما فيهما وأن الله نزل للناس الهداية إلى الحق والخير لتحقيق الحياة الطيبة في الدنيا ، وما يترتب عليها من اكتساب رضوان الله وحسن مثوبته في الآخرة . وقد نزلت هذه الرسالة ووصلت من خلال أنبياء معلمين مبشرين ومنذرين ، متتابعين في مختلف المجتمعات عبر التاريخ ، يحملون نفس الرسالة ، من حيث مضامينها الأساسية ، حتى انتهت إلى محمد ﷺ وبلغت كمالها .

٣ – وقد بينت هذه الرسالة دور الإنسان الإيجابي ، وأكدت أنه ليس مجرد عنصر سلبي يحرك ويتأثر ، ويحول ويبدل ، بل إنه عنصر إيجابي يفكر ويختار ويقرر ويفعل ، ويتحمل نتيجة فعله ، يتحملها في الدنيا كما يتحملها في الآخرة : كل ذلك في إطار نظام شامل للثواب والعقاب ، والمغفرة .

٤– وبجانب ما سبق فقد بينت الرسالة وأكدت ما هو صواب وما هو خطأ في مجال العقيدة والعبادة والسلوك ، بالنسبة للفرد ، وبينت وأكدت الصحيح في العلاقات مع الآخر ، سواء في العلاقات الفردية ضمن المجتمع الواحد ، أو العلاقات الدولية ، أو في العلاقات بين أصحاب العقائد المختلفة ، وبين ذوي الأعراق

والألوان والثقافات المتعددة ؛ وقد بينت بصفة خاصة رؤية الإسلام ، وبالتالي رؤية المسلمين بالنسبة لضوابط السلوك في حالات السلم والحرب .

٥- وقد حددت للحياة أهدافا ، بالنسبة للفرد ، والمجتمع وبالنسبة للأمم والشعوب ، أهدافا تليق بالإنسان المكرم ، وأعطت للأمة مبادئ للحياة تحكم السلوك الفردي والجماعي ، وترسم الملامح الأساسية لشخصية الفرد المسلم ، كما ترسم ملامح الشخصية الجمعية للأمة المسلمة ، ولكل شعب مسلم على حدة . وقد ظهر كل ذلك في مرحلة التأسيس ، في العهد المكي قبل الهجرة ثم في فترة السنوات العشر الأولى بعد الهجرة إلى المدينة التي انتهت مع وفاة رسول الله ﷺ .

المبادئ القرآنية الحاكمة:

ونستعرض فيما يلي أهم المبادئ القرآنية الحاكمة ، التي صاغت المرتكزات والمحددات الأساسية لشخصيتي الفرد المسلم ، وشخصية الأمة المسلمة ؛ مقترنة بالآيات التي تضمنتها وبينتها وأرستها ؛ تصاحبها نصوص من السنة تتابعها وتضيف مزيدا من الإضاءة ونحن في مطلع هذه الدراسة :

* **مبدأ وحدانية الله ، وأوضح ما يحددها آيات سورة الإخلاص : ﴿قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .﴾ وهناك آيات كثيرة أخرى تبرز في صفحات القرآن الكريم .**

* **مبدأ وحدانية الرسالة وتواصلها : ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا . . . . . ﴾ .**

* **مبدأ وحدة الإنسانية المنبثق من عقيدة وحدانية الخالق ، والمساواة المبدئية أمامه :**

١- ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساءا ، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام . . .﴾

٢- ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ؛ إن أكرمكم عن الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير .﴾ [الحجرات/١٣] .

* **مبدأ حرية الإنسان : وهذا المبدأ مؤسس على مضمون النصوص التالية :**
﴿لا إكراه في الدين ؛ قد تبين الرشد من الغي . . .﴾ البقرة/٢٥٦ .
﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا ؛ أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين؟﴾ سورة يونس/ ٩٩ .
﴿وقل الحق من ربكم ؛ فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر . . .﴾ الكهف/٢٩ .
﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم . . .﴾
﴿مذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟[(١)]﴾
هذا ما قاله عمر بن الخطاب لوالي مصر عندما أقدم ابنه على ضرب مصري مسيحي لأنه سبقه ؛ وقد أمر عمر المصري أن يقتص من ابن الوالي بيده .

* **مبدأ احترام العقل :**
١- ﴿وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان ، يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون .﴾ [الرعد/٤] . ونص هذه الآية ، وإنزالها ﴿لقوم يعقلون﴾ يعني أن العقل كان موجودا قبل نزول الوحي بهذا النص ، وكان مهيئا للتلقي والفهم لمن أراد أن يفهم . ويتكرر المعنى نفسه في قول الله تعالى : ﴿إن في ذلك لآيات لأولي النهى .﴾
ومخاطبة العقل ، وذكر لفظة «العقل» ومشتقاتها ومرادفاتها يتكرر عشرات المرات في القرآن الكريم . [أمثلة : النحل/١٠٣ ؛ الشعراء/١٩٥ ؛ الزمر/٢٨ ؛ يوسف/٢ ؛ الزخرف/٣ ؛ فصلت/٣] .
٢- ﴿أم خلقوا من غير شئ أم هم الخالقون؟ أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون .﴾
ومن الواضح أن نص هذه الآية حوار يخاطب العقل من غير أن يستخدم اللفظة نفسها . وأمثال هذه الحوارات يشغل مساحة واسعة من القرآن الكريم .

---

(١) الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ، أنظر إبن عبد الحكم ، ***تاريخ مصر وأخبارها*** ، ص١٦٧-١٦٨ .

*** مبدأ أن الإنسان خلق لعبادة الله بطاعة أوامره أولا ، ثم بتقديم الشعائر التعبدية له :**

﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون .﴾ [سورة الذاريات/٥٦-٥٧] .

*** مبدأ ان الله أراد للإنسان أن يحيى حياة طيبة بالإسلام**

١- ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم . . .﴾ [الأنفال/٢٤] .

٣- ﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون .﴾ [النحل/٩٧] .

ولكي تكون الحياة طيبة - في الحياة الدنيا كما في الآخرة - فقد جاء الإسلام لتحقيق مصالح الناس عامة . وتنقسم هذه المصالح ثلاثة أقسام : ضرورية ، وحاجية ، وتحسيينية . والضرورية هي التي لا تقوم الحياة إلا بها ، وإذا فقدت انهدم الوضع الإجتماعي لأصحاب العلاقة . أما الحاجية فأقل أهمية ؛ وهي إذا فقدت لا ينهدم الوضع الاجتماعي ، ولكن يعيش الناس في ضيق . أما التحسينية الكمالية فيقصد بها الراحة والكمال والتأنق ، من غير إسراف ولا انحراف[1] .

*** مبدأ التعاون والعيش والعمل بروح الجماعة قائمة على المحبة المتبادلة والمشتركة ، وهذا المبدأ يستند إلى النصوص التالية :**

١- ﴿ . . . وتعانوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان . . .﴾ [سورة المائدة / ٢] .

٢- ﴿المؤمن للمؤمن كالبنيان ، يشد بعضه بعضا .﴾ [حديث نبوي]

٢- ﴿مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر .﴾ [حديث نبوي] .

---

(١) أبو حامد الغزالي ، ***المستصفى من علم الأصول*** ، م ١ ، ص ٢٨٤ - ٢٩٢ ؛ عبدالوهاب خلاف ، ***علم أصول الفقه*** ، ص ١٩٧ -٢٠٣ .

* **مبدأ الحكم من خلال الشورى (الديمقراطية الإسلامية) ، وهذا المبدأ انبثق من النصوص التالية :**

١- ﴿فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر . . .﴾ آلعمران/ ١٥٩

٢- ﴿والذين استجابوا لربهم ، وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم . . .﴾ الشورى/٣٨

* **مبدأ تحقيق العدالة لجميع الناس على السواء :**

﴿ . . . وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل . . .﴾

﴿ولا يجرمنكم شنآن قوما على ألا تعدلوا . إعدلوا هو أقرب للتقوى ، ولا تنسوا الفضل بينمكم . . .﴾

﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان . . .﴾ النحل /٩٠ .

﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم . . .﴾

﴿إعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا . . .﴾

* **مبدأ احترام العلم :**

١- ﴿إقرأ باسم ربك الذي خلق .﴾ سورة العلق/١-٥

٢- ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء .﴾ سورة فاطر/٢٨

٣- ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات .﴾ المجادلة/١١ .

٤- «طلب العلم فريضة على كل مسلم .» حديث نبوي .

٥- «لا طلعت علي شمس يوم لم أزدد فيه علما .» حديث نبوي .

وهناك كثير من النصوص الأخرى لا يتسع المجال لتسجيلها هنا .

* **مبدأ احترام العمل :**

١- ﴿إني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى .﴾ أل عمران/١٩٥ .

٢- ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله .﴾ سورة الجمعة/٩-١٠ ؛ وهذا توجيه للعمل من أجل الكسب .

٣- ﴿وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة .﴾ [سورة النساء/١٠١] . وهذا تصريح بتقصير الصلاة عند الضرورة للذين

يمارسون العمل من أجل الكسب .

٤- «ما أكل أحد طعاما خيرا من أن يأكل من عمل يده .» [البخاري/كتاب البيوع] ، حديث رقم١٥ .

٥- «لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير من أن يأتي رجلا فيسأله ، أعطاه أو منعه .» [البخاري/ كتاب الزكاة ، رقم ٥٠ و٥٣ ؛ وقد ورد الحديث مرتين أخريين عند البخاري] . وهناك نصوص اخرى كثيرة في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي .

*** مبدأ احترام المرأة إنسانة ، مساوية للرجل في إنسانيتها ، ولها من الحقوق مثل ما عليها من الواجبات :**

١- ﴿وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت .﴾ [التكوير/٨-٩] .

٢- ﴿وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم .﴾ [النحل/٥٨-٩٥] . وفي هذين النصين يؤنب القرآن من كانوا يقتلون البنت المولودة ، وينذرهم بالمحاسبة والعقوبة يوم القيامة .

٣- ﴿ . . . ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف . . .﴾ [البقرة/٢٢٨] .

٤- ﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة . . .﴾ [النحل/٩٧]

٥- ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض . . .﴾ [التوبة/٧١ .]

٦- ﴿وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا .﴾ [النساء/١٩] .

٧- وكانت النساء في عهد رسول الله ﷺ يشاركن في البيعة ، أي إعلان الولاء والتأييد والطاعة للقيادة ، في المواقف الصعبة [سورة الممتحنة آية ١٢] ؛ كما كن يذهبن للإشتراك في الاجتماع العام عندما يسمعن النداء ، ويتركن ما كن منشغلات به من الأمور الشخصية . وهناك نصوص قرآنية كثيرة ، ومثلها في الحديث النبوي لا نستطيع أن نحشدها هنا لكثرتها[1] .

---

(١) أنظر ***صحيح البخاري*** ، كتاب النكاح ، رقم ٤١ ، كتاب الإكراه ، رقم ١٢ ، كتاب الحيل ، رقم ١١ ؛ وانظر ***فتح الباري في شرح صحيح البخاري*** جزء ٤ ، ص ٢٩-٣٠ ؛ وصحيح مسلم ، ==

* **مبدأ حب السلام القائم على العدل والدفاع عنه :**

١- السلام إسم من أسماء الله المذكورة في القرآن . (الحشر/٢٣)

٢- إسم «الإسلام» مشتق من جذر كلمة «السلام» .

٣- ويصف الله المؤمنين الصالحين بقوله : ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما .﴾ [الفرقان/٦٣]

٤- والدعوة إلى الله : ﴿أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾ [النحل/١٢٥]

٥- ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا ؛ إن الله لا يحب المعتدين .﴾ [البقرة/٩٠] .

٦- ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم .﴾ [الأنفال/٦١-٦٣][1] .

٧- أما صيغة الفعل : «أسلم» ، «اسلمت» فتعني أن من يقوم بهذا الفعل قد سلم نفسه واستسلم لله وحده ، والتزم طائعا مؤمنا قرير العين باتباع أمره ونهيه وإرشاده قي كل شئون حياته .

* **مبدأ تناسب التكليف مع القدرة ورفع الحرج عن الناس :**

١- ﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها . . .﴾ [البقرة/٢٨٦] .

٢- ﴿لا نكلف نفسا إلا وسعها . . .﴾ [الأنعام/١٥٢ ؛ المؤمنون/ ٦٢] .

٣- ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا إلا وسعها﴾ [الأعراف/٤٢]

٤- ﴿فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه﴾ [المؤمنون/١٤٥]

٥- ﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج﴾ [النور/٦١] .

== كتاب الفضائل ، رقم ٢٩ ؛ وانظر عبدالحليم أبو شقة ، ***تحرير المرأة في عصر الرسالة*** ، مجلد ١ ، ص ١٧٥-٦ ومجلد ٢ ، ص ٤٢٥-٤٥٦ ؛ وانظر كتابي : ***الإسلام . . رسالته ، حضارته ، مستقبله*** ، ص ١٢٦-١٣٠ ؛ وكتابي : ***حوار الإسلام والغرب*** ، ص ٢٨٢ - ٢٨٦ . وهناك نصوص كثيرة جدا تخص موضوع المرأة تؤكد ما ذكرناه ، لا نستطيع حشدها هنا لكثرتها .٩

(١) أنظر : عبدالله ابو عزة ، **الإسلام . . *رسالته ، حضارته ، مستقبله*** ، ص ١٣٠ - ١٣٤ ، لمزيد من التفاصيل .

* **مبدأ تكريم الإنسان :**

١- ﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا .﴾ [الإسراء/٧٠]

٢- ﴿ . . . وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات﴾ [غافر/٦٢] .

٣- ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا . . .﴾ [البقرة/٣٤] .

* **مبدأ استخلاف الإنسان في الأرض ليعمرها :**

١- ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾ [البقرة/٣٠] . [هود/ ٦١] .

* **مبدأ تداول المال والثروة ومنع الاحتكار :**

١- ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم . . .﴾ [سورة الحشر/٧] .

٢- «لا يحتكر إلا خاطئ .» [صحيح مسلم/كتاب المساقاة ، حديث رقم ١٢٠ و١٢٩] .

٣- إن نظام الوراثة الإسلامي ، وتوزيع التركات عامل مهم في توزيع الثروة ومنع تراكمها في أيد قليلة ؛ بينما كان الدارج عند أمم أخرى قديما جعل الثروة للإبن الأكبر لتظل غير مفتتة .

* **مبدأ الاعتدال والوسطية في الاختيار والسلوك :**

١- ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا﴾ . [الإسراء/٢٩] .

٢- ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما . . .﴾ [الفرقان/٦٧-٦٨]

٣- ﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إن الله لا يحب المسرفين .﴾ [الأعراف/٣١] .

٤- ﴿إن هذا الدين متين ، فأوغل فيه برفق ، إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى .﴾ [مسند الأمام أحمد/ج٣/ ص ١٩٩] .

* **مبدأ إباحة الطيبات وتحريم الخبائث :**

يصف القرآن توجيه الرسول للمسلمين ﴿ . . . ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث . . .﴾ [سورة الأعراف/١٥٧] . وفي ضوء هذه القاعدة حرم الإسلام أكل الميتة – عدا الأسماك – وحرم لحم الخنزير ، وحرم الخمر ، وكل ما يؤثر سلبا على العقل : «الخمر ما خامر العقل» ، كما حرم الحيوانات والطيور الجارحة آكلة اللحم ، وحرم لحم الجلالة ، أي الحيوان الذي يأكل القاذورات .

* **مبدأ تبني التيسير وتجنب التعسير على الناس :**

١- ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر .﴾ [البقرة/١٨٥] .

٢- «يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا .» [حديث نبوي]

٣- «لم يخير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما .» [صحيح البخاري/كتاب المغازي ، ٦٠ ، كتاب الإيمان ، ٢٩ ؛ كتاب الأدب ، ١٨٠ ، ؛ كتاب العلم ، ١١] .

* **مبدأ محاسبة النفس :**

١- ﴿ . . . ولا أقسم بالنفس اللوامة .﴾ [سورة القيامة/٢] الموصلة إلى التوبة والندم والاستغفار والتعويض ، وتلك هي المقومات الحقيقية لمبدأ محاسبة النفس .

* **مبدأ الرحمة :**

١- «فبما رحمة من الله لنت لهم ؛ ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم في الأمر . . .»

٢- ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة .﴾ [الأنعام/٥٤]

٣- ﴿من لا يرحم لا يرحم .﴾ [حديث نبوي] .

٤- «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء .» [حديث نبوي] .

* **مبدأ التسامح والعفو والغفران :**

١- «والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين» .

﴾ مبدأ الإيثار والتضحية في سبيل معاونة المحتاجين والضعفاء ، والدفاع عن الحق والعدل ضد الظلم ، وحماية مصالح الأمة ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . . .﴾

﴾ مبدأ أن لكل إنسان ثمرة عمله فحسب : ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ .

الشخصية الإسلامية

وكان مما عني الإسلام به في المرحلة التأسيسية أنه رسم وكون ملامح الشخصية الإسلامية . وتتكون الشخصية الإسلامية من عنصرين متميزين ، لكنهما متداخلان ومتكاملان ، وهما :

أولا : «الشخصية الفردية» ، أي شخصية الفرد المسلم ،

ثانيا : « الشخصية الجمعية» ، أي شخصية الشعب المسلم بمجموعه ، أو شخصية الأمة المسلمة .

وقد فضلت استخدام صيغة «الجمعية» ليس للدلالة على منظمة يشكلها أفراد وينضوون تحت عباءتها كما نشاهد في مجتمعاتنا المعاصرة ، بل للدلالة على الصفة الفاعلة التي قامت وتقوم وتستمر في عملية وفعل الجمع ، مستهدفة أن تكون جامعة للأمة في إطار عام يعطيها صفاتها المميزة بين الأمم . وقد عدلت عن استعمال صيغة «الجماعة» لأن هذه اللفظة لا تحتوي - بين مضامينها - على عنصر الفعل المتحرك المحرك ، والمستمر على ذلك . وللسبب نفسه عدلت عن استعمال صيغة «الجامعة» ؛ لعدم وجود عنصر الاستمرار والدأب في مضامينها .

شخصية الفرد المسلم:

والفرد المسلم لا يذوب تماما في خضم الشخصية الجمعية ولا يختفي أثره ، وإنما تظل فرديته حاضرة دائما ، متمثلة في المبادرة ، وتحمل الواجب والمسئولية ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولقاؤه مع الله فردا ، ليحاسب بصفته الفردية في الآخرة . أما الشخصية الجمعية فظهورها الرئيسي ، ودورها الرئيس الفاعل إنما يستهدف التأثير في هذه الحياة الدنيا ، وينوه ويؤكد كينونة الفرد ضمن «الشخصية

الجمعية» ، الأمر الذي يتجلى خاصة في عبارات سورة الفاتحة : «إياك نعبد وإياك نستعين ، إهدنا الصراط المستقيم» ، وهي أخص أعمال العبادة اليومية المتكررة مرات ، ويظهر فيها استخدام الفرد الضمير الجمعي في كلمات «نعبد» و«نستعين» و«إهدنا» .

لقد بدأ الإسلام – مجسدا في القرآن ، وفي عمل رسول الله وقوله وإقراره – بدأ في رسم ملامح الشخصية الإسلامية في مكة منذ أن تلقى محمد ﷺ ، وأعلن أمر ربه :

﴿يا أيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر . . .﴾

ولا مراء في أن عملية التكوين والبناء – في هذه المرحلة المبكرة – تركزت علي بناء شخصية الفرد المسلم ، وعلى رسم ملامحها العامة ، بالدرجة الأولى ، ولم تتركز على بناء «الشخصية الجمعية» ، لأن الأفراد المسلمين الجدد كانوا مندمجين في مجتمع بشري أكبر ، وغير إسلامي ، يشكلون عناصر صغيرة ، وأحيانا ضئيلة ، في بنائه العضوي . ومع ذلك فإن عملية بناء الشخصية الجمعية لم تكن غائبة أو مهملة تماما ، بل كانت حاضرة بشكل جزئي ، وذلك في ضوء ما أشرنا إليه من التداخل والتكامل بين الشخصيتين .

لقد كان انضمام أحد الأفراد من المجتمع القرشي المكي إلى الجماعة المسلمة الناشئة في مكة يضفي عليه صفات تميزه بوضوح عن الأفراد الآخرين من أعضاء المجتمع المكي الذين حافظوا على وضعهم السابق على الإسلام ,ولم يقدموا على اتخاذ تلك الخطوة التغييرية . ذلك أن بداية الإسلام هي الإيمان القلبي والعقلي بوجود الله ، وبأنه هو الخالق ، وهو الرب الرحيم المعني بخلقه ، يوجههم إلى الخير ويشجعهم على إتيانه ، ويرى عملهم ونشاطهم وما هم فيه ، يثيب المحسن ويعاقب المنحرف عن الجادة ، ويشجع الذين ضلت بهم السبل على التوبة والاستغفار ، ثم يقيل عثراتهم بالمغفرة والتجاوز عن سيئاتهم ، ويدخلهم في ظل رحمته .

وهكذا فإن رسم ملامح شخصية الفرد المسلم وإنشاء مكوناتها لا يقتصر على مجرد الإيمان القلبي والاقتناع العقلي ، بل يشمل أيضا الموجهات والضوابط السلوكية التي تنتظم وتحدد نوع ودرجة العلاقة بين الفرد المسلم وغيره من الأفراد المسلمين ، وكذلك مع الذين احتفظوا بعقائدهم واستنكفوا عن الانضمام إلى الجماعة االمسلمة . وكان من أبرز ما ميز شخصية الفرد المسلم في ذلك المجتمع المكي – وظل وما زال يميز حياة المسلمين الملتزمين الممارسين – أن الواحد منهم كان وظل موصول القلب والفكر

بالله ، يتطلع إلى رضاه ، وإلى عونه ورحمته ، ويشعر أنه معه . وهذا ما يمنحه الاطمئنان والثقة والأمل ، بجانب ما ينشئه من علاقات المحبة والتعاون والتضامن بين أفراد العصبة المؤمنة في إطار شعور بالانتماء والتميز . أما في مجال الحركة والسعي فكان الفرد يستصحب ويستشعر الحضور الإلهي في حياته العملية بكل جوانبها ؛ إذا بدأ بعمل قدم اسم الله بـ «بسم الله الرحمن الرحيم» ، استجلابا للعون والتسديد والتيسير والبركة ، والحماية من الخطأ والانحراف ، مع تأكيد الصلة بالله والقرب منه بالمشاعر ، ثم بالمؤشرات العملية . فإذا أنجز عملا أو تحقق له خير حمد الله وأعلن له الشكر والثناء . وقد كان مثل هذا المشهد وهذا السلوك – وما زال – يحدث ويتكرر حتى في أبسط الأمور ، مثل شربة ماء ، أو أكل تمرة ، أو البدء بوجبة طعام . ولست أزعم أن جميع الأفراد المسلمين كانوا في هذه الدرجة العالية من الإيمان والممارسة ، لكن كثرتهم – أو كثيرين منهم – كانوا كذلك ، وما زال عدد غير قليل منهم يترسم هذه الخطى .

الشخصية الجمعية:

ومن خلال الهجرة من مكة إلى يثرب ، المدينة ، انتقل الأفراد المسلمون ، والجماعة المسلمة الصغيرة إلى مرحلة جديدة ، وتتابعت المراحل بعد ذلك ، إلا أن حادث الهجرة وما حمله من تغير كان هو الأهم . لقد أخذت الشخصية الجمعية تتبلور على نحو أوضح ، سواء في المظهر ، أو في المشاعر ، أو في الرؤية ، أو في السلوك العملي . ولم تلبث أن وصلت إلى حالة التميز عن كل ماحولها من التجمعات البشرية ، القبلية وغير القبلية . لقد تميزت «الشخصية الجمعية» بجملة حقائق ركنية في بنيتها ، ومنها : حقيقة الإيمان وما تمخض عنه من رؤية للكون والإنسان وحركة الزمن ؛ ومنها تحركات البشر تدافعا ونضالا مقصودا ومخططا ، أو تلقائيا غير مقصود وغير مخطط ، أفرادا وجماعات وتكتلات مختلفة في دوافعها ومحفزاتها . لم تعد الشخصية الجمعية ، أو الأنا الجمعي قبيلة ، أو انتماءا للقبائل التاريخية ذات الأصول الواسعة والتكوينات القبلية المتشعبة (ربيعة ومضر ، قيس ويمن ، عدنان وقحطان) ، وغير ذلك مما تحويه كتب الأنساب ؛ كما أنها لم تعد محصورة في الانتماء إلى المكان (مكة ، يثرب ، نجد ، هجر ، اليمن ، عمان) . هكذا صارت الشخصية الجمعية للأمة تحت قيادة محمد رسول الله (ﷺ) منذ هاجرت إلى يثرب . وقد استمر ذلك في

معظم فترة العهد الراشدي ، بعد وفاة رسول الله ﷺ .

المشكلات التي استهدفت عملية بناء الشخصية علاجها :

(١) العصبيات والأنانيات الضيقة بمختلف أحجامها : من الفرد إلى الأسرة والعشيرة والقبيلة والأمة والتكوينات العرقية الإثنية الصغيرة والكبيرة وغيرها .

(٢) الرغبات والشهوات الفردية والجماعية المسرفة .

تطور مسيرة الكيان السياسي الفردي والجمعي:

وقد كان طبيعيا ومنطقيا أن يتولى الرسول قيادة الأمة في حياته ، لأنه هو الذي يعرف هذا الجديد الذي جاء به من عند الله . ليس هذا فحسب ، لكن القرآن الكريم يتحدث عن أولى الأمر ، وعن القيادة المدنية في المجتمع . وفي الصلاة الجماعية التي هي أبرز وأخص الأعمال التعبدية لا تصح هذه العبادة إلا بإمام يقود عمل المسلمين خلالها وأداءهم لها ، سواء في صلاة الجمعة والعيدين ، أو في صلاة الجماعة التي تتكرر خمس مرات يوميا . هكذا علم محمد المسلمين أثناء حياته . وبجانب ذلك فإن رسول الله ﷺ قد نوه – في مواقف وأحاديث عدة – بضرورة دور القيادة ، وقبل ذلك ضرورة إنشاء القيادة في المجتمع ، وذلك من خلال قوله : «إذا كنتم ثلاثة فأمروا أحدكم ؛» هذا بجانب أحاديث كثيرة تتناول هذا المعنى أو تمسه من هذا الجانب أو ذاك . وهذه الإرشادات والممارسات والدروس العملية تعني بوضوح إقامة ونشأة كيان سياسي له منطلقاته المبدئية ، ورصيده من الدروس والسوابق ، وأهدافه الخاصة المنطلقة من مصلحة كيانه الجمعي وما فيه من كيانات فردية ، ثم دوره وموقفه من الإنسان عامة ، أي الجنس البشري ، على ضوء العقيدة الإسلامية التي ترتبط توجهاتها بما جاء به القرآن الكريم من الإحساس بالإنسان من خلال المنظور القرآني الذي يركز على أن الناس عامة جزء من خلق الله ، وأن البشر عند الله سواء لا يتميزون إلا بمقياس أعمالهم وسلوكهم ونياتهم ؛ ومع ذلك فإن رحمة الله تدرك المخطئ التائب ، وتأخذ بيده ، إذ «الخلق كلهم عيال الله . . .» او هم جميعا أبناء الله – حسب التعبير المسيحي الذي ورد في الأناجيل منسوبا إلى نبي الله عيسى عليه الصلاة والسلام ، مرات كثيرة متكررة . وفي إطار هذا المفهوم الإسلامي تولى منصب القيادة – بعد موت رسول الله ﷺ – عبدالله بن أبي قحافة ، أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، وأعلن لجمهور المسلمين في خطبته عند تولي المنصب فهمه

لواجبـاتـه ، ولحـدود سلطاته ، أو لنقل : «أعلن برنامج حكمـه» عندمـا أعلن باختصار :

«أيها الناس ، وليت أمركم ولست بخيركم ، ولكن نزل القرآن وسن النبي ﷺ السنن فعلمنا (بتشديد اللام وفتحها) ، فعلمنا (بكسر اللام) . . . إعلموا أن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ له بحقه ، وإن أضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه . . . أيها الناس ، إنما أنا متبع ولست بمبتدع ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن زغت فقوموني . . .»

وهكذا أوضح الخليفة الأول قواعد الحكم كما فهمها من القرآن ومن ممارسة وحديث رسول الله ﷺ . ومعنى هذه العبارات بلغتنا الحديثة والمعاصرة :

١ - أن الخليفة أعلن في خطاب افتتاح ولايته أنه واحد من المسلمين ، وأنه لا يفضل نفسه عنهم أو يشعر بأنه أرفع منزلة

٢ - وأن القرآن قد نزل بالهداية والإرشاد ، وأن الرسول قد سن طرق العمل والتعامل . وقد أضاف الخليفة أنه سيسترشد بما جاء في القرآن الكريم ، وبما سنه رسول الله ﷺ من طرق العمل ؛ أي أنه لن يترك هواه أو مصالحه تتحكم في تصرفاته . ومعنى ذلك بلغة سياسية حديثة ، وبشكل واضح ، أنه سيتقيد بما ورد في الدستور والقانون والسوابق القانونية .

٣ - أنه أكد حق المسلمين أن يراقبوا تصرفاته ، ويعاونوه إن أحسن العمل ، ويصوبوه إن أخطأ .

وبعد وفاة أبي بكر تولى الخلافة عمر بن الخطاب فسار على نهج سلفه حتى أدركته الوفاة غيلة أواخر سنة ٢٣ للهجرة .

هكذا اكتملت مكونات الشخصية الجمعية للأمة الإسلامية الناشئة ، بتأكيد ضرورة وجود وقيام القيادة السياسية الإدارية التي تتولى الحفاظ على وحدة التوجه والنشاط الجمعي في الحياة العامة ، في أوقات السلم والرخاء ، وفي أوقات الشدة والأزمات ؛ وأن يجري اختيار القيادة العليا للأمة بناء على الصفات الفردية الأساسية ، وأهمها صدق الانتماء إلى الأمة بالإيمان العقيدي ، وبمبادئ السلوك التي يقوم عليها العمل والممارسة ، وبالأفضلية الشخصية في القدرات اللازمة لمن يتولى المنصب القيادي الأعلى . وغني عن التنويه أن هذه الترتيبات والإجراءات التي استعرضنا حقائقها الرئيسية - عدا ما نص عليه في القرآن الكريم وجاء في

الأحاديث النبوية الصحيحة - كانت اجتهادات آنية لم تنبن على خبرة سياسية ، لأن الخبرة لم تكن متوفرة ؛ وقد استحدثت ووضعت موضع العمل والاختبار أول مرة . ومما لا يمكن نكرانه أنها كانت ممارسات بسيطة ، إلا أنها لم تأت من فراغ ، ولا من فلسفة موروثة ، بل ولا من أشخاص لديهم معرفة أو خبرة بالفلسفة والتفلسف ، وإنما انبثقت من المبادئ التي جاء بها القرآن الكريم ، وما تعلمه المسلمون من ممارسات وأحاديث الرسول ﷺ . وربما يتساءل بعض من يقرأون هذا الكلام : ولماذا لم يأت القرآن بنظام مفصل ، ولم يفعل ذلك الرسول من خلال توجيهاته؟ والجواب الذي يستنتجه المسلم أن هداية وتعليم القرآن ، وتعاليم رسول الله لم تخصص لذلك المجتمع الصغير وحده ، بل إنها جاءت تخاطب البشرية كلها ، ليس في عصر الرسالة وحده ، بل في كل العصور التالية ، كما كانت تمثل استمرارا ومتابعة لما ورد في الرسالات السماوية السابقة التي حملها آدم ونوح وابراهيم ، وغيرهم ممن تبعهم وسار على نهجهم من الأنبياء والمرسلين . وعلى ذلك فإنها لو جاءت مفصلة على قياس ذلك الجيل الأول من المسلمين في النصف الأول من القرن السابع الميلادي لما صلحت للتطبيق في العصور التالية . ولذا فقد جاءت في إطار المبادئ العامة المرنة ، وأصبح على كل جيل أن يجتهد ليصوغ منها ما يناسب احتياجاته ؛ هذا فيما عدا العبادات ، والإلتزامات والحقوق المتعلقة بالأمور الثابتة ، غير المتغيرة في حياة الفرد ؛ ومن هذه الأشياء الثابتة : رغبات الإنسان وشهواته .

التي تشمل : حب الحياة والفرار من خطر الموت ، حب الاستمتاع الجسدي بين الرجال والنساء بعضهم بالبعض الآخر ، حب المال والثروة والتملك ، حب الأولاد ، حب العلو والارتفاع والسيطرة ، وحب الثناء والمديح . وهذه الصفات العامة موجودة ومعروفة في كل المجتمعات وفي كل عصور التاريخ في الماضي والحاضر والمستقبل ، بيد أنها تختلف في الدرجة من شخص لآخر ، ولا تغيب تماما إلا في الحالات المرضية أو الشاذة . ولذا فإن أي تشريع لا بد أن يشملها . وهكذا عني بها الإسلام انطلاقا من مبدأ الاعتراف بوجودها وبحق الناس جميعا في السعي لها ولكن في إطار من التنظيم والحدود التي تمنع التصادم والصراع ، وتبقي الحراك في حدود التنافس السلمي العادل . ويرتكز التنظيم بالدرجة االأولى على نشر وتعميق الإيمان بالمبادئ القرآنية الحاكمة لينبثق الاختيار الطوعي من هذا الإيمان . أما الذين لا يمنعهم الأمر والنهي والتوجيه من تجاوز الحدود فإن التشريع والسلطة المنوط يها السهر على

تنفيذ القانون تتدخل عندئذ لتصحيح الانحراف ووقف التجاوز .

ولكي تأخذ الصفة الجمعية وضعها الكامل المتصف بالحياة والفاعلية الدائبة لا بد أن يكون من بين مكوناتها درجة من الوحدة السياسية مهما ضؤلت . وهذا العنصر المشار إليه بـ «درجة من الوحدة السياسية» تختلف أشكاله وآلياته في عصرنا عما كان عليه الحال في العقود الأولى من القرن الهجري الأول ، أي في النصف الأول من القرن السابع الميلادي . ففي عصرنا نتحدث عن الدولة الموحدة ، والدولة الإتحادية (الفدرالية) ، والدولة (الكونفدرالية) ، والنظام الملكي الدستوري ، والنظام الجمهوري (الرئاسي) ، والنظام (البرلماني) وعن مجموعات الدول التي تنشئ لها شخصية خصوصية مميزة من خلال إقامة رابطة تجمعها لتحقيق مصلحة أو مصالح معينة تهمها جميعا ، مثل جامعة الدول العربية ، أو الاتحاد المغاربي ، أو الاتحاد الأوروبي ، أو منظمة المؤتمر الإسلامي ، وغير ذلك من التشكيلات والمسميات الحقيقية أو الإفتراضية . وهذا كله لم يكن معروفا عند ظهور الإسلام ، لكنه نشأ من خلال تجارب قاسية مرت بها شعوب هذا العالم ، وظلت تشكل ، وتعيد التشكيل وتستكمله ، وتحاول سد ثغراته .

بين المثال الأعلى والحقائق البشرية الأرضية:

امتد العهد النبوي والعهد الراشدي في المدينة أربعين سنة ، من سنة ١- ٤٠هـ /٦٢٢- ٦٦٠ م . وكان الصحابة (رضوان الله عليهم) هم الجيل الأول من المسلمين ، لهم المكانة الخاصة التي لم يصل إليها سواهم من الأجيال اللاحقة ، وذلك بحكم سابقتهم في الإسلام ، ودورهم في مرحلة التأسيس ، وصحبتهم لرسول الله ﷺ . وقد ظهرت مقولات كثيرة تتعلق بهذا الجيل في القديم والحديث ، كما وردت تفسيرات لبعض آي القرآن الكريم تتعلق بهم ، بجانب أحاديث نبوية ، أو أحاديث منسوبة إلى النبي ﷺ . وكان من أبرز ما قيل عن جيل الصحابة ما كتبه سيد قطب رحمه الله ، حيث خصص لهم فصلا من كتابه الأشهر **معالم في الطريق** جعل عنوانه «جيل قرآني فريد» . وقد ذهب إلى أن ذلك الجيل كان «جيلا مميزا في تاريخ الإسلام كله ، وفي تاريخ البشرية جميعه ،» خرجته الدعوة الإسلامية ، «ثم لم تعد تخرج هذا الطراز مرة أخرى . . نعم وجد أفراد من ذلك الطراز على مدار التاريخ ؛ ولكن لم يحدث قط أن تجمع مثل ذلك العدد الضخم في مكان واحد ، كما وقع في

الفترة الأولى من حياة هذه الدعوة .[١]» وفي تفسيره لهذه «الظاهرة» عزاها إلى اعتماد الجيل الأول على القرآن وحده مصدرا يهدي عقيدتهم وسلوكهم : «كان القرآن وحده إذن هو النبع الذي يستقون منه ، ويتكيفون به . . . ثم ما الذي حدث؟ إختلطت الينابيع! صبت في النبع الذي استقت منه الأجيال التالية فلسفة الإغريق ومنطقهم ، وأساطير الفرس . . . وما من شك أن اختلاط النبع الأول كان عاملا أساسيا من عوامل ذلك الاختلاف الواضح بين الأجيال كلها وذلك الجيل المميز الفريد[٢] .» وبجانب هذا العامل الأول كان هناك عامل آخر [والكلام مازال لسيد قطب] يتعلق بمنهج التلقي إذ لم يكونوا يتلقون القرآن للتذوق أو الثقافة ، بل كان تلقيهم القرآن للتنفيذ ، كان الواحد من ذلك الجيل «يتلقى القرآن ليتلقى أمر الله في خاصة شأنه وشأن الجماعة التي يعيش فيها . . . منهج التلقي للتنفيذ والعمل هو الذي صنع الجيل الأول ، ومنهج التلقي للدراسة والمتاع هو الذي خرج الأجيال التي تليه[٣] . «أما العامل الثالث الذي أبرزه وأضافه سيد قطب رحمه الله فقد بينه بقوله : «لقد كان الرجل حين يدخل في الإسلام يخلع على عتبته كل ماضيه في الجاهلية . . . وكان هناك انخلاع من البيئة الجاهلية وعرفها وتصورها ، وعاداتها وروابطها [٤] . .»

لا مراء في أن أفرادا من صحابة رسول الله ﷺ ، ورضي عنهم أجمعين ، قد ارتفعوا بصدقهم وإخلاصهم وولائهم لله ورسوله والمؤمنين إلى هذه القمة السامقة التي وصفها سيد قطب أو إلى ما يقرب منها ، بيد أن هذا الوصف لا يندرج على الجيل كله ، ولا على كل فرد ممن عدوا من الصحابة ، ولا على أغلبيتهم . لقد كان الصحابة كلهم أفرادا من البشر ، من بني الإنسان ، كما كان محمد ﷺ إنسانا ، وبشرا قبل أن يصير رسولا ؛ وظل بشرا وإنسانا بعد أن صار رسولا ؛ وكان الجيل كله جيلا من البشر ، لا جيلا من الملائكة . وقد وصف الرسول الناس عامة بقوله : «كل الناس خطاؤن ، وخير الخطائين التوابون .» ومن هذه الصفة البشرية كانت

(١) سيد قطب ، ***معالم في الطريق*** (القاهرة : مكتبة وهبة ، الطبعة الأولى ، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م) ، ص١٣ .

(٢) ***المصدر نفسه*** ، ص ١٦ –١٧ .

(٣) ***المصدر نفسه*** ، ص ١٧ – ١٩ .

(٤) ***المصدر نفسه*** ، ص ٢٠ – ٢١ .

الاختلافات التي وقعت بين أفراد ومجموعات من الصحابة ، ونتجت عنها مشادات ، ونزاعات حادة أحيانا ، كما كان بينهم قتال ومعارك واسعة سقط فيها آلاف من القتلى ، ؛ كما أن أفرادا من الصحابة ظهرت منهم مواقف وحالات من السلوك لم يحمدها محمد ﷺ ، ولم يرضها منهم كبار الصحابة ، وذلك كله سلوك بشري ، وإن كان سلوكا غير مثالي .

ففي السنوات العشر التي أمضاها الرسول في المدينة نمر بموضوع حديث الإفك[1] الذي شارك فيه عدد من الصحابة ، والذى آذى رسول الله وآذى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، إلى أن نزل القرآن بتبرئتها . وفي هذه الفترة أيضا نجد في كتب السيرة ، وفي كتب الحديث أيضا ، أن الصحابي الجليل أبا ذر (رضي الله عنه) قد عير صحابيا آخر بأمه ، فلامه رسول الله ﷺ وقال له : «أسابيت فلانا؟» قلت نعم . قال : «أنلت من أمه؟» قلت : نعم ، قال : «إنك امرؤ فيك جاهلية» .[2] ومن ذلك أيضا ما فعله حاطب بن أبي بلتعة ، وهو صحابي بدري ، حين كاتب أهل مكة عام الفتح ليخبرهم أن رسول الله ﷺ كان على وشك أن يبدأ الزحف على مكة ليفتحها ؛ أي أنه كشف لهم سرا عسكريا بالغ الخطورة ، وكان يمكن أن يلحق كشفه بالمسلمين أضرارا شديدة واسعة المدى . وقد بعث النبي من اعترض المرأة التي حملت الرسالة فلم تصل لأهل مكة ، وعاتب حاطبا على فعلته ؛ بينما وصف عمر ابن الخطاب حاطبا بـ «المنافق» ، فرد الرسول ﷺ على عمر بقوله : «إنه قد شهد بدرا ؛ وما يدريك لعل الله ا طلع على من شهد بدرا ، قال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم .» وبشأن هذه الحادثة نزلت سورة الممتحنة ، وأول آياتها قول اللـه جل شـأنه : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق ، يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم . . .﴾ ، وآخرها : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم ، قد يئسوا من الآخرة

(١) وقد ورد ذكره في سورة النور ، الآيات رقم ١١ إلى ٢٠ ؛ كما ورد ذكره في ***صحيح البخاري*** ، كتاب المغازي ، باب حديث الإفك ، ص ٣٣٩ - ٣٤١ ، وكان بعض الذين شاركوا في مقالة السوء من الصحابة ، ومنهم بعض البدريين ؛ وقد ورد الموضوع في كتب السيرة كلها .

(٢) ***صحيح البخاري*** ، كتاب الإيمان ، ص ٤ ، حديث رقم ٣٠ ، وكتاب العتق ، ص ٢٠٠ ، حديث رقم ٢٥٤٥ ، وكتاب الأدب ، حديث رقم ٦٠٥٠ ، ص ٥١١ .

كما يئس الكفار من أصحاب القبور .[1] ﴾ ولست أزعم أن المدلول العام لتوجيهات هذه الآية خاص بتلك الحادثة وحدها ، بل إنه مبدأ عام التطبيق في كل عصور الإسلام الماضية واللاحقة ، لأنه يأمر بعدم التعاون مع العدو الذي يريد الإضرار بالأمة كلها ، ويمارس سلوكا ضد مبادئ العدل كلها .

ونقرأ في كتاب الله تعالى : ﴿ . . . وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما ؛ قل : ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة ، والله خير الرازقين . ﴾ الجمعة/١١ . أي أن بعض الصحابة كانوا ينفضون عن الرسول بينما كان يدرسهم ويعظهم ويوجههم في المسجد ، ويذهبون لممارسة التجارة .

وهناك مزيد من الأمثلة التي حدثت في عصر رسول الله ﷺ ، لا أريد أن أطيل القائمة بها ، لأنني لم أقصد الاستقصاء ؛ وهي موجودة في المصادر . أما بعد غياب رسول الله ، وفي عصر الصحابة ، فقد وقعت كوارث ، سوف نمر ببعضها في الفصول التالية .

وعندما غيب الموت رسول الله ﷺ كادت تحل بالمجتمع الإسلامي الوليد كارثة ماحقة ؛ لقد وجد الصحابة أنفسهم أمام موقف لم يتوقعوه ، ولم يستعدوا له ، ولم تكن لديهم معرفة أو خبرة فيما ينبغي أن يفعلوه . فبينما كان الرسول بين ظهرانيهم ، كان هو المبلغ ، وهو البشير النذير ، وهو المرشد والموجه ؛ كذلك فقد كان هو القائد رئيس المجتمع والدولة الناشئة ، لم يختره الناس ، وإنما اختاره الله وبعثه إليهم ليرشدهم ويقودهم . لقد أدرك المسلمون أنهم بحاجة إلى قائد يخلف رسول الله ﷺ ، ليس في نبوته ، ولكن في قيادته المجتمعية المدنية . وهنا فوجئوا بالخلاف يبرز بينهم . وقد نقل البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله : « . . . الأنصار خالفونا ، واجتمعوا بأسرهم في سقيفة بني ساعدة ، وخالف عنا علي والزبير ومن معهما ، واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر ، فقلت لأبي بكر : . . . انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار . . . فانطلقنا حتى أتيناهم في سقيفة بني ساعدة ، فإذا رجل مزمل بين ظهرانيهم . . . [وهو] سعد بن عبادة . . . « وبعد أن تكلم أحد الأنصار يذكر أحقيتهم

---

(١) ***القرآن الكريم*** ، سورة الممتحنة ؛ وانظر ***صحيح البخاري*** ، كتاب الجهاد ، باب الجاسوس والتجسس . . . ، حديث رقم (٣٠٠٧) ، ص ٢٤١ ، وقد ورد الحديث نفسه في ستة مواضع أخرى من صحيح البخاري .

بالخلافة ، ورد أبو بكر رضي الله عنه بكلام رقيق ، لم يلبث الجدال أن اشتد حتى قال أحد الأنصار : «أنا جذيلها المحكك ، وعذيقها المرجب ، منا أمير ومنكم أمير ، يا معشر قريش . فكثر اللغط ، وارتفعت الأصوات ، حتى فرقت من الاختلاف ، فقلت : أبسط يدك يا أبا بكر . . . فبايعته وبايعه المهاجرون ثم بايعه الأنصار ، ونزونا على سعد بن عبادة ، فقال قائل منهم : قتلتم سعد بن عبادة ، فقلت : قتل الله سعد بن عبادة .(١) .» وسعد بن عبادة كان من كبار صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وبعد ذلك بايع عامة المسلمين أبا بكر ، وانتهت الأزمة (٢) . وقد تخلف عن البيعة عدد قليل ، كان منهم سعد بن عبادة ، زعيم الخزرج ، كما تأخر عن البيعة علي ابن أبي طالب رضي الله عنه ، وتخلف بنو هاشم ، والزبير بن العوام ، واستمر بعضهم على ذلك ستة أشهر حتى بايعوه (٣) . والذي يبرز أمامنا واضحا في هذه الأزمة ما يلي :

أولا : وجدت الأمة الناشئة نفسها تواجه فراغ السلطة في مركزها الأعلى ، رئاسة الدولة والمجتمع ،

ثانيا : تطلع عدد من الشخصيات القيادية والكتل القبلية والعشائرية للاستئشار بالمنصب ، ورأى كل منهم أنه الأحق به ،

ثالثا : وصل الأمر ببعضهم إلى التهديد باللجوء إلى العنف والقتال واستنهاض المثل القبلية ، بينما مال الطرف الآخر إلى اللين والرقة والحوار ، وكان ذلك هو المخرج الناجح ،

رابعا : لم يقبل بعض المتنافسين بالنتيجة ؛ وعبروا عن موقفهم بالانزواء والمقاطعة ، واستمر بعضهم على ذلك ستة أشهر ،

خامسا : وكان ذلك كله سلوكا بشريا نشاهد مثله اليوم ، في القرن الحادي والعشرين ، حتى في الدول الحديثة والأكثر ديمقراطية .

---

(١) ***البخاري*** ، كتاب الحدود ، ، ص ٥٦٩ ، حديث رقم (٣٨٣٠) .

(٢) إبن الأثير ، ***الكامل في التاريخ*** ، المجلد الثاني ، ص٣٢٥ – ٣٣١ .

(٣) ***المصدر نفسه*** ، والصفحات ذاتها .

الأحداث الرئيسية في خلافة أبي بكر الصديق:

تولى أبو بكر رضي الله عنه الخلافة في فترة حرجة ، سواء من ناحية الأجواء التي عمت جزيرة العرب بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو بعد ما لقيه جيش المسلمين في مؤتة ، وما تزامن مع ذلك من حركة الأسود العنسي في اليمن ؛ هذا بالإضافة إلى النزاع الذي نشب بشأن خلافة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد وفاته . وقد تضاعفت الخطورة عندما انتشرت حركة الردة من أطراف الحجاز إلى نجد والبحرين وعمان وحضرموت واليمن . ويبدو لي أن أبا بكر قد أدرك هذه الخطورة بكل أبعادها ؛ وعلى ضوء هذا الأدراك صمم على اتباع توجه عام ، أو سمه خطة عامة ، أو «استراتيجية شاملة» على أن يشرع بتنفيذها فورا . لقد أدرك أبوبكر أن وفاة الرسول قد بعثت الآمال في قلوب الكثيرين من قبائل الأعراب في أن يعيدوا الأمور إلى ما كانت عليه قبل الإسلام ، وأن ينقضوا البناء الذي أقامته رسالة الإسلام . لقد ربطوا ما أنجز كله بشخصية النبي فردا ؛ وها هي قد غابت من الميدان ؛ فالفرصة أصبحت سانحة . ولا مراء في أن أبا بكر أدرك أهمية الوقت ، وأهمية المفاجأة بإظهار القوة والتصميم بينما الآخرون ما زالوا في طور التفكير والتدبير . وهكذا أمر بأن يسير الجيش الذي كان مرابطا خارج المدينة وتأخر تحركه نحو أطراف الشام بسبب مرض النبي صلى الله عليه وسلم . وقد بدا الخليفة مصمما على تنفيذ ما أبرمه ، حيث رفض كل الاعتراضات ومحاولات الإقناع من جانب عدد من الصحابة الذين دعوه للإحتفاظ بذلك الجيش للدفاع عن المدينة في حالة تعرضها لهجوم الأعداء ؛ وقد احتج الخليفة بأنه لن ينقض ترتيبا أبرمه رسول الله . وبعد ذلك سارع أبو بكر بتوجيه القوات المتوفرة لديه إلى محاربة المرتدين ، فكانت هذه الحركة السريعة رادعا قويا لمن كانوا يفكرون بالانقضاض على دولة الإسلام الناشئة . ومع تحقيق الانتصارات الأولية تراجعت آمال المرتدين قبيلة بعد قبيلة ، وتم القضاء على الردة . وفي السنة الثانية من خلافته ،سنة إثنتي عشرة للهجرة وجه الخليفة خالدا بن الوليد على رأس جيش لمجابهة القوات الساسانية في جنوب العراق . وقد جاء هذا التحرك استجابة لطلب من زعيم بني شيبان ، المثنى بن حارثة على أثر اشتباكات وقعت بين الشيبانيين والقوات الساسانية . وبهذا التحرك بدأت عملية فتح العراق وتحريره ؛ وما أن حلت سنة ثلاث عشرة للهجرة حتى وجه أبو بكر الجيوش إلى الشام متابعة لما حدث من حركة بدأت بغزوة مؤتة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم بالحملة التي قادها أسامة بن زيد بعد ولاية أبي بكر مباشرة .

لقد أدرك أبو بكر أن الكيان الإسلامي الجديد كان مهددا ومحاصرا بقوى إستعمارية غاشمة : الدولة الساسانية من جهة الشرق ، والإمبراطورية البيزنطية من ناحية الشمال ، وأن تلكما القوتين الاستعماريتين لم تكونا تسمحان باستمرار نمو الدولة الإسلامية ، واستقرار سيطرتها على القبائل العربية في مختلف نواحي شبه جزيرة العرب .

وعندما أحس أبو بكر بدنو أجله انتابه الخوف من أن يقع بين المسلمين نزاع على الرئاسة مثلما حدث في سقيفة بني ساعدة قبل ذلك بسنتين ، على أثر وفاة النبي صلوات الله وسلامه عليه ؛ بل لقد أدرك أن الخطر المحدق بالأمة الناشئة لم ينحصر في إمكان تكرار ما حدث يوم السقيفة ، بل كان أكبر من ذلك بكثير ؛ فقد كانت الدولة الإسلامية مشتبكة في حروب شاملة مع أكبر إمبراطوريتين في العالم آنذاك ، وكان المسلمون يحاصرون دمشق . لكل ذلك أخذ الخليفة يتصل بالشخصيات النابهة في مجتمع المدينة ويستشير كل واحد منهم في شأن من يرى أنه الأصلح لتولي قيادة الأمة بعده ؛ وكان يأمر كل واحد منهم بكتمان خبر الاتصال والاستشارة ، إلى أن استقر رأيه على عمر بن الخطاب ، حيث اتفق تقديره مع تقدير من استشارهم ؛ وإذ ذاك أعلن اختياره وترك لجمهور الصحابة حق الموافقة أو الرفض ، وتمت الموافقة بالمبايعة المباشرة بالأيدي ؛ وتولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه دفة القيادة .

الأحداث الرئيسية في خلافة عمر بن الخطاب:

بدأت خلافة عمر في منتصف سنة ثلاث عشرة للهجرة بينما كانت المعارك مستعرة على الجبهتين الشامية والعراقية ؛ وقد تواصلت الحرب في هذين الميدانين وتم طرد الروم البيزنطيين من بلاد الشام ، حيث فتح المسلمون دمشق سنة أربع عشرة ، وأتبعوها بحمص وبعلبك . وقد فتحت القدس سنة ست عشرة ، وسافر عمر بنفسه إلى القدس ليتسلمها وليعطي عهدا لسكانها . ثم تواصل فتح مناطق بلاد الشام بعدذلك حتى استقر خط الحدود نسبيا ، بين الدولة الإسلامية والدولة البيزنطية الرومانية ، عند السفوح الجنوبية لجبال طورس . أما في الجبهة الشرقية ، في العراق وما بعده شرقا ، فقد حقق المسلمون انتصارات كبيرة حيث استولوا على المدائن وطاردوا الساسانيين في معارك القادسية وجلولاء وقضوا على آخر معاقلهم .

وقد اتسعت الدولة الإسلامية في عهد عمر اتساعا كبيرا ، وتدفقت أموال

الغنائم ، وتغيرت كثير من نواحي حياة الناس ، فأصبح لا بد من إدخال عدد من التنظيمات والتجديدات ، فكان بعضها بالاجتهاد الذاتي والبعض الآخر بالاستعارة . وكان مما أدخله عمر من تجديدات إنشاء التقويم الهجري ، حيث اتخذت السنة التي هاجر فيها رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة سنة البداية (١ هجرية) ، وهي سنة ٦٢٢ بالتقويم الميلادي . وكان مما أنشأه عمر أيضا «الديوان» ، والكلمة تعني السجل ، حيث أنشئ سجل عام ادخلت فيه أسماء الناس ليوزع عليهم العطاء ، وهو مبلغ مالي يدفع بانتظام حسب مواقيت محددة . وكان من اجتهاد عمر في ذلك أنه أنشأ نظاما تفاضليا تنازليا ، كان في قمته أقارب رسول الله ﷺ ، وذوو السابقة والإنجازات الكبيرة ، ثم من دونهم ودونهم . ويبدو أنه غير وجهة نظره بعد التجربة ، حيث روي عنه أنه قال : «لو استقبلت من أمري ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء ورددتها على الفقراء ،» وذلك لأن النظام التفاضلي أدى إلى ظهور أشخاص أثرياء بفارق كبير عمن دونهم ؛ بيد أن عمر توفي قبل أن يتمكن من تعديل الوضع الإقتصادي كما فكر . وكانت وفاة عمر اغتيالا بيد شخص عرفته المصادر بأنه أبو لؤلؤة المجوسي . وبينما كانت جروح عمر تنزف دما وباتت وفاته متوقعة وشبه مؤكدة أهمه أمر المسلمين من بعده ، فشكل لجنة من ستة أشخاص أوكل إليهم انتخاب احدهم ليكون الخليفة رئيس الدولة . ومن غير إطالة في مداولات اللجنة والظروف التي أحاطت بها فقد انتهت الخلافة إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فتولاها في الثالث من محرم سنة أربع وعشرين للهجرة .

الفصل الثاني

التصدع السياسي والاجتماعي
في عصر الفتوة والقوة

خلافة عثمان ابن عفان رضي الله عنه :

إذا كان عثمان قد ولد بعد عام الفيل بخمس سنوات - كما ذكر السيوطي - فإن عمره يوم تولى الخلافة كان ثلاثا وسبعين سنة . وحيث أن حكمه استمر اثنتي عشرة سنة (أول ٢٤هـ إلى آخر ٣٥ هـ) فإنه يكون قد بلغ الخامسة والثمانين عند وفاته . ومن المألوف من حياة الناس في هذه السن أن الشخص الذي يمتد به العمر إلى هذا الحد تنتابه عوارض الضعف التي تتفاوت وتختلف بين شخص وآخر ، وأقل نتيجة لذلك أنه يصبح بحاجة إلى من يساعده في أيام حياته العادية . وعلى ضوء ذلك يمكننا القول بكل تأكيد أن عثمان رضي الله عنه كان بحاجة إلى من يساعده ، مثل غيره من المعمرين الذين مد الله سبحانه وتعالى في أعمارهم إلى هذا الحد . يضاف إلى ذلك أن قدرة المعمر على التركيز ، وعلى متابعة ما يدور حوله ، والأشخاص الذين يتعاملون معه تصبح أضعف بكثير ممن هم في سن الستين ، مثلا . وهذا الذي نقوله حقائق بديهية لا تحتاج إلى كثير علم ، يعرفها المتعلمون والأميون .

وفي تلك الفترة من حياة الدولة الإسلامية لم تكن هناك إدارات حكومية أو نظام لوجود موظفين حكوميين ، ولا حتى معاونين لمن يتقلد السلطة العليا ؛ هذا فضلا عن أن الجزيرة العربية كانت تفتقر إلى أقل درجات الخبرة والمعرفة بالحياة السياسية والإدارية إذ كان النمط القبلي البدوي هو السائد . وقد تواصل توسع وامتداد رقعة الدولة الإسلامية والأقاليم التابعة لها ، وتضاعفت أعداد الناس مرات ومرات ، وتضاعفت وتيرة الحركة والتدافع ، وتدفقت الأموال من غنائم الحروب ، ونشطت حركة التجارة وتضخمت أحجامها ، كما أن مجتمع المدينة ومجتمع الحجاز عامة استقبل أعدادا كبيرة من الأفراد الذين قدموا من بيئات وعرقيات مختلفة ، وكانوا

يعرفون باسم الموالي ، أو الغلمان ، أو العبيد ، وقد ازدادت أعدادهم نتيجة للثراء والسعة التي توفرت لكثيرين من سكان المدينة ، وسكان مكة ، وغيرهما من المدن ، وصار من المألوف أن تجد عند شخص واحد مئة من الغلمان ، أو أكثر ؛ كما انتشر اقتناء الجواري ، وتوسع الأغنياء في ذلك . يضاف إلى كل هذا أن بعض الإرث الثقافي والاجتماعي من عصر الجاهلية استمر ، ولم يغب نهائيا . وبمجرد أن تولى عثمان رضي الله عنه لم يعد شخصا عاديا ، ولم تعد احتياجاته للمعاونة مقتصرة على مطالبه الشخصية ، بل انضافت إليها مسئوليات جسام ، وأعباء يومية كثيرة . فإذا أدركنا ذلك ، واحتفظنا بهذا الإدراك ونحن نحاول أن نستعيد المواقف والمشاهد التي واجهها وعاشها الخليفة الثالث ، وعاشها المجتمع ، فإن هذا الإدراك يجعلنا أقدر على فهم ما جرى ؛ وهو المفتاح الضروري للوصول إلى الفهم الصحيح .

وهكذا صار عثمان رضي الله عنه يعتمد على أقربائه في ممارسة أعباء المسئولية التي حملها منذ توليه الخلافة ، خاصة في داره التي كان يمارس منها سلطته . وهنا أيضا نتذكر أنه لم يكن هناك قصر جمهوري ، أو بيت حكومي للخليفة ، ولم تكن مثل هذه الإدارة معروفة مجرد معرفة ، ولم تكن تخطر على بال أحد . ولقد كان الحال كذلك في زمن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، لكنهما كانا في أوائل الستينات من العمر ، يتمتعان بقدرات بدنية وذهنية وعصبية أفضل ، بحكم فارق السن .

لقد كان عثمان من بني أمية ، ولكنه كان من كبار الصحابة وذوي السابقة في الإسلام ، وله تاريخ طويل من التضحية والبذل والعطاء في سبيل الله ، وتأييدا لمعلمه واستاذه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعلى هذا الأساس آل إليه منصب الخلافة ، وليس لكونه أمويا . غير أن بني أمية لم يفهموا الأمر على هذا النحو ؛ لقد اعتبروا أن فرصتهم قد حانت ، وأن عليهم ألا يضيعوها . وكما نعرف من قراءتنا لسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كان أكثر بني أمية معادين لدعوة الإسلام وحركته الناشئة ، سواء في مكة قبل الهجرة أو في السنوات التي امتدت من بدء الهجرة إلى أن تم فتح مكة سنة ثمان هجرية . وفي المعارك التي دارت أثناء فترة الصراع قتل عدد غير قليل من زعامات بني أمية ، خاصة في معركة بدر الكبرى في السنة الثانية للهجرة . وبانتصار الإسلام فقد بنو أمية زعامة مكة ، كما أنهم تجرعوا غصص الهزيمة والإذلال ، وظلت نفوس الكثيرين منهم تختزن مشاعر الرغبة في الانتقام ؛ وتلك كانت العادات في العصر الجاهلي ، بل وما تزال عند بعض الناس حتى في عصرنا . ولا مراء في أن رسول الله

قد عمل على تأليف القلوب وإزالة الأحقاد ، واعتبر أبا سفيان وأبناءه من المؤلفة قلوبهم ، وأعطاهم شيئا من التقدير المعنوي والمادي المؤقت . بيد أن ذلك لا يمكن أن يكفي لإزالة الجروح العميقة ، والأحقاد التي خلفتها الهزائم والقتلى والخسائر ، إلا إذا كان الشخص المعني قد امتلأ قلبه بالإيمان ، وشعر بالندم والأسف لما مضى من مواقفه ، وأحل الشعور بأخوته للمسلمين ، وولائه لله ولرسوله وللمؤمنين . ولقد كان الحكم بن أبي العاص – والد مروان بن الحكم – مطرودا بعد أن حاول الإقامة في مدينة رسول الله ، فطرده النبي ، فأقام في الطائف ؛ ولم يسمح أبو بكر أو عمر بتغيير موقف الخلافة من الحكم ؛ فظل مطرودا إلى ما بعد انتهاء خلافة أبي بكر وانتهاء خلافة عمــر رضي الله عنهما ، وهي فترة تصل إلى سبع وثلاثين سنة .

لقد امتدت خلافة أمير المؤمنين عثمان ﵁ اثنتي عشرة سنة كما أشرنا ، كانت السنوات الست الأولى منها هادئة نسبيا ، وقد تواصلت أثناءها حركة الفتح واستكمال السيطرة على الأقاليم الساسانية السابقة ، والقضاء على بقايا مقاومة الأكاسرة وأتباعهم ؛ بينما استقر الوضع نسبيا على خطوط المواجهة مع الدولة الرومانية (البيزنطية) على السفوح الجنوبية لجبال طورس ؛ كما استمر المسلمون في مهاجمة الروم في شمال أفريقيا ؛ وقد تغير هذا الوضع ، في النصف الأخير من ولاية أمير المؤمنين عثمان .

الطريق إلى الأزمة:

بعد تولي أمير المؤمنين عثمان ﵁ الخلافة تتابعت الأحداث على النحو التالي :

١) في سنة ٢٥هـ ، أو ٢٦هـ ، عزل أمير المؤمنين عثمان ﵁ سعد بن أبي وقاص ﵁ ، عن ولاية الكوفة ، وعين بدلا منه الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، وهو أخو الخليفة لأمه ؛ فكان هذا مما أثار الحيرة في بعض النفوس . وسعد بن أبي وقاص ، الوالي المعزول ، لم يكن مجرد وال ، فقد كان من كبار الصحابة ، ومن العشرة المبشرين بالجنة ، ومن البدريين ، وبجانب ذلك فقد كان هو الذي قاد المسلمين في معركة القادسية التي ألحقت الهزيمة الساحقة بالإمبراطورية الساسانية ، وحررت العراق من سيطرتها ؛ ليس هذا فحسب ، بل إن سعد بن أبي وقاص هو الذي أنشأ الكوفة ، أو «مصرها» ، بالتعبير الذي اوردته المصادر ،

وذلك بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه [1] . أما الوالي الجديد ، الوليد بن عقبة بن أبي معيط فكان ممن آل أمره إلى الإسلام بعد فتح مكة ؛ وكان أبوه عقبة بن أبي معيط أحد أشد أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولم يلبث الوليد أن اتهم بأنه صلى بالناس الصبح أربع ركعات ، ولما نبه قال : هل أزيدكم ، وشهد عليه بأنه كان سكرانا ، وقد استدعاه الخليفة وأقام عليه حد الخمر ، وعزله عن الولاية وعين بدلا منه أمويا آخر .

٢) وفي سنة ٢٧هـ عزل عثمان رضي الله عنه عمرو بن العاص عن ولاية مصر ، وولى عليها عبدالله بن سعد بن أبي سرح . والوالي المعزول هو قائد الحملة التي فتحت مصر ، وكان قد أسلم سنة سبع للهجرة . أما عبدالله بن سعد بن أبي سرح فهو أخو الخليفة من الرضاعة ، وكان قد أسلم ثم ارتد عن الإسلام ، وهرب من المدينة إلى مكة قبل الفتح . ويوم فتح مكة أهدر رسول الله صلى الله عليه وسلم دمه ، ولكن عثمان رضي الله عنه تشفع له عند رسول الله ، وألح في شفاعته حتى أحرج النبي ؛ وقد تأخر الرسول صلى الله عليه وسلم في الاستجابة لشفاعة عثمان متعمدا «رجاء أن يقوم له بعض الصحابة فيقتله» ، [أي يقتل ابن أبي سرح] لكن أحدا لم يقم بذلك . وكلف عثمان رضي الله عنه والي مصر الجديد ، إبن أبي سرح ، بغزو أفريقية ، وأعطاه الحق في أخذ خمس الخمس من الغنائم لنفسه . وزيادة على الغنائم كان هناك الفيء ، فقد أجبر الحاكم البيزنطي لإقليم شمال إفريقيا على دفع ألفي ألف وعشرين ألف دينار صلحا ؛ وتذكر المصادر أن عثمان رضي الله عنه أعطى هذا المبلغ كله لآل الحكم ، وفي رواية أخرى لآل مروان ، في يوم واحد ، وهم من عشيرته الأمويين ، والمضمون واحد ، لأن مروان هو ابن الحكم [2] .

٣) وفي سنة ٢٩ هـ عزل أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه أبا موسى الأشعري عن البصرة ،

---

(١) ياقوت الحموي ، ***معجم البلدان*** ، مجلد ٤ ، ص ٤٩٠ – ٤٩٣ ؛ اليعقوبي ، ***كتاب البلدان*** ، ص٣٦٠ – ٣٦١ ؛ الطبري ، ***تاريخ*** . . . ، مجلد ٢ ، ص ٤٧٧ (أحداث سنة ١٧ هـ) ٤٨٢ .

(٢) محمد بن قيم الجوزية ، ***زاد المعاد في هدى خير العباد*** ، ص ٥٢٥ ؛ إبن كثير ، ***البداية*** ، ج٧ ، ص١٢٢ .

بعد أن أمضى في ولايتها ست سنوات ، أو ثلاث سنوات - حسب رواية أخرى - وعين بدلا منه عبدالله بن عامر بن كريز ، وهو ابن خال عثمان رضي الله عنه ، ومن بني عبدشمس أبناء عمومة الأمويين .

٤) وفي سنة ٢٩ هـ حج أمير المؤمنين عثمان ، وضرب فسطاطا (خيمة) بمنى ، وأتم الصلاة دون قصر ، خلافا لما فعله رسول الله وفعله الخليفتان الأول والثاني . وقد أنكر عليه عدد من الصحابة هذه الممارسة ، وناظره في ذلك عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه ، وانتهت المناظرة بقول الخليفة : «إنما هو رأي رأيته» ، أي اجتهاد شخصي .

٥) وبهذه التعيينات ، في الولايات الرئيسية ، اكتملت السيطرة الأموية على شئون الخلافة ، وعلى الدولة الإسلامية بصفة عامة . فقد أصبحت كل الولايات الرئيسية لأفراد من الأسرة الأموية ، يتزعمهم معاوية بن أبي سفيان والي بلاد الشام ، بينما كان مروان بن الحكم بجانب الخليفة ومعه في داره ، يساعده ، ويشير عليه ؛ كما كان موضع سره ، وذا تأثير عليه ، بينما كانت سن عثمان الخليفة قد تجاوزت الثمانين . وكان من الطبيعي ، وهو في هذه السن ، أن يعتمد على مروان اعتمادا كبيرا ، وأن يترك له التصرف في كثير من الأعمال التي لا يقوى الخليفة نفسه على القيام بها ، أو على متابعتها ؛ فانطلق مروان ينفذ المخطط الأموي ، دون علم عثمان ، وخلافا لما أمر به ، كما سنرى في الصفحات التالية .

٦) عندما جاء وفد مسلمي مصر إلى المدينة يشكون إلى الخليفة ، وإلى كبار الصحابة ، مما كانوا ينكرونه من تصرفات الوالي عبدالله بن سعد بن أبي سرح ، وافق الخليفة على أن يعين لهم واليا جديدا هو محمد بن أبي بكر الصديق . لكن مروان بن الحكم قام بإجراء مضاد يوقف عمليا ما أمر به الخليفة ، ويزيد الموقف تعقيدا ؛ **فقد زور رسالة باسم الخليفة ووضع عليها خاتمه ، تأمر ابن أبي سرح بقتل زعماء الوفد ، والبقاء في منصبه ، والتنكيل بكل من ينتقده ، وتجاهل الرسالة التي تحمل قرار عزله** . وعندما اكتشف الخطاب المزور انفجرت المواقف في اتجاه العنف .

٧) وفي سنة ثلاثين للهجرة ظهرت إعتراضات أبي ذر رضي الله عنه على تصرفات معاوية بن أبي سفيان بالمال العام ؛ وبعد ذلك ظهرت اعتراضات قيادات المسلمين في الكوفة والبصرة ، على تصرفات الولاة الأمويين .

٨) يضاف إلى ذلك أن عثمان رضي الله عنه كان قسى على عدد من كبار الصحابة : عبدالله بن مسعود ، وأبي ذر ، وعمار بن ياسر ، فكانت بنو هذيل وبنو زهرة غضبى لما تعرض له عبدالله ابن مسعود ، كما كانت بنو غفار مستاءة لما حل بأبي ذر ، بينما كانت بنو مخزوم ساخطة لما تعرض له عمار بن ياسر . وقد تفاقم هذا الوضع عندما جاء جماعة من زعماء المسلمين في مصر يشكون واليها عبدالله بن سعد بن أبي سرح ، كما مر معنا قبل قليل . ورغم الشكوى ، وتهديد الخليفة فإن ابن أبي سرح لم يلتزم بتعليمات عثمان رضي الله عنه ، بل إنه عاقب من قدموا الشكوى ضده فضرب أحدهم حتى قتله . وهنا تصاعدت الأزمة إلى مستوى أشد خطورة . ثم جاء تزوير مروان رسالة باسم الخليفة موجهة إلى والي مصر – كما أشرنا – فكان القشة التي قصمت ظهر البعير ، كما يقول المثل العربي القديم .

وتوثيقا لهذه المعلومات التي أوردناها باختصار يجمل بنا أن نستعرض عددا من الوثائق التي احتفظت بها المصادر ، بحيث تضيف عنصر توثيق قوي . ولقد اخترت ثلاثا من هذه الوثائق منقولة عن ثلاثة من أهم الشسخصيات من بين علماء عصر التابعين : سعيد بن المسيب المخزومي ، ومحمد بن مسلم الزهري – وكلاهما قرشي – وعامر الشعبي ، وهو يماني الأصل ، من همدان ، وممن استوطن أهله الكوفة ؛ والثلاثة من الرواة الذين اعتمدهم البخاري في **الجامع الصحيح** . فأول الوثائق إذن مروية عن سعيد بن المسيب المخزومي ، المتوفي سنة ٩٤ هـ ؛ وقد كان عمره حوالي عشرين سنة عندما وقعت أحداث سنة ٣٥هـ . ويوصف سعيد بن المسيب بأنه سـيد التابعين ، ويبدو لنا من خلال سيرته وما تذكره عنه مختلف المصادر أنه كان مثالا عاليا للتقوى والزهد والاستقامة . والتقرير الذي يمثل الوثيقة صدر عن سعيد بن المسيب ردا على سؤال وجهه إليه الزهري عن أحداث الأزمة التي ظهرت في عهد الخليفة الثالث . وقد وصلتنا هذه الوثيقة في مصدرين : **تاريخ دمشق** ، للحافظ أبي القاسم بن عساكر المتوفى سنة ٥٧١هـ ، كما وردت في **تاريخ الخلفاء** للأمام الحافظ جلال الدين السيوطي ، المتوفى ٩١١هـ .

أما الوثيقة الثانية فهي خلاصة قدمها **محمد بن مسلم الزهري** المتوفى سنة ١٢٤ هـ ؛ وقد أورد نصها الطبري . وكان الزهري من كبار التابعين ، وقد وصفه ابن

كثير بأنه أحد أعلام أئمة الإسلام ، تابعي جليل . فإذا انتقلنا إلى الوثيقة الثالثة فهي تمثل ما رواه عامر الشعبي عن بداية الخصومات التي ظهرت في مجلس والي الكوفة الأموي سعيد بن العاص بشأن الأراضي التي غنمها المسلمون من كسرى وكبار رجال دولته . **وعامر بن شراحيل الشعبي** وصف بأنه علامة أهل الكوفة ، وهو تابعي مشهور ، وكان إماما حافظا ، وقد توفي سنة ١٠٤ هـ . ورواة هذه الوثائق الثلاثة كانوا من مشاهير حفاظ الحديث ، وقد اعتمدهم البخاري ونقل عنهم الكثير ، كما أعتمدهم غير البخاري من أئمة المحدثين . وهذه الوثائق الثلاثة تبدو محايدة ، ومحتوياتها المعلوماتية تدل على ذلك .

وبجانب هذه الوثائق الثلاث لدينا أربع وثائق أخرى ، منها ثلاث رواها شخص واحد اسمه يزيد الفقعسي . وعندما قدم لنا الإمام الطبري الوثيقة الأولى من مرويات الفقعسي الثلاث وصفها بأنها مقولة المدافعين عن معاوية بن أبي سفيان ؛ ولذا فإن هذه الوثائق الثلاث تدخل ضمن هذا التصنيف ، ليس استنادا إلى قول الطبري فقط ، بل ولأن محتواها المعلوماتي وتوجه النص ، وما يسعى لإدخاله في عقل القارئ ، يدل على ذلك أيضا . أما الوثيقة الرابعة فهي نص مجتزأ من خلاصة رسالة من والي مصر ، عبدالله بن سعد بن أبي سرح ، موجهة إلى الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه . وهذه الوثيقة مع الوثائق الثلاث التي رواها يزيد الفقعسي تمثل وجهة النظر الأموية ، تبيض سمعة الأمويين وتشوه سمعة من يعتبرونهم خصومهم . وهكذا صار مجموع الوثائق التي عددناها سبعا ، وقد أضفت لها وثيقتين أخريين تتناولان نفس الموضوعات التي كانت موضع الخلاف . وهكذا فإننا سنقدم للقارئ تسع وثائق ، ثم نحاول تناول محتوياتها بشيء من التحليل والتعليق .

الوثيقة الأولى:

في رواية عن خلافة عثمان رضي الله عنه ، قال سعيد بن المسيب المخزومي القرشي (توفي سنة ٩٤هـ) يرد على أسئلة وجهها إليه الزهري :

«قتل عثمان مظلوما ، ومن قتله كان ظالما ، ومن خذله كان معذورا . فقلت : كيف كان ذلك؟ قال : إن عثمان لما ولي كره ولايته نفر من الصحابة ؛ لأن عثمان كان يحب قومه ، فولي الناس اثنتي عشرة سنة ، وكان كثيرا ما يولي بني أمية ممن لم يكن له مع رسول الله صلى الله عليه وسلم صحبة ؛ فكان يجيء من أمرائه ما ينكره أصحاب محمد ،

وكان عثمان يستعتب فيهم فلا يعزلهم ؛ وذلك في سنة خمس وثلاثين[1] [للهجرة] ، فلما كان في [السنوات] الست الأواخر [من ولايته] استأثر بني عمه فولاهم ، وما أشرك معهم [أحدا] ، وأمرهم بتقوى الله ؛ فولى عبدالله ابن أبي سرح مصر [2] ، فمكث عليها سنين ، فجاء أهل مصر يشكونه ويتظلمون منه . وقد كان قبل ذلك من عثمان هنات إلى عبدالله بن مسعود ، وأبي ذر ، وعمار بن ياسر ؛ فكانت بنو هذيل ، وبنو زهرة في قلوبهم ما فيها لحال ابن مسعود ، وكانت بنو غفار وأحلافها ومن غضب لأبي ذر في قلوبهم ما فيها ؛ وكانت بنو مخزوم قد حنقت على عثمان لحال عمار بن ياسر . وجاء أهل مصر يشكون من ابن أبي سرح ، فكتب إليه كتابا يتهدده فيه ، فأبى ابن أبي سرح أن يقبل ما نهاه عنه عثمان ، وضرب بعض من أتاه من قبل عثمان من أهل مصر ممن كان أتى عثمان فقتله [أي من بين أولئك الذين رجعوا إليه من المدينة لتصحيح تصرفاته] ؛ فخرج من أهل مصر سبعمئة رجل ، فنزلوا المسجد وشكوا إلى الصحابة في مواقيت الصلاة ما صنع ابن أبي سرح بهم ، فقام طلحة بن عبيدالله **فكلم عثمان بكلام شديد** ، وأرسلت عائشة رضي الله عنها إليه فقالت : تقدم إليك أصحاب رسول الله ﷺ وسألوك عزل هذا الرجل فأبيت؟ **فهذا قد قتل منهم رجلا ؛ فأنصفهم من عاملك** . ودخل عليه علي بن أبي طالب فقال : إنما يسألونك رجلا مكان رجل ، وقد ادعوا قبله دما ؛ فاعزله عنهم واقض بينهم ؛ فإن وجب عليه حق فأنصفهم منه . فقال لهم [عثمان] : إختاروا رجلا أوليه عليكم مكانه ، فأشار الناس عليه بمحمد بن أبي بكر ، فقالوا : استعمل علينا محمد بن أبي بكر ؛ فكتب عهده وولاه ، وخرج معه عدد من المهاجرين والأنصار ينظرون فيما بين أهل مصر وابن أبي سرح ؛ فخرج محمد ومن معه ، فلما كان على مسيرة ثلاثة أيام من المدينة إذا هم بغلام أسود على بعير يخبط البعير خبطا كأنه رجل يطلب [أي كانه يطارد شخصا هرب منه ، أو كأنه هو نفسه هارب ومطارد] . فقال له أصحاب محمد ﷺ : ما قصتك ، وما شأنك؟ كأنك هارب أو طالب ؛ فقال لهم : أنا غلام

---

(١) أي أن المعاتبة وعدم استجابة الخليفة لها حدثا سنة ٣٥ هـ .

(٢) عبدالله بن أبي سرح ارتد عن الإسلام في عهد رسول الله ، وهرب من المدينة إلى مكة ، وانضم لقومه ، وفي عام الفتح أمر الرسول بقتله ولو تعلق بأستار الكعبة ، لكنه تمكن من النجاة ؛ أنظر البلاذري ، ***فتوح البلدان*** ، ص ٤٥٨ – ٤٥٩ .

أمير المؤمنين ، وجهني إلى عامل مصر . فقال له رجل : هذا عامل مصر ، [مشيرا إلى محمد بن أبي بكر] . قال : ليس هذا أريد . وأخبر بأمره محمد بن أبي بكر ، فبعث في طلبه رجلا ، فجاء به إليه ، فقال : غلام من أنت؟ فأقبل مرة يقول : أنا غلام أمير المؤمنين ، ومرة يقول : أنا غلام مروان ، حتى عرفه رجل أنه لعثمان . فقال له محمد : إلى من أرسلت؟ قال : إلى عامل مصر ؛ قال : بماذا؟ قال : برسالة ، قال : معك كتاب؟ قال : لا ، ففتشوه فلم يجدوا معه كتابا . وكانت معه إداوة قد يبست فيها شئ يتقلقل فحركوه ليخرج ، فلم يخرج ، فشقوا الإداوة فإذا فيها كتاب من عثمان إلى ابن أبي سرح ؛ فجمع محمد من كان عنده من المهاجرين والأنصار وغيرهم ، ثم فك الكتاب بمحضر منهم فإذا فيه : إذا أتاك محمد وفلان وفلان فاحتل في قتلهم ، وأبطل كتابه ، وقر على عملك حتى يأتيك رأيي ، واحبس من يجئ إلي يتظلم منك ليأتيك رأيي في ذلك إن شاء الله تعالى .

فلما قرأوا الكتاب فزعوا وأزمعوا فرجعوا إلى المدينة . . . فجمعوا طلحة والزبير ، وعليا ، وسعدا ، ومن كان من أصحاب محمد ﷺ ، ثم فضوا الكتاب بمحضر منهم وأخبروهم بقصة الغلام وأقرأوهم الكتاب ، فلم يبق أحد من أهل المدينة إلا حنق على عثمان ، وزاد ذلك من كان غضب لابن مسعود وأبي ذر وعمار بن ياسر حنقا وغيظا ، وقام أصحاب محمد ﷺ فلحقوا بمنازلهم ، ما منهم أحد إلا وهو مغتم . . . وحاصر الناس عثمان سنة خمس وثلاثين ، وأجلب عليه محمد بن أبي بكر ببني تيم وغيرهم . فلما رأى ذلك علي بعث إلى طلحة والزبير وسعد وعمار ونفر من الصحابة ، كلهم بدري ، ثم دخل على عثمان ومعه الكتاب والغلام والبعير ، فقال له علي : هذا الغلام غلامك؟ قال : نعم ، قال : والبعير بعيرك؟ قال : نعم ، قال : فأنت كتبت هذا الكتاب؟ قال : لا ، وحلف بالله ما كتبت هذا الكتاب ، ولا أمرت به ، ولا علم لي به . قال له علي :

فالخاتم خاتمك؟ قال : نعم ، قال : فكيف يخرج غلامك ببعيرك وبكتاب عليه خاتمك لا تعلم به؟ فحلف بالله ما كتبت هذا الكتاب ، ولا أمرت به ، ولا وجهت هذا الغلام إلى مصر قط .

وأما الخط فعرفوا أنه خط مروان ، وشكوا في أمر عثمان وسألوه أن يدفع إليهم مروان ، فأبى ؛ وكان مروان عنده في الدار . فخرج أصحاب محمد ﷺ من عنده غضابا ، وشكوا في أمره ، وعلموا أن عثمان لا يحلف بباطل ، إلا أن قوما قالوا : لن

يبرأ عثمان من قلوبنا إلا أن يدفع إلينا مروان حتى نبحثه ، ونعرف حال الكتاب ، وكيف يأمر بقتل رجل من أصحاب محمد ﷺ بغير حق؟ فإن يكن عثمان كتبه عزلناه ، وإن يكن مروان كتبه على لسان عثمان نظرنا ما يكون منا في أمر مروان ؛ ولزموا بيوتهم . وأبى عثمان أن يخرج إليهم مروان ، وخشي عليه القتل . وحاصر الناس عثمان ومنعوه الماء ، فأشرف على الناس فقال : أفيكم علي؟ فقالوا : لا ، قال : أفيكم سعد؟ قالوا : لا ، فسكت ، ثم قال : ألا أحد يبلغ عليا فيسقينا ماء؟ فبلغ ذلك عليا ، فبعث إليه بثلاث قرب مملوءة ماء ؛ فما كادت تصل إليه ، وجرح بسببها عدة من موالي بني هاشم وبني أمية حتى وصل الماء إليه ؛ فبلغ عليا أن عثمان يراد قتله ، فقال : إنما أردنا منه مروان ، فأما قتل عثمان فلا ؛ وقال للحسن والحسين : إذهبا بسيفيكما حتى تقوما على باب عثمان فلا تدعا أحدا يصل إليه . وبعث الزبير ابنه ، وبعث طلحة ابنه ، وبعث عدة من أصحاب رسول الله ﷺ أبناءهم يمنعون الناس أن يدخلوا على عثمان . فلما رأى ذلك الناس رموا باب عثمان بالسهام حتى خضب الحسن بن علي بالدماء على بابه ، وأصاب مروان سهم وهو في الدار ، وخضب محمد بن طلحة ، وشج قنبر ، مولى علي . فخشي محمد بن أبي بكر أن يغضب بنو هاشم لحال الحسن والحسين فيثيروها فتنة ، فأخذ بيد الرجلين [كذا] فقال لهما : إن جاءت بنو هاشم فرأوا الدماء على وجه الحسن كشف الناس عن عثمان وبطل ما نريد ، ولكن اذهبوا بنا حتى نتسور عليه الدار فنقتله من غير أن يعلم به أحد ؛ فتسور محمد وصاحباه دار رجل من الأنصار حتى دخلوا على عثمان ولا يعلم أحد ممن كان معه ، لأن كل من كان معه كانوا فوق البيوت ، ولم يكن معه إلا امرأته . فقال لهما محمد : مكانكما ؛ فإن معه امرأته حتى أبدأكما بالدخول ، فإذا أنا ضبطته فادخلا فتوجآه حتى تقتلاه . فدخل محمد فأخذ بلحيته ، فقال له عثمان : والله لو رآك أبوك لساءه مكانك مني ؛ فتراخت يده [أي ترك لحيته] . ودخل الرجلان عليه فتوجآه حتى قتلاه ، وخرجوا هاربين من حيث دخلوا . وصرخت امرأته فلم يسمع صراخها لما كان في الدار من الجلبة ، وصعدت امرأته إلى الناس فقالت : إن أمير المؤمنين قد قتل ، فدخل الناس فوجدوه مذبوحا . وبلغ الخبر عليا ، وطلحة ، والزبير ، وسعدا ، ومن كان بالمدينة فخرجوا – وقد ذهبت عقولهم للخبر الذي أتاهم – حتى دخلوا على عثمان فوجدوه مقتولا . فاسترجعوا ، وقال علي لابنيه : كيف قتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب؟ ورفع يده فلطم الحسن ، وضرب صدر الحسين ، وشتم محمد بن طلحة ،

ولعن عبدالله بن الزبير ، وخرج وهو غضبان ، فلقيه طلحة فقال : مالك يا أبا الحسن ضربت الحسن والحسين؟ فقال : عليك وعليهما لعنة الله إلا أن يسؤني ذلك بقتل أمير المؤمنين]كذا ، ويبدو في النص اضطراب[، رجل من أصحاب محمد ﷺ ، بدري ، لم تقم عليه بينة ولا حجة . فقال طلحة : لو دفع مروان لم يقتل . فقال علي : لو أخرج إليكم مروان قتل قبل أن تثبت عليه حكومة . [أي قبل أن تثبت عليه التهمة] .

وخرج علي فأتى منزله ، وجاء الناس كلهم يهرعون إلى علي حتى دخلوا عليه داره ، فقالوا له : نبايعك ، فمد يدك ، فلا بد من أمير ؛ فقال : علي : ليس ذلك إليكم ، إنما ذلك لأهل بدر ، فمن رضي به أهل بدر فهو خليفة . فلم يبق أحد من أهل بدر إلا أتى عليا فقالوا : ما نرى أحدا أحق بهذا منك ؛ [مد يدك] نبايعك . فقال : أين طلحة والزبير؟ فكان أول من بايعه طلحة بلسانه ، وسعد بيده . فلما رأى ذلك خرج إلى المسجد ، فصعد المنبر ، فكان أول من صعد إليه طلحة فبايعه بيده ، ثم بايعه الزبير وسعد ، وأصحاب النبي ﷺ ، ثم نزل فدعا الناس ، وطلب مروان فهرب منه ، وطلب نفرا من ولد مروان وبني أبي معيط فهربوا منه . وجاء علي إلى امرأة عثمان فقال لها : من قتل عثمان؟ قالت : لا أدري ، دخل عليه رجلان لا أعرفهما إلا أن أرى وجوههما [كذا] ، وكان معهما محمد بن أبي بكر . وأخبرت عليا والناس ما صنع محمد . فدعا علي محمدا فسأله عما ذكرت امرأة عثمان ، فقال : لم تكذب ، قد والله دخلت عليه وأنا أريد قتله ، فذكر لي أبي ، فقمت عنه ، وأنا تائب إلى الله تعالى . والله ما قتلته ولا أمسكته . فقالت امرأته : صدق ، ولكنه أدخلهما[(١)] . . .»
انتهت رواية سعيد بن المسيب عن الأحداث التي أدت إلى قتل عثمان رضي الله عنه [(٢)] .

---

(١) الحافظ أبو القاسم بن عساكر ، ***تاريخ دمشق الكبير*** ، ج ٤١ ص ٢٧٤ - ٢٧٧ ؛ السيوطي ، ***تاريخ الخلفاء*** ، ص ١٥٧ -١٦٠ ؛ وقد ذكر السيوطي أنه نقل النص عن ابن عساكر . . ونص السيوطي يكاد يكون متطابقا تماما مع نص ابن عساكر ، سوى ألفاظ قليلة لا تزيد ولا تنقص في المعنى . ويبدو أن السيوطي اختصر بضعة سطور من آخر الوثيقة تجنبا للإطالة وهو يكتب تاريخا مختصرا لجميع الخلفاء ، بما في ذلك الخلفاء الذين نصبوا في القاهرة شكلا بعد سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ . وقد أثبتنا النص من كتاب ابن عساكر .

(٢) أنظر ترجمته عند ابن كثير ، ***البداية*** ، ج٩ ، ص ٨٣-٨٥ ، طبعة الصفاء .

الوثيقة الثانية:

وهذه وثيقة أخرى مختصرة ، تحدد باقتضاب المعالم الرئيسية في الأزمة التي انتهت بقتل عثمان رضي الله عنه ، وهي تمثل معلومات الزهري[1] وفهمه للأحداث موضوع البحث :

«قال الزهري : لما ولي عثمان الخلافة عاش اثنتي عشرة سنة أميرا يعمل **ست سنين لا ينقم الناس عليه شيئا** ، وإنه لأحب إلى قريش من عمر ابن الخطاب ؛ لأن عمر كان شديدا عليهم ؛ فلما وليهم عثمان لان لهم ووصلهم ، ثم توانى في أمرهم واستعمل أقرباءه وأهل بيته في الست [سنوات] الأواخر ، وكتب لمروان بخمس إفريقية[2] ، وأعطى أقرباءه المال ، وتأول في ذلك الصلة التي أمر الله بها [3] ، واتخذ الأموال ، واستسلف من بيت المال ، وقال : إن أبا بكر وعمر تركا من ذلك ما هو لهما ، وإني أخذته فقسمته في أقربائي ، فأنكر الناس عليه ذلك [4] .» انتهت الوثيقة الثانية .

الوثيقة الثالثة:

ومصدرها الأول عامر الشعبي[5] المتوفى سنة ١٠٤ هـ ، وهو تابعي وفقيه مشهور . وقد ذكر الطبري اثنين من الرواة نقل أحدهما عن الشعبي مباشرة ، بينما

---

(١) وهو محمد بن مسلم بن عبدالله الزهري ، القرشي ، ترجم له ابن كثير في سبع صفحات (٩/٢٧٦-٢٨٢) ووصفه بأنه «أحد الأعلام من أئمة الإسلام ، تابعي جليل . . .» . وانظر ترجمته في طبقات ابن سعد . . . .

(٢) أي خمس ما حصل عليه المسلمون من الغنائم ، وأموال المعاهدات ، والجزية والعشور والخراج ؛ وفي رواية أخرى أنه أعطاه خمس الخمس .

(٣) أي صلة الرحم .

(٤) محمد بن سعد ، ***الطبقات الكبرى*** ، المجلد الثالث ، ص ٦٤ ؛ وقارن مع السيوطي ، ***تاريخ الخلفاء*** ، ص ١٥٦ .

(٥) وصفه ابن كثير بأنه «كان علامة أهل الكوفة ، كان إماما حافظا ، ذا فنون ، وقد أدرك خلقا من الصحابة وروى عنهم وعن جماعة من التابعين وعنه أيضا روى جماعة من التابعين . قال أبو مجلز : ما رأيت أفقه من الشعبي « وذكر ابن كثير ثناء العلماء عليه (***البداية والنهاية*** ، ج . ٩/ص ١٨٩) .

الآخر هو الذي نقل عنه الطبري مباشرة ؛ قال الشـعبي ، وهو يشير إلى الأزمة التي بدأت في الكوفة سنة ٣٣ هـ :

«قـدم سعـيـد بن العـاص الكوفـة ، فـجـعل يختـار وجـوه الناس يدخلون عليـه ويسـمـرون عنده ، وإنه سـمـر عنده ليلة وجـوه أهل الكوفـة ، منهم مـالك بن كـعب الأرحبي ، والأسود بن يزيد ، وعلقمة ابن قيس النخعيان ، وفيهم مالك [ابن الحارث النخعي] الأشتر ، في رجال ، فقال سعيد : إنما هذا السواد بستان لقريشّ ؛ فقال الأشـتر : أتزعم أن السواد الذي أفاءه الله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك! والله ما يزيد أوفاكم فيه نصيبا إلا أن يكون كأحدنا .» وتكلم آخرون مؤيدين كلام الأشتر . وهنا تدخل قائد الشـرطة ، وكان في المجلس : «أتردون على الأمير مقالته! وأغلظ لهم [أي أهانهم] ، فقال الأشتر : مـن ها هنا! لا يفوتنكم الرجل ؛ فوثبوا عليه فوطئوه وطأ شديدا حتى غشي عليه ، ثم جر برجله فألقي[١] [في جانب من المجلس] ، فنضح بماء فأفاق . فقال [سعيد] : والله لا يسمر منهم عندي أحد أبدا . فجعلوا يجلسون في مجالسهم وبيوتهم يشتمون عثمان وسعيدا ؛ واجتمع الناس إليهم حتى كثر من يختلف إليهم . فكتب سعيد إلى عثمان يخبره بذلك ، ويقول : إن رهطا من أهل الكوفة ، سماهم له عشرة ، يؤلبون ويجتمعون على عيبك وعيبي والطعن في ديننا ، وقد خشيت إن ثبت أمرهم أن يكثروا . فكتب عثمان إلى سعيد : أن سيرهم إلى معاوية ، ومعاوية يومئذ على الشام ، فسيرهم . . . إلى معاوية ، فيهم مالك الأشتر ، وثابت بن قيس بن منقع ، وكميل بن زياد النخعي ، وصعصعة بن صوحان . [٢] . .»

«وكتب عثمان إلى معاوية : إن أهل الكوفة قد أخرجوا إليك نفرا خلقوا للفتنة ، فرعهم[٣] وقم عليهم ، فإن آنست منهم رشدا فاقبل منهم ، وإن أعيوك فارددهم عليهم[٤] .» وبعد أن وصل المبعدون إلى الشام ، والتقاهم معاوية ورحب بهم ،

---

(١) الطبري ، مجلد ٤ ، ص ٣٢٢ - ٣٢٣ .

(٢) *المصدر نفسه* ، ٣٢٢ - ٣٢٣ .

* *المصدر نفسه* ، ٣٢٣ - ٣٢٤ .

(٣) فرعهم : اشتقاق من «الروع ، والترويع» ، بمعنى «خوفهم» ؛ وقد ورد النص في الطبري ، ٤ ، ٣١٨ - ٣١٩ .

(٤) الطبري ، مجلد ٤ ، ص ٣١٧ - ٣١٩ .

وخصص لهم مرتبات ، قال لهم يوما وهو يجالسهم : «إنكم قوم من العرب لكم أسنان (١) وألسنة ، وقد أدركتم بالإسلام شرفا وغلبتم الأمم . . . وقد بلغني أنكم نقمتم قريشا ، **وإن قريشا لو لم تكن عدتم أذلة كما كنتم** ، إن أئمتكم لكم اليوم جنة ، فلا تشذوا عن جنتكم ؛ وإن أئمتكم اليوم يصبرون لكم على **الجور ، ويحتملون منكم المؤونة** ؛ والله لتنتهن أو ليبتلينكم الله بمن يسومكم ، ثم لا يحمدكم على الصبر ، ثم تكونون فيما جررتم على الرعية في حياتكم وبعد موتكم . فقال رجل من القوم : أما ما ذكرت من قريش فإنها لم تكن أكثر العرب ولا أمنعها في الجاهلية فتخوفنا (٢) . . .»

وأضاف معاوية :

«**وقد عرفت قريش أن أبا سفيان كان أكرمها وابن أكرمها** ، إلا ما جعل الله لنبيه ، نبي الرحمة ﷺ . فإن الله انتخبه وأكرمه ، فلم يخلق في أحد من الأخلاق الصالحة شيئا إلا أصفاه الله بأكرمها وأحسنها ، ولم يخلق من الأخلاق السيئة شيئا في أحد إلا أكرمه الله عنه ونزهه . **وإني لأظن أن أبا سفيان لو ولد الناس لم يلد إلا حازما** .

قال صعصعة [ابن صوحان العبدي] : كذبت! قد ولدهم خير من أبي سفيان ، من خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا له ، فكان فيهم البر والفاجر ، والأحمق والكيس (٣) .» فخرج [معاوية] من عندهم . . . ثم كتب إلى عثمان : . . . أما بعد يا أمير المؤمنين ، فإنك بعثت إلي أقواما يتكلمون بألسنة الشياطين وما يملون عليهم . . . فيشبهون على الناس ، وليس كل الناس يعلم ما يريدون ، وإنما يريدون فرقة ويقربون فتنة . . . فقد أفسدوا كثيرا من الناس ممن كانوا بين ظهرانيهم من أهل الكوفة ؛ ولست آمن إن أقاموا وسط أهل الشام أن يغروهم بسحرهم وفجورهم ؛ فارددهم إلى مصرهم [إلى الكوفة] ؛ فلتكن دارهم في مصرهم الذي نجم

---

(١) بمعنى أن لكم خبرة وتجارب كثيرة بحكم العمر وكبر السن .

(٢) الطبري ، مجلد ٤ ، ص ٣١٨ – ٣١٩ .

(٣) *المصدر نفسه* ، ص ٣٢٤ – ٣٢٥ . ٣٩

فيه نفاقهم ؛ والسلام . « فأمره عثمان بردهم إلى سعيد بن العاص في الكوفة[١] .
إنتهت الوثيقة الثالثة .

الوثيقة الرابعة:

ومصدرها محمد بن طلحة ، وبينه وبين الطبري ثلاثة رواة ، قال : محمد بن طلحة :

«كان سعيد بن العاص ، والي الكوفة ، [وهو سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس ، من بني عم عثمان ﷺ] لا يغشاه [يزوره] إلا نازلة أهل الكوفة [أي المقيمون فيها] ، ووجوه أهل الأيام [الذين كان لهم دور في معارك الفتح] وأهل القادسية ، وقراء أهل البصرة . . . «فأما إذا جلس [العامة] الناس فكان يدخل عليه كل أحد .» وفي أحد هذه المجالس العامة - كما تذكر الرواية - تكلم أحد الجالسين فامتدح جود وكرم الصحابي طلحة بن عبيدالله ؛ فعلق سعيد ابن العاص : «إن من له مثل (النشاستج)[٢] لحقيق أن يكون جوادا . والله لو أن لي مثله لأعاشكم الله عيشا رغدا . فقال عبدالرحمن بن خنيس ، وهو حدث ، والله لوددت أن هذا الملطاط لك - يعني ما كان لآل كسرى على جانب الفرات الذي يلي الكوفة . قالوا : فض الله فاك! والله لقد هممنا بك .» ثم تبع ذلك جدال ، فقاموا فضربوا الفتى وضربوا أباه . «وجعل سعيد يناشدهم [أن يكفوا] ويأبون حتى قضوا منهم وطرا [حتى اكتفوا] . فسمعت بذلك بنوا أسد ، فجاءوا وفيهم طليحة ، فأحاطوا بالقصر ، وركبت القبائل فعاذوا بسعيد ، وقالوا : أفلتنا وخلصنا . فخرج سعيد إلى الناس فقال : أيها الناس ، : قوم تنازعوا وتهاووا ، وقد رزق الله العافية[٣] . . .» ثم طلب سعيد من الذين ضربوا الغلام وأباه ألا يأتوا مجلسه ، فقعدوا في بيوتهم ، وجعلوا يذمون سعيد ويذمون الخليفة ، ويشيعون ذلك . «فكتب أشراف أهل الكوفة وصلحاؤهم إلى عثمان في إخراجهم ، فكتب : إذا اجتمع ملؤكم على ذلك فألحقوهم بمعاوية ، فأخرجوهم [ليذهب بهم إلى معاوية] .

---

(١) *المصدر نفسه* ، ص٢٥ .

(٢) إسم لأرض خصبة كثيرة الثمار مما كان لآل كسرى .

(٣) *المصدر نفسه* ، ص ٣١٨ .

وكتب معاوية إلى عثمان : إنه قدم علي أقوام ليست لهم عقول ولا أديان ، أثقلهم الإسلام وأضجرهم العقل[١] . . .» انتهت الوثيقة الرابعة .

وبالنظر المتفحص نجد أن الوثيقتين الثالثة والرابعة تتداخلان في النصوص ، لأن الوثيقتين تصفان حادثا واحدا ، فتتفقان في بعض التفاصيل ، وتختلفان في البعض الآخر .

والطبري يتجنب – في هذه الحالة – تكرار ما ورد في الوثيقة السابقة ضمن الوثيقة اللاحقة ، فيقول : ثم ذكر فلان (راوي الوثيقة التالية) ما ذكره فلان الآخر (راوي الوثيقة السابقة) . وعلى ذلك فإنني اتجنب تكرار النص هنا ، في هذه الحالة .

الوثيقة الخامسة:

وهي رواية حفظها لنا الطبري ، عن الواقدي ، عن عبدالله بن محمد ، عن أبيه[٢] ، ونقلها ابن كثير أيضا عن الطبري ، لكنه حذف منها بضعة سطور لم تنسجم مع توجهه : وتقول الرواية كما نقلها إلينا الطبري عن الواقدي :

«لما كانت سنة أربع وثلاثين كتب أصحاب رسول الله ﷺ بعضهم إلى بعض : أن اقدموا ، فإن كنتم تريدون الجهاد فعندنا الجهاد . وكثر الناس على عثمان ونالوا منه . . . وأصحاب رسول الله ﷺ يرون ويسمعون ، ليس فيهم أحد ينهى ولا يذب إلا نفير [عدد قليل] منهم زيد بن ثابت ، وأبو أسيد الساعدي ، وكعب بن مالك ، وحسان بن ثابت . فاجتمع الناس وكلموا علي بن أبي طالب ؛ فدخل على عثمان ، فقال : « الناس ورائي ، وقد كلموني فيك ، والله ما أدري ما أقول لك ، وما أعرف شيئا تجهله ، ولا أدلك على أمر لا تعرفه . . . فقال عثمان : قد والله علمت ليقولن الذي قلت ، أما والله لو كنت مكاني ما عنفتك ، ولا أسلمتك ، ولا عبت عليك ، وما جئت منكرا أن وصلت رحما . . . ووليت شبيها بمن كان عمــر يولي . أنشدك الله

---

(١) *المصدر نفسه* والصفحة ذاتها .

(٢) الوثائق الثمانية الأخرى في هذه القائمة التساعية نسبناها إلى مصدرها الأول ، أما هذه الوثيقة الخامسة فلم نستطع أن ننسبها إلى المصدر الأول لأننا نجهل اسمه ، حيث قيل إنها عن الواقدي ، عن عبدالله بن محمد ، عن أبيه ، أي أن المصدر الأول هو (محمد) ، والد عبدالله بن محمد ، الذي نجهل بقية اسمه . ومع ذلك فإن مضمون الوثيقة يتفق بشكل اجمالي مع الوثيقتين السابقتين .

يا علي ، هل تعلم أن المغيرة بن شعبة ليس هناك(١)! قال : نعم ، قال : فتعلم أن عمر قد ولاه؟ قال : نعم ، قال : فلم تلومني أن وليت ابن عامر في رحمه وقرابته؟ قال علي : سأخبرك ، إن عمر بن الخطاب كان كل من ولى فإنما يطأ على صماخه ، إن بلغه عنه حرف جلبه ثم بلغ به أقصى الغاية [أي أن عمر كان شديدا على الولاة المنحرفين] ؛ وأنت لا تفعل ، ضعفت ورفقت على أقربائك . قال عثمان :

هم أقرباؤك أيضا . فقال علي ، لعمري إن رحمهم مني لقريبة ، ولكن الفضل في غيرهم [أي أن غيرهم أفضل منهم] . قال عثمان : هل تعلم أن عمر ولى معاوية خلافته كلها؟ فقال علي : أنشدك الله هل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر من يرفأ غلام عمر منه؟ قال : نعم . قال علي : فإن معاوية يقتطع الأمور دونك وأنت تعلمها ، فيقول للناس هذا أمر عثمان ، فيبلغك ولا تغير على معاوية . ثم خرج علي من عنده (٢) .

وخرج عثمان على أثره فجلس على المنبر وقال : أما بعد ، فإن لكل شئ آفة . . . وإن آفة هذه الأمة . . . عيابون طعانون . . . ألا فقد والله عبتم علي بما أقررتم لابن الخطاب بمثله ، ولكنه وطئكم برجله وضربكم بيده وقمعكم بلسانه ، فدنتم له على ما أحببتم وكرهتم ، ولنت لكم وأوطأت لكم كنفي وكففت يدي ولساني عنكم فاجترأتم علي . أما والله لأنا أعز نفرا وأقرب ناصرا وأكثر عددا ، وأقمن إن قلت هلم أتي إلي ؛ وقد أعددت لكم أقرانكم . . . وكشرت لكم عن نابي ، وأخرجتم مني خلقا لم أكن أحسنه . . . فكفوا عليكم ألسنتكم وطعنكم وعيبكم على ولاتكم ، فإني كففت عنكم من لو كان هو الذي يكلمكم لرضيتم منه بدون منطقي هذا . ألا فما تفقدون من حقكم؟ والله ما قصرت في بلوغ ما كان يبلغ من كان قبلي ، ومن لم تكونوا تختلفون عليه . فضل مال [أي زاد مال فائض بعد أن سددت كل النفقات] فما لي لا أصنع في الفضل ما أريد! فلم كنت إماما! (٣) . . . « وأخذ يؤنب الناس ويتهددهم (٤) . [إنتهت الوثيقة الخامسة] .

---

(١) المقصود بهذا التعبير بالنسبة للشخص المشار إليه أنه ليس في منزلة أخلاقية عالية أو محمودة .

(٢) قارن مع ***نهج البلاغة*** ، ج ١ ، ص ٢٢٧ ، نص بدايته مثل هذا ، ثم يبتعد .

(٣) الطبري ، مجلد ٤ ، ص ٣٣٧ – ٣٣٩ ؛ وانظر أيضا ص ٣٥٨ ؛ أبن كثير ، ***البداية*** . . ، ج . ٧ ، ص . ١٢٦–٧ (سنة ٣٤ هـ) .

(٤) **الطبري** ، مجلد ٤ ، ص ٣٣٨ – ٣٣٩ .

الوثيقة السادسة:

وتتعلق هذه الوثيقة بمحنة الصحابي أبي ذر الغفاري رضي الله عنه :

وقد ظهرت المشكلة التي ارتبطت باسم هذا الصحابي الجليل سنة ثلاثين للهجرة ؛ فقد انتقد أبو ذر معاوية بن أبي سفيان فيما يتعلق بالشئون والتصرفات المالية . وقد ضاق معاوية ذرعا بهذا النقد الجرئ ، وذكرت بعض الروايات أنه قسى على أبي ذر ، وشتمه وهدده بالقتل ؛ ثم إنه كتب رسالة وجهها إلى أمير المؤمنين عثمان يشكو فيها أبا ذر . ورد عثمان رضي الله عنه فأمر معاوية بأن يبعث له أبا ذر ، وأن يرفق به . لكن أبا ذر لم يرض بما سمع من الخليفة ، فخرج من المدينة للإقامة في منطقة الربذة . وتختلف الروايات عما إذا كان قد خرج باختياره أو أن الخليفة أخرجه كرها[(١)] . وقد أخبرنا الطبري بوضوح أن هذه الوثيقة تمثل رأي المدافعين عن معاوية . لقد ذكر لنا الطبري أن هناك روايات عن تهم شنيعة [وجهت لمعاوية وتصرفاته] ، ونظرا لشناعتها فقد امتنع عن ذكرها ، لأن العامة لا يحتملون سماعها . ثم نقل لنا الادعاء الآخر ؛ إدعاء المتهم لنفي الجريمة عن نفسه ، أي ادعاء معاوية ضد أبي ذر ، فقال وهو بقدم لنا دفاع معاوية :

«فأما العاذرون لمعاوية في ذلك ، فإنهم ذكروا في ذلك قصة كتب إلي بها السري ، يذكر أن شعيبا حدثه عن سيف عن عطية ، عن يزيد الفقعسي» :

«لما ورد ابن السوداء [عبدالله بن سبأ] الشأم لقي أبا ذر ، فقال : يا أبا ذر ، ألا تعجب إلى معاوية ، يقول : المال مال الله! ألا إن كل شئ لله كأنه ، يريد أن يحتجنه دون المسلمين ، ويمحو اسم المسلمين . فأتاه أبو ذر ، فقال : ما يدعوك إلى أن تسمي مال المسلمين مال الله! قال : يرحمك الله يا أبا ذر ، ألسنا عباد الله ، والمال ماله ، والخلق خلقه ، والأمر أمره! قال : فلا تقله ؛ قال : فإني لا أقول : إنه ليس لله ، ولكن سأقول : مال المسلمين»[(٢)] .

---

(١) إبن الأثير ، *الكامل* ، مجلد ٣ ، ص ١١٣ – ١١٦ ؛ وقارن مع الطبري ، مجلد ٤ ، ص ٢٨٤ – ٢٨٦ .

(٢) الطبري ، مجلد ٤ ، ص ٢٨٣ .

الوثيقة السابعة:

ومصدرها الأول يزيد **الفقعسي** نفسه أيضا ، صاحب الوثيقة السادسة . وقد وصلت إلى الطبري عن طريق السري ، ثم شعيب ، عن سيف عن عطية ، عن يزيد الفقعسي ؛ تقول الرواية :

«كان عبدالله بن سبأ يهوديا من أهل صنعاء ، أمه سوداء ، أسلم زمن عثمان ، ثم تنقل في بلدان المسلمين يحاول ضلالتهم ، فبدأ بالحجاز ، ثم البصرة ، ثم الكوفة ، ثم الشأم ، فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشأم ، فأخرجوه حتى أتى مصر ، فاعتمر فيهم ، فقال لهم فيما يقول : لعجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ، ويكذب بأن محمدا يرجع ، وقد قال الله عز وجل : (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد .) فمحمد أحق بالرجوع من عيسى . قال ، فقبل ذلك عنه ، ووضع لهم الرجعة ، فتكلموا فيها ، ثم قال لهم بعد ذلك : إنه كان ألف نبي ، ولكل نبي وصي ، وكان علي وصي محمد ؛ ثم قال : محمد خاتم الأنبياء ، وعلي خاتم الأوصياء ، ثم قال بعد ذلك : من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ﷺ ، ووثب على وصي رسول الله ﷺ ، وتناول أمر الأمة! ثم قال لهم بعد ذلك : إن عثمان أخذها بغير حق ، وهذا وصي رسول الله ﷺ ، فانهضوا في هذا الأمر فحركوه ، وابدءوا بالطعن على أمرائكم ، وأظهروا الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، تستميلوا الناس ، وادعوهم إلى هذا الأمر .

فبث دعاته ، وكاتب من كان استفسد في الأمصار وكاتبوه ، ودعوا في السر إلى ما عليه رأيهم ، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيوب ولاتهم ، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك ، ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون ، فيقرؤه كل أولئك في أمصارهم وهؤلاء في أمصارهم .[1] . .»

إنتهت الوثيقة السابعة .

---

(١) *المصدر نفسه* ، ص ٣٤٠ - ٣٤١ .

الوثيقة الثامنة:

يزيد الفقعسي مرة ثالثة، قال: « لما مضى من إمارة [عبدالله] ابن عامر ثلاث سنين، بلغه أن في عبدالقيس رجلا نازلا على حكيم بن جبلة، وكان حكيم بن جبلة رجلا لصا، إذا قفل الجيوش [كذا] خنس معهم فسعى في أرض فارس، فيغير على أهل الذمة، ويتنكر لهم، ويفسد في الأرض، ويصيب ما شاء ثم يرجع. فشكاه أهل الذمة وأهل القبلة إلى عثمان. فكتب إلى عبدالله بن عامر [والي البصرة] أن احبسه ومن كان مثله فلا يخرجن من البصرة حتى تأنسوا منه رشدا. فحبسه، فكان لا يستطيع أن يخرج منها. فلما قدم ابن السوداء نزل عليه واجتمع إليه نفر فطرح لهم ابن السوداء ولم يصرح، فقبلوا منه، واستعظموه، وأرسل إليه ابن عامر فسأله: ما أنت؟ فأخبره أنه رجل من أهل الكتاب، رغب في الإسلام وفي جوارك؛ فقال: ما يبلغني ذلك، أخرج عني. فخرج حتى أتى الكوفة فأخرج منها فاستقر بمصر، وجعل يكاتبهم ويكاتبونه، ويختلف الرجال بينهم(١).»

الوثيقة التاسعة:

ثم تظهر لنا رواية أخرى خرجت من مصر، هذه المرة، وهي تشكل جزءا من نص رسالة وجهها والي مصر وإفريقيا، عبدالله بن سعد بن أبي سرح إلى أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه، قال فيها: **إن عمار ابن ياسر «استماله قوم، وقد انقطعوا إليه، منهم عبدالله بن السوداء، وخالد بن ملجم، وسودان بن عمران، وكنانة بن بشر**(٢).» والمقصود بعبدالله بن السوداء عبدالله بن سبأ.

ملاحظات عامة على مضامين هذه الوثائق:

أولا: **يلاحظ أن الوثيقتين الأولى والثانية** تتناولان موضوعا واحدا، إذ تقدم لنا كل منهما تقريرا عن خلافة عثمان رضي الله عنه، والأسباب التي أدت إلى ظهور الأزمة، وتطور الأحداث وتلاحقها حتى وفاته.

---

(١) الطبري، مجلد ٤، ص ٣٢٦ – ٣٢٧؛ و«يختلف الرجال بينهم» أي يترددون بينهم حاملين رسائل، وما شابه ذلك.

(٢) الطبري، مجلد ٤، ص ٣٤١.

ثانيا : وتصف الوثيقتان الثالثة والرابعة حادثا واحدا ، وهو ما يفترض أنه جرى في مجلس والي الكوفة ، سعيد بن العاص ، بيد أن كلا من الوثيقتين تعرض الحادث بشكل مختلف في بعض التفاصيل والأشخاص المشاركين ، ويظل موضوع الخلاف واحدا ، وهو الأراضي التي غنمها المسلمون من كسرى ورجال دولته ، ومن الأحق بملكيتها والانتفاع بها بعد أن غنمها المسلمون . كما تختلف الوثيقتان بالنسبة لشخصية من روى كلا منهما ؛ فعامر الشعبي شخصية علمية معروفة ولها مكانتها واحترامها ، وهو من مشاهير التابعين ، كما أشرنا قبل قليل ، وتقريره أقرب إلى الموضوعية والحياد . أما راوي الوثيقة الرابعة فليس كذلك ، فضلا عن أن الاندفاع والتحيز يبدو واضحا في نصها .

ثالثا : أما الوثيقة الخامسة فتنفرد بالحديث عما يفترض انه جرى في المدينة وتوتر الوضع فيها سنة أربع وثلاثين للهجرة .

رابعا : أما الوثائق الأربع الباقية (السادسة إلى التاسعة) فإن بينها عنصرا مشتركا يفترض أن اسمه **عبدالله بن سبأ** ، ويسمى أحيانا «**إبن السوداء**» ، وأنه يهودي . وقد نسب له أنه قال لوالي البصرة أنه يهودي ، ويرغب في اعتناق الإسلام . وقد ذهبت الوثائق الثلاث إلى أن ذلك اليهودي كان المسبب والمحرض والمخطط والموجه لكل الخلافات والصراعات التي ظهرت في خلافة عثمان رضي الله عنه ، وأنه استمر يمارس دوره بعد وفاة الخليفة الثالث ، خاصة في البصرة ، كما تصفه إحدى الروايات بأنه تنقل من البصرة إلى دمشق إلى مصر ، ونشر المقولات التحريضية وحرك الصحابة بعضهم ضد البعض الآخر ، ثم ظهر في البصرة ثانية قبيل معركة الجمل ، ومارس نفس الدور التحريضي ، ودفع الصحابة إلى مقاتلة بعضهم بعضا في تلك المعركة ، وأفسد كل خطوات المصالحة التي كانت وشيكة النجاح ، حسب قول مؤلف الوثيقة .

ثم إن ثلاثا من هذه الوثائق الأربع من رواية شخص واحد اسمه يزيد الفقعسي ، أو من تأليفه . وقد قدم الطبري الوثيقة الأولى منها ، والتي تتعلق بمحنة الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري رضي الله عنه وخلافه مع والي الشام معاوية بن أبي

سفيان . وقبل أن يقدم الطبري لنا نص هذه الرواية قال إنه ترك ذكر التهم الموجهة لمعاوية ، لأنها كانت «**أمورا شنيعة**» ، وقد أغفل ذكرها لأن العامة لا يحتملون سماعها . أما الرواية التي قدم لنا نصها فهي رواية المدافعين عن معاوية بن أبي سفيان . ومعنى ذلك بوضوح أن المقولات الشنيعة التي تجنب ذكرها كانت تنسب إلى والي الشام تصرفات وأقوال شنيعة . وهذا يعني أن ما قدم لنا في هذه الخصومة هو «**قول أحد الخصمين**» فقط ، قول معاوية بلسان المدافعين عنه . ومعنى ذلك أننا قرأنا التهمة الباطلة الموجهة للصاحبي أبي ذر الغفاري وغيبت عنا ماهية وتفاصيل التهم الموجهة لمعاوية . والتهمة المنسوبة لأبي ذر صورته ساذجا ومغفلا لدرجة أن يقبل بأن يلقنه ويحركه عبدالله بن سبأ ، فيقبل هذا التلقين والتحريك ، ويدور يشيعه بين المسلمين في دمشق ، ثم ينطلق في نقده ليشمل الأغنياء ويحضهم على التخلي عما يفيض عن حاجاتهم من ثرواتهم . وهذه كلها تهم مختلقة لتشويه سمعة أبي ذر ، ولتغييب التهم المنسوبة إلى معاوية وتبييض سمعته . لقد كان أبو ذر من مشاهير الصحابة ، وقد اعتنق الإسلام في وقت مبكر ، فكان الرابع أو الخامس من بين أول من اعتنقوا الإسلام ، حسب قول ابن كثير في ترجمته له[١] . وقد كان بين الصحابة الذين عاش معهم وعرفهم سنين طويلة كثير من الأغنياء ، منهم أبو بكر ، وعثمان ، وطلحة ، والزبير ، وغيرهم [٢] ، فلم يعرف عن أبي ذر أنه انتقد ثروتهم أو طالبهم بالتصدق عما زاد عن حاجاتهم . أما عندما انتقد معاوية فقد كان يشعر أن عليه واجب النصيحة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ولم يكن أبو ذر وحده هو الذي انتقد معاوية ؛ بل إن لدينا رواية قوية مفادها أن الصحابي أبا الدرداء رضي الله عنه ، قد انتقد معاوية أيضا . ففي إشارة مقتضبة قال القاضي أبو بكر محمد بن العربي : « . . . ووقع بين أبي الدرداء ومعاوية كلام . وكان أبو الدرداء زاهدا فاضلا قاضيا لهم [في دمشق] ، فلما اشتد في الحق وأخرج طريقة عمر في قوم لم يحتملوها عزلوه ، فخرج إلى المدينة[٣] .» ويبدو أن أبا ذر كان أشد في نقده من أبي الدرداء ، وأن حديثه

(١) إبن كثير ، ***البداية والنهاية*** ، ج ٧ ، ص١٣٣ .

(٢) أنظر مقدمة إبن خلدون ، ص ٢٦٠-٢٦١ .

(٣) أبو بكر بن العربي ، ***العواصم من القواصم*** ، ص ٧٧ .

عرف على نطاق واسع فلم يستطع معاوية أن يعزله لتنتهي بعزلـه القضية ولا يتحدث الناس بها ويختفي الموضوع .

ويبدو لي أن أبا جعفر الطبري ، رحمه الله ، وجد نفسه بين خيارين : إما أن بفصح عن «الأشياء الشنيعة» من سلوك معاوية ، فلا تحتمل العامة سماعها فتكون لذلك عواقب سيئة وخطيرة ، أو أن يكتمها ويكتفي بذكر ما أشاعه أنصار معاوية منسوبا إلى أبي ذر . ويبدو أن الطبري وجد الخيار الأخير أهون الشرين . هل أصاب أبو جعفر أم أخطأ؟ هذا ما لا أود الدخول فيه هنا ؛ والطبري واحد من كبار علماء أمتنا ، بل من أكبرهم ؛ وبجانب علمه المتعدد الجوانب فقد كان رجل صدق واستقامة ، وحرص على الاستقلال ، فيما أعتقد (بكسر القاف) ؛ كما أن منهجه – في التاريخ خاصة – كان أفضل المناهج في عصره . وهو من قبل ومن بعد إمام المفسرين .

أما الوثيقة الأخيرة (التاسعة) ، فهي جزء من رسالة والي مصر ، عبدالله بن سعد بن أبي سرح الموجهة للخليفة . وعبدالله بن سعد هذا أموي ، وكان في قلب الأزمة ، ووجهت له اتهامات متعددة ، فضلا عن أنه كان ارتد عن الإسلام في عهد رسول الله ﷺ ، وهرب من المدينة إلى مكة ، وأمر رسول الله بإهدار دمه يوم فتح مكة ، كما أشرنا إلى ذلك في موضعه .

وبعد هذا الوصف ، الخارجي للوثائق التسع يلزمنا أن نحلل نصوصها ومحتواها المعلوماتي ، ومدى صدقيتها .

أول ما يلاحظه الدارس على مضامين هذه الوثائق أنها لا تسير كلها في اتجاه واحد من حيث استهدافها تشكيل وتحديد اقتناع ومواقف المتلقين ، العاطفية والعملية على السواء ؛ وتترك الوثائق الثلاث الأولى انطباعا لدى الباحث والقارئ بأن أكثرية الصحابة لم يكونوا راضين عن الخيارات التي تبناها عثمان رضي الله عنه بالنسبة لتعيين أقاربه في المراكز الرئيسية في إدارة الأقاليم ؛ وليس في هذه الوثائق أيضا ما يظهر رضى أغلبية الصحابة عن اجتهادات الخليفة في إعطاء الأموال لأقاربه على أساس أن ذلك نوع من البر بالأقارب الذي أمر الله به ، بل وفيما يتعلق باجتهادات الخليفة في الحج أثناء وجوده في منى ، وكذلك الأمر بالنسبة لوقوفه على منبر مسجد رسول الله ﷺ ؛ وقد أشرنا إلى أن عثمان رضي الله عنه كان قد تجاوز الثمانين من العمر عندما انفجرت الأزمة ، وهنا عذره . وتتفق هذه الوثائق كذلك على أن عددا كبيرا من الصحابة حاول إقناع الخليفة بعدم صواب اجتهاداته بالنسبة لما أسنده لأقاربه .

وهكذا فإن الوثائق الثلاثة الأولى تمثل مجموعة متقاربة تسير في اتجاه واحد .

أما الوثائق الأربع الأخيرة ، من السادسة إلى التاسعة ، فإنها متجانسة أيضا ؛ بيد أنها تسير في اتجاه مضاد لمحتوى الرسائل الثلاث الأولى . وثلاث من هذه الوثائق الأخيرة مصدرها شخص واحد ، يزيد الفقعسي . وقد تجاهلت الوثائق الأربع الأخيرة تماما كل ما أوردته المصادر عن ظهور وتراكم الأسباب الحقيقية لظهور المعارضة . وإذ تتجاهل كل هذا فإنها تركز على إقناع المسلمين بأن الأزمة إنما نشأت بسبب مؤامرة يهودية حركها شخص اسمه عبدالله بن سبأ [إبن السوداء] ، تظاهر باعتناق الإسلام في أوائل خلافة عثمان ، ثم بدأ ينشر سمومه . ومما يشد الانتباه أن الوثائق الخمسة الأولى ليس فيها أي ذكر لعبدالله بن سبأ ؛ الأمر الذي يبعث على الشك في وجود شخص بهذا الإسم ، خاصة وأن الوثائق الأربعة الأخيرة (السادسة إلى التاسعة) التي تحدثت عن «ابن سبأ» فيها انحياز واضح للأمويين ضد معارضيهم ، سواء الوثائق الثلاثة التي رواها يزيد الفقعسي ، أو الوثيقة الأخيرة – الرسالة الموجهة إلى الخليفة – التي صاغها عبدالله بن أبي سرح ، وهو أحد المتهمين الرئيسيين بالنسبة للمعارضة ، أي أنها كلها وثائق صاغها أنصار معاوية أو أتباعه .

ولو أننا دققنا النظر في نصوص الوثيقتين ، الرابعة والخامسة ، بعد تجريدهما من الإضافات المفترضة ، وأردنا تحديد العناصر الموضوعية الأقرب إلى الحقيقة في مضمونهما ، فإننا سنلاحظ ما يلي :

١) إن النزاع – بالنسبة للكوفة – بدأ بشأن ملكية الأراضي الجيدة التي كانت لكسرى وللبارزين من قومه قبل أن يفتحها المسلمون ، ومن هو الأحق بها بعد أن غنمها المسلمون ، وليس بسبب «عبدالله بن سبأ» والمقولات المنسوبة له ،

٢) بدا في النصوص أن هناك حرصا من معاوية ، ومن الوالي سعيد بن العاص ، على إبراز قريش وزعامتها ، ومكانة زعيمها في الجاهلية ، أبي سفيان ووالد أبي سفيان أيضا ، وبالتالي تأكيد زعامة معاوية نفسه ، وتأكيد علو مناقبه .

٣) وبجانب ذلك فقد بدا موقف الوالي سعيد بن العاص ضعيفا ، كما بدت شخصيته ضعيفة ، خاصة في الوثيقة الرابعة ؛ حيث أن ما حدث جرى في مجلسه ، وفيه كثير من عدم الاحترام . ثم إن الذي كتب إلى الخليفة ليخبره بما جرى – حسب نص الوثيقة ، وليس بالضرورة أن يكون حدث في الواقع – لم يكن الوالي ، بل هم أشراف أهل الكوفة ، أي زعماء القبائل حسب ما أراد أن

يقنعنا مؤلف الوثيقة . والذي استنتجه بالنسبة لهذه النقطة أن الوثيقة ملفقة ، وأن من صاغها أول مرة لم يكن يقصد أن يصور ضعف شخصية الوالي ، لكنه أراد أن يبرز عدوانية الأشخاص الذين قاموا بذلك التصرف في مجلس الأمير ، وأن يبين – في الوقت نفسه – كيف أن الأمير كان حليما جدا ، وبذلك يؤكد سوء سلوك ونية المعتدين ، ثم ليبين أيضا : أنه ما دام زعماء ووجهاء الكوفة هم الذين نقموا على المشاغبين وكتبوا الشكوى التي تدينهم ووجهوها إلى الخليفة ؛ فإن ذلك يعني أن المشاغبين كانوا مجرد حفنة منبوذة من الأشرار ، وأن الشخصيات المحترمة تصدت لهم . هذا ، بينما كان الأمير يحاول تهدئة الموقف بقوله إن «القوم تنازعوا ثم هدأوا ، ثم رزق الله العافية» ، بمعنى أنه لم يحدث شر ، وأن المشكلة صغيرة ، صنعها أفراد من السفهاء الذي لا وزن لهم ، وأنها انتهت عند ذلك الحد . وهكذا فإن مؤلف الوثيقة لم يدخل الأمير ، والي الكوفة ، في موضوع الشكوى ، أي أن إدانة المشاغبين لم تجئ من الوالي الأموي النسب ، بل جاءت من الزعماء أنفسهم ، وهذا يؤكد التهمة ما دامت قد صدرت عن زعمائهم . وهنا اعتاد الناس على استدعاء مثل من القرآن الكريم : ﴿وشهد شاهد من أهلها . . .﴾ وليس الوالي الأموي القرشي الذي يعد خصما وطرفا في النزاع .

وينبغي ألا يفوتنا التعليق على قول معاوية للمحولين إليه من الكوفة : «**وقد بلغني أنكم نقمتم قريشا ، وإن قريشا لو لم تكن عدتم أذلة كما كنتم . . .**» وحديث معاوية هذا قلب للحقائق إلى عكسها ، وتعتيم على دور الإسلام ، ونسبة الإنجاز الذي حققته رسالة محمد ﷺ ، وحققه المسلمون الأولون من المهاجرين والأنصار ، إلى قريش! ومن هي قريش التي قصدها معاوية ورفع من شأنها؟ لقد صاحب ذكر قريش مدح لأبي سفيان كما مدح معاوية جده أبا أبي سفيان ، أي أنه مدح أباه وجده ، ثم انتقل إلى مدح نفسه بقوله : «**وإني لأظن أن أبا سفيان لو ولد الناس لم يلد إلا حازما** . إذن هذه هي قريش التي عناها معاوية ، عن طريق الإيحاء وليس عن طريق القول المباشر ، لأن القول المباشر سيقابل بالرفض ، لكونه كذبا مفضوحا . أماالإيحاء الصامت فقد ينطلي على كثرة من الناس إن لم يكن على أكثريتهم . وهنا يلزمني أن أؤكد :

ليست قريش هي التي رفعت من شأن القبائل العربية ، بل الذي رفعها

هو الإسلام ، وجهاد الرعيل الأول من المسلمين . صحيح أن محمد بن عبدالله كان قرشي المولد والنسب ، وأن معظم الصحابة المهاجرين كانوا من قريش ، بيد أن رسالة الإسلام ، والدور والجهد البشري الذي حملها وسار وارتفع بها لم يكن مشروعا قرشيا ، ولم يكن باسم قريش ، بل كان باسم الله وباسم الإسلام . وعلى العكس مما ادعاه معاوية فإن دور قريش التي قصدها كان معاد ومعوقا للمسيرة التي رفعت شأن القبائل العربية والعرب عامة . ولقد كان لأبي سفيان صخر بن حرب - ولابنه معاوية بالتبعية - دور كبير ورئيسي في محاربة الإسلام ، والسعي لتدمير حركة المسلمين الأولين ، وإبقاء قريش وغيرها من القبائل العربية والعرب عامة على حالهم التي كانوا فيها قبل الإسلام . وعندما تم للمسلمين فتح مكة اختار محمد بن عبدالله القرشي ، ﷺ ، واختار المهاجرون - وهم كبار الصحابة القرشيون - اختاروا المدينة ، يثرب ، موطن الأنصار ، مقرا وموطنا لهم ولذريتهم بشكل دائم ، وفيها عاشوا وعاشت ذريتهم ، ولم يعودوا إلى موطنهم ، موطن قريش الأصلي في مكة . وقد كان هذا الخيار عن وعي وقصد واضح ، وذلك بدلالة حديث نبوي أورده البخاري :

> «لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ؛ ولو سلك الناس واديا وسلكت الأنصار واديا أو شعبا ، لسلكت وادي الأنصار ، أو شعب الأنصار[(١)] .»

ويبدو لي أن تركيز معاوية على اسم قريش وتغييب اسم بني أمية قصد به توسيع الدائرة المعادية للمعارضين في نظر جمهور المسلمين وأغلبيتهم ، كما قصد به تشتيت الضوء المركز على خطة الإنقلاب الأموي ، وعلى التصرفات المالية والإدارية للأمويين ، فضلا عن جهودهم للسيطرة الكاملة على دولة الخلافة . كذلك لا ينبغي أن تفوت الباحث أو تفوت القارئ ملاحظة التلوين والانحياز الأموي الذي ظهر في نص الوثيقة الرابعة ؛ فسعيد بن العاص يقدم على أنه حريص على تهدئة الموقف وإنهاء المشكلة بينما المعارضون عدوانيون . والذين يقدمون الشكوى إلى الخليفة هم

---

(١) ***صحيح البخاري*** ، كتاب التمني ، حديث رقم ٣٥٠ ؛ والشعب ، بكسر الشين وتسكين العين ، هو الوادي .

زعماء القبائل وليس الوالي الأموي ، كما أشرنا من قبل . إن نسبة هذا الدور إلى زعماء القبائل ، بأنهم قاموا ضد المعارضين واشتكوا عليهم إلى الخليفة ليس صحيحا ، بل هو نوع من الإعلام المضلل . ومن ناحية أخرى فإن تحويل المشكلة إلى والي الشام – معاوية – يستهدف التأكيد على أهمية شخصيته ، حيث يحيل إليه الخليفة المشاكل التي تحدث في ولايات أخرى ويعجز ولاتها عن حلها محليا . إنه زعيم العصبة الأموية الطامحة إلى الذروة .

المعارضون كانوا أبرز زعماء القبائل ، خاصة مالك بن الحارث النخعي ، الملقب بالأشتر . وقد أورد ابن كثير نفسه رواية تفيد أن الأشتر بذاته سافر إلى المدينة ومعه وفد فقابل الخليفة ، وطالبوا بعزل سعيد بن العاص فلم يعزله . وعندما عاد سعيد إلى الكوفة ثانية استقبلوه عند العذيب ومنعوه من دخولها . ثم إن الأشتر عين أبا موسى الأشعري واليا على الكوفة ، وقد أقر الخليفة ذلك فيما بعد (١) .

إنني مقتنع تماما بأن الوثيقة الرابعة ملفقة مزورة ، وأنها جزء من الدعاية الأمويـــة .

وقبل أن أنهي هذه الإطلالة على بعض مشاهد عهد عثمان رضي الله عنه ، ومع حرصي على الاختصار وتجنب الولوج إلى التفاصيل الكثيرة ، والروايات المتعارضة أحيانا ، أرى أن لا أغفل نقطة مهمة تتعلق بتحديد المعارضة التي ظهرت في عهد عثمان رضي الله عنه .

أولا : من هم المعارضون؟ ومن أين بدأت المعارضة؟ :

في الوثيقة الأولى تمر بنا العبارات التالية :

– «لما ولي عثمان كره ولايته نفر من الصحابة ،» لأنه كان يولي أقاربه من بني أمية ممن لم يكن له صحبة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

– «فجاء أهل مصر [إلى الخليفة] يشكون [من عبدالله بن أبي سرح ، والي مصر وأفريقيا] ويتظلمون منه .»

– وكان في قلوب بعض القبائل حنق على الخليفة لما فعله مع عبدالله بن مسعود ، ومع أبي ذر ، ومع عمار بن ياسر .

---

(١) *المصدر نفسه* ، ص ٧٤ –٧٦ .

– «وجاء أهل مصر يشكون من ابن أبي سرح ، فكتب إليه [عثمان] كتابا يتهدده فيه ، فأبى ابن أبي سرح أن يقبل ما نهاه عنه عثمان ، وضرب بعض من أتاه من قبل عثمان فقتله . . .

– فخرج من أهل مصر سبعمئة رجل ، فنزلوا المسجد وشكوا إلى الصحابة في مواقيت الصلاة ما صنع ابن أبي سرح . . . الخ

– «فلم يبق من أهل المدينة [يثرب] أحد إلا حنق على عثمان ، وزاد ذلك من كان غضب لابن مسعود ، وأبي ذر ، وعمار بن ياسر حنقا وغيظا ؛ وقام أصحاب محمد ﷺ فلحقوا بمنازلهم ، ما منهم أحد إلا وهو مغتم . .

– «وحاصر الناس عثمان سنة خمس وثلاثين ، وأجلب عليه محمد بن أبي بكر ببني تيم وغيرهم .

– «فلما رأى ذلك علي بعث إلى طلحة والزبير وسعد وعمار ونفر من الصحابة ، كلهم بدري ، ثم دخل على عثمان ومعه الكتاب والغلام والبعير . . .

– «فخرج أصحاب محمد من عنده غضابا . . . ولزموا بيوتهم .

ونقرأ ضمن نص الوثيقة الثانية :

«فلما وليهم [قريش] عثمان لان لهم . . . واستعمل أقرباءه وأهل بيته في الست [سنوات] الأواخر ، وكتب لمروان بخمس إفريقية وأعطى أقرباءه المال ، وتأول في ذلك الصلة التي أمر الله بها ، واستسلف من بيت المال ، وقال : إن أبا بكر وعمر تركا من ذلك ما هو لهما ، وإني أخذته فقسمته في أقربائي ، فأنكر الناس عليه ذلك .»

وفي الوثيقة الخامسة نمر بالعبارات التالية :

– «لما كانت سنة أربع وثلاثين كتب أصحاب رسول الله بعضهم إلى بعض . . . وكثر الناس على عثمان ونالوا منه . . . وأصحاب رسول الله ﷺ يرون ويسمعون ، ليس فيهم أحد ينهى ولا يذب [أي يدافع عن الخليفة] إلا نفير [عدد قليل . . .]

– «فاجتمع الناس وكلموا علي بن أبي طالب . . .»

إذن . . الوثيقة الأولى – بشكل خاص – ومعها الوثيقتان الثانية والخامسة ، تبين

أن المعارضة ظهرت أول مرة في المدينة ، ومن جانب عدد كبير من الصحابة ، كما ظهرت في مصر ، التي جاء منها سبعمئة رجل (حسب هذه الروايات) ، ولم تبدأ في البصرة والكوفة . وسنرى في الفصول التالية فيما نستعرضه من سياسات وممارسات معاوية وابنه يزيد ما يؤكد ويثبت كل هذا الذي ذكرناه في تعليقنا .

ويبدو لي أن التركيز على الكوفة والبصرة كان بسبب قوة وحجم القبائل التي كانت تستوطن المدينتين ، ليس بحجمها البشري فقط ، وإنما بدورها في حركة الفتح الإسلامي ؛ هذا بينما كانت الشام ومصر والمغرب واليمن تحت سيطرة الولاة الأمويين الذين تمكنوا من احتواء وإخضاع المعارضة في مصر والشام ، ثم في الحجاز . ولكي تكتمل السيطرة الأموية لا بد من السيطرة على العراق ، أي على الكوفة والبصرة اللتين كانت تتبعهما ولايات الشرق الإسلامي حتى حدود الصين تقريبا .

الخلاصة:

وبعد استعراض الوقائع في نقاط ، ثم استعراض الوثائق التسع ، ومناقشتها ، أرى أن الحديث قد تشعب بشكل واسع ومتداخل لأننا مررنا عبر غابة من الروايات والادعاءات والدعايات ، الأمر الذي يستلزم لملمة القصة في خلاصة قصيرة تجعل الرؤية التي تشكلت لدى القارئ واضحة ، حتى ينتقل إلى المرحلة التالية من غير تشتت ذهني .

لقد تولى أمير المؤمنين عثمان الخلافة أوائل سنة أربع وعشرين للهجرة ، وكان عمره إذ ذاك ثلاثا وسبعين سنة . وعندما بدأت المشاكل تتفجر كان قد تجاوز الثمانين . وفي هذه السن احتاج إلى من يعاونه حتى في أبسط الأمور ، حيث لم تكن هناك إدارات حكومية ، ولم يكن هناك موظفون ، ولم تكن للمجتمع أية خبرات بالإدارة ، ولا حتى تصورات مهما كانت بسيطة باهتة أو ضبابية . وقد استغل بنو أمية الموقف بكل جوانبه ، ووظفوه لتحقيق مشروعهم العشائري بالسيطرة على الخلافة وعلى الولايات الرئيسية وما يتبعها من الولايات البعيدة والأصغر ، وعلى الأموال أولا وآخرا ، جاعلينها من أهم وسائلهم . وعندما تفاقمت الأزمة وشعر عثمان رضي الله عنه بالخطر الحقيقي ، واستنجد بمعاوية طالبا منه إرسال قوة ترفع عنه الحصار تقاعس معاوية عن نجدته ، وفضل تركه لمصيره الذي كان شبه محتم ، بحجة أنه – أي معاوية

- لا يريد مخالفة الصحابة[1] ، واستشهد عثمان رضي الله عنه .

خلافة علي بن أبي طالب وتواصل الأزمة في عهده:

وبويع علي ابن أبي طالب (رضي الله عنه) بالخلافة ، وانتقلت إليه معها تركة مثقلة بالمشاكل . ولم يلبث أمير المؤمنين علي طويلا حتى عين ولاة جددا بدل الولاة الذين كانت الشكوى قد كثرت منهم ؛ فعين عثمان بن حنيف الأنصاري لولاية البصرة ليحل محل عبدالله بن عامر بن كريز ، وعين سهل بن حنيف واليا على الشام ليحل محل معاوية بن أبي سفيان ، وعين قيس بن سعد ابن عبادة ليحل محل عبدالله بن سعد بن أبي سرح في ولاية مصر ؛ بالإضافة إلى تعيينات أخرى . وكان هؤلاء الولاة كلهم من الصحابة المعروفين بالصدق والنزاهة ؛ وقد وصف قيس بأنه «كان صاحب راية الأنصار مع رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] .» ولم يكن أحد من هؤلاء الولاة الجدد يمت للخليفة بصلة قرابة عائلية أو نسب .

ويبدو أن عليا رضي الله عنه اعتبر مشكلة الولاة أهم المشاكل ، وأن حلها سيفتح الباب لتسهيل مسار إدارة الدولة في إطار صحيح يؤدي إلى تصفية آثار الأزمة العاصفة التي بلغت ذروتها بقتل الخليفة الثالث رضي الله عنه . لكن هذه الإجراءات التي بدأ الخليفة بها عهده لم تجد طريقها إلى التنفيذ ألا بشكل جزئي ؛ فقد حيل بين والي الشام الجديد ، سهل بن حنيف ، وبين الدخول إلى ولايته المفترضة ، إذ اعترضه رجال معاوية بمجرد وصوله إلى تبوك ومنعوه من الدخول إلى بلاد الشام . أما قيس بن سعد فقد وصل إلى مصر ، وباشر مهام منصبه ، لكن بعضا من مسلمي مصر - في قرية خربتا - لم يرحبوا بالتعاون معه ، فتركهم جانبا على أمل أن يحل مشكلتهم بطريقة هادئة فيما بعد . وقد أعلن أبو موسى الأشعري ، والي الكوفة ، طاعته للخليفة الجديد ، أما معاوية فلم يرد على خطاب الخليفة ؛ ثم إنه بعث بعد فترة رسولا من عنده حاملا «حافظة رسالة» مغلقة حملت عبارة : «من معاوية إلى علي» وعندما وصلت «الحافظة» تبين أنها فارغة» .[3]

---

(١) الطبري ، مجلد ٥ ، ص ٣٦٨-٣٦٩ من طبعة المعارف ؛ الطبري ، م٢ ، ص٦٥٨-٦٦٠ من طبعة بيروت .

(٢) إبن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٣ ، ص ٢٦٨ .

(٣) الطبري ، مجلد ٤ ، ص ٤٤٣ - ٤٤٤ .

معارضة جديدة:

ثم ظهر أن طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام ، رضي الله عنهما ، لم يسرا بولاية علي الخلافة ؛ فقد استأذناه بالذهاب إلى مكة لأداء العمرة ، بيد أنهما سرعان ما أعلنا معارضتهما لخلافته . كذلك فإن توليه المنصب لم يلق تأييدا ولا ترحيبا من أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها .

وفي مكة جمع الموقف المعارض للخليفة بين أم المؤمنين عائشة والزبير وطلحة بن عبيد الله ؛ والزبير زوج أسماء بنت أبي بكر أخت أم المؤمنين عائشة ، كما هو معروف . وعندما وصلت إلى عبد الله بن عامر – والي البصرة في عهد عثمان – أنباء تولي علي منصب الخلافة وتعيينه لوال جديد للبصرة ، سارع بالهرب ، قبل وصول عثمان بن حنيف الأنصاري ، واتجه إلى مكة ، حاملا معه كل ما كان في بيت مال البصرة . وفي نفس الفترة وصل إلى مكة أيضا والي اليمن في عهد عثمان رضي الله عنه ، يعلى بن أمية ، حاملا معه ما كان في بيت المال في ولايتة . وكان معه أتباعه وغلمانه ، كما كان مع عبدالله بن عامر أتباعه وغلمانه كذلك . وهكذا تجمعت هذه الشخصيات الخمسة في مكة بشكل غير متوقع ، وسرعان ما أدركت أن هناك خيطا واحدا يجمعها ، وهو : معارضتها لخلافة علي بن أبي طالب . وفي مكة تقابل طلحة والزبير ؛ ويبدو أنهما كانا يفكران في التوجه إلى الشام [(١)] ، حسب ما نتبين من المادة التي تمدنا بها مختلف المصادر ، وذلك ليستعينا بمعاوية على معارضة الخليفة الجديد . وفي مثل تلك الظروف ومع تلك التطورات الحاسمة بالنسبة لمخطط الإنقلاب الأموي كان معاوية يتابع الأحداث صغيرها وكبيرها متابعة دقيقة ، كما كان على صلة بأعوانه في مختلف المواقع ، خاصة مروان بن الحكم ، الذي فر من المدينة إلى مكة بمجرد تولي علي الخلافة . وكان معاوية على صلة كذلك بعبدالله بن عامر أثناء وجوده في البصرة وبعد مغادرته لها ؛ كما كان على صلة بغيرهما من أبناء العشيرة الأموية . والملاحظ بوضوح أن الأمويين تبنوا أسلوب العمل في الظل ، ومن غير إعلان ، إلا في حدود الضرورة القصوى ؛ فمروان لم نسمع له ذكر في هذه التطورات التمهيدية المبكرة ، لكنه يظهر فجأة في البصرة وهو يقوم بدور بارز في الصراع القتالي . وسعيد بن العاص ، والي الكوفة السابق الذي كان في قلب العاصفة أثناء عهد عثمان رضي الله عنه

---

(١) *المصدر نفسه* ، ص ٤٥٠ .

التزم التحرك في الظل ، أو في العتمة . وقد تمكن عبدالله بن عامر من إقناع طلحة والزبير بعدم التوجه إلى دمشق على أساس ان معاوية قائم بأمر الشام ، يمنع عليا من الوصول إليها ، كما أن الوالي الجديد الذي عينه علي منع من الوصول إليها ، كما أشرنا قبل قليل . وبدلا من دمشق أقنعهم ابن عامر بالذهاب إلى البصرة لأن له فيها أنصارا وأتباعا يضمن مساندتهم لهم . وقد جهز كل من عبدالله بن عامر ويعلى بن أمية القوة المعارضة الجديدة بالمال ، والإبل – وسيلة النقل – كما اشترى يعلى بن أمية جملا بمئتي دينار لتركبه أم المؤمنين عائشة في مسيرتها إلى البصرة .

وخلاصة هذا التطور أن قوة المعارضة التي ظهرت في الحجاز صارت في وضع تحالفي مع المعارضة الأموية ، وقد تحدد لها خط للتحرك العملي في معارضتها ، وهو خط يناسب الأمويين ويتكامل مع خطتهم ، وإن كان هذا التكامل جاء بالصدفة ، ولم يترددوا في توظيفه لصالحهم .

ماذا كان سيحدث لو توجهوا إلى الشام؟

لو أن هذا التجمع المعارض للخليفة الجديد ذهب إلى الشام لتغير اتجاه الأحداث التاريخية التي تلت ذلك . لنتصور أن عائشة رضي الله عنها ، وأن الصحابيين الجليلين طلحة بن عبيدالله والزبير بن العوام وصلوا بأتباعهم ومرافقيهم إلى دمشق ، ووجد معاوية نفسه مع اثنين من كبار الصحابة المبشرين بالجنة ، ومن البدريين الذين دافعوا عن رسول الله ﷺ في وقت مبكر من عمر الدعوة ، بجانب أم المؤمنين المتحالفة معهما ؛ لو حدث ذلك فإن معاوية كان سيعود إلى حجمه الحقيقي : واليا لأحد أقاليم الدولة ، ومعه تاريخ والده وتاريخه في محاربة الإسلام والمسلمين قبل فتح مكة ، ثم تحوله ووالده إلى مرتبة المؤلفة قلوبهم . ومن المؤكد أن هذا كان سيؤثر على قسم من المسلمين في بلاد الشام ، ويبعد معاوية عن الخلافة لأنه لم يكن ندا لطلحة والزبير ، ولم يكن له وزن يقترب من وزنهما أو وزن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها . لكل هذا ، كان لا بد – من وجهة نظر أموية – أن يدرأ هذا الخطر ، ويحول إلى جبهة العدو . وقد نجح عبدالله بن عامر في تصدير المشكلة إلى إقليم آخر من أقاليم الدولة ، أي إلى العراق ، وهو أشد الولايات معارضة للأمويين وأكثرها ولاء لعلي بن أبي طالب ؛ فكان لهذا التحويل آثار سلبية عميقة على تماسك القوى المؤيدة للخليفة الجديد .

وهكذا كان لتشكل هذه القوة المعارضة ، ولدهاء معاوية ومعاونيه من بني أمية ، وما كان لديهم من أموال ، وما كان لهم من صلات ببعض القوى القبلية التي اشتروها بالمال ، كان لذلك كله أثر كبير أدى إلى توليد وتشكيل النتائج النهائية للصراع . هذا مع أن ما كان يجمع العناصر المكونة لهذه القوة ويوحد بينها إنما كان مجرد هدف واحد وطارئ ، هو : مخالفة أمير المؤمنين علي ومعارضة خلافته ، وذلك ضمن أهداف أخرى متعارضة متناقضة لكل واحد من الفرقاء الذين شكلوا هذه الكتلة . أما مع ما حدث من تطور عملي فقد صارت خلافة علي بين نارين حارقتين .

في الطريق إلى البصرة:

وقد ضمت هذه الكتلة المعارضة حوالي ألف رجل - حسب ما ذكرت المصادر - وكانت قوتها المعنوية أكبر بكثير من عدد رجالها ، وذلك بحكم وجود أم المؤمنين عائشة ، ووجود طلحة والزبير ، رضي الله عنهم ، على رأسها . ولا مراء في أن هذا الرصيد المعنوي كان عنصرا جاذبا لبعض القوى البشرية التي أضافت قدرة عسكرية إلى هذا التجمع . وكان وجود عبدالله بن عامر ومروان بن الحكم ويعلى بن أمية وسعيد بن العاص ، وأنصارهم ، وغيرهم من بني أمية ممن لم ترد أسماؤهم ، يضيف قوة وبعدا سياسيا ، فضلا عما شكله من قوة عسكرية ، سواء بالمال الذي حمله الرجلان واستخدماه في تمويل الحملة ، وبما كان ينتظر أن يأتي عن طريقهما من مساندة مالية وسياسية من دمشق ، وبأتباعهما ، وبصلتهما بقوة المعارضة الرئيسية التي يقبع رئيسها في دمشق مفكرا قلقا مترقبا ومدبرا ، حريصا على متابعة دقيقة ولصيقة لما يجري في المدينة ، وفي إقليم العراق ، ثم في البصرة خاصة ، بعد انتقال المعارضين إليها .

وعنما شعر قادة التجمع بأن هدفهم الوحيد المتفق عليه قد تحدد ساروا إلى البصرة ، من غير أن يتنبه طلحة والزبير وعائشة لأهداف حلفائهم ومرافقيهم الأمويين ، خاصة وأن الأمويين ابتعدوا عن المظهر القيادي المعلن . وبعد وصول التجمع إلى البصرة انضم إليهم أنصار عبدالله بن عامر وشركاؤه في المال والتجارة هناك ؛ ثم بدا أنهم لا يريدون إضاعة أي وقت خشية أن يتنبه أحد إلى النتائج التي ستؤدي إليها تلك التطورات ؛ ولذا فقد حاولوا - بمجرد وصولهم - انتزاع السيطرة على

المدينة من الوالي عثمان بن حنيف الأنصاري ، الذي عينه علي ، كما أشرنا [١] . وهكذا نشب القتال بين الفريقين ، وسط جدال وادعاءات لا يلزمنا أن ننخرط في مناقشتها ، إذ لا جدوى من مثل هذه المناقشة . ثم توصل الطرفان إلى هدنة . وعندما اختلفوا حول شروط تلك الهدنة جمع المعارضون رجالهم في ليلة مظلمة باردة اشتدت فيها الرياح ، وزحفوا على المسجد ، باعتباره المركز والمقر السياسي العام في المدينة ، وتمكنوا من السيطرة عليه ، وأسر الوالي عثمان ابن حنيف . وقد أرادوا قتله لولا أنهم خافوا أن تنحاز الأنصار كلها ضدهم ، فاستشاروا عائشة رضي الله عنها فأمرتهم بإطلاق سراحه ، بعد أن عذبوه ونتفوا لحيته وحواجبه وشعر رأسه . ومن خلال المعركة التي جرت في المسجد وحوله تمكنوا من الاستيلاء على بيت المال ، ووزعوا الأموال على أنصارهم ومن انضم إليهم . وقد قتل في المعركة سبعون رجلا من الحراس وممن كان خف لنجدتهم على عجل عندما وصلتهم أخبار ذلك الهجوم المفاجئ .

وعلى أثر هذا التطور توجه الخليفة إلى البصرة ، ووقعت الحرب – معركة الجمل – التي قتل فيها آلاف من الصحابة وأبنائهم ، وممن شاركوا في الفتوح الإسلامية في الجبهة الشرقية وكانوا عمادها [٢] . ولعل من المناسب أن أنقل هنا وصفا لشدة القتال في معركة الجمل :

«قال عبدالله بن سنان الكاهلي : لما كان يوم الجمل ترامينا بالنبل حتى فنيت ، وتطاعنا بالرماح حتى تكسرت . . . ثم قال علي : السيوف يا بني المهاجرين! فما شبهت أصواتها إلا بضرب القصارين [٣] .» وقد انتهت المعركة بانتصار الخليفة واندحار وتحطيم قوة معارضيه ، وانقشع قتامها عن ستة آلاف ، أو خمسة عشر ألف قتيل ، بين مقل ومكثر من الرواة ؛ وكان من بين القتلى الزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيدالله ، وغيرهم من الصحابة . وقد صار الجمل وهودج راكبته المعلم الرئيسي الذي تدور حوله المعركة ، وكان حامل راية المعارضين يمسك بخطام (رسن) الجمل . وقد

---

(١) ***المصدر نفسه*** ، ص ٤٦١ – ٤٧١ .

(٢) إبن الأثير ، ***الكامل*** ، ص ٢٢١ – ٢٦٣ ؛ وقد بين ابن الأثير أنه التزم بما ذكره أبو جعفر [الطبري] ، باعتباره أوثق من نقل التاريخ ، «فإن الناس قد حشوا تواريخهم بمقتضى أهوائهم .»

(٣) إبن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٣ ، ص ٢٥٩ .

تركزت النبال على الهودج ، كما تركزت السيوف والرماح بدرجة كبيرة على من حمل العلم فقتل عدد كبير ممن حملوه ، واحدا بعد الآخر . ولم تنته تلك المعركة إلا بعدما عمد بعض أنصار علي إلي قطع عرقوبي الجمل ، فهوى إلى الأرض ، وهوى معه الهودج ، فانفض المدافعون عنه ، وهربوا ومعهم غيرهم في كل اتجاه .

ماذا كانت أهداف طلحة والزبير رضي الله عنهما؟

إن أية معارضة لا بد أن تكون لها دوافع وأهداف . وعندما قرر المعارضون للخليفة التوجه إلى البصرة كان قد تحدد لهم هدف عام مشترك تمثل في مناوءة الخليفة الجديد وإيقاف أو إفشال إجراءاته ؛ فإذا كان ذلك هو الهدف العام الوحيد والجامع لمكونات تلك الكتلة ، فهل كانت هناك أهداف ودوافع أخرى تخص كل فريق؟ وهل كان التجمع نفسه قوة واحدة متجانسة ومنسجمة أم أنه كان تجمعا هشا متنوع المكونات ، وغير متجانس الأهداف؟ وهل كانت القيادة الظاهرة هي القيادة الحقيقية المدبرة والمحركة ، شكليا وعمليا ، أم كانت هناك أيد أخرى تعمل على توجيه حركة الأحداث من خلال منظور آخر ، ولأهداف أخرى؟

وقبل أن نلج إلى التخمين والتحليل علينا أن نتوقف لنعرف من قادة هذ التجمع المعارض ، مستنطقين مصادرنا للإستماع إلى ما قاله عدد منهم :

بعد وصول المعارضين إلى البصرة أرسل الوالي عثمان بن حنيف الأنصاري مبعوثين ليسألا عائشة رضي الله عنها ، ويسألا طلحة والزبير رضي الله عنهما ، عن سبب مجيئهم إلى البصرة . فكان السؤال لطلحة : « . . . ما اقدمك؟ قال : الطلب بدم عثمان . قالا : ألم تبايع عليا؟ قال بلى ، واللج [السيف] على عنقي ؛ وما أستقبل عليا [مقاتلا له] إن هو لم يحل بيننا وبين قتلة عثمان .» ثم أتيا الزبير ، فقالا : «ما أقدمك؟ . . . « فأجابهم بنفس الكلمات التي أجاب بها طلحة[1] . وعندما وصل الخليفة إلى البصرة أرسل القعقاع بن عمرو ليلقى عائشة والزبير وطلحة رضي الله عنهم أجمعين ، وليدعوهم إلى الألفة والمحبة والجماعة . وقد بدأ القعقاع بسؤال عائشة عن سبب خروجها ، فأجابت : « إصلاح بين الناس .» ثم طلب منها أن تدعو طلحة والزبير ، فسألهما ، فقالا إنهما متابعان لها ، أي أنهما يريدان الإصلاح بين الناس .

(١) الطبري ، مجلد ٣ ، ص ١٤ (أحداث سنة ٣٦)

فسألهما عن كنه الإصلاح الذي يريدانه ، فأجابا : «الإقتصاص من قتلة عثمان .» ، وفي نص آخر : «غضبا لعثمان وتوبة من خذلانه [١] .»

بيد أن هناك موقفا آخر تنسبه المصادر إلى الزبير ﵁ ؛ فضمن روايته لأحداث سنة ٣٦ هـ نمر بما ذكره ابن كثير عن سبب خروج الزبير إلى البصرة ، حيث يروي أن عليا خرج من بين الصفوف عندما استعد الفريقان للمعركة النهائية وأخذا مواقعهما ، فطلب طلحة والزبير ليكلمهما ، وقد سأل الزبير عن سبب خروجه : «ما أخرجك؟ قال : أنت» ،

ولا أراك بهذا الأمر [منصب الخلافة] أولى به مني . . . فقال له علي : يا زبير ، أنشدك الله ، أسمعت رسول الله ﷺ يقول : إنك تقاتلني وأنت ظالم؟ قال : نعم! لم أذكره إلا في موقفي هذا ، ثم انصرف . . .» معلنا أنه لن يقاتل عليا [٢] . أما طلحة ﵁ فقد جاوب عليا ﵁ بقوله : «ألبت على عثمان . فقال علي : ﴿يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق .﴾ . . . لعن الله قتلة عثمان [٣] . . .» ومع ذلك فإننا نجد في المصادر اتهامات لطلحة بأنه قام بدور رئيسي في تنظيم الحصار على دار عثمان ، وأنه كان يصدر التعليمات للمحاصرين . وأثناء اشتداد الحصار على داره سمع عثمان بنفسه صوت طلحة من وراء الباب وهو يوجه المحاصرين . وروي عن عثمان أنه قال والألم يعصره : «هذا ما أمر به طلحة بن عبيد الله ؛ ثم قال عثمان : اللهم اكفني طلحة بن عبيد الله ، فإنه حمل علي هؤلاء وألبهم . . . إنه انتهك مني ما لا يحل له[٤] .» وربما كان هذا هو السبب الذي حمل مروان بن الحكم على قتل طلحة انتقاما لدم عثمان ، كما تقول روايات أخرى ؛ وإحدى هذه الروايات عن عبدالملك بن مروان ، حيث نسب إليه القول بأن مروان والده قد أخبره أنه قتل طلحة بيده انتقاما لعثمان ؛ وقد ذهب عبدالملك إلى حد القول بأنه لولا أن والده قام بذلك فإنه ، أي عبدالملك ، كان سيقتل جميع أولاد طلحة[٥] .

---

(١) ***المصدر نفسه*** ، ص ٢٩-٣٠ ؛

(٢) إبن كثير ، ج٧ ، ص ١٩٦-١٩٧ ؛ ***وقارن مع الطبري*** ، م ٣ ، ٧٩-٨٠ .

(٣) إبن كثير ، ج ٧ ، ١٩٦-١٩٧ .

(٤) الطبري ، مجلد ٢ ، ص ٦٦٨-٦٦٩ .

(٥) محمد بن سعد ، ***الطبقات الكبرى*** ، مجلد ٣ ، ص ٢٢٣ ومجلد ٥ ص ٣٨ .

إذن ، يمكننا ، بناء على هذه النصوص التي نقلناها من المصادر ، أن نقول إن الأهداف التي أعلنها قادة التجمع – عائشة وطلحة والزبير – كانت :

أولا : الإصلاح بين الناس ، أي الوصول إلى الصلح والسلام والألفة بين المسلمين ،

ثانيا : الإقتصاص من قتلة عثمان .

ثالثا : وهناك تعليل آخر مختلف ، حيث روت بعض المصادر قول الزبير لعلي : لست أولى بالخلافة مني ؛ تضاف إلى هذا معلومة أخرى ، فحواها أن سعيد بن العاص – والي الكوفة السابق في عهد عثمان رضي الله عنه ، سال طلحة والزبير قبيل اندلاع معركة الجمل : « لمن ستكون الخلافة ، فأجاباه : لأحدنا (إي للزبير أو طلحة) ، فأشار عليهما سعيد أن يجعلاها لإبن عثمان بن عفان رضي الله عنه ، أي لبني أمية ، « لكي يكسبوا رضى الأمويين[1] .

وفضلا عن ذلك ، فإننا نلاحظ أن أولى الخطوات التي قامت بها كتلة المعارضة الحجازية الجديدة ، بعد وصولها إلى البصرة ، هي العمل الحربي واستخدام العنف . فهل كان هذا هو «الإصلاح» الذي نشدته وأعلنته بلسان أبرز ثلاث شخصيات فيها؟ أم أن جهة ما دفعتها بعيدا عن هدف الإصلاح إلى هدف آخر هو القتال ضد الخلافة الشرعية لصالح الأمويين؟ وإذا كان الذين ارتكبوا جريمة قتل الخليفة الثالث قد قتلوا في نفس يوم ارتكاب جريمتهم ، فهل كان قصد المعارضة الجديدة مقاتلة القوى التي كانت تمارس دور المعارضة أثناء خلافة عثمان رضي الله عنه ؟ وهل يعني ذلك أنها دخلت في حلف فعلي مع معاوية بن أبي سفيان والكتلة الأموية؟ وهل كان هذا الخيار – بالنسبة لمعارضة طلحة والزبير وعائشة – قد حدث بعد تأمل وتفكير واتخاذ قرار ، وتخطيط مسبق ، أم أن هذه المعارضة الحجازية قد انزلقت إلى هذا المسار دون قصد ، عندما انتبهت فوجدت نفسها في ورطة ، وأنه كان عليها أن تختار واحدا من طريقين : الانضمام إلى الخليفة ، أو إلى والي الشام المتمرد ، أعني معاوية؟ أم أنها ظنت أن بإمكانها الانتصار على عرب البصرة والكوفة ، وتوقعت أن ينضم إليها معاوية بعد ذلك ، ويعلن أنه لم يكن يطمع أو يخطط للوصول إلى الخلافة ، بل كان

---

(١) هنا أيضا تتضمن المعلومة أن الوصول إلى الخلافة كان هدفا ، على الرغم من أن الأهداف لم تكن كلها واحدة بالنسبة لجميع المشاركين .

هدفة إنزال العقوبة بالمعارضة التي كانت في عهد عثمان ، فإذا تحقق إيقاع العقوبة بهم ، فإنه يترك إلى كبار الصحابة تقرير موضوع الخلافة؟ أم أنه محرم على باحث مثلي – أو على أي باحث كائنا من كان – أن يسأل مثل هذه الإسئلة على اعتبار أن الصحابة جيل فوق الأجيال البشرية كلها ، السابقة واللاحقة ، وأن اللجوء إلى هذا النوع من التساؤل ، أو التحليل ، لا يجوز عندما يكون دور الصحابة ، وممارسات الصحابة الموضوع المطروح للنظر؟؟

ويبدو لي أن الأهداف الأموية يجب أن تكون معروفة للقارئ ، ولنا جميعا ، ونحن نتلمس طريق الخلاص من أمراضنا وضعفنا ، ونتطلع إلى نهضة تبعد عنا المهانة والضعة التي عاشت وتعيش فيها أمتنا طوال القرون الأخيرة . فماذا كانت أهداف الأمويين؟

أولا : بعد غياب أمير المؤمنين عثمان عن الساحة انقشع الغطاء والستار الذي كانت العصبة الأموية تستتر به وهي تنفذ خطواتها ، فصاروا إما هاربا ، وإما مختبئا ، بينما كان معاوية متمترسا بولايته على الشام ، وبالقوى القبلية والانصار الذين تمكن من استقطابهم . فلما ظهرت هذه المعارضة (عائشة وطلحة والزبير) في الحجاز كانت طوق إنقاذ للامويين ، فتعلقوا بها ليواصلوا العمل لتحقيق أهداف الأسرة تحت زعامة معاوية .

ثانيا : وقد أرادوا توظيف الثقل المعنوي لهذه المعارضة الجديدة لصالحهم . وعندما ووجهوا باحتمال توجه هذه القوة الجديدة إلى الشام ، ربما للإستعانة بمعاوية وتوظيف قوته لمحاربة علي ، متوخين أن تكون نتيجة الصراع لصالحهم – أي لصالح طلحة والزبير رضي الله عنهما – عند ذلك شعرت القيادة الأموية بالخطر من احتمال حدوث ذلك .

ثالثا : فتولد للأمويين هدف جديد هو إبعاد المعارضة الحجازية عن الشام ، على أن يحولوها إلى العراق . وتحويلها إلى العراق يبعد إمكانية تقزيم مكانة معاوية ودوره في الصراع ، ويفتح بابا لتوظيفها في محاربة أنصار علي عن طريق تفكيكهم وتفريقهم . ولم تكن الزعامة الأموية ساذجة لدرجة تحملها على الظن بأن بإمكان قوة التجمع الذي تشكل بعد قيام خلافة علي رضي الله عنه أن تنجح في التغلب على قوات الكوفة والبصرة عسكريا ، وهي تعد بعشرات الألوف ؛ لكنهم أملوا – على ما يبدو أن يشتتوها بالمكر والدهاء والمال . وفي

هذا الإطار تم إقناع أم المؤمنين رضي الله عنها بمخاطبة بعض زعماء القبائل تطلب منهم مناصرة المعارضة الحجازية ، فإن تعذر ذلك يكتفى منهم بأن يخذلوا الناس عن مناصرة الخليفة أو طاعته ؛ وقد نجحوا في إقناعها بأن تخاطب زعماء القبائل لتحملهم على الانضمام إلى المعسكر المعادي للخليفة ؛ ذلك المعسكر الذي استدرج لتغدو حركته وقتاله ضمن إطار المشروع الأموي ، خادما وتابعا ، دون أن يدري . وهكذا كتبت أم المؤمنين رضي الله عنها إلى زيد بن صوحان العبدي ، وهو من كبار شيوخ قبيلة عبدالقيس ، فقالت :

«من عائشة ابنة أبي بكر أم المؤمنين حبيبة رسول الله ﷺ إلى ابنها الخالص زيد بن صوحان ، أما بعد : فإذا أتاك كتابي هذا فاقدم فانصرنا على أمرنا هذا ؛ فإن لم تفعل فخذل الناس عن علي .»

أي أنها دعته إلى الانضمام هو وأتباعه للتجمع الذي تشكل في مكة وقدم إلى البصرة معاد للخليفة علي بن أبي طالب ، ليشارك وقبيلته في الحرب إلى جانبهم ؛ أما إذا لم يرد أن يصل تحوله وانحيازه إلى هذا الحد فليقم بمعاونة أقل كلفة ، وهي أن يحث الناس على عدم الطاعة ، وعدم اتباع تعليمات الخليفة ، وعدم معاونته والاشتراك في القتال إلى جانبه . لكن زيد بن صوحان رد عليها بإعلان موقف مختلف :

«من زيد بن صوحان إلى عائشة ابنة أبي بكر الصديق حبيبة رسول الله ﷺ ، أما بعد : فأنا ابنك الخالص إذا اعتزلت هذا الأمر ورجعت إلى بيتك ؛ وإلا [فأنا] أول من نابذك .»

ثم علق زيد بن صوحان على رسالة أم المؤمنين بقوله : رحم الله أم المؤمنين!

«أمرها الله أن تلزم بيتها فتركت ما أمرت به وجاءت لتقاتل ، وأمرنا الله أن نقاتل ، فأمرتنا أن نلزم بيوتنا(١)» .

ومن أين لعائشة - رضي الله عنها - المعرفة بالزعامات القبلية ، والتكوينات القبلية في البصرة والكوفة ، لقد اعتمدت على ما قدم لها من مشورة ومعلومات وإيحاءات .

---

(١) الطبري ، ٣ ، ص ٢٢ ؛ وانظر ص ٢٠ و٢٦ - ط بيروت .

التوجه لإنهاء معارضة معاوية وأتباعه:

وإذ تم للخليفة استعادة سلطته على البصرة ، وبايعه أهلها ، فقد غادرها متجها إلى الكوفة ، وهنا شرع يتخذ بعض الإجراءات لإعادة ترتيب الأوضاع في بلاد الشام ، وفي أرض الكنانة . وفي سياق هذا التوجه بعث الخليفة جرير بن عبدالله إلى معاوية بن أبي سفيان ، وحمله «كتابا يعلمه فيه باجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته ، ونكث طلحة والزبير ، وما كان من حربه إياهما ، ويدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه المهاجرون والأنصار من طاعته . فسار جرير إلى الشام ، فماطله معاوية واستنظره ، وفي هذه الأثناء استشار عمرو بن العاص فيما يفعل . وتذكر المصادر أن ابن العاص اقترح عليه أن يجمع زعماء المسلمين في بلاد الشام ، ويؤكد لهم مسئولية علي عن قتل عثمان ليكونوا معه في قتاله للخليفة الجديد(١) . وهكذا تمهد الجو للجولة التالية من الصراع ، على أرض صفين . وما لبث أمير المؤمنين أن بعث طليعة من ثمانية آلاف مقاتل يقودها زيد بن النضر الحارثي ، وبعث معه شريح بن هانئ على رأس أربعة آلاف ؛ وسار الخليفة نفسه عن طريق المدائن متجها إلى الشمال ، وانضم إليه من في المدائن من المقاتلين . ومن هناك وجه قوة من ثلاثة آلاف يقودها معقل بن قيس ليسير بها نحو الموصل حتى يلقاه . وعبر علي بقواته الفرات عند الرقة . وأوصى الخليفة قائد جنده : «وإياك أن تبدأ القوم بقتال إلا أن يبدءوك حتى تلقاهم فتدعوهم وتسمع ، ولا يجرمنك شنآنهم على قتالهم قبل دعائهم ، والإعذار إليهم مرة بعد مرة . . .» (٢) . وفي أول ذي الحجة من السنة نفسها (٣٦ هـ) وجه علي رضي الله عنه وفدا ضم كلا من بشير بن عمرو بن محصن الأنصاري ، وسعيد بن قيس الهمداني ، وشبت بن ربعي التميمي ليدعوا معاوية إلى الطاعة ، وليستمعوا منه . وكان اللقاء ساخنا والحديث المتبادل في غاية الحدة ، بين التخويف بعذاب الله ، والتهديد بالقتال والتدمير . وقد رجع الوفد إلى الخليفة ، وبدأت المعارك بمناوشات بين قوات محدودة العدد من الجانبين ، إلى أن اتسع نطاقها واستعر لظاها . فلما شعر معاوية بخطر الهزيمة أشـير عليه برفع المصاحف مدعيا بأنه يطلب تحكيم القرآن بين الفريقين . وكان الناس قد أثخنتهم وأفجعتهم الحرب ، وتاقوا إلى الصلح والسلام

---

(١) *المصدر نفسه* ، ص ٥٦١ ، ٥٦٢ .

(٢) *المصدر نفسه* ، مجلد ٤ ، ص ٥٦٣ - ٥٦٧ .

فاتفقوا على التحكيم ، وتمكن عمرو بن العاص من إقناع أبي موسى الأشعري ، بفكرة خلع معاوية وعلي كليهما ، ثم دفعه ليكون البادئ بإعلان الموقف المتفق عليه أولا ، فلما جاء دوره نكل عن الاتفاق ، وأظهر تمسكه بخلافة معاوية ؛ وتم ذلك سنة ٣٨ هـ/٦٥٩م ، كما هو معروف ومشهور .

وإذا كان معسكر الخليفة الشرعي قد نجح في أن تكون له اليد العليا في ميادين القتال فإن ما كان لدى خصومه من رصيد مالي تراكم منذ سيطرتهم على شئون الدولة في عهد عثمان رضي الله عنه ، فضلا عما كان لهم من الدهاء السياسي وحسن إدارة الصراع – مع عدم التقيد بالقيم الإسلامية – كل ذلك مكنهم من أن يغيروا النتيجة النهائية لصالح مشروعهم العائلي . ونستعرض هنا بعض الأمثلة من محاولاتهم لتفتيت قوة خلافة أمير المؤمنين علي وشراء أنصاره ، وذلك أثناء احتدام المعارك بين الجانبين :

١) أثناء حرب صفين اتفق الطرفان على هدنة في شهر محرم سنة ٣٧هـ ، وترددت الوفود بينهما من أجل حل النزاع سلميا . ومن تلك الوفود بعث علي جماعة كان من بينهم زياد بن خصفة التيمي . وبعد المفاوضات والمجادلات ترك الموفدون معاوية وعادوا إلى معسكر علي .

« **فلما انصرفوا بعث معاوية إلى زياد بن خصفة التيمي فخلا به . . . وقال :**

. . . وإني أسألك النصر عليه [على علي] **بأسرتك وعشيرتك ، ثم لك عهد الله جل وعز ميثاقه أن أوليك – إذا ظهرت – أي المصرين أحببت ،** [أي الكوفة أو البصرة]

فرد خصفة : أما بعد ، فإني على بينة من ربي وبما أنعم علي ، فلن أكون ظهيرا للمجرمين . ثم ترك معاوية وانصرف(١) .

٢) ولم ييأس معاوية من فشل محاولته مع زياد بن خصفه ، فوجه رسالة إلى قائد أخر في صفوف قوات الخليفة :

«**وبعث معاوية إلى خالد بن المعتمر ، وهو أمير الخيالة لعلي ، فقال له : إتبعني على ما أنت عليه ولك إمرة العراق ؛ فطمع فيه** [خالد] **، فلما**

---

(١) الطبري ، م ٣ ، ص ٧٩ – ٨٠ .

ولي معاوية ولاه العراق ، فلم يصل إليها خالد رحمه الله . . .[1]» .

٣) وبعد أن تولى علي رضي الله عنه الخلافة اشتد الصراع السياسي بين الجانبين ، خاصة على مصر والعراق . وقد نجح أنصار معاوية في قتل مالك بن الحارث النخعي ، الملقب بالأشتر بتقديم طعام مسموم له بينما كان في طريقه إلى الفسطاط ليتولى إدارة مصر بعد أن عينه الخليفة للقيام بذلك . وعلى الأثر اختار الخليفة قيس بن سعد بن عبادة لولاية مصر ، وتمكن قيس من الوصول إلى ولايته ، ونجح في فرض سيطرته عليها ، وبقيت قرية واحدة ، أو سمها بلدة ، موالية لمعاوية . وكان الوالي الجديد يتصف بالدهاء والحكمة وحسن السياسية ، ففضل ترك أنصار الأمويين محصورين في ذلك الموقع ليتدبر أمرهم على مهل .

وهنا بادر معاوية بالكتابة إلى قيس بن سعد طمعا في استمالته :

« إلى قيس بن سعد : سلام عليك . . . فإن استطعت يا قيس أن تكون ممن يطلب بدم عثمان فافعل ؛ تابعنا على أمرنا ولك سلطان العراق إذا ظهرت ما بقيت ، ولمن أحببت من أهلك سلطان الحجاز ما دام لي سلطان . وسلني غير هذا ما تحب .»

أي أن معاوية حاول أن يبعد عن الخليفة واحدا من أهم أنصاره وأكثرهم قدرة ، لكي يتخلى عن ولائه للخلافة ، ويتحول إلى مناصرة المشروع الأموي ، لقاء وعود بأن تكون له ولأقاربه ولايتا العراق والحجاز إذا انتصر معاوية[2] . وعندما تأكد معاوية أن قيس بن سعد لم يكن ممن يستطيع شراءهم بإغراءات المال والمناصب فقد لجأ إلى الكيد والدس بالتشاور مع عمرو بن العاص ؛ فقد اختلق قصة تفيد أن قيس بن سعد كان من أتباعه ، وانه يتراسل معه ، وعمل على إشاعة هذه القصة ونشرها وقد حرص على أن تصل إلى الخليفة في الكوفة . ويبدو أن عليا رضي الله عنه صدق الرواية المزورة فعمد إلى عزل سعد بن قيس عن ولاية مصر ، فخلا الجو للأمويين ،

٤) أرسل معاوية حملة قادها عمرو بالعاص لاستعادة مصر من الوالي الجديد الذي كان عينه علي ، وهو محمد بن أبي بكر ، وقد تعهد معاوية لعمرو بأن يجعل

(١) إبن كثير ، ***البداية*** ، ج ٧ ، ص ٢١٦ . ويبدو أن خالد مات قبل وصوله إلى مقر ولايته .

(٢) (عبدالرحمن بن الجوزي ، ***المنتظم*** ، م ٣ ، ص ٣٤٣- ٣٤٤ ،) أحداث سنة ٣٦ هـ .

مصر طعمة له طوال حياته ، أي أن يكون عمرو هو الوالي ، وأن يكون له دخل ولاية مصر كله ، لا يرسل منه شيئا إلى معاوية في دمشق ؛ وقد تحقق ذلك بعد أن نجح عمرو في إعادة الاستيلاء على مصر ، وتم قتل الوالي الجديد محمد بن أبي بكر وإحراق جثته . ويبدو أن عمرو بن العاص قد نجح - قبل وفاته - في أن ينتزع موافقة معاوية على أن يكون عبدالله بن عمرو بن العاص واليا على مصر بعد وفاة والده ، وقد تحقق ذلك أيضا .

ومن المعروف ، ومما مر معنا خلال هذه الدراسة ، أن عمرو بن العاص كان ناقما على عثمان رضي الله عنه بعد أن عزله عن ولاية مصر ، وكان يحرض عليه أشد التحريض ، كما مر معنا ، بل وطلق زوجته وكانت أخت عثمان لأمه انتقاما من الخليفة . ومع ذلك فإن عداوة عمرو لم تصرف معاوية عن محاولة تجنيده إلى جانبه ، ونجح في ذلك ، **فبايعه عمرو «على قتال علي بن أبي طالب** .

والأمثلة التي أوردناها تناولت محاولات معاوية لإبعاد القادة البارزين من أنصار علي عنه ، ولذلك فقد اهتم المؤرخون بهذه المحاولات وسجلوها . بيد أن معاوية لم يكن ليقف عند هذا الحد ؛ فعلى مستوى الأشخاص العاديين (غير الشخصيات المهمة والقيادات) لا بد أن معاوية بذل جهودا كبيرة وأموالا ضخمة ، سيما وأن فروعا من القبيلة الواحدة كانت موزعة بين علي ومعاوية ، وقد ظهر ذلك بوضوح أثناء حرب صفين . وهذه الحقيقة تركت الفرصة لمعاوية ليحاول اجتذاب أكبر عدد ممكن من الأفراد والجماعات التي ضمت أناسا عاديين ، خاصة من المستوى الأدنى الذي يغلب عليه الجهل ، فهجروا معسكر علي وانضموا إلى معسكر معاوية ، حيث لهم أقارب فيه .

وبعد التحكيم اهتز ميزان القوى بين معسكري علي ومعاوية لصالح الأخير ، حتى لقد علق رجال من قريش فعللوا ذلك بضعف القدرات القيادية لعلي ، حين قالوا : «إن ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب[1] .» وقد رد علي عليه السلام على ذلك بقوله : «لله أبوهم . . وهل أحد منهم أشد لها مراسا وأقدم فيها مقاما مني؟ لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين وها أنا ذا قد ذرفت على

---

(١) *نهج البلاغة* ، ص ٥٨ .

الستين ، ولكن ، لا رأي لمن لا يطاع[1] .» والذي يظهر لي بوضوح من هذا النص المقتبس أن مدلول كلمة «الحرب» في كلام القرشيين المنتقدين لعلي يختلف عما عبر عنه علي رضي الله عنه بالكلمة نفسها ؛ علي عليه السلام قصد الفعل القتالي الجسدي الذي كان يقوم به بنفسه ، بيديه وجسده ، ضربا بالسيف ، وطعنا بالرمح ؛ أما القرشيون فقد كانوا يعنون «الحرب» بمعناها العام ، حالة مستمرة لشهور أو سنين ؛ وتعبير «لا علم له بالحرب» يقابله في عصرنا ، واستعمالنا الحديث : «لا يحسن ، أو لا يعرف كيفية إدارة الصراع .» ولسائل أن يسأل : «وما هي الأدلة التي استندوا إليها؟ الأدلة لم ترد في المصدر الذي نقلنا عنه ، وهو نص خطاب للإمام علي ورد في كتاب نهج البلاغة ، كما بينا في الحاشية ، ولم يبق لنا إلا التحليل والاستنتاج ، اعتمادا على المادة التي توفرها لنا المصادر الأصلية التي بين أيدينا ، ومنها كتاب نهج البلاغة نفسه ؛ وربما كانت الأسباب أو بعضها ، في نظرهم :

١) أنه لم يحسن اختيار ممثله في عملية التحكيم ، أو ترك الاختيار لغيره .
٢) أنه ترك محاربة خصمه الرئيسي وشغل نفسه بمحاربة الخوارج فقتل منهم أعدادا كبيرة ينتمون إلى معظم القبائل التي كانت تناصره ، وتكون جيشه فضعف ولاء أنصاره له وانضم كثيرون منهم إلى أعدائه .
٣) أنه كان شديد الاعتداد بنفسه ، سريعا إلى إهانة من يخاطبه باللعن والشتائم ؛ ومن أمثلة ذلك :

- بينما كان يخطب في مسجد الكوفة علق الأشعث بن قيس - شيخ قبيلة كندة على مقطع من كلامه بقوله : يا أمير المومنين ، «هذه عليك وليست لك» فسارع علي رضي الله عنه بانتهاره بقوله : ما يدريك ما علي مما لي؟ عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين ، حائك ابن حائك ، منافق ابن كافر[2] . . .» وكانت كلمة حائك عند القبائل اليمانية من أسوأ وأصعب الشتائم .

---

(١) *المصدر نفسه* ، ص٥٩ .

(٢) وسنجد الحجاج بعد أربعين سنة يشتم حفيد الأشعث ، عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث ، بنفس الكلمة «يا ابن الحائك» ؛ أنظر *نهج البلاغ* ، ص ٤٨-٤٩ ، وانظر الفصل الرابع ص ١٢٨ من هذا الكتاب .

- وفي موقف آخر ، عندما قتل عثمان ﷺ رأى طلحة بن عبيدالله عليا غاضبا فسأله : مالك يا أبا الحسن ضربت الحسن والحسين . . .؟ فرد عليه : عليك وعليهما لعنة الله[١] . . .»
- وفي خطب علي التي ضمها كتاب **نهج البلاغة** نجد كثيرا من الأمثلة التي يشتم فيها أنصاره بكلمات مهينة ، وهو يخطب فيهم ويحثهم على قتال عدوهم : «يا أشباه الرجال ولا رجال ، حلوم الأطفال ، وعقول ربات الحجال ؛ ليتني لم أركم ولم أعرفكم .[٢] . .» وكان ذلك مما يهدم روحهم المعنوية ويثبطهم ويضعف ولاءهم له .

٤) وأنه انخدع بسهولة بالإشاعات التي أطلقها معاوية ليشككه في أهم أنصاره وأقواهم وأكثرهم حنكة ودهاء ، قيس بن سعد بن عبادة ، فعزله عن ولاية مصر وعين بدلا منه شابا صغيرا قليل الخبرة ، وهو محمد بن أبي بكر .

٥) وبجانب ذلك فإن عددا غير قليل من كبار الصحابة رأوا أن عليا كان «سريعا إلى الدماء ، بعيدا عن التروي ، وإعطاء فرصة من الوقت المناسب للوصول إلى حل مقبول وعملي يتجنب إراقة الدماء بين المسلمين» ؛ وكان من أبرز الصحابة في هذا الفريق سعد بن أبي وقاص وأبو موسى الأشعري ، رضي الله عنهما[٣] ، ولعل هذا هو ما حمل الأخير على الموقف الذي تبناه في عملية التحكيم بصفين .

ومما لا ينبغي أن يند عن ملاحظتنا وإدراكنا أن إقدام الخليفة على تجريد السيف على الخوارج - الذين كانوا قبل انشقاقهم عنه ضمن جيشه - وقتله لهم لم يمر دون آثار سلبية ؛ بل الحقيقة أن هذا التصرف ، من جانب الخليفة ، وإن كان جائزا من الناحية الشرعية فإنه لم يكن العمل الأنسب من حيث نتائجه السياسة . لقد كان أولئك الخوارج أفرادا جمعهم توجه اعتقادي واحد ، وفهم للموقف على نحو معين اتفقوا عليه ، بيد أنهم لم يكونوا من قبيلة واحدة أو قبيلتين ، بل كانوا ينتمون إلى عدد كبير من القبائل ، أو ربما لمعظم القبائل . وهكذا كان قتلهم - حسب تقديري -

---

(١) أنظر الوثيقة الأولى ، ص ٤٧ من هذا الكتاب .

(٢) أنظر ص ٧٦ من هذا الكتاب ؛ وانظر ***نهج البلاغة*** ص ٥٥-٦١ و٩٢ .

(٣) أنظر ***صحيح البخاري*** . . . .

خطأ جسيما من منظور حسن إدارة الصراع . ومما يصدق ذلك ما نجده من تطور سلبي ظهر في فتور حماســة من بقي مع الخليفة من أنصاره ؛ وذلك الفتور والعصيان كان مناقضا لما كان أتباعه يظهرونه من إقدام وتصميم وشجاعة في معارك المرحلة الأولى من مواجهات صفين ، أي قبل التحكيم . فلما سمح الخليفة لغضبه أن يحمله بعيدا عن الحذر من العواقب فقد دمر بتصرفه ولاء كثيرين من أنصاره له ، ففترت حماستهم ، أو تلاشت . ومما يؤكد صحة هذا التفسير تلك النغمة المتسمة بالحزن واليأس ، التي ظهرت بعدما أحس الخليفة وأدرك بشكل واضح أن طاعة أنصاره قد ضعفت أو انعدمت ؛ فجعل يؤنبهم ويهينهم بعبارات شديدة ربما زادت من نفورهم ؛ ومن أمثلة ذلك :

«كم أداريكم كما تدارى البكار العمدة ، والثياب المتداعية ؛ كلما حيصت من جانب تهتكت من آخر . . . أكلما أطل عليكم منسر من مناسر أهل الشام أغلق كل رجل منكم بابه!

الذليل والله من نصرتموه ، ومن رمي بكم فقد رمي بأفوق ناصل .» «أما والذي نفسي بيده ليظهرن هؤلاء القوم عليكم ليس لأنهم أولى بالحق منكم ، ولكن لإسراعهم إلى باطل صاحبهم وإبطائكم عن حقي . ولقد أصبحت الأمم تخاف ظلم رعاتها ، وأصبحت أخاف ظلم رعيتي . أستنفرتكم للجهاد فلم تنفروا . . . ودعوتكم سرا وجهرا فلم تستجيبوا ؛ . . . أشهود كغياب ، وعبيد كأرباب . . .» «أيها القوم الشاهدة أبدانهم ، الغائبة عقولهم . . . وددت والله أن معاوية صارفني بكم صرف الدينار بالدرهم ، فأخذ مني عشرة منكم ، وأعطاني رجلا منهم[1] . «يا أشباه الرجال ولا رجال ، حلوم الأطفال وعقول ربات الحجال . . . وددت أني لم أركم ، ولم أعرفكم ، معرفة والله جرت ندما ، وأعقبت سدما . . .»

ومن إحدى مجموعات الخوارج ظهرت عصبة ثلاثية جعلت مهمتها قتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وقتل معاوية بن أبي سفيان ، وعمرو بن العاص . ولم يتيسر لخطتهم إلا نجاح جزئي ، إذ تمكن عبدالرحمن بن ملجم من اغتيال الخليفة ، بينما

(١) ***نهج البلاغة*** ، تح . محمد عبده ، ص ٩٢ ، ١٤٣ - ١٤٤ .

فشلت المحاولتان الأخريان ضد معاوية وعمرو بن العاص(١) . والخطأ الظاهر في هذا الموقف الذي تبناه الخوارج أنه سوى بين الفريقين ، وهي مساواة جانبت العدل والصواب معا ؛ فعلي كانت خليفة شرعيا ، بينما كان معاوية وال متمرد ، وكانت حجته التي أكثر من تكرارها : «**ليسلم لنا [علي] قتلة عثمان ، ونحن نسلم إليه أمره» ، أي الخلافة .**

من هم قتلة عثمان؟

وهذا العنوان السؤال ، أعني مقولة «المطالبة بقتلة عثمان» لم يخضع للتحليل والمناقشة من المؤرخين الحديثين فيما أعلم ، ولذا فإننا بحاجة إلى الوقوف عنده قليلا :

من هم قتلة عثمان؟ إن أي جريمة قتل تعرض لها شخص واحد في مجتمع المدينة في الحجاز سنة ٣٥ للهجرة لا يمكن أن يقوم بها آلاف أو مئات أو عشرات من الناس . وهذا يصدق على جرائم القتل في عصرنا الحديث أيضا . والروايات التاريخية التي بين أيدينا كلها تذكر أن الذين ارتكبوا جريمة قتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه ، في ذلك اليوم الأغبر من تاريخ المجتمع الإسلامي الأول ، كانوا ثلاثة أفراد أو أربعة ؛ أو خمسة ، وهبهم عشرة . **والذين ذكرت أسماؤهم – مع الاختلاف في الروايات – على وجه التحديد هم : محمد بن أبي بكر الصديق ، وسودان بن حمران السكوني ، أو المرادي ، وقتير السكوني ، وكلثوم بن تجيب ، وكنان بن بشر بن عتاب التجيبي ، ونهران الأصبحي ، وعمرو بن الحمق . وقد ورد اسم طلحة بن عبيد الله على أنه وجه الثائرين لمحاصرة دار الخليفة ، وأنه خاطب عثمان بلغة شديدة ، بل وقد اتهم بأنه هو الذي قتل عثمان ، رضي الله عنهما . فقد أورد محمد بن سعد – المتوفى سنة ٢٥٠هـ – أن مروان قتل طلحة بيده . وكان مروان قد قاتل قتالا شديدا في معركة الجمل ، فلما استيقن بأن الهزيمة حلت بمعارضي على بن أبي طالب ، نظر إلى طلحة بن عبيد الله فوجده واقفا يتأمل آثار الهزيمة المحققة ، فقال مروان : «والله إن دم عثمان إلا عند هذا ؛ هو كان أشد الناس عليه ، وما أطلب أثرا بعد عين ؛**

---

(١) السيوطي ، *تاريخ الخلفاء* ، ص ١٧٤ – ١٧٥ ؛ وللإطلاع على تفاصيل أكثر أنظر : الطبري ، ٤٤٢ – ٥٧٦ ، ومجلد ٥ ، ص ١ – ١٥٢ ؛ إبن الأثير ، *الكامل* ، مجلد ٣ ، ص ٢٦٨ – ٣٩٦ .

ففوق إليه سهما فرماه به فقتله . وفي رواية أخرى لابن سعد أن مروان رأى فرجة في درع طلحة فرماه بسهم فقتله . وقد نسب إلى مروان القول : «والله لا أطلب قاتل عثمان بعدك .» وبعد مضي ثلاثين سنة على معركة الجمل أعلن عبد الملك بن مروان ، وهو في منصب الخلافة ، «أن والده مروان أخبره بأنه قتل طلحة بيده ، وأقسم أمامه أنه لولا ذلك الاقتصاص المبكر لما ترك من ولد طلحة أحداً إلا قتله بعثمان بن عفان» (١) .

وبينما نراجع الروايات التي وصفت بعض تفاصيل مشهد قتل ذي النورين رضي الله عنه نقرأ أن غلمان عثمان قتلوا اثنين من المجرمين الحقيقيين وهما في دار عثمان ، قبل أن يتمكنا من الهرب ، وهما سودان السكوني ، وكلثوم التجيبي . ومن المرجح أن هذين الشخصين هما القاتلان الحقيقيان دون غيرهما . أما محمد بن أبي بكر الصديق فقد قيل إنه شارك في قتل عثمان ، بينما نجد في الوثيقة الأولى قولا ، يفيد بأنه لم يقتل بيده ، وأنه انسحب وخرج من الدار عندما ذكره عثمان بعلاقته بأبيه ، رضي الله عنهما(٢) . ومهما يكن من أمر ، فقد قتل أنصار الأمويين محمد بن أبي بكر في مصر وأحرقوا جثته .

وفي ضوء ذلك يتبين لنا أن المطالبة بتسليم قتلة عثمان لم تكن إلا ذريعة تبريرية لتمرد معاوية ، وكانت تخفي هدفين حقيقين : الأول وصول معاوية إلى الخلافة ، واستعادة السيطرة الأموية على الدولة بعد أن تلاشت على أثر غياب عثمان رضي الله عنه ، والثاني : القضاء على المعارضة التي ظهرت في عهد عثمان رضي الله عنه ، والتي كان دافعها وباعثها التخلص من السيطرة الأموية ؛ ومن الواضح أن الهدف الثاني كان مكملا للهدف الأول .

الحسن بن علي يتولى الخلافة:

وبعد هذه الحادثة المفجعة بايع أنصار علي ابنه الأكبر ، الحسن بن علي بالخلافة سنة أربعين من الهجرة ، لكن فترة خلافته استمرت ستة أشهر فقط . وفي نفس

(١) محمد بن سعد ، ***الطبقات الكبرى*** ، مجلد ٣ ص ٢٢٣ ، ومجلد ٥ ، ص ٣٨ .

(٢) أنظر الجزء الأخير من الوثيقة الأولى ص ٤١-٤٢ من هذا الكتاب .

السنة بايع مسلمو الشام معاوية بالخلافة ، في بيت المقدس . وكان الحسن - بطبيعة شخصيته - غير ميال إلى حياة الصراع ، وتوظيف وقته في الإعداد للمواجهات والمعارك . ولذا فإن موقفه سرعان ما تغير بشكل كامل وحاسم ، فصار ميالا إلى الانسحاب من المعركة وترك ساحة الصراع ، سيما عندما اكتشف الخلل في صفوف القوى التي كانت تعتبر من أنصاره . ولذا بادر بالكتابة إلى معاوية ، عارضا شروطا ذيلها بقوله : «إن أنت أعطيتني هذا فأنا سامع مطيع ، وعليك أن تفي لي به .» وقال لأخيه الحسين : إنني قد راسلت معاوية في الصلح . فقال له الحسين : أنشدك الله أن تصدق أحدوثة معاوية وتكذب أحدوثة أبيك! فقال له الحسن : أسكت ، أنا أعلم بالأمر منك .[1] «والذي نجده في **صحيح البخاري** يجعلنا نرجح أن المبادرة جاءت من جانب معاوية ، وليس من جانب الحسن رضي الله عنه . فرواية البخاري تخبرنا أنه قد تبين لمعاوية أن الحسن لديه قوات كبيرة ليس من السهل هزيمتها ، وقد دار بشأن ذلك حديث بينه وبين عمرو بن العاص ، وانتهى إلى أن وجه مبعوثين ليفاوضا الحسن في شأن إنهاء الصراع صلحا لا حربا . والمبعوثان هما : عبدالرحمن بن سمرة ، وعبدالله بن عامر بن كريز ، فقال لهما :

«إذهبا إلى هذا الرجل فاعرضا عليه وقولا له واطلبا إليه ؛ فأتياه فدخلا عليه فتكلما ، وقالا له وطلبا إليه . فقال لهما الحسن بن علي : إنا بنو عبدالمطلب قد أصبنا من هذا المال ؛ وإن هذه الأمة قد عاثت في دمائها . قالا : فإنه يعرض عليك كذا وكذا ، ويطلب إليك ويسألك . قال : فمن لي بهذا؟ [أي من يضمن لي هذا؟] قالا : نحن لك به ؛ فما سألهما شيئا إلا قالا : نحن لك به ؛ فصالحه .[2] . .»

ويبدو واضحا تماما من هذا النص الذي اجتزأناه - وقد تركت المقدمة التي لا تضيف شيئا - يبدو واضحا أن الإمام البخاري رضي الله عنه تعمد حذف الحديث عن المال ، وعن ذكر المبالغ التي عرضت وطلبت من الجانبين ، سوى ما ذكره الحسن رضي الله عنه من عبارة «**إنا بنو عبدالمطلب قد أصبنا من هذا المال . . .**» ويبدو أن حرص البخارى

---

(١) إبن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٣ ، ص ٤٠٥ .

(٢) ***صحيح البخاري*** ، كتاب الصلح ، باب قول النبي ﷺ للحسن بن علي . . . إن ابني هذا سيد . . . ، ص ٢١٥

كان احتراما للحسن ، وتنزيها له عن المال : (يعرض عليك كذا وكذا) ، ولذلك أقدم على هذا الحذف . بيد أن روايات أخرى حفظها لنا عدد من المؤرخين الذين هم من كبار أئمة الإسلام أوردت هذه التفاصيل ، مع اختلافات يسيرة في المقادير ؛ فعدا عن رواية ابن الأثير نجد روايات أخرى عند إبن كثير ، وعند الحافظ الذهبي – وهو شيخ ابن كثير وأستاذه – وعند الإمام الطبري ، والإمام السيوطي ، وغيرهم ، تتحدث كلها بشئ من التفصيل عما فضل البخاري عدم ذكره بوضوح ، مستخدما مفردات الإبهام المقصود : «كذا . . وكذا» .

وكان معاوية قد بعث إلى الحسن – في نفس الفترة الزمنية – وفدا ضم كلا من عبدالله بن عامر بن كريز بن حبيب بن عبدشمس ، وعبدالرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس – وهما من أبناء عمومة الأمويين – وحملهما صحيفة بيضاء في أسفلها ختمه ، عارضا عليه أن يضع الشروط التي يريدها مقابل اعترافه بخلافته . فلم تصل رسالة الحسن إلى معاوية إلا بعد مغادرة موفديه دمشق متجهين إلى الكوفة ، ولم تصل رسالة معاوية إلى الحسن إلا بعد مغادرة رسوله إلى دمشق ، حاملا رسالته إلى معاوية . وتذهب إحدى الروايات التي بين أيدينا إلى القول بأنه بعد أن صارت رسالة معاوية في يد الحسن ، ووجد فيها توقيعا على صحيفة بيضاء ، ضاعف الشروط التي قدمها لمعاوية وطلب منه تلبيتها . وعلى أثر ذلك ، تخلى الحسن عن الخلافة ، واعترف بخلافة معاوية ، ثم طالبه بأن يوفي له بجميع الشروط التي سجلها له في الصحيفة البيضاء . لكن معاوية رفض قائلا : أعطيتك ما طلبته بنفسك[1] .

وكان الحسن قد اشترط على معاوية أن يعطيه ما في بيت مال الكوفة ، ومقداره خمسة آلاف ألف درهم (خمسة ملايين) – حسب الرواية التي حفظها لنا ابن كثير – وخراج منطقة (دارابجرد) من فارس ، وأن لا يشتم عليا . غير أن معاوية رفض الكف عن شتم علي ، فتنازل الحسن عن هذا الشرط طالبا ألا يشتم أبوه وهو يسمع ، فوعده معاوية بذلك لكنه لم يف بوعده . ونعرف أن الإمام علي رضي الله عنه ظل يشتم على المنابر ، ليس في بلاد الشام وحدها ، بل وفي أماكن أخرى منها المدينة ، والبصرة والكوفة . وقد ظلت الشتائم جزءا من خطب الجمعة حتى ولاية عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه ، فأبطلها سنة تسع وتسعين للهجرة ، وأحل محلها نص الآية الكريمة : «إن الله

(١) *المصدر نفسه* ، ص ٤٠٥ .

يأمر بالعدل والإحسان ، وإيتاء ذي القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ، يعظكم لعلكم تذكرون .[(١)]» وأما خراج إقليم (دارا بجرد) فلم يصل إلي الحسن ، لأن أهل البصرة اعترضوا على ذلك ، وقالوا إن هذا فيؤنا ولا نعطيه لأحد . وكان معاوية قد أمرهم بذلك ، أي بالاعتراض على هذا الشرط[(٢)] . وقد ذكر السيوطي نقلا عن البيهقي وابن عساكر أن عطاء الحسن السنوي – من معاوية – كان مئة ألف «فحبسها [معاوية] عنه في إحدى السنين فأضاق[(٣)] إضاقة شديدة . . . حتى بعث إليه معاوية بألف ألف وخمسمئة ألف . .[(٤)] .»

والأمر المهم – بعد كل ما مر من أحداث وتقلبات – أن الخلافة انتقلت إلى معاوية بن أبي سفيان بعدما كان قد بذل جهودا من التفكير والتخطيط والتنفيذ استمرت سنين طويلة ، ربما بلغت عشرين سنة ، طوال ولايته في بلاد الشام قبل وصوله إلى الخلافة ، وتكللت بالنجاح في نهاية المطاف .

---

(١) عندما كان مروان بن الحكم أميرا على المدينة كان يسب عليا على المنبر كل جمعة ، والحسن بن علي يسمع فلا يرد . أنظر السيوطي ، ***تاريخ الخلفاء*** ، ص ١٩٠ ؛ إبن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٥ ، ص ٤٢ – ٤٣ ؛ والآية هي رقم (٩٠) من سورة النحل . وقد عادوا إلى الشتم بعد عمر بن عبدالعزيز ، حتى لقد طلب أحد أبناء عثمان ﷺ من هشام بن عبدالملك أن يشتم عليا ، فرد عليه هشام بأنه جاء للحج وليس للشتم .

(٢) إبن الأثير ، الكامل ، مجلد ٣ ص ٤٠٥ ؛ وانظر السيوطي ، ص ١٩٠ ، حيث ذكر أن مروان كان يسب عليا كل جمعة على المنبر ، وحسن يسمع فلا يرد ، وذلك حين صار مروان أميرا على المدينة في خلافة معاوية .

(٣) أي أنه أعسر ولم يعد معه نقود ، وضاقت به الحال لهذا السبب .

(٤) ***السيوطي*** ، ص ١٩٣– ١٩٤ ؛ والمصدر لم يحدد نوع العملة وما إذا كانت بالدراهم أو بالدنانير .

الفصل الثالث
الأمويون يغتصبون السلطة: أول انقلاب عسكري في الإسلام

مقدمة:

يعتبر الاجتماع الذي عقده عثمان ، رضي الله عنه ، لولاة الأقاليم سنة ٣٤ هـ نقطة أو محطة مفصلية بالنسبة لتطور مشروع العصبة الأموية والقائمين عليه . لقد اشتدت المعارضة لسيطرة وممارسات العصبة الأموية ، وشعر الخليفة نفسه بذلك . ولذا فقد استدعى ولاة الأقاليم للإجتماع به ، وهم أنفسهم قادة القوات المرابطة فيها . وكان أولئك الولاة كلهم أمويين ، باستثناء عمرو بن العاص الذي كان زوج أخت الخليفة لأمه ، أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط . وقد أراد معاوية أن يستغل الموقف ، تحت علم الخلافة وباسمها ، إذ اقترح على عثمان رضي الله عنه أثناء الاجتماع أن ينتقل معه إلى دمشق ليكون في أمان على حياته . لكن الخليفة ربما يكون قد أحس – على ما يبدو لي– بأن ذلك الانتقال المقترح سيفصله عن إخوانه من الصحابة ، ويبعده عن إطارهم وأجوائهم وذكرياتهم ، ويعرضه إلى الغرق في الإطار الأموي ، فيتلاشي دوره وشخصيته في ظل دور الزعيم الفعلي للعشيرة الأموية ، أي معاوية ، وبذلك يفقد الخليفة القدرة على القيام بأي دور مستقل ، بل وربما اختفى عن الأنظار بحكم تقدمه في العمر وما يتبعه من ضعف القدرة على الحركة ؛ ولكل هذا فقد رفض الفكرة . وبعد ذلك اقترح عليه معاوية أن يبعث له قوة عسكرية من الشام ترابط في المدينة لتقوم بحمايته ، فرفض الخليفة ذلك الاقتراح أيضا ، وقال له إنني لا أريد أن أضيق على أهل المدينة . ويبدو أنه توقع أن تكون هذه القوة غير خاضعة لتوجيهاته ، متعسفة في التعامل مع المدينيين[١] . ومعنى ذلك أن المشروع الأموي كان خارجا عن

---

(١) ولعل الخليفة كان يشير إلى هذا الاقتراح عندما خاطب المعارضين المحتشدين أمام داره بقوله : «فإني كففت عنكم من لو كان هو الذي يكلمكم لرضيتم منه بدون منطقي هذا . . .» ، ص ٤٢ أعلاه .

رؤية عثمان رضي الله عنه ، وخارجا عن إرادته ، كما أشرنا في غير هذا المكان .

ثم تسارعت الأحداث بعد ذلك بشكل ربما يبدو مفتعلا ومنسقا ؛ فقد ازداد الضغط على الخليفة عندما لم يتحقق التغيير الذي انتظره المعارضون ، فخرج مروان فأهان المتجمعين على باب دار الخليفة وشتمهم ، ثم زور رسالة باسم الخليفة ، ومن غير علمه ، تأمر عبدالله بن أبي سرح بعدم الامتثال لقرار عزله ، والبقاء في منصبه ، وقتل محمد بن أبي بكر الذي كان قد صدر قرار وإعلان بتعيينه واليا على مصر ، وقتل زعماء الوفد المعارض الذي جاء من مصر إلى المدينة ؛ وقد تأججت المعارضة بعد اكتشاف رسالة مروان المزورة ، ثم قتل الخليفة إذ انفلتت العواطف المتأججة والأحقاد(١) . وقد ارتج مجتمع المسلمين لقتل الخليفة الثالث ، وبويع علي بالخلافة من قبل الأغلبية ، وظهرت المعارضة الحجازية ، إلى آخر ما ذكرناه من هذه التطورات بتفصيل أكبر .

قيام الدولة الأموية:

وقامت الدولة الأموية سنة ٤١ هـ/٦٦٢م واستمرت اثنتين وتسعين سنة هجرية ، وسقطت سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م ؛ وهذه المدة تساوي عمر شخص واحد . ولسنا نحاول أن نؤرخ للدولة الأموية هنا ، لا بمعنى التاريخ الشامل ، ولا المتصل ؛ وإنما نريد أن نستخرج من سيرة هذه الدولة المشاهد والأحداث المفصلية والرؤى والمواقف التي نعتبرها العوامل الرئيسية التي ساهمت في إضعاف بنية الحضارة الإسلامية وركزت وقوت وجسدت في إطار سياسي واحد فاعل كل جراثيم المرض التي أنهكت كيان هذه الحضارة حتى أردتها ، كما أشرنا في مقدمة هذا الكتاب ، وكما سنظل نذكر القارئ من حين لآخر ، لنصرف عنه الإحساس بأنه يقرأ تاريخا مجزءا .

لقد مر تاريخ الدولة الأموية في ثلاث مراحل :

أولا : مرحلة الإعداد ، وقد استمر ت طوال خلافة عثمان رضي الله عنه ، أي قبل قيام الدولة وخلافة معاوية ،

ثانيا : مرحلة الانقضاض والتثبيت ، وهي مرحلة حكم معاوية وابنه يزيد ،

ثالثا : ثم المرحلة المروانية ، (٦٤ هـ - ١٣٢ هـ)

---

(١) أنظر الوثيقة الآولى ، ص ٣٩-٤٢ من هذا الكتاب .

أهداف الدولة الأموية في المرحلة الأولى بعد قيامها:

بعد قيام الدولة الأموية وتولي معاوية بن أبي سفيان المنصب الأعلى فيها ، أي الخلافة ، حدد له هدفا رئيسيا واحدا ، وكل ما عدا الهدف الوحيد تبع له ؛ وهذا الهدف هو :

تثبيت حكم بني أمية وديمومته في أسرته .

ولتحقيق هدفه اعتمد على خمس أدوات رئيسية :

١ - الانتقام ممن كانوا يوالون علي بن أبي طالب ويحاربون معه .

٢ - الدعاية السياسية .

٣ - توظيف المال العام لصالح الحكم الأموي .

٤ - شراء الشخصيات القوية .

٥ - إستخدام الدهاء السياسي وتجنب التصرفات الطائشة .

وبمجرد توليه الخلافة انتقلت عاصمة الدولة إلى دمشق تلقائيا ، وظل معاوية في منصبه حتى سنة ستين للهجرة ، حيث توفي . وقد خلفه في منصبه ابنه يزيد بن معاوية لمدة أربع سنوات ، إذ مات سنة ٦٤ هـ . أي أن المرحلة السفيانية (حكم معاوية وولده) استغرقت ما يقرب من أربع وعشرين سنة فقط . ثم آلت الخلافة إلى الفرع المرواني ، ولم تبق في أولاد معاوية وأحفاده كما تأمل وحرص وخطط وتوقع . لقد تمكن مروان بن الحكم من خطف الخلافة من حفيد معاوية ، خالد بن يزيد ، سنة ٦٤ للهجرة ، ولم تطل مدة حكمه ، إذ توفي بعد أقل من سنة من بداية ولايته ، ليخلفه ابنه الأكبر عبدالملك بن مروان . وإذا كان معاوية بن أبي سفيان هو المؤسس الأول لدولة بني أمية فإن عبدالملك كان المؤسس الثاني ؛ فقد واجه الأمويون ، بعد موت يزيد بن معاوية ، تحديات خطيرة تمكن عبدالملك من التعامل معها بحنكة واقتدار ، وبكثير من أساليب الطغيان والقهر ، كما فعل معاوية من قبل .

الدعاية السياسية في عهد معاوية:

لم تكتف قيادة تلك الحركة الإنقلابية الأموية والعشيرة الأموية ، التي تجسدت في معاوية بن أبي سفيان في تلك الفترة بالذات ، ومعه معاونوه من الأقارب ، لم تكتف بالسلطة والولايات لتثبيت مكانتها ، بل إنها استخدمت معظم أساليب

الدعاية التي نعرفها اليوم ، باستثناء ما تعلق بالتكنولوجيا الحديثة . وكان من ضمن ذلك نشر الإشاعات والدعاية الكاذبة ، ذات التأثير الإيجابي بالنسبة لمعاوية والأمويين ، وذات التأثير السلبي بالنسبة للخليفة ، علي رضي الله عنه . ولا ينبغي أن يتوهم أحد أن سلاح الدعاية ونشر الإشاعات الكاذبة والمضللة ، وما يسمى في عصرنا بـ«**الحرب النفسية**» ، لم يكن معروفا عند المسلمين .

خلفاء بني أميـــة

١) معاوية بن أبي سفيان (صخر) بن حرب بن أمية	٤١هـ - ٦٠هـ
٢) يزيد بن معاوية [(١)]	٦٠ - ٦٤هـ
٣) معاوية بن يزيد بن معاوية	٦٤ - ٦٤هـ
٤) مروان بن الحكم	٦٤ - ٦٥هـ
٥) عبدالملك بن مروان	٦٥ - ٨٦هـ
٦) الوليد بن عبدالملك	٨٦ - ٩٦هـ
٧) سليمان بن عبدالملك	٩٦ - ٩٩هـ
٨) عمر بن عبدالعزيز	٩٩ - ١٠١هـ
٩) يزيد بن عبدالملك	١٠١ - ١٠٥هـ
١٠) هشام بن عبدالملك	١٠٥ - ١٢٥ هـ
١١) الوليد بن يزيد بن عبدالملك	١٢٥ - ١٢٦ هـ
١٢) يزيد بن الوليد بن عبدالملك	١٢٦ - ١٢٦ هـ
١٣) إبراهيم بن الوليد بن عبدالملك	١٢٦ - ١٢٧ هـ
١٤) مروان بن محمد	١٢٧ - ١٣٢ هـ

الهجري الأول (السابع الميلادي) ؛ لقد كان معروفا بكل تأكيد ؛ وهاكم بعض الأمثلة : ففي أثناء فترة الصراع بين حركة الإسلام المتنامية في المدينة ، أثناء حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نقرأ آية قرآنية من سورة الأحزاب تذكر حرب الإشاعات التي

---

(١) بعد وفاة يزيد بن معاوية سنة ٦٤ هـ بويع عبدالله بن الزبير بالخلافة في مكة ، وتبعته أكثر أقاليم الدولة الإسلامية ، وقتل سنة ٧٣ هـ .

شنها أعداء الدعوة من المنافقين وحلفائهم : ﴿**لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ، ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا .**﴾ [الأحزاب/آية ٦٠] . **والمرجفون هم الذين ينشرون الإشاعات والدعاية الكاذبة** . ومعنى ذلك أن هذا الأسلوب الدعائي الصراعي كان معروفا حتى في العهد النبوي ، قبل أن يشحذ الأمويون كل أسلحتهم للسيطرة على المنصب الأعلى وعلى الدولة والأمة . والمثل الثاني نجده ضمن أخبار الصراع على مصر ؛ فقد عين الخليفة الرابع رضي الله عنه قيس بن سعد بن عبادة واليا على مصر ، كما ذكرنا سابقا ، فحاول معاوية أن يغري قيسا بالإنفصال عن موالاة الخلافة لكي ينضم إليه ، غير أن قيس ارتفع عن المغريات ؛ **وعلى أثر ذلك كلف معاوية جهاز الدعاية الأموية بنشر إشاعة مفادها أن قيس بن سعد أصبح من أتباعه وموال له . وكان الغرض من هذه الإشاعة أن تصل إلى علي بن أبي طالب فتدفعه إلى عزل قيس عن ولاية مصر ، وبذلك ينفتح الطريق أمام معاوية للإستلاء عليها . وكان قيس شخصية قوية ، لديه قدر كبير من الحنكة وحسن السياسية في الإدارة والصراع . وقد نجحت خطة معاوية ، وعزل علي قيس بن عبادة عن ولاية مصر وعين محله محمد بن أبي بكر الصديق ، فتمكن معاوية من إرسال حملة بقيادة عمرو بن العاص انتزعت مصر بعد أن تمكنت من هزيمة أنصار علي ، وقتل الوالي محمد بن أبي بكر الذي كان شابا ، وقليل الخبرة على ما يبدو** . أما المثال الثالث فنجده ضمن أخبار الصراع بين الأمين والمأمون ؛ فعندما كانت بغداد محاصرة سنة ١٩٧ هـ ، وكان الأمين على وشك الهزيمة استدعى وضاح بن حبيب التميمي ليستشيره ، فقال له وضاح : «**يا أمير المؤمنين ، قد بطل الرأي اليوم وذهب ؛ ولكن استعمل الأراجيف ، فإنها من آلة الحرب . . .**» **فعين الأمين رجلا ليقوم بهذا النوع من الدعاية** (١) «وهذه الأمثلة الثلاثة التي أوردناها تبين بوضوح أن نشر **الأراجيف** ، التي تعني الدعايــة الكاذبة كانت معروفة ومستخدمة قبل قيام معاوية ، وأثناء صراعه من أجل السيطرة ، وبعد انقضاء العهد الأموي وقيام الدولة العباسية .

وفي هذا السياق تواجهنا عبر المصادر مئات النصوص التي تجسد هذا الجهد

(١) الطبري ، مجلد ٨ ، ص ٥١٢ .

الدعائي ، وهذا التوجه الأموي العشائري . ولا مراء في أن كثيرين من مؤرخينا وعلمائنا الأجلاء القدامى مروا بهذه النصوص دون أن يحاولوا الغوص فيما وراء الكلمات ، ومن غير أن يهتموا بمعرفة أهدافها ، بل اكتفوا بأن اعتبروها مجرد أقاصيص للتسلية ، ولغوا لا قيمة له ولا دلالة أكثر من ذلك . وسنكتفي هنا بإيراد بعض الأمثلة ، ثم نحيل القارئ إلى مئات منها مما تحتويه المصادر .

وفيما يلي أول مثل من هذه الأمثلة ، حكاية عن واحد من الكهنة قيل إنه أخبر هند بنت عتبة – أم معاوية بن أبي سفيان – قبل أن يتزوجها أبو سفيان ، بأنها ستلد معاوية ، وسيكون معاوية ملكا :

(١) «كانت **هند بنت عتبة** متزوجة من رجل من بني مخزوم ، اسمه الفاكه بن المغيرة المخزومي . وكان الفاكه من شباب قريش المرموقين ، وكان له بيت للضيافة اعتاد الناس أن يدخلوه من غير إذن . وفي يوم من الأيام لم يكن في بيت الضيافة أحد ، فاضطجع فيه الفاكه وزوجته هند وقت الظهيرة ، للاستمتاع بالظل الظليل ، والنسيم العليل . وغفت هند ، وتركها زوجها وخرج لبعض شأنه ، في مكان غير بعيد . وفي هذه الأثناء جاء رجل كان معتادا الدخول دون إذن ففوجئ بهند مغفية فيه . فلما رآها على تلك الحال ولى مبتعدا .» ورآه الفاكه عن بعد خارجا من البيت فأقبل إلى هند وهي مغفية فركلها برجله وقال : من هذا الذي كان عندك؟ قالت : ما رأيت أحدا ولا انتبهت حتى أنبهتني . فقال لها : إلحقي بأبيك . وتكلم فيها الناس ولاكتها الألسن ؛ فقال لها أبوها : يا بنية ، إن الناس قد أكثروا فيك القالة ، فأنبئيني نبأك ، فإن يكن الرجل عليك صادقا دسست إليه من يقتله فتنقطع عنك القالة ، وإن يك كاذبا حاكمته إلى بعض كهان اليمن . فعند ذلك حلفت لأبيها مكذبة زوجها ومؤكدة براءتها مما ظنه بها . فقال عتبة بن ربيعة للفاكه : يا هذا ، إنك رميت ابنتي بأمر عظيم ، وعار كبير ، لا يغسله الماء ، وقد جعلتنا في العرب بمكان ذلة ومنقصة ، ولولا أنك مني ذو قرابة لقتلتك ، ولكن سأحاكمك إلى كاهن اليمن . . . فخرج الفاكه في جماعة من بني مخزوم – أقاربه – وخرج عتبة في جماعة من بني عبدمناف ، وساروا بهند ونسوة معها من أقاربهم قاصدين بلاد اليمن .» فلما اقتربوا من بلدة الكاهن تغيرت حال هند وانخرطت في البكاء ، وبدا عليها الخوف . وقد لاحظ أبوها ذلك فانتابته الوساوس ، فاقترب منها وهو يظن أن ما كان قد قيل عنها صحيح ، فلامها لأنها

اوقعته في هذا الموقف الحرج ، ولماذا لم تخبره بالحقيقة منذ البداية لكي يتدبر الموقف بطريقة أخرى ، ولا يقع في الفضيحة التي ظن أنه وقع فيها . فأجابت هند وأكدت أنها بريئة ، وأفهمت والدها أن سبب خوفها أن ذلك الكاهن الذي كانوا متوجهين إليه إنسان معرض للخطأ ، فإذا أخطأ في الحكم عليها فسيركبها العار إلى آخر حياتها . فطمأنها أبوها بأنه أعد للكاهن امتحانا يختبره به قبل أن يسمح له بمباشرة الموضوع وإصدار الحكم فيه . ثم تركها وانطلق راكبا مهره حتى ابتعد عن الركب خلف إحدى التلال ، فنزل عن المهر وصفر له حتى أدلى ذكره ، فأخذ حبات قمح فأدخلها في غلاف ذكر المهر ، ثم ربط الغلاف ، وعاد بعد ذلك إلى جماعته . واستأنفت القافلة سيرها حتى وصلت إلى منزل الكاهن . وقد رحب الكاهن بهم وأعد لهم طعاما . وبعد ذلك بين له عتبة أنهم جاءوا إليه ليحل لهم مشكلة ؛ لكنه أخبره في الوقت نفسه ، أنه أعد له امتحانا يريد أن يختبره به قبل البدء في الموضوع . وقال له إنه خبأ له شيئا ، وطلب منه أن يخبره «ما هو ذلك الشئ الذي خبأه له .» فقال له الكاهن : «ثمرة في كمرة .» فقال عتبة : أريد جوابا أوضح ؛ فقال : «حبات بر في إحليل مهر» ، أي حبات قمح مخبأة في غلاف ذكر المهر . فقال عتبة : صدقت . ثم طلب منه النظر في أمر النساء اللاتي كن معه ضمن القافلة ؛ وجلست النساء وبينهن هند من غير أن يعرفها الكاهن . ثم جعل الكاهن يربت على كتف كل واحدة من النسوة ويبرئها ، حتى وصل إلى هند ، فضرب على كتفها ، وقال : إنهضي حصان رزان ، غير رسخا ولا زانية ، ولتلدن ملكا يقال له معاوية .» وعندما سمع زوجها ذلك وثب إليها وأمسك بيدها ، فنفضت يدها من يده وصاحت فيه قائلة : إبتعد عني ، والله لا يجمع رأسي ورأسك وسادة ، والله لأحرصن أن يكون هذا الملك من غيرك . وبعد أن عادت هند بصحبة أبيها إلى مكة خطبها أبو سفيان وتزوجها ، فولدت له معاوية [1] .

ما هو المضمون الأساسي لهذه الحكاية الأسطورة ، أو ما هي الفكرة التي رمى مؤلف هذه الأسطورة إلى غرسها في عقول المتلقين؟؟ من الواضح أن واضع الإسطورة ومصممها أراد أن يقنع المتلقين أن زعامة معاوية وقيادته على مستوى الأمة إنما هي نوع من القدر السابق على مولده ، بل

(١) إبن كثير ، ***البداية والنهاية*** ، ج ٨ ، ص ١٠٢ ، ضمن أخبار سنة ٦٠ هـ .

على زواج أمه من أبيه . وهذا القدر كان – حسب الاعتقاد الشائع آنذاك – معلوما للكهان ، ومن عندهم شئ من علم الغيب .
لقد وصفنا هذه الحكاية بالأسطورة ، وهي اسطورة بالفعل ، فهل يكفي هذا الوصف لنطرحها بعد ذلك جانبا؟ وهل الذين قرأوها أو سمعوها خلال القرون الأربعة عشر الماضية اعتبروها اسطورة واعتبروها مجرد أداة تسلية . وإذا كان العامة والقصاصين الشعبيين قد قبلوها ، فهل قبلوها على أنها مجرد اسطورة للتسلية والسخرية ، أم أنهم رأوا فيها أكثر من ذلك . . مصدر معلومة غيبية قدرية تبين أن وصول معاوية إلى السلطة كان قدرا من الغيب ، قبل ظهور الإسلام؟ وإذا كان العامة وقصاصو العامة أعطوها شيئا من القبول ، فلماذا ينقلها ابن كثير في تاريخيه ، ولا يعلق عليها أو يصفها بالأسطورة ، سيما وأنها تحمل ضمنا معنى الاعتراف بأن الكهان في الجاهلية كانت لهم القدرة على علم الغيب؟ ولماذا لم يغضب ويهب ليؤكد إحدى المفردات الأساسية في عقيدة المسلمين ، وهي : « . . . لا يعلم الغيب إلا الله» سبحانه وتعالى؟ لقد كان بعض العلماء مستعدا لقبول هذه الأساطير واعتبارها ممكنة الحدوث ، ولذا أمكن أن تدخل في عداد مصادر المعلومات . وقد كان هذا النوع من التفكير شائعا على نطاق واسع ، خاصة بين العامة من الأميين ، ومن محدودي المعرفة بالقراءة والكتابة .

(٢) وكان مما رواه ابن كثير عن وكيع مقولة يفترض أنها أطلقت أثناء خلافة عثمان رضي الله عنه : كان الحادي يحدي بعثمان وينشد :

إن الأمير بعده علـــي   وفي الزبير خلف رضـــي

فقال كعب [كعب الأحبار] : بل هو صاحب البغلة الشهباء ، يعني معاوية . فقال معاوية : «يا أبا إسحاق ، تقول هذا وههنا علي والزبير وأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : أنت صاحبها .» وقد تكررت هذه الرواية عن سيف . . . عن رجل من بني أسد ، قال : ما زال معاوية يطمع فيها منذ سمع الحادي في أيام عثمان يقول : [نفس بيت الزجل] ، «فقال كعب : كذبت! بل صاحب البغلة الشهباء بعده[١] . . .»

---

(١) إبن كثير ، *البداية* ، ج ٨ ، ص ١١١ .

لقد كان هناك اعتقاد شائع عند كثيرين من أبناء الجيل الأول ، جيل الصحابة ، بأن كعب الأحبار ووهب بن منبه يعلمان بحوادث المستقبل الممتد عشرات ومئات السنين ، لأنهما كانا يقرآن الكتب القديمة للإسرائيليين وغيرهم . وقد نقل الإخباريون وقدامى المؤرخين تلك المقولات والاعتقادات إلى الأجيال اللاحقة من المسلمين ، فصرنا نصادفها في كثير من الكتب . **وعلى الرغم من ذلك فإنني لا أزعم أن كعب الأحبار كان يدعي علم الغيب بمقولته عن معاوية ، إن كان قد قال ما نسب إليه . كعب الأحبار كان رجلا مثقفا بمعايير ذلك العصر ، وكان على معرفة بالتوراة وكتب اليهود قبل تحوله للإسلام . ومن المرجح أنه كان يدرك ما تفاعل في الجسم الإسلامي الفتي وهو في عاصمة الدولة الناشئة . وأعتقد أن المساعي الأموية وخطط العصبة الأموية التي أحاطت بأمير المؤمنين عثمان ﵁ لم تند عن ملاحظته وفطنته وخبرته ؛ ولذا فقد كان يدرك – لأسباب عملية وحقائق ملموسة – ما كان يتفاعل من حراك في داخل الجسم السياسي في عاصمة الخلافة الراشدة ، ويعتقد أن السلطة كانت في طريقها إلى الانتقال إلى أيدي زعيم الأمويين ، معاوية بن أبي سفيان . وذلك ما حدث بالفعل ، ليس لأن كعب كان يعلم الغيب ، بل لأنه كان يلاحظ ويتابع الحوادث والوقائع ، ويقرأها ويفسرها تفسيرا موضوعيا لا غيبيا .**

بيد أن هناك نصوصا أخرى أكثر أهمية من حكاية كاهن اليمن ، وتنبؤات كعب الأحبار ، وأكثر تأثيرا ، نسبت إلى رسول الله ﷺ ، ونقل بعضها عن معاوية نفسه ، تبين أن تفكيره في الوصول إلى الحكم والخلافة كان قبل عهد عثمان ﵁ بكثير .

(١) فقد كان مما أورده ابن كثير ، وابن عساكر وغيرهما : « . . . عن ابن عباس قال : أتى جبريل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ، أقرئ معاوية السلام ، واستوص به خيرا ، فإنه أمين الله على كتابه ووحيه ، ونعم الأمين .»

(٢) وأورد ابن عساكر . . . أن الرسول ﷺ استشار جبريل في استكتابه معاوية ، فقال : استكتبه فإنه أمين .

(٣) «وعن هشام بن عروة عن عائشة قالت : لما كان يوم أم حبيبة [(١)] من النبي

---

(١) وأم حبيبة هي زوجة رسول الله ﷺ ، وابنة أبي سفيان ، وأخت معاوية ، وكانت قد أسلمت وهاجرت إلى الحبشة .

ﷺ ، دق الباب ،» [ثم دخل] معاوية ، فسأله النبي . . . «ما هذا القلم على أذنك يا معاوية؟ قال : قلم أعددته لله ورسوله . فقال له : جزاك الله عن نبيك خيرا ، والله ما استكتبتك إلا بوحي من الله ، وما أفعل صغيرة ولا كبيرة إلا بوحي من الله . كيف بك لو قمصك الله قميصا؟ - يعني الخلافة - فقامت أم حبيبة بين يديه وقالت : يا رسول الله ، وإن الله مقمصه قميصا؟ قال : نعم! ولكن فيه هنات وهنات . فقالت : يا رسول الله ، فادع الله له . فقال : اللهم اهده بالهدى ، وجنبه الردى ، واغفر له في الآخرة والأولى(١) .

(٤) وأضاف ابن كثير : وقد أوردنا من طريق أبي هريرة وأنس ووائلة بن الأسقع مرفوعا : «الأمناء ثلاثة ، جبريل ، وأنا ، ومعاوية(٢) .»

(٥) ومن رواية ابن عباس : الأمناء سبعة : القلم ، واللوح ، وإسرافيل ، وميكائيل ، وجبريل ، وأنا ، ومعاوية .»

(٦) وقال الإمام أحمد : حدثنا **عبدالرحمن بن مهدي عن . . . عن . . . العرباض بن سارية السلمي ، قال : سمعت** رسول الله ﷺ . . . يقول : «اللهم علم معاوية الكتاب والحساب ، وقه العذاب .» وفي رواية بشر بن السري : «وأدخله الجنة .» ويتكرر الحديث برواية أخرى عن ابن عباس بنفس النص . ورواية أخرى يصل سندها إلى ابن عباس ، بنفس النص أيضا . وفي «حديث» مرسل : «اللهم علمه الكتاب ، ومكن له في البلاد ، وقه العذاب .» وقد أرسله غير واحد من التابعين . . . «وقال الطبراني في رواية يصل سندها إلى الصحابي عبدالرحمن بن أبي عميرة المزني مثل نص السلمي السابق . ثم رواية نسبها ابن عساكر إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه : «لا تذكروا معاوية إلا بخير ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «اللهم اهد به .» ، وفي رواية أخرى عن عمر : «اللهم اجعله هاديا مهديا واهد به (٣) .»

(٧) وروى ابن أبي الدنيا عن . . . عن عمر بن الخطاب : «إياكم والفرقة بعدي ، فإن

---

(١) إبن عساكر ، *تاريخ دمشق* ، ج ٦٢ ، ص ٤٧ ، ويتكرر في ص ٤٩ ، نقلا عن الطبراني .

(٢) إبن كثير ، م ٨ ، ص ١٠٥ .

(٣) إبن كثير ، ج ٨ ، ص ١٠٦ .

فعلتم فإن معاوية بالشام ، وستعلمون إذا وكلتم إليه أمركم كيف يستبزها دونكم[١] .»

(٨) وفي رواية **للطبراني** أن رسول الله ﷺ استشار أبا بكر وعمر في أمر فقال : أشيروا علي ، فقالا : الله ورسوله أعلم ؛ فقال : أدعوا معاوية . فقال أبو بكر وعمر : أما في رسول الله ﷺ ورجلين من رجال قريش ما يتقنون أمرهم ، حتى يبعث رسول الله ﷺ إلى غلام من غلمان قريش؟ فقال : «أدعو لي معاوية .» فلما حضر قال : «أحضروه أمركم وأشهدوه أمركم ، فإنه قوي أمين [٢] .» ورواه بعضهم عن نعيم ، وزاد «وحملوه أمركم .»

(٩) «وقال أبو يعلى : حدثنا سويد بن سعيد . . . عن معاوية قال : «اتبعت رسول الله ﷺ بوضوء ، فلما توضأ نظر إلي فقال :
«يامعاوية ، إن وليت أمرا فاتق الله واعدل .» [قال معاوية] ، فما زلت أظن أني مبتلى بعمل حتى وليت . وفي رواية أخرى يصل سندها إلى الحسن : «سمعت معاوية يخطب وهو يقول : «صببت يوما على رسول الله ﷺ وضوءه فرفع رأسه إلى فقال : «أما إنك ستلي أمر أمتي بعدي ، فإذا كان ذلك فاقبل من محسنهم وتجاوز عن مسيئهم .» وقال : «فما زلت أرجو حتى قمت مقامي هذا [٣]» ، أي أنه جعل الوصول إلى الخلافة هدفا له حتى صار خليفة ، وهو مدفوع إلى ذلك اتباعا لما أخبره به رسول الله ﷺ ، حسب زعمه [٤] . **وروى** الحافظ بن عساكر عن عن . . . عن عبدالله بن عمر ، قال رسول الله ﷺ :
«ليلين بعض مدائن الشام رجل عزيز منيع ، هو مني وأنا منه .» وأشار إلى معاوية [وقد كان حاضرا] هو هذا [٥] .»

(١٣) وكتب ابن كثير : «**قال بعضهم** : رأيت رسول الله ﷺ وعنده أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاوية ، إذ جاء رجل ، فقال عمر : يا رسول الله ، هذا يتنقصنا .

---

(١) ***المصدر نفسه*** ، ص ١١١ .

(٢) ***المصدر نفسه*** ، ج ٨ ، ١٠٦-١٠٧ ؛ وابن عساكر ، تاريخ دمشق ، مجلد ٣١ ، ج ٦٢ ، ص ١٦٠ .

(٣) ابن كثير ، ج ٨ ، ص ١٠٧- ١٠٨ .

(٤) ابن عساكر ، ***تاريخ دمشق*** ، م ٣١ ، ج ٦٢ ، ص ٦٢ ؛ ابن كثير ، ج ٨ ، ص ١٠٧ - ١٠٨ .

(٥) إبن عساكر ، ***تاريخ دمشق*** ، ج ٦٢ ، ص ٦٤ ؛ وانظر ***كنز العمال*** ، حديث رقم ٢٠٥٩٣ .

فكأنه انتهره رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، إني لا أتنقص هؤلاء ، ولكن هذا – يعني معاوية – فقال : ويلك! أو ليس هو من أصحابي؟ قالها ثلاثا . ثم أخذ رسول الله ﷺ حربة فناولها معاوية فقال : «جابها في لبته» فضربه بها ، وانتبهت ، فبكرت إلى منزلي فإذا ذلك الرجل قد أصابته الذبحة فمات[1] .»

(١٤) وروى الطبراني مقولة نصفها منام ونصفها الآخر في حال الصحو ، عن . . . عن . . . عن عوف بن مالك الأشجعي قال :

بينما أنا راقد في كنيسة يوحنا – وهي يومئذ مسجد يصلى فيها – إذ انتبهت من نومي فإذا أنا بأسد يمشي بين يدي ، فوثبت إلى سلاحي ، فقال الأسد : مه! إنما أرسلت إليك برسالة لتبلغها ، قلت : ومن أرسلك؟ قال : الله أرسلني إليك لتبلغ معاوية السلام ، وتعلمه أنه من أهل الجنة . فقلت له : ومن معاوية؟ قال : « معاوية بن أبي سفيان [2] .»

(١٥) وروى ابن عساكر عن ، عن ، . . .عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ :

« هبط علي جبريل ومعه قلم لمن ذهب إبريز ، فقال لي : إن العلي الأعلى يقرئك السلام ، وهو يقول لك : حبيبي ، قد أهديت القلم من فوق عرشي إلى معاوية بن أبي سفيان ؛ فأوصله إليه ، ومره أن يكتب آية الكرسي بخطه بهذا القلم ويشكله ويعجمه ، ويعرضه عليك ؛ فإني قد كتبت له من الثواب بعدد كل من قرأ آية الكرسي من ساعة يكتبها إلى يوم القيامة .»

---

(١) إبن كثير ، ج ٨ ، ص ١٢١ – ١٢٢ .

(٢) الطبراني ، ***المعجم الكبير*** (القاهرة : مكتبة ابن تيمية ، د .ت .) ، مجلد ١٩ ، ص ٣٠٧ ، والرقم المتسلسل للرواية هو ٦٨٦ ؛ وقارن مع إبن كثير ، ***البداية*** ، ج ٨ ، ص١٠٨ . وهناك اختلاف يسير بين الروايتين بالنسبة للمسجد/الكنيسة ، في أريحا أو في دمشق .

فقال رسول الله ﷺ :

«من يأتيني بأبي عبدالرحمن؟»

فقام أبو بكر الصديق ومضى حتى أخذ بيده، وجاءا جميعا إلى النبي ﷺ، فسلموا . . .، ثم قال لمعاوية :

«أدن مني يا أبا عبدالرحمن . . . فدنا . . . فدفع إليه القلم، ثم قال له : يا معاوية، هذا القلم قد أهداه إليك ربك من فوق عرشه لتكتب به آية الكرسي [١] . . .»

(١٦) وقال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثني أبي عن . . . أبي عبدالرحمن المدني : **«كان عمر بن الخطاب إذا رأى معاوية قال : «هذا كسرى العرب[٢] .»**

(١٧) وقال عمرو بن يحيى بن سعيد الأموي عن جده، قال : «دخل معاوية على عمر وعليه حلة خضراء، فنظر إليها الصحابة . فلما رأى ذلك عمر وثب إليه بالدرة فجعل يضربه بها، وجعل معاوية يقول : يا أمير المؤمنين، ألله الله في[٣] . . .» ودلالة هذه الرواية مناقضة لما سبقها عن إعجاب عمر بمعاوية .

(١٨) وأثناء احتدام الصراع بين الخليفة الرابع، علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وبين معاوية، كان معاوية يستشهد بحديث رسول الله ﷺ : **«من يرد الله به خيرا يفقه في الدين، وإنما أنا قاسم، والله يعطي . ولا يزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون .» ويضيف معاوية، قال :**

«وهم بالشام - يحث بهذا أهل الشام على مناجزة أهل العراق، وأن أهل الشام هم الطائفة المنصورة على من خالفها .» وهذا مما كان يحتج به معاوية لأهل الشام في قتالهم لأهل العراق [٤] . أي أن معاوية كان يضيف مقطعا أخيرا لحديث صحيح، ليوظفه في مساندة دعايته السياسية وادعاءاته .

---

(١) إبن عساكر، ***تاريخ دمشق***، ج ٦٢، ص ٥٠ -٥١ .

(٢) إبن كثير، ***البداية***، ج ٨، ص ١٠٩ .

(٣) ***المصدر نفسه***، والصفحة ذاتها .

(٤) إبن كثير، ***البداية***، ج ٨، ص ١١٠ .

(١٩) وأخيرا يؤتى بعلي بن أبي طالب وبالحسن بن علي ، رضي الله عنهما ، ليشهدا لمعاوية : فهذا علي ينسب إليه أنه قال ، بعد أن رجع من صفين : «**أيها الناس ، لا تكرهوا إمارة معاوية ، فإنكم لو فقدتموه رأيتم الرؤوس تندر عن كواهلها كأنها الحنظل .**»

(٢٠) ثم تقدم لنا الدعاية الأموية شهادة الحسن بن علي ، فقد نسب إليه القول : «**سمعت رسول الله ﷺ يقول : لا تذهب الأيام حتى يملك معاوية ، فعلمت أن أمر الله واقع ، فكرهت أن تهراق بيني وبينه دماء المسلمين[1] .**»

هذا السيل من الأحاديث المكذوبة على رسول الله ﷺ ، ومئات غيرها مما لم نذكره ، والتي يكذبها محتواها وهدفها الواضح ، بغض النظر عن أسنادها ، تمت صياغتها وتم نشرها بعناية على أوسع نطاق لسد ثغرة في مؤهلات معاوية بن أبي سفيان لتولي الخلافة تعويضا عما تميز به على بن أبي طالب رضي الله عنه من السبق في الإسلام ، وجهاد طويل مع رسول الله وبجانبه ، وتقوى وزهد معروف للناس جميعا ، ثم انتخابه من قبل أغلبية الصحابة بعد وفاة عثمان بن عفان رضي الله عنه .

وهذا أحمد بن حنبل يقول :

لم يكن أحد أحق بالخلافة في زمان علي من علي ، ورحم الله معاوية . «وهذا سفيان بن عيينة يقول : ما كانت في علي خصلة تقصر به عن الخلافة ، ولم يكن في معاوية خصلة ينازع بها عليا .» وهذا شريك القاضي يقول عن معاوية : «ليس بحليم من سفه الحق وقاتل علي[2] .» وكان معاوية يعرف كل ذلك بطبيعة الحال ، ولذا فقد كانت جهوده الدعائية لسد الثغرة .

ومما لا ينبغي أن تفوتنا الإشارة إليه في هذا المقام أن المصادر التي بين أيدينا تحوي الكثير من الحكايات ، وأشباه الأحاديث والنبوؤات عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وتضم – في كثير من الأحيان– مبالغات تخرج عن دائرة المعقول ، وتخرج عليا من بشريته ؛ ولهذا اعتبر بعض المؤرخين والإخباريين القدامى والمحدثين أن مبالغات أنصار

---

(١) ***المصدر نفسه*** ، ج ٨ ، ص ١١٤ .

(٢) إبن كثير ، ج ٨ ، ص ١١٣ .

علي تشبه مبالغات أنصار معاوية ، وأن الأمر مجرد تقاول وادعاءات جدلية لا دلالة فيها اكثر من ذلك . **والذي أود قوله هنا هو أن الدعاية السياسية الأموية تختلف عن الروايات والحكايات التي أطلقها كثيرون من أنصار علي وأشاعوها ؛ تختلف في الدلالة وتختلف في الهدف** . الأمويون وأدواتهم أطلقوا رواياتهم وحكاياتهم لأن معاوية لم يكن مؤهلا – بمقاييس عصرهم وبمقاييس الشريعة والثقافة السائدة فيه – لم يكن مؤهلا لمنصب الخلافة ؛ وهذه حقيقة نوه بها كثير من العلماء ، وقد أوردنا بعض الأمثلة التي تؤكد ذلك قبل قليل . بل إن ابن كثير بدأ حديثه عن حكم معاوية تحت عنوان : معاوية وملكه ، ثم أورد الحديث الشائع الذي ينسب فيه إلى رسول الله ﷺ : الخلافة بعدي ثلاثون عاما ، ثم الملك العضوض . «أو كما قال . هذا مع أن ابن كثير من أشد المتحمسين للدعاية للأمويين ، ولتلميع وتبييض صورتهم لدرجة أدخلته في كثير من المواقف المتناقضة بشكل فظ . أما القاضي أبو بكر بن العربي ، الذي كان أشد تطرفا من ابن كثير في دفاعه عن الأمويين ، فقد قال : **إنه بعد قتل عثمان** رضي الله عنه » **لم يبق أحد على الأرض أحق بها [أي الخلافة] من علي** [(١)] . . . **؛ وعن حرب صفين قال القاضي ابن العربي : «وأما الصواب فمع علي ، لأن الطالب للدم لا يصح أن يحكم . وتهمة الطالب للقاضي لا توجب عليه أن يخرج عليه ، بل يطلب الحق عنده**[(٢)] .» وعن خلافة الحسن بن علي قال ابن العربي : « . . . البيعة للحسن منعقدة ، وهو أحق بها من معاوية ومن كثير غيره [(٣)] .» وعن تعيين معاوية لابنه يزيد ليلي الخلافة بعده قال ابن العربي : « . . . **إن معاوية ترك الأفضل في أن يجعلها شورى ، وألا يخص بها أحدا من قرابته ، فكيف ولدا!**» ورغم ذلك فقد ذهب ابن العربي إلى القول بأن يزيد بن معاوية **انعقدت له البيعة شرعا : «فانعقدت البيعة [له] شرعا ، لأنها تنعقد بواحد ، وقيل باثنين** [(٤)] . . .» وأعتقد أن بعض القراء سوف يتساءلون : وكيف تنعقد البيعة بالإكراه والتهديد بالقتل ، وتصبح عقدا

(١) القاضي أبو بكر بن العربي ، ***العواصم من القواصم*** ، ص ١٩٤ .

(٢) القاضي أبو بكر بن العربي ، ***العواصم من القواصم*** ، ص ١٦٢ – ١٦٤ .

(٣) ***المصدر نفسه*** ، ص ١٩٨ – ١٩٩ .

(٤) ***المصدر نفسه*** ، ص ٢٢٢–٢٢٥ .

مقدسا يدان الطرف الأضعف والمكره إن نقضه ؛ وأنا أتساءل معهم كذلك ؛ بل إنني أعجب من هذا الذي قاله القاضي ابن العربي ومن قالوا مثله من قبل أو من بعد . وينبغي أن أشير هنا أيضا إلى أن معاوية بن أبي سفيان لم يجرؤ على المطالبة بالخلافة لنفسه ابتداء ، ولم يعلن نفسه مرشحا لها ، وإنما طرح عنوانا آخر ، وشعارا آخر هو المطالبة بدم عثمان (رضي الله عنه) ، وبأن يسلم له قتلة عثمان : «**ليسلم علي لنا قتلة عثمان ونحن نسلم إليه أمره** ،» أي الخلافة . وقد أطلق معاوية هذا التصريح في بدايات المواجهة في صفين ، قبل أن تندلع المعركة الحاسمة ، وقد تعرضنا لهذه النقطة فيما سبق .

أما علي فقد كان خليفة منتخبا بالمبايعة الشرعية ، وبرضا أغلبية المسلمين ، ولم يكن بحاجة إلى الحكايات والروايات المكذوبة التي تحدثت عنه وأساءت له ، لأن في سيرته المعروفة لجميع الصحابة ما يغنيه عن ذلك . وقد ظهرت الروايات المشحونة بالمبالغة كلها بعد استشهاده ، وتحت وطأة الإضطهاد الذي تعرض له أنصاره على أيدي الحكام الأمويين وولاتهم المتجبرين أمثال زياد بن أبيه وابنه عبيدالله بن زياد ، والحجاج بن يوسف الثقفي ، ثم على أيدي أبناء عمومة العلويين ، أي الخلفاء العباسيين في عهد قوتهم ، أي في العصر العباسي الأول . وخلال عقود وقرون طويلة ألف الوضاعون حكايات وقصصا عن علي حشيت بمبالغات خيالية لا محدودة حاولت إخراجه من بشريته ، سنستعرض بعض أمثلة منها في الفصول التالية ، إن شاء الله تعالى[١] .

وعلي الذي أدافع عن سيرته هو علي الصحابي ، من الصف الأول والأعلى من الصحابة ، الخليفة الذي انتخبته أغلبية الصحابة في المدينة بعد وفاة عثمان رضي الله عنه . أما الحكايات الخرافية التي تخرجه من بشريته فليست مما احترم أحدا من البشر على أساسه ، مهما تضخمت المبالغات الساذجة ؛ كما أنني لا أقبل ادعاءات العصمة والوصية وما شابهها .

القضاء على المعارضة:

بمجرد أن تحقق النصر لمعاوية وصارت له الخلافة بادر بإرسال جيش إلى المدينة ،

(١) أنظر كتابي : ***حوار لإخواننا وأخواتنا الشيعة*** ، ففيه بحث مفصل عن الموضوعات .

يثرب ، للإنتقام من أهلها ، بزعم أنهم قتلة عثمان . وقد اختلفت الروايات بشأن تحديد السنة التي أرسلت فيها تلك الحملة بين سنوات ٤٠ هـ إلى ٤٢ هـ . وعندما دخل بسر بن أرطاة العامري القرشي – وهو قائد الحملة – المدينة « . . . صعد منبرها ولم يقاتله بها أحد ، فنادي على المنبر : يا دينار ، ويا نجار ، ويا زريق! [وهذه كلمات تهريجية لإثارة الرعب] شيخي ، شيخي! عهدي به بالأمس ، فأين هو! يعني عثمان . ثم قال : **يا أهل المدينة ، والله لولا ما عهد إلي معاوية ما تركت بها محتلما إلا قتلته . ثم بايع أهل المدينة [أي بايعوا معاوية غيابيا] . وأرسل إلى بني سلمة فقال : والله ما لكم عندي أمان ولا مبايعة حتى تأتوني بجابر بن عبدالله الأنصاري ، [من كبار الصحابة] ، فانطلق جابر إلى أم سلمة زوج النبي ﷺ فقال لها : ماذا ترين؟ إني خشيت أن أقتل ، وهذه بيعة ضلالة! قالت : أرى أن تبايع . . . فأتى بسر فبايعه . وهدم بسر دورا بالمدينة ؛ وأقام بها شهرا يستعرض الناس ، ليس أحدا ممن يقال : هذا أعان على عثمان إلا قتله** . ثم مضى إلى مكة ، وبعدها إلى اليمن ليواصل الانتقام وسفك الدماء ونشر الرعب .

القمع والإضطهاد في العراق:

وحيث ان العراق كان من أهم مراكز المعارضة منذ أن بدأ الأمويون استعداداتهم للسيطرة على مقاليد السلطة في دولة الخلافة فقد غدا أهله هدفا للإضطهاد بعد انتصار معاوية واغتصابه للخلافة . وهكذا نجد معاوية يختار بسر بن أبي أرطاة ليوليه البصرة بعد أن أظهر حماسة وعنفا وسفكا للدماء ضد من كانوا معارضين ، كما رأينا ما فعله في المدينة وفي مكة واليمن . وهكذا كانت ولايته للبصرة لفترة قصيرة ، ليحدث فيها صدمة الرعب ، فأشاع فيها القتل وسفك الدماء . ولكن نظرا لما كان للبصرة من أهمية اقتصادية وتجارية في ذلك العصر ، باعتبارها ملتقي لأهم طرق التجارة الدولية فقد تم عزل بسر بن أبي أرطاة عنها بعد إحداث صدمة الرعب ، وأعيد عبدالله بن عامر واليا لها كما كان في عهد عثمان رضي الله عنه . وعندما عين معاوية سعد بن أبي وقاص واليا على الكوفة لم يعجبه امتناعه عن شتم علي بن أبي طالب ولعنه في أوقات الصلاة في المساجد ، وسأله بلهجة المعاتب : لماذا لا تشتم أبا تراب؟ وقد بين له سعد وجهة نظره ، ولذلك لم تطل ولا يته على الكوفة ، فوليها المغيرة بن

شعبة . وعندما عينه نبهه إلى أن شتم علي من أهم ما يطلبه منه ، فطمأنه المغيرة بأنه سيلتزم بذلك ، ونفذ ما قال . ولما توفي المغيرة عين معاوية زياد بن أبيه (زياد بن أبي سفيان) ، فكان وابنه عبيدالله من أشد الولاة إرهابا وعنفا وسفكا للدماء . وقد أوردنا بعض الأمثلة عن هذه الممارسات في غير هذا المكان .

ولكي نعرف ، ويعرف القارئ مقدار ما وقع على العراق من ظلم نستدعي موقفا يعود إلى سنة ٩٧ هـ في خلافة سليمان بن عبدالملك : ففي تلك السنة قرر سليمان أن يولي يزيد بن المهلب بن أبي صفرة العراق حربا وصلاة وخراجا . لكن يزيد لم يفرح بتلك الولاية ، إذ فكر ثم قال لأحد أصدقائه وأهل مشورته : «**إن العراق قد أخربها الحجاج ؛ وأنا اليوم رجاء أهل العراق [أي أنهم يأملون منه أن يخفف عنهم ويصلح أحوالهم] ، ومتى قدمتها وأخذت الناس بالخراج ، وعذبتهم عليه صرت مثل الحجاج ، أدخل على الناس الحرب وأعيد عليهم تلك السجون التي عافاهم الله منها . ومتى لم آت سليمان [الخليفة] بمثل ما جاء به الحجاج [أي مثل ما كان يقدم له الحجاج من الأموال] لم يقبل مني .**» ولذا فقد حرص يزيد بن المهلب على التخلص من هذه الورطة ، فاستعان بمن يقنع الخليفة بأن يعفيه من تلك الولاية ويعين لها شخصا آخر . ولقاء ذلك فقد تعهد بأن يدفع لهذا الوسيط مائة ألف درهم إن هو نجح في إبعاد ولاية العراق عنه . وقد نجحت محاولته فأعفي من ولاية العراق وعينه الخليفة واليا على خراسان (١) .

وبينما كان عمر بن عبدالعزيز واليا على المدينة (٨٧ هـ - ٩٣ هـ) كتب إلى الخليفة الوليد بن عبدالملك ينبهه لما أوقعه الحجاج بأهل العراق من ظلم وجور وطغيان . وعلم الحجاج برسالة عمر ، فكتب إلى الوليد يحرضه على عمر فاستجاب الوليد للتحريض ، وعزل ابن عمه عمر عن ولاية المدينة ، وساعد الحجاج على مطاردة العراقيين الذين هربوا من العراق والتجأوا إلى مدينة رسول الله ، فألقي القبض عليهم وحملوا في الأغلال وأعيدوا إلى الحجاج (٢) .

وبعد أن تولى عمر بن عبدالعزيز الخلافة سنة ٩٩ هـ كتب إلى والي الكوفة يأمره بأن يخفف آثار الظلم الذي تعرض له أهلها ، فقال : «**إن أهل الكوفة أصابهم بلاء**

---

(١) الطبري ، مجلد ٦ ، ص ٥٢٣ - ٥٢٦

(٢) الطبري ، مجلد ٦ ، ٤٨١-٤٨٢ و٤٨٥ و٤٨٨ .

وشدة وجور في أحكام الله ، وسنة خبيثة سنها عليهم عمال السوء . وإن قوام الدين العدل والإحسان ، فلا يكونن شئ أهم إليك من نفسك . . . [أي نج نفسك من العقاب في الآخرة] . ولا تحمل خرابا على عامر ، وخذ منه ما أطاق ، وأصلحه حتى يعمر . [أي لا تلحق الأراضي الخربة بالأراضي العامرة وتفرض عليها الضرائب وكأنها عامرة] ، ولا يؤخذن من العامر إلا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الأرض ، ولا تأخذن أجور الضرابين ولا هدية النوروز والمهرجان ، ولا ثمن الصحف ، ولا أجور الفتوح ، ولا أجور البيوت ، ولا درهم النكاح [وهذه كلها أنواع من الضرائب كانت تفرض على الناس بغير حق] . ولا خراج على من أسلم من أهل الأرض [اكتفاءا بالزكاة ، لأن ولاة الأمويين كثيرا ما كانوا يأخذون الجزية من الذي يتحولون إلى الإسلام] . . . وانظر من أراد من الذرية أن يحج فعجل له مائة ليحج بها ، والسلام(١) .» وهكذا حرص عمر على أن يشمل العدل المسلمين وغير المسلمين من أهل الكوفة .

وفي سياق هذا المسار من الانتقام والظلم والفساد كان قتل معاوية لحجر بن عدي الكندي سنة ٥١هـ . وحجر بن عدي صحابي وفد على النبي ﷺ . وقد شارك في معركة جلولاء التي أنهت وجود الدولة الساسانية ، وكان مع علي وأنصاره في معركة الجمل في البصرة ، وقائدا لسبع مذحج والأشعريين الذين خفوا وتحركوا من الكوفة للانضواء تحت لواء علي رضي الله عنه ؛ كما أنه كان من الفرسان البارزين في جيش علي في معارك صفين ، وشهد اتفاقية التحكيم ، وكان قائدا لميمنة علي في حربه للخوارج يوم النهروان ، كما أنه قاد جيشا من أربعة آلاف ضد هجوم شنه جند معاوية بقيادة الضحاك بن قيس الفهري . وقد قتل معاوية حجرا على أساس تهمتين :

أولا : أنه كان يثير الشغب على الوالي في المسجد ، ويهينه ويدافع عن علي ويشتم أنصار عثمان ، وبذلك يحرض على معاداة السلطة وعصيانها ؛

ثانيا : أنه اعترض على تأخير والي الكوفة (المغيرة بن شعبة ، ثم زياد بن أبيه) دفع العطاء لمستحقيه ، أي المرتبات ، باعتبار الكوفة قاعدة عسكرية تشكل منها

(١) إبن الأثير ، ***الكامل في التاريخ*** ، مجلد ٥ ، ص ٦١ ؛ الطبيري ، مجلد ٦ ، ص ٥٦٩ .

الجيوش وتوجه لمحاربة من تريد الدولة حربهم . وكان من عادة الأمويين تأخير العطاء (المخصصات المالية للمحاربين وأسرهم) منذ عهد معاوية [١] ، وذلك للضغط على الناس وإشعارهم بالحاجة إليهم ؛ ثم ازداد التأخير بعد ذلك باعتباره أداة قهر وإذلال لأهل الكوفة والبصرة المعروفين بمعارضة بني أمية . وكان الأمويون قد أحلوا العطاء]الرواتب [محل أسهم المحاربين من الغنائم – أربعة أخماسها – ليستأثروا هم بالأشياء القيمة من الغنائم . ولدينا معلومة تبين أن زياد بن أبيه كان قد وجه أمرا إلى الحكم بن عمرو الغفاري ، وكان نائبه في خراسان ، **بأن يستصفي من الغنائم الذهب والفضة ويحفظها لأمير المؤمنين** . وجاء في خطابه له : «**إن أمير المؤمنين قد جاء كتابه أن يصفى له كل صفراء وبيضاء ، يعني الذهب والفضة ، يجمع كله من هذه الغنيمة لبيت المال** ، أي بيت مال معاوية . وكان الحكم صحابيا ورعا ، فكتب إلى زياد : «**إن كتاب الله مقدم على كتاب أمير المؤمنين** ، وإنه والله لو كانت السماوات والأرض رتقا على عبد فاتقى الله يجعل له مخرجا .» وقسم الحكم الغنائم على المحاربين بعد أن رفع الخمس كما أمر الله ورسوله . وقد هدده زياد بالقتل ، فدعا الحكم الله : « . . . أللهم إن كان لي عندك خير فاقبضني إليك ، فمات بمرو من خراسان ،» قبل أن ينتقم منه زياد[٢] .

وقد ذكر أن حجر بن عدي اعترض جمالا محملة بالمال مرسلة إلى معاوية فأمسك بزمام أولها وقال : «**لا والله حتى يوفى كل ذي حق حقة** .» وفي رواية منقولة عن الإمام أحمد بن حنبل مفادها أن حجرا اعترض على المغيرة بن شعبة وهو يخطب ويسب عليا ويمدح عثمان وأنصاره ، فقام حجر وأنكر ذلك ، **ثم صاح بالمغيرة وذمه لتأخيره العطاء عن الناس** . وقد قام مع حجر عدد كبير من الناس قدروا بأنهم كانوا ثلثي من في المسجد[٣] .

---

(١) إبن كثير ، ج ٨ ، ص ١٢٤ – ١٢٥ .

(٢) إبن كثير ، ج ٨ ، ص ٢٥ ؛ الطبري ، مجلد ٣ ، ٢١٦ – ٢١٧ .

(٣) إبن كثير ، ج ٨ ن ص ٤٤ ح ؛ الطبري ، مجلد ٣ ، ٢١٩ .

وكان معاوية قد أمر المغيرة بن شعبة ، عندما عينه واليا على الكوفة سنة ٤١هـ ، أن لا يتوقف عن شتم علي بن أبي طالب وذمه ، كما أمره بذم أنصار علي وإقصائهم ، وبمدح أنصار عثمان وتقريبهم ، فاستجاب المغيرة ونفذ ، كما ذكرنا من قبل .

فلما مات المغيرة سنة إحدى وخمسين ، وعين معاوية زياد بن أبيه واليا على الكوفة والبصرة والمشرق واصل زياد سياسة سلفه التي أمر بها معاوية . وقد نقل الطبري رواية ترتفع إلى محمد بن سيرين أن زيادا خطب وأطال حتى كاد يضيع وقت الصلاة ، فصاح حجر «الصلاة» ، فاستمر زياد في خطبته ، ثم كرر حجر التذكير ، ثم أخذ كف حصى وقام للصلاة وقام الناس معه ، فاضطر زياد إلى النزول وإمامة الصلاة . وبعد ذلك كتب رسالة إلى معاوية بشأن حجر **«وكثر عليه» ، بمعنى أنه ضخم التهمة** . فرد معاوية على الرسالة بأن يشد حجر في الحديد ويوجهه إليه . وأراد قوم حجر أن يمنعوه فقال [حجر] لا ، ولكن سمع وطاعة . . . فلما دخل عليه [على معاوية] قال : السلام عليك يا أمير المؤمنين . . . «فأمر بإخراجه وضرب عنقه»(١) .

وخلاصة الروايات الإتهامية أن حجر بن عدي كان إما متمردا ومشجعا للعصيان وإهانة الحكام ، أو أنه كان يدافع عن حقه وحق الناس في العطاء وعدم استخدامه للضغط عليهم وإذلالهم ، وأنه أعلن أنه ليس متمردا ولا منشقا . يضاف إلى ذلك – من النصوص التي استعرضنا بعضها – أن زيادا بالغ في نسبة التهم المسندة إلى حجر ، وهذا هو معنى عبارة «كثر عليه» ، حسبما ورد في النص . بل إن التفاصيل الكثيرة التي لم نذكرها تضمنت أن زيادا عمل على كتابة أسماء عدد كبير من الشهود على الاتهامات التي وجهها إلى حجر ؛ كما ورد أن عددا من مشاهير العلماء ، ممن ذكرت أسماؤهم ضمن الشهود ، نفوا أنهم شهدوا بما نسب إليه وقالوا إنهم امتدحوا حجرا في دينه وتقواه عندما سئلوا عنه . وقد نسب إلى عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها لامت معاوية لقتله حجر ، وقالت له : أين ذهب حلمك؟ ولدينا نص يبين أنها أثنت على دين حجر وتقواه . وهذا الثناء مبني على ما تعرفه من سمعة حجر ، وليس على معرفة مباشرة به .

---

(١) الطبري ، مجلد ٣ ، طبع بيروت ، ص ٢٢٠ ؛ إبن كثير ، ج ٨ ، ص ٤٤-٤٦ . ١١٧

والذي أرجحه ، بناء على كثير مما ورد في المصادر ، أن تهمة الشغب والمعارضة ضد حجر قد ضخمت بنسبة كبيرة ، وأن الأسباب الحقيقية بالنسبة لمعاوية هي :

- أن حجر كان من أنصار علي المهمين ، وقد حارب معه في البصرة ، وفي صفين ، وضد الخوارج . وفي بعض هذه المعارك كان يقود ميمنة الجيش أو ميسرته في الهجوم والاشتباك ، وفي مرة واحدة قاد جيشا من أربعة آلاف ، منفردا ، وحقق النصر . وعلى هذا الأساس يكون قتل معاوية لحجر انتقاما لتلك المساهمة الكبيرة التي قدمها لمناصرة الخليفة الشرعي .
- كان حجر شديد المعارضة لمعاوية والولاة الذين عينهم ، وكان لا يخفي معارضته ؛ وأثناء وجوده في الكوفة كان ينتقد الوالي ويعترض عليه ، سواء أثناء ولاية المغيرة بن شعبة ، أو أثناء ولاية زياد بن أبيه فيما بعد .
- وكان حجر من قبيلة كندة ، وهي من أكبر القبائل العربية الجنوبية ، وكان له معجبون وأنصار قدر عدد من حضر منهم في مسجد الكوفة في موقف احتجاجي بأنهم كانوا ثلاثة آلاف أو أكثر ، وأنهم شكلوا ثلثي من في المسجد ، كما أشرنا قبل قليل . وقد وقفوا كلهم يعلنون تأييدهم لحجر ، ويكررون مقولاته الاحتجاجية على تصرفات الوالي زياد بن أبيه . وكما ذكرنا فإن ذلك الموقف لم يكن السبب الرئيسي ، بل كان «القشة التي قصمت ظهر البعير» ، كما يقول المثل العربي القديم ، وأعجلت الوالي وأعجلت معاوية ، «الخليفة الأموي» ، على التخلص منه بأسرع ما يمكن ، باعتباره معارضا قويا وخطرا .

معاوية يعين ولي عهده:

وفي خطوة لا سابقة لها في الإسلام سن معاوية بن أبي سفيان سنة – أو بدعة – جديدة بتعيين ابنه يزيد ليحل محله في منصب الخلافة عند وفاته . ويخبرنا السيوطي أن معاوية دعا «أهل الشام إلى البيعة بولاية العهد من بعده لابنه يزيد ، فبايعوه . وهو أول من عهد بالخلافة لابنه ، وأول من عهد بها في صحته . ثم إنه كتب إلى مروان بالمدينة أن يأخذ البيعة ، فخطب مروان فقال :

إن أمير المؤمنين رأى أن يستخلف عليكم ولده يزيد ، سنة أبي بكر وعمر . فقام عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق فقال : بل سنة كسرى وقيصر ؛ إن أبا بكر وعمر لم يجعلاها في أولادهما ، ولا في أحد من أهل بيتهما .

ثم حج معاوية سنة إحدى وخمسين ، وأخذ البيعة لابنه فبعث إلى ابن عمر ، فتشهد وقال : أما بعد يا ابن عمر ، فإنك كنت تحدثني أنك لا تحب أن تبيت ليلة سوداء ليس عليك فيها أمير ، وإني أحذرك أن تشق عصا المسلمين أو تسعى في فساد ذات بينهم . فحمد ابن عمر الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، فإنه قد كان قبلك خلفاء لهم أبناء ليس ابنك بخير من أبنائهم ، فلم يروا في أبنائهم ما رأيت في ابنك ؛ ولكنهم اختاروا للمسلمين حيث علموا الخيار ، وإنك تحذرني أن أشق عصا المسلمين ، ولم أكن لأفعل ؛ وإنما أنا رجل من المسلمين ؛ فإذا اجتمعوا على أمر فإنما أنا رجل منهم . فقال : يرحمك الله! فخرج ابن عمر .

ثم أرسل [معاوية] إلى ابن أبي بكر ، فتشهد ثم أخذ في الكلام ، فقطع عليه كلامه ، وقال : إنك لوددت أنا وكلناك في أمر ابنك إلى الله ، وإنا والله لا نفعل ، والله لتردن هذا الأمر شورى في المسلمين أو لنعيدنها عليك جذعة ، ثم وثب ومضى . فقال معاوية ، اللهم اكفنيه بما شئت ؛ ثم قال : على رسلك أيها الرجل ، لا تشرفن على أهل الشام فإني أخاف أن يسبقوني بنفسك [أي يقتلوك] حتى أخبر العشية أنك قد بايعنا [كذا في الأصل ، والمقصود : بايعتنا] ، ثم كن بعد على ما بدا لك من أمرك .

ثم أرسل إلى ابن الزبير ، فقال : يابن الزبير ، إنما أنت ثعلب رواغ ، كلما خرج من جحر دخل في آخر ، وإنك عمدت إلى هذين الرجلين [يقصد عبدالله بن عمر وعبدالرحمن بن أبي بكر] فنفخت في مناخرهما وحملتهما على غير رأيهما ، فقال ابن الزبير : إن كنت قد مللت الإمارة فاعتزلها ، وهلم ابنك فلنبايعه ؛ أرأيت إذا بايعنا ابنك معك لأيكما نسمع ونطيع؟ لا تجتمع البيعة لكما أبدا ؛ ثم راح .

وبعد ذلك صعد «معاوية المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إنا وجدنا أحاديث الناس ذات عوار ، زعموا أن ابن عمر وابن أبي بكر وابن الزبير لم يبايعوا يزيد ، وقد سمعوا وأطاعوا وبايعوا له . فقال أهل الشام : والله لا نرضى حتى يبايعوا له على رؤس الأشهاد ، وإلا ضربنا أعناقهم ؛ فقال : سبحان الله! ما أسرع الناس إلى قريش بالشر! لا أسمع هذه المقالة من أحد منكم بعد اليوم . ثم نزل ، فقال الناس : بايع ابن عمر وابن أبي بكر وابن الزبير ، وهم يقولون : لا والله ما بايعنا ، فيقول الناس بلى . وارتحل معاوية فلحق بالشام[1] .»

---

(١) السيوطي ، ***تاريخ الخلفاء*** ، ص ١٩٦ - ١٩٧ .

تلك كانت خلاصة الروايات التي وصلت إلى الإمام السيوطي . أما ابن الأثير ، فقد وضع هذه الأحداث المتعلقة بسعي معاوية لتنصيب ابنه خليفة من بعده في السنة السادسة والخمسين للهجرة ؛ وربما كانت هذه الجهود قد استمرت خمس سنوات أو ست (من سنة ٥٠ إلى سنة ٥٦) ، وقد أوردنا رواية السيوطي بنصها دون اختصار ، لأنها مختصرة ومركزة أصلا . أما ابن الأثير فقد أورد عبارات مما نقل عن معاوية وأتباعه أشد عنفا وأوغل في أساليب التهديد والوعيد والقمع والترهيب ، والرشوة والترغيب . وقد اخترت عرض المشاهد الأقل عنفا ضمن رواية السيوطي . وسأستعرض هنا بعض مقتطفات مما أورده ابن الأثير :

فقد ذكر ابن الأثير أن مشروع معاوية تم بتشجيع وتعاون من المغيرة بن شعبة – والي الكوفة آنذاك – سعيا لأن يثبته معاوية في منصبه بعدما بدا أنه يريد عزله . فقد أوفد المغيرة إلى معاوية عشرة من الكوفيين ليحسنوا له تولية يزيد ابنه ، بعد أن أعطاهم المغيرة ثلاثين ألف درهم ، أو أربعمئة دينار ، حسب رواية أخرى ؛ وكان ذلك مما قوى عزم معاوية على المضي في الخطة ؛ وهكذا كتب إلى عماله بتقريظ [مدح] يزيد ، وأن يوفدوا إليه الوفود من الأمصار ، فكان فيمن أتاه محمد بن عمرو بن حزم من المدينة ، والأحنف بن قيس في وفد أهل البصرة ، فقال محمد بن عمرو لمعاوية : إن كل راع مسؤول عن رعيته ، فانظر من تولي . . . [فـ]وصله وصرفه [أي أعطاه مالا] . وأمر الأحنف بن قيس أن يدخل على يزيد . . . فلماخرج من عنده قال له : كيف رأيت ابن أخيك؟ قال : رأيت شبابا ونشاطا وجلدا ومزاحا . . .» وتحدث الضحاك بن قيس عن يزيد وكان من حديثه : «ويزيد ابن أمير المؤمنين في حسن هديه وقصد سيرته على ما علمت ، وهو من أفضلنا علما وحلما ، وأبعدنا رأيا ، فوله عهدك واجعله لنا علما بعدك ومفزعا نلجأ إليه ونسكن في ظله[1] .» أما في الحجاز فقد لقيت الخطة معارضة ارتفعت بها أصوات الحسين بن علي ، وعبدالرحمن بن أبي بكر الصديق ، وعبدالله بن الزبير . إذن ، لم يجد معاوية صعوبة في الحصول على تأييد مسلمي بلاد الشام لخطته ، كما أن الوفود التي جاءته من العراق طمأنته بأن معارضة أهل الكوفة والبصرة قد أمكن كسرها وتجاوزها ؛ وإذ ذاك لم يبق عليه إلا أن يتدبر أمر المعارضين في الحجاز . وفي سنة إحدى وخمسين للهجرة توجه إلى

---

(١) *المصدر نفسه* ، ٥٠٨ .

الحجاز في موسم الحج ؛ وهناك استدعى عبدالله بن عمر وقال له : «إنك كنت تحدثني أنك لا تحب أن تبيت ليلة سوداء ليس عليك فيها أمير ، وأني أحذرك أن تشق عصا المسلمين أو تسعى في فساد بينهم .» وقد رد ابن بعمر بقوله : «أما بعد ، فإنه قد كان قبلك خلفاء لهم أبناء ليس ابنك بخير من أبنائهم ، فلم يروا في أبنائهم ما رأيت في ابنك ن ولكنهم اختاروا للمسلمين حيث علموا الخيار ؛ وإنك تحذرني أن أشق عصا المسلمين ، ولم أكن لأفعل ؛ وإنما أنا رجل من المسلمين ، فإذا احتمعوا على أمر فإنما أنا رجل منهم .» وكان معاوية قد أرسل إلى عبد الله بن عمر مائة ألف درهم فقبلها ، فلما ذكر البيعة قال ابن عمر : هذا أراد أن ديني عندي إذن لرخيص ؛ وامتنع .»

«وخطب معاوية بالمدينة فذكر يزيد فمدحه وقال : من أحق منه بالخلافة في فضله وعقله وموضعه؟ **وما أظن قوما بمنتهين حتى تصيبهم بوائق تجتث أصولهم ، وقد أنذرت إن أغنت النذر** .[(١)] . .» وفي مكة خاطب معاوية الجماعة إياهم – الحسين والآخرين – بأسلوب مغاير فيه لين ، مؤملا أن يكسر معارضتهم بالكلام المعسول والعطايا المالية اليومية ؛ غير أنهم تنبهوا لخطته . فلما عزم على مغادرة مكة استدعاهم وقال لهم : «قد علمتم سيرتي فيكم وصلتي لأرحامكم وحملي ما كان منكم ؛ ويزيد أخوكم وابن عمكم ، وأردت أن تقدموه باسم الخلافة وتكونوا أنتم تعزلون وتؤمرون وتجبون المال وتقسمونه ، لا يعارضكم في شئ من ذلك ؛ فسكتوا .» وكانوا قد اتفقوا على أن يتكلم عبدالله بن الزبير نيابة عنهم ؛ فقال له ابن الزبير : «نخيرك بين ثلاث خصال . قال اعرضهن . قال : تصنع كما صنع رسول الله ﷺ ، أو كما صنع أبو بكر أو كما صنع عمر .» ثم ذكر له أن النبي ترك الأمر شورى بين المسلمين ، وأن أبا بكر استخلف عمر ولم يختر ابنا أو قريبا له ، وأن عمر جعل الأمر شورى في ستة نفر ، مستثنيا ابنه من أن يكون مرشحا للمنصب ، أي أنه لم يحاب أحدا من قريب أو بعيد . وهنا كشر معاوية عن أنيابه ، وبعد تهديد ووعيد «دعا صاحب حرسه بحضرتهم فقال : أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين ، ومع كل واحد سيف ، فإن ذهب رجل منهم يرد علي كلمة بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفيهما .» **وفي المسجد صعد معاوية المنبر «فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :**

---

(١) *المصدر نفسه* ، ص ٥٠٨ – ٥٠٩ .

إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم ، لا يبت أمر دونهم ، ولا يقضى إلا عن مشورتهم ؛ وإنهم قد رضوا وبايعوا ليزيد ، فبايعوا على اسم الله! فبايع الناس ، وكانوا يتربصون بيعة هؤلاء النفر . ثم ركب رواحله وانصرف إلى المدينة [1] .» ومما ذكره ابن الأثير أن أحد أتباع معاوية – وهو يزيد بن المقنع العذري – وجه خطابه إلى الناس في المسجد فقال : «هذا أميرالمؤمنين ؛ وأشار إلـى معاوية ؛ فإن هلك فهذا ، وأشار إلى يزيد ، ومن أبى فله هذا ، وأشار إلى سيفه . فقال معاوية : إجلس فأنت سيد الخطباء . . . . وكان معاوية يعطي المقارب ويداري المباعد ويلطف به حتى استوثق له أكثر الناس .» كان هذا بعض مقتطفات ، كما كان بعضه تلخيصا ، مما أورده ابن الأثـير .

أما أبو جعفر ، محمد بن جرير الطبري ، فقد تمسك باتباع نفس الأسلوب الذي أعلنه منذ بدأ يروي القصص التي كانت تتداول حول الصراعات الداخلية في الجسم الإسلامي ، بدءا بالاتهامات التي وجهت إلى أبي ذر ، ومرورا بعهد عثمان رضي الله عنهما . فقد أعلن الطبري منذ البداية : أنه ترك بعض الروايات لشناعة مضمونها ، أو لأن بعضها مما لا يحتمل عامة الناس البسطاء سماعه . وعندما وصل تتابع الأحداث إلى بيعة يزيد بن معاوية اكتفى الطبري بالكشف لنا عن الصفحة الأخيرة من القصة فقط ، ولعله ترك أقوالا كثيرة لشناعتها ، أو لأن العامة لا يحتملونها ، ثم كتب يقول :

«ان معاوية لما مرض مرضته التي هلك فيها دعا يزيد ابنه ، فقال : **يا بني إني قد كفيتك الرحلة والترحال ، ووطأت لك الأشياء ، وذللت لك الأعداء ، وأخضعت لك أعناق العرب ، وجمعت لك من جمع واحد ، وإني لا أتخوف أن ينازعك هذا الأمر الذي استتب لك إلا أربعة نفر من قريش : الحسين بن علي ، وعبدالله بن عمر ، وعبدالله بن الزبير ، وعبدالرحمن بن أبي بكر [2]** . . .»

---

(١) إبن الأثير ، الكامل ، مجلد ٣ ، ص ٥٠٨ – ٥١١ .

(٢) الطبري ، مجلد ٥ ، ص ٣٢٢ – ٣٢٣ ؛ وانظر أيضا محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقا ، ***الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية*** (بيروت : دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٢٨٥/١٩٦٦) ص ١١١– ١١٢ .

يـزيـد بن معاويـة يتولى الخلافـة:

تولى يزيد ابن معاوية في شهر رجب سنة ستين للهجرة ، وكان أول شئ أهمه هو أن يحصل على بيعة من الحسين بن علي ، وعبدالله بن عمر ، وعبدالله بن الزبير ، ولذا فقد كان أول عمل قام به هو الكتابة إلى والي المدينة الأموي ، وهو ابن عمه - الوليد بن عتبة بن أبي سفيان - كي يأخذ منهم البيعة قسرا . وقد بايع عبدالله بن عمر ، وامتنع الحسين وابن الزبير ، ثم خرجا من المدينة تجنبا للقتل ، واتجه ابن الزبير إلى مكة ، بينما اتجه الحسين رضي الله عنه إلى الكوفة .

وكتب يزيد إلى والي البصرة والكوفة ، عبيدالله بن زياد ، يأمره بملاحقة الحسين الذي اتجه إلى الكوفة . ولذا فقد شكل ابن زياد جيشا من خمسة آلاف جعل قائده عمر بن سعد بن أبي وقاص . وقد توجهت طليعة من هذا الجيش تعدادها ألف فارس لاعتراض الحسين بن علي ، رضي الله عنه ، ومن معه . وبينما يسير الحسين وصحبه في الطريق إلى الكوفة فاجأتهم القوة المتقدمة ، ووقفت في مواجهة الحسين رضي الله عنه ودعوه إلى الذهاب معهم إلى أمير العراق والمشرق ، عبيد الله بن زياد ؛ لكن الحسين رفض ذلك بإصرار . وفي أثناء ذلك وصل إلى الحسين وفد من أربعة رجال تسللوا خارج الكوفة التي كان قد سيطر عليها ابن زياد . ولما استعلمهم الحسين عن أحوال الناس في الكوفة أجابه أحدهم : «**أما أشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم ، وملئت غرائرهم ، فهم ألب واحد عليك ؛ وأما سائر الناس بعدهم فإن قلوبهم تهوي إليك ، وسيوفهم غدا مشهورة عليك** [(١)] .»

وفي الثاني من المحرم سنة إحدى وستين للهجرة (٢/١٠/٦٨٠م) وصل الحسين إلى قرية على جانب الفرات تسمى العقر . ولم يلبث إلا قليلا حتى وصلت بقية الجيش ، أي القوة الرئيسية المكونة من أربعة آلاف رجل ، يقودهم ومن سبقهم عمر بن سعد بن أبي وقاص . وهكذا أصبح الحسين ومجموعة مرافقيه ، التي تكونت من سبعين شخصا تقريبا ، والتي كان من ضمنها رجال ونساء وأطفال ، أصبح الحسين وجماعته في مواجهة جيش ضم خمسة آلاف ، أكثرهم من الجهلة المتوحشين الذي لم يحركهم إلا المال الذي وزع عليهم ، والمكافأة التي كانوا ينتظرونها من عبيدالله بن زياد ، تحت أوامر قيادتهم التي باعت نفسها لأحلام السلطة والثروة والمنافع الشخصية .

---

(١) إبن الأثير ، ***الكامل*** ، ملد ٤ ، ص ٤٩ .

وقد تلقى قائد القوة ، عمر بن سعد بن أبي وقاص ، أوامر حازمة من عبيدالله بن زياد بأن يشدد التضييق على الحسين ومن معه ، وأن يمنع عنهم الماء ويمنعهم من الوصول إليه . وزيادة في النكاية والأذى صار الجند المتوحشون بالأطماع الصغيرة يوجهون للحسين أنواعا من الكيد ، منها : يا حسين ، أما تنظر إلى الماء؟ لا تذوق منه قطرة حتى تموت عطشا (١) .

ومن غير إطالة لا ضرورة لها لسرد قصة أحداث مؤلمة مفزعة ومعروفة ، فقد قام جنود ابن زياد بمذبحة مروعة ذهب ضحيتها الحسين ومن معه ، لم يستثن منهم سوى بعض بنات الحسين ، وبعض النساء والأطفال (٢) .

لماذا خرج الحسين بن علي من المدينة؟

كان السبب المباشر الذي دعى الحسين رضي الله عنه للخروج من المدينة هو الضغط والتهديد الذي تعرض له لإجباره على مبايعة يزيد بن معاوية بالخلافة مكرها ، كما ذكرنا . وقد بلغ التهديد احتمالا أكيدا بأن يقتل إن لم يبايع .

المسئولية عن قتل الحسين بن علي:

بعد مقتل الحسين حاول الأمويون أن يتنصلوا من المسئولية عن ذلك ، بل إنهم لم يتورعوا عن إلصاق جريمة قتله بالعراقيين ، أي أهل الكوفة والبصرة ، معتمدين على سذاجة الأغلبية ، وعلى إنفاق المال وتقديم المنافع في إطار الدعاية لادعاءاتهم ، وضد معارضيهم .

الذين قتلوا الحسين بن علي هم الأمويون وأنصارهم الذين اشتروهم بالمال ، وليس أهل العراق . يزيد بن معاوية أصدر أمرا إلى والي البصرة والكوفة عبيدالله بن زياد بن أبيه [أو زياد بن أبي سفيان كما أراد معاوية أن يعرفه] ، وعبيدالله شكل جيشا من خمسة آلاف انطلق حتى وصل مسرح الحدث يقوده عمر بن سعد بن أبي وقاص ، وتم قتل الحسين ومعظم عائلته ومرافقيه مع ممارسات بشعة ، يغنينا عن ذكرها

---

(١) إبن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ، ص ٥٣ ، وانظر الصفحات ٤٦ - ٨٠ .

(٢) ***المصدر نفسه*** ، والصفحات ذاتها .

طول تكرار القصة عبر القرون [١] . الذين قتلوا الحسين هم : يزيد بن معاوية بن أبي سفيان (الخليفة الأموي) ، وعبيدالله بن زياد (المنتسب إلى الأمويين) ، وكان واليا على البصرة والكوفة ، ومن أعمدة الدولة الأموية ؛ وعمر بن سعد بن أبي وقاص ، وهو حجازي مكي ، وموظف عسكري في مركز قيادي عال . أما الجند الجهلة الذين كانوا مدفوعين بالإغراءات المالية ، وبما ينتظرونه من مكافآت ، ولا شئ غير ذلك فلا يمكن أن يحملوا المسئولية لتبرئة الكبار ، الذين أصدروا لهم الأوامر ، وجمعوا الجند الجهلة القساة . بل إن بأمكاننا ، وبإمكان أي باحث أن يشرك معاوية بن أبي سفيان نفسه في المسئولية عن قتل الحسين رضي الله عنه ؛ خاصة عندما نستعيد إلى الذاكرة قول معاوية للحسين :

«لا مرحبا ولا أهلا . . . بدنة يترقرق دمها والله مهريقه .» وقد رد الحسين بأنه لا يستحق مثل هذا الكلام ، فرد معاوية بقوله : بلى وأكثر[٢]

ومما يؤسف له أن بعض الفقهاء والعلماء المؤرخين حاولوا تبرئة المسؤول الأول الذي أصدر الأوامر ، وكانت العملية كلها لمصلحته غير الشرعية ، بينما تفننوا في إدانة الأتباع المنفذين ، من المستويات العليا والدنيا على السواء . ومن ذلك ما نقلوه من صور خرافية خيالية ساذجة عن عبيدالله بن زياد بعد مقتله ، إذ كتب ابن كثير : «لما جيء برأس ابن مرجانة [عبيدالله بن زياد] وأصحابه طرحت بين يدي المختار ، فجاءت حية رقيقة ثم تخللت الرؤوس حتى دخلت في فم ابن مرجانة ، وخرجت من منخره ، ودخلت في منخره وخرجت من فمه ، وجعلت تدخل وتخرج من رأسه من بين الرؤوس . وأضاف ابن كثير أن الترمذي روى «الحديث من وجه آخر وبلفظ آخر . . .» ونص الترمذي لا يخرج عن نص ابن كثير ، والصورة الخيالية مشابهة لسابقتها ، ولا اختلاف إلا في تقديم وتأخير وتكرار بعض الألفاظ ، ولا حاجة لنا

---

(١) إبن كثير ، ***البداية والنهاية*** ، ج ٨ ، ص ١٦٢- ١٧٢ (طبعة الرياض) ، أما طبعة بيروت ففي ص ١٤٨ - ١٦٢ ؛ الطبري ، مجلد ٥ ، ٤٠٠ -٤٠٠- ٤٦٧ ؛ أبو حنيفة الدينوري ، ***الأخبار الطوال*** ، ص٢٤٣ - ٢٥٣ .

(٢) إبن الأثير ، ***الكامل في التاريخ*** ، مجلد ٣ ، ٥٠٨ .

بنقلها . وقال الترمذي : « وهذا حديث حسن صحيح [١] .»

هل هو حديث نبوي حتى يوصف بهذه الصفة : حسن صحيح!!!

موقعة الحرة واستباحة المدينة:

وفي السنة التالية ، تواصلت الثورة ضد يزيد بن معاوية ، فقد ثار أهل المدينة وأعلنوا خلعه ، وبايعوا عبدالله بن حنظلة الغسيل ، على الرغم من أن يزيد حاول إغراقهم بالمال والعطايا ، فأعطى عبدالله بن حنظلة نفسه مائة ألف درهم ، وأعطى كل واحد من بنيه الثمانية عشرة آلاف ، فقبلها ليتقوى بها على محاربته ؛ كما أنه أعطى أموالا طائلة لكل من ظن أن له تأثيرا ، أو قدرة على المعارضة المؤثرة أو يمكن أن يكون مثالا يحتذى فيما لو ساير رغباته .

وقد بعث يزيد جيشا يقوده مسلم بن عقبة المري فكانت وقعة الحرة ، بعد أن رفض أهل المدينة كل التهديد والوعيد كما رفضوا المغريات ؛ وظلوا على معارضتهم لخلافة يزيد بن معاوية . وهكذا تم اجتياح المدينة ، وقد أباحها مسلم بن عقبة ثلاثة أيام لجنده ، يقتلون وينهبون ، وكانت مذبحة أخرى وجرائم وحشية قتل فيها عدد كبير من الصحابة وغيرهم من أبناء المهاجرين والأنصار ؛ «ووقعوا على النساء حتى قيل إنه حبلت ألف امرأة في تلك الأيام من غير زواج [٢] .» ونقل ابن كثير عن المدائني في رواية تصل إلى الزهري ، أنه سئل : «كم كان قتلى يوم الحرة ، قال : سبعمائة من وجوه الناس من المهاجرين والأنصار ، ووجوه الموالي وممن لا أعرف من حر وعبد غيرهم عشرة آلاف ؛ وقد ذكر السيوطي مثل ذلك باختصار ، فقال إنه «قتل فيها خلق من الصحابة رضي الله عنهم ، ومن غيرهم ، وافتض فيها ألف عذراء ، فإنا لله وإنا إليه راجعون [٣] .»

مهاجمة مكة:

وفي خضم هذه الصراعات كان قد ظهر مرشح آخر للخلافة . إذ بايع عدد كبير

---

(١) إبن كثير ، ج ٨ ، ص ٢٤٢ .

(٢) *المصدر نفسه* ، ص ١٨٨ طبعة بيروت .

(٣) *المصدر نفسه* ، والصفحة ذاتها ؛ السيوطي ، *تاريخ الخلفاء* ، ص ٢٠٩ .

من أهل الحجاز عبدالله بن الزبير ، فغدا المنافس الأقوى حتى لقد كاد يقضي على الحكم الأموي عندما بايعته وتبعته معظم الأقطار الواقعة في الدولة الإسلامية . كما أن مناطق من سورية قد بايعت ابن الزبير وقبلت بخلافته ، بينما كانت مناطق أخرى على وشك الالتحاق بخلافته . وكان ابن الزبير قد غادر المدينة بعد أن استشعر الخطر من جند معاوية فتوجه إلى مكة ليتدبر فيها أمره ، وليحتمي بحرمتها إن قصدته قوات شامية كبيرة . وقد بايع أهل مكة عبدالله بن الزبير بالخلافة بعد تولي يزيد بن معاوية الحكم بعد أبيه ؛ وثمة رواية تذهب إلى أن أهل المدينة كانوا بايعوا ابن الزبير أيضا .

وبعد أن نجحت القوات الموالية للأمويين في الإجهاز على الحسين ومن معه في المذبحة التي أشرنا إليها باختصار ، ثم تمكنت من اجتياح مدينة رسول الله ﷺ في نهاية معركة الحرة ، زحف مسلم بن عقبة المري بقواته متجها إلى مكة ، إذ كان يحمل أمرا بذلك ، للقضاء على عبدالله بن الزبير وخلافته . لكن مسلم مات موتا طبيعيا وهو في طريقه إلى مكة ، إذ كان شيخا طاعنا في السن . وكان قد أوكل – قبل وفاته – قيادة الجيش إلى حصين بن نمير السكوني ، بناء على أمر كان قد تلقاه من يزيد بن معاوية حين وجهه من الشام إلى المدينة . وقد وصل السكوني وجيشه إلى مكة ونشبت معارك عنيفة بينهم وبين ابن الزبير وقواته ، ورمى جند الشام الكعبة بالمنجنيق واشتعلت فيها النيران دون أن يتمكنوا من القضاء على عبدالله بن الزبير . وقد حاصروا مكة أربعة وستين يوما ، ولم يرفعوا الحصار إلا بعد أن وصلهم خبر موت يزيد بن معاوية ، فرفعوا الحصار وانسحبوا [١] ، ونجا ابن الزبير وخلافته من خطر ماحق ، ولكن إلى حين .

لقد مات يزيد بن معاوية في سنة ٦٤هـ ، وفي شهر ربيع الأول منها ، فتفاقم الاضطراب ، وضعف أمر الأمويين ، حتى في البصرة التي كان يتولاها عبيدالله بن زياد ، أقوى الولاة وأقوى دعائم الدولة الأموية ؛ فقد ثار الناس ضده في البصرة والكوفة حتى اضطر إلى الهرب سرا إلى الشام لينجو من القتل .

وهكذا فإن الأعمال التي قام بها يزيد بن معاوية في السنوات الثلاث التي

---

(١) الطبري ، مجلد ٥ ، ص ٤٩٦ – ٤٩٨ ؛ إبن الطقطقا ، ***الفخري*** ، ص ١١٧ ؛ السيوطي ، ***تاريخ الخلفاء*** ، ص ٥٠٩ .

قضاها في الحكم تتلخص في مواصلة الانتقام من المعارضة ، والانتقام لكبار زعماء قريش الذين قتلوا في معركة بدر في السنة الثانية للهجرة تحت شعار الانتقام من قتلة عثمان بن عفان ﷺ . وكان أبرز تلك الأعمال الانتقامية ما يلي :

(١) قتل الحسين بن علي والمذبحة التي صاحبت تلك العملية ،

(٢) واجتياح المدينة وما تخلله من قتل للصحابة وأبنائهم ، وسلب ونهب ، واغتصاب للنساء ؛

(٣) مهاجمة مكة وقصف الكعبة بالمنجنيق ، والاشتباك في قتال ضار مع ابن الزبير وأنصاره ، وحصار عانته مكة أكثر من ستين يوما .

وكل هذه الأعمال تندرج ضمن حملات القضاء على المعارضة تلك الحملات التي كان بدأها معاوية بعد أن استولى على الخلافة ، وواصلها بعده ابنه يـزيد .

وانتقل المنصب بعد يزيد إلى ابنه معاوية بن يزيد بن معاوية ، فحكم ثلاثة أشهر ، حسب إحدى الروايات ، أو أربعين يوما حسب رواية أخرى ، ولم يتجاوز الحادية والعشرين من عمره . وقد نسب إليه أنه «أمر فنودي : الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس ، فحمد الله . . . ثم قال : أما بعد فإني نظرت في أمركم فضعفت عنه ، فابتغيت لكم رجلا مثل عمر بن الخطاب رحمه الله حين فزع إليه أبو بكر فلم أجده ، فابتغيت ستة الشورى مثل ستة عمر فلم أجدها ، فأنتم أولى بأمركم ، فاختاروا له من أحببتم . ثم دخل منزله ولم يخرج إلى الناس ، وتغيب حتى مات . فقال بعض الناس دس إليه فسقي سما ، وقال بعضهم طعن[(١)]» ، أي أصابه مرض فتاك . ولا يستطيع الباحث أن يؤكد أيا من هذه الأخبار بالنسبة لتصرفات معاوية بن يزيد وموته ، وإنما أردنا بذكرها أن نصور الأجواء التي سادت الموقف عند نهاية دور الأسرة المعاوية ، الأموية .

---

(١) الطبري ، مجلد ٥ ، ص ٥٣٠ – ٥٣١ و٥٠١ – ٥٠٣ ؛ إبن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٣ ، ص ١٣٠ ؛ السيوطي ، ص ٢١٠– ٢١١ .

الفصل الرابع
دولـة بنـي مـروان

بعد موت معاوية بن يزيد اضطرب أمر بني أمية ، وكادت البيعة تتم لعبدالله بن الزبير حتى في دمشق نفسها ؛ بل إن مروان بن الحكم كان من رأيه «**أن يرحل فينطلق إلى ابن الزبير فيبايعه** . . . [(١)]» وعند هذه اللحظة المفصلية في تاريخ بني أمية جاء عبيدالله بن زياد من العراق . وإذ علم عبيدالله بميل مروان إلى مبايعة ابن الزبير ، لم يتردد أن قال له : «إستحييت لك مما تريد! أنت كبير قريش وسيدها ، تصنع ما تصنعه! فقال : ما فات شئ بعد ؛ فقام معه بنو أمية ومواليهم ، وتجمع له أهل اليمن . . . فقدم دمشق ومن معه ، والضحاك بن قيس الفهري قد بايعه أهل دمشق على أن يصلي بهم ، ويقيم لهم أمرهم حتى يجتمع أمر أمة محمد [(٢)] .» وكان الضحاك يدعو سرا لخلافة ابن الزبير . وفي قنسرين [(٣)] ، بايع زفر بن الحارث الكلابي لعبدالله بن الزبير وأخذ البيعة له ، وكذلك فعل النعمان بن بشير الأنصاري في حمص ، كما بايعت فلسطين لابن الزبير . وهكذا كانت بلاد الشام كلها تقريبا تحولت للولاء لابن الزبير . فلما قدم عبيد الله بن زياد وأنب مروان بن الحكم وشجعه على طلب الخلافة انقلب الموقف . وغني عن البيان أن عبيدالله بن زياد لم يكن مغرما بعيون مروان بن الحكم ؛ ابن زياد كان يعرف جيدا ما ارتكبه من جرائم ، وما قتل من أنفس في سبيل نيل الحظوة وزيادة السلطة في عهد معاوية وولده . ولو اكتملت السلطة لابن الزبير في الدولة الإسلامية لكان على ابن زياد أن يتوقع حسابا عسيرا . لذا فإنه كان يدافع عن نفسه عندما عمل على تعطيل اكتمال خلافة ابن الزبير . وهكذا ظهرت ثلاث توجهات تشعبت بين مؤيد لابن الزبير ، ومؤيد لخالد بن

---

(١) الطبري ، مجلد ٥ ، ص ٥٣٠ .

(٢) ***المصدر نفسه*** ، ص ٥٣٠ .

(٣) وكانت قاعدة عسكرية - جند قنسرين - إلى الجنوب من حلب منذ أيام الفتح الأولى .

يزيد بن معاوية ، وثالث مؤيد لمروان بن الحكم . وقد نشبت معارك طاحنة سقطت فيها أعداد كبيرة من القتلى ، وخلص الحكم لمروان بن الحكم [١] . غير أن خلافته كانت قصيرة ، فاستمرت تسعة أشهر انتهت بوفاته . وهنا ينبغي أن نشير إلى أن بعض المؤرخين من كبار العلماء لم يعترفوا بخلافة مروان ، ولم يدرجوه ضمن قائمة الخلفاء من بني أمية ؛ وهذا ما فعله الإمام جلال الدين عبدالرحمن السيوطي[٢] . وحتى ابن كثير ، الذي ظل بدافع عن الأمويين بحماسة بالغة لم يعتبر معاوية خليفة عند بدء ولايته ، بل اعتبره ملكا ، وساق الحديث المنسوب إلى رسول الله ﷺ : «الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم يكون الملك[٣] .»

عبدالملك بن مروان:

تولى عبدالملك يوم مات أبوه مروان بن الحكم في شهر رمضان من سنة خمس وستين للهجرة . ويعتبر عبدالملك المؤسس الثاني للدولة الأموية ، ليس لأنه كان من الفرع المرواني فحسب ، بل لأنه أنقذ الحكم الأموي من ذروة خطر الانقراض إذ كانت خلافة ابن الزبير قد طغت تماما على ما تبقى من قوة لبني أمية بعد موت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ، ثم موت معاوية بن يزيد . وكانت خلافة ابن الزبير هي الخلافة الشرعية عند أغلبية المسلمين في مختلف الأقطار ، بينما كان وضع الأمويين وكانهم في حالة تمرد ضد الخلافة الشرعية [٤] . وقد استغل عبدالله بن الزبير موسم الحج «إعلاميا» ، فصار يخطب في الحجيج في مكة ومنى وعرفة ، ويخاطب الحجاج القادمين من بلاد الشام خاصة لفضح الإنحرافات والأطماع الأموية . وكان يذم عبدالملك ، ويذكر مساوئ بني مروان ، ويروي أن النبي ﷺ «لعن الحكم وما نسل ، وأنه طريد رسول الله ولعينه .» وكان ابن الزبير فصيحا ، « فمال معظم أهل الشام

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٥٣٠ – ٥٤٤ ؛ ابن الأثير ، *الكامل* ، مجلد ، ص ١٤٥ – ١٥٤ ؛ أبن الطقطقا ، ص ١١٩ – ١٢٠ .

(٢) *السيوطي* ، ٢١٠ –٢١١ .

(٣) ابن كثير ، *البداية* ، ج ٨ ، ١١٧ .

(٤) الطبري ، مجلد ٥ ، ص ٦١٠ – ٦١١ ؛ إبن الأثير ، *الكامل* ، مجلد ٤ ، ١٤٥ – ١٥٤ ، ١٨٩ – ١٩٤ .

إليـه . وبلغ ذلك عـبـدالملك فـمنع الناس من الحج فـضـجـوا ، فـبنى القـبـة على الصخـرة . . . ليشغلهم بذلك عن الحج ويستعطف قلوبهم . وكانوا يقفون عند الصخرة ويطوفون حولها كما يطوفون حول الكعبة ، وينحرون يوم العيد ، ويحلقون رؤوسهم . . . وعندما عزم عبدالملك على بناء قبة الصخرة وعمارة بيت المقدس وجه إليه الأموال والعمـال ، ووكل بالعمل رجاء بن حيوة ، ويزيد بن سلام مولاه . وجمع الصناع من أطراف البلاد وأرسلهم إلى بيت المقدس ، وأرسل إليه بالأموال الجزيلة الكثيرة . وأمر رجاء بن حيوة ويزيد أن يفرغا ا لأموال إفراغا ولا يتوقفا فيه ، فبثوا النفقات وأكثروا ، فبنوا القبة فجاءت من أحسن البناء . وفرشاها بالرخام الملون ، وعملا للقبة جلالين ، أحدهما من اليود [كذا ، ولعلها من البرد] الأحمر للشتاء ، وآخر من أدم للصيف . وحفا القبة بأنواع الستور ، وأقاما لها سدنة وخداما بأنواع الطيب والمسك والعنبر والزعفران . . . وجعلا فيها من قناديل الذهب والفضة والسلاسل الذهب والفضة شيئا كثيرا . وجعلا فيها العود القماري المغلف بالمسك ، وفرشاها والمسجد بأنواع البسط الملونة . وكانوا إذا أطلقوا البخور شم من مسافة بعيدة . وكان إذا رجع الرجل من بيت المقدس إلى بلاده توجد منه رائحة المسك والطيب والبخور أياما ، ويعرف أنه قد أقبل من بيت المقدس ، وأنه دخل الصخرة . وكان فيه من السدنة والقوم القائمين بأمره خلق كثير . ولم يكن يومئذ على وجه الأرض بناء أحسن ولا أبهى من قبة صخرة بيت المقدس ، بحيث أن الناس التهوا بها عن الكعبة والحج ، وكانوا لا يلتفتون في موسم الحج وغيره إلى غير المسير إلى بيت المقدس . وافتتن الناس بذلك افتتانا عظيما ، وأتوه من كل مكان . وقد عملوا فيه من الإشارات والعلامات المكذوبة شيئا كثيرا مما في الآخرة ، فصوروا فيه صورة الصراط ، وباب الجنة ، وقدم رسول الله ﷺ ، ووادي جهنم ، وكذلك في أبوابه ومواضع منه . فاغتر الناس بذلك ، وإلى زماننا [زمان ابن كثير][1] . وبالجملة ، إن صخرة بيت المقدس ، لما فرغ من بنائها ، لم يكن لها نظير على وجه الأرض بهجة ومنظرا . وقد كان فيها من الفصوص والجواهر والفسيفساء وغير ذلك شئ كثير ، وأنواع باهرة .» وقد زاد من الأموال التي خصصت للمشروع ، بعد أن تم البناء والزينة ، ستمئة ألف مثقال ذهبا ، «وقيل ثلاثمئة ألف مثقال . . .

---

(١) توفي ابن كثير سنة ٧٧٤ هـ .

فأفرغاه على القبة والأبواب ، فما كان أحد يستطيع أن يتأمل القبة مما عليها من الذهب [١] . . .»

وبجانب ذلك أدخل عبدالملك عددا من التجديدات والإصلاحات الإيجابية التي لم تكن موجودة قبله ، وأبرزها تعريب الدواوين وتعريب النقد ؛ لكن أهم ما قام به بالنسبة للأمويين هو أنه نجح في القضاء على خلافة عبدالله بن الزبير .

وكان الصراع مع قوى المعارضة قد استؤنف في عهد يزيد بن معاوية ، كما مر معنا ، واستمر في عهد مروان ، وتواصل بعد ذلك في عهد عبد الملك بن مروان . ولا يتسع المجال – في هذه الدراسة – لتغطية تفاصيل هذه الأحداث ، ومع ذلك فإننا سنحاول أن نسلط الضوء على معالمها الرئيسية لتأخذ مكانها في الصورة الهيكلية العامة التي نسعى من خلالها إلى تجلية العوامل التي ساقت الحضارة الإسلامية إلى مرحلة الانهيار .

الصراع الثلاثي:

عندما تولى عبدالملك بن مروان مقاليد الحكم كانت قد ظهرت على مسرح الأحداث ثلاث قوى تعتبر كل منها أن الحق معها : الخليفة عبدالله بن الزبير ومقره مكة ، وعبدالملك بن مروان ، ومقره دمشق ، والمختار بن أبي عبيد ، ومقره الكوفة . وكان ظهور المختار نبتا جديدا في الساحة ، بينما القوتان الأخريان ظهرتا امتدادا للأحداث التي تلت خلافة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان . ولذا فإننا نود أن نقدم المختار في ظهوره على المسرح بنبذة مختصرة .

المختار بن أبي عبيد الثقفي:

والده أبو عبيد الثقفي ، أحد أبطال معركة الجسر أثناء عمليات فتح العراق ، وقد سقط تحت أقدام أحد الفيلة في المعركة فاستشهد . وكانت أخت المختار زوجة لعبدالله بن عمر بن الخطاب . وعندما وصل مسلم بن عقيل بن أبي طالب إلى

(١) إبن كثير ، *البداية* . . . ، ج ٨ ، ص ٢٣٦–٢٣٧ ، ضمن أحداث سنة ٦٦ هـ ، كما نقلها عن سبط بن الجوزي .

الكوفة مبعوثا وداعيا لمبايعة الحسين بن علي أثناء معارضته ليزيد بن معاوية نزل في دار المختار في الكوفة ، وقد بايعه المختار مؤيدا للحسين رضي الله عنه [١] . وبعد استشهاد الحسين صار المختار أحد المطالبين بالانتقام لمقتله ، وتزعم أنصار البيت العلوي في الكوفة وتمكن من الاستيلاء على قصر الإمارة فيها سنة ست وستين للهجرة وسيطر على المدينة . ولعل من المفيد أن نعيد تذكير القارئ أن الكوفة والبصرة كانتا أهم قاعدتين عسكريتين في مشرق عالم الإسلام آنذاك . وعندما كان المتصارعون في ذلك الزمان يذكرون العراق وأهل العراق فإنما كانوا يعنون الكوفة والبصرة ، لأن الإسلام لم يكن قد انتشر على نطاق واسع في العراق ، ولأن المسلمين تمركزوا في القواعد العسكرية . وقد كان ظهور المختار ودوره في الأحداث موضع دراسات كثيرة قام به باحثون من المسلمين والعرب ، ومن المستشرقين أيضا ، واختلفت الاستنتاجات والتعليلات والأحكام بالنسبة لذلك الدور . ولسنا نريد أن نغوص في كل ذلك ، إذ أن دور المختار لا يمثل إلا مساحة صغيرة جدا من خريطة الصراع الذي شهدته الدولة الإسلامية فيما بين العقدين الرابع والسابع من القرن الهجري الأول . وتعرضنا لموضوع المختار هنا ليس أكثر من جهد لاستكمال الأجزاء الرئيسية للمشهد التاريخي الذي نتحدث عنه ، كما ذكرنا من قبل .

لم يكن المختار معاد للأمويين فقط بل إنه صار في حالة مواجهة مع الخلافة الزبيرية أيضا . لقد حدثت اتصالات بين عبدالله بن الزبير والمختار ؛ وقد أخبرنا محمد بن سعد بشئ من ذلك إذ قال : «كان المختار بن أبي عبيد مع عبدالله بن الزبير في حصره الأول [أي عندما حوصر في مكة] أشد الناس معه ، ويريه أنه شيعة له ، وابن الزبير معجب به ، ويحمل عليه فلا يسمع عليه كلاما . وكان المختار يختلف إلى محمد بن الحنفية ، وكان محمد ليس فيه بحسن الرأي ، ولا يقبل كثيرا مما يأتي به [٢] .» وعاد المختار إلى الكوفة منتظرا أن يعينه ابن الزبير في ولاية أو منصب مرموق ؛ لكنه اكتشف أنه أراد استخدامه فقط دون أن يعطيه شيئا ذا بال . وفي الكوفة تبين للمختار أن أنصار البيت العلوي يشكلون قوة كبيرة لم تكن تدين بالولاء

(١) الطبري ، مجلد ٥ ، ص ٥٦٩ .

(٢) محمد بن سعد ، ***الطبقات الكبرى*** ، م ٥ ، ص ٩٨ وص ١٠٠ .

لابن الزبير ولا للأمويين ؛ ولذا فقد قرر أن يركب موجتهم ، ولم يجد صعوبة في أن يصبح لهم قائدا وزعيما بعد أن استولى على قصر الإمارة سنة ست وستين كما ذكرنا . ومع ذلك فإنه احتفظ ببعض العلاقة مع عبدالله بن الزبير ، بيد أن تلك العلاقة كانت في إطار المناورة والمخادعة من جانب الطرفين تجاه بعضهما . غير أن ابن الزبير ما عتم أن قرر إنهاء هذا الوضع ، فعين زائدة بن قدامة واليا على الكوفة ليرى إن كان المختار سيسمع ويطيع . وتذكر بعض الروايات التي أوردتها المصادر أن المختار حاول أن يغري الوالي الجديد بالمال ، بيد أن الإغراء لم يحقق هدفه ؛ وهذا ما دفع المختار إلى الكشف عن وجهه حيث منع الوالي من دخول الكوفة . وعلى أثر ذلك اضطر زائدة بن قدامة إلى التوجه إلى البصرة ليكون في ضيافة واليها التابع لابن الزبير . وهكذا وجد الطرفان بعضهما وجها لوجه . ومع ذلك فقد حرص المختار على مهادنة ابن الزبير عندما علم أن عبدالملك بن مروان وجه جيشا شاميا إلى الحجاز سنة ست وستين . وتذهب المصادر إلى أن المختار عرض على ابن الزبير أن يرسل له جيشا من الكوفة لمعاونته ضد الأمويين ، فطلب منه ابن الزبير أن يعلن مبايعته له وأن يعجل بإرسال الجيش ؛ وقد أرسل بالفعل ثلاثة آلاف مقاتل – حسب ما تقول الرواية – لكنه امتنع عن إعلان الولاء لابن الزبير . ويبدو أن الأخير استشعر الخطر من تمركز هذه القوة الكوفية في الحجاز فبعث جيشا من أنصاره قضى عليها ، وهكذا جعلت هذه الحادثة الصدام بين الفريقين محتما .

بيد أن المختار صدم بمفاجأة أخرى حين حدث تمرد وثورة في الكوفة ضد سلطته ، في إطار نزاعات القيسية واليمانية ، ومضر واليمن . ومن غير إطالة بالتفاصيل وأسماء الزعماء والقبائل والمواجهات المتعددة ومجادلات مختلف المشاركين نكتفي بالإشارة إلى أن المختار تمكن من القضاء على حركة التمرد تلك في أواخر شهر ذي الحجة من سنة ست وستين هـ ، (تموز ٦٨٦م) . ونظرا لإدراكه أن أغلبية أهل الكوفة تميل إلى البيت العلوي فقد وجه همته لتتبع الذين شاركوا في حصار وقتل الحسين بن علي ومن معه ، فقتل عددا كبيرا منهم سعيا لكسب ولاء أنصار العلويين . وفي غمرة هذه الأحداث كان عبد الملك بن مروان قد أرسل جيشا شاميا تمكن من الاستيلاء على الموصل . ولم يكن قائد ذلك الجيش الأموى سوى عبيد الله بن زياد ، والي البصرة والكوفة في شطر من خلافة معاوية ، وفي عهد يزيد بن معاوية ، والسند الأكبر للأمويين ، والذي بعث همة مروان بن الحكم للسعي لمنصب الخلافة . وكان

عبدالملك بن مروان قد أرسله لمحاربة زفر بن الحارث الكلابي في قرقيسياء [١] ، على أن يسير بعد ذلك إلى العراق . وشكل المختار جيشا جعل قيادته لإبراهيم بن الأشتر ووجهه لمجابهة الحملة الأموية التي اقتحم بها عبيدالله بن زياد شمال العراق . وانطلق ابن الأشتر من الكوفة في الثاني والعشرين من ذي الحجة سنة ست وستين للهجرة (٢٢ تموز ٦٨٦) . وعلى الرغم من تفوق الجيش الشامي تفوقا هائلا في أعداد رجاله ، وضراوة المعركة التي نشبت بين الشاميين والكوفيين فقد انقشع قتامها عن هزيمة ساحقة حلت بالجيش الأموي ومصرع قائده عبيدالله بن زياد وكثير من كبار قادته وعدد كبير من جنده ؛ وفي الجانب الآخر كان الانتصار الكبير للمختار بن أبي عبيد وقائده إبراهيم بن الأشتر . بيد أن المختار وأنصاره العلويين لم يهنأوا طويلا بهذا النصر ، إذ كان هناك خصم آخر ينتظرهم . وكان عبدالله بن الزبير قد كلف أخاه مصعبا بولاية البصرة ومواجهة ما يتهددها من أخطار . وقد سارع زعماء الكوفة الذين كانوا تمردوا على المختار الثقفي في تلك المدينة ونكل بهم وبأتباعهم تنكيلا شديدا ، سارعوا إلى مكاتبة مصعب بن الزبير داعينه إلى حرب المختار والقضاء عليه . ولم يكن مصعب بحاجة إلى مثل هذه الدعوة ، إذ كان القضاء على المختار في رأس أولوياته .

واستعد مصعب للمعركة استعدادا جيدا ، ودار القتال قرب المذار [٢] ، فحلت بجند المختار هزيمة ماحقة ووقعت بهم مذبحة هائلة سيما على أيدي أولئك الموتورين من الكوفيين الذين كان المختار قد قضى على ثورتهم وقمعهم قمعا شديدا . وقد انهزم المختار لا يلوي على شئ حتى دخل قصر الكوفة مع آلاف من أتباعه . وقد حاصر مصعب القصر أربعة أشهر طوالا كانت تتخللها مناوشات أحيانا ، وقتال ضار أحيانا أخرى بين المحاصرين والمحصورين . ولما اشتد الحصار على المختار ، وضاقت عليه الحياة ، أنف أن يستسلم ؛ فخرج فقاتل حتى قتل ، واستسلم جنده بعد أن طلبوا الأمان ولم يمنحوه . وكان انتقام مصعب مشينا ، فقد أمر بقتلهم بعد أن استسلموا ، ولم تجد كل التوسلات لصرفه عن ذلك . وتذكر المصادر أن عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله

---

(١) قرقيسياء بلد على نهر الخابور ، فهي في مثلث بين الخابور والفرات ، (ياقوت الحموي ، **معجم *البلدان*** ، ٤ ، ص ٣٢٨) .

(٢) المذار تقع في منطقة ميسان بين واسط والبصرة ، وهي قصبة ميسان ، بينها وبين البصرة مسيرة أربعة أيام (ياقوت الحموي ، ٥ ، ص ٨٨) .

عنهما استنكر عمل مصعب وقال له : «أنت القاتل سبعة آلاف من أهل القبلة في غداة واحدة غير مبال . . .؟ فقال مصعب : إنهم كانوا كفرة فجرة . فقال [ابن عمر] : والله لو قتلت عدتهم غنما من تراث أبيك لكان ذلك سرفا [1] . وهكذا انطوت صفحة المختار بن أبي عبيد الثقفي ، الذي صمم على أن يكون أحد المتصارعين على السلطة العليا فكان أسرعهم إلى الهزيمة والفناء ؛ وقد روي عنه القول : « . . . إنما أنا رجل من العرب رأيت بن الزبير قد وثب بالحجاز ، ورأيت نجدة [زعيم الخوارج] وثب باليمامة ، ومروان بالشام ، وكنت فيها كأحدهم ، إلا أنني قد طلبت بثأر أهل البيت حين نامت عنه العرب[2] . . .» وقد عرضت المصادر المختار في صورة سيئة ، وساقت أحاديث منسوبة إلى رسول الله ﷺ تخبر عن المختار وتصفه بـ «الكذاب» ، كما نسبت إليه شيئا من التضليل والشعوذة . ولا يتسع المقام ، وليست هناك ضرورة تحملنا على الغوص في مثل هذا الشأن .

الأمويون يستولون على العراق:

وما أن أتم مصعب بن الزبير عملية القضاء على المختار وأتباعه حتى تهيأ المسرح لفصل جديد من الصراع . وبغياب المختار وأنصاره صار الزبيريون وحدهم يواجهون بني أمية . لقد نجح عبدالملك في القضاء على أنصار ابن الزبير في بلاد الشام ، واستتب له الأمر فيها ، وعادت أموية كما كانت ؛ وهنا بدأ يتهيأ لمهاجمة العراق وانتزاعه من الزبيريين ، سيما وأن العراق بوابة الأقاليم التي كان المسلمون فتحوها حديثا في الشرق كله ، حيث وصلوا إلى مشارف حدود الصين . ويبدو أن عبدالملك مهد لمعركته مع الخلافة الزبيرية بعناية شديدة . وكان الروم (البيزنطيون) قد استغلوا فرصة الصراعات الداخلية في الدولة الإسلامية فحشدوا قواتهم لمهاجمة الجبهة الشامية ، سنة ٧٠هـ/٨٧٨م بينما كان عبدالملك مشغولا في الإعداد للقضاء على خلافة ابن الزبير . ولم يشأ عبدالملك أن يضيع وقتا أو جهدا أو موارد حربية في معارك مع الروم تصرفه عن معركته ضد الخلافة الزبيرية ، فسارع بعقد اتفاقية مع البيزنطيين تعهد بموجبها أن يدفع لهم إتاوة مقدارها ألف دينار كل أسبوع ، متبعا في ذلك ما فعله

---

(١) الطبري ، مجلد ٦ ، ص ١١٣ ؛ ابن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٤ ، ص ٢٧٨ .

(٢) إبن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٤ ، ص ٢٧٣ .

معاوية ابن أبي سفيان عندما كان يستعد للدخول في معركة فاصلة مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، الخليفة الشرعي في ذلك الوقت[١] . وبعد أن أمن مؤخرته من أي هجوم بيزنطي مفاجئ ركز جهوده على انتزاع العراق وإعادته للسيطرة الأموية ؛ وتمهيدا لذلك بدأ بالاتصال ببعض رؤساء القبائل في منطقة البصرة ، وقدم لهم كثيرا من المغريات المادية ، وتشجع باستجابة بعضهم . وأثناء هذه الاستعدادات اقترح عليه أحد معاونيه – وهو خالد بن عبدالله بن خالد بن أسيد – أن يوجهه على رأس قوة صغيرة إلى البصرة لعله يتمكن من الاستيلاء عليها خلسة معتمدا على تعاون بعض زعمائها الذين تجاوبوا مع عروض الإغراء . وخرج خالد سنة سبعين للهجرة مع عدد صغير من مواليه ، فدخل البصرة مستخفيا ، ونزل على عمرو بن أصمع الباهلي مستجيرا به . وظن عمرو أنه يستطيع استمالة صاحب شرطة البصرة ، لكن هذا خيب ظنه مهددا بأنه سيأتيه على رأس قوة من الخيالة . وهكذا اضطر خالد بن عبدالله إلى الهرب والاحتماء بجوار مالك بن مسمع ، فرحب به . واستدعى مالك جموع قبائل بكر بن وائل والأزد ، ودارت الحرب بينهم وبين عبيدالله بن معمر الذي كان نائب مصعب بن الزبير في البصرة ، واستمر القتال أربعة وعشرين يوما ، بينما كان مصعب في الكوفة . وتدخل وسطاء في الصلح ، وتم الاتفاق على أن يخرج خالد من البصرة بالأمان وتنتهي الحرب ، وتم ذلك عمليا .

لكن مصعبا – وهو في سورة غضبه – أسرع إلى البصرة آملا أن يلحق بخالد قبل أن يفلت ، إلا أنه فاته ونجا . وهنا صب مصعب غضبه على عبيدالله بن معمر ، نائبه في البصرة ، وعزله من منصبه ، ثم التفت إلى الزعماء الذين ساعدوا خالدا أو تستروا عليه ، أو تقاعسوا عن محاربته ، وشتمهم شتما قبيحا ؛ فكان مما قاله للحكم بن المنذر بن الجارود ، زعيم عبدالقيس ، «يا ابن الخبيثة ، أتدري من أنت ومن الجارود! إنما كان الجارود علجا بجزيرة ابن كاوان فارسيا فقطع إلى ساحل البحر فانتمى إلى عبدالقيس . ولا والله لا أعرف حيا أكثر اشتمالا على سوءة منهم .» أما عبدالله بن فضالة الزهراني فقال له : ألست من أهل هجر ، ثم من أهل سماهيج! أما والله لأردنك إلى نسبك . وخاطب مصعب أبا حاضر الأسدي فقال له : «يا ابن الإصطخرية ، ما أنت والأشراف ، إنما أنت من أهل قطر ، دعي في بني أسد . . .»

(١) البلاذري ، ***فتوح البلدان*** ، ص ١٦٤ .

وخاطب عبدالله بن عثمان بن أبي العاص قائلا : «أعلي تتعزز وأنت علج من أهل هجر ، لحق أبوك بالطائف وهم يضمون من تأشب إليهم يتعززون به!» والحقيقة أن الأمثلة التي أوردتها تضمنت أقل الشتائم قبحا وخدشا للحياء . ولم يكتف مصعب بالشتائم ، بل جلد كل واحد من أولئك الزعماء مئة جلدة ، وحلق رءوسهم ولحاهم ، وهدم دورهم ، وصهرهم في الشمس ثلاثا ، وحملهم على طلاق نسائهم ، وجمر أولادهم في البعوث ، وطاف بهم في أقطار البصرة ، وأحلفهم ألا ينكحوا الحرائر[(١)] .»

لقد وقع مصعب أسيرا لغضبه المسرف فذهل عن أولويات بديهية بسيطة في إدارة الصراعات ، سيما وهو مقبل على معركة مصيرية مع العدو الأكبر - بالنسبة له وللحكم الزبيري آنذاك - أي مع الأمويين ، ومع عبد الملك خاصة . وقد رأينا أن إسرافه هذا حدث في مرة سابقة في الكوفة حين انتقم من الكوفيين وقتل آلاف المستأمنين بعد انتصاره على المختار الثقفي ، فكان عمله ذاك دافعا للكثيرين لينتظروا فرصة للانتقام منه .

وفي السنة التالية (٧١هـ) زحف عبدالملك على رأس قواته لخوض المعركة الفاصلة التي جرت قرب مسكن[(٢)] . ويبدو أن مصعبا لم يحسن الاستفادة من خبرة أكفأ القيادات التي كانت لديه ، مثل المهلب بن أبي صفرة الذي كان مكلفا بحرب الخوارج ، الأزارقة ، وعمر بن عبيدالله بن معمر ، الذي كان واليا على فارس ، وعباد بن الحصين الذي جعله نائبا عنه في البصرة ، وعبدالله بن خازم الذي كان في خراسان . وعندما علم عبدالله بن خازم بترتيبات مصعب للمعركة ، وأنه ترك كل

---

(١) الطبري ، مجلد ٦ ، ص ١٥٥ ؛ وهذه الشتائم التي وجهت إلى أولئك الزعماء مثلت رغبة مصعب في الانتقام المسرف منهم ولم تكن تمثل الحقيقة ، فالجارود كان صحابيا سعى للقاء رسول الله ﷺ ، وكان زعيم إحدى أعظم قبائل العرب في الجاهلية وصدر الإسلام ، وعلى يديه أسلمت عبدالقيس ، وهو الذي منعهم من الردة عندما ارتدت قبائل ربيعة في البحرين بعد وفاة النبي ﷺ . كما ينسب إليه دور رئيسي في الصمود والحرب ضد المرتدين في البحرين . (انظر تاريخ الطبري ، ٢ ، ص ٢٨٥ - ٢٨٦ وما رواه عن الردة في البحرين .)

(٢) مسكن : موضع قريب من أوانا على نهر دجيل عند دير الجاثليق في العراق . (ياقوت الحموي ، ***معجم البلدان*** ، مجلد ٥ ، ص ١٢٧) .

هذه الكفاءات ولم يستفد منها توقع له الهزيمة . ولم يكن مع مصعب أحد من مشاهير وأبطال الحرب سوى إبراهيم بن الأشتر ، بيد أن سوء إدارة مصعب للمعركة عرضت إبراهيم للهلاك فقتل . ولم تطل المعركة ، إذ تخلى عن مصعب أكثر من معه ، حتى بقي وليس معه سوى سبعة أشخاص . وقد رفض كل عروض الأمان التي بعثها له عبدالملك ابن مروان ، كما رفض الفرار من المعركة ، وقاتل حتى قتل ، وانتصر عبدالملك ، وبايعه جند العراق ، كما بايعه ولاة ابن الزبير على الأقاليم . وهكذا عاد الأمويون إلى سالف عهدهم من حيث القوة واستقرار الحكم ، ولم يبق أمام عبدالملك سوى الإجهاز على عبدالله ابن الزبير في الحجاز بعد أن انسلخت عنه كل أقاليم الدولة الإسلامية فبقي محصورا في الحجاز ، المنطقة الفقيرة اقتصاديا ، كما كانت فقيرة بعدد المحاربين بالنسبة لكتلتها السكانية .

نهاية الخلافة الزبيرية:

وقد انتدب عبدالملك لمهمة القضاء على ابن الزبير في قاعدته الأساسية ، واستعادة الحجاز إلى السيطرة الأموية ، الحجاج بن يوسف الثقفي ؛ فتوجه الحجاج على رأس القوات الأموية الزاحفة على الحجاز سنة ٧٢هـ من طريق العراق ، واتخذ الطائف مركزا لعملياته ، والطائف أصله وموطن قومه الثقفيين . وقد تمت هزيمة عبدالله بن الزبير وقتله في السنة التالية بعد حصار استمر ثمانية أشهر ونصف الشهر . ، وضرب الحجاج الكعبة بالمنجنيق – وهو ما يساوي قصفها بالمدفعية والطائرات في عصرنا – وأساء معاملة أهلها وأهل المدينة(١) .

ولاية الحجاج على العراق وتجدد الثورات ضد الأمويين:

وبعد هذا الإنجاز البالغ الأهمية الذي قدمه الحجاج لعبدالملك بن مروان وللأسرة الأموية كافأه «الخليفة» الأموي الجديد بأن عينه في أهم وأعلى منصب في الدولة الإسلامية بعد منصب الخلافة ، ألا وهو ولاية البصرة والكوفة ، وبالتالي ولاية الشرق الإسلامي كله . وهكذا صار الحجاج بن يوسف الثقفي أقوى الولاة وأقوى الشخصيات في الإمبراطورية الأموية لا يسبقه في المنزلة سوى الخليفة نفسه . ثم

---

(١) الطبري ، مجلد ٦ ، ص ١٨٧ – ١٩٥ .

صار ولاة المشرق يتبعون الحجاج ، ويتولى هو تعيينهم وعزلهم . وقد ترتبت على ذلك آثار مهمـة في تطور ومسيرة الدولة الإسلاميـة والحضارة الإسلامية ، ليس لشخصية الحجاج بمفرده ولكن بسبب النهج الذي انتهجه الأمويون في إدارة الدولة من حيث الاعتماد الكلي على الشخصيات القوية الطاغية والممارسة للطغيان والتجبر ، وسفك الدماء وإزهاق الأرواح دون حساب ، وبأعداد كبيـرة ، من غيـر جـريمة تتناسب مع العـقوبة ، ومن دون أية جـريمة في كـثيـر من الحالات . وقد أعطى الحكام الأمـويون الطغاة أتباعهم كامل الحرية في التصرف دون مراجعة إلا عندمـا تنشأ حالة تنطوي على خطر كبير وماحق بالنسبة للعهد الأموي والأسرة الأمـوية .

الطغيان الأموي المرواني من خلال الحجاج:

عندما وصل الحجاج إلى الكوفة سنة خمس وسبعين للهجرة ، وألقى خطبته المشهورة في مسجدها حدد - من خلال خطبته - المبدأ والبرنامج الذي تعامل من خلاله مع مسلمي العـراق . وعلى الرغم من شـهـرة خطاب الحـجـاج الذي درسـه ويدرسه طلاب المدارس الثانوية في طول العالم العربي وعرضه فإن أي مؤرخ جاد لا يسعـه أن يمر عليه عجـلا دون تأمل للمضـمـون الرئيـسي ، السيـاسي والإداري ، لا الجانب اللغوي والبلاغي فيه .

لقد بدأ الحجاج بالإعلان عن قوته وبطشه وسرعة إقدامه على القتل من أجل إدخال الرعب في قلوب مستمعيه . ثم إنه ساق الاتهامات لأهل الكوفة ، وهددهم بما سيفعل بهم : «أنا ابن جلا وطلاع الثنايا ، متى أضع العمامة تعرفوني . . . أما والله لألحونكم لحو العود ، ولأعصبنكم عصب السلمة ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل . إني والله لا أعد إلا وفيت . . . والله لتستقيمن على سبل الحق أو لأدعن لكل رجل منكم شغـلا في جسـده . من وجـدت بعد ثالثـة من بعث المهلب سـفكت دمـه ، وأنهـبت مـاله . . . شـاهت الوجـوه . . . فـوالله لأذيقنكم الهـوان حـتى تدروا ، ولأعصبنكم عصب السلمة حتى تنقادوا . . . لأهبرنك بالسيف هبرا يدع النساء أيامى ، والولدان يتامى . . . إياي وهذه الزرافات ، لا يركبن رجل منكم إلا وحده .»

وهنا نجد تنبيها وأمرا صارما يقضي بمنع التجمعات (لا يركبن رجل منكم إلا وحده) . «ألا إنه لو ساغ لأهل المعصية معصيتهم ما جبي فئ ، ولا قوتل عدو ، ولعطلت الثغور . ولولا أنهم يغزون كرها ما غزوا طوعا . وقد بلغني رفضكم المهلب ،

وإقبالكم على مصركم عصاة مخالفين ؛ وإني أقسم لكم بالله لا أجد أحدا بعد ثالثة [أي بعد ثلاث ليال] إلا ضربت عنقه .» ثم إنه استدعى العرفاء وأمرهم بتوجيه الناس للإلتحاق بالقوات التي يقودها المهلب بن أبي صفرة في الحرب ضد الخوارج ، وأن يثبتوا تنفيذ ذلك بشهادات مكتوبة ، وأن يظل الجسر الذي يمر عليه المقاتلون متجهين إلى الشرق مفتوحا طوال الأيام الثلاثة التي حددها(١) . إذن ، الدولة تذل الناس ابتداء بالتهديد وتتبع التهديد الكلامي بالقتل وسفك الدماء الفعلي لمن تصدر منه اية كلمة أو اعتراض بسيط . وبعد هذا الإذلال يجبر الناس على الذهاب إلى ميادين القتال أينما كانت ، وعن طريق الإكراه ، مع التهديد بقتل كل من يتخلف(٢) . وأعرف أن بعض العاطفيين السذج من المسلمين يقبلون مثل هذا السلوك الأموي الرسمي ، وقد يمتدحونه ويدافعون عنه باعتباره طريقة ناجحة للجهاد والغزو والفتح ، وفرض سلطة الدولة الإسلامية . لكن عامة المسلمين آنئذ كانوا قد فقدوا الدوافع الإيمانية إذ تحولت الدولة إلى العشيرة الأموية ، وصارت الجهود كلها منصبة لتثبيت الأمويين وتلبية جشعهم إلى المال ، وخروجهم على كل القواعد التي كان معمولا بها في عهد رسول الله وعهد أبي بكر وعمر . ولو دققنا النظر فيما سمي باستئناف عمليات الفتح في العهد الأموي لهالنا وصدمنا ما سنقابله . لقد تحول الجهاد عن روحه ودوافعه وضوابطه ، وصار أداة لدفع المعارضين إلى جبهات القتال رغما عنهم ، وتحت الرعب وسفك الدماء الفعلى ، في دولة اغتصبت فيها السلطة بطرق مناقضة للشرعية ، ولروح الإسلام ، حيث وصل الأمويون إلى السلطة على بحار من الدماء . وفي ميادين القتال يظل القادة يتلقون الضغط من بعيد ، من مركز القيادة في البصرة أو الكوفة لدفعهم إلى التوغل في الأراضي المعادية . وصارت تصرفات الغزاة غير منزهة عن الخداع والاستغلال . وصار القادة العسكريون الموالون يتصرفون بالمعركة تخطيطا وإعدادا كما لو كانت مشروعا تجاريا ينتظرون منه ربحا طائلا ؛ وصار «الخلفاء» ينتقون من الغنائم كل ما يفضلون ، وعلى رأس ذلك الذهب والفضة ، والغنائم النسائية . والقائمة طويلة ؛ وكل ذلك نجد أمثلة كثيرة تدل عليه وتؤكده في ما لدينا من مصادر .

---

(١) الطبري ، *تاريخ* . . . ، ٢٠٢ – ٢٠٧ (أحداث سنة ٧٥هـ) .

(٢) إبن كثير ، *البداية* . . . ، جزء ٩ ، ص ٧-٩ (أحداث سنة ٧٥)

والمشهد الإسلامي العام الذي يبدو أمام الباحث هو «أن عرب ومسلمي الشام هم أبناء الدولة وأنصارها الذين تغرقهم بالمنافع ؛ وهم القوة «الاستراتيجية» الإحتياطية الرئيسية للدولة ؛ أما عرب العراق فلا بد أن يخضعوا ، ويسيروا ، بكل وسائل التهديد والقمع والعنف والدم . لقد مثل هذا الموقف تغيرا كبيرا وسلبيا بحق المرابطين في الكوفة والبصرة ، وامتد إلى تفرعات قبائلهم في مواطنها الأصلية في شرق الجزيرة العربية الذين كانوا عماد حركة الفتح الإسلامي في الشرق في موجتها الأولى . ففي عهد معاوية استخدم المال لشراء كل من يفتله المال عن مواقفه ، كما استخدم الضغط والعنف أحيانا ؛ وكذلك كان الحال في المرحلة المبكرة من عهد عبدالملك بن مروان ؛ أما بعد القضاء على خلافة ابن الزبير ، فقد اصبح العنف والقهر سيد الموقف في تعامل الدولة مع القوى المرابطة في الكوفة والبصرة ، والعراق عامة . والواقع أن فكرة فرض الطاعة والخضوع بالعنف ، واستخدام «اسم الجهاد» لإرسال المشكوك في ولائهم إلى جبهات القتال البعيدة لم تكن فكرة جديدة تماما عند الأمويين أو عند رجلهم القوي الحجاج ؛ ففي عهد عثمان ابن عفان رضي الله عنه نجد أن بعض زعامات الأسرة الأموية تحمل هذه الفكرة ، وتدعو إلى هذا التوجه . لقد مر معنا أن أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه استدعى ولاة الأقاليم الرئيسية لاستشارتهم في أمر حركات المعارضة التي أتينا على ذكرها . وقد ضم اجتماع الخليفة مع الولاة كلا من معاوية بن أبي سفيان ، وعبدالله بن سعد بن أبي سرح ، وسعيد بن العاص ، وعمرو بن العاص السهمي ، وعبدالله بن عامر . وخلال الاجتماع اقترح عبدالله بن عامر خطة تشكل انقلابا خطيرا في مفهوم «الجهاد» وفي أسلوب حركة الفتح الإسلامي . قال عبدالله ابن عامر : «رأيي لك يا أمير المؤمنين أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك ، وأن تجمرهم في المغازي حتى يذلوا لك فلا يكون همة أحدهم إلا نفسه ، وما هو فيه من دبرة دابته ، وقمل فروته [(١)] . ومعنى هذه السياسة أن يجبر المسلمون على التوجه إلى جبهات القتال بالإكراه والتخويف ، وأن يفرض عليهم أن تطول خدمتهم وغيابهم عن أهلهم وعائلاتهم وأطفالهم مددا طويلة حتى يذلوا ، أي يخضعوا مكرهين ، خضوعا مصحوبا بالشعور بالمذلة والمهانة والرضا بهما قهرا . أما سعيد بن العاص ، والي الكوفة الأموي ، فقد أشار على الخليفة بأن يستأصل شأفة المعارضين ، أي أن

(١) الطبري ، . . . ، ***تاريخ*** . . . ، مجلد ٤ ، ص ٣٣٤ (أحداث سنة ٣٤) .

يبيدهم ، بينما اقترح آخرون استخدام المال لكسب رضاهم .

وكان من مظاهر ميل عبدالملك إلى الإيغال في الطغيان والجبروت والظلم أنه كان ينهى عن ذكر عمر بن الخطاب في المجالس . وقد روي عنه أنه «سمع جماعة من أصحابه [أي أنصاره المقربين] يذكرون سيرة عمر بن الخطاب ، فقال : « أنهى عن ذكر عمر ، فإنه مرارة للأمراء ، مفسدة للرعية [1] . ويبدو أن هذه المعلومة وصلت إلى الحجاج قبل أن يصل إلى قمة صعوده ، بينما كان يبحث عن أية وسيلة لكسب رضا عبدالملك ليصبح طاغية شريكا بجانب الطاغية الكبير . وتذكر لنا المصادر أن الحجاج اعترض على تصرف والده في التعامل مع رجل معروف بالتقوى والاستقامة ؛ فكان مما قاله لوالده : «يا أبت ، كيف تقوم لرجل من تجيب [اسم قبيلة ذلك الشخص] وانت من ثقيف؟» فرد والده بأنه فعل ذلك لكون الرجل التجيبي تقيا صالحا ومستقيما . فقال الحجاج ، إن هذا الرجل وأمثاله كثيري الضرر لأمير المؤمنين عبدالملك ، لأنهم يحدثون الناس عن سيرة أبي بكر وعمر ، فيستصغر السامعون لهم سيرة أمير المؤمنين . وتمضي الرواية أن والده رد عليه ووصفه بأنه شقي ومنحرف . وفي سياق سعيه للصعود إلى مرتبة الطغاة الكبار قال الحجاج لعبدالملك : يا أمير المؤمنين ، لقد رأيت في المنام أنني أمسكت بعبدالله بن الزبير فأوثقته وسلخت جلده ، فأرسلني إليه لأنهي لك مشكلته التي تؤرقك . فلاقت الفكرة هوى لدى عبدالملك ، فكون جيشا وضع على رأسه الحجاج ، كما مر معنا في الصفحات السابقة .

أثر سياسة العنف والقهر:

في العهد النبوي كان المسلمون يدعون للمشاركة في القتال وخوض المعارك دفاعا عن عقيدتهم ومجتمعهم ، وكان هناك أناس يتخلفون ، أكثرهم من المشكوك في إيمانهم وولائهم . وهؤلاء كانت تقبل أعذارهم الواهية التي يسوقونها لتبرير تخلفهم ؛ وكان هناك أمثلة من تخلف بعض المؤمنين ، وهؤلاء لم يعاملوا بالبطش والقمع ، بل عوملوا بأسلوب التجاهل ، والمقاطعة ، وعندما أعلنت توبتهم قوبلت بالصفح والمغفرة وإعادة رابطة الأخوة والألفة . وعندما انطلقت موجة الفتح الأولى في خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما لم يستخدم البطش والتهديد ، وإنما استثيرت الدوافع الإيمانية

---

(١) إبن كثير ، ج٩ ، ص ٥٦ .

بالنسبة للمؤمنين . وفي مرحلة تالية فتح الباب للطامعين في المنافع المادية من خلال انصبتهم من غنائم الحرب ، ليستفاد من قوتهم . وكان الإطار العام الذي تتحرك فيه الدولة والمجتمع إطارا واحدا ومسيرة واحدة لم تشوهها الخلافات والصراعات وتصادم الأهداف والمصالح الأسرية والعشائرية والقبلية ، إذ بقيت هذه كلها تحت السيطرة . وقد تغير الحال في العهد الأموي ، كما ذكرنا .

انفجار التمرد ضد الحجاج ثم ضد الأمويين:

لقد ظهرت ردود الفعل على الشدة المفرطة التي اتبع سبيلها الأمويون وولاتهم في العراق ، منذ تولية معاوية لزياد بن أبيه على الكوفة ، ثم ولاية ابنه عبيد الله بن زياد على البصرة والكوفة من بعده ، ثم ظهرت في عهد الحجاج بصفة خاصة . فعندما سقط الستار السلطوي الحامي لطغيان عبيدالله بن زياد ثار المسلمون ضده في البصرة والكوفة فلم تنفعه عنجهيته وطغيانه ، وانزوت تهديداته فانفجرت الثورة ضده ففر متخفيا هاربا إلى الشام . أما بالنسبة للحجاج فقد انفجرت أول ثورة في وجهه سنة ٧٥هـ ، في بداية ولايته ، وكانت محدودة ؛ لقد ذهب الحجاج إلى البصرة ، وترك في الكوفة من ينوب عنه . وفي البصرة أعاد التهديد والوعيد لأهلها ، خاصة لمن يتأخرون عن الالتحاق بالقوات المحاربة في الشرق . «ثم أتي برجل من بني يشكر فقيل هذا عاص ، فاعتذر الرجل قائلا : إن بي فتقا ، وقد عذرني الله وعذرني بشر بن مروان ، وهذا عطائي مردود على بيت المال ؛ فلم يقبل الحجاج منه وأمر بقتله فقتل . ففزع أهل البصرة وخرجوا حتى اجتمعوا عند قنطرة (رامهرمز) ، وعليهم عبدالله بن الجارود ، وخرج إليهم» الحجاج . . . في أمراء الجيش ، فاقتتلوا هناك قتالا شديدا ، وقتل أميرهم عبدالله بن الجارود في رؤوس من القبائل معه . وأمر برؤوسهم فقطعت ونصبت عند الجسر من رامهرمز . ثم بعث بها إلى المهلب ، فقوي بذلك ، وضعف أمر الخوارج [1] .»

وبعد ست سنوات حدث الانفجار بعيدا ، في وسط آسيا ، وفي سجستان بالذات - وهي ضمن موقع أفغانستان الحالية تقريبا . ففي سنة ٨١هـ/٧٠٠م ثارت القوات المرابطة في سجستان بقيادة عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث ، وأعلنت

---

(١) إبن كثير ، *البداية* . . . ، جزء ٩ ، ص ٩ (أحداث سنة ٧٥) .

خلع الحجاج وخلع الخليفة عبدالملك بن مروان ، لتزحف بعد ذلك على البصرة ثم تجتاحها .

وكان الحجاج قد جهز جيشا ضخما ضم عشرين ألفا من أهل الكوفة ، ومثلهم من أهل البصرة ، وجعل قيادته لعبدالرحمن بن محمد بن الأشعث ، ووجهه إلى ما كان يعرف ببلاد رتبيل ، دعما لقوات أخرى هناك . وقد استولى ابن الأشعث على مناطق واسعة وحصون كثيرة ، وعين الولاة ووزع مراكز الاستطلاع في الأماكن الجبلية الوعرة ، وقرر التوقف عن التوسع حتى تستقر الأمور ويتعرف على طبيعة البلاد والطرق ، خشية أن يضيع وجنده وتقطع عليهم القوات المعادية خطوط مواصلاتهم وتحاصرهم . وقد وجه خطابا إلى الحجاج يخبره بما وطد العزم عليه . لكن الحجاج وجه إليه ردا غاضبا ينضح بالتأنيب والتهديد والوعيد . وتواترت مكاتبات الحجاج في هذا المعنى . وكان مما جاء في تلك الرسائل : «إني لم أعدد رأيك الذي زعمت أنك رأيته مكيدة ، ولكني رأيت أنه لم يحملك عليه إلا ضعفك ، والتياث رأيك ، فامض لما أمرتك به من الوغول في أرضهم ، والهدم لحصونهم ، وقتل مقاتليهم وسبي ذراريهم .» وفي رسالة أخرى : « . . . فمر من قبلك من المسلمين فليحرثوا وليقيموا ، فإنها دارهم حتى يفتحها الله عليهم[١] .» وفي إحدى هذه الرسائل خاطب الحجاج ابن الأشعث بعبارات تنطوي على إهانة أشد ، وذلك حين قال له : «يا ابن الحائك الغادر المرتد ، إمض لما أمرتك به من الإيغال في أرض العدو ، وإلا حل بك ما لا يطاق[٢] .» وعرض عبدالرحمن الموقف على قادة جنده فثار غضبهم ، وقال أحد قادتهم : «إن الحجاج والله ما يبالي أن يخاطر بكم فيقحمكم بلادا كثير اللهوب واللصوب ، فإن ظفرتم وغنمتم أكل البلاد وحاز المال ، وكان ذلك زيادة في سلطانه ، وإن ظفر عدوكم كنتم أنتم الأعداء البغضاء[٣] . . .» وبذلك يكون قد تخلص منكم .

ويبدو أن أمر الحجاج ببقاء أولئك الجند في تلك المنطقة ، وبأن يزرعوا وتصبح بلادهم كان أشد عليهم ، إذ أن ذلك كان يعني قطعهم عن عائلاتهم وأولادهم في

---

(١) إبن الأثير ، ***الكامل*** . . . ، مجلد ٤ ، ص ٤٥٤ -٤٥٥ و٥٦١ - ٥٦٢ ؛ الطبري ، ***تاريخ*** . . . ، مجلد ٦ ، ٣٣٤ - ٣٣٥ (أحداث سنة ٨١ هـ) .

(٢) إبن كثير ، ***البداية*** . . . ، ج ٩ ، ص ٣٠ (أحداث سنة ٨١) .

(٣) الطبري ، ***تاريخ*** . . . ، مجلد ٦ ، ص ٣٥ - ٣٦ .

العراق . وذلك أسوأ أنواع التجمير (أي إطالة الخدمة القتالية في الأماكن النائية) . وهكذا بدأ التمرد ضد الحجاج ، حيث قرر جمعهم الثورة ، وأعلنوا خلعه ، وبدأوا مسيرتهم إلى البصرة . وكتب الحجاج إلى عبدالملك بن مروان بأخبار هذه التطورات ، فكان ذلك له صدمة شديدة . ومما روته المصادر من رد فعل الخليفة أنه خطب الناس في دمشق فقال : «**إن أهل العراق طال عليهم عمري ، فاستعجلوا قدري . اللهم سلط عليهم سيوف أهل الشام حتى يبلغو رضاك . . .**»

وهنا نجد عبدالملك ينحي باللائمة على «أهل العراق» دون أن يذكر السياسات الظالمة منه ومن أسلافه من الأمويين ، فضلا عما فعله الحجاج بهم وإصراره على إلقائهم في أتون المخاطر والمهالك ، لا يهمه مصيرهم ، بل يهمه المغانم التي يمكن أن يحوزها بثمن بخس في نظره ، وهو دماؤهم وأشلاؤهم . وقد أدركوا ذلك وكانوا يدركونه ، ولكنهم تحت الضغط والتهديد المستمر رضخوا وقبلوا بأن يكونوا مجرد أدوات للنظام الأموي ليتجنبوا الأسوأ . وها قد جاء الأسوأ ، فانفجروا دون تخطيط مسبق ، ودخلوا في مغامرة رأوا أنها أقل خطرا مما كان يدفعهم إليه الحجاج .

وفي البصرة أخذ الحجاج يستعد لمواجهة القوات المتمردة ، وأخذت الإمدادات والنجدات تصل إليه متتابعة من الشام . ثم حرك جنده إلى منطقة الأهواز لتقابل الزاحفين قبل أن يصلوا إلى البصرة . وما لبثت طلائعهم أن وصلت الأهواز ، واشتبكت مع جند الحجاج وألحقت بهم الهزيمة بعد هجوم خاطف عند نهر دجيل ففروا لا يلوون على شئ . ووصلت أخبار الهزيمة إلى الحجاج فانسحب ببقية قواته ليتمركز بها في منطقة الزاوية ، وتخلى عن خطته الأولى الرامية إلى الدفاع عن البصرة . ودخل ابن الأشعث وقواته البصرة ، وأعلن خلع عبدالملك بن مروان . وعلى أثر ذلك أعلن جميع أهل البصرة خلع عبدالملك كذلك . «واجتمع أهل الكوفة وأهل البصرة وأهل الثغور والمسالح بدير الجماجم ، والقراء من أهل المصرين . . . على حرب الحجاج ,وجمعهم عليه بغضهم وكراهيتهم له . . .» وكان من بينهم عدد من كبار الفقهاء والعلماء المشهورين ذوي المكانة ، منهم سعيد بن جبير ، وعبدالرحمن بن أبي ليلى ، وأبو البختري الطائي ، وعامر الشعبي ، وكميل بن زياد . وكان هؤلاء أبرز علماء المسلمين في تلك الفترة . وانضافت إليهم أعداد كبيرة من الناقمين على الحجاج ، لأنه أعاد فرض الجزية على الذين كانوا أسلموا وأراد أن يردهم إلى قراهم ليظلوا أسرى يمدون جشع الأمويين وولاتهم الطغاة بأموال الجزية وأموال الخراج .

وعندما شعر الخليفة الأموي بضعف الموالين له عرض على الثائرين عزل الحجاج عن ولاية العراق ، إن كان ذلك يرضيهم . ومال قائد الثائرين - عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث - إلى قبول العرض ، لكن قادة جنده أصروا على عزل عبدالملك نفسه(١) . وتعددت المعارك الطاحنة ، وأخذ عبدالملك يرسل الإمدادات من عرب الشام . وكانت أشهر المعارك بين الجانبين معركة الزاوية ، ومعركة دير الجماجم ، ومعركة مسكن . واستمرت الحرب من أواخر سنة ٨١هـ إلى سنة ٨٣هـ . وقد قدرت المصادر عدد قوات ابن الأشعث ومن انضم إليهم فيما بعد بمئتي ألف مقاتل . والذي أرجحه أن هذا التقدير ينطوي على مبالغة كبيرة ، ومع ذلك فهو يعطينا انطباعا عاما عن حجم الثورة ، وحجم االصراع ، وحجم الخسائر في الأرواح ، والممتلكات ، والأهم من ذلك حجم الخسائر في وشائج المحبة والأخوة الإسلامية ، والأخوة الإنسانية ، هذا بجانب تحطم الولاءات ، بما في ذلك الولاء للأمة ، والولاء للدولة الأموية نفسها . وبعبارة مجملة فإن هذا يمثل الخسائر الكبرى في تمزق الأمة بكليتها ، وتمزق الجماعات ، بل والعلاقات الفردية ؛ وتمزق القلوب والأفكار في تطلعاتها وولاءاتها .

وتذكر المصادر أن معركة مسكن استمرت شهرا ، وانتهت بهزيمة الثائرين عندما اكتشفت القوات الموالية للحجاج والأمويين أن المستنقعات المائية التي كانت تحمي مؤخرة القوات الثائرة كانت ضحلة يمكن عبورها ؛ وهكذا قامت قوة كبيرة من الموالين بالدوران حول أجمة حاجبة للرؤية ، ثم عبرت المياه الضحلة وباغتت الثائرين فحلت بهم الهزيمة النهائية . وأسرف الحجاج في الانتقام والتنكيل ، ولم تكن له فضيلة العمل على لأم الجراح وإزالة الأحقاد ، حتى لقد قيل إن عدد من قتلهم من المنهزمين بلغ مئة وعشرين ألفا ، وهذا رقم مبالغ فيه كثيرا بطبيعة الحال . وكان ممن أقدم الحجاج على قتلهم سعيد بن جبير . وقد نقل ابن كثير عن الإمام أحمد بن حنبل أنه قال : «قتل سعيد بن جبير وما على وجه الأرض أحد إلا وهو محتاج . . . إلى علمه» ، وأضاف ابن كثير أن سعيد بن جبير كان «من أئمة الإسلام في التفسير

(١) الطبري ، ***تاريخ*** . . . ، مجلد ٦ ، ص ٣٣٩ - ٣٤١ وص ٣٤٧ ؛ ابن الأثير ، ***الكامل*** . . . ، مجلد ٤ ، ص ٤٦٤-٤٦٨ .

والفقه وأنواع العلوم ، وكثرة العلم الصالح[1] .» وممن تعرض للإهانة والتهديد على يد الحجاج أنس بن مالك ﵁ ، خادم رسول الله ﷺ ؛ إلا أن الحجاج لم يجرؤ على قتله .

ولا يتسع المجال ، ونحن في هذه العجالة ، للحديث عن أسباب فشل حركة التمرد التي شهدتها تلك السنوات الثلاث ؛ ويكفي أن نشير إلى أن الحركة كانت رد فعل مفاجئ وسريع على ما اعتبره القائد ابن الأشعث ومن معه من القواد ، أوامر قاسية خاطئة تنطوي على الطغيان والجبروت ، وتنم عن توجه الحجاج للمغامرة بهم فتكون له الموارد المالية الضخمة والسمعة وزيادة المكانة . ولم يكن لدى قائد القوات المتمردة ومن معه من القادة أي مشروع إصلاحي أو تغييري ؛ لقد كانوا قبلوا مكرهين بالنظام الأموي ؛ وقد رضوا أن يكون دورهم جزءا من سياسات ذلك النظام ، خاصة سياسة الفتح التي فقدت دوافعها الدينية والعقيدية عند الأكثرين ، سواء على مستوى القمة أو على مستوى القاعدة ، وما بينهما من المستوى الأوسط .

الأمويون بعد عبدالملك:

وانتقلت الخلافة بعد عبدالملك إلى ابنه الوليد سنة ست وثمانين للهجرة . وقد وصفت المصادر التي بين أيدينا الوليد بأنه كان من الجبابرة ، وبعضها وصفه بأنه كان جبارا عنيدا[2] . وفي السنة الأولى من ولايته عين الوليد عمر ابن عبدالعزيز واليا على المدينة . وقد استدعى عمر عشرة من كبار الفقهاء وجعلهم مجلسا استشاريا له . بيد أن الوليد لم يلبث أن عزل عمر عن ولاية المدينة بتحريض من الحجاج ، كما ذكرنا من قبل . وقد سبق مسألة العزل هذه أن عمر بن عبدالعزيز كتب إلى الخليفة الوليد ، وهو ابن عمه ، فنبهه إلى أن أهل العراق يتعرضون لاضطهاد وظلم كبيرين على يد الحجاج . وانتقم الحجاج فحرض على عمر ، وذكر أن كثيرين من العراقيين ذهبوا إلى المدينة واستوطنوها ، ووصفهم أنهم من قتلة عثمان أو المحرضين عليه ، وأنهم «أعداء أمير المؤمنين» ، الوليد نفسه . وهكذا عزل الوليد عمر ، وعين بدلا منه عثمان بن حيان المري ، وهو من نفس قبيلة مسلم بن عقبة المري الذي قاد جيشا إلى المدينة

---

(١) إبن كثير ، *البداية* . . . ، ج ٩ ، ص ٨٢ – ٨٣ .

(٢) الطبري ، ٦ ، ٤٢٣ .

في عهد يزيد بن معاوية ، واجتاحها ، ثم أباحها لجنده بعد احتلالها . وخطب الوالي الجديد في أهل المدينة مهددا متوعدا ، وكان مما قاله :

«أيها الناس ، إنا وجدناكم أهل غش لأمير المؤمنين في قديم الدهر وحديثه . وقد ضوى إليكم من يزيدكم خبالا ؛ أهل العراق هم أهل الشقاق والنفاق ، هم والله عش النفاق . . . والله ما جربت عراقيا قط إلا وجدت أفضلهم عن نفسه [كذا] الذي يقول في آل أبي طالب ما يقول ، وما هم لهم بشيعة(١) ، وإنهم لأعداء لهم ولغيرهم ؛ ولكن لما يريد الله من سفك دمائهم (٢) ، فإني والله لا أوتى بأحد آوى أحدا منهم أو أكراه منزلا ، ولا أنزله ، إلا هدمت منزله ، وأنزلت به ما هو أهله . ثم إن البلدان لما مصرها عمر بن الخطاب وهو مجتهد على ما يصلح رعيته جعل يمر عليه من يريد الجهاد فيستشيره : الشأم أحب إليك أم العراق؟ فيقول الشأم أحب إلي (٣) .

إني رأيت العراق داء عضالا ، وبها فرخ الشيطان . والله لقد أعضلوا بي [بمعنى جعلوني في وضع شديد ثقيل] ؛ وإني لأراني سأفرقهم في البلدان ، ثم أقول : لو فرقتهم لأفسدوا من دخلوا عليه بجدل وحجاج ، وكيف؟ ولم؟ وسرعة وجيف في الفتنة ، فإذا خبروا عند السيوف لم يخبر منهم طائل [أي أنهم ضعاف فاشلون في الحرب] . لم يصلحوا على [كذا] ، عثمان فلقي منهم الأمرين . وكانوا أول الناس فتقوا هذا الفتق العظيم . . . والله إني لأتقرب إلى الله بكل ما أفعل بهم لما أعرف من رأيهم ومذاهبهم . . . ووليهم رجل الناس [يقصد الحجاج] فبسط عليهم السيف وأخافهم فاستقاموا له أحبوا أو كرهوا . . .

أيها الناس . . . فالزموا الطاعة ، فإن عندي يا أهل المدينة خبرة من الخلاف . والله ما أنتم بأصحاب قتال ، فكونوا من أحلاس بيوتكم [الزموا بيوتكم] ، وعضوا

---

(١) وما هم لهم بشيعة تعني أنهم ليسوا صادقين فيما ادعوه من ولاء . شيعة الرجل تعني انصاره ومؤيديه .

(٢) وهذه العبارة تعني ، حسب ما ورد في النص : أن سفك دماء العراقيين ضرورة قدرية ناتجة عن سوء سلوكهم .

(٣) وقد كان ذلك بسبب خوفهم من سطوة الإمبراطورية الفارسية التي كانت احتلت اليمن ، كما كانت تحتل سواحل عمان والبحرين والعراق ، وليس لما أراد عثمان بن حيان المري أن يدخله في عقول من كان يخاطبهم .

على النواجذ [أي أغلقوا أفواهكم واكتموا أنفاسكم] ، فإني قد بعثت في مجالسكم من يسمع فيبلغني عنكم . . . فدعوا عيب الولاة ، فإن الأمر ينقض شيئا شيئا حتى تكون الفتنة . . .» وبعث عثمان بن حيان المري مناديا ينادي : «يا بني أمية بن زيد ، برئت ذمة ممن آوى عراقيا» .

ومع ذلك فقد خاطر بعض أهل المدينة لحماية من عرفوا صلاحه من العراقيين ، وظلوا يساعدونهم على الاختباء والتخفي حتى غادر عثمان بن حيان المدينة معزولا إلى غير رجعة . وقد ذكرت بعض الروايات التي أمدتنا بها المصادر أن الوليد بن عبدالملك لم يبعث عثمان بن حيان المري واليا على المدينة في بادئ الأمر ، وإنما بعثه لإخراج العراقيين منها وتشتيت المعارضين المحتملين . فلما ظهرت شدته رضي عنه وسر بعمله فرقاه وجعله واليا ؛ فعندئذ صار يصعد المنبر كما كان الولاة يفعلون [(١)] .

وفي نفس السنة كتب الحجاج إلى الوليد يذكره بضرورة ملاحقة من تركوا الكوفة والبصرة لتجنب القمع والقتل ، فقال في رسالته : «إن أهل الشقاق والنفاق قد لجأوا إلى مكة ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي فيهم! ويبدو أن الوليد كان لا يقل اندفاعا عن الحجاج لاضطهاد أهالي الكوفة والبصرة ، فكتب إلى والي مكة بالتحرك ، فاعتقل سعيد بن جبير ، وعطاء ، ومجاهد ، وطلق بن حبيب ، وعمرو بن دينار ، [وهؤلاء كانوا من أكبر وأشهر علماء الأمة] ، وتمت إعادة من كانوا جاءوا من العراق إلى الحجاج ، فما لبث أن قتل سعيد بن جبير[(٢)] .

ومن الأعمال المحمودة التي قام بها الوليد – على الرغم من كل جبروته وطغيانه – أنه خصص شيئا من المال لمنفعة الناس العاديين ، وأعطى المجذمين لمنعهم من التسول ، وخصص لكل شخص مقعد خادما ، ولكل ضرير قائدا يقوده . وقد اشتهر الوليد ببناء بعض المنشآت العامة ، ومنها المسجد النبوي في المدينة ، ومسجد دمشق ، أي الجامع الأموي . ومع ذلك فإن هذه الأعمال الحميدة لا ينبغي أن تغطي على الوجه الآخر لشخصيته . وقد روي عن عمر بن عبدالعزيز رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال : «كان الوليد بالشام ، والحجاج بالعراق ، وعثمان بن جبارة بالحجاز ، وقرة بن شريك بمصر ،

(١) الطبري ، ٤٨٧-٤٨٦ ، ٦ .

(٢) الطبري ، ٤٨٧-٤٩١ .

فامتلأت الأرض والله جورا [١] .» كما كان يقول : «إن الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بظالم . ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق [٢] .» وفي خلافة الوليد بن عبدالملك فتحت الأندلس بقيادة موسى بن نصير وطارق بن زياد . وبعد ذلك جاء موسى بن نصير إلى دمشق فاستقبله الوليد استقبالا حسنا وأكرمه . ومن المؤكد أن موسى قدم بأموال وهدايا للوليد ، كما جرت العادة في ذلك العصر . فلما مات الوليد وتولى سليمان بن عبدالملك الخلافة طالب سليمان موسى بن نصير بمبالغ كبيرة من المال ، وعندما عجز عن إرضائه القاه في السجن ، وظل معتقلا حتى مات .

وكان سليمان قد تولى الخلافة بعد موت أخيه الوليد سنة ست وتسعين للهجرة ؛ وقد وصف بأنه كان منشغلا بالنكاح والنساء والجواري والأكل ، وفي هذه الأمور كان معظم حديثه الذي يلتذ به . وكان أفضل عمل قام به أنه اتخذ الترتيبات المناسبة ليتولى عمر بن عبدالعزيز الخلافة من بعده . وكان سليمان حريصا على أن تكون الخلافة لابنه أيوب بن سليمان ، بيد أن أيوب مات في حياة والده ، واقتنع سليمان باختيار ابن عمه عمر بن عبدالعزيز لمنصب الخلافة .

خلافة عمر بن عبدالعزيز (٩٩-١٠١هـ):

تولى عمر الخلافة في العشرين من صفر سنة ٩٩ هـ بعهد من سليمان بن عبدالملك . وكان عمر شخصية مختلفة عمن سبقه من الحكام الأمويين ، وعمن جاءوا بعده . وكان أول أعماله أنه صعد منبر المسجد وخاطب المجتمعين فيه بقوله :

«أيها الناس ، إني ابتليت بهذا الأمر عن غير رأي كان مني ، ولا طلبة له ، ولا مشورة من المسلمين ؛ وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي ، فاختاروا لأنفسكم ولأمركم ما تريدون . فصاح المسلمون . . . قد اخترناك لأنفسنا وأمرنا ورضينا كلنا بك . فلما هدأت أصواتهم حمد الله وأثنى عليه . . .» وتكلم فوجههم إلى السلوك السوي ، ثم عرفهم بمنهجه بإيجاز فقال : «إن هذه الأمة لم تختلف في ربها ولا في كتابها ولا في نبيها ، وإنما اختلفوا في الدينار والدرهم . وإني لا أعطي أحدا باطلا ، ولا أمنع أحدا حقا . . . أيها الناس ، من أطاع الله وجبت طاعته ، ومن عصى الله فلا

---

(١) السيوطي ، *تاريخ الخلفاء* ، ص ٢٢٣ .

(٢) *المصدر نفسه* ، ص ٢٣١ .

طاعة له . أطيعوني ما أطعت الله ، فإذا عصيت فلا طاعة لي عليكم .»

وعدا عن زهد عمر وتقواه مما لا يسعنا الإفاضة في الحديث عنه ، فقد اتخذ عددا من القرارات المهمة لتصحيح وإزالة كثير مما وقع قبله من الظلم على أيدي الحكام من بني أمية ؛ وسنجمل أهم ذلك هنا في هذه العجالة .

فبعد توليه الخلافة مباشرة طلب من زوجته فاطمة ، وهي ابنة عمه عبدالملك ، أن ترد إلى بيت المال ما لديها من حلي وجواهر . وقد خيرها بين أن تتخلى عن جواهرها وحليها إن كانت تود الاستمرار في العيش معه . . أو أن تحتفظ بها وتنتهي حياتها معه ؛ فاختارته وردتها إلى بيت المال . ولما توفي عمر وتولى الخلافة من بعده أخوها يزيد بن عبدالملك أعاد إليها الحلي والجواهر فرفضت أن تسترجعها . ومن ناحية أخرى فقد أوقف عمر سب علي بن أبي طالب على المنابر . ثم إن عمر وجه أمرا إلى ابن عمه مسلمة بن عبدالملك ، الذي كان يقود جيشا في بلاد الروم محاصرا للعاصمة القسطنطينية ، بأن ينسحب بقواته ويعود بها إلى الشام ؛ وأرسل له ما يعينه وقواته على إتمام عملية الانسحاب[(١)] . كذلك وجه عمر أمرا إلى القوات الأموية بالإنسحاب من طرندة ، وكانت في موقع متقدم وموغل في أرض الروم على بعد ثلاث مراحل من مدينة ملطية ، وأمرهم بالعودة إلى ملطية[(٢)] . وبالمثل أراد انسحاب قوت المسلمين من مدينة مرو ، ومنطقة ما وراء النهر ، فكتب إلى الوالي عبدالرحمن بن نعيم يأمره بإعادة من وراء النهر من المسلمين بعائلاتهم وأولادهم ، بيد أنهم أبو وتمسكوا بالبقاء هناك ، لأن البلاد أعجبتهم وصاروا يعتبرونها وطنا لهم ، فتركهم . ومع ذلك فقد كتب إلى الوالي : «اللهم إني قد قضيت الذي علي ، فلا تغز بالمسلمين ، فحسبهم ما فتح الله عليهم[(٣)] .» كما وجه أوامر إلى القوات المرابطة في الثغور الشامية (السورية) المتقدمة في خط المواجهة مع الدولة البيزنطية بالانسحاب من تلك المواقع الأمامية واتخاذ مواقع جديدة في الأراضي الشامية ، فأوضح له القادة العسكريون أن الجلاء عن تلك المواقع الإستراتيجية يمكن أن يعطي البيزنطيين فرصا

---

(١) الطبري ، مجلد ٦ ، ص ٥٥٣ ؛ ابن كثير ، ***البداية*** ، ج ٩ ، ص ١٥٠-١٥٢ ، أحداث سنة ٩٩ هـ .

(٢) إبن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٥ ، ٥٠ .

(٣) الطبري ، مجلد ٦ ، ص ٥٦٨ .

تمكنهم من اقتحام حدود الدولة الإسلامية من جانبها السوري ، فعدل عن ذلك[١] .

عمر يركز اهتمامه على إزالة الظلم:

وفي وقت مبكر من أيام ولايته أمر الخليفة عمر بن عبدالعزيز منادين أن ينادوا الناس داعينهم أن يرفعوا تظلماتهم إليه في اجتماع عام في المسجد : «**ألا من كانت له مظلمة فليرفعها** : فقام إليه رجل من أهل الذمة ، مسيحي أو يهودي [أي من أهل العهد ، المعاهدين] من حمص . . . فأخبره أن العباس بن الوليد بن عبدالملك اغتصب أرضه . فقال عمر : «**يا عباس ، ما تقول؟ قال : نعم! أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد** [يعني والده] **وكتب لي بها سجلا ، فقال عمر : ما تقول ياذمي؟ قال : يا أمير المؤمنين ، أسألك كتاب الله . فقال عمر ، نعم ، كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد ، قم فاردد عليه ضيعته ؛ فردها عليه** . ثم تتابع الناس في رفع المظالم إليه . . .» في ذلك المجلس وما بعده ، **فرد المظالم جميعها** ، «**حتى أخذ أموال بني مروان وغيرهم مما كان في أيديهم بغير استحقاق** . فاستغاث بنو مروان بكل واحد من أعيان الناس ، فلم يفدهم ذلك شيئا ؛ فأتوا عمتهم فاطمة بنت مروان ، وكانت عمته فشكوا إليها . . . فقال لها عمر : يا عمة ، مالك؟ فقالت : بنو أخي عبدالملك وأولادهم يهانون في زمانك وولايتك ، وتأخذ أموالهم فتعطيها لغيرهم ، ويسبون عندك فلا تنكر؟ . . . [فرد عليها بقوله] : **إعلمي أن النبي** ﷺ **مات وترك الناس على نهر مورود ، فولي ذلك النهر بعده رجل فلم يستنقص منه شيئا حتى مات ، ثم ولي ذلك النهر . . . رجل آخر فلم يستنقص منه شيئا حتى مات ، ثم ولي ذلك النهر رجل آخر فكرى منه ساقية ، ثم لم يزل الناس بعده يكرون السواقي[٢] ، حتى تركوه يابسا لا قطرة فيه . وأيم الله لئن أبقاني الله لأردنه إلى مجراه الأول . . .**»

وكتب عمر إلى والي الكوفة يأمره بأن يخفف آثار الظلم الذي تعرض له أهلها ،

---

(1) Abdullah Abu Ezzah, ***The Syrian Thughur***, an unpublished Ph.D. thesis submitted to the Department of Arabic and Islamic Studies, University of Exeter, UK, May 1980, p.70.

(٢) يكرون السواقي : أي يستخدمون وسائل لكي يسحبوا مقادير من ماء النهر خارج مجراه ، وهو تعبير مجازي ، يقصد به المال .

فقال : **إن أهل الكوفة أصابهم بلاء وشدة وجور في أحكام الله ، وسنة خبيثة سنها عليهم عمال السوء . وإن قوام الدين العدل والإحسان ، فلا يكونن شئ أهم إليك من نفسك . . . [أي نج نفسك من العقاب في الآخرة] . ولا تحمل خرابا على عامر ، وخذ منه ما أطاق ، وأصلحه حتى يعمر . [أي لا تلحق الأراضي الخربة بالأراضي العامرة وتفرض عليها الضرائب وكأنها عامرة] ، ولا يؤخذن من العامر إلا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الأرض ، ولا تأخذن أجور الضرابين ولا هدية النوروز والمهرجان ، ولا ثمن الصحف ، ولا أجور الفتوح ، ولا أجور البيوت ، ولا درهم النكاح [وهذه كلها أنواع من الضرائب كانت تفرض على الناس بغير حق] . ولا خراج على من أسلم من أهل الأرض [اكتفاءا بالزكاة] ، . . . وانظر من أراد من الذرية أن يحج فعجل له مائة ليحج بها ، والسلام** [1] . « وهكذا حرص عمر على أن يشمل العدل المسلمين وغير المسلمين من أهل الكوفة . وكان عمر - قبل أن يتولى الخلافة ، وبينما كان واليا على المدينة - قد كتب إلى الخليفة الوليد بن عبدالملك ينبهه لما أوقعه الحجاج بأهل العراق من ظلم وجور وطغيان . وعلم الحجاج برسالة عمر ، فكتب إلى الوليد يحرضه على عمر فاستجاب الوليد للتحريض ، وعزل عمر عن ولاية المدينة ، وساعد الحجاج على مطاردة العراقيين الذي هربوا من العراق والتجأوا إلى مدينة رسول الله ، فألقي القبض عليهم وحملوا في الأغلال وأعيدوا إلى الحجاج [2] ؛ ولم أجد ضررا في التكرار هنا أيضا .

ولكي نعرف ، ويعرف القارئ مقدار ما وقع على العراق من ظلم نستدعي موقفا يعود إلى الأشهر الأولى من خلافة سليمان بن عبدالملك : فقد قرر سليمان أن يولي يزيد بن المهلب العراق حربا وصلاة وخراجا ، وذلك أوائل سنة سبع وتسعين . لكن يزيد لم يفرح بتلك الولاية ، إذ فكر ثم قال لأحد أصدقائه وأهل مشورته : «**إن العراق قد أخربها الحجاج ؛ وأنا اليوم رجاء أهل العراق [أي أنهم يأملون منه أن يخفف عنهم ويصلح أحوالهم] ، ومتى قدمتها وأخذت الناس بالخراج ،**

---

(١) إبن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٥ ، ص ٦١ ؛ الطبري ، مجلد ٦ ، ص ٥٦٩ . وهذا كلام أوردته في موضع سابق ، وكررته هنا لأهميته .

(٢) الطبري ، مجلد ٦ ، ص ٤٨١ - ٤٨٢ و٤٨٥ و٤٨٨ .

وعذبتهم عليه صرت مثل الحجاج ، أدخل على الناس الحرب وأعيد عليهم تلك السجون التي عافاهم الله منها . ومتى لم آت سليمان [الخليفة] بمثل ما جاء به الحجاج [من الأموال] لم يقبل مني .» ولذا فقد عمل يزيد على إقناع الخليفة بأن يولي غيره على العراق ، وأن يعينه – بدلا من ذلك – واليا على خراسان . وقد قيل إن يزيد دفع مائة ألف إلى الوسيط الذي أقنع الخليفة بالترتيب الجديد(١) .

ومن توجيهات عمر إلى الولاة أنه كتب إلى والي سمرقند يأمره بعمل خانات (أي ما يشبه الاستراحات أو الفنادق الصغيرة على طرق السفر البعيد ، وقال له : «**فمن مر بك من المسلمين فأقروه يوما وليلة وتعهدوا دوابهم ؛ ومن كان به علة فأقروه يومين وليلتين ، ومن كان منقطعا به فأبلغه بلده .**» فلما رأى أهل سمرقند ذلك قالوا : قتيبة ظلمنا وغدر بنا فأخذ بلادنا ، وقد أظهر الله العدل . . . فأذن لهم الوالي أن يرسلوا وفدا ليقابل الخليفة ، فأصدر عمر أمرا إلى الوالي بأن يخرج لهم القاضي ليحكم في القضية ، فحكم القاضي أن ينسحب المسلمون من البلد إلى معسكرهم ليتقرر صلح جديد ، فلم يشأ أهل تلك البلاد أن يدفعوا الأمور إلى ذلك الحد عندما شعروا بأن للعدل دولة .

وبعد تولي عمر بن عبدالعزيز الخلافة عين الجراح بن عبدالله الحكمي واليا على خراسان . ومن مقر ولايته الجديد كتب الجراح إلى الخليفة يصف أهل خراسان ، ويخبره :

أنه وجد أهلها قوما قد أبطرتهم الفتنة ، وأنهم يحبون أن تعود الفوضى ليمتنعوا عن دفع الجزية والخراج معا ، «فليس يكفهم إلا السيف والسوط ، وكرهت الإقدام على ذلك إلا بإذنك .»

فكتب إليه عمر :

«**يا ابن أم الجراح ، أنت أحرص على الفتنة منهم . لا تضربن مؤمنا ولا معاهدا سوطا إلا في حق** (٢) . . .» وأرسل الجراح إلى الخليفة وفدا من ثلاثة أشخاص ليؤكدوا ادعاءاته ، وضم الوفد عربيين ومعهما أحد موالي بني ضبة . وتكلم العربيان بينما المولى لم ينطق بكلمة . ويبدو أن الجراح كان قد أوصى الوفد بذلك .

---

(١) *المصدر نفسه* ، ص ٥٢٣ – ٥٢٩ .

(٢) *المصدر نفسه* ، مجلد ٦ ، ص ٥٥٩ – ٥٦٠ .

بيد أن عمر لم يكتف بما سمع من العربيين ، بل كلم الرجل الثالث في الوفد فسأله : ألست من الوفد ، فرد بالإيجاب ، فحثه على الكلام ، فأفضى إليه بحقيقة ما كان يجري على الأرض ، فقال :

«**يا أمير المؤمنين ، عشرون ألفا من الموالي يغزون بلا عطاء ولا رزق ، ومثلهم قد أسلموا من أهل الذمة يؤخذون بالخراج [والجزية] ، وأميرنا عصبي جاف . . . وهو بعد سيف من سيوف الحجاج ، قد عمل بالظلم والعدوان . فقال عمر : إذن ، مثلك فليوفد .**»

وهكذا أدرك عمر أن الوالي الذي عينه على خراسان لم يكن أهلا للثقة . وعلى الأثر كتب يأمره : «**أنظر من صلى قبلك إلى القبلة فضع عنه الجزية .**» فلم يكن أمام الوالي إلا الانصياع ، فأسقط الجزية عن المسلمين ، فسارع الناس إلى الإسلام . فعاد الجراح ، أي الوالي ، يكتب إلى الخليفة يخبره بذلك ، ويزعم أن تحولهم إلى الإسلام إنما كان لتجنب الجزية ؛ واقترح أن يمتحن المتحولون إلى الإسلام بأن يفرض عليهم الختان ؛ فرد عليه عمر بقوله : «**إن الله بعث محمدا ﷺ داعيا ولم يبعثه خاتنا .**» ومن الواضح أن هذه المطاولة من جانب الوالي كان دافعها الرغبة في الاستمرار في فرض الجزية على أكبر عدد من الناس حتى بعد إسلامهم ، وأن يواصل الممارسات التي كان الحكام ارتكبوها قبل ولاية عمر للخلافة . وقد عزل عمر الجراح عن خراسان وولى عليها غيره [1] .

وفي سياق حرصه على حماية المال العام استدعى عمر يزيد بن المهلب بن أبي صفرة وكان قبل ذلك واليا على خراسان ، لكي يدفع ما كان لديه من أموال مستحقة لبيت المال . وكان عمر قد وجد في السجلات أن يزيد سبق له أن أخبر سليمان بن عبدالملك أن لديه أربعة آلاف ألف سيوردها له ، لكنه لم يوردها . وربما كان سليمان قد أعفاه من دفعها وتركها له ، فمثل هذا التصرف كان مألوفا . وقد كانت العلاقة وثيقة بين الخليفة سليمان وأبناء المهلب حتى قبل أن يلي الخلافة . وكان أبناء المهلب قد تعرضوا لتضييق شديد وملاحقة من الحجاج يطالبهم بالمال ومزيد من الأموال ,حيث اخذ منهم ستة آلاف ألف ، حتى اضطروا إلى الهرب والالتجاء إلى سليمان بن عبدالملك وهو لم يزل وقتئذ وليا للعهد ، فأجارهم . وبعد وفاة سليمان وولاية عمر

---

(١) المصدر نفسه ، مجلد ٦ ، ص ٥٥٨ - ٥٦٠ .

استدعى يزيد بن المهلب وطالبة بدفع المبلغ ، كما أشرنا . وقد حاول يزيد أن يتملص ، وقال إنه لم يكن هناك مبلغ ، ولكنه قصد أن يرهب أعداءه بذلك . فما كان من عمر إلا أن أمر أن يلقى به في السجن ، فسجن [١] .

وكان عمر رضي الله عنه يريد أن يحل مشكلة الخوارج الذين ما فتئوا يرفعون السلاح ويقتلون وينهبون ، ويركزون هجماتهم بشكل خاص ضد الدولة ومراكزها وقواتها ، فتزهق في ذلك أرواح وتتلف وتبدد أموال وممتلكات كثيرة . ومن أجل ذلك كتب خطابا وجهه إلى قائد الفرقة الخارجية التي ثارت في أيامه ، وهو بسطام اليشكري ، المكنى بشوذب ، يدعوه إلى الحوار : «**بلغني أنك خرجت غضبا لله ولنبيه ؛ ولست بأولى بذلك مني ، فهلم أناظرك ، فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس ، وإن كان في يدك نظرنا في أمرنا .**» فكتب بسطام ردا إلى عمر :

«قد أنصفت ؛ وقد بعثت إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك . . . » وكان مما وجها إلى الخليفة من الأسئلة أن قالا : «**أخبرنا عن يزيد** [يزيد بن عبدالملك] **لم تقره خليفة بعدك؟** فأجابهما بأنه لم يكن هو الذي عين يزيد للخلافة بعده ، وإنما فعل ذلك غيره ، أي الخليفة الذي سبقه ، وهو سليمان بن عبدالملك . وعند ذلك سألاه : «**أفرأيت لو وليت مالا لغيرك ثم وكلته إلى** [شخص] **غير مأمون عليه ، أتراك كنت أديت الأمانة إلى من ائتمنك!** فرد قائلا : **أنظراني ثلاثا . . .** » أي طلب أن ينظراه ثلاثة أيام ليتدبر الأمر . فخاف بنو مروان أن يخلع يزيد عن ولاية العهد ، أي ولاية الخلافة بعده «فدسوا إليه من سقاه سما ، فلم يلبث بعد خروج مبعوثي بسطام من عنده إلا ثلاثا ، أي ثلاث ليال ، حتى مات [٢] . ولست أستطيع تأكيد حادثة دس السم لعمر رحمه الله ، ولا أظن أن غيري يستطيع ذلك ؛ ومع هذا فإنني لا أستطيع نفيها أو استبعادها ، وقد وردت في أكثر المصادر ؛ وكان استخدام السم مألوفا في متاهات الصراعات في ذلك العصر .

---

(١) إبن كثير ، ***البداية*** ، ج٩ ، ص ١٥٤ .

(٢) الطبري ، مجلد ٦ ، ٥٥٦ ؛ إبن كثير ، ***البداية*** ، ج٩ ، ص ١٧٧ ، وانظر أحداث سنوات ٩٩-١٠١ هـ في هذه المصادر .

يـزيـد بن عبدالملك:

وانتقلت الخلافة بعد وفاة عمر إلى ابن عمـه يزيد بن عبدالملك . وكان سليمان بن عبدالملك قد نص في وصيته على أن يكون الخليفة بعده عمر بن عبدالعزيز ، ومن بعد عمر يزيد بن عبدالملك . وقد تولى يزيد الخلافة سنة إحدى ومـئة ، وتوفي سنـة خمس ومئة للهجرة ؛ وأوردت المصادر أنه أظهر رغبته في أن يسير على نهج عمر بن عبدالعزيز ، لكن أقاربه الأمويين أتوه بأربعين شيخا شهدوا بأن ليس على الخلفاء حساب ولا عقاب ، فعدل عن ذلك[1] . وفي عهده انشق يزيد بن المهلب بن أبي صفرة – بعد أن هرب من سجنه – واستولى على البصرة ، وجعل يولي إخوته على الأقاليم الشرقية ، ومن ذلك أنه ولى أخاه خراسان . ثم وجهت إليه الجيوش من دمشق بقيادة مسلمة بن عبدالملك فتم القضاء على أبناء المهلب . وكان المهلب وأبناؤه من القادة المشهورين في حركة الفتح الأموية ، وقد عمل في خدمة بني أمية تابعا للحجاج ، فلما توفي طارد الحجاج أولاده طلبا لأموال ولاياتاهم ، وحماهم سليمان بن عبدالملك طوال عهده بعد أن التجأوا إليه ، كما أشرنا قبل قليل . وكان ذلك الصراع على الأموال بين القادة والولاة من سمات العصر الأموي بعد عبدالملك ، بل وفي عهد عبدالملك .

وقد كان يزيد بن عبدالملك مستغرقا في المتع ، وقد أحب جارية اسمها حبابه كان اشتراها بأربعة آلاف دينار قبل تولي الخلافة ؛ ثم اضطر إلى التخلي عنها بضغط من أخيه الخليفة سليمان ؛ وقد بيعت وتداولتها أيدي النخاسين وانتقلت من بلد إلى آخر . فلما صارت إليه الخلافة طلبها ، فتتبعها مكلفون من قبله حتى عرفوا أنها في مصر ، فاشتروها وأتي بها إليه ، فنسي كل ما عداها ، وأراد أن يكون وإياها في قصر وحدهما ليتفرغ لمتعته بها دون أن ينغص عليه أو يصرفه عنها الاشتغال بمشاكل الحكم . وقد ذكر ابن كثير في ترجمته ليزيد – ضمن أحداث سنة ١٠٥ هـ – أن يزيد انشغل بحبابة ، وأنه كان يوما يلاعبها ، وألقي حبة عنب في فمها فشرقت وماتت ، فحزن عليها حزنا شديدا ، واستبقى جثتها وظل يقبلها حتى انتنت ، فأمر بدفنها واستغرق في الحزن أياما حتى مات .

(١) إبن كثير ، ج ٩ ، ص ١٩٠ .

هشـام بن عبدالملك بن مروان (١٠٥ - ١٢٥ هـ):

تولى هشام الخلافة بعد وفاة أخيه يزيد ، وطالت مدة خلافته فبلغت عشرين سنة ، حيث توفي سنة ١٢٥ هـ . وكان هشام من أفضل خلفاء بني أمية ، لكنه لا يقارن بعمر بن عبدالعزيز بطبيعة الحال . وقد تعفف هشام عن نقل الخلافة إلى ابنه ، وظل ابن أخيه الوليد بن يزيد بن عبدالملك وليا للعهد حتى مات هشام ، على الرغم من أن الوليد بن يزيد كان مسرفا في انحرافاته السلوكية ومجاهرا بها . وقد حاول عمه إصلاحه باعتباره كان وليا للعهد ، حتى أنه أمره على الحج ، لكن الوليد أخلد إلى الأرض ، وقيل إنه أخذ معه آلات الطرب وزمرته من الفاسدين ، وأراد أن يشرب الخمر معهم على سطح الكعبة . وكان مما قاله له هشــام :

«ويحك! والله مـا أدري أعلى الإسـلام أنت أم لا ، فـإنك لم تدع شـيـئـا من المنكرات إلا أتيته ، غير متحاش ولا مستتر ؛ فكتب إليه الوليد :

يـا أيـهــــــــا الســـائـل عـن ديـنـنـا
ديـنـي عـلـى ديـن أبـي شـــــاكــــــــر
نشــــربهــــا صــــرفــــا وممزوجـــــة
بالســـخن أحـــيـــانا وبالفـــاتـــر

وكنية أبي شاكر كانت لمسلمة بن هشام ، فغضب هشام على ابنه أبي شاكر وأنبه ، وقال له :

«تشبه الوليد بن يزيد وأنا أريد أن أرقيك إلى الخلافة ، وبعثه على موسم الحج . . . فأظهر النسك والوقار ، وقسم بمكة والمدينة أموالا ، فقال مولى لأهل المدينة يمدحه :

يـا أيـهــــــــا الســــــائـل عـن ديـنـنـا
ديـنـي عـلـى ديـــن أبـي شـــاكــــــــر
الـواهـب الجـــــرد بـأرســـانـهـــــا
لـيـس بـزنـديـق ولا كـــــــافــــــــر

لكن هشام كان متحرجا – على ما يبدو – من إحلال ابنه في ولاية العهد بدل ابن أخيه ، وظل الأمر كذلك حتى مات هشام ؛ وهذه فضيلة ومنقبة تحسب لهذا الأموي .

الوليد بن يزيد بن عبدالملك:

وفور علمه بموت عمه هشام أصدر الوليد أمرا بفرض حجر على أمواله وكل ما ترك ، واستولى عليها . وقد هنأه مروان بن محمد بن عبدالملك ، وهو إذ ذاك والي أرمينية ، «يبارك له في «خلافة الله» على عباده . . .» ولم يتوان الوليد في اتخاذ الإجراء الذي ظن أنه يحفظ الملك لولديه ، فسارع في عقد البيعة لهما بولاية العهد في نفس السنة التي تولى فيها الخلافة ، سنة ١٢٥هـ .

بيد أن الوليد بن يزيد وصل إلى الخلافة وشمس بني أمية تهوي نحو الغروب ؛ فلم يمض في الحكم أشهرا حتى تجمعت عوامل الثورة ضده ، وبايع الثائرون يزيد بن الوليد بن عبدالملك ، الملقب بالناقص ، وتم قتل الوليد بن يزيد ، ثم مات الخليفة يزيد بن الوليد (الناقص) في آخر السنة مرضا ، وخلفه في الحكم أخوه إبراهيم بن يزيد بن الوليد . وعلى أثر ذلك انفجرت الحروب بين أبناء البيت الأموي . ففي حمص رفض الحمصيون مبايعة الخليفة الجديد يزيد بن الوليد بن عبدالملك ، وثاروا غضبا مطالبين بالثأر للوليد بن يزيد . وقد كاتبوا زعماء النواحي فاستجاب لهم عدد كبير منهم . ثم اختاروا الحكم بن الوليد بن يزيد ليكون خليفتهم ، لكن بعض الزعماء اعترضوا على ذلك الاختيار لأن الحكم كان قاصرا ، دون البلوغ . ثم إنهم أمروا عليهم أبا محمد السفياني ، وزحفوا نحو دمشق . وسارع الخليفة يزيد بن الوليد بإرسال القوات لمواجهتهم ، جيشا بعد جيش ,وجرت المعركة عند السليمانية ؛ وانجلت عن هزيمة الحمصيين وحلفائهم ، وأسر أعداد من زعمائهم ومقاتليهم اقتيدوا إلى دمشق . بيد أن يزيد عفا عنهم ، وأطلق الأسرى وأحسن إليهم ,ومنح جوائز للأشراف والزعماء ، وعين لحمص أميرا اختاروه . أما في فلسطين فقد بايع أهلها يزيد بن سليمان بن عبدالملك ، حيث كان هواهم مع أبناء سليمان ، لحسن معاملتهم لهم ولتنازلهم عن ريع أملاكهم في فلسطين لصالح أهلها . ووصلت أخبار هذه التطورات إلى الأردن فبايع أهلها محمد بن عبدالملك بن مروان . وكانت فلسطين والأردن ولايتين ، أو مقاطعتين إداريتين ، منذ أيام الفتح الأولى ، إذ عرفتا آنذاك باسم جند الأردن ، وجند فلسطين . وقد كان ذلك معروفا حتى في العهد البيزنطي ، قبل الإسلام . وكانت طبريا هي عاصمة إقليم الأردن ، بينما كانت عكا ميناء الأردن على البحر المتوسط . .

وعندما علم الخليفة يزيد بن الوليد بهذه التطورات وجه قواته لإعادة هذين

الإقليمين إلى الولاء ، ويبدو أنه كان يفضل اللين على الشدة ، فصالحهم ، وعين أخاه إبراهيم بن الوليد واليا على تلك النواحي ، وجعل مقره الرملة .

مروان بن محمد بن مروان:

بيد أن أخطر معارضة كانت معارضة مروان بن محمد ، الملقب بالحمار . وكان مروان واليا على أرمينيا وأذربيجان . ويبدو أنه شعر بأن الفوضى التي ضربت البيت الأموي ربما تتيح له اقتناص منصب الخلافة ، ولذا فقد بدأ بتحرك للبحث عن مدخل يضعه على مسرح الأحداث . فقد بدأ بالكتابة لعمر بن يزيد ، أخو الخليفة المقتول الوليد بن يزيد بن عبدالملك ، وحثه على القيام للأخذ بثأر أخيه . غير أن مروان ما لبث أن بايع الخليفة الجديد ، يزيد بن الوليد بن عبدالملك ، الذي تزعم الثورة ضد الوليد . ثم جاء موت يزيد بن الوليد المفاجئ أواخر سنة ١٢٦هـ وتولي أخيه وولي عهده إبراهيم بن الوليد منصب الخلافة ليحرك الصراع من جديد . لقد رفض أهل حمص مبايعة إبراهيم ، وعلى أثر ذلك زحف مروان بقواته صوب حمص معلنا أنه سيجبرهم على المبايعة لإبراهيم ، وحاصرهم تحت هذا الشعار . وقد أصر الحمصيون على عدم مبايعة إبراهيم ، بيد أنهم ما لبثوا أن بايعوا مروان نفسه بالخلافة . وهكذا تحرك مروان نحو دمشق مجددا بعد أن انضمت له القوات الحمصية وقوات قنسرين وأصبح يقود ثمانين ألفا من الجند . وقد أرسل الخليفة إبراهيم بن الوليد قوات كبيرة وصل تعدادها – حسب ما تذكره المصادر – مائة وعشرين ألفا ، يقودها سليمان بن هشام . واندلعت المعركة حتى العصر ، وسقطت فيها من الجانبين أعداد كبيرة . وكان مروان أكثر خبرة بالمعارك ، فاختار قوة من جنده وكلفها بالإلتفاف حول مؤخرة قوات دمشق ، ونجحت خطته وحلت الهزيمة بعدوه ، وزحف إلى دمشق نفسها ، وأعلن نفسه خليفة بعد أن كان يحارب تحت شعار مناصرة الحكم وعثمان إبني الوليد بن يزيد ، اللذين كانا محبوسين في دمشق [1] .

وقد كان مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين من الفرع المرواني ، كما كان مروان بن الحكم أولهم . وفي آخر عهد مروان بن محمد سقطت الخلافة الأموية

---

(١) إبن كثير ، *البداية* . . . ، ج ١٠ ، ص ١٨ – ١٩ (أحداث سنوات ٢٥ – ٢٧) ، الطبري ، مجلد ٤ ، ص ٢٠٩ –٣١٢ .

نهائيا تحت سنابك خيل القوات العباسية الزاحفة من الشرق . وهكذا غربت شمس بني أميــة لتشرق شمس بني العباس ، ولكن إلى حين ، كما سنرى في الفصول التالية .

خلاصة عن القمع والقهر والطغيان الأموي:

خلال متابعتنا للمارسات الأموية في الصفحات السابقة مررنا بكثير من ضروب الطغيان والقهر ، وسنحاول أن نركز الضوء على بعض وسائل الإرهاب ، والتعذيب والتجسس على الناس ، والتصفية الجسدية للمعارضين ، والقتل على الرأئ ، ومنع التجول ليلا ، وإنذار الناس بعدم التجمع حتى لشخصين ، وألا يسير رجل إلا وحده ، ليتضح دور الأمويين التأسيسي لمختلف صنوف القهر والقمع والإذلال التي حلت بالمجتمع الإسلامي ، ونزلت بمستواه الأخلاقي والسلوكي لدرجة أسوأ مما كان في العصر الجاهلي في بعض جوانب حياته وظلت تمارس بحقه حتى العصر الحاضر .

(١) معاوية يقول لابنه يزيد «قد كفيتك الرحلة والترحال وأخضعت لك أعناق العرب .

(٢) الانتقام من أهل المدينة لاتهامهم بأنهم قتلة عثمان ، وما أحدث فيها بسر بن أبي أرطاه من قتل وإرهاب ، وتنقله بين المدينة ومكة واليمن والبصرة .

(٣) البيعة ليزيد بن معاوية بالتهديد ، وبالمال : «امير المؤمنين هذا ، فإن هلك فهذا ، ومن عصى فله هذا (أي السيف) .

(٤) إجتياح المدينة وإباحتها سنة ٦٤ هـ والاعتداء الجنسي على ألف فتاة بكر .

(٥) زياد بن أبيه (أو ابن أبي سفيان) يأمر أن تكتب له أسماء المخالفين والمعارضين والغرباء ، فإن ظهر في العرافة معارض أو مطلوب ولم يكن العريف قد بلغ عنه ، برئت منه الذمة ، وحلال لنا ماله وسفك دمه . وأي عريف وجد في عرافته مطلوب لأمير المؤمنين لم يكتب لنا عنه صلب على باب داره ، وألغيت تلك العرافة من العطاء [1] .

(١) الطبري ، مجلد ٣ ، ص ٢٨١ - بيروت .

(٦) قال أحمد [بن حنبل] ومسلم ، والترمذي : أن معاوية سأل سعد بن أبي وقاص الذي كان واليا على الكوفة : «ما يمنعك أن تسب أبا تراب [علي بن أبي طالب]؟» فبين له سعد السبب ؛ وقد عزل معاوية سعد وعين المغيرة بن شعبة ، فأمره بسب علي ، فتعهد بذلك ونفذ [١] .

(٧) كتب معاوية بن أبي سفيان إلى المغيرة بن شعبة يأمره بتعذيب عبدالرحمن بن أبي بكرة ، وكان من وسائل التعذيب التي استخدمها أنه ألقى على وجهه حريرة ، أي قماش حريري ، وصب عليها الماء ، فكانت تلتصق بوجهه فيغشى عليه ويصاحب ذلك شعور بأنه غرق وانقطع نفسه ، وفعل به ذلك ثلاث مرات ، وكتب إلى معاوية يخبره بالنتيجة [٢] .

وهذا النوع من التعذيب يماثل بالضبط ما كتبت عنه وسائل الإعلام الأميركية ، (في شهر ديسمبر ٢٠٠٧ ويناير ٢٠٠٨ مثلا) ونوقش في الكونغرس ، وأطلق عليه اسم waterboarding ، ولعله نقل من بعض الدول الإسلامية التي تمارس هذا النوع من التعذيب .

(٨) القتل لمجرد ما يحمله الشخص المعني من رأي أو موقف ، وقد مارس ذلك معاوية ، عن طريق أتباعه ، فكلف من قاموا بقتل ستة من أنصار حجر بن عدي ؛ وكانوا يطرحون سؤالا : « ماذا تقول في علي؟» فإن مدحه ، أو حاول تجنب أهانته قتل فورا . وقد فعل ذلك زياد بن أبيه ، كما فعل ذلك عبيدالله بن زياد ، ومن بعدهما الحجاج بن يوسف الثقفي .

(٩) التجسس على المسلمين : عندما كان عمرو بن سعيد بن العاص واليا على مكة كتب يخبر يزيد بن معاوية عن الترتيبات التجسسية التي فرضها على المسلمين الذين يدخلون مكة ، فقال : «**وجعلت على مكة وطرقها وشعابها رجالا لا يدعون أحدا يدخلها حتى يكتبوا اسمه واسم أبيه ، ومن أي بلاد هو ، وما جاء له وماذا يريد ؛ فإن كان من أصحابه [أي من أصحاب ابن الزبير] أو عرف أنه يريده رددته صاغرا ، وإلا خليت سبيله** [٣] .

---

(١) إن كثير ، ج٧ ، ص ٢٧٧و ٢٩٢ ؛ الطبري ، مجلد ٣ ، ص ١٧٧ - بيروت .

(٢) طبري ، ٣ ، ١٧٦ - بيروت .

(٣) إبن كثير ، ج ٨ ، ص ١٨٣ .

التنافس والصراع داخل البيت الأموي على السلطة:

مر معنا كيف عمل بنو أمية بزعامة معاوية على اغتصاب الخلافة حتى صارت في أيديهم سنة إحدى وأربعين للهجرة . ثم خطا معاوية الخطوة التالية بتوريث الحكم لابنه يزيد بن معاوية ، مستخدما كل الأساليب المنافية لمبادئ الإسلام ، لاغتصاب حق المجتمع في الاختيار حسب مفهوم الشورى الذي عرفه ذلك المجتمع من قبل . وبعد أن صارت الخلافة لمروان بن الحكم عمل على إبعاد أحفاد معاوية ، كما فعل مع خالد بن يزيد بن معاوية ، الأمر الذي أشرنا إليه في موضعه . كذلك فإن مروان نكل عن وعده لابن عمه عمرو بن سعيد ، الملقب بالأشدق ، الذي كان ساعده في الوصول إلى الخلافة شريطة أن تكون الخلافة له بعده ، أي للأشدق . وما أن استقر مروان في الحكم حتى سارع بإعلان ولديه عبدالملك وعبدالعزيز لولاية العهد ، واحدا بعد الآخر . أما أخطر تحد واجهته خلافة عبدالملك من داخل العشيرة الأموية فكان ذلك الذي رفعه عمرو بن سعيد بن العاص ، (الأشدق) . وقد تمكن عبدالملك من التغلب على عمرو ، وقتله بيده في مجلسه ، بعد أن استدعاه إلى المجلس .

عبدالملك يسعى لتعيين ابنه وليا للعهد:

وبعد أن ارتاح عبدالملك من الأشدق تحول إلى الضغط على أخيه عبدالعزيز الذي كان وليا لعهده بموجب الترتيبات التي وضعها أبوهما مروان بن الحكم . وقد تشجع عبدالملك على تحقيق تلك الرغبة عندما كتب له الحجاج بن يوسف الثقفي ، رجل الدولة القوي ، يزين له ذلك . وكلم عبدالملك أخاه عبدالعزيز طالبا منه التنازل لصالح الوليد ، لكن عبدالعزيز لم يتزحزح عن الموقف الرافض ، فدعا عليه ، فمات في نفس السنة ، وصار الوليد بن عبدالملك وليا للعهد .

الوليد بن عبدالملك يمارس نفس اللعبة:

وجاء دور الوليد ؛ فبعد حلوله في منصب الخلافة أراد أن ينقل ولاية العهد إلى ابنه عبدالعزيز . وقد استخدم الوليد المال على نطاق واسع لتحقيق مشروعه فدفع لمشاهير الشعراء ليقوموا بالدعاية لابنه عبدالعزيز ، وكان الشعراء يقومون بدور وسائل الإعلام في الدعاية في ذلك العصر ؛ وقد برز في هذه المهمة الشاعر التميمي المشهور

جرير ، فأخذ يعبر عن رغبة الخليفة الوليد بقوة ودون خجل :

إذا قـــيل أي الناس خـيــر خليــفـــة
أشــارت إلى عــبــدالعــزيز الأصــابع
رأوه أحـــق الـناس كلـهـــم بـهـــا
ومـــا ظلمـــوا إذ بايعـــوه وســـارعـوا

كما قال جرير ضمن أبيات من قصيدة أخرى نجتـزئ منها :

إلى عبدالعزيز سـمت عيون الـرعيـة إذ تحـيـرت الـرعاة

. . .

رأوا عـــبـــدالعـــزيز ولي عـــهــــد
ومـــــا ظلمـــــوا بـذاك ولا أســاؤوا

. . .

فـــزحلفـــهـــا بأزملهـا إلـيـــه
أمـــيـــــر المؤمـنـين إذا تـشـــاء
فـــإن الـنـاس قـــد مـــدوا إليـــه
أكـــفـهـم وقـــد بـرح الخـــفـــاء
ولـو قـــد بـايعـــوك ولـي عـــهــد
لـقـــام الـوزن واعـــتـــدل البـنـــاء (١)

وقد لقي الوليد تأييدا وتشجيعا من أقوى رجلين في الدولة : الحجاج بن يوسف الثقفي ، وقتيبة بن مسلم الباهلي ، حيث أعلنا مبايعتهما لعبدالعزيز . ويبدو أنهما فعلا ذلك دون ترو أو تفكير في العواقب ، وكان كل ما فكرا فيه إظهار وتأكيد الولاء للخليفة ليحصل كل منهما على مزيد من المكانة لديه ، وليتأهل بذلك لسلطة أكبر ، ومنافع أكثر عندما تسنح له الفرصة . وقد مات الحجاج سة ٩٥ للهجرة قبل أن تظهر نتيجة تصرفه النفاقي ، ثم مات الوليد بن عبدالملك نفسه بعده بقليل ، سنة ٩٦ للهجرة .

---

(١) ***ديوان جرير*** ، شرح الدكتور يوسف عيد (بيروت : دار الجيل ، الطبعة الأولى ، د .ت .) ، ص ١٥ – ١٧ .

قتيبة وحده في وجه العاصفة:

وهكذا بقي قتيبة بن مسلم وحده ليتلقى الصدمة ويكتوي بنارها بعد أن تولى الخلافة سليمان بن عبدالملك ، الذي كان يعرف دور الحجاج ودور قتيبة في تشجيع الوليد على عزله . وبينما تصرف سليمان بروية وبعد تفكير ، ولم يسارع بالانتقام من قتيبة ، بل أصدر «مرسوما» بتثبيته في ولاية خراسان ، وبعث له برسالة تؤكد ذلك مع نفس الرجل ألذي كان قتيبة قد أوفده إلى سليمان ، فإن قتيبة – من جانبه – قد تصرف بتسرع واندفاع وطيش ، مما يدل على مدى خوفه من النتائج . لقد ألفى نفسه في ورطة حقا ، لكنه لم يحسن التفكير ، ولم يحسن التصرف ، فحصد النتائج المرة . لم ينتظر قتيبة إلى أن يصله رد الخليفة الجديد ، إذ سارع بإعلان «خلعه» ، أي سحب اعترافه بخلافته ، وإعلان انشقاقه عنه ومحاربته له وللدولة الأموية بشكل عام . وعندما وصلته رسالة سليمان بغير ما توقع استشار إخوته ، فقال له أحدهم : إن سليمان لن يثق بك بعد كل ما جرى ؛ وهكذا عقد قتيبة العزم على المضي فيما بدأه .

علام اعتمد قتيبة؟

لقد اعتمد قتيبة على تاريخ طويل في خراسان استمر عشر سنوات منذ عينه الحجاج واليا عليها سنة ٨٦ للهجرة . لقد نجح قتيبة في إخضاع خراسان كلها حتى حدود الصين ، ونجح في إحلال الاسستقرار المستند إلى الخوف واليأس من أية مقاومة بدلا من حالات التمرد المتكررة ، حتى أن بعض شعوب المنطقة هاجروا من بلادهم ملتجئين إلى أطراف الصين . وكان أهل خراسان وما وراء النهر يسمون قتيبة بـ «ملك العرب» . وكان مع قتيبة بخراسان «يومئذ من المقاتلة» سبعة وأربعون ألفا من العرب ، وبجانبهم سبعة آلاف من الموالي ، يتوزع العرب منهم قبليا على النحو التالي :

- من أهل العالية ، من البصرة تسعة آلاف
- من قبيلة بكر بن وائل سبعة آلاف ،
- من قبيلة تميم عشرة آلاف
- من قبيلة عبدالقيس آربعة آلاف ،
- من قبيلة الأزد عشرة آلاف
- من أهل الكوفة سبعة آلاف
- من الموالي سبعة آلاف [1] .

(١) الطبري ، مجلد ٦ ، ص ٥١٢ .

وكان الإقليم واسعا جدا من الناحية الجغرافية ، كما كان غنيا بثرواته الزراعية والحيوانية والتجارية ؛ وكذلك بثروته الصناعية بالنسبة للزمان والمكان . وبناء على كل هذه المعطيات بدا وكأن قتيبة كان واثقا من قدرته على صد أية محاولة أموية لإخضاعه ومعاقبته ، ومن المرجح أنه كان يعتقد أنه سيتمكن ، في وقت لاحق ، من تغيير الأوضاع في قلب الدولة الإسلامية لصالحه وقبيلته وأعوانه . ومن هذا المنطلق خاطب قادة جنده من زعماء القبائل معددا ما اعتبره إحسانا منه لهم ، ثم طالبهم بأن يكونوا معه فيما قرره من خلع الخليفة والانشقاق عن الدولة الأموية .

لم يكن الجند ولا قادتهم متيمين في حب بني أمية ، فهم من أبناء القبائل التي سكنت الكوفة والبصرة ، حيث كانت المدينتان من أشد المعارضين للمساعي الأموية للسيطرة على دولة الخلافة ، كما كانوا من أنصار الخليفة الرابع ، علي بن أبي طالب رضي الله عنه . ولقد تعرض أهل الكوفة والبصرة إلى العقاب الجماعي ، والاضطهاد المسرف من قبل الحكام الأمويين وولاتهم ؛ وكل هذا الظلم والاضطهاد كان يمنع هذه القبائل وأبناءها من الشعور بأي ولاء حقيقي للأمويين ؛ هذا من حيث المبدأ والأساس ؛ لكنهم عرفوا أن ما دعاهم قتيبة إليه من العصيان والانشقاق انبنى على خطأ شخصي ارتكبه هو تزلفا إلى الخليفة الأموي السابق الوليد بن عبدالملك ، ضد أخيه سليمان بن عبدالملك ولي العهد ، تزلفا وانسياقا مع تصرف الحجاج الذي لاقى الكوفيون والبصريون مر الإضطهاد وأشد الأهوال على يديه ، طوال فترة حكمة التي استمرت أكثر من عشرين سنة . وفضلا عن ذلك فقد أدركوا أن هذا الانشقاق الذي دعاهم إليه قتيبة لا يعدو أن يكون مغامرة محكومة بالفشل ، مع ما يتبع الفشل من انتقام هائل يطال كل المشاركين . لذلك لم يردوا عليه ، وبقوا صامتين دلالة على عدم الموافقة وعدم الطاعة . وهنا فقد قتيبة زمام السيطرة على مشاعره وعلى لسانه ، فانزلق يشتمهم شتما قبيحا :

«لا أعز الله من نصرتم! والله لو اجتمعتم على عنز لما كسرتم قرنها . يا أهل السافلة – ولا أقول أهل العالية – يا أوباش الصدقة ، جمعتكم كما تجمع إبل الصدقة من كل أوب . يا معشر بكر بن وائل ، يا أهل النفخ والكذب والبخل ، بأي يوميكم تفخرون؟ بيوم حربكم ، أو بيوم سلمكم! فوالله لأنا أعز منكم ، يا أصحاب مسيلمة . يا بني ذميم – ولا أقول تميم – يا أهل الخور والقصف والغدر ، كنتم تسمون الغدر في الجاهلية كيسان . يا أصحاب سجاح . يا معشر عبدالقيس القساة ،

تبدلتم بأبر النخل أعنة الخيل . يا معشر الأزد ، تبدلتم بقلوس السفن [حبال السفن] أعنة الخيل! والأعراب ، وما الأعراب! لعنة الله على الأعراب! يا كناسة المصرين [المدينتين ، البصرة والكوفة] . . . «وبعد أن أنهى خطابه الغاضب ، الذي اكتفينا بعرض جزء منه ، تركهم ودخل منزله .» فأتاه أهل بيته فقالوا : ما رأينا كاليوم قط ؛ والله ما اقتصرت على أهل العالية ، وهم شعارك ودثارك ، حتى تناولت بكرا ، وهم أنصارك ، ثم لم ترض بذلك حتى تناولت تميما وهم إخوتك ، ولم ترض بذلك حتى تناولت الأزد وهم يدك . فقال : لما تكلمت فلم يجبني أحد غضبت ، فلم أدر ما قلت[1] .

وهكذا أغضب جميع القبائل ، فقرروا الوقوف في وجهه ، وخلعه هو بدلا من خلع سليمان بن عبدالملك ؛ وذلك يعني الحرب . وقد قتل قتيبة بعد ذلك مباشرة ، ولم يسانده سوى أخوته وأبنائه وأقاربه ؛ وقد قتل معه إخوته العشرة وبعض أبنائه وأبناء عمومته .

سليمان بن عبدالملك يسعى لجعل ابنه وليا للعهد:

وفي نفس المسار تاقت نفس سليمان بن عبدالملك إلى أن يحول ولاية العهد إلى ابنه أيوب ، على حساب أخيه يزيد ، حيث أراد أن يحمله على التنازل لصالح أيوب . بيد أن أيوب مات قبل أن تتحقق أمنيته وأمنية والده ، وأصيب سليمان مع الحزن بخيبة أمل ؛ ويبدو أن مشاعر خيبة الأمل هذه حركت ضميره ، فقرر في آخر أيامه تحويل الخلافة إلى ابن عمه **عمر بن عبد العزيز** ، وأعد الترتيبات المناسبة لذلك عبر وصيته ، كما ضمن الوصية أن يتولى الخلافة بعد عمر بن عبدالعزيز يزيد بن عبدالملك ؛ وتم ذلك[2] .

وبعد يزيد انتقلت الخلافة إلى أخيه هشام بن عبدالملك ، كما مر معنا ، وقد كان هشام من أطول خلفاء بني أمية حكما ، ومن أفضلهم ممارسة ، خلا عمر بن عبدالعزيز . كما كان هشام الخليفة الأموي الوحيد الذي تردد ثم تعفف عن محاولة نقل الولاية إلى ابنه ، على الرغم من أن ولي العهد الوليد بن يزيد بن عبدالملك كان

(١) ***المصدر نفسه*** ، ص ٥١٠ - ٥١١ ؛ الجاحظ ، ***البيان والتبيين*** ، مجلد ٢ ، ص ١٣٢ - ١٣٣ .

(٢) الطبري ، مجلد ٥ ، ص ٥٣١ - ٥٣٢ .

فاسدا سئ السمعة ، مما كان يسهل على هشام عزله . وتوفي هشام سنة ١٢٥هـ ، وسقطت الخلافة في حجر الوليد بن يزيد ، أكثر خلفاء بني أمية فسادا وفجورا . بيد أن هذا الوليد كان قد وصل إلى الخلافة عند أفول شمس بني أمية ، فلم يمض أشهرا حتى تجمعت عوامل الثورة ضده وبايع الثائرون ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبدالملك ، وتتابع الصراع الحربي بين أبناء الأسرة كما أوضحنا باختصار في غير هذا المكان .

الأمويون والمال العام: عهد معاوية وابنه يزيد:

١) فقبيل معركة صفين كاتب معاوية الإمبراطور البيزنطي قنسطنطين ابن بوغوناتس يطلب عقد هدنة بين الطرفين . وعلى أثر ذلك أرسل الأمبراطور مبعوثا استقبله معاوية في دمشق بحفاوة بالغة ، وتم الاتفاق على عقد معاهدة سلام يقدم معاوية بموجبها إتاوة سنوية مقدارها ثلاثة آلاف قطعة ذهبية ، ويطلق سراح ثمانمئة أسير ممن كان لديه ، وأن يقدم خمسين حصانا عربيا منسوبا [١] . ؛ ومن الجانب البيزنطي ورد ذكر الحادثة بتفصيل أكبر في كتاب ألفه الإمبراطور البيزنطي قنسطنطين السابع (ص ٨٥-٧) ، وقد ذكر قنسطنطين أنه نقل معلوماته من حوليات القديس ثيوفانس [٢](ت ٨١٨ م) .

٢) عندما بدأ صراع معاوية بن أبي سفيان ضد خلافة علي بن أبي طالب وجه اهتمامه لاستقطاب الشخصيات القوية إلى جانبه ؛ وعلى الرغم من أن عمرو بن العاص كان ناقما على أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه ، وكان يحرض ضده ، فإن معاوية دعاه إلى مناصرته ، ووعده أن يجعل له ولاية مصر وكل دخلها طوال حياته . وقد أشرنا إلى هذا في موضع آخر [٣] .

٣) كما أن معاوية استهدف والي مصر من جهة الخليفة علي بن أبي طالب ، أي قيس بن سعد بن عبادة ، ودعاه إلى الانضمام إليه ووعده بأن يعينه واليا على العراق ، ويعين من أراد من أقربائه واليا على الحجاز وقد ذكرت ذلك فيما سبق [٤] .

---

(١) البلاذري ، ***فتوح البلدان*** ، ص ١٦٤-١٦٥ ؛ الطبري ، مجلد ٦ ، ص ١٥٠ .

(2) Constantine Porphyrogenitus , ***De Administrando Imperio***, pp 85 - 87.

(٣) أنظر ص ٦٩ فيما سبق .

(٤) أنظر ص ٦٨-٦٩ فيما سبق .

٤) وأثناء حرب صفين حاول معاوية أن يغري اثنين من القادة البارزين في جيش علي ، ففشل مع أحدهما ونجحت محاولته مع الآخر (١) .
٥) وبعد أن خضع العراق لمعاوية أراد أن يولي على البصرة أخاه عتبة بن أبي سفيان ، فقال له عبدالله بن عامر إن لي بالبصرة أموالا فإن تولاها غيري ضاعت ، فولاه عليها . وبعد سنة طلب منه أن يتخلى عن ولاية البصرة ، فاشترط عليه عبدالله بن عامر أن لا يحاسب أحدا من عماله ، أي ولاة الأقاليم والنواحي التي كانت تابعة للبصرة ، وهم الموكلون بالأموال وغير ذلك .
٦) في سنة ٤١هـ قبل الحسن بن علي أن يتنازل عن الخلافة ، ويعترف بخلافة معاوية بن أبي سفيان مشترطا عددا من الشروط ، بعضها يتعلق بالمال . وقد نفذ له معاوية الشروط فأعطاه ما كان في بيت مال الكوفة ، وقد بلغ خمسة آلاف ألف ، وقيل سبعة آلاف ألف ، أي سبعة ملايين . وكان من الشروط أن يكون له أيضا خراج إقليم (دارا بجرد) . وقد رفض أصحاب الحق في الخراج أن يتنازلوا عنه ، فعوض معاوية الحسن عن ذلك بمبلغ ستة آلاف ألف درهم في كل عام . فلم يزل يتناولها ، مع ما كان له في كل زيارة من الجوائز والتحف والهدايا ، إلى أن توفي في هذا العام (٢) (أي سنة ٤٩ هـ) .
٧) وفد الحسن والحسين على معاوية فأجازهما على الفور بمئتي ألف (٣) .
٨) وفي سنة ٥٠ هـ « وفد الأحنف بن قيس وجارية بن قدامة . . . والجون بن قتادة العبشمي ، والحتات بن يزيد [وهو من شيوخ تميم] . . . إلى معاوية بن أبي سفيان ، فأعطى كل رجل منهم مائة ألف ، [ما عدا الحتات بن يزيد ، فقد أعطاه]سبعين ألفا . فلما كانوا في الطريق سأل بعضهم بعضا عن جوائزهم . . . [فغضب الحتات عندما عرف أن جائزته أقل ، وعاد إلى معاوية فقال له] : فضحتني في بني تميم! أما حسبي بصحيح! . . . أولست مطاعا في عشيرتي! فقال معاوية : بلى ؛ قال : فما بالك خسست بي دون القوم؟ فقال : إني اشتريت

---

(١) أنظر ص ٦٨ فيما سبق .

(٢) أبن كثير ، ***البداية*** ، ج ٨ ، ص ١٩٣ (أحداث سنة ٤٩ وضمنها ترجمة الحسن بن علي رضي الله عنهما) .

(٣) ***المصدر نفسه*** ، والصفحة ذاتها .

من القـوم دينهم ، ووكلتك إلى دينك ورأيك في عـثـمـان بن عـفـان – وكـان عثمانيا . فقال [الحتات] : وأنا فاشـتـر مني دينـي . فأمر له بتمام جـائزة القوم .»
ويبـدو أن الحتات انزلق لسـانه بتعليق أغضب معاوية فحبس المبلغ عنـه ومنع دفعه إليه . وقد غضب من جراء ذلك الشاعر التميمي المشهور الفرزدق (همام بن غالب) ، فهجا معاوية بقصيدة من سبعة عشر بيتا ، أولهـا :

أبـوك وعـمـي يا معـاوي أورثـا
تراثـا فـيـحـتـاز التـراث أقـاربه

[. . . وآخر بيت فيها] :

طويل نجـاد السـيف مـذ كـان لم يكن
قـصي وعـبـدالشـمس ممن يخـاطبـه(١)

٩) غضب معـاوية على ابنه يزيد وهجره ، فأقنعه الأحنف بن قيس بخطأ ذلك ، ونصحه بتغيير أسلوبه مع ابنه ، فسر معاوية من الأحنف . . . ثم نادى : « يا غلام ، إئت يزيد فأقرئه مني السلام ، وقل له : إن أمير المؤمنين قد أمر لك بمئة ألف درهم ، ومئـة ثوب . فسأل يزيد الغلام من عند أمير المؤمنين؟ فأجـابه : الأحنف . فقال يزيد : لا جرم لأقاسمنه ؛ فبعث إلى الأحنف بخمسين ألفا وخمسين ثوبا (٢) .

١٠) وقال ابن أبي الدنيا : أرسل الحسن بن علي وعبدالله بن جعفر إلى معاوية يسألانه المال ، فأرسل إليهما ، أو إلى كل منهما بمئـة ألف .

١١) وفد الحسن وعبدالله بن الزبير على معاوية فأعطى الحسن ثلاثمئة ألف وابن الزبير مـئـة ألف .

١٢) وعـزى معـاوية ابن عبـاس في الحسن بقوله : لا يسؤك الله ولا يحـزنك في الحسن بن علي ، فقال ابن عباس : لا يحزنني الله ولا يسوؤني ما أبقى أمـير

---

(١) الطبري ، مجلد ٣ ، ص ٢١١ – ٢١٢ – ط بيروت /أخبار سنة ٥٠ هـ ؛ همام بن غالب (الفرزدق) ، ديوان الفرزدق ، تح . الدكتور عمر فاروق الطباع ، (بيروت : شركة دار الأرقم ، ١٤١٨/١٩٩٧) ، ص ٦٨–٦٩ . وهناك اختلاف يبسر في ألفاظ البيت الأخير دون تغيير للمعنى .

(٢) *المصدر نفسه* ، ١٩٤ .

المؤمنين . فأعطاه ألف ألف درهم ، وعروضا وأشياء ، وقال : خذها واقسمها في أهلك(١) .

١٣) مضت السنة أن لا يرث الكافر المسلم ولا المسلم الكافر . وأول من ورث المسلم من الكافر معاوية ؛ وقضى ذلك بنو أمية بعده ، حتى كان عمر بن عبدالعزيز فراجع السنة . وأعاد هشام ابن عبدالملك ما قضى به معاوية وبنو أمية من بعده . ومضت السنة أن دية المعاهد كدية المسلم ، وكان معاوية أول من قصرها إلى النصف ، وأخذ النصف لنفسه (٢) .

١٤) وعندما أراد معاوية أن يبايع ليزيد بعث إلى عبدالله بن عمر بمئة ألف درهم فما حال عليه الحول وعنده منها شئ . وكان يقول : إني لا أسأل أحدا شيئا ، وما رزقني الله فلا أرده . وكان في مدة الفتنة لا يأتي أمير إلا صلى خلفه وأدى إليه زكاة ماله (٣) .

١٥) قبل موت معاوية أوصى ابنه يزيد بعبدالله بن جعفر [ابن أبي طالب] ؛ ومات معاوية وتولى ابنه الخلافة من بعده ، فوفد عليه عبدالله بن جعفر ، فأعطاه يزيد ألف ألف [درهم] . فقال [عبدالله بن جعفر] له : بأبي أنت وأمي ؛ فأعطاه ألف ألف أخرى . فقال له ابن جعفر : والله لا أجمع أبوي لأحد بعدك . ولما خرج ابن جعفر من عند يزيد . . . رأى على [باب] الديوان بخاتي (جمال بسنامين) مبركات . . . فرجع إلى يزيد فسأله منها ثلاثا ليركب عليها إلى الحج والعمرة ، وإذا وفد إلى الشام لزيارته . فسأل يزيد عن تلك الجمال ، فأخبره الحاجب بأنها أربعمئة بختية أرسلت من خراسان تحمل هدايا إلى الخليفة . فقال يزيد : إصرفها لأبي جعفر بما عليها . فكان عبدالله بن جعفر [بعد ذلك] يقول : أتلومنني على حسن الرأي في هذا! يعني يزيد (٤) .

وكانت أعطيات معاوية لعبدالله بن جعفر مستمرة ، كما كان الحال مع عمرو بن الزبير في عهد يزيد . وكان غرض معاوية من ذلك صرف عبدالله بن جعفر عن

---

(١) *المصدر نفسه* ، ج ٨ ، ص ١٢٠ .

(٢) *المصدر نفسه* ، ص ١٢١ .

(٣) *المصدر نفسه* ، ج ٩ ، ص٥ .

(٤) *المصدر نفسه* ، ج ٨ ، ص ٥٤-٥٥ .

التعاون مع عمه علي وأبنائه وجعله عدوا لهم ؛ وصرف عمرو الزبير عن أخيه عبدالله . والموقف في الحالتين يسئ إلى علي كما يسئ إلى عبدالله بن الزبير .

١٦) ونضيف هنا مثلا من تصرفات أحد الولاة ، بل هو أهم الولاة الأمويين في عهد معاوية ، ونعني به زياد بن أبيه ، أو زياد بن أبي سفيان . لما ولي زياد الكوفة سأل عن أعبد رجل فيها ، فدل على أبي المغيرة الحميري . فجاء به فقال له :

إلزم بيتك ولا تخرج منه وأنا أعطيك من المال ما شئت . فقال : لو أعطيتني ملك الأرض ما تركت خروجي لصلاة الجماعة . فقال : إلزم الجماعة ولا تتكلم بشئ . فقال : لا أستطيع ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فأمر به فضربت عنقه .

وهذا المثال يعطينا فكرة عن بعض الأساليب المنحرفة لتصرف رجال معاوية بالمال العام لتكميم الأفواه ، ولمنع أي نقد للإنحرافات المناقضة لتوجيهات القرآن الكريم ؛ وهو وغيره مما ذكرنا ولم نذكر ، ربما يلقي بعض الضوء الذي يكشف لنا أهداف الحملة على أبي ذر بصفة خاصة ، وما أثير حوله لتشويه سمعته .

١٧) ونضيف هنا مثلا آخر عن تصرفات الولاة من الأمويين وبني عمومتهم العبشميين :

فعندما أعلن معاوية – والي الشام – تمرده على الخليفة علي بن أبي طالب على أثر توليه الخلافة ، فر والي البصرة عبدالله بن عامر بن كريز العبشمي حاملا معه ما في بيت مال البصرة من الأموال ، وأمد بها طلحة والزبير ومن معهما لمواجهة الخليفة ، وكذلك فعل والي اليمن يعلى بن أمية ، حيث هرب حاملا معه ما في بيت المال ، وقدمها ليتجهز بها المعارضون لأمير المؤمنين علي (١) .

١٨) ثم نقدم مثلا عن الوساطة لدى السلطة العليا لشراء المناصب لقاء عمولة :

فهذا ابن كثير يخبرنا أن أحد الزعماء المحليين في سجستان ، وقد عرفه بلقبه الدال على مكانته الاجتماعية (الإصبهبذ / الدهقان) ، فروى أنه جاء إلى دمشق ليطلب من الخليفة معاوية بن أبي سفيان أن يعينه ملكا على الناحية التي جاء منها ، وجعل يبحث عمن يتوسط له لقاء ألف ألف درهم . وظل يسأل الشخصيات البارزة وكلهم أحالوه على عبدالله بن جعفر [إبن أبي طالب]

---

(١) *المصدر نفسه* ، ج ٧ ، ص ١٨٨

فتوسط له ، وقبل معاوية وساطة ابن جعفر ووقع القرار ، فحمله عبدالله بن جعفر وخرج والدهقان ينتظره فسلمه إياه ، فسجد له ، وقدم له المبلغ الذي كان أعلنه ، فرفض ابن جعفر ، وقال له : أسجد لله ، وخذ مالك ، فإنا أهل بيت لا نبيع المعروف [١] . ودلالة هذا المثل ، أن مثل هذه التصرف كان شائعا ؛ وعلى أساس هذه المعرفة جاء الإصبهبذ/الدهقان يبحث عمن يحقق له غرضه لقاء عمولة ، بغض النظر عما إذا كان من قدم له الخدمة قد رفض المال . فهذا المثل دلالته ليست محصورة في ذاته ، بل بكونه مثالا معروفا ومتبعا في الممارسات العامة ؛ وثمة مثل آخر : عندما استعان يزيد بن المهلب بمن يتوسط لدى الخليفة سليمان بن عبدالملك كي يبعد عنه ولاية العراق [٢] .

١٩) وبعد أن تولى يزيد بن معاوية سنة ٦٤هـ رتب والي المدينة الأموي إرسال وفد من أهلها إلى الخليفة الجديد ، معتبرا – على ما يبدو – أن ذلك يمثل نوعا من الاعتراف الشعبي والترحيب والتهنئة . وقد ضم الوفد عددا من الصحابة وأبناء الصحابة ، كان من بينهم عبدالله بن حنظلة الغسيل الأنصاري ، ومعه أبناؤه الثمانية ؛ والمنذر بن الزبير ، وكثير من أشراف المدينة . فلما وفدوا على يزيد أكرمهم . . . وعظم جوائزهم . وكمثل عن مقدار الجوائز ذكر ابن كثير أن عبدالله بن حنظلة الغسيل تلقى مئة ألف درهم ، بينما تلقى كل واحد من أبنائه الثمانية عشرة آلاف درهم . ولما رجع إلى المدينة سئل عن يزيد فقال : جئتكم من عند رجل والله لو لم أجد إلا بني هؤلاء لجاهدته بهم . قالوا : قد بلغنا أنه أعطاك . . . قال : ما قبلت منه إلا لأتقوى به على قتاله . . . [٣]» ، أي أنه قبل منه المال ليستخدمه في محاربته .

٢٠) **الأموال التي كانت توزع على أنصار معاوية والحكام من بعده :**

وهذه الممارسات المالية ، والكثير مما يشبهها مما لم نذكره ، ربما تساوي نصف الحقيقة ، بل إنها قد تساوي ربع الحقيقة فقط . فالنماذج التي سقناها سجلت حالات من إعطاء المال للخصوم المعلنين والمحتملين ، وللشخصيات التي أراد

---

(١) ***المصدر نفسه*** ، ج ٨ ، ص ١١٩–١٢٠ .

(٢) أنظر ص ١٥٦–١٥٧ من هذا الكتاب .

(٣) ***المصدر نفسه*** ، ج ٨ ، ص ١٨٨ – ١٨٩ .

معاوية وخلفاء بني أمية من بعده ، أن يسكتوا معارضتها ، أو أن يكسبوا – عن طريق إرضائها – رضا عامة المسلمين . ولكن ماذا عن أنصار الأمويين الذين تعصبوا لهم منذ البداية ، وحملوا السيوف وقاتلوا في سبيل إقامة الملك الأموي وتثبيته ، على حساب الشرعية الإسلامية؟ لا مراء في أن ما أعطي لهؤلاء ، خاصة زعماء القبائل ، يفوق أضعاف ما ذكرته المصادر مما أعطي لاستمالة الخصوم . ذلك أن ما كان يوزع على الأنصار لم يكن يتم في العلن ، بل كان يتم سرا في أكثر الأحيان ، والسرية في مثل هذه الحالات لها أسباب مفهومة لا نحتاج إلى شرحها . ولم يكن توزيع المال العام على الأنصار منحصرا في تصرفات الخلفاء ، بل إن من دونهم من الولاة الأمويين تصرفوا بنفس الكيفية ، سواء في ذلك عبدالله بن عامر ، وسعيد بن العاص ، وعبدالله بن سعد بن أبي سرح ، وزياد بن أبيه ، وعبيدالله بن زياد ، والحجاج بن يوسف الثقفي ، وغيرهم .

وهذا يذكرنا بالصرخة المبكرة التي دوى بها صوت أبي ذر – رضي الله عنه – عندما انتقد تصرف معاوية بالمال العام ، وعمد جهاز الدعاية الأموي إلى تشويه سمعة هذا الصحابي الجليل ، وظل هذا ملتصقا باسمه وشخصيته عبر القرون ، وتبناه بعض أشباه الفقهاء من المغفلين ، فوصل إلى العصر الحديث حتى انخدع به بعض المثقفين والكتاب لدرجة أنهم اعتبروا أبا ذر اشتراكيا ، ورائد الاشتراكية في الإسلام!!

ونكتفي الآن بهذه الأمثلة ، إذ لا يتسع المجال لحشد المزيد منها . وهنا يجمل بنا أن نذكر بمواقف كل من أبي بكر وعمر من المال العام ليتبين القارئ مدى الفرق الهائل بين ما كان عليه تصرف الخليفتين الأول والثاني .

أولا : أبو بكر رضي الله عنه : أراد أن يواصل عمله التجاري ليكسب قوته وقوت عياله بعد أن صار خليفة ، لولا أن الصحابة ردوه عن ذلك ، وقرروا له راتبا بسيطا محدودا ليتسنى له التفرغ لمهام مسئوليته العامة بعد أن ولي الخلافة[1] .

وكان مقدار ما خصص له في غاية الضآلة والبساطة ، مع أنه كان من التجار الأغنياء قبل الإسلام ، وبعد أن أسلم ، وإلى أن تولى الخلافة .

ثانيا : أما عمر بن الخطاب رضي الله عنه فسئل عن ثوبه الطويل من أين أتى بقماشه ، وكان

---

(١) الطبري ، مجلد ٢ ، ص ٣٥٤ .

افراد من المسلمين يوجهون له النقد شخصيا ، في المسجد ، على مرأى من المسلمين جميعا [١] . وقد صادر عمر نصف أموال أبي هريرة وأنبه ، وصادر جزءا من مال خالد بن الوليد ، وعزله عن الولاية والقيادة .

ثالثا : حديث رسول الله ﷺ عن «الغلول» والتصرف بمال الغنائم من قبل أي شخص من المشاركين في القتال ، وتحريم ذلك أشد الحرمة .

التصرف بالأموال العامة في عهد الأمويين المروانيين:

١) كان عبدالعزيز بن مروان واليا على مصر ، وتتبع ولايته بلاد المغرب كلها ، وكان في الوقت نفسه وليا للعهد وينتظر دوره للصعود إلى منصب الخلافة بعد وفاة أخيه عبدالملك . وفي منصبه هذا كان كل دخل مصر وبلاد المغرب له شخصيا ، يتصرف به كيف يشاء ، ولا يرسل أي خراج أو أموال إلى بيت المال في دمشق . فلما تخلص عبدالملك من الأعداء واستقر له الحكم أراد أن يحول ولاية العهد لابنه الوليد بدلا من أخيه عبدالعزيز ، فخاطبه في ذلك فرفض بشدة . وهنا لجأ عبدالملك إلى الضغط المالي ، وطالبه بأن يرفع إليه خراج ولايته وما يتبعها ، لكن ذلك لم يزحزح عبدالعزيز عن موقفه ، وإن كان قد لجأ إلى اللين واستثارة معاني الأخوة والقرابة . فلما عجز عبدالملك دعا عليه وقال في دعائه : «اللهم إنه قد قطعني فاقطعه ، فمات في هذه السنة . . . [٢]» ولسنا ندري إن كان موته بسبب الدعاء أو بأي من الوسائل الخفية . والذي نريد إبرازه من تكرار هذه القصة هنا هو أن ولي العهد ، أخو الخليفة ، يتصرف بدخل واحدة من أكبر الولايات وأغناها ، ودخل توابعها من الولايات الأصغر ، ولا يورد لبيت المال العام ، أو الخزينة المركزية باصطلاحنا الحديث ، أي جزء من الموارد الواسعة ، وأن هذا الوضع كان مقبولا بين الخليفة وأخيه ، ولم يكن موضع اعتراض أحد ، ولم يكن هناك أبو ذر . لكن تغير المواقف حدث عندما أراد عبدالملك أن يحول ولاية العهد إلى ابنه الوليد وينتزعها من أخيه عبدالعزيز .

---

(١) محمد بن سعد ، ***الطبقات الكبرى*** ، مجلد ٣ ، ص ٢٩٣ .

(٢) إبن كثير ، ***البداية*** ، ج ٩ ، ص ٥٠ .

٢) في سنة ٧٢هـ حاول عبدالملك بن مروان أن يستميل والي خراسان ، عبدالله بن خازم السلمي ، وكان تابعا لخلافة ابن الزبير ، فكتب إليه رسالة حملها مبعوث خاص وعرض عليه أن يطعمه خراسان سبع سنوات إذا هو بايعه أي أن الثمن كان ولاية خراسان ، منصب الوالي ، وجميع ما يتحصل في الولاية من أموال الجزية والخراج والزكاة وغنائم الحرب وغير ذلك . لكن ابن خازم رفض ، وأجبر حامل الرسالة على أن يأكلها . فتحول عبدالملك إلى نائب ابن خازم في الولاية واسمه بكير بن وشاح ، فعرض عليه إغراءات كثيرة وحثه على محاربة ابن خازم ، وبعث له بكتاب الولاية ، فاستجاب للإغراء ، فنشبت الحرب بين الطرفين ، ودخلت فيها القبائل والثارات فهزم ابن خازم وتم قتله [(١)] . وموضوعنا في هذه النقطة ، مثل سابقتها ، هو استخدام المال العام للمصالح الشخصية والقبلية والعشائرية .

٣) كتب عبدالملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف ، واليه على العراق والمشرق : إنك تنفق في اليوم ما لا ينفقه أمير المؤمنين في الأسبوع ، وتنفق في الأسبوع ما لا ينفقه أمير المؤمنين في الشهر .» ورد الحجاج بما خلاصته : أن الناس يعادونه لما يفرضه عليهم من الطاعة والخضوع لأمير المؤمنين ، وأنه يستخدم المال لشراء الولاء ولضم المقاتلين الأشداء إلى قواته :

«فلو لم يذد عني صناديد منهم
[تقاسم] أعضائي ذئاب وأضبع[(٢)] .»

ومعنى ذلك أن الولاة الأقوياء كانوا يقتطعون ما شاءوا من دخل الولايات التي كانوا يتحكمون فيها . وجرأتهم على هذه التصرفات كانت مرتبطة بحاجة الخليفة إليهم لإقرار حكمه .

٤) وقد كان بشر بن مروان – أخو الخليفة – واليا على العراق قبل الحجاج ، فلما توفي أحل عبدالملك الحجاج مكانه في الولاية . وليس لدينا الكثير عن تصرفات بشر المالية سوى إشارة مقتضبة تخبرنا أنه « . . . كان يجيز على الشعر

(١) الطبري ، مجلد ٦ ، ص ١٧٦ – ١٧٧ ؛ ابن كثير ، ***البداية*** ، ج ٨ ، ص ٢٧٥ .

(٢) إبن كثير ، ***البداية*** ، ج ٩ ، ص ١٠١ – ١٠٧ .

بألوف[1] .» والمرجح أنه كان يتصرف في أموال الولاية بحرية كاملة ، ولا يعبأ بفكرة «المال العام ، أو حق بيت المال ، أو حق الأمة « ، وذلك على ضوء ما مر معنا في الأمثلة السابقة .

٥) عبدالله بن أبي بكرة ، وهو أمير الجيش الذي دخل بلاد الترك ، سأله الحجاج عما أنفق فأجابه : أربعين ألف ألف (٤٠ مليون) .

٦) وفي سنة ٧٨هـ ألزم الحجاج المهلب بن أبي صفرة بألف ألف درهم [٢] .

٧) اشتكى رجل من أهل خراسان إلى الخليفة عمر بن عبدالعزيز ، وكان مما تضمنته الشكوى : «يا أمير المؤمنين ، عشرون ألفا من الموالي يغزون بلا عطاء ولا رزق ، ومثلهم قد أسلموا من أهل الذمة يؤخذون بالخراج [أي يفرض عليهم الخراج والجزية كما كانوا قبل إسلامهم] . وقد وصف الوالي بأنه كان : «سيف من سيوف الحجاج ، قد عمل بالظلم والعدوان .» وعلى أثر ذلك كتب عمر بن عبدالعزيز أمرا إلى والي خراسان : «أنظر من صلى قبلك إلى القبلة ، فضع عنه الجزية . فسارع الناس إلى الإسلام .» ويبدو أن الوالي لم يسر بهذه الحركة فكتب إلى عمر يقترح أن يمتحن صحة الرغبة في الإسلام بفرض الختان على من أسلم ، فكتب إليه عمر : «**إن الله بعث محمدا ﷺ داعيا ولم يبعثه خاتنا** . [٣]» وهذا كلام استشهدنا به في صفحة سابقة ، ولكن ضمن موضوع آخر .

٨) وفي تلك الظروف التي شهدت تجاوزات مالية لا حدود لها على أيدي الخلفاء من بني أمية والطغاة من ولاتهم ، امتد السعار المالي إلى الولاة في الأماكن البعيدة . فبعد وفاة عمر بن عبدالعزيز بتسع سنوات نقرأ أن والي خراسان ، أشرس بن عبدالله السلمي ، دعا أهل الذمة في سمرقند وما وراء النهر إلى الدخول في الإسلام ، واعدا إياهم بأن يرفع عنهم الجزية ، فاستجابت أغلبيتهم واعتنقوا الإسلام . بيد أن الوالي لم يلبث إلا قليلا حتى عاد يطلب منهم الجزية

---

(١) ***المصدر نفسه*** ، ج ٩ ، ص ٦ – ٧ .

(٢) الطبري ، مجلد ٦ ، ص ٣٢٠ – ٣٢١ ؛ إبن كثير ، ***البداية*** ، ج ٩ ، ص ١٩ .

(٣) الطبري ، مجلد ٦ ، ص ٥٥٩ .

فثاوروا ونشبت الحرب بين الجانبين[١] .

٩) يوسف بن عمر ، والي العراق ، وفد على الخليفة الأموي الجديد الوليد بن يزيد ، وسأله أن يرد إليه ولاية خراسان ، بحيث يصبح واليها نصر بن سيار تابعا له ، فأجابه . وعلى أثر ذلك كتب يوسف إلى والي خراسان - نصر بن سيار - يستوفده إلى أمير المؤمنين بأهله وعياله ، وأن يكثر من استصحاب الهدايا والتحف . فحمل نصر بن سيار ألف مملوك على الخيل ، وألف وصيفة [فتاة جميلة] ، وشيئا كثيرا من أباريق الفضة والذهب ، وغير ذلك من التحف . وكتب إليه الوليد يستحثه سريعا ، ويطلب منه أن يحمل معه طنابير وبرابط ومغنيات وبازات وبراذين فره ، وغير ذلك من آلات الطرب والفسق ، فكره الناس ذلك . . . [٢]» . وقد ذكر ابن كثير أن الوليد بن يزيد قتل سنة ١٢٦هـ «ووقعت بسبب ذلك فتنة عظيمة بين الناس . . . ومع ذلك إنما قتل لفسقه ، وقيل لزندقته [٣] .» وكان الوليد يهدد المغضوب عليهم بالتحويل إلى يوسف بن عمر ، والي العراق ؛ ومن ضحايا ذلك خالد بن عبدالله القسري ، حوله الوليد إلى يوسف بن عمر فعذبه حتى قتله . وقد قيل إن يوسف وفد إلى الوليد فاشترى منه [أي من الخليفة] خالد بن عبدالله القسري بخمسين ألف ألف (أي خمسين مليون) يخلصها منه ، فما زال يعاقبه ويستخلص منه حتى قتله [٤] .»

الغزو والفتح والجهاد في عهد بني أمية:

عندما بدأ المسلمون تحركاتهم في مجال الغزو والجهاد منذ الهجرة سنة ١ هـ/٦٢٢م كان غزوهم وجهادهم ضد عدو اضطهدهم ، وطردهم من بلدهم مكة ، وظل يلاحقهم بالحرب إلى أن فتحت مكة سنة ثمان للهجرة . وبعد ذلك الفتح تم إخضاع القبائل العربية خارج المدينة ومكة ، في مختلف أنحاء شبه الجزيرة العربية ، حيث تواصل انضمام تلك القبائل إلى الدولة الإسلامية الناشئة منذ العام التاسع

---

(١) إبن كثير ، ***البداية*** ، ج ٩ ، ص ٣١٢ ؛ الطبري ، مجلد ٧ ، ص ٥٤ - ٦٦ .

(٢) إبن كثير ، ***البداية*** ، ج ١٠ ، ص ٣ - ٤ .

(٣) ***المصدر نفسه*** ، ص ٦ .

(٤) ***المصدر نفسه*** ، ص ٧ .

للهجرة الذي عرف باسم «عام الوفود» ، أي وفود القبائل إلى رسول الله ﷺ لتعلن انضمامها إلى دولة الإسلام واعترافها بسلطتها . وكان إخضاع القبائل عملية ضرورية لإيقاف عمليات الغزو التقليدية المتكررة بين القبائل ، ليس بدافع حب السيطرة والغلب فحسب ، ولكن لقلة وندرة الموارد الطبيعية في جزيرة العرب ، والرغبة في الاستئثار بالأشياء ذات القيمة من جمال وأغنام وقماش ومال ، بل وبشر ، حيث كان الأسرى يسترقون ويباعون فينتج عن بيعهم بعض المال . ومن خلال حركة إخضاع القبائل هذه حدث أول تماس وصدام مع الإمبراطوريتين الساسانية والبيزنطية ، حيث كانت كل منهما تسيطر على منا طق في أطراف جزيرة العرب سيطرة مباشرة ، ثم تمتد هذه السيطرة على شكل نفوذ واستتباع وتحالف مع قبائل في أعماق الجزيرة أبعد مدى من السيطرة المباشرة . وقد اتسع نطاقا المناوشات ثم الصدامات في مناطق التماس بحيث تحول إلى حروب شاملة خلعت الوجود البيزنطي من بلاد الشام وشمال أفريقيا ، كما أزاحت الوجود الساساني من العراق وشرق الجزيرة العربية . ولم تلبث الحرب الشاملة إلا قليلا حتى قضت على وجود الإمبراطورية الساسانية من خلال معركتي القادسية وجلولاء ، كما دفعت البيزنطيين إلى الخلف ، نحو قلب الأناضول وحررت بلاد الشام من استعمارهم . وهذه الحروب كلها كانت حروبا دفاعية تحريرية ، ضد قريش وعداوتها واضطهادها للمسلمين وطردهم من ديارهم ، ثم ضد التهديد والسيطرة الرومانية ، وضد تهديدات الإمبراطورية الساسانية ، حول وداخل أطراف الجزيرة العربية . الساسانيون احتلوا اليمن ، كما احتلوا سواحل عمان والبحرين ؛ وكانوا قد احتلوا وادي الرافدين قرونا طويلة . أما الإمبراطورية الرومانية فقد كانت تتبنى وتمارس سياسات عدوانية شـرسة . وهنا أود أن نستعرض مع القراء شهادة شخصية رومانية مشهورة ، بل من أشهر الشخصيات الرومانية على الإطلاق ، وأعني به (ماركوس تيلوس شيشرون) ، السياسي والمحامي والخطيب الذي طبقت شهرته عالم الغرب . وقد عاش شيشرون في الفترة (١٠٦ ق .م .-٤٣ ق.م .) ، أي في أواخر عهد الجمهورية الرومانية وأوائل عهد الإمبراطورية . قال شيشرون ضمن انتقاده لسياسات بلاده منذ تلك الفترة المبكرة :

«إن الكلمات لا تستطيع أن تعبر ، أيها السادة ، عن مدى كره الأمم الأجنبية لنا ، ذلك الكره الممزوج بالمرارة ، وذلك بسبب السلوك المشين ، والمثير للسخط ، الذي يمارسه الرجال الذين أرسلناهم منذ أمد قريب ليحكموهم . هل احترم هؤلاء الرجال

قداســة أي معبد؟ هـل هناك أية دولة آمنـة من أن تتعـرض للهـجوم؟ هل الأبواب المـوصدة تكفي لحماية بيت من خطر رجال من أمثـال هـؤلاء؟ لماذا لا يفتأون يبحثون عن مـدينة غنيـة ومـزدهرة لكي يجـدوا عـذرا لمهـاجـمـتـهـا وإشـبـاع شـهـوتهم للسلب والنهـب! (١)

وهذا عالـم وأسـتـاذ جامعي أميركي حـديث يصف لنا سياسـات وممارسات روما الجمهورية والإمبراطورية تجاه الدول والشعوب الأخرى . قال جوزيف أ . شـمبيتر : لقد كانت روما الجمهورية ثم الإمبراطورية في سعي متواصل لبسط نفوذها وهيمنتها على العالـم في عصرها ؛ وكان هذا السـعي المتواصل يظل مصحوبا بادعاءات متتابعة بأن مصالح روما – التي لا تخلوا منها منطقة في العالـم – مهددة بالخطر ، وعرضة للهجوم والعدوان ، حسب الادعاءات الإمبراطورية . وإن لـم تكـن المصالح المهددة رومانية فإنها تصبح مصـالح لحلفاء رومـا ، الحقـيقـيين أو المزعـومين . وإن لـم يكـن لرومـا حلفـاء في المنطقة المعنية فقد كانت روما تخترعهم للتو . . في اللحظة المناسبة ، لمساندة ادعاءاتها ومـشـروعـاتهـا العـدوانـيـة . وكـانـت رومـا تحـرص دائـمـا على تغليف وتزيين اندفاعـهـا للحـرب بهـالة مـزورة من القـانون ، ثم تضيف إلى ذلك : الادعـاء الأخـلاقي ، حيث تزعم أنها ومصالحها كانت ضحية تعرضت للهجوم من قبل جيران أوغاد ، ذوي عقول وتوجهات شريرة (٢) .

وإذ تحول الموقف إلى هذه الصورة التي وصفنا ظلت منطقة الحدود بين إقليم بلاد الشـام والـدولة الرومـانيـة في الأناضول وآسـيـا الصـغـرى تشـهـد صـدامـات مـتـقـطعـة متجددة ، بين سنة وأخرى ، تشتد أحيانا ، وتهدأ في فترات أخرى لدرجة أن يتوصل الطرفـان إلى هدنة تسـتـمـر سنوات ، ويتـبـادلان الهـدايا وتنشط بينـهـمـا المبـادلات التـجـارية . لقـد زال الخطر الخـارجي على الدولـة الإسـلامـيـة النـاشـئـة ، أو ضـعـفـت احتـمالاته ، لكن الـدولة البيزنطية ظلت قـائمـة تشكل تهـديدا نسبيا ، بينما الشرق الممتـد إلى حـدود الصين تحول إلى منطقة فراغ لا تتحرك فيـه إلا قـوى قبلية صغيرة

(1) G.I.F. Tingay and J. Badcock, ***These were the Romans*** (Chester Springs, Pennsylvania: Dufour Editions, 1986), p. 68

(2) As quoted by Gore Vidal, ***Dreaming War*** (New York: Thunders Mouth Press/National Books, 2002, pp. 44-45.

متناثرة متنافسة متقاتلة على نحو متجدد أو متصل .

في ظل هذه الظروف المتقلبة المضطربة قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : «تمنيت لو أن بيننا وبين [بلاد] فارس جبلا من نار ، فلا نصل إليهم ولا يصلون إلينا .» لقد انطلق عمر في مقولته ، أو أمنيته هذه من فهمه لعقيدته وإسلامه بالنسبة للعلاقة مع القوى الأخرى القائمة خارج حدود الدولة الإسلامية . وكان أبرز الموجهات له قول الله تعالى شأنه : ﴿وقاتلوا في سبيل الله ا لذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين .﴾ وقد تضمنت هذه الآية ثلاثة مبادئ واضحة كل الوضوح :

أولا : عدم مبادء ة الآخرين بالعدوان

ثانيا : إن الله لا يحب المعتدين

ثالثا : أن يكون القتال في سبيل الله ، أي من أجل إقرار العدل والحق والخير .

واستمرارا في هذا النهج عارض عمر اقتراحا بغزو مصر ، كما عارض اقتراحا بغزو قبرس . وقد صورت بعض الروايات الأموية عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، بأنه كان ساذجا جاهلا لم يسمع بالبحر ولا يعرف عنه شيئا ، وأنه خاف البحر على المسلمين بعد أن وصف له . ومما ينفي عن عمر هذه التهمة أن أهل مكة كانوا تجارا في الجاهلية ، وكان عمر نفسه تاجرا يسافرا إلى الشام . وكانت غزة ويافا المدينتان نقطتي مرور لقوافل قريش إلى الشام ، وهي على البحر ، كما أن مكة قريبة من ساحل البحر الأحمر . وفضلا عن ذلك فقد هاجر المسلمون مرتين إلى الحبشة في العهد المكي ، قبل الهجرة إلى المدينة ، وقبل أن يتولى عمر الخلافة بسنوات طويلة ، وكانت ، هجرتهم كما كانت عودتهم ، على ظهور السفن . وذكر البحر يتكرر في القرآن الكريم ، كما كان يتكرر في الشعر العربي الجاهلي ؛ ورجل في فطنة عمر وقوة شخصيته القيادية ، وظروف حياته – في الجاهلية والإسلام – لا يحتمل أن يكون من السذاجة بحيث يطلب من يصف له البحر ، فإذا سمع الوصف امتلأ قلبه رهبة وفرقا . والذي لا أشك فيه أن هذا التصغير الأموي المتعمد لشأن عمر بن الخطاب كان يهدف – في المقابل – إلى تضخيم دور معاوية ، ودور عبدالله بن سعد بن أبي سرح اللذين قاما بأول غزوة بحرية ضد جزيرة قبرس ، أثناء خلافة عثمان رضي الله عنه .

وعندما تولى الخلافة عمر بن عبدالعزيز ، بعد أكثر من ثمانين سنة من وفاة عمر بن الخطاب ، ظهر أنه تبنى رؤية عمر الأول وموقفه وضنه بحياة المسلمين وعزوفه عن المغامرة بهم في سبيل الغنائم . فقد أمر عمر بن

عبدالعزيز بسحب القوات الإسلامية المحاصرة للقسطنطينية ، كما أمر بالتوقف عن التوسع في الشرق ، وبسحب المسلمين وعائلاتهم من منطقة ما وراء النهر ، إذ «يكفي المسلمين ما فتحوه .» كذلك أمر عمر بإخلاء عدد من المراكز العسكرية المتقدمة في قلب الأناضول ، وبانسحاب شامل إلى الوراء في منطقة الحدود مع الدولة البيزنطية ، بحيث ينتقل خط الحدود إلى الوراء بمسافة محددة ؛ ولم يتراجع عن هذا الأمر الأخير إلا بعد أن أقنعه القادة العسكريون بأن إرجاع خط المواجهة إلى الوراء على النحو الذي حدده سوف يعطي الرومان البيزنطيين ميزات قتالية تضر بمصلحة الدولة الإسلامية . وكنا قد أشرنا إلى هذا في فصل سابق . وقد دعت الحاجة إلى إعادته هنا لتأكيد وتوثيق موقف ورؤية واختيار عقيدي إيماني ، في مواجهة موقف ورؤية واختيار مختلفة ومناقضة ظهرت مع وصول الأمويين إلى مفاتيح السيطرة على الدولة الإسلامية .

وقد توقفت حركة الفتح منذ أواخر سني خلافة عثمان رضي الله عنه ، وامتد هذا التوقف إلى ما بعد خلافة علي وخلافة ابنه الحسن رضي الله عنهما ، وإلى أن انتهى معاوية من إخضاع المعارضة والانتقام ممن أراد ؛ وبعدئذ استؤنفت حركة الغزو . وقد توقفت حركة الغزو ثانية بعد موت يزيد بن معاوية سنة ٦٤ هـ ، وما تبع ذلك من اضطراب وصراع امتد حتى سنة ٧٥ هـ ، كما مر معنا ، لتستأنف من جديد في عهد عبدالملك بن مروان وبنيه .

وقد أعيد فتح أقاليم كانت قد فتحت من ذي قبل ، وتم إخضاع أقاليم كان الوجود العربي فيها قلقا ، وامتد ميدان الفتوحات حتى حدود الصين ، والسواحل الغربية للهند ؛ وفي الغرب بدأ الاستيلاء على الأندلس سنة ٩٢هـ /٧١١م ، ثم اندفعت القوات الإسلامية إلى قلب الأراضي الفرنسية .

وقد ظل الأمويون وولاتهم وقادة حربهم يستعملون مصطلحات الجهاد والغزو والفتح ، ويستدعون الآيات والأحاديث المتعلقة بهذا الموضوع لإضفاء مظهر شرعي على توجههم وممارساتهم . بيد أن أي متابعة واعية مدققة لمسارات وانعطافات حركات الغزو الأموية ، وما كان يوجهها من أطماع شخصية ، وما يستخدم فيها من أساليب ، وما تخلفه من نتائج ، ومن تصرف بالأموال والغنائم ، كل ذلك يبين بوضوح أنها ألصق بممارسات الغزو القبلية التي عرفتها الجزيرة العربية من خلال

صراعات القبائل للنهب ، أو للاستئثار بالمراعي ، أو لمجرد التجبر والعلو في الأرض . إن كل دارس محقق واع يستطيع أن يكتشف ويدرك أن هذا الغزو الأموي انطلق من موجهات رمت إلى هدفين :

أولا : إلقاء قوى المعارضة في أتون المعارك المستمرة ، خاضعة ذليلة ، لإشغالها والانتقام والتخلص منها في آن واحد ،

ثانيا : إستخدامها في الحصول على الغنائم الهائلة لصالح الحكام الأمويين ، والتوسع في السيطرة على الأقاليم المجاورة والبعيدة ، واستغلال شعوبها للحصول على الجزية والخراج ، وكذلك استغلال قسم من أهل الأراضي المفتوحة بصفة محاربين ، يجلبون مزيدا من الغنائم ومزيدا من السيطرة على أراضي أوسع .

وهنا يجمل بنا أن نستعرض بعض الشواهد والأمثلة التي تصور هذه التوجهات والممارسات الأموية وهي في حالة الحركة والفعل ، وما يستتبعهما من نتائج وآثار ، وليست مجرد روايات تاريخية ميتة .

(١) لقد كان أهل الكوفة والبصرة هم المحاربين الذين قذفهم الأمويون وولاتهم في أتون المعارك ، سواء ضد الخوارج ، في أرض العراق وفارس ، أو لفتح مناطق سبق فتحها ، أو مناطق جديدة لم تفتح من قبل . وتمدنا المصادر ببعض الأرقام في بعض السنين ، لكنها لا تعطينا قوائم سنوية بتلك الأرقام . وفيما يلي بعض الأمثلة :

- في سنة ٤٥ هـ ، بعد أربع سنوات من تولي معاوية منصب الخلافة ، بعث زياد بن أبيه جيشا إلى خراسان بقيادة الربيع بن زياد الحارثي ، وقد ضم الجيش خمسين ألفا ، منهم من البصرة خمسة وعشرين ألفا ، ومن الكوفة خمسة وعشرين ألفا[(١)] .
- وفي سنة ٧٤ هـ كلف عبدالملك بن مروان المهلب بن أبي صفرة بحرب الخوارج ، وأن ينتخب من أهل الكوفة وأهل البصرة من يحتاج إليهم ليكونوا أداة لتلك الحرب . وقد جاء التكليف بواسطة الوالي ، بشر بن مروان نفسه[(٢)] ؛ وقد اشتهر عن بشر بن مروان أنه كان يعامل أهل الكوفة والبصرة بشدة بالغة ، حيث يؤخذ كل من تخلف عن المشاركة في حرب الخوارج

---

(١) الطبري ، مجلد ٣ ، ص ٢٠٠ - طبعة بيروت .

(٢) ***المصدر نفسه*** ، ص ١٩٦-١٩٧ .

فيصلب في مواجهة حائط وكفاه مثبتتان في الجدار بالمسامير (١) . ولما مات بشر سنة ٧٤ أخذ الناس يهربون من الحرب (٢) .

- وفي سنة ٧٧ هـ ، نجد خمسين ألفا من أهل الكوفة قد دفعهم الحجاج لحرب الخوارج المنتشرين في بلاد فارس(٣) . ولم تكن محاربة الدولة الأموية للخوارج بسبب عقيدتهم المخاصمة لعلي بن أبي طالب ، بل لأنهم رفضوا الخضوع للدولة الأموية نفسها .
- وفي سنة ٧٨ هـ نجد عبيد الله بن أبي بكرة على رأس جيش من أهل الكوفة وأهل البصرة ، لم يذكر لنا عدده ، في بلاد سجستان . وفي السنة التالية يخرج عبيد الله بذلك الجيش ، بإلحاح وضغط متواصل من الحجاج ، ليغزوا بلد رتبيل . ؛ وقد أبيد ذلك الجيش لأن الحجاج لا حقهم بخطاباته وهو في البصرة يأمرهم بالوغول في أرض العدو وعدم التوقف (٤) .
- وفي سنة ٨٠ للهجرة ، نجد الحجاج يعد جيشا من أربعين ألف مقاتل ، نصفهم من أهل الكوفة ، والنصف الآخر من أهل البصرة ، ويوجههم إلى سجستان بقيادة عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث . وتتوالى رسائل الحجاج لقائد ذلك الجيش تعنفه وتهينه وتهدده لحمله على الاستمرار في التقدم والاستيلاء على أراض جديدة ، وتدمير الحصون ، على الرغم من سابقة إبادة الجيش الذي قاده عبيد الله بن أبي بكرة قبل ذلك بسنة واحدة فقط ؛ وهذا ما أشرنا إليه بتفصيل أكبر في غير هذا الموضع من هذا الكتاب .
- وفي سنة ٩٦ هـ نجد في خراسان من أهل البصرة وأهل الكوفة وما فيهما من قبائل سبعة وأربعين ألفا من الكوفيين والبصريين ، يتوزعون على القبائل على النحو التالي : تسعة آلاف من أهل العالية ، ومن بكر بن وائل سبعة آلاف ، ومن تميم عشرة آلاف ، ومن عبدالقيس أربعة آلاف ، ومن الأزد عشرة آلاف ، ومن أهل الكوفة سبعة آلاف .

---

(١) إبن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ، ص

(٢) الطبري ، مجلد ٦ ، ص ١٩٧ - ١٩٩ .

(٣) إبن كثير ، ج٩ ، ص ١٥ .

(٤) الطبري ، مجلد ٦ ، ص ٣٢٢-٣٢٣ و٣٢٧ .

(٢) أما كون المال الهدف الرئيسي الآخر لسياسة الغزو والفتح الأموية فنتبينه بوضوح من المادة التي توردها المصادر ، وتتحدث عن هذه النقطة بشكل مباشر . وقد سبق لنا أن أوردنا أمثلة كثيرة ، ضمن قائمة طويلة تبين تصرف الأمويين بالمال العام لخدمة أغراضهم ، ولذلك كان حرصهم على الحصول على المال بكميات كبيرة . وقد أشرنا إلى أن طلب المال ، وإهدار المال امتد إلى الولاة الكبار ، ثم إلى الولاة الصغار وموظفي النواحي .

هل كانت الغنائم هدفا للحرب؟:

الدول الحديثة ، المتقدمة والمتخلفة ، تأخذ غنائم الحرب ، بطريقة أو أخرى ؛ وقد أخذ المسلمون الأولون الغنائم دون حرج ، حيث أحلت لهم ، وكانت مباحة . ولكن هناك فرقا بين أن يكون أخذ الغنائم مجرد نتيجة للحرب ، فيها بعض التعويض عن التكاليف التي قدمها المنتصر من المال والجهد والدماء ، وبين أن تكون الغنائم هي الهدف ، أو أن تكون هدفا للحرب ودافعا للبدء بها . لقد نفى رسول الله ﷺ أن يكون الحصول على الغنائم هدفا شرعيا للحرب ؛ وذلك حين سئل عن : الرجل يقاتل حمية ، أو للمغنم ، أو يقاتل تفاخرا ليقال إنه شجاع وبطل ، أو يقاتل لتكون «كلمة الله هي العليا» ، فأجاب : «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله .» **وعبارة «في سبيل الله» هنا تعني إقامة الحق والعدل ورفع الظلم عن الناس كما أمر الله** ، وليس مجرد السيطرة والطغيان . ومع ذلك فقد كان هناك أفراد من حديثي الإسلام ، أو ممن كانوا يحبون المال بقوة ، ممن شاركوا في حروب الفتح [1] ، وقد أتيحت لهم هذه الفرصة **إتاحة غير مطلقة ، بل كانت تحكمها سلطة القيادة العليا للدولة ، وللمعركة** . فأين كانت حروب الغزو الأموي من كل هذا؟ سنستعرض هنا بعض الأمثلة ، وسنحاول التقليل من عددها بالقدر الذي يكفي لجلاء هذه النقطة :

١ - في سنة ٤٥ هـ ، أي بعد ولاية معاوية الخلافة بأربع سنوات ، نجده يطلب أن يستصفى له من الغنائم كل ما هو من الذهب والفضة باسم بيت المال ، قبل أن

---

(١) البلاذري ، ***فتوح البلدان*** ، ص ١١٥ لما استنفر أبو بكر الناس لتوجيههم إلى الشام ، فسارعوا إليه بين محتسب وطامع .

توزع على المحاربين أنصبتهم الشرعية من الغنائم . أما بيت المال فكان بيت مال معاوية وليس بيت مال الأمة أو الدولة ؛ بغض النظر عن التسميات . ففي تلك السنة كان زياد بن أبيه واليا على العراق والمشرق ، أي نائبا عن الخليفة ، وكان نائب زياد في خراسان الحكم بن عمرو الغفاري ؛ فأمر زياد الحكم أن يغزو منطقة تسمى جبل الأسل ، فقتل منهم خلقا كثيرا ، وغنم أموالا جمة ، فكتب إليه زياد : «**إن أمير المؤمنين قد جاء كتابه أن يصفى له كل صفراء وبيضاء – يعني الذهب والفضة – يجمع كله من هذه الغنيمة لبيت المال .**»

فكتب إليه الحكم بن عمرو : إن كتاب الله مقدم على كتاب أمير المؤمنين . . . «ثم إنه نادى المحاربين لتسلم أنصبتهم من الغنائم» فقسمها بينهم ، وخالف زيادا فيما كتب إليه معاوية ، وعزل الخمس كما أمر الله ورسوله . . . «وقد هدد زياد وتوعد الحكم بن عمرو بالقتل ؛ فدعى الحكم : أللهم» إن كان لي عندك خير فاقبضني إليك . فمات [عمرو] بمرو من خراسان قبل أن تصل إليه يد زياد . وكان الحكم صحابيا معروفا[(١)] . وقد أورد الطبري هذا الخبر ضمن أحداث سنة ٥٠ هـ ، واستشهدنا به في موضع آخر .

٢ – ولو تتبعنا أخبار الغزو في الأقاليم البعيدة في المشرق ، أي في خراسان وما وراء النهر وحتى حدود الصين ، سنتبين أن المال والسيطرة التي تتيح الاستمرار في الحصول عليه كانا الهدف لكل الغزوات ، بل وسنجد حرصا على صد الناس عن اعتناق الإسلام لكي يستمر الولاة في فرض الجزية . وقد مرت معنا أمثلة من فرض الجزية على المسلمين . لقد غزا المهلب بن أبي صفرة وهو وال على خراسان ، فهاجم كش ، وصالح أهلها على فدية (أي فدوا أنفسهم بمبلغ من المال دفعوه له ليرحل عنهم) ، مع تعهد بدفع مبلغ سنوي [(٢)] . وصالح قتيبة أهل أخرون [وهذا اسم مكان] ، وشومان على فدية ثم انصرف عنها إلى

(١) الطبري ؛ *ابن كثير* ، ج٨ ، ٢٥–٢٦ ، م٣ ، ٢١٦–٢١٧ .

(٢) الطبري ، مجلد ٦ ، ص٣٢٥–٣٢٦ .

مرو[١] ؛ كما صالح قتيبة السغد على أن يعطوه فدية ورهائن[٢] . وارتحل السغد من بلادهم أمام الغزوات المتلاحقة وتوجهوا إلى فرغانة على حدود الصين[٣] .

أما النمط الآخر من طريقة الحصول على الأموال فكانت تتم من خلال الاجتياح وهزيمة المدافعين عن الهدف والاستيلاء على الأموال والممتلكات ، وقتل أعداد كبيرة ، وأسر أعداد أخرى من الرجال والنساء . وكان قتيبة يستخدم المنجنيقات لضرب المدن والبلدات المحاصرة ليجبر أهلها على الاستسلام ؛ وذلك يشبه القصف بالمدفعية في عصرنا .

إن مناطق الشرق التي تشمل خراسان وما وراء النهر وتمتد حتى حدود الصين كانت ساحة فراغ سياسي وعسكري بعد سقوط الإمبراطورية الساسانية – كما ذكرنا قبل قليل – ولم تكن تشكل أي خطر على الدولة الإسلامية ، ولم يكن هناك أي مبرر لمبادأتهم بالقتال وغزو بلادهم لو أن الأمويين قيدوا تحركاتهم العسكرية بالمبادئ القرآنية وتوجيهات الرسول ﷺ . ومن الأحداث التي تشد الانتباه في بلاد الشام ما كان من غزو قبرس سنة ٢٨ هـ ، وهناك اختلاف بين الروايات بشأن تاريخ السنة التي حدث فيها الغزو ، إذ قاد معاوية حملة ضخمة لمهاجمتها واحتلالها ، وفي نفس الوقت قاد عبدالله بن سعد بن أبي سرح حملة من مصر بالتنسيق مع معاوية ، فالتقيا على أهلها «فقتلوا خلقا كثيرا وسبوا سبايا كثيرا ، وغنموا مالا جزيلا» . وتذكر بعض الروايات بأنه : لما جئ بالأسارى جعل أبو الدرداء يبكي ؛ فقال له جبير بن نفير : ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله؟ فقال : ثكلتك أمك يا جبير! ما أهون الخلق على الله إذا تركوا أمره! إن هذه كانت أمة قاهرة ، لهم ملك ، فلما ضيعوا أمر الله صيرهم إلى ما ترى . «ثم صالحهم معاوية على سبعة آلاف دينار في كل سنة وهادنهم[٤] . . .» ولست أشك في أن هذا الكلام المنسوب لأبي الدرداء لا أصل له ، وإنما هو من صنع الرواة الذين يحرصون على زيادة إضافات لتجميل الرواية وتلوينها لإعطائها أهمية وجاذبية ونكهة تثير فضول القارئ وتمتعه وتضخم إنجازات

---

(١) *المصدر نفسه* ، ٤٢٥ .

(٢) *المصدر نفسه* ، ص٤٤٥-٤٤٦ .

(٣) *المصدر نفسه* ، ٦٢١ .

(٤) **الطبري** ، مجلد ٢ ، ٦٠٠-٦٠٢ ؛ *وابن كثير* ، ج ٧ ، ١٢٤ .

الأمويين في الجهاد ؛ وإلا ، فإن قبرس لم تكن أمة قاهرة ، ولا دولة قوية ، بل كانوا عرضة لطغيان الجيران الأقوياء ، البيزنطيين من جهة ، ثم الأمويين من الجهة الأخرى ؛ وهي جزيرة صغيرة مساحتها ٩٢٥٠ كيلو متر مربع فقط ، أي أنها أصغر من لبنان مساحة . ولعل مما يؤكد كون قبرس كيانا ضعيفا مغلوبا على أمره في تلك الأيام أن جماعة من مشاهير علماء المسلمين استنكروا الطريقة التي كانت تعامل بها قبرس ؛ وكان من أولئك العلماء عبدالرحمن الأوزاعي وآخرون [١] .

إن المطالع لأخبار الحروب والغزوات من سنة ٧٥هـ إلى سنة ١٢٥ هـ ، على جميع الجبهات ، لا يجد فيها إلا الحرص على تحصيل المال وإذلال الناس ، وفرض الإتاوات السنوية عليهم بمقادير ضخمة لا يطيقونها ، فيعجزون ويثورون ، ويتكرر الغزو لنفس المكان . أما على الجبهة الشامية فالحديث عن الغزو والغنائم من الأموال والممتلكات والبشر هو النمط المتكرر في الروايات التاريخية كل سنة ؛ لا حديث عن عدل الإسلام ، وحماية الناس وممتلكاتهم ، أو الاهتمام بإظهار العدل والرحمة ولجم الجشع ، والدعوة إلى الإسلام بدلا من ذلك . بل إننا نجد مقاومة لإقبال الناس على التحول إلى الإسلام . وأخبار الغزو في السنوات المشار إليها (٧٥هـ إلى ١٢٥ هـ) يجدها القارئ – إن رغب في التوسع – في تاريخ الطبري ، المجلدين السادس والسابع من طبعة دار المعارف ، وفي الطبعات الأخرى يمكن للقارئ أن يتتبع السنوات ، إذ أن طريقة تتابع الأخبار حولية . وفي أغلب الطبعات تكتب السنة في أعلى كل صفحة . وفي تاريخ ابن كثير ، البداية والنهاية ، في الجزأين التاسع والعاشر ، وفي كتاب ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، تستعرض المادة حسب تتابع السنين . وهذه أهم المصادر وأوسعها في التغطية . لكن ابن كثير لا يصل إلى مستوى الطبري أو إبن الأثير ، بيد أنني اهتممت به واستصحبته طوال الفترة الأموية باعتباره شديد التحمس للأمويين والمسرف في دفاعه عنهم وتبييض صورتهم . وهذا لا يعني أن الطبري وابن الأثير متحيزان ضد الأموين ، بل إنهما أقرب إلى الحياد والموضوعية ، لكنني أحببت أن أعرض مختلف الاتجاهات والمواقف .

---

(١) البلاذري ، *فتوح البلدان* ، ١٥٧–١٦٢ .

الفصل الخامس
العباسيون يعتلون مسرح الأحداث

مقدمة:

كانت أول بوادر التنافس على المنصب الأعلى في الدولة الإسلامية قد ظهرت في وقت مبكر، بعد وفاة رسول الله ﷺ، في سقيفة بني ساعدة بين المهاجرين والأنصار، وخاصة في موقف سعد بن عبادة. ثم كان التنافس مرة ثانية بعد وفاة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيما بين الستة الذين عينهم عمر، أو بين عدد منهم على الأقل. ثم استغل الأمويون ظروف ولاية أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه الخلافة - كما شرحنا في الفصل السابق - ونجحوا في تهيئة الظروف التي مكنتهم من الوثوب على منصب الخلافة. ومضت فترة الصراع التي شغلت السنوات الثمانية التي تلت وفاة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان متبوعة باستقرار حكم بني مروان حتى سنة ١٢٥هـ، التي توفي فيها هشام بن عبدالملك بن مروان، لتنفجر فترة صراع دموي داخل الأسرة الأموية استمرت سبع سنوات انتهت بسقوط الحكم الأموي، والأسرة الأموية، وظهور الأسرة العباسية.

في السنة الأخيرة من القرن الهجري الأول (١٠٠هـ) كانت زعامة الأسرة العباسية قد بدأت تحركها للوصول إلى منصب الخلافة. ففي تلك السنة نجد محمد بن علي بن عبدالله بن عباس يوجه مبعوثيه إلى ناحية قصية من أراضي الدولة الإسلامية - إلى خراسان، ثم ينشئ تنظيما يجعل على رأسه اثني عشر نقيبا ليقودوا التحركات السرية، بعيدا عن عيون الحكومة المركزية في دمشق وما جاورها من الأقاليم. وكانت الدولة الأموية آنذاك تبدو متماسكة، واستمرت كذالك ربع قرن آخر، أي حتى سنة ١٢٥هـ. ولن نتتبع بدراستنا هذه تطورات نمو الدعوة العباسية في خراسان، وإن كنا سنتقابل معها بعد أن تصل إلى مرحلة النضح وتتجه غربا لتقترب

من مركز الحكم الأموي . ومع ذلك فإننا سنتتبع أنواعا أخرى من النشاط العباسي الذي يصب في تيار اندفاعتهم إلى هدفهم الأسمى .

مما لا نحتاج إلى التذكير به أن زعامة بني عبدالمطلب ، من أبناء أبي طالب وأبناء العباس ، قد انتقلت بعد وفاة رسول الله ﷺ إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه . وبعد أن تعرض علي للإغتيال مضت الزعامة في ولديه ، الحسن والحسين رضي الله عنهما ، حتى استشهد الحسين سنة إحدى وستين للهجرة كما مر معنا . أما بعد ذلك فالموقف لم يعد واضحا ، إذ هناك أكثر من تصور فيما حفظته لنا المصادر . فلو قبلنا مقولة أن الزعامة انتقلت إلى محمد بن علي بن أبي طالب ، المعروف بابن الحنفية ، نسبة إلى قبيلة والدته فإن مثل هذا القبول يحتاج أن يصاحبه شئ من التحفظ بالنسبة لشخصية محمد بن علي ؛ إذ ربما كان التطلع إلى هذه الشخصية جاء من قبل الموالين لعلي بن أبي طالب وبنيه ، وليس بالضرورة من حرص محمد بن الحنفية نفسه ، أو استعداد وأهلية طبيعية ، أو طموح ورغبة . والذي يحملني على هذا التحفظ أن محمد بن علي لم يكن له وهج الشخصية التي كانت للحسن والحسين ، لكونهما حفيدي رسول الله ﷺ . ومن ناحية أخرى فإن موقف محمد بن الحنفية نفسه ليس واضحا من مسألة قبول الزعامة أو الابتعاد عنها ؛ فالروايات التي تزودنا بها المصادر متضاربة وضبابية . إنني أميل إلى الاعتقاد بأنه كان مترددا في قبول الزعامة وحذرا جدا من أن يعرف عنه ذلك فيقتله الأمويون . وفي هذا الموقف المتسم بالغموض والضبابية تبرز أمامنا الروايات العباسية ، أي التي ألفها أشخاص موالون للعباسيين بشكل واضح ، لتخبرنا أن عبدالله بن محمد بن علي بن أبي طالب ، الملقب بأبي هاشم ، تنازل عن القيادة ، (الإمامة) ، لمحمد بن علي بن عبدالله بن عباس[(١)] . وبغض النظر عن صحة هذا الادعاء أو عدمها فإن

(١) [محمد بن صالح بن مهران ، المعروف بابن النطاح – توفي ٢٥٢هـ] ، أخبار الدولة العباسية ، تحقيق د . عبدالعزيز الدوري ، ود . عبدالجبار المطلبي (بيروت : دار الطليعة للطباعة والنشر ، ١٩٧١) ، صفحة ١٨٣ و١٨٦ . ولقد أثبت اسم المؤلف بناء على ترجيح المحققين ، على الرغم من أنهما تجنبا تأكيد الإسم ، واكتفيا بالترجيح كما ورد في مقدمتهما للكتاب ، ص ١٥ .

هذا هو الجسر الذي مرت عليه الزعامة إلى العباسيين ، في نظر عامة المسلمين . ولقد أشرنا إلى قيام محمد بن علي (العباسي) ، بإرسال المبعوثين إلى خراسان وتشكيله لجنة قيادة من اثني عشر نقيبا لقيادة الحركة العباسية ، وانطلاق التحرك الدعوي بعد ذلك واستمراره . ولعل من المفيد هنا أن نشير إلى أن القيادة العباسية التي حرصت أشد الحرص على السرية تجنبت الكشف عن انتماء الحركة للأسرة العباسية ، وإنما لفت ذلك الانتماء بعبارة وشعار «الرضا من آل محمد .» وهذا التكتم ربما كان بسبب خوف القيادة العباسية من رد الفعل الأموي ضد بني العباس عامة ، فضلا عن الحرص على استقطاب تأييد كل المنتمين إلى بني عبد المطلب من العلويين والعباسيين سواء . ومع هذا وذاك يظل احتمال وجود سبب ثالث للسرية وهو أن التنازل المفترض من جانب عبدالله بن محمد بن علي بن أبي طالب لم يحدث حقيقة ، بجانب أن عبدالله بن محمد بن علي بن أبي طالب لم تكن له صفة تمثيلية لفروع أبناء وأحفاد علي بن أبي طالب ، وأن تنازله – لو حدث – ليست له قوة إلزامية على جميع فروع البيت العلوي . وربما كان مما يقوي هذا الاحتمال الأخير ما حدث من تحركات فروع علوية أخرى غير فرع محمد بن الحنفية . فهذا زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب يثور على الأمويين في عهد هشام بن عبدالملك سنة ١٢١ هجرية ، ويبايعه عدد من زعماء الكوفة : «على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، وجهاد الظالمين والدفع عن المستضعفين وإعطاء المحرومين ، وقسم هذا الفئ بين أهله بالسواء ، ورد المظالم ، ونصر أهل البيت . . . [1]» ثم تتابع أبناء زيد وأحفاده على تباعد قليل أو كثير في الزمن ، وذلك ما يخرج بنا عن موضوعنا . . . لو أردنا استقصاءه . وسنجد فرعا آخر من بني علي بن أبي طالب – من أحفاد الحسن بن علي – يثورون في عهد الخليفة العباسي الثاني ، وينتهي ببعضهم الصراع إلى هجرة بعيدة وإقامة دولة علوية في المغرب الأقصى هي دولة الأدارسة العلويين سنة ١٧٢هـ . وفي مسارب التفرعات والانشقاقات في أبناء البيت العلوي تواجهنا روايات تاريخية مكثفة عن فرع الإمامية الإثني

---

(١) إبن الأثير ، *الكامل في التاريخ* ، مجلد ٥ ، ص ٢٣٣ ؛ الطبري ، مجلد ٧ ، ص ١٦٠– ١٧٣ .

عشرية ، الممتد من الحسين بن علي نزولا إلى ابنه علي (زين العابدين) إلى محمد بن علي (الباقر) ، إلى جعفر بن محمد (الصادق) ، إلى موسى بن جعفر (الكاظم) ، إلى علي بن موسى (الرضا) ، إلى محمد بن علي (الجواد) ، إلى علي بن محمد (الهادي) ، إلى الحسن بن علي (العسكري) ، إلى الإمام الثاني عشر محمد بن الحسن العسكري ، وهو الإمام الغائب المنتظر ، صاحب الزمان . ثم تبرز المصادر أمامنا فرعا آخر انشق من أبناء جعفر الصادق ، إذ خرج مؤسسو هذا الفرع بمقولة أن الإمامة انتقلت من الإمام السادس (جعفر الصادق) إلى ابنه اسماعيل ، على الرغم من أن هذا الأخير توفي في حياة والده ، ثم انتقلت إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر ، وهو عندهم الإمام السابع . ومن امتدادات وأصداء هذا الفرع تأسست الدولة الفاطمية في المغرب سنة ٢٩٦هـ (تونس) ، ثم انتقلت إلى مصر سنة ٣٣٨هـ . وهناك تفرعات وانشقاقات أخرى وادعاءات كثيرة ليس هنا موضع متابعتها .

ولا مراء في أن هذه الأحداث وما يشابهها ربما تقوض أساس ادعاء العباسيين بتنازل أبي هاشم ، عبدالله بن محمد بن الحنفية ، عن زعامة البيت العلوي لصالحهم . والاستنتاج المهم هنا ، الذي يلزمنا الاحتفاظ به في دائرة الضوء ، أن بني عبدالمطلب – العلويين والعباسيين – لم تكن تجمعهم قيادة واحدة ، واتفاق على التعاون والسير معا في سبيل هدف عام محدد ، بل كانت تتشعب بهم تيارات واتجاهات متعددة . ويمكننا الاستدلال مما روته لنا المصادر أن تلك الحال استمرت حتى أواخر القرن الثاني للهجرة ، بل حتى النصف الأول من القرن الثالث الهجري . وخلال هذه الفترة حدث الانشقاق بين أنصار العلويين فظهر الذين جعلوا الإمامة في موسى الكاظم (وهو الإمام السابع عند الإثني عشرية) ، وأولئك الذين جعلوا الإمامة لإسماعيل (أو لمحمد بن إسماعيل) بن جعفر الصادق . وفي هذه الفترة نفسها نبتت بذور حركة القرامطة في جنوب العراق [1] .

---

(١) النعمان بن محمد التميمي المغربي ، *افتتاح الدعوة* ، (بيروت : مؤسسة الأعلمي) ، ٢٠٠٥ ، ص ٦ – ١٢ .

قيام الدولة العباسية:

وبعد ما يقرب من ثلاثين سنة من العمل الدعوي السري وشبه السري في خراسان قرر قائد شيعة بني العباس - عبدالرحمن بن مسلم ، الملقب بأبي مسلم الخراساني - الإعلان عن الدعوة والتحرك السريع للقضاء على بقايا السلطة الأموية في خراسان ، ممثلة في الوالي نصر بن سيار [(١)] . وقد بدأ هذا التحرك في أواخر سنة ١٢٩هـ /٧٤٧م . ويروي لنا مؤلف كتاب **أخبار الدولة العباسية** - وهو يبدو متحمسا في تأييده للعباسيين - قصص فتح المدن .

الخلفاء العباسيون في العصر العباسي الأول

عصر القوة ١٣٢هـ - ٢٤٧ هـ

١- أبو العباس السفاح ، عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب	١٣٢هـ - ١٣٦هـ
٢- أبو جعفر المنصور ، عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب	١٣٦هـ - ١٥٨هـ
٣- المهدي ، محمد بن عبدالله	١٥٨هـ - ١٦٩هـ
٤- الهادي ، موسى بن محمد المهدي ،	١٦٩هـ - ١٧٠ هـ
٥- الرشيد ، هارون بن محمد المهدي ،	١٧٠هـ - ١٩٣هـ
٦- الأمين ، محمد بن هارون الرشيد ،	١٩٣هـ - ١٩٨هـ
٧- المأمون ، عبدالله بن هارون الرشيد ،	١٩٨هـ - ٢١٨هـ
٨- المعتصم ، محمد بن هارون الرشيد ،	٢١٨هـ - ٢٢٧هـ
٩- الواثق ، هارون بن محمد المعتصم ،	٢٢٧هـ - ٢٣٣هـ
١٠- المتوكل ، جعفر بن هارون المعتصم ،	٢٣٣هـ - ٢٤٧هـ

والنواحي[(٢)] ، بدءا بمدينة مرو وانتهاء بالكوفة . وقد كانت حركة الفتح هذه

---

(١) إبن النطاح ، ***أخبار الدولة العباسية*** ، ص ٢٧٣ - ٢٧٦ ؛ إبن الأثير ، **الكامل** ، مجلد ٥ ، ص ٣٥٦ - ٣٦٣ .

(٢) [إبن النطاح] ، ***أخبار الدولة العباسية*** ، ص ٣١٠ - ٣٧٤ .

تتجه من الشرق إلى الغرب ، على عكس حركة الفتح الإسلامي التي بدأت في عهد أبي بكر الصديق وعهد عمر ، رضي الله عنهما . وكانت الفتوح التي نتحدث عنها هنا هي فتوح العباسيين من أراضي السلطة الأموية وانتزاعها من تلك السلطة لصالح الكيان العباسي الذي كان في حالة مخاض على مشارف ولادة جديدة . وفي الكوفة يتم الإعلان عن قيام الدولة العباسية ، وتنصيب أبي العباس عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس أول خليفة عباسي ، وذلك في شهر ربيع الأول (أو الثاني) من سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م . وهكذا انتهى عهد وبدأ عهد جديد ، وغربت شمس خلافة لترتفع شمس خلافة أخرى ؛ فهل تغير شئ على الأرض عدا عن تغير الأشخاص؟

لم تطل خلافة أبي العباس إذ توفي سنة ١٣٦هـ . وفي هذه السنوات الأربع كان همه وهم العباسيين وأتباعهم الانتقام من بني أمية . وكان انتقامهم في كثير من الأحيان مشينا ، لم يستثن نبش القبور والعبث برفات أصحابها . وكان الحديث عن الانتقام والثأر حاضرا يتردد من حين لآخر . كذلك فقد قتل السفاح في بداية عهده حفص بن سليمان ، الملقب بأبي سلمة الخلال . وكان أبو سلمة هو القائد السياسي للحركة العباسية في العراق عندما بدأ العباسيون يسيطرون عليها ، وهو الذي اعتنى بأبي العباس السفاح وأبي جعفر المنصور ، وكان يلقب بـ «وزير آل محمد» ، بينما كان أبو مسلم يلقب بـ «أمير آل محمد» . وربما شك العباسيون الأوائل أن أبا سلمة كان ميالا إلى العلويين ، خاصة عندما لم يجد في السفاح والمنصور الشخصية الدينية الدعوية الجذابة الطاغية التي تؤهل أيا منهما للزعامة .

ثم يؤول المنصب الأعلى إلى أبي جعفر ، عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس ، الذي لقب بـ «المنصور» . واسمه متشابه تماما مع اسم أخيه أبي العباس– ليس في الأمر خطأ – وقد جرى التمييز بينهما عندما أسندت الخلافة إلى أبي العباس عن طريق نسبته إلى أمه ، إبن الحارثية . أما أبو جعفر فكانت أمه أمة ، ولذلك انزوت الخلافة عنه رغم أنه الأقوى والأقدر من حيث شخصيته مقارنة بشخصية أخيه . كان أبو جعفر المنصور هو الذي وطد أركان الحكم العباسي عندما هبت عليه رياح عاتية من الأطماع والعصبيات .

الأخطار التي واجهتها الخلافة العباسية:

عبدالله بن علي:

لم تكن الأخطار التي واجهت العباسيين بعد قيام خلافتهم أخطارا خارجية ، بل كانت أخطارا داخلية ؛ فعدوهم الرئيسي - بنو أمية - قضي عليه ، ولم يظهر بعده عدو خارجي غيره . أما العدو الجديد الذي أراد أبو جعفر المنصور أن يحسم خطره فقد كان من داخل الأسرة الحاكمة نفسها ، وهو عمه عبدالله بن علي بن عبدالله بن عباس . لقد بدأت الأزمة بقيام عبدالله بن علي - عم السفاح والمنصور - بالدعوة إلى نفسه كي يبايعه الناس ليتولى منصب الخلافة . وقد كان لعبدالله دور رئيسي في القضاء على بقايا قوة الأمويين ، إذ هو الذي قاد القوات العباسية في معركة الزاب ، المعركة الحاسمة التي هزم فيها مروان بن محمد (الحمار) ، وفر وطورد حتى قتل . وكان طبيعيا أن ينظر عبدالله بن علي لنفسه فيعتبر أنه أولى بالرئاسة العليا من ابني أخيه . وعندما علم بوفاة السفاح وتولي المنصور للخلافة ، إذ وصلته رسالة بذلك وهو في دلوك ، في منطقة الثغور ، يقود جيشا ليغزو أراضي الدولة البيزنطية (الروم) ، توقف عن الزحف ، وأمر مناديه أن يطلق نداء «الصلاة جامعة» ، فاجتمع إليه القواد والجند ، فقرأ عليهم الرسالة المتضمنة خبر وفاة أبي العباس السفاح . ثم إنه بين لهم أنه أحق بالخلافة ، وأخبرهم بأن السفاح ، لما أراد أن يوجه جيشا لحرب مروان بن محمد ، دعا إخوته ليكلفهم بتلك المهمة ، وأعلن أمامهم أن من قدم نفسه ليقود الجيش العباسي في هذه المعركة الحاسمة سيكون ولي العهد ليصبح الخليفة من بعده . وأضاف عبدالله أن أحدا لم يتقدم للمهمة ، فتقدم هو أي عبدالله بن علي بناء على تأكيد السفاح بأنه سيصبح ولي العهد ، وقاد القوات العباسية ، وهزم مروان الحمار ، وطارده عبر سوريا ، حتى قضى تماما على ما تبقى من قوة للأمويين . وعندما انتهى عبدالله من خطابه قام عدد من القادة الذين كانوا معه وشهدوا بأنهم سمعوا السفاح يقدم ذلك العرض ويعد ذلك الوعد . ثم إن أولئك القادة بايعوه وتبعهم غيرهم من القادة والجند . وعندئذ سار عبدالله بن علي بقواته حتى وصل حران ، وطلب من واليها أن يبايعه فرفض ، وتحصن ، فحاربه عبدالله وقتله .

وقد وصلت هذه الأنباء إلى الخليفة الجديد أبي جعفر المنصور فاشتد قلقه ؛ ولذلك استدعى أبا مسلم الخراساني ، وكلفه بقيادة جيش كبير للقضاء على حركة التمرد التي قادها عمه . وعندما علم عبدالله بن علي بزحف أبي مسلم صوبه أصابه

شئ من الفزع ، لأن عددا كبيرا من جنده وقادة جنده كانوا من الخراسانية الذين جاءوا إلى العراق مع أبي مسلم . وقد خشي أن يخذلوه في المعركة وينحازوا إلى عدوه . ولكي يخرج من حالة القلق ويبعد إمكان حدوث ذلك الخطر أمر بقتل جميع الخراسانيين الذين في جيشه ، فكانت عدة من قتل سبعة عشر ألف رجل . ولا مراء في أن ذلك الإجراء كان بداية كارثية للمعركة الوشيكة . وما لبث الجيشان أن تواجها ، واستخدم أبو مسلم كل دهائه وخبرته العسكرية الطويلة وألحق الهزيمة بعبدالله بن علي وقواته ، وفر عبدالله من أرض المعركة واتجه إلى البصرة ليحتمي بواليها ، وهو أخوه سليمان بن علي[١] .

عبدالرحمن بن مسلم (أبو مسلم الخراساني):

وكان عبدالرحمن بن مسلم عبدا رقيقا ، وقد ذكرت إحدى الروايات أنه كان غلاما لبكير بن ماهان ، قائد الحركة العباسية السرية في خراسان . وأعتقد أن انتماءه العرقي غير معروف على نحو مؤكد ، وكنية الخراساني ربما جاءت من طول مكثه في خراسان وهو يقود حركة الدعوة العباسية في مرحلتي السر والعلن ، بعد موت سيده . المهم أنه تلقى العلم والولاء لآل البيت منذ صغره ، وفي تلك السنوات المبكرة سجن سيده وانضم إليه في سجنه ليخدمه . وكان في السجن عدد كبير من قادة الشيعة الموالين لآل البيت ، مثل سيده ، فتلقى العلم الشيعي عنهم . ويتضح أثر ذلك في الحديث والمقولات المنسوبة إليه ، واستشهاده بالقرآن الكريم والحديث والشعر العربي . وبعد أن مات بكير بن ماهان بايع الشيعة أبا مسلم أميرا لحركتهم في خراسان ، وذلك حوالي سنة ١٢٦هـ . وظل أبو مسلم يقود الحركة حتى تم لقواتها الاستيلاء على الكوفة ، وإعلان الخلافة العباسية فيها سنة ١٣٢هـ . وشخص بهذه القوة والخبرة والصلات الواسعة لم ينظر المنصور إلى خدماته وما قدمه لبني العباس حتى وصل «السفاح» ، ثم المنصور ، إلى منصب الخلافة ، بل نظر إليه من حيث أن قوته تمثل خطرا على الأسرة العباسية . وهذا هو السبب الأهم الذي حمل المنصور على التخلص منه ، وليس ما ذكر من حزازات صغيرة بين الرجلين قبل أن يلي المنصور الخلافة ، وبعد انتصار أبي مسلم على عبدالله بن علي . لقد بعث المنصور شخصا

---

(١) الطبري ، *تاريخ* ، مجلد ٧ ، ص ٤٧٤- ٤٧٩ ؛ إبن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٥ ، ص ٤٦٤ - ٤٦٨ .

يحصى الأموال والجوهرات والأشياء الثمينة التي غنمها أبو مسلم من معسكر عبدالله بن علي ، فأغاظ ذلك أبا مسلم ، وعول على العودة إلى خراسان دون أن يمر بالمنصور باعتبار أن تصرف الخليفة يعني عدم الثقة به ، إذ كيف يكون أمينا على الدماء وعشرات آلاف الجند ثم لا يكون أمينا على الغنائم ، ويأتي من يفتش عليه بهذه الفظاظة .

لقد بذل المنصور كل جهد لتطمين أبي مسلم ، ولحمله على الإتيان إليه ، وكلف عددا كبيرا من الأشخاص بمراسلة أبي مسلم والتأكيد له بضمان أمنه ، وأن الخليفة لا ينوي له إلا خيرا . وعندما اقترب أبو مسلم بعث إليه المنصور عددا كبيرا من الأشخاص لكي يستقبلوه بالترحيب والإكرام . وعندما وصل الديوان استقبله الخليفة نفسه بالترحيب أيضا ، وأمره أن يذهب ليغتسل ويغير ملابسه ويرتاح ثم يأتيه . وإلى أن يأتيه أعد المنصور مجموعة من رجال الحرس الأشداء ليكمنوا في دهاليز الديوان وراء الستر ، فإذا صفق بيده هجموا على الفريسة بسيوفهم . وهكذا تخلص من أبي مسلم . ووزع الخليفة الأموال على القادة والجند الذين كانوا مع أبي مسلم وأعطاهم حتى رضوا وتناسوا (١) .

فهل بقي أحد ، أو جماعة أو قوة أخرى تشكل خطرا على الأسرة العباسية ، بل على أسرة أبي جعفر المنصور نفسه بعد أن قضى على خطر عمه عبدالله بن علي وإخوته ، ثم على خطر أبي مسلم الخراساني؟ نعم!

زعامة علوية حسنية:

محمد بن عبدالله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، كان يلقب بـ «النفس الزكية» ويلقى احتراما كبيرا . ويذكر أبو جعفر المنصور أن بني عبدالمطلب ، من العلويين والعباسيين بمختلف فروعهم ، كانوا قد اجتمعوا سرا في المدينة عندما أضطرب أمر بني أمية بعد وفاة هشام بن عبدالملك . وكان الهدف من الاجتماع النظر فيما يجب أن يفعلوه في تلك الفترة الحاسمة التي كانت تنذر بسقوط الأمويين . وقد اتفق المجتمعون على اختيار «النفس الزكية» محمد بن عبدالله بن حسن بن الحسن ،

---

(١) الطبري ، *تاريخ* ، مجلد ٧ ، ص ٤٧٩ – ٤٩٥ ؛ إبن الأثير ، *الكامل* ، مجلد ٥ ، ص ٤٦٨ – ٤٨٠ .

زعيما لحركتهم . وكان يقال إن المنصور نفسه حضر ذلك الاجتماع وبايع النفس الزكية . هذا ما كان يعلنه النفس الزكية ؛ وطبيعي أن ينفيه أبو جعفر المنصور بعد أن أصبح الخليفة ، بغض النظر عن صحة ما قيل عن ذلك الاجتماع ، ومن شارك فيه ، وما حدث فيه .

ومنذ أن تولى المنصور رئاسة موسم الحج سنة ١٣٦هـ في الفترة الأخيرة من خلافة أخيه السفاح أهمه موضوع هذا الحسني الخطير ، خاصة وأن محمد «النفس الزكية» وأخوه أبراهيم لم يحضرا للسلام عليه كما فعل غيرهم من العلويين ، كما أنهما لم يحضرا أيضا عندما حج المنصور سنة ١٤٠هـ ، وهو في منصب الخلافة . وهكذا زاد اهتمامه بموضوع النفس الزكية وأخيه إبراهيم ، بيد أنه وجد نفسه مضطرا لمواجهة التهديدات الأكثر خطورة وإلحاحا ، والتي تمثلت في طموحات عمه عبدالله بن علي ، ثم خطر عبدالرحمن بن مسلم ، الذي عرف باسم أبي مسلم الخراساني . وحيث انتهى خطر عبدالله بن علي ، وقتل أبو مسلم الخراساني فقد أصبح الهم الأول والرئيسي للخليفة هو الخطر الحسني . لقد أنشأ الخليفة شبكة من المخبرين والجواسيس ، ورسم خطط وكيفية تحرك ونشاط كل منهم حتى توصل إلى المعلومات التي نشدها . ثم إنه كلف والي المدينة بتضييق الخناق على محمد بن عبدالله بن الحسن ، «النفس الزكية» حتى أعجله في حركته ، فأعلن تمرده في وقت وظروف ومكان غير مناسبة ؛ وكانت ثورته في المدينة ، مدينة رسول الله ﷺ ، سنة ١٤٥هـ . وعندما بلغ الخليفة الخبر كتب رسالة إلى النفس الزكية ، ورد عليه الآخر برسالة ، وكتب المنصور رسالة ثانية ردا على الرد . وسأقدم هنا المضامين الرئيسية لهذه الرسائل ثم أجعل نصوصها الكاملة ضمن ملاحق الكتاب بعد نهايته . وأهمية هذه الرسائل تتمثل في أنها تعرض بصورة مباشرة تفكير كل من هذين الفريقين وشيئا من ادعاءاتهما ، وما كان كل منهما يقنع أنصاره به ويكسب تأييدهم على أساسه . وعلى ذلك فإنه ، أعني مضمون الرسائل ، يعرفنا على طريقة تفكير شريحة مهمة من المسلمين في ذلك العصر المبكر ، ومنطلقات ذلك التفكير ، تفكير الخاصة وتفكير العامة على السواء .

بدأ أبو جعفر المنصور رسالته - بعد البسملة واسمه ووظيفته - بالآية الكريمة :

﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو

يصلبوا ، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض [1] . . .﴾
١ – أي أنه ذكر التهمة الجريمة – حسب رأيه – والعقوبة الشرعية .
٢ – ثم عرض على محمد بن عبدالله الأمان والمسامحة إن تاب ورجع قبل أن يقدر عليه .
٣ – ثم عرض عليه أن يعطيه ألف ألف درهم (أي مليون) ، وما يطلبه من حوائج بجانبها .
٤ – وأن يسمح له بأن ينزل ويعيش في أي مكان شاء من البلاد .
٥ – وأن يطلق من كان في حبسه من أقاربه وأتباعه .
٦ – وأن يسامح كل من كان بايعه أو تعاون معه [2] .

ورد عليه النفس الزكية مبتدئا (بعد البسملة) باسمه ولقبه قبل اسم المنصور ، وصدر رسالته بالآيات الخمس الأولى من سورة القصص : ﴿طسم . . . إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم . . . [إلى] : ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون .﴾ [سورة القصص/١ – ٥] .

١- ثم قال إنه يعرض عليه من الأمان مثل ما عرض عليه
٢ – ثم أخذ يعدد له ما يراه أنه حق أبناء علي وأحفاده ، وكيف أن العباسيين اعتدوا وسرقوا هذا الحق ، ويذكر أدلة فضل العلويين على العباسيين من قرابتهم لرسول الله ﷺ ، ويعرض بالمنصور لكون أمه أمة ، وعاد إلى تأكيد أنه يعطيه من الأمان مثل ما أعطاه ، ويؤكد له أنه أولى بالخلافة منه ، ثم يذكره بالأمانات – جمع أمان – التي أعطاها لآخرين قبله وحنث بها جميعا : «فأي الأمانات تعطيني! أمان ابن هبيرة [والي العراق الأموي] ، أم أمان عمك عبدالله بن علي ، أم أمان أبي مسلم! [3]»

ورد أبو جعفر المنصور على الرد برسالة ثانية بدأها وملأها بتفنيد كل ادعاءات النفس الزكية واحدة واحدة حتى آخرها ، والرسالة طويلة تقرب من أربع صفحات

---

(١) سورة المائدة ، ٣٣-٣٤ .
(٢) الطبري ، *تاريخ* ، مجلد ٧ ، ص ٥٦٦ ؛ إبن الأثير ، *الكامل* ، مجلد ٥ ، ص ٥٣٦ .
(٣) الطبري ، مجلد ٧ ، ص ٥٦٧ – ٥٦٨ ؛ إبن الأثير ، *الكامل* ، مجلد ٥ ، ص ٥٣٦ – ٥٣٧ .

كبيرة ، وسنجتزئ أمثلة منها ونترك للقارئ الرجوع إلى النص الكامل في الملحق : « . . . قرأت كتابك فإذا جل فخرك بقرابة النساء . . . ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء . . . لأن الله جعل العم أبا . . . وأما ما فخرت به من علي وسابقته : . . . رسول الله . . . أمر غيره بالصلاة [ثم تولى الخلافة أبو بكر وعمر وعثمان ؛ وكان علي موجودا فلم يختاروه ،] ولم يروا له حقا فيها . . . وقاتله طلحة والزبير ، وأبى سعد بيعته ، وأغلق دونه بابه ، ثم بايع معاوية بعده . . . ثم كان حسن فباعها [الخلافة] من معاوية بخرق ودراهم ، ولحق بالحجاز ، وأسلم شيعته بيد معاوية ودفع الأمر إلى غير أهله . . . فإن كان لكم فيها شئ فقد بعتموه وأخذتم ثمنه(١) . . .» الخ . . .

وواضح من هذه المقتبسات أن الفريقين نسيا قول الله تعالى : ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم . . .﴾ [الحجرات/ ١٣] ، كما نسيا قول رسول الله ﷺ : «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه» وقوله : « لا يأتني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم .» وقد أسرف كل منهما بالفخر بآبائه وما ادعاه من حق كل منهم ، ولم يتحفظ في تجريح الطرف الآخر رغم صلة القرابة .

ثم إن المنصور كلف ابن أخيه – عيسى بن موسى بن محمد بن علي – بقيادة القوات الموجهة إلى المدينة للقضاء على حركة النفس الزكية . وجرت المعركة وحلت الهزيمة بالنفس الزكية ، وقتل وقطعت رأسه لكي يذهبوا بها إلى المنصور . وقد صادر عيسى بن موسى أموال بني الحسن كلهم ، كما أنه صادر أموال جعفر الصادق ، على أساس أنه كان متعاطفا مع النفس الزكية . وهكذا انتهت هذه الثورة في نفس السنة التي بدأت فيها . وكان أخوه إبراهيم في البصرة ؛ وقد قيل إن الأخوين كانا اتفقا على أن يقوما بتحركهما في وقت واحد ، في المدينة والبصرة ، لكن ذلك لم يتيسر لهما(٢) .

ولم يلبث إبراهيم بن عبدالله بن حسن بن الحسن – أخو النفس الزكية – أن ثار بالبصرة في نفس السنة ، وتمكن من السيطرة عليها ، ثم أخذ يتمدد نحو الأهواز والكوفة ، فوجه إليه المنصور قوات بقيادة عيسى بن موسى أيضا ، وبعد كر وفر حلت الهزيمة بإبراهيم

(١) الطبري ، *تاريخ* ، مجلد ٧ ، ٥٦٨ – ٥٧٠ ؛ إبن الأثير ، *الكامل* ، مجلد ٥ ، ص ٥٣٨ – ٥٤٠ .

(٢) إبن الأثير ، *الكامل* ، مجلد ٥ ، ص ٥٤٣ – ٥٥٥ ؛ الطبري ، *تاريخ* ، مجلد ٧ ، ص ٥٥٣ – ٦٠٩ .

وجنده وأنصاره قبل نهاية عام ١٤٥هـ ، وبذلك تنفس المنصور الصعداء[1] .

المنصور يبني بغداد :

وحتى تلك السنة ، أعني سنة ١٤٥هـ لم تكن للعباسيين عاصمة ، فقد استنكفوا أن يتخذوا دمشق ، عاصمة الأمويين عاصمة لهم ، كما أنهم لم يجدوا المدينة ، مدينة رسول الله ﷺ مقرا مناسبا لحكومتهم ، وذلك لقلة الموارد الطبيعية في منطقتها ، ولقلة عدد السكان ، ولبعدها عن أماكن النشاط الاقتصادي الكبير في الزراعة والتجارة والصناعة وكثافة السكان . وعندما أعلنوا دولتهم سنة ١٣٢هـ كان إعلانها في الكوفة ، كما مر معنا ، ثم أنشأوا الهاشمية . فلما كانت سنة ١٤٥هـ اهتم أبو جعفر المنصور بالأمر وأخذ يرتاد الأماكن ، ويسأل من يأنس فيهم الخبرة إلى أن استقر على موقع بغداد ، وكان أفضل المواقع بالنسبة لظروف عصره وظروف الدولة . وهكذا شرع في بناء بغداد ، واستمر بناؤها سنتين حيث اكتمل سنة ١٤٦هـ ، وصارت مقر الخلافة العباسية . وكان بناؤها من إنجازات أبي جعفر المنصور .

مشكلة ولاية العهد

وبقي أمام المنصور أمر واحد شغله وملك عليه تفكيره وحواسه ، ألا وهو موضوع ولاية العهد ؛ إذ يبدو أن أخاه الأكبر إبراهيم بن محمد أوصى – عندما شعر بدنو أجله – بأن يتعاقب إخوته على الإمامة ، بدءا بأبي العباس السفاح ، ثم أبو جعفر المنصور ، ثم ابن أخيهما عيسى بن موسى . أي أن عيسى كان ولي العهد أثناء خلافة المنصور . فلما انتهت المشكلات الرئيسية الكبرى التي واجهت المنصور في خلافته بقيت رغبته في أن يحول ولاية العهد لابنه محمد المهدي الذي كان مشغوفا به . ولذلك ظل يضغط على ابن أخيه عيسى بن موسى حتى رضخ ووافق مكرها [2] على أن يتقدمه المهدي في ولاية العهد ، وأن يأتي ترتيبه بعد المهدي . وبعد سنتين

---

(١) إبن كثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٥ ، ص ٥٦٠ – ٥٧١ .

(٢) أنظر الطبري ، ***تاريخ*** ، مجلد ٨ ، ص ٩ – ٢٥ لترى مختلف الحيل والضغوط التي استعملها المنصور حتى حقق غرضه ، وكلها قصص مثيرة للسخرية والضحك والغضب معا ؛ إبن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٥ ، ص ٥٧٧ – ٥٨١ .

من إتمام بناء مدينة بغداد وانتقال المنصور إليها توفي أبو جعفر وانتقلت الخلافة إلى ابنه محمد الملقب بالمهدي .

ولم تكن طريق أبي جعفر ومساربه التي سلكها لتحقيق هذه الأهداف نظيفة ، بل كانت مشوبة بالغدر ونقض العهود بصورة متكررة ، فضلا عن افتعال الظروف التي تمكنه من الوصول إلى أهدافه ، مع الاستعانة بالمال إن لزم الأمر ، على الرغم من أنه اشتهر بالبخل الشديد على نطاق واسع .

الخلافة العباسية في مرحلة استقرار نسبي:

مرت الخلافة العباسية في فترة استقرار نسبي بعد وفاة أبي جعفر المنصور امتدت من سنة ١٥٨ هـ/٧٧٥م حتى سنة ١٩٣هـ/٨٠٩م . وقد حكم في هذه الفترة ثلاثة خلفاء هم محمد المهدي ، إبن أبي جعفر المنصور ، وموسى الهادي ، وهو ابن محمد المهدي ، ثم أخوه هارون الملقب بـ «الرشيد» . وقد كانت تلك الفترة قمة ازدهار وقوة الخلافة العباسية ، وأزهى فترات الرخاء في تاريخها كله ؛ بيد أنها كانت – في الوقت نفسه – تخبئ وراءها كوارث انفجرت سريعا واجتاح لهبها ودمارها مناطق واسعة بدءا من خراسان في الشرق إلى بغداد ومحيطها في الغرب .

الطريق إلى الأزمة: حرب الوراثة:

في سنة ١٧٣ هـ أعلن الخليفة العباسي هارون ، الملقب بالرشيد ، ابنه محمد وليا للعهد ، وأخذ له البيعة ، ومنحه لقب «الأمين» . وقد قيل إن السبب الذي دفع هارون لاتخاذ هذه الخطوة هو إحساسه بأن نفرا من أبناء الأسرة العباسية أخذوا يتطلعون إلى منصب ولاية العهد ، فأراد أن يقطع عليهم الطريق .

ولدينا رواية أخرى تفيد أن الأمين صار وليا للعهد سنة ١٧٥هـ ، وقد ضم إليه الشام والعراق في تلك السنة . فإذا كان هذا الإجراء قد اتخذ سنة ١٧٣هـ فإن محمد الأمين كان عمره ثلاث سنوات فقط عندئذ ؛ وفي الحالة الثانية كان عمره خمس سنوات ، أعني سنة ١٧٥هـ . وبعد ثماني سنوات أخذ الرشيد البيعة لابنه عبدالله (المأمون) في الرقة ، وولاه من حد همذان إلى آخر المشرق (حدود الصين)[١] ، وكان

(١) **الطبري** ، م ٨ ، ص ٢٤٠-٢٤١ و٢٧٥

عمر المأمون إذ ذاك اثنتي عشرة سنة . وفي سنة ١٨٦هـ حج الرشيد ، وجدد البيعة لابنه المأمون ، وبدا حريصا على التزام ولديه بالشروط التي حددها لهما ، وأشهد على ذلك كبار العلماء في البيت الحرام ، وأمر بالاحتفاظ بنسختين من كتاب ولاية العهد - وما تضمنه من شروط - في بيت الله العتيق ، لإضفاء شئ من الحرمة المبالغ فيها ، وشيئا من القداسة عليها . ثم إن الرشيد بايع لابنه القاسم ، ولقبه بـ «المؤتمن» ، وولاه الجزيرة والعواصم والثغور [1] . ويلاحظ أن ابنا آخر له تولى الخلافة لم يدخل ضمن هذه الإجراءات ولم يرد له ذكر فيها ، وهو المعتصم . وقد قيل في تفسير ذلك أنه كان أميا [أو شبه أمي ، وهذا تحفظ من المؤلف الحالي] ، كما قيل إن الخلافة سقطت في حجره عن طريق الحظ . وبطبيعة الحال لم يكن هؤلاء الأطفال الذين ولاهم أبوهم ولاة حقيقيين ، بل كان هناك أشخاص من كبار رجال الدولة عينهم الخليفة ليباشروا واجبات الولاية العملية نيابة عن أبنائه ، بينما يظل الإسم لابن الخليفة .

وهكذا فإن هارون الرشيد لم يقتصر على رسم خطة ولاية العهد لثلاثة من أولاده ، بحيث تنتقل من الأول إلى الثاني إلى الثالث بالترتيب ، ويتبعها تولي الخلافة بطبيعة الحال ، لكنه أضاف إليها إجراء جديدا آخر لم يعرف من قبله في الدولة الإسلامية ، وكان هو أول من سنه ، ونعني بذلك أنه قسم أراضي الدولة بين أبنائه الثلاثة ، بل وقسم البشر ، بالتبعية ؛ وجعل لكل من أبنائه الثلاثة عسكرا وجيشا وقادة عسكريين وإداريين يعاونونه ، بل يقومون بكل واجبات العمل نيابة عنه ، لصغر سنه وقلة خبرته ، أو لانصرافه - بعد أن يكبر - إلى الاستمتاع بما يتاح له على أوسع نطاق . ومن الواضح أن «الرشيد» كان حريصا على تلافي حصول تنازع بين أولاده بعد موته ، ولذلك اتخذ كل هذه الإجراءات من كتابة النصوص المطولة لوثائق التعيين ، وحفظ نسخ منها في الكعبة الحرام ؛ وفضلا عن ذلك فقد أصدر منشورا عاما جرى توزيعه على ولاة أقاليم الدولة كلها ، مع أوامر بإعلانه في المساجد لكل الناس .

ولم تظهر لنا المصادر أي اعتراض من جانب كبار رجال الدولة ، أو الشخصيات العباسية البارزة ، حتى ولا من جانب كبار الفقهاء والعلماء ، أو من كانوا محسوبين في زمرة العلماء . ومع ذلك فإن الاعتراض جاء من العامة ، من أناس بسطاء أو عاديين ، وكانت اعتراضات تعكس في ثناياها الحزن والألم والاستهجان والإنذار

---

(١) **الطبري** ، مجلد ٨ ، ٢٧٦ -٢٧٧ و٢٨٠ -٢٨١ و٢٨٦ و٣١٦

بالعواقب ، والتخطئة ، مع تستر أولئك المعترضين الناقدين الأفراد لأنهم بسطاء لا قوة لهم تحميهم . فقد أخبرنا الإمام الطبري بما يلي :

«ولما قسم الأرض بعد موته [أي الرشيد] ، قال بعض العامة : قد أحكم أمر الملك . وقال بعضهم : **بل ألقى بأسهم بينهم ؛ وعاقبة ما صنع في ذلك مخوفة على الرعية . . .» وقال الشعراء فمن قول بعضهم :**

أقـــول لغـــمـــة في النفس مني
ودمـــع الـــعـــين يـــطـــرد اطـــرادا
خـــذي لـلـهـــول عـــدته بحـــزم
ســـتلقي مـــا ســـيـــمنعك الرقـــادا

. . .

رأى الملك المهـــــذب شـــــر رأي
بقـــســـمـــتـــه الخـــلافـــة والبـلادا
رأى مـــا لـــو تـعـــقـــبـــه بعـلم
لبـــيض من مـــفـــارقـــه الســـوادا
أراد بـه لـيـــقـــطـع عن بنيـــه
خـــلافـــهم ويبـتـــدلوا الودادا
فـــقـــد غـــرس العـــداوة غـــيـــر آل
وأورث شـــمـل ألـفـتـــهـم بدادا

. . .

فـويـــل لـلـرعـــيـــة عن قـليل
لقـــد أهدى لهـــا الكرب الشـــدادا

. . .

ســتـــجـــري من دمـــائهم بحـــور
زواخـــر لا يرون لهـــا نفـــادا
فـــــوزر بلائهـم أبدا علـيـه
أغـــيـــا كـــان ذلك أم رشـــادا [١]

---

(١) **الطبري** ، م ٨ ، ص ٢٧٥ – ٢٧٧

والقصيدة تضم اثني عشر بيتا ؛ وقد حذفت منها ما تضمن معاني مكررة ، رغبة مني في الاختصار .

وبعد ذلك توجه الرشيد إلى خراسان سنة ١٩٣هـ /٨٠٩م ، وهناك جدد البيعة للمأمون على جميع من في عسكره من القواد وغيرهم ، وقد أوصى له بجميع ما معه من الجند والأموال وغيرها ، ولم يلبث طويلا حتى أحس بدنو أجله وهو في طوس ، ومات بها . وبموت الرشيد انتقلت الخلافة إلى محمد الأمين ، حسب الترتيب الذي أشرنا إليه . وقد استوزر الأمين الفضل بن الربيع الذي كان وزيرا لأبيه ، وكان الفضل بصحبته في خراسان عندما حضرته الوفاة . وقد تجاهل الوزير ابن الربيع ما كان قد أوصى به الرشيد للمأمون ، وحرص على أخذ الجند والأموال وعاد بها إلى بغداد ، فارتفعت منزلته عند الأمين [1] . ولا مراء في أن الفضل ابن الربيع كان يعرف – بطبيعة الحال – أن الخلافة ستكون للأمين ، ولذا أراد أن يتخذ عنده يدا ، أي أن يقدم له شيئا مهما حتى يضمن أن يظل في الوزارة ، وأن تصير أمور الدولة كلها في يده . وقد تم له ذلك . ومن الواضح أن فعلته هذه قد بغضته إلى المأمون وأتباعه ، والذنب يجر ذنبا غيره ، فأصبح الوزير يسعى لأن يضعف المأمون ويبعده عن ولاية العهد ، ليتلافى انتقامه إن صارت إليه الخلافة أو صار في مركز قوة . أما المأمون فقد اعتمد على وزيره الفضل بن سهل . وما لبث الأمين أن أخذ يسعى لإبعاد المأمون عن ولاية العهد وليصير ابنه موسى وليا لعهده ؛ وكان موسى رضيعا لم يبلغ مرحلة الفطام . وكان من أولى خطوات الأمين إقناع قادة الجيش بما كان يخطط له . وقد حذره بعضهم من خطورة توجهه ، لكنه لم يعدم وسائل لتليين مواقف المعارضين . ثم إنه كتب إلى أخيه المأمون يطلب منه التنازل عن ولاية العهد لصالح موسى إبن أمير المؤمنين . وما لبثت طلبات الأمين أن اتسعت ، إذ كتب يطلب أن يكون له مندوب في الري ، رجل مخابرات بمصطلحاتنا الحديثة ، أو صاحب خبر حسب الاصطلاح الذي كان مستعملا آنذاك ، لينقل له الأخبار التي تهمه . ولم يقف عند هذا الحد ، بل طلب من المأمون تسليمه بعض المناطق الغنية ، وأن يحول له قسما من الأموال ، لإن خراسان أقليم واسع وغني ، وتزيد الأموال المتحصلة منه عن حاجة المأمون . وقد رفض المأمون كل هذه الطلبات . فما كان من الأمين إلا أن أمر بقطع ذكر اسم المأمون

(١) إبن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٦ ، ص ٢٢٣ .

في خطب الجمعة ، إذ كان المتبع ذكر الخليفة ، ثم ذكر ولي العهد من بعده ، وبدلا من ذلك صار يذكر اسم موسى بن أمير المؤمنين . وهكذا تسارعت الأحداث ، وأخذ الأمين يستعد لاستخدام القوة العسكرية ، وما لبث أن كلف علي بن عيسى بن ماهان بقيادة جيش من خمسين ألف فارس والتوجه به إلى خراسان ، وأمده بما يلزم من الرجال والأموال والعتاد ، وذلك ليحضر المأمون بالإكراه إن لم يرضخ ويأت طوعا . وقد أبدت زبيدة ، أم الأمين اهتماما بمصير عبدالله المأمون لأنها كانت تعطف عليه ، وكلمت القائد علي بن عيسى بن ماهان ، وأمرته أن يرفق به ولا يوجه له أية إهانات بل يقدمه على نفسه باعتباره أميرا وأخا للخليفة . ولم تنس أن تعطيه قيدا مصنوعا من الفضة ليقيد به المأمون [١] . وتحرك الجيش نحو خراسان ، ووقعت أول مواجهة قرب مدينة الري . ولم يكن المأمون – أو لم يكن الفضل بن سهل – غافلا عما يجري ، لذا فقد استعد له استعدادا جيدا . وكان قائد جيش الأمين شديد الغرور ، شديد الاستهانة بطاهر بن الحسين ، شديد الاستهانة بالقوات الخراسانية ، خاصة لما لا حظ قلة عددها بالنسبة للقوات التي كانت تحت إمرته . ثم إنه كان يعتقد أن أهالي مدينة الري سيكونون في صفه . وقد نجحت القوات المأمونية المدافعة ، بقيادة طاهر بن الحسين ، بإلحاق هزيمة سريعة بالقوات الغازية ، فقتل في المعركة علي بن عيسى بن ماهان ، وعلى ذلك أعلن المأمون أنه الخليفة . وقد صاحب ذلك كله دعاية صاخبة من الجانبين ، كل يلقى باللائمة على الطرف الآخر .

ولما علم الأمين ووزيره بحجم الهزيمة التي حلت بقواته وقتل قائدها سارع بإعداد جيش آخر ضم إليه عشرين ألف رجل ، وجعل قيادته إلى عبد الرحمن بن جبلة الأبناوي [٢] » ، ووجهه إلى همدان وولاه إياها ، كما ولاه على كل ما يمكن أن يفتحه من

---

(١) *المصدر نفسه* ، مجلد ٦ ، ص ٢٢٧ – ٢٤٠ .

(٢) ورد اسم هذا القائد عند المؤرخين بأكثر من صورة ، فعند الطبري (مجلد ٨/ص ٣٩١) عبد الرحمن بن جبلة الأبناوي ، أما إبن الأثير (*الكامل* /٦/ ص ٢٤٦) فقد ذكره بإسم عبدالرحمن بن جبلة الأنباري . وقد رجحت ما ورد عند الطبري ، على أساس أن «الأبناوي» منسوب إلى «الأبناء» ، وهم قسم من الجند الذين حاربوا من أجل إقامة الدولة العباسية في مراحلها الأولى فكرمتهم الدولة بهذه التسمية ، وقد ورد ذكرهم عدة مرات في سياق الأحداث التي نتناول بعض فصولها هنا ، وأشير إليهم باسم «الأبناء» .

خراسان . وسار الأبناوي ، بجنده من الأبناء ، إلى مقر ولايته الجديدة وحصن المدينة ورمم سورها ، واتخذها قاعدة لتحركاته . ولم تكن همدان عندئذ ضمن ولاية المأمون .

وسرعان ما تحرك طاهر بن الحسين ، قائد قوات المأمون ، فزحف صوب همدان . واشتبك الجيشان في معركة غير حاسمة ، إلا أن جيش الأمين ما لبث أن انهزم ، واضطر إلى دخول المدينة من أجل الاحتماء بأسوارها . والنتيجة التلقائية لمثل هذه الهزيمة أن تخضع القوات المحتمية بالأسوار إلى الحصار ، وظلت محاصرة فترة تمكنت من احتمال توابعها ، لكنها ما لبثت أن عجزت عن الصمود للحصار . واضطر عبدالرحمن الأبناوي إلى طلب الأمان وأعطيه ، وخرج بقواته من المدينة . وأثناء الحصار لم يكن طاهر بن الحسين وقواته في إجازة أو راحة ، ولم يقتصر نشاطهم على مراقبة ومتابعة عملية الحصار بل إن طاهر استولى على مدينة قزوين ، كما استولى على سائر مقاطعات منطقة الجبل ، وهي في الجزء الشمالي من جبال زاغروس ، وطرد منها الولاة المعينين من قبل الأمين . وعندما نجحت عملية الحصار وخرجت قوات الأمين من همدان أصبحت قوات المأمون تطل على العراق من مرتفعات بلاد الجبل ، وتقف على حافته(١) .

وفي هذه الأثناء قام القائد المهزوم عبدالرحمن بن جبلة الأبناوي بمحاولة تعتبر غدرا بعد أن كان طلب الأمان ليخرج وقواته من الحصار الذي كان مضروبا عليهم في مدينة همدان ؛ فقد ظن أن قوات المأمون أهملت الحذر فأصبحت مكشوفة بحيث يستطيع أن يفاجئها بقواته بهجوم مباغت . وكانت المباغتة صدمة مفاجئة لطاهر بن الحسين وقواته ، لكنهم تمكنوا من امتصاص الصدمة ، واستعادوا زمام المبادرة ، وشنوا هجوما مضادا ألحق الهزيمة بقوات بغداد وقتل قائدها الأبناوي ، وفرت قوات الأبناء مهزومة متجهة إلى العاصمة العباسية . وبينما يغذون السير إلى بغداد في حالتهم المزرية قابلتهم قوات عظيمة أرسلها الأمين لنجدتهم ، ورأى القادمون للإنجاد بؤس المنهزمين ، فانتقلت إليهم مشاعر الرعب والهلع فولوا منهزمين دون قتال ، بصحبة من سبقوهم إلى الهزيمة واتجه الجميع إلى بغداد (٢) .

وهكذا وجد طاهر بن الحسين الطرق أمامه وأمام قواته مفتوحة إلى بغداد وغيرها من مدن العراق ونواحيه . ولم يضيع الفرصة ، فأخذ يستولى على البلاد حتى وصل

---

(١) الطبري ، ***تاريخ*** ، مجلد ٨ ، ص ٤١٢ – ٤١٧ ؛ إبن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٦ ، ص ٢٤٧ – ٢٤٧ .

(٢) إبن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٦ ، ص ٢٤٨ .

إلى مشارف مدينة السلام ، حيث اتخذ لقواته مكانا لتمركزها قريبا من المدائن . وهناك وجه إليه الأمين جيشا بعد جيش ، وكلما جاء جيش ألحق به الهزيمة . ويبدو أن رجال الأمين فكروا في أسلوب جديد حيث لجأوا إلى استخدام المال لإغراء قادة جيش طاهر بن الحسين . وقد فعل المال ما عجز السيف عن فعله ، وكلف الأمين عددا كبيرا من الجواسيس بالاندساس في جند طاهر ، وبذل مبالغ هائلة من الأموال ، ومن الطيب فخرج خمسة آلاف من قادة جيش طاهر وجنوده فانضموا إلى أنصار االأمين ، بل وأبدى بعضهم التمرد على طاهر وشغبوا عليه ، ثم انضموا إلى عسكر الأمين . وعندما ظهر هذا الخلل وتلك الثغرة تشجع الأمين ومستشاروه فحركوا قوات لتشتبك مع جند طاهر المتمركزين في صرصر ، قرب المدائن ، ونشبت معركة انهزم فيها جند الأمين .

القوات المأمونية تحاصر بغداد:

وعندما حلت سنة ١٩٧هـ لجأ طاهر إلى فرض الحصار على بغداد وتطور الصراع إلى حالة من الفوضي ، وتعرضت كثير من أحياء ومناطق مدينة السلام للضرب بالمنجنيقات والعرادات (آلات حربية تقذف الحجارة ، أو هي مدفعية وصواريخ ذلك الزمان) ، ثم لجأ الفريقان إلى حرق الأحياء وهدم بعضها ، وسد وفتح الطرق ، «فكثر الخراب ببغداد والهدم ، ودمرت المنازل ؛ ووكل الأمين عليا (أفراهمرد) بقصر صالح وقصر سليمان بن المنصور إلى دجلة ، فألح في إحراق الدور والدروب ، والرمي بالمجانيق ، وفعل طاهر مثل ذلك . ثم دخل حلبة القتال عنصر شعبي من عامة بغداد . وقيل إن قائدا من أهل خراسان من رجالات طاهر بن الحسين كان يعتبر من أهل البأس والشجاعة ، خرج يوما يريد القتال ، فنظر إلى من سيقاتلهم فوجدهم عراة لا سلاح معهم ؛ فقال لجنده : أهؤلاء الذين يقاتلوننا - وذلك احتقارا لهم - فقيل له نعم ، هؤلاء هم الآفة . فوبخهم واستنكر انهزامهم . ثم تقدم نحو أولئك الأعداء ليرميهم بسهام قوسه ، فجعل كلما رمى العيار[1] بسهم استتر منه ، ثم التقط

(١) العيار واحد من العيارين ، عرفوا في بغداد عبر القرون . وكانوا فقراء ، يفضلون سرقة الأغنياء ، وكانت لهم بعض القواعد الأخلاقية تمنعهم عن سرقة الفقراء والضعفاء ، بل وتحملهم أحيانا على مساعدة تلك الفئة من الناس ، وكانوا يوصفون بالشجاعة والشهامة ، لكنهم لم يكونوا جميعا كذلك .

السهم . . . إلى أن فرغت جعبة سهامه ، ثم جاء دور العيار ليهاجم ، فوضع حجرا في مقلاعه وقذف الخراساني به فلم يخطئ عينه . ثم رماه بحجر آخر فكاد يصرعه ، فانهزم لا يلوي على شئ وهو يقول هؤلاء ليسوا بشرا . وأمام هذا العجز شرع جند طاهر يهدمون الأحياء ، وجند الأمين يفعلون الشئ ذاته . وعندما حلت سنة ١٩٨هـ صمم طاهر بن الحسين على اقتحام بغداد ، وتم له الاستيلاء عليها ، وفر الأمين وركب في قارب ليهرب لكن جند طاهر أدركوه وقتلوه ، وذلك في اليوم الرابع والعشرين من شهر محرم من تلك السنة (١) .

ملامح من شخصية محمد الأمين:

بعد أن تولى الأمين الخلافة ، وبايعه أخوه المأمون وشعر بالإطمئنان ، بدأ يسعى لتوفير مستلزمات وأدوات السعادة والمتعة كما تصورها ؛ ولدينا صور ومشاهد حفظتها لنا المصادر ، خاصة الإمام محمد بن جرير الطبري الذي لايفصل بينه وبين موت الأمين سوى ست وعشرين سنة فقط . (٢)

روى الطبري عن حميد : «ولما ملك محمد [الأمين] ، وجه إلى جميع البلدان في طلب الملهين وضمهم إليه ، وأجرى لهم الأرزاق ، ونافس في ابتياع فره [جمع فاره ، أي المرتفع العالي] الدواب ، وأخذ الوحوش والسباع والطير وغير ذلك ، واحتجب عن إخوته وأهل بيته وقواده واستخف بهم ، وقسم ما في بيوت الأموال ، وما بحضرته من الجوهر في خصيانه وجلسائه ومحدثيه ، وحمل إليه ما كان في الرقة من الجوهر والخزائن والسلاح ، وأمر ببناء مجالس لمتنزهاته ومواضع خلوته ولهوه ولعبه بقصر الخلد ، والخيزرانية ، وبستان موسى ، وقصر عبدويه ، وقصر المعلى ، ورقة كلواذى ، وباب الأنبار ، وغيرها . وأمر بعمل خمس حراقات (٣) في دجلة ، على

---

(١) إبن الأثير ، ***الكامل في التاريخ*** ، مجلد ٦ ، ص ٢٦٨ - ٢٨٩ ؛ الطبري ، تاريخ ، مجلد ٨ ، ص٤٣٢ - ٤٩٨ .

(٢) إنظر نبذة مختصرة عنه مما كتبه ابن الأثير بمناسبة وفاة الطبري ، ضمن أحداث سنة ٣١٠هـ : إبن الأثير ، ***الكامل في التاريخ*** ، مجلد ٨ ، ص ١٣٤ - ١٣٦ .

(٣) سفن أو يخوت نهرية فاخرة ، والأصل في التسمية أنها تقذف نارا على الأهداف المعادية .

خلقة الأسد ، والفيل ، والعقاب ، والحية والفرس ، وأنفق في عملها مالا عظيما ، فقال الشاعر أبو نواس يمدحه :

سخر الله للأمين مطايا
لم تسخر لصاحب المحراب
فإذا ما ركابه سرن برا
سار في الماء راكبا ليث غاب
أسدا باسطا ذراعيه يهوى
أهرت الشدق كالح الأنياب
لا يعانيه باللجام ولا السوط
ولا غمز رجله في الركاب
عجب الناس إذ رأوك على
صورة ليث تمر مر السحاب
سبحوا إذ رأوك سرت عليه
كيف لو أبصروك فوق العقاب
ذات زور ومنسر وجناحـ
ـين تشق العباب بعد العباب
تسبق الطير في السماء إذا ما
استعجلوها بجيئة وذهاب
بارك الله للأمير وأبقا
ه وأبقى له رداء الشباب
ملك تقصر المدائح عنه
هاشمي موفق للصواب

وقد ذكر عن الحسين بن الضحاك قال : «ابتنى الأمير سفينة عظيمة أنفق عليها ثلاثة آلاف ألف درهم [ثلاثة ملايين] ، واتخذ أخرى على خلقة شئ يكون في البحر يقال له الدلفين ،» فقال في ذلك أبو نواس ، الحسن بن هانئ :

قد ركب الدلفين بدر الدحى
مقتحما في الماء قد لججا

فـــأشـــرقت دجلة فـي حـــســــــنـه
وأشـــرق الـشطان واســــتــبـــــهـجـا
لـم تـــر عـــيـنـي مـــثله مـــركـــبـا
أحــــسـن إن ســـــار وإن أحــنجـا
إذا اســـتـــحـــثـتـه مـــجـــاديـفــه
أعــنـق فـــــــوق الماء أو هـمـلـجـا
خـــص بـــه الـــلـــه الأمـــــين الـــذي
أضـــحى بتـــاج الملك قـــد توجـا (١)

ونحن لم نورد هذه الروايات والأبيات الشعرية لتسلية القارئ أو إمتاعه بشعر أبي نواس ، بل أوردناها لنلفت النظر إلى ما وصل إليه تفكير «الخلفاء» والحكام ، عندما وصلت «الخلافة» إلى أزهى عصورها ، وفي عهد أشهر الخلفاء وأقواهم – هارون الرشيد – كيف يتصرف بالخلافة والدولة وبأمة الإسلام منطلقا من عاطفته نحو أولاده ، فيورثها لمحمد الأمين أولا وهو هذا النوع من الشباب المتهتك الذي لا هم له إلا المتع ، وتبديد المال العام ، وكأنه ماله الشخصي . وحتى لو كان المال ماله الشخصي فهل كان يجوز له أن يتصرف به على هذا النحو؟ وماذا كان موقف العلماء والفقهاء وعلية القوم؟ لقد صارت هذه التصرفات هي النموذج الذي لا يثير اعتراضا ، ولا يلحظه الناس إلا عندما تحل بهم الأزمات والكوارث . وربما يتساءل القارئ عن موقف الوزير رئيس الوزراء ، الفضل بن الربيع ، أمام كل هذه التصرفات الطائشة من ذلك الخليفة الصبي؟؟ والجواب أن الوزير كان حرصه الأكبر محصورا بغباء في المحافظة على منصبه وسلطاته ؛ ولذا فقد اعتبر أن أي اعتراض على تصرفات الخليفة الصبي سوف يجعله يستوزر غيره ؛ وهنا تصطدم الأنانية العمياء بأبسط مقتضيات التفكير السليم حتى لشخص بسيط أو أمي . ويمكن أن يقال ضمن الإجابة على السؤال : إن الوزير كان يفضل أن ينشغل الخليفة بلهوه ويترك التصرف بمهام الدولة الأخرى للوزير وحده .

(١) المصدر نفسه ، ص ٥٠٩ – ٥١٠ ، و٥١٢ – ٥١٧ ؛ وانظر : إبن الأثير ، ***الكامل في التاريخ*** ، مجلد ٦ ، ص ٢٩٣ – ٢٩٥ ؛ وانظر ***ديوان أبي نواس*** ، تح . د . عمر الطباع ، ١٩٩٨ ، ص ١٤١ .

عبدالله المأمون (١٩٨-٢١٨هـ):

صار المأمون خليفة بعد قتل أخيه **محمد الأمين** . وقد وصف بأنه «كان أفضل رجال بني العباس حزما ، وعزما وحلما وعلما ورأيا ودهاء وهيبة وشجاعة وسؤددا وسماحة . . . ولم يل الخلافة من بني العباس أعلم منه ، وكان فصيحا مفوها .[١] .» ولسنا نؤرخ للأفراد ، لكن هذه الصورة العامة المجملة تمثل ما تناقلته الأجيال عن المأمون الذي استمر حكمه عشرين سنة تقريبا . ومع ذلك فإن السنوات الست الأولى من خلافة المأمون كانت طافحة بالفوضى والكوارث بالنسبة لأهل بغداد . ذلك أن المأمون ظل في خراسان ، وفي مدينة مرو . ويبدو أن سلطته كانت إسمية ؛ ولم تكن له تلك الصفات وتلك الشخصية التي نقلتها لنا الروايات التاريخية ؛ بينما السلطة الحقيقية كانت في أيدي معاونيه الخراسانيين . وهنا يمكن أن نقول إن الحرب التي انتهت بقتل الأمين كانت حربا بين حاشية الأمين ومعاونيه - أي المشرفين عليه والموجهين له - من ناحية ، وبين حاشية المأمون ومعاونيه والموجهين له من ناحية أخرى . لقد ورث «الرشيد» المنصب الأعلى لصبيين ؛ وبما أن الحكم كان فرديا ، فلم تكن هناك هيئة تسد الفراغ أو تستطيع أن تمنع الانفلات . وحتى كبار أبناء الأسرة العباسية لم يكونوا يستطيعون فعل شئ ، لأن الترتيبات انبنت على مبدأ إبعادهم عن مراكز القوة ، لأنهم كانوا يشكلون خطرا على أولياء العهود ؛ وكان من لوازم الأمان وجود حراس مخلصين ، من خارج الأسرة الحاكمة ، يتولون حماية الخلفاء وأولياء العهود من الأقارب الذين قد يطمعون في اختطاف المنصب الأعلى في عالم الإسلام ، كما حدث طوال العهد الأموي ، والعهد العباسي . وأضعف من هؤلاء كان كبار الفقهاء ومشاهير العلماء ، لأنهم وأسلافهم طوروا مبدأ يجسد ويثبت الطاعة المطلقة ، وعدم جواز نقد ولي الأمر حتى لو فعل كل منكر ، بشرط أن لا يعلن أنه ملحد أو كافر بشكل علني ، أي «زنديق»[٢] ؛ وبجانب ذلك فإن كثيرا من العلماء أفسدهم الحرص على المال والعطايا .

وفي السنوات الست التي تلت قتل الأمين وصيرورة الخلافة إلى المأمون عانت بغداد وعانى العراق أشد المعاناة من الصراعات بين أفراد الطبقة الثانية من بنية

(١) السيوطي ، *تاريخ الخلفاء* ، ٣٠٦ .

(٢) وهذه لفظة من أصل غير عربي .

السلطة . ويبدو أن الدسائس والدس أقنعت المأمون بأن يعزل وزيره وقائد حربه طاهر بن الحسين ، ويبعده عن مركز السلطة إلى ولاية نائية في شمال سوريا ، ليحل محله في قيادة سياسة الدولة ربان جديد هو الفضل بن سهل . وقد تم هذا التغيير بمجرد القضاء على الأمين وخلافته ، في أوائل سنة ١٩٨هـ . فكان من مظاهر الفوضى في عاصمة الخلافة أن الفساق «والشطار الذين كانوا ببغداد والكرخ آذوا الناس . . . وأظهروا الفسق وقطع الطريق ، وأخذ النساء والغلمان علانية من الطرق ؛ فكانوا يجتمعون فيأتون الرجل فيأخذون ابنه فيذهبون به فلا يقدر أن يمتنع . وكانوا يفرضون الإتاوات على الناس وينهبون المال والمتاع من القرى ، لا سلطان يمنعهم ، ولا يقدر على ذلك منهم ، لأن السلطان [أي صاحب السلطة الرسمية] كان يعتز بهم ، وكانوا بطانته [أي أعوانه] ، فلا يقدر أن يمنعهم من فسق يركبونه . وكانوا يجبون المارة في الطرق ، وفي السفن ، وعلى الظهر .» أي أنهم كانوا يفرضون ضريبة مرور على المشاة ، وركاب السفن النهرية ، وراكبي الدواب ؛ كما كانوا يخفرون البساتين ، أي يفرضون عليها الحماية لقاء مبالغ يبتزونها من أصحابها ، ويقطعون الطرق علانية . «ثم كان آخر أمرهم أنهم خرجوا إلى قطربل ، [إحدى المدن القريبة من بغداد] فانتهبوها علانية ، وأخذوا المتاع والذهب والفضة والغنم والبقر والحمير وغير ذلك ، وأدخلوها بغداد وجعلوا يبيعونها علانية . وجاء أهلها . . .» فاشتكوا إلى من بيدهم السلطة الرسمة وطلبوا منهم إنصافهم فعجزوا ، ولم يردوا عليهم شيئا ، وذلك في آخر شعبان سنة . . .» ٢٠١هـ .[١]

وعلى أثر ذلك يئس الناس من أي إجراء تتخذه السلطة ، وقام أفراد من صلحاء الناس من ذوي الشخصيات القوية فدعوا بعضهم بعضا وتحملوا مسئولية مواجهة هذا الوضع ؛ وبادر أحدهم ، واسمه خالد الدريوش ، «فدعا جيرانه وأهل بيته وأهل محلته على أن يعاونوه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فأجابوه ، وشد على من يليه من الفساق والشطار . . . فهزمهم ، وأخذ بعضهم فضربهم وحبسهم . . .» ثم قام غيره وفعلوا مثل فعله[٢] .

ونتيجة لهذه الفوضى ، ولما تركته في النفوس ، ضعف الاحترام لخلافة المأمون ،

---

(١) الطبري ، مجلد ٨ ، ص ٥٥١ .

(٢) *المصدر نفسه* ، ص ٥٥١-٥٥٤ .

وجرت محاولات لتنصيب غيره ، وقبل بعض العباسيين أن يسمى نائبا عن الخليفة ، ثم قبل إبراهم بن المهدي أن يكون الخليفة ، واتفقت جماعات على خلع المأمون ، كل ذلك والمأمون لا يدري . ثم قام أناس بنقل هذه الأخبار إلى المأمون ، فلم يصدق – في بادئ الأمر – أن وزيره ومؤتمنه الفضل بن سهل كان يخفي عنه أخبار كل هذه الأحداث ، فلما تحقق من ذلك توجه إلى العراق ، وقد تخلص من الفضل بن سهل . ويبدو أن المأمون أحس بالخطر المحقق ، فتصرف بحذر شديد ، وأمر بإلقاء القبض على قتلة الفضل بن سهل ؛ وقد ذكر أنهم قالوا له : أنت أمرتنا بقتله

لقد اهتم المأمون بثقافة عصره فوصل فيها مكانا عليا ، وعمل على إشاعة ذلك في المجتمع الذي حكمه ، فأنشأ دار الحكمة ، ورعى وشجع الأدباء والعلماء والشعراء ، واهتم بترجمة الكتب عن اللغة الإغريقية . لكنه لم يقف عند حدود التشجيع والرعاية والإنفاق ، بل انغمس هو نفسه في هذا النشاط العلمي والفكري ، وذلك يدل على صدق توجهه وشغفه بالعلم . بيد أن هذه الصورة البهية سرعان ما انتكست عندما اندفع في تعصبه لوجهات نظره ولما اعتقده ، فحاول فرض رؤيته على عقول النخبة في مجتمعه ، إن جاز لنا استعمال هذا التعبير . لقد أعجب بآراء المعتزله وتبناها ، وليس في ذلك ما يعيب ، لكنه حاول فرض ذلك ، لا بقوة الحجة وحدها ، بل بقوة السلطان ، بأساليب القسر والقهر المادي والفعلي . وهكذا انفلت يمارس اضطهاد المخالفين بعنف وشدة ، فكانت لذلك آثار سيئة وردود فعل تولد عنها سوء أكبر ، ألا وهو تعمق واتساع نطاق التعصب وضيق الأفق . وكانت الموضوعات الرئيسة التي دار حولها الجدل والخلاف هي : القول بـ «خلق القرآن» ؛ والقول بـ «عدم أمكان رؤية الله» أو «قدرة المؤمنين على رؤيته يوم القيامة» ، ثم مسألة «حرية الإنسان المسلم» ، وما إذا كان يستطيع أن يختار ويقرر ويفعل ، أم أنه مجرد من «الإرادة المستقلة» ، عنصر يحرك فيتحرك دون اختيار أو إرادة فاعلة . لا مراء في أن روح الانغلاق والتعصب في مجال العلم والفكر كانت موجودة قبل عصر المأمون ، وكان لها الكثير من المحفزات التي نبتت أثناء الصراع على السلطة والحكم قبل أن ينتصف القرن الهجري الأول ؛ بيد أن المأمون أضاف إلى النار حطبا ، وصب عليها زيتا فسعرها .

وقد آمن المعتزلة بحرية الإنسان وقدرته على الاختيار ، حتى وصفهم بعض المعجبين من الباحثين الحديثين بأنهم «**أنصار حرية الفكر في الإسلام**» ، بيد أن

إيمانهم المبدئي والنظري بهذه الحرية والقدرة لم يحملهم على كبح جماح تعصبهم لرأيهم ، فانزلقوا إلى ممارسة مصادرة حرية الفكر بالنسبة للآخر ، واستعانوا بالسلطة لقمع مخالفيهم فتساووا معهم ، بل إنهم كانوا أسوأ ، لأن الأخرين لم يقعوا في هذا التناقض بين المبدأ المعلن والممارسة العملية . لقد نفى المعتزله عن أنفسهم عمليا ما ادعوه نظريا .

وقد كان من شدة ردود الفعل الناتجة عن سياسة الاضطهاد والقهر العنفي السلطوي تخليق مشكلة للفكر الإسلامي لم تكن موجودة من قبل بذلك الوضوح وتلك الحدة والاستمرارية ، تمثلت في جنوح كثيرين من المنسوبين إلى العلم والعلماء نحو الانكماش والتحجر والخوف من المبادرة في التفكير والتأمل ، حيث التزموا بالسير في أنفاق صنعت وشيدت تدريجيا بغرض «حماية العقيدة والدين من البدع والانحرافات» ، عن طريق مسار محاط بجدران وسقف ، لإيقاف التفكير وعمل العقل عند النقطة التي كان وصل إليها السلف ، ولمنع ضوء الشمس وبرودة الهواء من الإضرار بهذا الكائن «العقيدي الفكري» الشديد الحساسية!!

ولا يفوتنا هنا أن ننوه ونؤكد أن المعتزلة كانوا مخلصين في التعبير عما اعتقدوا أنه الحق . وقد دافعوا عن العقائد الإسلامية دفاعا مجيدا[(١)] ، عجز مخالفوهم من أنصار فكرة الجبر واستبعاد ممارسة ملكة الاختيار أن يقدموا دفاعا مثله أو قريبا منه . ففي العصر الأموي ، وفي دمشق بالذات ، واجه العلماء المسلمون جدلا مسيحيا يتعلق بنبي الله عيسى عليه السلام و«ألوهيته» حسب المفهوم المسيحي . فقد كان المعتزلة يعلنون إيمانهم بأن القرآن كلام الله ، كما يقول مخالفوهم ، لكنهم - أعني المعتزلة - كانوا يضيفون إلى ذلك إن كلام الله مخلوق ومحدث ، خلقه الله وأحدثه . واستشهدوا على ذلك بما يجري في حياة الناس ، فالواحد من الناس يحدث كلامه ، وبتعبير آخر يخلق كلامه . وفي مقابل ذلك كان خصومهم يقولون إن كلام الله غير مخلوق ، إنه كلام الله فقط ، وكلام الله هو علمه ، وعلم الله قديم .

---

(١) الشيخ محمد أبو زهرة ، ***تاريخ التشريع الإسلامي*** ، مجلد ١ ، ص ١٨٧ - ١٨٨ .

وقد أمسك بهذه المقولة يوحنا الدمشقي ، أبرز وأكبر رجال الدين المسيحيين في عهد عبدالملك بن مروان ؛ فكان يوجه المسيحيين ويعلمهم الطريقة التي ينبغي أن يجادلوا بها المسلمين في المسائل العقائدية ، على النحو التالي :

أنتم أيها المسلمون تقولون : «إن القرآن كلام الله ، وأنه غير مخلوق ، وأنه قديم . وقرآنكم نفسه يقول : إن عيسى كلمة الله ، والنتيجة المنطقية التي تترتب على ذلك أن عيسى غير مخلوق ، وأنه قديم ، وهذا يعني ويؤكد أنه ابن الله ، وأنه إله (١) .

وهذا هو ما تصدى له المعتزلة بقولهم إن القرآن مخلوق وحادث ، ولم ينفوا أنه كلام الله ، وأكدوا أن الله – سبحانه وتعالى – هو الذي أحدثه وخلقه (٢) .

وعدا عن تبني المأمون لفكر المعتزلة فقد روت مصادرنا أنه مال إلى العلويين ، وأنه جعل علي الرضا بن موسى الكاظم ولي عهده ، وتبنى اللون الأخضر شعارا بدل شعار السواد . وقد قيل – من ناحية أخرى – أن ذلك كان خداعا منه للشيعة . وسندع هذه النقطة جانبا حتى لا نخرج عن موضوعنا الأساس ، ونمضي لنلقي نظرة عجلى على خلافة المعتصم .

محمد المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧ هـ):

لقد استمرت خلافة المعتصم فترة تقرب من تسع سنوات ، وكان أبرز ما سجل له فيها أنه واصل سياسة أخيه المأمون في اضطاد العلماء الرافضين لآراء ورؤية المعتزلة ، حيث قتل بعضهم وسجن وعذب آخرين ؛ وكان من بين هذا الفريق الأخير الإمام أحمد بن حنبل . أما الأمر الثاني الذي اشتهر به المعتصم فهو أنه توسع في شراء وجلب الغلمان والمماليك الأتراك حتى جعلهم القوة الرئيسية في الجيش العباسي ، وحتى اضطر لبناء عاصمة جديدة له – هي سر من رأى ، سامراء الحالية – لأن بغداد ضاقت بجنده الجدد . ولقد كان الجند والغلمان والمماليك الأتراك موجودين في الجيش العباسي ، وفي المجتمع الإسلامي من وقت مبكر ؛ لكن المعتصم

---

(1) Daniel J. Sahas, ***John of Damascus on Islam, The Heresy of the Ishmailites***, Leiden: Brill, 1972, pp. 113-122.

(٢) أنظر الهمداني ، القاضي عبدالجبار ، ***تثبيت دلائل النبوة*** ، ص ١٨٥ – ١٨٨ .

استكثرهم واستخدمهم على نطاق واسع ، الأمر الذي ظهرت له آثار سيئة سوف تبرز أمامنا ونحن نطالع أخبار عهد ابنه هارون (الواثق) . وقد كان الاعتقاد الدافع للإعتماد على المماليك هو الاعتقاد أنهم أطوع من العرب المنتمين إلى القبائل العربية ، والذين استقر في نفوسهم وسرى في دمائهم إلف الحرية في حياة الصحراء الواسعة التي لا ترى في داخلها الحدود والحواجز المادية الطبيعية المانعة للسير ، خاصة قبل العصر الحديث ؛ وكذلك أطوع من المسلمين العاديين الذين نشأوا في المجتمعات الإسلامية ، حيث يعرف الإنسان أنه حر يمكن أن يفكر ، ويستكشف الصحيح من الخطأ ، ويتجنب الخطأ أو يحاول الابتعاد عنه والتملص من ممارسته ، إن لم يقو على معارضته ، كما يعرف المعنى العام للمساواة بين البشر . وفكرة الحرية والمساواة يمكن أن تكون مانعا ، وعقبة ، تضعف الانحدار إلى موقف «الطاعة العمياء» عند كثيرين من الناس . وفكرة «الطاعة العمياء» موجودة حتى في عصرنا ، ونحن نلمسها عندما يبرر أحدهم إغراقه في الخطأ ، وارتكابه الجرائم لمنفعة غيره ، فيقول : «أنا عبد مأمور .» أما العبد المشترى بالمال فلا يعرف إلا الطاعة العمياء ، أو لا ينتظر منه إلا «الطاعة العمياء» ، والطاعة فقط دون أن يفكر في أي أمر آخر . وهكذا كان الجند الأتراك وغيرهم من المرتزقة ، ممن جرى شراؤهم بالمال ، في بداية عهدهم بالدخول في هذا النوع من التبعية أو العبودية . بيد أن الشخص الذي يبدأ حياته في إطار هذا النوع من العبودية ، ويحمل السلاح وتوكل إليه المهمات الكبيرة ، قتالية أو غير قتالية ، سرعان ما يكتشف أنه «ليس عبدا» ، بل إنه يستطيع أن يعمل أشياء كثيرة من غير أن يصاحب عمله شعور بالعبودية ؛ بل إنه قد يدرك أن في إمكانه أن يكون سيدا متسلطا ، طاغية ، أو دكتاتورا . وقد حدث هذا التحول في حياة الأفراد والمجموعات التي كانت تشترى بالمال لتشتغل بالحرب ، والأمثلة على ذلك كثيرة ؛ ولسنا نستطيع التوسع في الحديث عن هذه الظاهرة فنخرج عن موضوعنا[1] .

وثمة حقيقة أخرى لا بد من تسليط بعض الضوء عليها هنا ، وهي أن الجيش العباسي في عهد المعتصم وما بعده لم يكن كله من الأتراك ، وإنما كان جيشا متعدد الأعراق والأصول الإثنية . فمن الفرق التي وردت أسماؤها في المصادر مثلا نمر بذكر المغاربة ،الذين يوصفون في بعض الروايات بأنهم من البربر ، أي الأمازيغ . كما نمر بذكر

(١) أنظر موضوع شريحة العسكر ودورهم فيما يلي ، ص ٢٧٦ - ٢٨٦ فيما يلي .

فرقة من الأحباش ، نسبة إلى الحبشة ، أي إثيوبيا الحالية . وعدا عن ذلك نمر بذكر الفراغــنة ، والأشروســنية ، والخزر . فإذا مضينا مع السنين قليلا بعد عهد المعتصم نجد قادة عسكريين من الروم ، أي الإغريق ، أو اليونانيين ، لعل أبرزهم مؤنس الخادم ، وهارون بن غريب ، في عهد المقتدر والقاهر ؛ كما نجد عنصر الديلم . أما العنصر الذي غاب بعد حضور قوي ومتفرد فهو العنصر العربي ، إذ جرى استبعاده بصمت وفي هدوء .

وقد اشتهر المعتصم بنشاطه الحربي ؛ وكان من أبرز أعماله الحربية أنه قاد حملة ضخمة ضد الدولة البيزنطية ردا على غارة قام بها الروم البيزنطيون . وقد استولى جيش المعتصم على عمورية ، وكانت مسقط رأس الإمبراطور البيزنطي ، كما استولى على أنقرة . وقد واجهت المعتصم ثورة الخرمية ، بزعامة بابك الخرمي ، فكلفت الدولة أموالا وأرواحا كثيرة إلى أن تم إخمادها والقبض على بابك ، والمجيئ به إلى سامراء أسيرا سنة ٢٢٣ هـ . وكان الدور الأبرز في هذه الحرب للقائد التركي المعروف بالإفشين . وتقديرا لما قام به الأفشين أجلسه الخليفة وتوجه ، أي وضع على رأسه تاجا ، ومنحه عشرين ألف ألف درهم (عشرين مليون) ، وكتب له بولاية السند ، وأمر الشعراء أن يدخلوا عليه فيمدحوه على ما فعل من خير للمسلمين [(١)] . لكن ارتفاع شأن الإفشين لم يطل ؛ ففي سنة ٢٢٥ هـ وجهت له الاتهامات بالتآمر ضد الخليفة ، وضد المسلمين ، وبأنه كان يبطن الكفر ، فألقي القبض عليه ، وألقي في سجن خاص ظل فيه إلى أن مات في السنة التالية [(٢)] . وهذا يعني ببساطة ووضوح أن المعتصم نفسه بدأ يحس بخطر الجند المرتزقة الذين اشتراهم بالمال ، واعتمد على فرضية طاعتهم العمياء . لقد تبين عمليا أنهم لم يكونوا حسب المتوقع منهم ، بل صاروا هم الخطر الأكبر . وقد حدث هذا الإدراك خلال فترة خمس سنوات تقريبا بعد بدء الاعتماد على المرتزقة بشكل رئيسي . وسنجد أنه قد كان لهذا الخيار مساوئ أخرى ستتكشف أمامنا خلال عهد الواثق ابن المعتصم الذي تولى منصب الخلافة بعده مباشرة ، سنة ٢٢٧ هـ .

---

(١) إبن كثير ، ***البداية*** ، ج ١٠ ، ص ٢٤٠ – ٢٤٢ ؛ الطبري ، مجلد ٥ ، ٢١٦ – ٢٣٥ . (طبع بيروت) ، ومعنى أنه كتب له بولاية السند أنه عينه واليا على السند ، على أن يرسل لها نائبا عنه ويكون له (للإفشين) ما تدره من دخل .

(٢) إبن كثير ، ***البداية*** ، ج ١٠ ، ص ٢٤٨ – ٢٤٩ .

هارون، الواثق:

وقد واصل الواثق سياسة الاضطهاد لمن حملوا آراء المعتزلة ، ولم يتورع عن قتل بعضهم بيده ، خاصة عندما علم أن أصحاب الحديث يترددون على أحد الشخصيات الدينية البارزة ، أحمد بن نصر ، وأن بعضهم اتفقوا على القيام بنوع من الاحتجاج الصاخب بقرع الطبول ليلا في جانبي بغداد . كما نقل إلى الواثق أن أحمد بن نصر لا يتردد في وصفه (أي وصف الواثق) بالخنزير ، كما يصفه بالكافر كلما ذكر أمامه . وتأتي أهمية أحمد بن نصر هذا من أن جده كان من نقباء حركة الدعوة العباسية في مرحلة السرية ، وأنه صار من زعماء المتشددين ضد فكر المعتزلة . وقد عقد الخليفة مجلسا عاما ناظر فيه أحمد بن نصر بنفسه فسأله : «يا أحمد ، ما تقول في القرآن؟ قال : كلام الله . . . قال : فمخلوق هو؟ قال : كلام الله . قال : فما تقول في ربك ، أتراه يوم القيامة؟ قال : يا أمير المؤمنين ، جاءت الآثار عن رسول الله ﷺ » : «**ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر لا تضامون في رؤيته** .» ثم قال : إن نصيحته للخليفة ألا يخالف هذا الحديث . فسأل الواثق من كانوا حوله الرأي فيما يفعله به ، فقال أحدهم : «**هو حلال الدم**» ، وقال آخر : «**إسقني دمه يا أمير المؤمنين**» . وقد قتله الواثق بيده ، وأمر أن يصلب ، وعلقت في أذنه رقعة كتب فيها : **هذا رأس الكافر المشرك الضال**[1] . . ومن ناحية أخرى فقد واصل الواثق سياسة المعتصم في الاعتماد على المماليك ورفعهم إلى أعلى المناصب ، وقد توج القائد أشناس وألبسه وشاحين بالجوهر في شهر رمضان سنة ٢٢٨هـ ، وكان والده المعتصم قد توج هذا القائد نفسه ، كما توج الأفشين من قبله ؛ وقد كان القائد أشناس خزريا ، كما أخبرتنا المصادر . وقد كان لهذه التطورات آثار سلبية مدمرة لم يتأخر ظهورها سوى سنوات قليلة .

عودة البدو إلى الغزو والنهب الداخلي:

بعد أقل من ثلاث سنوات من موت المعتصم عادت إلى أفق جزيرة العرب ظاهرة كانت قد اختفت منذ انتهاء حروب الردة في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وصار لهذه الظاهرة العائدة من ظلمات الماضي ، صخب وأصداء ترددت حتى وصلت إلى

---

(١) الطبري ، مجلد ٥ ، ٢٨٢-٢٨٣ .

مقر الخلافة . لقد عاد الأعراب يهاجمون الناس بقصد السلب والنهب ، حتى في الحجاز نفسه ، «وغلظ أمر قبيلة بني سليم ، فاستباحت القرى والمناهل فيما بين مكة والمدينة حتى لم يمكن أحدا أن يسلك ذلك الطريق .[(١)] . فوجه إليهم الواثق بغا الكبير أبا موسى التركي في الشاكرية والأتراك والمغاربة ، فقدمها بغا في شعبان سنة ثلاثين ومائتين . . . وهزمهم بعد أن قتل منهم خمسين وأسر مثلهم . ثم توجه بغا بعد ذلك لمحاربة جماعات من بني فزارة وبني مرة ، كما هاجم بطون من قبيلة غطفان ، وقبائل أشجع وبني ثعلبة . ثم توجه إلى ضرية لملاحقة بني كلاب فاجتمع له منهم نحو ثلاثة آلاف رجل ، فاحتبس منهم ألفا وثلاثمئة اعتبروا من المفسدين وقطاع الطرق وأخلى سراح الباقين [(٢)] .» واستمرت مشكلة الأعراب بعد ذلك تظهر من حين لآخر . ومن أمثلة ذلك حملة عباسية قادها يانس الخادم ضد الأعراب في ناحية وادي الذئاب وما قرب من ذلك الموضع ، فقتل منهم سبعة آلاف رجل ، ونهب بيوتهم ، ووجد فيها من أموال التجار وأمتعتهم التي كانوا أخذوها بقطع الطريق عليهم مالا يحصى من كثرته . ثم توجه بقواته بعد ذلك إلى منطقة الحاجر ، على طريق الحجاج العائدين من مكة ، حيث قطع الأعراب الطريق على الراجعين من الحج وأخذوا ما معهم ، واستاقوا من جمالهم ما أرادوا ، وأسروا مائتين وثمانين امرأة من الحرائر ، بجانب ما أخذوا من الإماء والمماليك[(٣)] . ولا يتسع المجال لتتبع عودة ظاهرة الغزو البيني التي مارسها الأعراب في الجاهلية ، ثم عادوا إليها في العصر العباسي لكثرة تكرارها وتشعبها ؛ بيد أن من الضروري أن نشير إلى أنهم ما لبثوا أن تحالفوا مع القرامطة عندما ظهرت حركتهم في جنوب العراق والبحرين ، ثم انتقلت إلى سوريا[(٤)] .

وقد وصف المسعودي قرامطة منطقة الكوفة . . . أن معظمهم كانوا من بني ذهل ، وبني رفاعة . وفي البحرين كان بنو كلاب وبنو عقيل ناصروا داعية القرامطة في البحرين يحيى بن المهدي . وعندما حدثت أول مواجهة بين القوات العباسية

---

(١) الطبري ، مجلد ٥ ، ص ٢٧٨ .

(٢) ***المصدر نفسه*** ، ص ٢٨٠ – ٢٨١ ؛ وقارن مع ابن كثير ، ***البداية*** ، ج ١٠ ، ص ٢٦٢ .

(٣) الطبري ، مجلد ٥ ، ص ٦٨٠ . ٢٩٠

(٤) أنظر كتابي الخليج العربي في العصر الإسلامي ، دراسة تاريخية وحضارية ، ص ٣٠٠ – ٣٠٨

والقرامطة سنة ٢٨٧ هـ كانت القوة القرمطية من سبعمائة فارس وراجل أكثرهم من بني كلاب وبني عقيل ، بالإضافة إلى البحرانيين[١] . وعندما تواصل ضغط القوات العباسية على القرامطة في العراق ومنطقة الكوفة خاصة اضطروا إلى نقل عملياتهم إلى سوريا ؛ وهناك انضمت إليهم الأعراب من بطون قبيلة بني كلب الذين شكلوا جل القوات القرمطية . وكان بنو كلب أهم حلفاء وأنصار بني أمية ، وعماد قوتهم ، حتى لقد رأى معاوية مصاهرتهم فتزوج ميسون بنت بحدل الكلبية . كما أن مروان بن الحكم استعان ببني كلب عندما اغتصب الخلافة من أبناء يزيد بن معاوية[٢] .

لماذا عادت مشكلة الأعراب؟:

لقد كانت الجيوش الإسلامية التي تشكلت عند بدء حركة الفتح الإسلامي ، منذ عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، قد استوعبت القوى البدوية التي شكلها الأعراب ، حيث أتيح لهم الانضمام إلى المجاهدين ليمارسوا الحرب والغزو ، ولكن ضمن جيوش كان عليهم أن يخضعوا لقيادتها وقيمها وأهدافها . وطبيعي أن بعضهم أصبحوا مجاهدين في سبيل الله وغدوا مجاهدين فعلا ، بالقصد والنية الحسنة والإلتزام بالأهداف والسلوك المنضبط الذي حددته القيادة ، بينما البعض الآخر حاربوا بنية الحصول على المغانم ، بيد أنهم ظلوا منضبطين بالسلوك الذي حددته الدولة ، وقيادة الجيش الذي انضموا إليه . وبعد عصر الراشدين انضموا إلى الجيوش التي شكلها الأمويون ، كما انضموا إلى جيوش العباسيين بعد ذلك . فلما تحول ثامن الخلفاء العباسيين ، المعتصم ، إلى تجنيد المرتزقة الأتراك والاعتماد عليهم بشكل رئيسي صار البدو عاطلين عن العمل ، لأن طريق الانضمام إلى الجيوش الحكومية أغلق في وجوههم . وهكذا عادوا إلى حياة السلب والنهب والغارات على القبائل الأخرى كما كان يفعل آباؤهم قبل الإسلام .

ويبدو أن الواثق تأثر بما عرف عن ميل عمه عبدالله المأمون إلى آل أبي طالب ، فأحسن إليهم إحسانا بالغا حتى قيل إنه لم يترك أحدا منهم فقيرا عند موته . ومن

---

(١) المسعودي ، ***التنبيه والإشراف*** ، ٣٩١ ، ***مروج الذهب*** ، ج ٤ ، ص ١٧٦ ؛ إبن الأثير ، م ٧ ، ٤٩٨ .

(٢) الطبري ، مجلد ١٠ ، ص ٩٤-٩٥ و١٠٩-١١٠ و١٢٢-١٢٣ ؛ وانظر كتاب ***الخليج العربي*** . . . ، ص ٣٠٠-٩ .

ناحية أخرى فقد ذكر الإمام جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي أن الواثق كان مولعا بالغلمان لدرجة لم تمكنه من أن يكتم شغفه بهم . «وكان يهوى خادما أهدي له من مصر ، فأغضبه الواثق يوما ، ثم سمع أنه يقول لبعض الخدم : والله إنه [الخليفة] ليروم أن أكلمه من أمس فما أفعل . فقال الواثق :

يا ذا الذي بعذابي ظل مفتخرا
ما أنت إلا مليك جار إذ قدرا
لولا الهوى لتجارينا على قدر
وإن أفق منه يوما ما فسوف ترى

ومن شعره الرائق في خادمه ذاك :

مهج يملك المهج
بسجي اللحظ والدعج
حسن القد مخطف
ذو دلال وذو غنج
ليس للعين إن بدا
عنه باللحظ منعرج[(١)]

(١) السيوطي ، *تاريخ الخلفاء* ، ص ٣٤٢ وانظر أيضا ص ٣٤٥ .

الفصل السادس

الخلافة العباسية في مهب العواصف

عهد جعفر المتوكل:

كان حكم المتوكل (٢٣٢ هـ – ٢٤٧ هـ) فترة انتقال بين عهدين بالنسبة لتاريخ الخلافة العباسية ، عهد كان الخليفة فيه رأس الدولة ، بيده السلطة العليا ، يعطي منها بالقدر الذي يريده لمعاونيه ، ويسترجعها متى شاء ، وعهد صار الخلفاء فيه ألعوبة بأيدي العسكريين من قادة الجيش ، وأيدي كبار رجال ا لدولة من المدنيين . وقد بدأ جعفر المتوكل ولايته بالإمساك بزمام السلطة ، وانتهى مقتولا بأيدي العسكريين . فعندما توفي الواثق حضر إلى دار الخلافة أحمد بن أبي دواد ، وعمر بن فرج ، ومحمد بن عبدالملك الزيات ، واحمد بن خالد ، وهم كبار رجال الدولة من المدنيين ، وحضر معهم إيتاخ ، ووصيف ، وهما من قادة الجند ، واختاروا أن يضعوا في منصب الخلافة محمد بن هارون ، أي إبن الواثق الخليفة المتوفى . وكان محمد فتى ما زال أمرد صغير السن ، فألبسوه دراعة (نوعا من الثياب) سوداء ، وقلنسوة رصافية ، فبدا لهم قصيرا . فقال لهم القائد وصيف : أما تتقون الله! تولون مثل هذا الخلافة وهو لا تجوز معه الصلاة! وهكذا اتجه نظرهم إلى جعفر بن المعتصم ، وهو أخو الواثق ، وعم الصبي محمد ، فألبسه أحمد بن أبي دواد وعممه وقبل بين عينيه ، وخاطبه بقوله : «السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .» وهكذا صار المتوكل عاشر الخلفاء العباسيين ، وكان عمره إذ ذاك ستا وعشرين سنة .

وقد اختار المتوكل أحمد بن أبي دواد ليكون مؤتمنه ووزيره ، أي رئيس الوزراء بتعبيرنا المعاصر . وكان القاضي أحمد بن أبي دواد هذا معتزليا ، وهو الذي توسط لجعفر (المتوكل) قبل أن يلي الخلافة لدى الواثق ليرضى عنه . ولعل هذا كان السبب الذي حمل الخليفة الجديد على اختياره لمنصب الوزارة ، كما ذكرنا .

وكانت أولى خطوات المتوكل في ممارسة أعباء منصبه أنه حاول إرضاء العسكر

بمناسبة تلك الحادثة السعيدة ، كما جرت العادة . وقد حدد منحة للجند بما يساوي راتب ثمانية أشهر . غير أن حجم المنحة فرق بين الفئات المنتسبة إلى السلك العسكري ، فتحدد للجند ، والشاكرية – وهم فئة من العسكريين عرفت بهذا الإسم – ولمن يجري مجراهم من الهاشميين عطاء ثمانية أشهر ، وللأتراك برزق أربعة أشهر ، وللمغاربة برزق ثلاثة أشهر . وقد غضب المغاربة ورفضوا تسلم مخصصاتهم ، فأرسل لهم المتوكل يخاطبهم : «من كان منكم مملوكا فليمض إلى أحمد بن أبي دواد ليبيعه ، ومن كان حرا صيرناه أسوة بالجند ، وتدخل وصيف لإقناعهم فرضوا ؛ وما لبثوا بعد ذلك أن عوملوا مثل الأتراك [1] . وطبيعي أن لا تمضي هذه الحادثة دون أن تترك أثرا في النفوس ، سواء بالنسبة لموضوع المغاربة ، أو لموضوع التفرقة بين المنتسبين إلى الجندية ، وتفضيل فئة على أخرى لأسباب غير مهنية ، لا تتعلق بالكفاءة وحسن الأداء .

أما المشكلة الثانية التي برزت في بداية عهد المتوكل فتتعلق بشخصية الخليفة نفسه ، ورغبته في الانتقام ممن اعتقد أنهم أساءوا إليه قبل توليه الخلافة . وكان على رأس القائمة الوزير السابق محمد بن عبدالملك الزيات ؛ فقد كان الزيات مؤيدا لتولية الخلافة لمحمد بن الواثق وليس لجعفر المتوكل ؛ ثم إن الزيات كان قد أساء له بينما الواثق ما زال حيا . فقد ذهب جعفر إلى ابن الزيات ليطلب منه أن يتوسط لدى الخليفة (الواثق) ليرضى عنه ، فاستقبله ابن الزيات استقبالا باردا ، بل مشوبا بالازدراء ؛ فأجلسه ينتظر إلى أن ينتهي من عمله ، ثم خاطبه بغير ما كان يتوقعه من احترام . ومع ذلك فقد كتب ابن الزيات إلى الواثق يخبره بزيارة جعفر له ، فقال : «يا أمير المؤمنين ، أتاني جعفر بن المعتصم يسألني أن أسأل أمير المؤمنين الرضا عنه ، في زي المخنثين ، له شعر [مرسل على] قفاه .» فرد عليه الواثق : «إبعث إليه فأحضره ، ومر من يجز شعر قفاه ، ثم مر من يأخذ من شعره ويضرب به وجهه ، واصرفه إلى منزله .» وقد تم ذلك [2] .

وهكذا كان المتوكل متعطشا للانتقام من ابن الزيات ؛ وبمجرد أن تمت له البيعة من المدنيين والعسكريين لم ينتظر سوى أيام قليلة فأصدر أمرا إلى القائد التركي إيتاخ بأن يلقي القبض على ابن الزيات ويعذبه ، فتم اعتقاله ، وهجم الجند على داره

---

(١) *المصدر نفسه* ، ص ٢٩٣ .

(٢) *المصدر نفسه* ، ٢٩٤-٢٩٥ .

وأخذوا جميع ما كان فيها من أثاث وجواري وغلمان ودواب ، ثم أمر بالاستيلاء على ضياعه وضياع أهل بيته حيث كانت . وفي الأيام الأولى من اعتقاله ظل الزيات من غير قيود ، ثم صدر أمر بتقييده ؛ وقد جرت العادة أن تكون القيود ثقيلة ، يتفاوت ثقلها حسب الأوامر ، حتى تبلغ مئة رطل وزنا في بعض الحالات . ولم يتوقف حقد الخليفة عليه عند هذا الحد ، بل أمر بمساهرته ، أي تكليف رجال يسهرون بجانبه ويمنعونه من النوم ، ليس بالموسيقى الصاخبة كما يحدث في عصرنا ، بل بوخزه بمسلة كلما بدا عليه الدخول في حالة النوم . ثم وضع في تنور به لوح من خشب دقت فيه مسامير ، ليمنع من الجلوس ، فمات بعد أيام قليلة [١] .

إقصاء وقتل القائد العسكري إيتاخ:

القائد إيتاخ كان غلاما خزريا ، يشتغل طباخا في دار شخص اسمة سلام الأبرش ؛ وقد اشتراه المعتصم من الأبرش سنة ١٩٩هـ ، ربما لسمعته في إجادة الطبخ . وبينما هو عند المعتصم ظهرت في شخصيته رجولة وقوة وبأس ، فرفع المعتصم منزلته – وكذلك فعل الواثق من بعده – فتولى مسئوليات عامة كثيرة ، حتى أن المعتصم ولاه معونة سامرا مع إسحاق بن إبراهيم . وقد عين إيتاخ نائبا عنه يتولى العمل فعلا ، كما عين شريكه إسحاق بن أبراهيم نائبا عنه أيضا ، أي أن إيتاخ أصبح المسئول عن إدارة شئون المدينة من النواحي الإدارية والأمنية ، بالمشاركة مع شخص آخر ؛ هذا في حين كانت سامراء عاصمة دولة الخلافة . وكان إيتاخ ، فوق ذلك يقوم بمهمة أخرى للخلفاء منذ عهد المعتصم واستمرارا إلى عهد الواثق وعهد المتوكل ، حيث كان مسئولا عن إجراءات قتل أو حبس أو تعذيب من يريد الخليفة قتلهم أو تعذيبهم من الشخصيات البارزة . وعندما تولى المتوكل الخلافة كان إيتاخ في مرتبته تلك ، بالإضافة إلى مسئوليته عن الجيش والمغاربة والأتراك والموالي ؛ وكان مسئولا عن البريد – أي إدارة المخابرات وليس البريد المدني كما نعرفه اليوم – كما كان مسئول الحجابة ودار الخلافة . فلما استقر المتوكل في منصب الخلافة خرج للتنزه في منطقة القاطول ، قرب سامراء ؛ «فشرب ليلة ، فعربد على إيتاخ ؛ فهم إيتاخ بقتله» ؛ فلما استيقظ المتوكل في الصباح وزال عنه السكر أخبره خدمه ومن كان يرافقه في

---

(١) ابن كثير ، ***البداية*** ، ج١٠ ، ص ٢٦٤ ، مجلده ، الطبري ، ص٢٩٤-٢٨٦ .

تلك الليلة بما حصل ، فاعتذر إلى إيتاخ ، «والتزمه وقال له : أنت أبي وربيتني .» فلما رجع المتوكل إلى سامراء كلف شخصا يعتمد عليه في المهمات السرية بأن يقنع إيتاخ بالسفر لأداء فريضة الحج ، وأن يستأذن الخليفة قبل ذلك . وهكذا استأذن إيتاخ الرهيب بأن يسمح له بالحج ؛ وربما اعتقد أن ذلك يزيد من مكانته في الدولة ؛ وقد أذن له . ولكي يبعث المتوكل الطمأنينة إلى قلب «الجنرال» المخدوع أمر بأن يكون أميرا على كل مدينة يمر بها ، وأبلغه بذلك ؛ ثم خلع عليه ، أي قلده أوسمة . فلما بدأ رحلته إلى الحج أمر الخليفة جميع القواد أن يشيعوه ويودعوه في بداية رحلته ، إحتراما وتقديرا ، كما ودعته شخصيات أخرى سوى غلمانه [١] .» فلما ابتعد في سيره صوب الحجاز سارع المتوكل بتعيين القائد التركي وصيف في منصب الحاجب ، ليمنع إيتاخ من الوصول إليه بعد عودته . وعندما عاد إيتاخ من الحج ودخل العراق بعث له الخليفة من يقنعه بالذهاب إلى بغداد بطريقة لينة مغرية ، ولم يسمح له بالقدوم إلى العاصمة سامرا . وفي بغداد تم قتله بالحبس والتعذيب [٢] .

ولاية العهد:

وكما حرص الخلفاء قبله على اتخاذ إجراءات تحفظ الملك في أبنائهم – حسبما ظنوا – فقد سار المتوكل على نهج أسلافه ، إذ عقد البيعة لأبنائه الثلاثة : محمد وأعطاه لقب «المنتصر» ، والزبير ، ولقبه «المعتز» ، وإبراهيم ، ولقبه «المؤيد» ، وذلك في شهر ذي القعدة سنة **٢٣٥** هـ . وقد أعلن تقسيم بلدان وأقاليم دولة الخلافة بينهم – مقتديا بهارون الرشيد – على النحو التالي :

المنتصر : وكان مما ضم إليه أفريقية والمغرب كله ، من عريش مصر إلى حيث بلغ سلطانه من المغرب . وقد أضاف إليه جند قنسرين والعواصم والثغور الشامية والجزرية ، وديار مضر ، وديار ربيعة ، والموصل ، وهيت ، وعانات والخابور وقرقيسيا ، وكور جرما ، وتكريت ، وكور[٣] دجلة ، والحرمين ، واليمن ، وحضرموت ، واليمامة ، والبحرين ، والسند ، ومكران ، وكور الأهواز ، ومناطق أخرى لا نريد أن نطيل القائمة

(١) الطبري ، مجلده ، ٣٠٠ .

(٢) ***المصدر نفسه*** ، م٥ ، ص٣٠٠-٣٠٣ .

(٣) كورة = الجمع كور ، تعني قطعة من الأرض في التقسم الجغرافي أو الإداري ، أو العرفي .

بأسمائها الغريبة عن معرفة القارئ وتحتاج شيئا من التعريف والشرح .

المعتز : وقد خصص له كور خراسان وما يضاف إليها ، وطبرستان ، والري ، وأرمينية ، وأذربيجان ، وكور فارس . وفي سنة **٢٤٠هـ** ضم إليه وظيفة خزن بيوت الأموال في جميع الآفاق ، ودور الضرب (أي سك النقد) ، وأمر بأن يكتب اسمه على الدراهم .

المؤيد : وقد ضم إليه جند دمشق ، وجند حمص ، وجند الأردن ، وجند فلسطين .

وقد نص المتوكل على أن يكون منصب الخلافة بعده لابنه محمد المنتصر ، وبعد المنتصر يؤول المنصب للمعتز ، وبعد المعتز يصبح المؤيد هو الخليفة . وقد ضمن المتوكل كل ذلك في وثيقة مكتوبة من أربع نسخ ، لتحفظ نسخة منها في خزانة أمير المؤمنين (أي المتوكل) ، وتسلم نسخة واحدة لكل من الأبناء الثلاثة . ولم ينس التنبيه والتشديد ضمن نص الوثيقة ، على أن يكون كل منهم وفيا لمن يليه في المرتبة ، وللأدنى أن يكون سامعا مطيعا وأمينا مع أخيه الذي سبقه في تولي المنصب . وشدد على عدم جواز إقدام أي من الأولاد على خلع أخيه لصالح ابنه ، وغير ذلك من الشروط(١) . بيد أن كل هذه الترتيبات والإجراءات لم تحقق الهدف الذي أراده المتوكل ، كما سنرى في الصفحات التالية .

ويبدو أن المتوكل لم يهتم بالجدل والصراع الفكري الذي بدأ في عهد المأمون واستمر خلال حكم المعتصم والواثق ، فيما يتعلق بمسألة «خلق القرآن» ، وحرية الإرادة ، وما إذا كان المؤمنون يرون الله يوم القيامة ، إذ أن أيا من تلك المواقف لم يكن يعنيه في شئ ؛ بينما تهدئته الصراع وإيقافه كانت مفيدة لتخفيف المشاكل التي واجهها . ولذلك فقد أمر بوقف الجدل حول هذه المسائل . ولا مراء في أن ذلك كان عملا خيرا ، على الرغم من أن المتوكل كان مغرقا في السلوك المشين . وقد أثمر هذا الموقف أثرا طيبا عند خصوم المعتزلة ، فأثنوا على المتوكل ، واعتبروا أنه أحيا السنة وأمات البدعة ، ورأى بعضهم له أحلاما ومنامات فحواها أن الله غفر له وأدخله الجنة ؛ وقد مدحه بعضهم بقصائد شعرية كان منها :

---

(١) الطبري ، مجلده ، ص٣٠٦-٣٠٧ و٣٠٨-٣٠٩ . (طبيع بيروت) .

وبعــــد فـــإن السنة اليـــوم أصـــبـــحت
مـعـــــــزة حـتى كــــــأن لـم تـذلـــل
تصــــــول وتسطو إذ إقــــــيم منـارها
وحــط مـنـــار الإفـــك والــزور مــن عــل
شـــفى الله منهـم بالخليــفــة جــعــفــر
خليـــــفــــــة أهــل الــسنة المتــوكــل
وجــــامع شــــمل الدين بعـــد تشـــتت
وفــــــــــاري رءوس المـارقـين بمـنـصـل
أطال لنـا رب العــــبــــاد بـقـــــاءه
سليـــمــــا من الأهوال غــيـــر مـــبـدل[١]

وعلى الرغم من عدم اكتراث المتوكل بالتزام السلوك السوي الذي يفترضه الإسلام ، ويتوقعه الناس من المسلم العادي ، وليس فقط ممن هو في منصب الخلافة ، فقد أظهر المتوكل تعصبا شديدا ضد المسيحيين ، واضطهدهم في مسألة اللباس بشكل مهين ، دون أن يتحرك أحد من العلماء لتذكيره بأحاديث رسول الله الزاجرة عن ذلك ، وربما لم يتجرأ أحد منهم على مخاطبته لما عرف عنه من السرعة إلى سفك الدماء .

وقد ظهر في مسار ممارسة المتوكل للحكم شره مسرف لجمع الأموال عن طريق القبض على كبار الموظفين ومصادرة أموالهم وممتلكاتهم وممتلكات أعضاء أسرهم بعد إخضاعهم للتعذيب الشديد ، أو تسليمهم لأشخاص ممن عرف عنهم القسوة والشدة في الضغط والتعذيب حتى الموت . ويستطيع من شاء أن يحشد أمثلة ومعلومات كثيرة عن ممارسات المتوكل والحالات التي وقع أصحابها ضحايا الجشع والطمع والقسوة . ولسنا نعني أن كبار الموظفين كانوا برءاء ، لكن الفساد كان عاما ، والذي كان يلاحق الفساد والمفسدين كان أكثر منهم فسادا ، وكان هدفه أن يغتصب منهم لنفسه ما كانوا اغتصبوه .[٢]

وفي سنة **٢٤٥**هـ أراد المتوكل أن يبني له مدينة يتخذها عاصمة كما بنى

---

(١) السيوطي ، ص ٣٤٦ .

(٢) الطبري ، مجلد ٥ ، ص ٢٩٦-٢٩٧ و٣٠٢-٣٠٣ و٣٢٨ - ٣٢٩ . (طبع بيروت)

المعتصم مدينة سامراء . وقد عرفت المدينة التي بناها المتوكل بإسم الماحوزة ، وكان هذا الاسم القديم للمكان ، أما هو فقد سماها الجعفرية ، نسبة إلى اسمه الأول . وقد أنفق عليها أكثر من ألفي ألف دينار ، والدنانير ذهبية بطبيعة الحال وليست ورقية (بنكنوت) مثل دنانير عصرنا . وقد أقطع القواد كما أقطع أكابر رجاله قطائع في المدينة الجديدة . وعندما احتفل بافتتاحها جمع فيها القراء فقرأوا ، ثم أحضر المغنين والمطربين وأصحاب الملاهي ، ووهب لهم ألفي ألف درهم . وقد بنى فيها قصرا سماه لؤلؤة لم ير مثله في ارتفاعه . ثم أنه أمر بشق قناة تجر الماء من الفرات إلى موقع الماحوزة والقرى المجاورة لها ، ووظف في الحفر اثني عشر ألف عامل . واستمر العمل في حفر تلك القناة حتى قتل الخليفة نفسه في سنة ٢٤٧هـ . وكان المتوكل قد أجبر أهل الماحوزة الأصليين وجوارها على بيع منازلهم وأراضيهم حتى تكون الأرض في تلك القرى كلها له . وعندما قتل توقف العمل في شق القناة ، ونقضت الماحوزة (الجعفرية) فصارت خرابا [١] .

ويبدو أن المتوكل اتخذ موقفا آخر من العلويين معاكسا لما فعله أسلافه منذ أيام المأمون والمعتصم . ففي وقت مبكر من ولايته أمر بهدم قبر الحسين بن علي وهدم ما حولة من المنازل ، كما أمر أن تحرث الأرض وتزرع وتروى حتى لا يبقى للقبر أثر [٢] . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، فقد نقل لنا ابن الأثير مشاهد من مجالس لهو المتوكل ومطربيه ومؤنسيه ؛ ومن ذلك أن أحدهم كان أصلع ، وكان يضع تحت ثوبه مخدة على بطنه ليبدو وكأن بطنه ضخم ، مثل بطن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ثم يرقص الشخص أمام الخليفة ومطربيه ، ويحرك بطنه الضخم وصلعته سخرية من الإمام علي . ونعرف مما كتبه ابن الأثير أن هذا التصرف أثار المنتصر ، ولي العهد الأول حتى قال لأبيه : إن هذا الذي تسخر منه وتشنع عليه بهذه الطريقة أنت وندماؤك إنما هو ابن عمك . فلم يعبأ المتوكل بهذا الاحتجاج ، بل أنشد ساخرا :

غار الفتى لابن عمه

رأس الفتي في حر امه

---

(١) الطبري ، مجلد ٥ ، ص ٣٢٨ (طبيع بيروت) .

(٣) السيوطي ، ص ٣٤٧ ، الطبري ، ٥ ، ص ٣١٢ .

وأشار للمشاركين في مجلس الطرب بترديد البيت[١] .

وهذا يقودنا إلى نقطة النهاية في حديثنا عن عهد المتوكل ؛ فقد غضب على ابنه الأكبر وولي عهده ، محمد المنتصر ، وصار يوجه له الإهانات ، ويلطمه ويأمر جلساءه بلطمه . وقد وردت في تفسير ذلك ثلاثة أسباب ، أولها هذا الذي ذكره ابن الأثير ، وثانيها أن الخليفة كان مشغوفا بأم المعتز وقد أراد أن يرضيها بتقديم دور ابنها في تولي الخلافة ؛ ولذلك طلب من المنتصر أن يتنازل عن المرتبة الأولى في ولاية العهد لصالح أخيه المعتز ، لكن المنتصر امتنع عن التنازل بإصرار . أما السبب الثالث فهو أن المتوكل أراد أن ينتزع ضياع القائد التركي وصيف ، وكتب الأوامر في رسائل خاصة بذلك الموضوع ، فوصل الخبر إلى وصيف قبل التنفيذ ، فدبر عملية الإجهاز على الخليفة . وربما كان لدى المتوكل أكثر من واحد من هذه الأسباب ؛ فقد رأينا ، كما سيرى القارئ في الصفحات التالية ، أن المنتصر كان عطوفا على آل أبي طالب بعد أن تولى الخلافة ، وقد رفع عنهم كثيرا من المظالم . وهذه المعلومة قد تعطي صدقية لما سبق من أن المنتصر لم يقبل من والده أن يسخر في مجلسه من علي بن أبي طالب . وفي ليلة مقتله كان المتوكل ثملا قد أكثر من الشراب ، وذكر أنه شرب أربعة عشر رطلا . وكان يهين ابنه المنتصر ، ويأمر الخدم بأن يسقوه مزيدا من الخمر ، فوق طاقته . ومما يثير السخرية والرثاء ما روي عن هارون بن محمد بن سليمان الهاشمي أن المتوكل التفت إلى وزيره الفتح بن خاقان ، في ذلك المجلس وتلك الليلة التي كان فيها مقتله ، فقال له : «برئت من الله ومن قرابتي من رسول الله ﷺ إن لم تلطمه – يعني المنتصر – فقام الفتح ولطمه مرتين . . . ثم قال المتوكل لمن حضر : إشهدوا جميعا . . . أني قد عزلت المنتصر . . . فقال المنتصر : يا أمير المؤمنين ، لو أمرت بضرب عنقي كان أسهل علي مما تفعله بي ؛ فقال : إسقوه ، ثم أمر بالعشاء فأحضر . . . فخرج المنتصر من عنده . . . وضعت المائدة بين يدي المتوكل ، وجعل يأكل ويلقم وهو سكران [٢] .» وعندما خرج المنتصر ومعه أحد المرافقين من أفراد الحاشية ، واسمه زرافة ، قال زرافة للمنتصر ، وقد رآه مغموما لما تعرض له من إهانات : «إرفق بنفسك ، فإن أمير

(١) إبن الأثير ، ***الكامل في التاريخ*** ، مجلد ٧ ، ص ٥٥ .

(٢) الطبري ، مجلد ٥ ، ص ٣٣٦ (طبيع بيروت) . ؛ ابن كثير ، ج ١٠ ، ص٢٩٨ ، (أخبار سنة ٢٤٧ هـ) ؛ السيوطي ، ص ٣٤٩ – ٣٥٠ .

المؤمنين سكران ، والساعة يفيق [1] . . .» وثمة حادثة أخرى تصور عبث المتوكل واستهتاره ، وهي تثير الضحك والبكاء معا ؛ فقد نقل إلينا ابن كثير ضمن ترجمته لحياة علي الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضا ، بمناسبة ذكره لخبر وفاته سنة ٢٥٤هـ ، فذكر أن بعض الوشاة أخبروا المتوكل أن علي الهادي – وهو الذي يعتبره الجعفرية إمامهم العاشر – كان يختزن في بيته سلاحا ، وأن أناسا كثيرين يتصلون به . وكان ينظر إلى مثل هذا العمل باعتباره خطرا يهدد الخلافة العباسية . ولذلك أرسل المتوكل قوة اقتحمت بيت علي المذكور فوجدته يصلي على الأرض مباشرة (أي دون فرش أو سجادة) ، وفتشوا المنزل فلم يجدوا فيه شيئا مما وشي به ، ومع ذلك فقد حملوا الرجل وأخذوه إلى المتوكل ، وأخبروه بعدم وجود شئ مما ذكر . وهنا أراد الخليفة أن يظهر له شيئا من الاحترام ، فدعاه للجلوس إلى جانبه . « فلما مثل بين يديه أجله وأعظمه ، وأجلسه إلى جانبه ، وناوله الكأس التي في يده ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لم يدخل باطني ولم يخالط لحمي ودمي قط ، فاعفني منه ، فأعفاه .» ثم قال له أنشدني شعرا ؛ فأنشده ستة أبيات عن الموت والقبر ، وأن الملك ما أغنى عن الملوك السابقين الذين أودعوا القبور فأكلتهم الديدان :

أين الوجـــوه التي كـــانت منعـــمـة
من دونهـــا تضـــرب الأســـتـــار والكلل
فـــأفـــصح القـــبـــر عنهم حين ســـاءلهم
تلك الوجـــوه عليـــهـــا الدود يقـتـتـل

فتأثر المتوكل بهذه الموعظة غير المباشرة وبكى بكاء شديدا ، وبكى من حوله ، وأمر برفع الشراب ، وأمر له بأربعة آلاف دينار ، واعتذر إليه ورده إلى منزله مكرما[2] .

وما لبث قادة الجند الأتراك أن قتلوه ، «ورثاه الشعراء فأكثروا ومما قيل فيه قول علي بن الجهم :

عـــبـــيـــد أمـــيـــر المؤمنين قـــتلنـه
وأعظم آفـــات الملوك عـــبـــيـــدها . . . [3]»

---

(١) الطبري ، مجلد ٥ ، ص ٣٣٦ (طبيع بيروت) .

(٢) إبن كثير ، ***البداية والنهاية*** ، ج١١ ، ص ١٥ .

(٣) إبن الأثـيـر ، ***الكامل في التاريخ*** ، مجلد ٧ ، ص ١٠٠ .

لقد سمحت لنفسي بالحديث مطولا - نسبيا - عن عهد المتوكل ليس لأن جعفر المتوكل نفسه يستحق الاهتمام ، وإنما لبيان شئ من معالم هذه الشخصية المهتزة التي تولت الخلافة في فترة حرجة ، ودحرجتها وانزلقت معها إلى مرحلة التدهور والانهيار .

وفي الحقبة التي تلت عهد المتوكل وامتدت أربعمئة سنة (٢٤٧هـ/٨٦١م - ٦٥٦هـ/١٢٥٨م) تقريبا ، مرت الخلافة بخمس مراحل بدأت كل منها بما يشبه الصاعقة ، ثم كان انفلات الاضطراب خلال كل مرحلة من تلك المراحل الأربع ، التي انتهت بإزالة الخلافة العباسية ووقوع معظم أقاليم المشرق الإسلامي في أيدي المغول . وهذه المراحل الأربع هي :

أولا : مرحلة غلبة الفوضى على دار الخلافة ، ٢٤٧هـ - ٣٣٤هـ .

ثانيا : مرحلة احتلال العراق على أيدي البويهيين ، ٣٣٤ - ٤٤٧ هـ .

ثالثا : مرحلة التسلط السلجوقي ، ٤٤٧ - ٥٥٢هـ .

رابعا : مرحلة صحوة الاحتضار ، ٥٥٢هـ - ٦٥٦هـ .

الفصل السابع

الخلافة في مستنقع الفوضى والدمار

امـتـدت هذه المرحلة – كـمـا أشـرنا – من سنة ٢٤٧هـ إلى سنة ٣٣٤هـ (٨٦١م-٩٤٥ م) ، وكانت نقطة بدايتها قتل المتوكل بأيدي قادة الجند . وبعد إزاحة المتوكل رتب العساكر تولية الخلافة لابنه المنتصر الذي لم يمكث في المنصب إلا أقل من ستة أشهر ، ومات ، أو قتل بالسم ، فولى الجند بعده المستعين ، وهو أحمد بن محمد بن المعتصم . وكان المستعين شبه محجور عليه مسلوب السلطة تماما ، إذ كان القرار والأمر والنهي بيد القائدين التركيين وصيف وبغا ، حتى لقد سخر من الخليفة أحد الشعراء :

خليـــــفـة في قـــــفـص
بـين وصـــــــيـــف وبــغـــا
يقـــــول مــــا قـــــالا لـــه
كـــمـــا تقـول البـبـغــــــا

ثم إن المستعين هرب من سامراء إلى بغداد ليتخلص من ذلك الحجر ، فحاول قادة الجند إقناعه بالعودة فلم يستجب ، فخلعوه من منصبه وأخرجوا المعتز من السجن وعينوه مكانه . ولم يقف الأمر عند خلع خليفة وتعيين آخر بل بدأ المعتز يجهز جيشا لاقتحام بغداد لكي يتسنى له القضاء على المستعين ؛ وأخذ الجانبان يستعدان للمواجهة . وزحفت قوات سامراء إلى بغداد ، وتراوح القتال بين المناوشات ، والمعارك الإلتحامية . وتواصلت هذه العمليات طوال سنة ٢٥٢هـ لتنتهي بإكراه المستعين على خلع نفسه لصالح المعتز[1] . لكن التنازل لم يكن نهاية المطاف ، إذ حرص المعتز على قتل منافسه فطلب تسليمه إلى أحد أتباعه من الجند ، ويعرف بسيما الخادم ، وتداولته الأيدي فأدخله أحدهم في منزله وضربه حتى مات . وفي رواية أخرى قيل

---

(١) إبن الأثير ، ***الكامل*** ، المجلد ٧ ، ص ١٤١-١٦٢ .

إنه ضرب بالسيف ، وأن رأسه حمل إلى المعتز ، وكان وقتذاك يلعب الشطرنج ، فقيل له هذا رأس المخلوع ؛ فقال دعوه حتى أفرغ من الدست ، فلما فرغ . . . أمر بدفنه ، وأمر **لقاتله بخمسين ألف درهم ، وولاه منصب معونة البصرة**(١) . وقبل أن يكمل المعتز ثلاث سنوات في منصب الخلافة هاجم الجند الأتراك القصر ، وجروه من رجله وضربوه ، **ثم أوقفوه في الشمس وصاروا يلطمونه ويستحثونه على التنازل عن منصبه إلى أن رضخ لمطلبهم** . وبعد خمسة أيام وجد ميتا .

وبعد قتل المعتز رفع المهتدي (محمد بن الواثق) إلى سدة الخلافة ، في أواخر رجب سنة ٢٥٥هـ . وقد ذكر عنه أنه لم يقبل أن يأخذ البيعة من أحد إلا بعد أن أحضروا أمامه المعتز فأعلن عن عجزه عن القيام بأعباء الخلافة ، وأنه يريد تسليمها إلى محمد بن الواثق ، ثم مد يده وبايعه ، وبدأ الآخرون يبايعونه . ويبدو أن المهتدى استنكف أن يسجل على نفسه أنه أخذ الخلافة بصورة غير شرعية . وقد وصف بأنه كان تقيا ، كثير الصيام ، متزهدا . والظاهر أنه أراد أن يستغل النزاعات بين الأتراك فيضرب بعضهم ببعض ، ففطنوا لخطته ، وانتهى به الأمر إلى مواجهتهم في معركة مكشوفة ومباشرة . وكان الجند الذين معه من المغاربة والأتراك والفراغنة . وعندما بدأ القتال انحاز الأتراك الذين معه إلى الأتراك الذين في الجبهة الأخرى ، وقتل من رجاله كثيرون فولى منهزما وبيده السيف وتخلى عنه الجميع إلى أن قبض عليه . ثم إنهم قتلوه بأن داسوا على خصيتيه(٢) .

الموفق طلحة وبنوه(٣)

ولما تم لهم قتل المهتدي وقع اختيارهم على أحمد بن المتوكل بن المعتصم بن

---

(١) *المصدر نفسه* ، ص ١٦٧-١٧٣ .

(٢) *المصدر نفسه* ، ص ٢٢٨-٢٣٥ .

(٣) ظهر طلحة الملقب بالموفق ، وهو ا بن جعفر (الخليفة المتوكل) في فترة حرجة من حياة الخلافة العباسية . ورغم أنه لم يتول الخلافة بنفسه فقد وقعت الخلافة تحت سيطرته ثم آلت إلى ابنه أبي العباس أحمد ، وانتقلت من هذا إلى ابنه علي (المكتفي) ، ثم إلى جعفر (المقتدر) ، وهو ابن ثان لأبي العباس أحمد ، ثم إلى محمد ، وهو أخ ثالث للمكتفي والمقتدر ، وقد تلقب بالقاهر ، ثم إلى محمد بن المقتدر ، وقد تلقب بـ «الراضي» ، ثم إلى إبراهيم بن المقتدر ، وقد تلقب بـ «المتقي» ، ==

هارون الرشيد ؛ وكان مسجونا ؛ فاستخرجوه من السجن ورفعوه إلى منصب الخلافة وتلقب بـ «المعتمد على الله» . وقد ذكر أنه كان لاه منشغلا باللذات ، فكرهه الناس . وعندما تأزمت حالة الأمن في جنوب العراق بسبب تحركات صاحب الزنج ، وعجزت قوات الخلافة عن دحره أو الصمود في وجهه ، اضطر المعتمد إلى استدعاء أخيه طلحة وولاه المشرق ، بما في ذلك مسئولية المواجهة مع حركة صاحب الزنج ، بعد أن كان منفيا في مكة مبعدا عن العاصمة العباسية[١] . وبتولي طلحة ، الملقب بـ «الموفق» أصبحت السلطة الحقيقية في يديه ، وأصبح أخوه الخليفة ، تحت رقابة صارمة . وكان الموفق رجل الموقف ، ورجل دولة على درجة عالية من الكفاءة ، فضلا عن مناقبه الشخصية ؛ وقد وصفه ابن الأثير بأنه كان «عادلا ، حسن السيرة ، يجلس للمظالم وعنده القضاة وغيرهم ، فينتصف الناس بعضهم من بعض ؛ وكان عالما بالأدب ، والنسب ، والفقه ، وسياسة الملك [٢] . . .» وقد أثبتت إدارته للحرب ضد صاحب الزنج ، ولدولة الخلافة المتهالكة ، كل ذلك وأكثر منه ، وهيأت الأجواء لابنه أن يصبح وليا لعهد الخليفة المعتمد ، وأن يحل في منصب الخلافة بعد وفاته سنة ٢٦٨هـ ، كما سنرى بعد قليل . وإذ وجد الخليفة المعتمد نفسه محاطا برقابة صارمة ، وتحت وطأة قيود مشددة فقد حاول أن يهرب ليحتمي بوالي مصر (المتغلب) أحمد بن طولون سنة٣٦٩هـ ووصل إلى منطقة الموصل . لكن والي الموصل من قبل الموفق أفشل خطة الهرب وأعاد الخليفة إلى دار الخلافة رغم أنفه .

== ثم إلى عبدالله بن المكتفي علي بن المعتضد أحمد بن طلحة الموفق ، وقد تلقب بـ «المستكفي» . وفي الشهور الأولى من ولاية المستكفي انتهت فترة اضطراب دار الخلافة لتبدأ فترة السيطرة البويهية . إن انتقال الخلافة في أبناء وأحفاد رجل واحد من أسرة حاكمة يعتبر أمرا عاديا لا يستدعي التنويه به بشكل خاص ؛ بيد أن عهد الموفق وابنه وحفيده (أحمد المعتضد ، وعلي المكتفي ، ٢٥٨هـ -٢٩٥هـ) قد غير أحوال الخلافة تغييرا كبيرا ، وبشكل إيجابي ملفت للنظر ؛ كما سنرى في الصفحات التالية ، وهذا ما دعانا إلى إفراد الموفق وبنيه بعنوان خاص .

(١) السيوطي ، ***تاريخ الخلفاء*** ، ص ٣٦٣ ؛ المسعودي ، ***مروج الذهب*** ، جزء ٤ ، ص ١٠١ .

(٢) ابن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٧ ، ص ٤٤٣ .

حركة صاحب الزنج:

وكان علي بن محمد ,الملقب بصاحب الزنج أحد الطامحين إلى السلطة والتغلب . ويروى أنه ظهر في البحرين سنة ٢٤٩هـ/٨٦٣م ، وانتسب إلى العلويين ، وأخذ يدعو الناس لاتباعه ، فاستجاب له عدد كبير . وهكذا أخذ يجبي الخراج ، مما أدخله في مواجهة مع رجال السلطة العباسية . وانقسم الناس حياله فنقل مركزه إلى الأحساء ، ومعه جماعة من أصحابه في البحرين ، منهم : يحيى بن محمد الأزرق البحراني ، وسليمان بن جامع ، الذي صار قائد جيشه فيما بعد .

وقد نسبت المصادر إلى علي بن محمد أنه خادع الناس في نسبه ، وغير وبدل من مكان لآخر ، كما نسب إليه ادعاء الكرامات والخوارق والإلهام في تحركاته ؛ وكل ذلك غير مستبعد من مغامر مثله ، وإن كنا لا نستبعد أن تكون تلك الاتهامات – أو بعضها – مجرد إشاعات ومقولات أطلقتها السلطة العباسية حوله لتشويه سمعته وصرف الناس عنه . ونشب الصدام العسكري بينه وبين رجال السلطة العباسية في الأحساء ، وبينه وبين معارضي طموحاته ، وما لبث أن حلت به هزيمة ثقيلة في معركة جرت بموضع عرف باسم «الردم» في البحرين ، فجعلت أكثر أتباعه ينفضون عنه .

وقد شجعه ما لاحظه من ضعف الخلافة على نقل ميدان مغامرته من البحرين إلى البصرة والجنوب العراقي . واستمرت حركته في جنوب العراق من سنة ٢٥٥حتى سنة ٢٧٠هـ ، وقتل فيها مئات الآلاف من الجانبين ، وارتكبت مذابح وقساوات هائلة ، ولحق الخراب والتدمير بالمنطقة كلها ، خاصة البصرة وواسط ، مما لا يتسع المجال لتفاصيله هنا[١] . وقد نقل السيوطي عن أبي بكر الصولي – وكان معاصرا للأحداث – أن عدد القتلى في حرب الزنج بلغ مليونا ونصف المليون (ألف ألف وخمسمائة ألف آدمي) ، وأنه قتل في يوم واحد في البصرة ثلاثمائة ألف[٢] . ولا شك أن هذه الأرقام تتسم بالمبالغة الشديدة ،لكنها تعطينا انطباعا بأن أعداد القتلى والضحايا من المحاربين والمدنيين كانت هائلة . وقد تم للموفق القضاء على

---

(١) الطبري ، مجلد ٩ ، ص . ٤٧٠-٤٧٣ و٤٧٧-٨ و٤٨١-٨ و٤٩٩-٥٠٠ و٦١٤-٦٦٧ ؛ وانظر كتابنا : ***الخليج العربي في العصر الإسلامي دراسة تاريخية وحضارية*** ، ص ١٣٠-١٣٤ .

(٢) السيوطي ، ***تاريخ الخلفاء*** ، ص ٣٦٤ .

صاحب الزنج وحركته سنة ٢٧٠هـ/٨٨٣م . وكان لأحمد بن الموفق دور كبير في تلك الحرب ظهرت خلاله شجاعته ومواهبه القيادية الأمر الذي أهله وجعله المرشح الأقوى والوحيد لتولي الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٨٩١/٢٧٨ ثم وفاة عمه الخليفة المعتمد على الله سنة ٢٧٩هـ/٨٩٢م ، هذا بجانب ما كان لأبيه من مكانة وتقدير .

لقد امتدت خلافة أحمد بن طلحة ، الذي لقب بـ «المعتضد بالله» ، وكني بأبي العباس ، حتى وفاته سنة ٢٨٩هـ وانتقل منصب الخلافة إلى ابنه علي ، الذي لقب بـ «المكتفي بالله» . ولم تزد خلافة المكتفي عن ست سنوات وبضعة شهور ، إذ توفي سنة ٢٩٥هـ ، وهو في بداية العقد الرابع من عمره ، حيث كان من مواليد سنة ٢٦٤هـ . لكن هذه الفترة القصيرة من عمر الخلافة العباسية كانت حافلة بالأحداث الكبرى ، وقد أثبت فيها المكتفي أنه جدير بمنصبه ، فكان يقود الجيوش بنفسه ، ويتابع أمور الحكم باقتدار ، على الرغم من صغر سنة واعتلال صحته . وكما واجه جده طلحة خطر صاحب الزنج ، فقد واجه المكتفي كذلك تحركات القرامطة في العراق ، وطاردتهم قواته حتى اضطروا لنقل مغامرتهم إلى بلاد الشام ، ومن بعدها إلى طريق الحاج والحجاز . ولم تضعف الهزائم التي منيت بها القوات العباسية في المراحل الأولى من تلك الحرب عزيمة الخليفة الشاب ، فكان يشكل الجيوش تلو الجيوش ، بل لقد قاد قواته بنفسه أحيانا ، إلى أن تم القضاء على القرامطة وحلفائهم في بلاد الشام ، وتم أسر رؤسائهم وسيقوا مكبلين إلى بغداد . وقد اضطر حلفاؤهم من بني العليص الكلبيين ، سكان بادية السماوة إلى الانقلاب عليهم والاستسلام للسلطة العباسية .

صبي في سدة الخلافة:

وعندما توفي المكتفي أواخر سنة ٢٩٥هـ/٩٠٨م كان كبار رجال الدولة من ذوي المناصب المدنية أربعة بجانب العباس بن الحسن الوزير ، أو رئيس الوزراء حسب مصطلحنا الحديث ، ، وهم : محمد بن داود بن الجراح ، ومحمد بن عبدان ، وعلي بن محمد بن الفرات ، وعلي بن عيسى . ويبدو أنهم توقعوا موت الخليفة ، فجرت مداولات لاختيار الخليفة الجديد بعد وفاة المكتفي . والظاهر أن بعض كبار رجال الدولة ، بما فيهم الوزير ومن ذكرنا ، لم يحتمل أن يأتي بعد المكتفي خليفة قوي يحملهم الخوف منه على الامتناع عن سرقة المال العام فمالوا إلى شغل منصب

الخلافة بشخص ضعيف يستطيعون في ظله أن يمارسوا عمليات الاختلاس وتعيين الأنصار في المناصب التنفيذية التي يرونها مهمة لتحقيق أغراضهم . ويروي لنا ابن الأثير أن الوزير استشار يوما محمد بن داود بن الجراح في من يصلح لمنصب الخلافة بعد المكتفي فرشح عبدالله بن المعتز ، «ووصفه بالعقل والأدب والرأي .» وعندما استشار الوزير أبا الحسن بن الفرات أشار بجعفر بن المعتضد ، الذي كانت سنه آنذاك ثلاث عشرة سنة وأحد عشر يوما . وقد فوجئ الوزير على ما يبدو ,ورد على ابن الفرات مستنكرا اقتراحه ، «قال : ويحك ، هو صبي ؛ قال ابن الفرات : إلا أنه ابن المعتضد . ولم نأت برجل كامل يباشر الأمور بنفسه ، غير محتاج إلينا؟» والظاهر أن الوزير مال إلى هذا الرأي . وتم تنصيب جعفر يوم الأحد الثالث عشر من ذي القعدة سنة ٢٩٥هـ على أيدي القائدين صافي الحرمي وفاتك المعتضدي ، اللذين دارت البيعة على أيديهما بحضور الوزير العباس بن الحسن . وقد قيل إن القاضي المثنى أحمد بن يعقوب رفض أن يبايع المقتدر ؛ فعندما طلب منه مؤنس الخازن ، قائد الشرطة ، أن يبايع ، رد بقوله : «لا أبايع صبيا ، فذبح[(١)] .»

ومنذ أن تولى الخلافة جعفر المقتدر سنة ٢٩٥هـ/٩٠٨م تمحورت الأحداث الرئيسية في دولة الخلافة حول هدفين اثنين :

١ - الصراع على السلطة

٢ - الصراع على المال

وكان تحقيق أي من هذين الهدفين على حدة ، بأي نسبة من النجاح ، يؤدي إلى تحقيق قدر من الهدف الآخر ، أي أن الهدفين كانا متكاملين . أما القوى المتصارعة فكانت متعددة وذات علاقات متداخلة متشابكة ؛ وعندما نحاول تعدادها نجد أن القائمة تضم الفئات التالية :

(١) القادة العسكريون .

(٢) الوزراء والمستوزرون والإداريون من مستويات وأماكن مختلفة .

(٣) شاغل منصب الخلافة ، أي الخليفة نفسه والطامحون للمنصب من أبناء العشيرة العباسية .

(٤) حاشية الخليفة وأتباعه وأقاربه وخدمه ، رجالا ونساءا .

---

(١) إبن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٨ ، ص ١٧ .

(٥) ولاة الأقاليم ومعاونوهم من العسكريين والإداريين .
(٦) المتغلبون على المناطق والأقاليم .
(٧) الطامحون للتغلب والحصول على المناصب والمال .

والحقيقة أن تاريخ فترة اضطراب دار الخلافة من بداية ولاية المقتدر سنة **٢٩٥هـ** وحتى سنة **٩٤٥/٣٣٤** ما هو إلا محصلة أنشطة وتحركات هذه القوى المتصارعة كما سنرى في الصفحات التالية .

بدأ الخليفة الجديد مهماته بأن أعطى خلعا تشريفية (كانت تقوم مقام الأوسمة والهدايا) لعدد من الشخصيات النافذة في بلاط الخلافة ، منهم سوسن ، مولى المكتفي ، وقد اتخذه حاجبا له ؛ وفاتك المعتضدي[١] ؛ ومؤنس الخازن ؛ ويمن ، غلام المكتفي ؛ وابن عمرويه ، صاحب شرطة بغداد ؛ وأحمد بن كيغلغ ، والي مقاطعة دمشق[٢] . ولم تمض على خلافة المقتدر أربعة أشهر حتى أقدم قادة الجند على خلعه ، في شهر ربيع الأول سنة **٢٩٦هـ** بتواطؤ عدد من رجال الحكم غير العسكريين ، بما فيهم الوزير العباس بن الحسن . ويذكر السيوطي أن المقتدر علم بالخبر فاستمال الوزير : «ودفع إليه أموالا أرضته ، فرجع عن ذلك ؛ وأما الباقون فإنهم ركبوا عليه في العشرين من ربيع الأول . . . والمقتدر يلعب الأكرة ، فهرب ، ودخل [دار الخلافة] وأغلقت الأبواب . وقتل الوزير وجماعة ، وجيء بابن المعتز ، وحضر القواد والقضاة والأعيان ، وبايعوه بالخلافة . . . » وتمت بيعته[٣] . ويبدو أن المقتدر سلم بالأمر ، وانصاع لطلب الخليفة الجديد بإخلاء دار الخلافة ، لكن أنصاره لم يقبلوا بالتسليم ، «فلبسوا السلاح ، وقصدوا . . . ابن المعتز . . . » فهرب ورجاله ، «ووقع النهب والقتل في بغداد ، وقبض المقتدر على الفقهاء والأمراء الذين خلعوه وسلموا إلى مؤنس الخازن فقتلهم» باستثناء أربعة منهم . وألقي بابن المعتز في السجن ثم أخرج ميتا بعد أيام[٤] .

---

(١) وكان لفاتك دور رئيسي في تنصيب المقتدر ، لدرجة أنه سل سيفه وتحدى الوزير عندما ظن أنه تراجع عن تولية الصبي ، أنظر : محمد بن عبدالملك الهمداني ، تكملة تاريخ الطبري ، ص ٤ .

(٢) عريب بن سعد القرطبي ، ***صلة تاريخ الطبري*** ، ص ٢٢-٢٣ .

(٣) السيوطي ، ***تاريخ الخلفاء*** ، ص ٣٧٨-٣٧٩ ؛ وقارن مع ابن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد٨ ، ص ٨-١١ .

(٤) محمد بن عبدالملك الهمداني ، ص ٥-٦ ؛ السيوطي ، ص ٣٧٩ .

محاولة إنقلاب عسكري:

وعندما حلت سنة ٣١٧هـ تعرضت خلافة المقتدر لعاصفة جديدة وجرى عزله مرة ثانية . وقد روي أن مؤنس المظفر ، قائد أكبر تكتل عسكري ، تمرد على الخليفة عندما وصلته أخبار بأن المقتدر أراد أن يحل محله هارون بن غريب . وكان هارون هذا ابن خال الخليفة ، وهو إغريقي . وقد زحف مؤنس بقواته على دار الخلافة ، وهرب أتباع المقتدر ، وأخرج المقتدر في ليلة الرابع عشر من المحرم ، كما أخرجت أمه وخالته وحرمه ، «وأشهد عليه بالخلع ، وأحضر محمد بن المعتضد ، وبايعه مؤنس والأمراء ولقبوه «القاهر بالله» . . .»[1] لكن خلافة القاهر ما لبثت أن انهارت بعد يومين ؛ فقد بويع يوم السبت ، وجلس في مجلس الخلافة يوم الأحد ، وجرى بمناسبة التنصيب تنظيم موكب احتفالي يوم الإثنين . وحسب ما جرت العادة ، جاءه العسكر يطلبون منحة البيعة وعطاء السنة . ولم يكن قائدهم مؤنس حاضرا ، ويبدو أن جدالا قد حدث ، فهاج الجند وقتلوا حاجب الخليفة القاهر ، ثم اتجهوا إلى دار مؤنس فانتزعوا المقتدر ، وحملوه على أكتافهم وأعادوه إلى قصر الخلافة . وقد عفا المقتدر عن القاهر ، وعاد يمارس نشاطه كالسابق حتى سنة ٣٢٠هـ ، وفيها كانت نهايته[2] . فقد ساءت العلافة بينه وبين مؤنس ، القائد العسكري الأكبر . وكان مؤنس قد اعترض على قيام الخليفة بتعيين محمد بن ياقوت في منصب المحتسب ، محتجا بأنه منصب لا يليه إلا الفقهاء ، بينما كان ابن ياقوت قبل ذلك قائد شرطة بغداد . وظل مؤنس يلح حتى تم عزل ابن ياقوت عن الحسبة . وتحسنت العلاقات مؤقتا بين الخليفة ومؤنس ، لكنها لم تلبث أن توترت بسبب كثرة الصراعات والدسائس المستترة والظاهرة . وفي هذه المرة خرج مؤنس بقواته إلى الموصل مظهرا التمرد والعداوة ، وذلك في شهر محرم سنة ٣٢٠هـ . وبينما كان في توقف للاستراحة بعث برسالة إلى الخليفة حملها أحد أتباعه الثقات . وعندما وصل المبعوث أصر الوزير على أن يتسلم هو الرسالة ويعرضها على المقتدر ، وأيده الخليفة في ذلك ، لكن الرسول لم يقبل إلا أن يسلم الرسالة للخليفة كما أوصاه سيده . وهنا استشاط الوزير غضبا وشتم الرسول

---

(١) السيوطي ، ص٣٨٢-٣٨٣ .

(٢) *المصدر نفسه* ، ص ٣٨٣ ؛ وللإطلاع على تفاصيل أوسع أنظر محمد بن عبدالملك الهمداني ، ص٥٨-٦١ .

ومؤنسا ، وحرض الخليفة على مؤنس ؛ ووقف محمد بن ياقوت – المعزول عن الحسبة – بجانب الوزير مؤيدا له . وبعد تسعة أشهر من الإقامة في الموصل دون أن يحدث انفراج زحف مؤنس بقواته صوب بغداد . ولقد أراد الخليفة أن ينسحب من العاصمة ، لكن وزيره وابن ياقوت وغيرهما من أنصاره شجعوه على المواجهة . وطلب مؤنس أن تصرف لجنده مرتباتهم فلم يلب طلبه ، بل أعلنت عليه الحرب ، وهكذا نشب القتال . وسرعان من انفض جند الخليفة عنه . وكان أول من قابله من قادة قوات مؤنس : علي بن بليق . وقد ترجل ابن بليق عندما رأى الخليفة ، وقبل الأرض بين يديه ، ثم تركه لجنده المغاربة . «فلما تركهم وإياه شهروا عليه السلاح ؛ فقال لهم : ويلكم ، أنا الخليفة ؛ فقالوا : قد عرفناك يا سفلة ؛ إنما أنت خليفة إبليس ، تنادي في جيشك : من جاء برأس فله خمسة دنانير! وضربه أحدهم بسيفه على عاتقة فسقط إلى الأرض ، وذبحه آخر . . .»[(١)] وبعدئذ سلبوه كل ما كان عليه ، «حتى سراويله ، وبقي مكشوف العورة ، مجندلا على الأرض حتى جاء رجل فغطى عورته بحشيش ، ثم دفنه في موضعه وعفى أثره»[(٢)] .

وقد وصف ابن الأثير المقتدر بأنه «أهمل من أحوال الخلافة كثيرا ، وحكم فيها النساء والخدم ، وفرط في الأموال . . . وكان جملة ما أخرجه من الأموال تبذيرا وتضييعا في غير وجه نيفا وسبعين ألف ألف دينار [أكثر من سبعين مليون دينار ذهبية] سوى ما أنفقه في الوجوه الواجبة . . .»[(٣)] وقد أورد ابن كثير نفس المعلومات ، وأضاف أنه ، أي المقتدر ، كان في داره إحدى عشر ألف خادم خصي غير الصقالبة[(٤)] وأبناء فارس والروم والسودان . وكان مؤثرا لشهواته ، مطيعا لخصاياه ، كثير العزل والتلون»[(٥)] .

وهكذا بدا واضحا أن سنوات القوة والمنعة التي تمتعت بها الخلافة في عهد الموفق ، وفي عهدي المعتضد ، والمكتفي ، قد وصلت إلى نهايتها بولاية المقتدر .

---

(١) أبو الفدا ابن كثير ، ***البداية والنهاية*** ، ج ١١ ، ص ١٦٨ – ١٦٩ .

(٢) ***المصدر نفسه*** ، ص ١٦٩ .

(٣) إبن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٨ ، ص ٢٤٣ .

(٤) أي السلاف ، ومنهم الصرب والروس وغيرهم .

(٥) ابن كثير ، ***البداية والنهاية*** ، ج ١١ ، ص ١٦٩–١٧٠ ؛ وانظر السيوطي ، ***تاريخ الخلفاء*** ، ص٣٨٤ .

خلافة القاهر:

وبعد أن انتهى أمر المقتدر جمع مؤنس الشخصيات القيادية ، العسكرية والإدارية ، للتشاور في أمر من يتولى الخلافة . وكان رأيه أن يعين أحمد بن المقتدر خلفا لأبيه لتطييب القلوب ، لكن الآخرين اعترضوا على الفكرة ، وتصدر المعارضين اسحاق بن إسماعيل النوبختي ؛ ونقل عنه أنه قال : «بعد التعب والنكد نبايع لخليفة صبي له أم وخالات يطيعهن ويشاورهن[١] .» وقد جيئ بأحمد بن المقتدر وبمحمد بن المعتضد وأجلسا في مكان قريب من الاجتماع ؛ ويبدو أن ابن المقتدر كان متخوفا ومياالا إلى ترك المنصب لعمه . وقد شرط المشاركون في الاجتماع على محمد بن المعتضد شروطا قبلها سوى شرط واحد ، هو تقديم مال البيعة ، أي المنح المالية التي تصرف للجنود بمناسبة ولاية الخليفة الجديد ، حسب ما جرت به العادة ، فقد اعتذر بأن لا مال لديه ، فعذروه في ذلك[٢] ، وبايعه القادة . ثم إن مؤنس استحلفه وأخذ منه تعهدا مكتوبا بأن لا يتعرض له بالأذى ولا لحاجبه بليق ، أو لعلي بن بليق . فتعهد القاهر بكل ذلك خطيا ، ثم بايعه الناس . وقد عين علي بن بليق حاجبا له ، واختار لوزارته أبا علي بن مقلة ، صاحب الخط المشهور .

ولم يكد محمد بن المعتضد - الذي لقب بـ «القاهر» - يفرغ من إجراءات البيعة والتنصيب حتى بدأت تصرفاته المشينة والمشحونة بالحقد وروح الانتقام ؛ فقد استهل نشاطه الرسمي بحملة شرسة على من كانوا أعوانا لأخيه الخليفة السابق ، أي المقتدر ،فصادر أموالهم وألقى بهم في السجون . ثم تتبع أولاده حيث لقوا نفس المصير . ولم يلبث أن جلب أم المقتدر ، وأخذ يستجوبها للحصول على أموالها وأملاكها . وكانت المرأة مريضة بالاستسقاء ، وقد اشتد مرضها على أثر مقتل ابنها على النحو الذي قتل به ؛ وعندما ردت على أسئلة القاهر بأن كل ما بقي لديها هو الحلي والمصاغ والثياب لم يصدقها ، وأمر بتعذيبها ، حيث علقت من رجليها ، أو من رجل واحدة حسب إحدى الروايات . وذكر أن القاهر لم يتورع عن ضربها بيده ، دون احترام لكونها كانت زوجة أبيه الخليفة المعتضد . بل لقد ذكرت الروايات أن الضرب والتعذيب لم يستثن المواضع الحساسة - مواضع الحياء - من جسدها . وتحت وطأة

---

(١) ابن كثير ، ***البداية والنهاية*** ، ج١١ ، ص ١٧٠ .

(٢) عريب بن سعد القرطبي ، ص ١٨٠ - ١٨١ ؛ ابن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٨ ، ص ٢٤٤ .

هذا التعذيب تنازلت عن كل أملاكها من الأراضي والضياع والدور ، وأشهدت على نفسها بأنها باعتها . ولم يكتف الخليفة الجديد بهذا ، بل طلب منها أن تحل أوقافها التي كانت وقفتها على الأعمال الخيرية ، لكنها رفضت وأبت أشد الإباء[١] .

وبعد أقل من سنة على ولاية القاهر بدأت تتجمع في الأفق سحب عاصفة عجلت بالصدام بين الخليفة وعدد من معاونيه وغيرهم من القادة . ففي سنة **٣٢١هـ** حصل محمد بن ياقوت – أحد القادة العسكريين – على أمان من القاهر بوساطة بليق ، حاجب الخليفة ، وعاد إلى بغداد بعد أن كان هاربا من العاصمة هو وأتباعه . ونجح ابن ياقوت في كسب ثقة القاهر ، وعلت منزلته عنده حتى أصبح يستشيره في المهمات . وكانت هناك عداوة قديمة بين ابن ياقوت والوزير ابن مقلة الذي حملته عداوته على تحريض القائد مؤنس عليه ، محذرا من أنه يسعى به عند الخليفة ، وأن طبيب الخليفة هو حلقة الاتصال بين الجانبين . وأضاف ابن مقلة أن القاهر بنى مطامير[٢] ليحبسهم فيها . واستفزت هذه السعاية مؤنسا فوجه علي بن بليق لإحضار عيسى الطبيب المتهم الذي تصادف وجوده آنذاك بين يدي القاهر ؛ فلم يتردد ابن بليق في أخذه بالقوة إلى مؤنس حيث عجل هذا بإبعاده إلى الموصل . واتفق المتآمرون على مهاجمة محمد بن ياقوت ، وكلف علي بن بليق بتنفيذ المهمة . ولكن ابن ياقوت أحس بالخطر ، إذ عندما ركب ابن بليق بجنده للإيقاع به وجد أنه اختفى عن الأنظار . ولمزيد من إحكام طوق الرقابة على القاهر وكل ابن بليق أحد أتباعه – واسمه أحمد بن زيرك – بدار الخلافة ، «وأمره بالتضييق على القاهر ، وتفتيش كل من يدخل الدار ويخرج منها ، وأن يكشف وجوه النساء المنقبات ، وإن وجد مع أحد رقعة» أخذها وسلمها إلى مؤنس . ويبدو أن ابن زيرك كان متحمسا لتنفيذ مهمته فزاد في إجراءات التفتيش لدرجة أنه دس يده في لبن جيء به إلى دار الخلافة ، خشية أن تكون في داخل اللبن رسالة سرية . وقد أخرج علي بن بليق كل من كان محبوسا

---

(١) ابن كثير ، ***البداية والنهاية*** ، جزء ١١ ، ص ١٧٠ – ١٧١ ؛ وانظر : الهمداني ، ***تكملة تاريخ الطبري*** ، ص ٧١ – ٧٢ .

(٢) جمع مطمورة ، وهي حفرة عميقة كانت تبنى ويعمل لها غطاء محكما وتستخدم لأغراض مختلفة ، منها التخزين ، وحبس المجرمين الخطرين أو المعارضين .

في دار الخلافة ، وأخذه إلى داره ، وقطع رواتب أفراد حاشية الخليفة[1] .

وخطط المتآمرون لاحتجاز الخليفة ، واتفقوا على من سيولونه الخلافة بدلا من القاهر ، وهو أحمد بن المكتفي ، أي ابن أخ القاهر .

وواضح أن المجموعة استهانت بقدرة الخليفة المكروه على الرد ولم تحرص على إخفاء نواياها ، بل وتصرفت بشيء من العنف المستهتر . وكان طبيعيا أن يحس القاهر بما أرادوا به ، خاصة عندما اختلق ابن مقلة رواية مفادها أن أبا طاهر ، سليمان بن الحسن ، زعيم دولة قرامطة البحرين ، قد وصل بقواته إلى الكوفة ، وأن قوة عسكرية أعدت للتحرك نحو الكوفة لمواجهة هذا العدو المرعب ، على أن يقودها علي بن بليق . وكان من مقتضيات ذلك الترتيب أن يمر قائد القوة على الخليفة للسلام عليه قبل خروجه لتأدية مهمته . وكانت الخطة تقضي بأن يقوم علي بن بليق بإلقاء القبض على القاهر ، ثم يتم تنفيذ بقية الخطوات . لكن المعلومات وصلت إلى القاهر عندما تسلل طريف السبكري ، وهو أحد القادة العسكريين الناقمين على ابن بليق ومؤنس ، وأخبره بكل ما اتفق عليه المتآمرون . ثم نجح القاهر في استغواء فئة من فئات الجند ، وهم الساجية[2] الذين كانوا حانقين على مؤنس وبليق الأب ، لأنهما كانا وعداهم بالمال يوزع عليهم لكنهما أخلفا الوعد ؛ فأدخل القاهر مجموعات منهم كمنت في ممرات وأروقة دار الخلافة . كما أن القاهر تمكن من استمالة محمد بن القاسم بن عبيدالله – أحد مساعدي الوزير بن مقلة – ووعده بأن يوليه الوزارة بدلا عن الوزير غير الوفي ، فصار ينقل له أخبار تحركات الوزير أولا بأول . وهكذا أتم القاهر استعداداته لاستقبال علي بن بليق الذي يريد أن يودعه بمناسبة توجهه لمحاربة القرامطة – حسب ما زعم الوزير بن مقلة . فلما حضر ابن بليق بعد العصر ومعه مجموعة قليلة من جنده بسلاح خفيف ـ وكان قد أمر جماعات أخرى من جنده بالمرابطة على أبواب دار الخلافة ـ وطلب الإذن بالدخول على القاهر لم يؤذن له . وقد استشاط ابن بليق غضبا ، ـ وكان به أثر من سكر وثمالة – واخذ يشتم ويتوعد ، ويقول إنه لا بد من لقاء الخليفة سواء رضي أم لم يرض . وإذ ذاك أمر القاهر الجند الساجية بالتصدي له ، فخرجوا من مكامنهم وشتموه وألقوا القبض عليه . وعندما وصلت المواجهة إلى هذا

(١) إبن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٨ ، ص ٢٥٠ – ٢٥١ .

(٢) وهم فئة من الجند كانوا ينسبون إلى قائدهم السابق أبي الساج .

الحد علم طريف السبكري ، فركب وجنده بالسلاح وحضروا إلى دار الخلافة لمساندة القاهر . وعلم بليق ، والد علي بما جرى على ابنه فخرج هو وجميع القادة الذي كانوا في دار مؤنس وجاءوا إلى دار الخلافة فرفض الخليفة استقباله وأمر بالقبض عليه وعلى صاحب الشرطة ، أحمد بن زيرك . وفي ذلك الوقت صارت تجمعات كبيرة من الجيش ، من مختلف الكتل والولاءات ، في دار الخلافة . وخشي القاهر أن تدور معركة مدمرة داخل دار الخلافة فأرسل للجند من يطمئنهم بأن المقبوض عليهم سوف يعرفون بأخطائهم ثم يطلق سراحهم ، كما وعدهم بزيادة مرتباتهم ؛ وهكذا خرجوا وعادوا إلى ثكناتهم . وبعد ذلك بعث برسول إلى مؤنس يسأله الحضور لكي يعرض عليه ما ذكر من مخالفات ارتكبها المقبوض عليهم ، ولم ينس أن يقول لمؤنس أنه يعتبره بمنزلة والده ويحرص على استشارته فيما ينبغي عمله ، ولا يريد أن يفعل شيئا دون رأيه . لكن القائد العجوز اعتذر عن الحضور ، بسبب كبر سنه . **وعلى** أثر ذلك استدعى الخليفة طريف السبكري «وناوله خاتمه وقال له :

قد فوضت إلى ولدي عبدالصمد ما كان المقتدر فوضه إلى ابنه محمد ، وقلدتك خلافته ، ورئاسة الجيش ، وإمارة الأمراء ، وبيوت الأموال كما كان ذلك إلى مؤنس[(١)]» . ثم أمره بالذهاب إلى مؤنس وإحضاره إلى دار الخلافة ؛ وقطعت رءوس علي بن بليق ، وبليق ، ومؤنس جميعا ، بينما تمكن ابن مقلة من الهرب والاختفاء عن الأنظار . ولم ينس القاهر أن يقبض على ابن أخيه أحمد ، الذي اختاره المتآمرون ليتولى منصب الخلافة ، فوضعه بين حائطين وأمر ببناء ما يغلق المكان عليه بالطين والجص ، فمات[(٢)] ؛ ولم يرد الجميل إلى أخيه المقتدر ، والد أحمد ، فقد كان القاهر في نفس الموقف سنة ٣١٧هـ عندما خلع المقتدر في عملية انقلاب واختار المتآمرون القاهر ليحل محله ؛ وعندما فشل الانقلاب عفا عنه المقتدر وحنا عليه وقبله وعذره ، واعتبره مكرها لا ذنب له ؛ وقد أشرنا إلى ذلك من قبل . ثم جاء دور طريف السبكري ؛ فبعد أن انجز مهمته في القضاء على مجموعة مؤنس وأنصاره ، وبعد أن جعله الخليفة أمير الأمراء وفوضه بجميع الأمور العسكرية والمالية

---

(١) إبن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٨ ، ص ٢٥٤-٢٥٥ .

(٢) إبن الجوزي ، ***المنتظم*** ، مجلد ٦ ، ص ٢٤٩-٢٥٠ ، ٢٦٤- ٢٦٥ ؛ الهمداني ، ***تكملة*** ، ص ٧٧ - ٧٢ ؛ أبن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٨ ، ص ٢٥٢-٢٥٧ .

تنكر له ، وتنكر لكل الوعود والأيمان التي حلفها له ، فصار يزدريه ، ثم أمر بالقبض عليه ووضعه في السجن ، فظل السبكري سجينا إلى وقت سقوط القاهر وانتهاء عهده .

هذه القسوة ، وهذا السلوك الذي شاع ذكره عن تصرفات الخليفة لم يترك أحدا من قادة مختلف فئات الجند لم تساوره المخاوف مما قد يتعرض له على حين غرة . وقد زاد من هذه المخاوف ما كان يبثه بعض الضحايا والمتضررين من ضربات القاهر ؛ وكان من هؤلاء محمد بن مقلة ، الوزير السابق الذي اضطر إلى الهرب والاختفاء من غير أن تضعف رغبته في الانتقام . فقد ظل يتصل بالجند ، خاصة الساجية ، والحجرية ، ويخوفهم من القاهر ويحرضهم عليه . ومثل ابن مقلة فعل الحسن بن هارون ، الذي كان كاتب الحاجب بليق ، المقتول ؛ فقد كان يخرج متخفيا ليلا ويحاول تهييج مخاوف الجند وإثارة قلقهم ، خاصة عندما كان يذكر لهم أن القاهر يبني مطامير لحبسهم فيها . وقد هاج الحجرية بالفعل سنة ٣٢٢هـ ، فانزعج الخليفة وحاول تهدئتهم ، وحلف لهم أن حديث المطامير غير صحيح ، وأنه إنما بنى حمامات للحرم ، أي للنساء اللاتي في دار الخلافة . ومع ذلك لم يتوقف القاهر عن سياسة القتل ، إذ تنقل لنا أخبار تلك السنة إقدامه على قتل الأمير الحمداني أبي السرايا نصر بن حمدان ، وكذلك أقدم على قتل إسحاق بن إسماعيل النوبختي . وكان إسحاق هذا هو الذي أشار باختيار القاهر لمنصب الخلافة عندما كان قادة الجند مجتمعين للاتفاق على من يحل محل المقتدر بعد قتله في السنة السابقة . وقد ذكر أن السبب في قتل الأمير الحمداني وإسحاق النوبختي أن الخليفة أراد أن ينتقم منهما لأنهما زايدا عليه في شراء بعض الجواري من سوق النخاسة قبل أن يتولى منصب الخلافة . ولعل هذه الحادثة قد زادت من مخاوف كل من كانت لهم علاقة بالقاهر . كذلك ذكر أن القاهر أخذ يتنكر للساجية والحجرية من الجند ولا يهتم بمطالبهم . وقد استهدفت إشاعات ابن مقلة إثارة زعيم الجند الساجية ، واسمه سيما ، حيث دفع مالا لمنجم كان يقرأ الطالع لقائدهم المدعو (سيما) ، ودفع مالا أيضا لمفسر أحلام كان سيما يلجأ إليه ، وطلب منهما أن يقنعا سيما بأن القاهر سيفتك به . وزاد الطين بلة أن مجموعة من القرامطة كانت قد أسرت في بلاد فارس وجيء بها إلى بغداد واحتجزت في المطامير . ويبدو أن القاهر أطلقهم وأكرمهم ، وأشيع أنه كان يريد الاعتماد عليهم للقبض على قادة الساجية والحجرية ؛ كل ذلك زاد المخاوف وزاد الاحتقان . وفي هذه

الأجواء الطافحة بالشكوك والقلق ثار الجند مجددا وتوجهوا إلى مقر الخليفة في الصباح الباكر ، يقودهم سيما ، رئيس الساجية . وعندما شعر الوزير والحاجب بخطورة الموقف حاولوا تنبيه القاهر فلم ينتبه لشدة حالة السكر التي كان فيها ، فأسرعا بالهرب متنكرين في زي النساء طلبا للنجاة [١] . وأحاط الجند بدار الخلافة ، وطلبوا القاهر . وهنا شعر بالخطر ، فحاول الهرب لكنه وجد الأبواب كلها تحت سيطرة الجند ؛ فهرب إلى السطح لكنه أجبر في النهاية على النزول والاستسلام . وهكذا تم خلعه ولم يمض في الخلافة سوى سنة واحدة وستة أشهر ؛ وسملت عيناه بمسامير محماة في نفس اليوم . وعلق ابن الجوزي على حادثة السمل[٢] التي وقعت على القاهر بقوله : «وارتكب منه أمر عظيم لم يسمع بمثله في الإسلام [٣] .» وقد وصف القاهر بأنه «كان أهوج سفاكا للدماء ، قبيح السيرة ، كثير التلون والاستحالة ، مدمن الخمر ، ولولا جودة حاجبه سلامة لأهلك الحرث والنسل . وكان قد صنع حربة يحميها ، فلا يطرحها حتى يقتل بها إنسانا[٤] .»

«الراضي بالله»، محمد [٥] بن جعفر المقتدر:

عند خلع القاهر كان الراضي مسجونا ، إذ كان القاهر نفسه قد سجنه عندما تولى الخلافة سنة ٣٢٠هـ ، كما مر معنا . وذهب قادة الجند إلى محبس الراضي ففتحوه وسلموا عليه سلام الخلفاء ، ونقلوه إلى دار الخلافة ، وأجلسوه بدل القاهر ،

---

(١) الحافظ الذهبي ، ***تاريخ الإسلام*** ، أحداث سنة ٣٢١ و٣٢٢هـ ؛ إبن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٨ ، ص٢٧٩ - ٢٨٢ .

(٢) السمل هو إتلاف عيني الضحية عن طريق تسخين مروادين معدنيين كالذي كانت تكتحل به النساء ، ثم وضع المرودين المحمرين بالسخونة في عيني الشخص المقصود ؛ وثمة طريقة أخرى وصفتها المصادر كانت تتم عن طريق تسخين مقلاة أو ما يشبهها لدرجة الاحمرار وتمريرها أمام عيني الضحية فيفقد بذلك بصره . ويبدو أن المسلمين نقلوا هذه العادة عن البيزنطيين .

(٣) ابن الجوزي ، ***المنتظم*** ، مجلد ٦ ، ص ٢٦٥ .

(٤) الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي ، ***تاريخ الخلفاء*** ، ص ٣٨٨ ؛ إبن كثير ، ***البداية والنهاية*** ، ج١١ ، ص ١٤٩ .

(٥) هناك خلاف بين المؤرخين القدامى حول ما إذا كان اسم الخليفة الراضي «احمد» أو «محمد» .

وأجبروا القاهر على مبايعته . لقد امتدت خلافة الراضي أقل من سبع سنوات ، حيث توفي سنة ٣٢٩هـ وفاة طبيعية ، فلم يعزل مرتين ويقتل في الثالثة كوالده المقتدر ، ولم يسمل كعمه القاهر . ومع ذلك فإن خلافته كانت بعيدة عن الاستقرار . ولقد كان الحافظ الخطيب البغدادي - رحمه الله- مبالغا ، أو غير دقيق ، عندما وصف الراضي بأنه « . . .آخر خليفة انفرد بتدبير الجيوش والأموال[١] . والحقيقة أن الراضي لم ينفرد لا بتدبير الجيوش ولا الأموال ؛ فعندما أجرى بعض التعيينات المهمة حين بدأ يمارس شيئا من اختصاصات وظيفته الجديدة كان يفضل تعيين سيما رئيسا للجيش ، وكان سيما رئيسا للكتلة العسكرية المساة بـ «الساجية» ، كما مر معنا . لكن أغلبية قادة الجند - على ما يبدو - كانوا ميالين إلى محمد بن ياقوت الذي كان آنذاك في رامهرمز ، وكان يتهيأ للتوجه إلى إصبهان ، فصدرت إليه التعليمات بالقدوم إلى دار الخلافة . وما أن وصل حتى خلع عليه الراضي وقلده وظيفة الحاجب ، وقد «تولى مع الحجبة رئاسة الجيش ، وأدخل يده في أمر الدواوين ، وتقدم إليهم [٢] بأن لا يقبلوا توقيعا بولاية ولا عزل وإطلاق إلا إذا كان خطه عليه ، وأمرهم بحضور مجلسه ، فصبر . . . ابن مقلة على ذلك ، وألزم نفسه بالمسير إلى دار ابن ياقوت ، في بعض الأوقات ، وبقي كالمتعطل [٣] .» ولم ينحصر دور ابن ياقوت في حدود وظيفته المعلنة رسميا ، بل إنه صار «كل شئ» ، وشملت سلطاته كلما رغب أن يتدخل فيه من شئون الدولة . ووصف الهمداني الوضع الجديد لمحمد بن ياقوت قائلا : «واستولى ابن ياقوت على الأمر ، وحصل ابن مقلة مع كاتبه القراريطي متعطلا [٤] .» والمقصود بعبارة الهمداني أن الأمور كلها أصبحت بيد ابن ياقوت لدرجة أن الوزير - رئيس الوزراء حسب مصطلح عصرنا - أصبح لا عمل له ؛ مع أن المفروض أن السلطة التنفيذية العليا تتجسد فيه . وسنرى خلال استعراضنا لبعض

---

(١) الحافظ أحمد بن علي الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، مجلد ٢ ، ص ١٤٣ ؛ ابن الجوزي ، ***المنتظم*** . . . ، مجلد ٦ ، ص ٢٦٧ ؛ ذكر الخطيب البغدادي وآخرون أن الاسم الأول للراضي «محمد» ، وقد أخذنا برأي ابن الأثير ، مجلد ٨ ، ص٢٨٢ .

(٢) وتقدم إليهم بمعنى : أمرهم .

(٣) ابن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٨ ، ص ٢٨٧ .

(٤) الهمداني ، ***تكملة*** ، الجزء الأول ، ص٨٤ .

التطورات والأحداث التي شهدها حكم الراضي أن الخليفة نفسه كان تبعا للقائد العسكري ، ولمن يملك القوة العسكرية ، وليس العكس .

وكان أول تحد كبير واجهه الراضي هو تمرد هارون بن غريب ؛ وكان هارون هذا إغريقي الأصل (يوناني) ، أما والده «غريب» فهو الذي جاء ، أو جيء به ، إلى بغداد . وكانت أخته جارية للخليفة المعتضد ، أحمد بن طلحة ، وقد أنجبت ابنه جعفر ، الخليفة المقتدر ، وبذلك صارت زوجته بحكم أنها «أم ولده» . وعندما تولى المقتدر الخلافة صار غريب يعرف بـ «غريب الخال» ، أي خال الخليفة . وعندما خلع القاهر سنة **٣٢٢**هـ وآلت الخلافة إلى الراضي ، وعين الخليفة الجديد محمد بن ياقوت في وظيفة الحاجب ، وصارت الدولة تحت تصرفه ، إذ ذاك أعلن هارون بن غريب تمرده ، لأنه «رأى أنه أحق بالدولة من غيره [١] » ، حسب رواية ابن الأثير ؛ بينما وصف ابن كثير موقف هارون بقوله : «ولما خلع القاهر وولي الراضي طمع هارون بن غريب في الخلافة ، لكونه ابن خال المقتدر ، وكان نائبا على ماه الكوفة والدينور وماسبيذان ، فدعا إلى نفسه ، واتبعه خلق كثير من الجند والأمراء ، وجبى الأموال ، واستفحل أمره وقويت شوكته[٢] . .» والذي نرجحه أنه كان يسعى للسيطرة على أعلى منصب تنفيذي ، أو وضع يتيح له ذلك ، وليس للوصول إلى منصب الخلافة .

وقد حاول الخليفة إرضاءه وإبعاده ، وعرض عليه أن يعطيه ولاية طريق خراسان ، زيادة على ما كان في يده من قبل فرفض ؛ وزحف بقواته إلى النهروان في الطريق إلى بغداد ، وشرع في جباية الأموال ، وظلم الناس وعسفهم ، وقويت شوكته[٣] . وهكذا صارت المواجهة العسكرية حتمية ، فتحرك محمد بن ياقوت بجميع قوات الخلافة للتصدي له ، لكن الهزيمة حلت بابن ياقوت وبقواته ، وزاد مركز هارون قوة ؛ ولم ينقذ بغداد وابن ياقوت إلا موت هارون عندما تعثر به فرسه فسقط عنه في ساقية [٤] .

ويبدو أن عجز ابن ياقوت وهزيمته أمام هارون بن غريب جرأت عليه بعض الفئات العسكرية ، خاصة الساجية والحجرية الذين رفضوا الخروج معه في حملة عسكرية

---

(١) ابن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٨ ، ص ٢٨٨ .

(٢) إ بن كثير ، ***البداية*** ، جزء ١١ ، ص ١٧٩ .

(٣) ابن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٨ ، ص ٢٨٨ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٨٨-٢٨٩ .

ضد أحد المتمردين ؛ وعندما أسمعهم كلاما شديدا شتموه ورجموه بالحجارة ؛ ولعلهم وجدوا تشجيعا غير معلن من جانب الوزير ابن مقلة الذي اغتصب ابن ياقوت كل سلطاته . وقد شاع أن ابن ياقوت «غلب على الأمور وانفرد بجباية الأموال وتضمين الأعمال» ، كما أن الراضي استاء كثيرا عندما بلغه أن خطباء الجمعة في مساجد بغداد أجبروا على الدعاء لابن ياقوت[١] بجانب الدعاء للخليفة . وربما ساعدت هذه الحالة الوزير ابن مقله في مسعاه للتخلص من طغيانه ، فأخذ يحرض الخليفة عليه حتى اقتنع ، ورسمت الخطة على أن يتم القبض عليه حين يأتي للقاء الخليفة ، وتم ذلك في دهاليز قصر الخلافة ، كما اعتقل كاتبه القراريطي ، وأخوه المظفر بن ياقوت بنفس الطريقة ، وأصبحت السلطة الحقيقية بيد الوزير ابن مقلة ؛ وقد ظهر هذا خاصة عندما كلف الوزير بقيادة الجيش إلى الموصل لتأديب الحسن بن عبدالله بن حمدان[٢] . ثم إنه تمكن من إقناع الخليفة بتعيين ابنه وزيرا ، فصار الأب والابن وزيرين في نفس الوقت ؛ وبذلك صار ابنه مساعدا له بمرتبة وزير أيضا ؛ أي أنه مهد الطريق لأن يورث ابنه أعلى منصب تنفيذي في دولة الخلافة .

ولكن إذا كان ابن مقلة قد تمكن بدهائه من دحر القائد العسكري بن ياقوت فإن ذلك الانتصار كان ذا طبيعة مؤقتة ، لأن الفوضى المالية وعمليات نهب واغتصاب واختلاس المال العام على كل المستويات الإدارية ، المدنية والعسكرية ، لم تترك مجالا لانتظام حياة المجتمع في ظروف عادية ومحتملة ؛ كما أنها - أقصد الفوضى المالية - حرمت السلطة من وجود أموال في الخزينة للصرف على الأنشطة والأجهزة الحكومية ، وتلبية المطالب الجشعة لمختلف الشخصيات الرسمية والحواشي والأتباع . وهكذا أصيبت إدارة الأنشطة بالشلل التام ، وبشكل متكرر ، سواء قبل ولاية ابن مقلة للوزارة أو أثناء توليه . وهكذا وجد الوزير الداهية نفسه عاجزا تماما عن الوفاء بتعهداته بإقامة إدارة ناجحة توفر كل احتياجات السلطة من الأموال ، فضلا عن المبلغ الذي تعهد بتقديمه للخليفة كي يحصل على منصب الوزارة مرة ثالثة ، ومقداره نصف مليون دينار[٣] . وهكذا تعذر استمراره في الحكم ، فقبض عليه الجنود الحجرية

---

(١) الهمداني ، ***تكملة*** ، مجلد ١ ، ص ٨٨ .

(٢) ابن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٨ ، ٣٠٩ - ٣١٠ .

(٣) ***المصدر نفسه*** ، ص ٢٨٠ ؛ والهمداني ، ***تكملة*** ، مجلد ١ ، ٨٣ .

وهو في دار الخلافة في شهر جمادى الأولى من سنة ٣٢٤هـ ، وذكروا للخليفة أن ابن مقلة هو المفسد الأول الذي دفع بوضع الدولة إلى الهاوية ، وطلبوا منه أن يستوزر غيره . . .[١] .

وعين الخليفة عبدالرحمن بن عيسى بن الجراح لمنصب الوزارة ، وتعرض ابن مقلة لتعذيب شديد . لكن الوزير الجديد عجز عن تسيير أمور الدولة ، بسبب قلة الأموال ، وساءت الأحوال ، فاستقال بعد أيام من ولايته ، في نفس السنة فألقي القبض عليه وعلى أخيه الأكبر علي بن عيسى وفرضت عليهما الغرامات . واختير لمنصب الوزارة محمد بن القاسم الكرخي ، لكنه وجد الموارد المالية ناضبة والخزانة فارغة ليس بسبب الاختلاسات والنهب فقط بل ولأن ولاة الأقاليم القريبة توقفوا عن دفع الأموال المترتبة المستحقة لدار الخلافة على ولاياتهم : فقد توقف محمد بن رائق - والي البصرة وواسط - عن إرسال المستحق لدار الخلافة ، وكذلك فعل أبو عبدالله البريدي ، ضامن الأهواز ؛ كما انقطعت الأموال التي كانت ترد إلى بغداد عن إقليم بلاد فارس لأن الإقليم سقط في أيدي البويهيين على وجه التغلب . وكان طبيعيا والحالة هذه أن يقف الوزير الكرخي عاجزا عن مواجهة المشاكل المزمنة والطارئة ، وبدلا من أن يقدم استقالته ، أو استعفاءه اختار أن يختفي عن الأنظار بعد ثلاثة أشهر ونصف فقط [٢] من توليه منصب الوزارة [٣] . وجيء بسليمان بن الحسن بن مقلد وكلف بالوزارة ، لكنه عجز مثل سابقه ، وازدادت الأمور سوءا[٤] . وهكذا وجد الخليفة نفسه في مأزق صعب للغاية ، لا يحسد عليه ؛ لقد فشل كل الإداريين المرموقين في إخراج الدولة من مأزقها المزمن ، فما العمل؟ لقد توهم أن الحل بيد العسكريين ، فالعسكريون هم القوة الأشد فعالية في دولة الخلافة الواهنة . ويبدو أنه نسي تجربته مع ابن ياقوت ، ومن غير وعي ، نجده يختار عسكريا بارزا هو محمد

---

(١) الهمداني ، ***تكملة*** ، مجلد ١ ، ص ٩٤ .

(٢) ذكر الهمداني (***تكملة*** ، مجلد ١ ، ص ٩٨) أن الكرخي اختفى بعد ثلاثة أيام من توليه الوزارة ؛ والذي نرجحه ما أثبتناه . في المتن .

(٣) محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقا ، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، ص ٢٨١ ؛ ابن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٨ ، ص ٣٢٢ .

(٤) ابن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٨ ، ص ٣٢٢ .

ابن رائق ، والي البصرة وواسط ، ويقلده إمارة الجيش ، ويلقبه بلقب أمير الأمراء ، ويوليه الخراج والمعاون في جميع البلاد والدواوين ، ويأمر بأن يخطب له على جميع المنابر ، وينفذ إليه الخلع[١] .»

والحقيقة أن هذا الإجراء مثل تغيرا واضحا ، أو انقلابا في موقف الخليفة : فبعد أن قضى على محمد بن ياقوت بسبب تسلطه على شئون الدولة ، وبسبب دعاء خطباء الجوامع له ضمن شعائر صلوات الجمعة ، كما ذكرنا ، نجده هنا يعين عسكريا آخر بسلطات أوسع ، ويضيف إلى ذلك الدعاء له على المنابر أيام الجمع . والأجدر بالملاحظة هنا أن تلك السلطات حملت الصفة الشرعية باعتبارها معطاة من الخليفة نفسه ، ولم تأت عن طريق القوة والاغتصاب وحدهما ، كما في حالة محمد ابن ياقوت . ولو أردنا أن نبحث عن تفسير لهذا التغير الانقلابي في موقف الخليفة نجده في فشل جميع الإداريين الذين تولوا الوزارة منذ بداية عهده سنة **٣٢٢هـ** ، كما مر معنا . ويمكن أن يضاف إلى ذلك أن ابن رائق كان قد سعى للحصول على رئاسة الجيش ، توطئة للسيطرة على دار الخلافة دون شك ، وعرض أن يتكفل بمصروفات الدولة ، سواء في ذلك متطلبات دار الخلافة ، والحاشية ، ومتطلبات العسكريين ، لكن عرضه لم يجد قبولا . فلما وصل الخليفة إلى مرحلة اليأس من قدرة الوزراء والإداريين على إنقاذ الوضع عول على أن يجرب ابن رائق ، كآخر سهم في الجعبة . ولذا بادر بمكاتبته وأعلمه بقبول عرضه إن كان مازال قائما . وقد فرح ابن رائق بهذا الاتصال ، واستقبل رسول الخليفة استقبالا حسنا ، «ووصله بألف دينار» ، ورد على رسالة الخليفة بأن عرضه ما زال قائما[٢] . وهكذا تولى محمد بن رائق رئاسة الجيش ، وأعطي لقب «أمير الأمراء» ، وهو لقب جديد لم يكن مستخدما قبل ذلك . ويبدو أن صياغة هذا اللقب جرت تحت تأثير واقع التشرذم وتعدد القيادات فيما كان يفترض أنه جيش الخلافة ، بين الأتراك ، والديلم ، والسودان ، والساجية ، والحجرية ، وغير ذلك من الكتل العسكرية ؛ فإذا أصبح هناك أمير للأمراء انطوى الجميع تحت لوائه والتزموا طاعته ، وانتهت حالة الفوضى وعدم الاستقرار . ذلك ما ظنة الخليفة

---

(١) ***المصدر نفسه*** ، ص ٣٢٢-٣٢٣ .

(٢) مسكويه ، ***تجارب الأمم*** ، مجلد ١ ، ص٣٥٠ - ٣٥١ ؛ ابن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٨ ، ص ٣٢٢ - ٣٢٣ .

الراضي وتوقعه . وسنرى من خلال الصفحات التالية ما إذا كانت توقعات الخليفة صحيحة أو مجرد أوهام وسراب .

وهكذاوصل «الجنرال» محمد بن رائق إلى بغداد قبل خمسة أيام من نهاية عام ٣٢٤هـ(في الرابع عشر من تشرين الثاني - نوفمبر- ٩٣٦م .) حيث استقبله الخليفة الراضي و«خلع عليه» ، أي ألبسه الخلع والأوسمة ، وأكرمه وسماه أمير الأمراء . وحسب ما أوردته المصادر عن السلطات التي أعطيت لهذا القائد العسكري فقد أصبح الحاكم والمتصرف المطلق في كل شئون الدولة العباسية ، أو ما تبقى منها ، وأصبح الخليفة نفسه تابعا له ينفذ تعليماته ، وإن كانت التعليمات قد غلفت باسم المشورة . وصار أمير الأمراء هو الذي يعين وزير الخليفة ؛ وأول مثل على ذلك ما رواه لنا ابن الأثير ضمن أحداث سنة ٣٢٤هـ نفسها : «وفيها كتب ابن رائق كتابا عن الراضي إلى أبي الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات يستدعيه ليجعله وزيرا ؛ وكان يتولى الخراج بمصر والشام . وظن ابن رائق أنه إذا استوزره جبى له أموال الشام ومصر ؛ فقدم إلى بغداد . . . وتولى وزارة الخليفة ووزارة ابن رائق جميعا (١) .» وافتتح ابن الأثير أخبار سنة ٣٢٥هـ بعبارة «في هذه السنة أشار محمد بن رائق على الراضي بالانحدار معه إلى واسط ليقرب من الأهواز . . .» ، لتخويف وتهديد واليها أبي عبدالله البريدي الذي لم يحول الأموال المستحقة عليه إلى العاصمة . وقد وافق الراضي وسار معه في اليوم الأول من السنة المذكورة (٢) .

وباستحواذ ابن رائق على كل هذه السلطات المطلقة «بطل منذ يومئذ أمر الوزارة ، فلم يكن الوزير ينظر في شيء من أمر النواحي ولا الدواوين والأعمال ، ولا كان له غير اسم الوزارة فقط ، وأن يحضر في أيام المواكب دار السلطان بسواد وسيف ومنطقة ، ويقف ساكتا . وصار ابن رائق وكاتبه ينظران في الأمر كله ، وكذلك كل من تقلد الإمارة بعد ابن رائق إلى هذه الغاية(٣) . وصارت أموال النواحي تحمل إلى خزائن

---

(١) ابن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٨ ، ص ٣٢٧ ؛ ويبدو أنه سماه وزيرا مشتركا لتحقيق غرضين : أولهما أن تظل كل تحركات الخليفة وشئونه تحت سيطرته ؛ وثانيها : أن تأتي أموال الشام ومصر ، التي توقعها ، إلى خزانته لا إلى خزانة الخليفة .

(٢) ***المصدر نفسه*** ، ص ٣٢٩ .

(٣) أي إلى زمن أحمد بن محمد ، المعروف مسكويه .

الأمراء فيأمرون وينهون ، وينفقون كما يرون ، ويطلقون لنفقات السلطان ما يريدون . . .» أي أنهم صاروا يحددون للخليفة مرتبا حسب تقديرهم هم[1] .

ابن رائق يغرق في بحر المشاكل:

لقد انفجرت المشاكل في وجه ابن رائق قبل أن يصل إلى بغداد وهو في طريقه إليها بعد توليته مباشرة ؛ فبمجرد أن استقر رأي الخليفة على توليته والاعتماد عليه توجه «أصحاب الدواوين وجميع قواد الساجية» إليه وهو بعد ما زال في واسط ، بناء على أوامر الخليفة . ويبدو أن محمد ابن رائق كان متخوفا من الجند الساجية فسارع باعتقال قادتهم بمجرد وصولهم إلى واسط ، وأمر أتباعه بنهب أمتعتهم وأموالهم ودوابهم . ووصل الخبر إلى أتباعهم في بغداد فتوقعوا أن يعاملهم بنفس الطريقة ؛ ولذلك سارعوا بالتوجه إلى بلاد الشام ، ليبتعدوا عنه ويأمنوا شره [2] . وقد حاول تطمين فرقة الحجرية فأشاع أنه فعل ما فعله بالساجية لتتوفر الأموال التي كانت تصرف لهم وتعطى للحجرية . لكن الحجرية لم ينخدعوا بمقولته وانتابتهم المخاوف من طيشه وتوقعوا أن يلاقوا نفس المصير على يديه ؛ ولذا فقد ذهبوا إلى دار الخلافة وخيموا فيها ليظهروا الاحتماء بها أو طلب الحماية فيها . وعندما جاء إلى بغداد ليتسلم منصبه جاءوا للسلام عليه فأمرهم بقلع خيامهم ، فقلعوها وعادوا إلى منازلهم ، وذلك في أواخر ذي الحجة عام ٣٢٤هـ [3] . وفي إطار سعيه لتقليل نفقات دار الخلافة وجد أن في الدار أربعمائة وثمانين حاجبا ، فأبقى منهم ستين في الخدمة فقط واستبعد الباقين . وإذا كان أمر الحجاب سهلا بهذا القدر فإن أمر الحجرية لم يكن كذلك ؛ فعندما توجه أمير الأمراء إلى واسط وأخذ معه الخليفة لحسم الموقف مع ضامن الأهواز ، أحمد بن محمد البريدي ، الذي امتنع عن تحويل الأموال المستحقة عليه ، تمنع الحجرية من السير في ركابه خشية أن يفعل بهم كما فعل بالساجية ؛ وبعد أن سار إلى وجهته تبعه بعضهم ؛ فلما وصلوا إلى واسط أسقط أكثرهم من سجل الجند . وعلى أثر ذلك ثاروا واضطربوا فقاتلهم حتى ألحق بهم الهزيمة وقتل

---

(١) مسكويه ، *تجارب الأمم* ، مجلد ١ ، ص ٣٥٢ .

(٢) الهمداني ، *تكملة تاريخ الطبري* ، المجلد الأول ، ص ٩٨ .

(٣) ابن الأثير ، *الكامل* ، مجلد ٨ ، ص ٣٢٣ .

عددا منهم ، وفر الناجون إلى بغداد . لكن أوامر ابن رائق سبقتهم إلى صاحب الشرطة في العاصمة ، فهاجمتهم الشرطة بمجرد وصولهم ، فاختبأوا ، «فنهبت دورهم ، وقبضت أموالهم وأملاكهم ، وقطعت أرزاقهم [١] . وبعد أن انتهى أمر الحجرية أمر ابن رائق جنده بقتل قادة الساجية الذين كان حبسهم بعد إعلان توليته أميرا للأمراء[٢] .

الصراع بين ابن رائق والبريديين:

كان البريديون قد ظهروا على مسرح الأحداث أول مرة سنة ٣١٦هـ/٩٢٨م ، أي قبل ثماني سنوات من ولاية ابن رائق ، وكانوا ثلاثة أخوة عميدهم وكبيرهم أحمد بن محمد البريدي أبو عبدالله . أما الأخوان الآخران فهما : يعقوب ، أبو يوسف ، ثم أبو الحسين . وفي تلك السنة نجد أبا عبدالله البريدي متضمنا للأملاك الخاصة العائدة للخليفة في منطقة الأهواز ، بينما كان أخوه أبو يوسف كاتبا للسيدة والدة الخليفة المقتدر ، أي مديرا لأعمالها ، كما كان واليا على ناحية صغيرة وقليلة الأهمية ذكرت في المصادر باسم «سـرِق» بتشديد . الراء . ومن المرجح أنه كان مختصا بإدارة ممتلكات أم الخليفة في تلك الناحية فقط . ويبدو أن البريديين لم يكونوا راضين عن وضعهم ذاك[٣] ، وأن طموحاتهم وتطلعاتهم كانت كبيرة وقوية لدرجة حملتهم على التصرف باندفاع وقوة للحصول على السلطة والمال على نطاق أوسع ، بل إنها كانت طموحات بغير حدود . ومع ذلك فقد ظلوا حريصين على أن تبقى منطقتا البصرة والأهواز قاعدتهم الأساسية ، لما كانت تمثله من أهمية في تلك الفترة [٤]كما سنرى من خلال سيرتهم المثيرة .

(١) ابن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٨ ، ص ٣٢٩ .

(٢) الهمداني ، ***تكملة تاريخ الطبري*** ، مجلد ١ ، ص ٩٨ - ٩٩ .

(٣) ابن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٨ ، ص ١٨٥ .

(٤) عن الأهمية التجارية لهذه المنطقة يكفي أن نشير إلى أنها كانت مدخلا لتجارة العراق الإسلامي ، وملتقى للطرق البرية والبحرية والنهرية ، وسوقا ومعبرا للبضائع الواردة من الهند والصين ومناطق شرق وجنوب شرق آسيا ، ومن أوربا وشمال أفريقيا عبر الطرق البرية والبحرية ؛ هذا فضلا عن خصب أراضيها وثروتها الزراعية الهائلة .

محاولات للتوســع:

فمنذ سنة ٣١٦هـ نجد أن أبا عبدالله البريدي لم يتردد في اللجوء إلى الرشوة للحصول على سلطات جديدة ؛ فبمجرد أن علم بتدهور مكانة الوزير علي بن عيسى واحتمال عزله عن الوزارة بادر بإرسال أخيه أبي الحسين «إلى بغداد وأمره أن يخطب له أعمال الأهواز وما يجري معها إذا تجددت وزارة لمن يأخذ الرشا . . .[١] .» فلما تولى الوزارة ابن مقلة قدم له البريدي عشرين ألف دينار وحصل على ولاية الأهواز جميعها باستثناء ناحيتي السوس ، وجنديسابور ؛ كما ولا أخاه أبا الحسين الناحية المعروفة بالفراتية ، وولى أخاه أبا يوسف الضياع والأملاك الخاصة بالخليفة في تلك المنطقة[٢] . وكان أول إجراء قام به البريدي أنه ألقى القبض على الوالي السابق له بمنطقة تســتر - تنفيذا لتعليمات الوزير ابن مقلة - وصادر منه عشرة آلاف دينار ولم يوصلها إلى ابن مقلة . وحاول الوزير ضبط تصرفات البريدي فعين الحسين بن أحمد المادراني (المادرائي؟) مدققا عليه إلا أن الأخير تجاهله .

ويبدو أن هذا السلوك أثار حنق الوزير ، فأصدر أمرا إلى أحمد بن نصر القشوري - الذي كان متوليا للشئون العسكرية والأمنية في جنوب العراق - بأن يقبض على البريديين الثلاثة ويرسلهم إلى بغداد . ولكن الوزير فقد منصبه قبل أن ينفذ أمر الاعتقال ، بيد أن الموقف لم يتغير بحلول وزير جديد إذ ما لبث أن صدر أمر اعتقال آخر بتوقيع الخليفة المقتدر نفسه . وأثناء اعتقالهم في بغداد حاول البريديون الهروب من السجن ، فدبروا تزوير خطاب يحمل اسم الوزير الجديد يتضمن أمرا بالإفراج عنهم . لكن التزوير اكتشف ، وغرموا مبلغا كبيرا ليحصلوا على الإفراج ، بلغ تسعة ملايين درهم ، حسب إحدى الروايات[٣] ، أو أربعمائة ألف دينار ، حسب رواية أخرى[٤] . ولم يكن المقتدر يتوقع أن يحصل منهم على المبلغ كله لكنهم أدوا الغرامة كاملة ليعودوا إلى أعمالهم . وقدرة البريديين على دفع هذا المبلغ مع أنهم لم يمضوا في ولاياتهم سوى عام أو بعض عام تدل على مدى النهب والظلم الذي أوقعوه بالناس

---

(١) إن أقرب لفظ يدل على «مرتفق ، ويرتفق . . . الخ» هو : يأخذ عمولة .

(٢) ابن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٨ ، ص ١٨٥ .

(٣) مؤلف مجهول ، ***العيون والحدائق*** . . . ، ج ٤ ، قسم ١ ، ص ٣٥١ .

(٤) ابن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٨ ، ٢١٩ .

حتى استطاعوا جمع هذا القدر . وعودتهم إلى الخدمة بعد السجن والغرامة ربما تشير إلى أن ما جمعوه كان أكبر بكثير مما غرموه ، وإلى أنهم كانوا يتطلعون إلى جمع مبالغ أعظم ، بحيث لا يخشون معها الغرامات .

وعاد الحظ وابتسم للبريديين مؤقتا عندما عزل المقتدر وزيره الجديد أبا القاسم الكلوذاني سنة ٣١٩هـ واستوزر الحسين بن القاسم الذي توصل إلى المنصب من خلال مؤامرة دنيئة استخدم فيها التزوير والإيمان بالأساطير . وكان الحسين بن القاسم هذا على صلة ودية وقوية بالبريديين ، فولى يعقوب بن محمد البريدي ، أبا يوسف البصرة وجميع أعمالها مقابل مبلغ تافه لا يفي بالنفقات الإدارية للمنطقة ، بل وكان على الوزير أن يدبر مبلغ ثلاثين ألف دينار من «الحكومة المركزية» في بغداد لتغطية العجز في واردات الإدارة المحلية بالبصرة . لكن الوزير التالي ، الفضل بن الفرات ، استدرك وناقش البريدي وكشف المغالطة ، فتعهد البريدي بأن يوفر جميع النفقات الإدارية ، ثم يحمل إلى بغداد ثمانين ألف دينار سنويا[١] كل ذلك شهدته السنوات الثماني التي سبقت ولاية ابن رائق لمنصبه .

وبعد أن رتب محمد بن رائق أوضاع بغداد ودار الخلافة ، وقضى على قوة الحجريين والساجيين ، توجه بعساكره إلى واسط ملزما الخليفة بالسير معه ، ليعطي إجراءاته الصفة الشرعية ، وليأمن إقدام الخليفة على التصرف من وراء ظهره بما لا يخدم مخططاته ، أو أن يوظف عسكريا آخر مكانه ، أميرا للأمراء . وكان الغرض من هذا التحرك وضع حد لتمرد أبي عبدالله البريدي ومؤامراته وتحديه ، كما أشرنا من قبل . فلما وصل إلى واسط وجه إلى البريدي رسالة باسم الخليفة تحمل التهديد والوعيد ، لكنها تفتح بابا للعفو عنه بشرطين :

(١) أن يرسل إلى بغداد الأموال المستحقة على ولايته ، ولاية الأهواز

(٢) أن يعيد الجند الذين أغراهم بالمال وأفسدهم وضمهم إلى جنده [٢] .

لم يكن أحمد بن محمد البريدي ، أبو عبدالله ، قائدا عسكريا ولا جنديا عاديا ، ولا من المرتزقة . لقد كان كاتبا صغيرا ؛ تمكن – بعد فترة من الخدمة في ذلك

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٣٨ ؛ وانظر كتابنا : ***الخليج العربي في العصر الإسلام ، دراسة تاريخية وحضارية*** ، ص ١٦٧ .

(٢) مسكويه ، ***تجارب الأمم*** ، مجلد ١ ، ص ٢٥٨ ؛ ابن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٨ ، ص٣٣٠ .

المنصب الصغير - من الحصول على منصب متوسط المنزلة عندما أصبح ضامنا للأهواز[١] ؛ وهذا ما ذكرته به رسالة ابن رائق . ومع ذلك فقد كان من أكثر المغامرين شراسة وقدرة على المناورات والمراوغة والخداع ، لا يتردد في اللجوء إلى أية وسيلة في سبيل تحقيق هدفه . ولا يتسع المجال هنا لإيراد شواهد وأدلة وأمثلة من تصرفاته[٢] ، لكنها ستأتي في سياق صراعه مع أمير الأمراء ابن رائق ومن شغلوا نفس المنصب من بعده .

عندما تلقى أبو عبدالله البريدي الإنذار والتهديد الذي أشرنا إليه سارع بإعلان طاعته ، وجدد ضمانه للأهواز بمبلغ سنوي مقداره ثلاثمائة وستون ألف دينار . أما الجنود الذين ضمهم إلى قواته الخاصة فقد تعهد بإعادتهم ، وطلب من بغداد أن ترسل قائدا عسكريا لكي يتسلمهم ويعود بهم إلى العاصمة ، أو يذهب بهم إلى محاربة البويهيين ، إن رأت بغداد ذلك . ولم تنطل هذه المناورة على وزير ابن رائق ، الحسين بن علي النوبختي ، فأشار بعدم الالتفات إلى عرض البريدي والاستمرار في الحملة العسكرية للقضاء عليه . لكن مستشارا آخر ، هو أبو بكر بن مقاتل ، نصح بقبول عرض البريدي ، ووجدت نصيحته موافقة أمير الأمراء . وسيتبين فيما بعد أن أبا بكر بن مقاتل كان عميلا لأبي عبدالله البريدي ومتواطئا معه . وعلى أثر هذه الموافقة وجهت «الخلع» إلى البريدي ليعلن تجديد شرعية ولايته على الأهواز ، كما وجه إليه قائد عسكري لتسلم الجيش والعودة به إلى بغداد . وكان هذا القائد هو جعفر بن ورقاء الشيباني[٣] . ووصل الشيباني إلى الأهواز فاستقبله البريدي - ومعه الجيش - استقبالا حسنا ، وفي الوقت نفسه وصلت الخلع ، فتسلمها البريدي ولبسها في جامع الأهواز ، أمام الناس ، تأكيدا لشرعية منصبه ؛ ثم إنه أفهم جعفر بن

---

(١) لقد تغيرت رتبة البريدي تبعا لما إذا كان موقفه في حلبة الصراع قويا أو ضعيفا ؛ فهو مرة مجرد ضامن ، وفي غيرها وال .

(٢) للإطلاع على دراسة موسعة عن البريديين أنظر كتابي : ***الخليج العربي في العصر الإسلامي*** . . . ص١٦٣ -١٨٢ .

(٣) إن وجود هذا القائد والزعيم القبلي العربي يكشف لنا مدى تنوع التركيبة المتنافرة للقوات العسكرية التي كانت تشغل مسرح الأحداث في تلك الفترة ، وسنتبين أنه كان معه ألفان من المقاتلين الشيبانيين ، من قبيلته التي تتفرع من قبيلة أكبر هي «بكر بن وائل .»

ورقاء أن الجيش والجند تحت تصرفه ، يستطيع أن يأخذه حيث يشاء ، سواء إلى ابن رائق أو إلى فارس لحرب البويهيين . بيد أن البريدي كان قد حرض قادة الجند سرا على أن يطالبوا الشيباني بالمال ، وأن يهددوه . فلما بدأ جعفر بن ورقاء يصدر الأوامر للجيش طالبوه بالمال والأرزاق لتوزع عليهم ، فلم يكن معه شيء ، فشتموه ، وهددوه بالقتل ، فاحتمى بالبريدي فوفر له الحماية ، لكنه أنبه لمجيئه بغير مال أو أرزاق . ثم غادر البريدي المسجد عائدا إلى داره ، مظهرا أنه يترك الجيش لابن ورقاء ، لكن الجيش سار بين يدي البريدي ، مبديا غضبه ونقمته على الشيباني الذي خبأه البريدي إلى الليل ، ثم قال له أنج بنفسك تحت جنح الظلام[(١)] . وهكذا تملص البريدي من تعهده بإعادة الجيش إلى أمير الأمراء أو دار الخلافة .

أما المال الذي تعهد بدفعه مقابل الضمان فلم يرسل منه دينارا واحدا ، واعتذر بأن الجند الذين انضموا إليه ، بعد أن أسقطهم ابن رائق من سجل الجندية ، يمنعونه من إرسال المال . ويبدو أن البريدي حرص على المحافظة على المظهر الودي للعلاقة بينه وبين ابن رائق ، كما أنه أراد أن يظل أمير الأمراء تحت تأثير أوهامه بأن والي الأهواز ، أي البريدي ، ما زال في الطاعة . وفي ظل هذا الظرف تمكن أبو بكر بن مقاتل من إقناع ابن رائق بأن يعين البريدي وزيرا له ، بدلا من وزيره الحسين بن علي النوبختي الذي كان مريضا . والنوبختي هذا لم يكن يثق بالبريدي ، كما مر معنا . وقد استغل ابن مقاتل سذاجة أمير الأمراء ، وطمع ابن أخي النوبختي في أن يحل محل عمه في الوزارة ، حتى اقتنع ابن رائق بعد أن كان رافضا للفكرة باعتبار أن النوبختي كان قد قدم إليه خدمات جليلة لا تسمح له بالتنكر له . ولم يكن البريدي مستعدا لترك مقر ولايته في الأهواز ليقوم بمهام وزارته وهو بجانب أمير الأمراء ، بل جرى الاتفاق على أن يعين نائبا عنه ليقوم بأعباء الوزارة لا بأعباء منصب الوالي . وهكذا تمكن من زرع عميل آخر له في حاشية ابن رائق ليكون نائب الوزير ، واسمه أحمد بن علي الكوفي . وبمجرد وصول الكوفي ومباشرته لعمله أخذ يدبر متعاونا مع ابن مقاتل ، لإقناع ابن رائق بأن يعقد ضمان البصرة على أبي يوسف البريدي ، أخي الوزير . وقد نجحا في مسعاهما ، وأصبح يعقوب البريدي متضمنا للبصرة ، بمعنى أنه يدفع لابن رائق مبلغا سنويا مقطوعا لقاء تخويله جمع الأموال من الولاية ، سواء في

(١) مسكويه ، مجلد ١ ، ص ٣٥٧ - ٣٦٠ ؛ ابن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٨ ، ص ٣٣٠ .

ذلك الخراج والجمارك والإتاوات وغيرها . وكان هذا الضمان أحد الأسباب التي عجلت بالصدام بين الطرفين ، لكن الأسباب الرئيسية تمثلت في الأطماع والطموحات اللامحدودة التي كانت تراود البريدي وتشغل تفكيره وتوجه نشاطه .

وكان يحكم البصرة وال عينه ابن رائق ، وهو ابن يزداد . وكان هذا القائد مكروها من قبل البصريين لكثرة ظلمه وقسوته . وقد صمم البريدي على طرده من البصرة والاستيلاء عليها بالقوة . وتوطئة لذلك وجه قائدا من قواده على رأس ألفين من الجند ليرابط بهم في حصن قريب من البصرة ، وينتظر التعليمات . ثم إنه أخذ يتودد إلى البصريين ، فتقرب إليهم بأن أعلن تخفيض الضرائب التي كانوا يدفعونها لابن يزداد ، فوقفوا بجانبه . ثم أمر البريدي جنده ببدء القتال ، فوقف أهل البصرة بجانب قواته ضد قوات ابن يزداد[(١)] . وشهدت سنة **٣٢٥هـ** نجاح أبي عبدالله البريدي في الاستيلاء على البصرة بالقوة بعد أن خاض عساكره - بقيادة غلامه إقبال - معركتين ضاريتين ضد جند ابن رائق . وقد اضطر ابن يزداد إلى الانسحاب تاركا المدينة غنيمة لخصومه .

واستشاط ابن رائق غضبا بسبب جرأة أبي عبدالله البريدي ، ووجه قوة ثانية إلى البصرة لتضع حدا لتلك التطاولات . وقد سار قسم من القوة بالطريق البري ، على ظهور الدواب ، بينما سار القسم الآخر بالطريق النهري ، على ظهور السفن . واستطاع الجيش البريدي أن يهزم القوة القادمة بطريق البر ، لكن القوة المحمولة على الماء تمكنت من الاستيلاء على الكلاء . وكان هذا النصرالجزئي كافيا لتوهين عزيمة أبي عبدالله البريدي الذي جمع أمواله وأخذ يستعد للهرب . وقد فكر في الذهاب إلى عمان للاستجارة بحاكمها القوي يوسف بن وجيه ؛ ثم استقر عزمه على الهرب إلى جزيرة أوال في البحرين ، ثم يتجه من هناك إلى فارس للاستعانة بحاكمها علي بن بويه[(٢)] . وقبيل مغادرته البصرة كلف أخاه يعقوب ، أبا يوسف ، بالدفاع عن المدينة . وعندما زحف جند ابن رائق للاستيلاء عليها قاومتهم مقاومة شديدة بحيث عجز المهاجمون عن اقتحامها . لكن أمير الأمراء كان مصمما على احتلالها ، فتقدم بنفسه ، يصحبه بجكم ، اكبر قادته ، ليشرف على القتال . بيد أن البصريين صدقوا القتال ضد جند ابن رائق ، مفضلين حكم البريديين ؛ بل إنهم وجهوا السباب

---

(١) ابن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٨ ، ص ٣٣٢-٣٣٤ .

(٢) مسكويه ، مجلد ١ ، ص ٣٧٢-٣٧٤ ؛ الهمداني ، ***تكملة*** ، ص ١٠٥ .

والشتائم لأمير الأمراء وهو يقود الهجوم . وقد تعجب من ذلك جاهلا أن سبب هذا العداء الشديد كان سوء تعامل ممثله ابن يزداد معهم وطمعه وقسوته ، بينما البريدي مناهم بحسن المعاملة وأعلن تخفيض الضرائب . وهكذا عجز ابن رائق تماما عن الاستيلاء على المدينة ؛ غير أن تابعه بجكم تمكن من الاستيلاء على الأهواز بعد أن وجهه إليها لاستباق وصول البويهيين لأخذها . وكان أبو عبدالله البريدي قد وصل إلى بلاد فارس فأحسن علي بن بويه استقباله . وحرض أبو عبدالله الأمير البويهي على غزو العراق واحتلاله ، وأقنعه بسهولة ذلك فوجد أذنا صاغية[١] . وسرعان ما حشد علي بن بويه جيشا كثيفا جعل قيادته لأخيه أحمد بن بويه ، وسيره مع أبي عبدالله البريدي إلى الأهواز والبصرة . ولكن هذه الأريحية البويهية لم تكن لوجه الله ولا لحق الصداقة ، إذ كانت المصالح المادية هي المحرك الأول ؛ فقد ضمن أبو عبدالله البريدي منطقة البصرة والأهواز سلفا من ابن بويه على افتراض أن قواته ستستولي عليها ، وأنها ستصبح من ممتلكاته ، وبالتالي يصبح له الحق في عقد ضمانها على البريدي . أما قيمة الضمان فقد نص الاتفاق على أن تكون ثمانية عشر مليون درهم[٢] . وكانت الثقة نادرة بين المتعاقدين في تلك الأيام ، ولذا اشترط علي بن بويه على البريدي أن يترك ولديه رهينة في شيراز ، عاصمة ابن بويه ، حتى يضمن عدم نكول الطرف الآخر عن الوفاء بتعهداته[٣] . وعندما علم ابن رائق بزحف البويهيين صوب الأهواز والبصرة سارع برفع الحصار عن المدينة . وتمكن أحمد بن بويه من هزيمة جند ابن رائق وقائدهم بجكم الذي انسحب من الأهواز ليستقر في واسط . وجاء المهنئون إلى أبي عبدالله البريدي بعودته منتصرا . غير أن ذلك النصر لم يكتمل ، إذ استولى أحمد بن بويه على الأهواز وبدا وكأنه ينوي الاستمرار في احتلالها . وما لبث البريدي أن هرب من حليفه البويهي ، وفي الوقت نفسه راسل البويهي الكبير علي ليجبر أخاه الأصغر أحمد على الجلاء عن الأهواز . واستجاب البويهي الكبير وانصاع أحمد ، وعاد البريدي إلى الأهواز[٤] .

(١) ابن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٨ ، ص ٣٤٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٤٢ .

(٣) مسكويه ، مجلد ١ ، ص ٣٧٨ ؛ ابن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٨ ، ص ٣٤٠ .

(٤) ابن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٨ ، ص ٣٤٠-٣٤٣ .

تغير الولاءات والتحالفات:

لقد شكل البويهيون خطرا على البريدي ، وقد أحس بذلك ، على الرغم من جلاء أحمد بن بويه عن الأهواز . ويبدو أن البريدي أدرك أن علاقته بالبويهيين صارت كالمستجير من الرمضاء بالنار ، ذلك أنه اضطر إلى استجداء المساعدة منهم ليتخلص من هزيمة ساحقة على يد قوات ابن رائق التي كان يقودها بجكم ؛ لكنه لم يكن يتصور أن يتنازل عن الأهواز ويصبح مجرد ضامن لها ، مع شدة البويهيين في تحصيل المال المتفق عليه ، وامتلاكهم القوة العسكرية الجاهزة للإستخدام الفوري إذا راوغهم أو تلكأ في الدفع . ولذا اكتشف أن عداوة ابن رائق وخطره أهون من خطر البويهيين . أما ابن رائق ، من جانبه ، فقد اكتشف أن قائد قواته بجكم بدأ يتطلع إلى الحلول مكانه ، وحملت أمير الأمراء شكوكه على أن يبادر بالاتصال بالبريدي عارضا الصلح ، والتعاون على النحو التالي :

(١) يتم الصلح بين الطرفين .

(٢) يتعهد البريدي بإرسال جند لتكوين قوة مشتركة تكون مهمتها القضاء على بجكم والتخلص منه بالقتل .

(٣) عندما يتحقق النصر يصبح ضمان واسط من حق أبي عبدالله البريدي ، على أن يدفع قيمة الضمان السنوي ستمائة ألف دينار[١] .

بيد أن الأمور لم تجر كما أراد الحليفان الجديدان ؛ فقد علم بجكم بالاتفاق قبل أن يأخذ طريقه إلى التنفيذ ، فسارع بمهاجمة عساكر البريدي والحق بهم الهزيمة ، بيد أنه توقف عن ملاحقتهم والقضاء عليهم نهائيا . وبدلا من ذلك كتب له خطابا يمن عليه بعفوه عن عساكره ، ويعرض عليه المصالحة على أن يتعاونا ضد ابن رائق كي يمتلك بجكم بغداد ؛ فإذا تم ذلك فإنه سيوليه واسط ، وسيصاهره . فلما وصلت الرسالة وقرأها البريدي فرح فرحا شديدا ، وسجد شكرا لله تعالى ، وأعطى الرسول ثلاثة آلاف دينار . ثم إنه حلف أمام القاضي أبي القاسم التنوخي والقاضي أبي القاسم بن عبدالواحد بأن يكون وفيا لبجكم[٢] . وكان الوزير ابن مقلة قد طلب من ابن رائق أن يعيد إليه أملاكه ، وكذلك أملاك ابنه ، التي كان أمير الأمراء قد استولى

---

(١) ابن الجوزي ، ***المنتظم في تاريخ الملوك والأمم*** ، مجلد ٦ ، ص ٣٠١ .

(٢) الهمداني ، ***تكملة*** ، مجلد ١ ، ص ١٠٩ ؛ مسكويه ، مجلد ١ ، ٣٨٤-٣٨٥ .

عليها عند عزله عن وزارته السابقة ، وكرر الطلب لكن ابن رائق لم يعره اهتماما ؛ ولذا فقد بدأ ابن مقلة عملية تحريض ودس ضده ، فكتب إلى بجكم يشجعه على الزحف على بغداد ليسقط ابن رائق ويصبح أميرا للأمراء بدلا منه ، كما كتب إلى الخليفة يعرض عليه أن يحصل له من محمد بن رائق ، وأبي بكر بن مقاتل ، ثلاثة آلاف ألف دينار (ثلاثة ملايين دينار) إن هو قبض عليهما وسلمهما له لاسترجاع ما نهباه ، أو يفترض أنهما نهباه ، من الأموال العامة . وأشار على الخليفة أن يستدعي بجكم ويعينه أميرا للأمراء بدلا من ابن رائق . لكن الخليفة أخبر ابن رائق وأطلعه على رسالة ابن مقلة وتوقيعه ؛ فما كان من أمير الأمراء إلا أن القى ابن مقلة في السجن ، فظل فيه حتى شهر شوال سنة ٣٢٦هـ ، حيث أمر ابن رائق بقطع يده[١] . ولم يلبث بجكم أن زحف صوب بغداد . وقد أسقط من أعلامه وتراسه الكنية التي كانت تشير إلى تبعيته لابن رائق ، وهي عبارة «بجكم الرائقي» . ويبدو أن أمير الأمراء ابن رائق اعتراه الفزع ، فعول على التحصن في دار الخلافة . ثم غير رأيه وخرج إلى ديالى ، وفتح بثقا من النهر ليغمر طريق القوات المهاجمة بالماء حتى لا تستطيع العبور إليه ، وكان هناك جسر فقطعه . ثم إنه طلب من الخليفة الراضي أن يكتب إلى بجكم أمرا بالرجوع إلى واسط ، فاستجاب الراضي فوقع الكتاب وسلمه لأمير الأمراء . ومن الواضح أن كل هذه الإجراءات التي قام بها ابن رائق كانت تنم عن فزعه من مواجهة تابعه السابق بجكم في ساحة الوغى . والواقع أن أمير الأمراء لم يكن ندا لبجكم لا في القتال ولا في إدارة الصراع . والظاهر أن بجكم عرف ذلك وتأكد منه ، ولذا فإنه لم يعر رسالة الخليفة أي اهتمام . وعندما وصل إلى نهر ديالى ووجد الجسر مقطوعا لم يتردد في اقتحامه سباحة ومعه فرقة من جنده ، فانهزم ابن رائق دون قتال - على ما يبدو - وتفرق جنده . وهكذا دخل بجكم بغداد حوالي منتصف ذي القعدة ٣٢٦هـ/أيلول (سبتمبر) ٩٣٨م ، واستقبله الراضي وأكرمه وخلع عليه ، وتكرر الاستقبال ثلاث مرات في ثلاثة أيام متقاربة ، وتكرر منحه الخلع ، وصار أمير

---

(١) ابو الفدا ابن كثير ، ***البداية والنهاية*** ، جزء ١١ ن ص ١٨٨ ؛ ابن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٨ ، ص ٣٤٤-٣٤٥ .

الأمراء[1] ؛ واستوزر أبا جعفر محمد بن يحيى بن شـيرزاد . والظاهر أن أبا جعفر كان على صلة ودية بالبريدي ، فسعى في الصلح بينه وبين بجكم ، ونجح في مسعاه ، وضمن البريدي واسط وأعمالها (وتوابعها) بستمائة ألف دينار سنويا [2] . وكان من ملحقات الصلح أن تزوج بجكم سارة ابنة البريدي ، على أعتبار أن المصاهرة ستقوي التحالف ، وتحول دون الغدر أو النكث بالوعود . وقد ظل أبو الفتح الفضل بن الفرات وزيرا للراضي منذ أن عينه ابن رائق وزيرا . ويبدو أن بجكم لم يعترض على استمراره في الوزارة . لكن من الواضح أن وزير بجكم ، أي محمد بن يحيى ابن شيرزاد ، كان المسيطر على إدارة شئون الدولة ، فيما عدا الحرب ، خاصة وأن ابن الفرات كان في مصر بينما أناب عنه في عاصمة الخلافة عبدالله بن علي النقري . والظاهر أن الراضي لم يقنع بالتعامل مع نائب الوزير ، فأدخل في مشورته قاضي القضاة أبا الحسين عمر بن محمد ، وكان «لا ينفذ أمرا إلا بعد مشورته[3] .»

بجكم يقود حملة عسكرية ضد الحمدانيين:

تذهب المصادر إلى أن الحسن بن عبدالله بن حمدان أخر تحويل الأموال التي كان عليه أن يحولها إلى بغداد رسم ضمانه للموصل ، كما أخر الأموال المستحقة عن ضياع الخليفة الواقعة في منطقة ولايتـه . وهكذا خرج أمير الأمراء الجديدد بجكم على رأس قواته في أوائل شهر محرم سنة ٣٢٧هـ/أوائل تشرين الثاني (نوفمبر) ٩٣٨م متجها إلى الموصل وديار ربيعة لمعاقبة وإخضاع الحسن بن حمدان ، ومصطحبا معه الخليفة الراضي بالله . وبعد كر وفر ، يئس الأمير الحمداني من قدرته على مواصلة المعركـة ، فوجه رسالة إلى بجكم يعرض الصلح ، على أن يقدم نصف مليون درهم معجلة (أو مليون درهم حسب رواية أخرى) ، ووافق بجكم والخليفة ، وأرسلت الخلع إلى الحسن بن حمدان[4] . وكان من أسباب سرعة استجابة بجكم لمبادرة المصالحة من جانب الحسن بن حمدان أنه بينما كان القتال مستعرا بين

(١) مسكويه ، *تجارب الأمم* ، مجلد ١ ، ص ٣٩٤-٣٩٦ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، مجلد ٨ ، ص ٣٤٦ .

(٢) ابن الأثير ، *الكامل* ، مجلد ٨ ، ص ٣٤٣ - ٣٤٤ و٣٤٥ .

(٣) مسكويه ، *تجارب* . . . ، مجلد ١ ، ص٤٠٤ .

(٤) المصدر نفسه ، ص٤٠٤ - ٤٠٦ ؛ الهمداني ، *التكملة* ، المجلد الأول ، ص ١١١-١١٢ .

الجانبين انشقت فرقة الجند القرامطة التي كانت بصحبة الخليفة الراضي ، بسبب شح في الأموال التي تلقتها للنفقة ، حسب تعليل المصادر ، وانحدرت إلى بغداد ، لتنضم إلى محمد بن رائق أمير الأمراء السابق الذي ظهر في بغداد بعد أن اختفى على أثر هزيمته على يد بجكم وتفرق عساكره . وربما صدق القول أن ابن رائق هو الذي راسل فرقة القرامطة المصاحبة للراضي وأقنعها بالانشقاق والعودة إلى بغداد للانضمام إليه في تحركه لاستعادة مركزه المفقود ؛ ويتراوح عدد أولئك القرامطة حسب ما روته المصادر ، بين ٣٠٠ و١٠٠٠ جندي . وقد وصلت هذه الأخبار إلى بجكم بينما كان يواجه الحسن بن حمدان ويتبادل معه النصر والهزيمة ،قبل أن يطلب الأمير التغلبي الصلح . وزاد الطين بلة – بالنسبة لبجكم – أن جنده أخذوا ينفصلون عن قواته ليتوجهوا إلى بغداد وينضموا إلى قوات ابن رائق ؛ حتى لقد اضطر إلى سد أبواب دروب الموصل ليمنعهم من ذلك . ولم يكن ابن حمدان على علم بالتطورات الجديدة في بغداد ، وإلا لما كان طلب مصالحة بجكم . مهما يكن من أمر سارع بجكم والخليفة عائدين إلى بغداد فدب الفزع في أعصاب محمد بن رائق ، فكلف ابن شيرزاد بالتوسط في الصلح بينه وبين بجكم . وعرض بجكم تعيين ابن رائق ليتولى »طريق الفرات وديار مضر وجند قنسرين والعواصم ، وينفذ إليها [1] ؛« أي بشرط أن يترك بغداد ويذهب إلى مقر ولايته ، لأن كثيرين من الولاة في ذلك الزمان كانوا يختارون البقاء في العاصمة ويبعثون من ينوب عنهم لإدارة شئون الولاية الجديدة التي أعطيت لهم . وعاد الراضي وبجكم إلى بغداد في شهر ربيع الأول من سنة ٣٢٧هـ بعد خروج ابن رائق منها .

البريدي يتولى الوزارة ثانية:

وعلى أثر وفاة الفضل بن الفرات ، وزير الخليفة ، سارع محمد بن شير زاد في السعي لتولية الوزاة للبريدي ، ونجح في التقريب بينه وبين بجكم . ومع ذلك فقد ظل البريدي على حذره فلم يقدم إلى العاصمة بل بقي في مقر ولايته في الأهواز ،

---

(١) ابن الأثير ، *الكامل* ، **المجلد** ٨ ، ص ٣٥٣-٣٥٤ ؛ الهمداني ، *التكملة* ، مجلد ١ ، ص ١١١ - ١١٢ .

وأرسل شخصا آخر ينوب عنه في الوزارة ، وهو عبدالله بن علي النقري[١] . وهكذا بدا وكأن الصلح الذي تم بين أمير الأمراء والبريدي قد نجح ، ثم توثق بالمصاهرة ،كما أشرنا ، بزواج بجكم من سارة بنت أبي عبدالله البريدي . غير أن البريدي لم يعبأ بالعهود أو بحق الصحبة والصهر ، بل أخذ يتحين الفرص للتخلص من صهره بجكم والاستيلاء على بغداد . ولتحقيق هذه الغاية شجعه على غزو بلاد الجبل (شمال غرب إيران حاليا وما يجاورها من العراق) ، وأرسل له خمسمائة جندي لمشاركته في الحرب ، مظهرا جديته في مناصرته . غير أنه ، أعني البريدي ، أخذ يعد العدة – من ناحية أخرى – للوثوب على بغداد أثناء غياب بجكم في بلاد الجبل . وأوصل عيون بجكم تلك الأخبار إلى سيدهم عن تلك التحركات المريبة ، فعاد على جناح السرعة إلى بغداد ، وعزل البريدي من وزارة الخليفة ، وقبض على وزيره محمد ابن شيرزاد ، إذ أدرك ، على ما يبدو ، أن وزيره ابن شيرزاد عميل للبريدي ، أو متواطيء معه ، وأنه هو الذي ظل يسعى له لتقوية مركزه وتذليل مختلف العقبات في طريقه إلى مراكز السيطرة والقوة ؛ وصادر بجكم من وزيره مائة وخمسين ألف دينار لأنه هو الذي ورطه مع البريدي . ولم يلبث بجكم أن اكتشف أن كاتبه كان يخونه ويتراسل مع البريدي عن طريق استخدام الحمام الزاجل . واشتد الغضب ببجكم فصمم على مهاجمة البريدي والقضاء عليه . ولكي يحقق المفاجأة ، ويمنع وصول أخبار تحركه إلى خصمه المستهدف أقام الحواجز على الطرق المؤدية إلى واسط . وانسحب البريدي من واسط متقهقرا إلى البصرة ، فاستولى بجكم على واسط دون قتال[٢] .

وفاة الراضي وتولية المتقي:

وفي هذه الأثناء توفي الخليفة الراضي بالله وفاة طبيعية في منتصف ربيع الأول سنة ٣٢٩هـ بعد أن ظل في منصب الخلافة مدة تقرب من سبع سنوات وعمره اثنتان وثلاثون سنة . وكان بجكم في واسط ، كما أشرنا . وظل أمر الخلافة ، واختيار من يخلف الراضي معلقا إلى حين وصول أبي عبدالله الكوفي ، كاتب بجكم ، من واسط . وجاء الكوفي يحمل كتابا من بجكم يأمر فيه أن «يجتمع مع أبي القاسم

---

(١) مسكويه ، ***تجارب*** . . . ، مجلد ١ ، ص ٤٠٩ .

(٢) ابن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٨ ، ص ٣٦٢ – ٣٦٣ .

سليمان بن الحسن ، وزير الراضي ، وكل من تقلد الوزارة ، وأصحاب الدواوين ، والعلويون والقضاة ، والعباسيون ووجوه البلد ، ويشاورهم الكوفي فيمن ينصب للخلافة .» . . فجمعهم الكوفي واستشارهم ، فذكر بعضهم إبراهيم بن المقتدر . . . فأحضر إلى دار الخلافة . . .» وبويع ولقب بالمتقي لله ، ثم بايعه عامة الناس ، وسير الخلع واللواء إلى بجكم وهو ما زال بعد بواسط[1] .

وتابع بجكم معركته مع البريدي ، فاتصل ببعض زعماء البصرة ونجح في استمالتهم إلى صفه ، الأمر الذي زاد من مخاوف أبي عبدالله البريدي . وحاول أبو عبدالله أن يأخذ زمام المبادرة في المواجهة فأخرج فرقة من جنده إلى المذار[2] (بين البصرة وواسط) ، مالبثت أن اصطدمت بقوات بجكم ، يقودها توزون . وعلى الرغم من أن قوات البصرة أحرزت نصرا أوليا ، إلا أن توزون استطاع إعادة تجميع وانتشار قواته وألحق الهزيمة بقوات البريدي . ومهما يكن من أمر فقد انتهت المواجهة لصالح البريدي ، لا عن طريق نصر عسكري لم ينله ، بل لأن أمير الأمراء بجكم لقي حتفه بينما كان خارجا للنزهة والصيد . وعلى أثر موت بجكم تفرقت قواته ، فانضم الديلم منهم (وكانوا ألفا وخمسمائة رجل) إلى أبي عبدالله البريدي ، فزادت بذلك قوته العسكرية[3] .

الفزع يسيطر على بغداد :

وبموت بجكم خلا الميدان للبريدي فحرك قواته إلى واسط . وعندما طلب منه الخليفة المتقي أن يوقف تلك التحركات زعم أنه محتاج إلى المال ، فإذا بعث إليه الخليفة بشيء منه توقف عن الزحف إلى واسط . وأرسل الخليفة مائة وخمسين ألف دينار لكن ذلك لم يشبع طمع البريدي ، ولم يوقف زحفه . وعمل الخليفة على جمع جيش من شراذم الجند في بغداد وعين لهم قائدا يدعى سلامة الطولوني ، وأنفق عليهم مبالغ طائلة من المال ، ظانا أنهم سيدرءون عنه خطر البريدي . وبينما يستولي

---

(١) ***المصدر نفسه*** ، ص ٣٦٧ - ٣٦٩ .

(٢) مذار ، أو «المذار» : بلدة بين البصرة وواسط ؛ أنظر ياقوت الحموي ، ***معجم البلدان*** (بيروت : دار صادر ودار بيروت ، ١٣٧٦ / ١٩٥٧) ، مجلد ٥ ، ص ٨٨ .

(٣) ***المصدر نفسه*** ، ص ٣٧١ .

البريدي على مدينة واسط تنفجر النزاعات بين الجند الذي كونه الخليفة ، وما لبث بعضهم أن انضم إلى البريدي ، ثم هرب القائد المعين سلامة الطولوني واختفى عن الأنظار . وهكذا واصل ابو عبدالله البريدي زحفه صوب بغداد دون مقاومة أو عوائق ، فدخلها في الثاني عشر من شهر رمضان سنة ٣٢٩هـ/٩٤١م ، واستقبله وزير الخليفة والقضاة والكتاب والأعيان . وأرسل إليه الخليفة يهنئه بسلامة الوصول ؛ غير أنه لم يمض طويل وقت حتى قبض البريدي على وزير الخليفة وأرسله إلى البصرة ليحبس في أحد سجونها حتى مات . ثم إنه طالب الخليفة بمبلغ خمسمائة ألف دينار زعم أنه محتاج إليها للإنفاق على الجند . ولما لم يجبه إلى طلبه هدده وتوعده ، وذكره بمن قتل من الخلفاء الذين سبقوه ، فأصابه الفزع ، وسارع بدفع المبلغ المطلوب(١) .

بغداد تتخلص من البريدي:

كان البريدي يحرض جنده ضد الخليفة ليتحرشوا به وبأتباعه لإجباره على دفع ما يطلب منه من مال . فلما انصاع الخليفة ودفع ما طلب منه توجهت أنظار الجند إلى البريدي نفسه . وسرعان ما تمرد الجند فاختار الديلم لهم رئيسا منهم اسمه كورتكين(٢) ، بينما اختار الأتراك من بينهم (تكينك) غلام بجكم ، وتحول الضغط على البريدي بدلا من الخليفة . والظاهر أن البريدي - بما عرف عنه من طمع في المال ، وحرص على تجميعه ، باعتبار المال من أهم أسلحته لتنفيذ مخططاته - خيب آمال الجند ، فانقلبوا ضده . وانحاز الديلم إلى دار الخلافة ، ثم اتفقوا هم والأتراك فهاجموا دار البريدي ونهبوها وأحرقوها ، فهرب ولوحق ، وجرت الحرب في دجلة ، ولعن بنو البريدي من على منابر الجوامع . وهب العامة ضد البريدي وأتباعه ، وهاجموا دور قواده فهرب هو وأخوه وابنه إلى واسط . **واستغل قائد الديلم كورتكين فراغ السلطة فسيطر على بغداد ودخل على الخليفة ، فخلع المتقي**

(١) مؤلف مجهول ، ***العيون والحدائق*** ، الجزء الرابع ، القسم الثاني ، ص ٩٩ - ١٠٣ .

(٢) اسم هذا القائد مختلف عند الهمداني ، فقد كتب اسمه هكذا : «كورنكج» ؛ أنظر الهمداني ، ***تكملة*** ، مجلد ١ ، ص ١٢٤ .

عليه وقلده إمرة الأمراء[1] . وبعد أن نجح الناقمون على البريدي في إبعاده عن بغداد ، وتولى كورتكين الديلمي إمرة الأمراء ، انتهى تحالفهم ، وعمد أمير الأمراء الجديد إلى رئيس الجند الأتراك ، تكينك ، وقتله بأن غرقه في النهر . وكان القادة البارزون من أتباع بجكم من الأتراك ، مثل توزون ، وخجخج ، ونوشتكين ، وصيغون ، قد خرجوا من العراق وتوجهوا إلى الشام ليلتحقوا بمحمد بن رائق .

ثورة العامة ببغداد:

ولقد عانى سكان بغداد وعامتها معاناة شديدة على يد أبي عبدالله البريدي عندما استولى عليها ثانية ، وسيطر على دار الخلافة ؛ فقد تسبب في رفع أسعار السلع الأساسية بمقادير لا يتحملها عامة الناس وفقراؤهم ، كما أنه لم يتورع عن مصادرة الأموال ، هو وأصحابه كلما لاحت له فرصة لذلك . ويصف مسكويه ما حل بالبغداديين بعد سيطرة البريدي عليها : «وأخذ الديلم [من جند البريدي] في النهب والسلب ، وكبست الدور ، وأخرج أهلها منها [ليسكنها الديلم رغم إرادة أصحابها] . ولم يزل الناس على ذلك إلى أن تقلد توزون ونوشتكين الشرطة . . . [فسكنت حالة الفوضى قليلا] وغلت الأسعار ببغداد ، وظلم البريدي الظلم المعروف لهم ، وافتتح الخراج في آذار [أي قبل جني المحاصيل] . . . وخبط أهل الذمة ، وأخذ الأقوياء بالضعفاء ، ووظف على كر الحنطة سبعين درهما [ضريبة] وعلى سائر المكيلات [أي السلع التي تكال بالمكاييل] ، وعلى الزيت[2] .» ولكل هذا فقد شارك العامة في القتال ضد البريدي ، وعبروا عن نقمتهم وغضبهم عليه وعلى ذويه وأتباعه . « . . . فلما فر من بغداد طريدا سيطر عليها الديلم الذين أصبح رئيسهم أميرا للأمراء . وقد تظلم عامة بغداد لما حل بهم ، واشتكوا خاصة من نزول الديلم في دورهم ، فلم يتحرك أحد لشكواهم ، فالخليفة عاجز ولا وسيلة لديه ؛ أما أمير الأمراء ، صاحب السلطة ، فقد كان كورتكين ، رئيس الديلم المشكو منهم . ولذا فقد تجمع العامة يوم الجمعة ، وكسروا منبر الجامع ، وحالوا دون إقامة صلاة الجمعة ، واشتبكوا في قتال مع

---

(١) مؤلف مجهول ، ***العيون والحدائق*** ، ج٤ ، قسم ٢ ، ص ١٠٣ - ١٠٥ ؛ ابن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٨ ، ص ٣٧٤ - ٣٧٥ .

(٢) مسكويه ، ***تجارب الأمم*** ، مجلد ٢ ، ص ٢٤ - ٢٦ .

الديلم الذين أرسلوا لفضهم ، فسقط قتلى من الجانبين[١] .

وفي السنة التالية (٣٣٠هـ) ارتفعت اسعار الحنطة والشعير حتى «بلغ الكر الحنطة مائتين وعشرة دنانير ، والكر الشعير مائة وعشرين دينارا ، ثم بلغ الكر الحنطة ثلثمائة وستة عشر دينارا ، وأكل الضعفاء الميتة ، ودام الغلاء وكثر الموت . . . وتقطعت السبل . . . ووقعت حرب بين الأتراك والقرامطة [داخل بغداد وفي أحيائها] . . . وزاد البلاء على الناس ببغداد ، وكبست منازلهم (ليلا ونهارا . . . واستتر أكثر العمال لأجل ما طولبوا به مما ليس في السواد . وخرج أصحاب السلطان فأغاروا على ما استحصد من الزرع حتى اضطر أرباب الضياع إلى حمل ما حصدوه بسنبله[٢] .

ابن رائق ثانيــة:

وإذ وجد الخليفة نفسه عاجزا ، ولا معين له ولا ناصرا ، فقد كاتب محمد بن رائق – امير الأمراء السابق – وهو في بلاد الشام واستدعاه إلى بغداد . وكان أتباع بجكم الذين انضموا إلى ابن رائق بعد موت سيدهم بجكم ، وكذلك الذين هربوا أو انسحبوا من بغداد بعد سيطرة كورتكين عليها ، كانوا عند ابن رائق في الشام ، فشجعوه على الاستجابة لدعوة الخليفة المتقي . وعندما عاد اشتبك في حرب ضد كورتكين وأتباعه الديلم الذين كانت لهم السيطرة على المدينة ، وناصر العامة ابن رائق ، وتوقف الصراع بعد هزيمة كورتكين في شهر ذي الحجة سنة ٣٢٩هـ ، وإذ ذاك عين المتقي لله محمد ابن رائق أميرا للأمراء للمرة الثانية «وطوقه وسوره بطوق وسوار مرصعين بالجوهر ، وعقد له لواء . . .» ، بعد نجاحه في القضاء على كورتكين وإزاحته من المنصب[٣] . لكن أيام ابن رائق لم تطل ، حيث قتل في الحادي والعشرين من رجب سنة ٣٣٠هـ ، أي بعد ستة أشهر من ولايته الجديدة ، كما سنرى في الصفحات التالية .

---

(١) الهمداني ، ***تكملة*** ، المجلد ١ ، ص ١٢٤ ؛ مؤلف مجهول ، ***العيون والحدائق*** ، ج ٤ ، قسم ٢ ، ص١٠٥ .

(٢) ابن الجوزي ، ***المنتظم*** ، مجلد ٦ ، ص ٣٢٦ .

(٣) مسكويه ، ***تجارب الأمم*** ، مجلد ٢ ، ص ١٩ – ٢٢ .

البريديون يجتاحون بغداد ثانية:

في أواخر سنة ٣٢٩هـ توترت العلاقات بين أمير الأمراء محمد بن رائق والبريديين ، لأنهم أخروا الأموال المستحقة لدار الخلافة . ويبدو أن الأزمة لم تجد طريقا إلى الحل سلما ، فخرج ابن رائق من بغداد متجها إلى واسط في شهر المحرم من سنة ٣٣٠هـ «لردع أولئك العصاة» . وخاف البريديون فهربوا إلى البصرة ، وتوسط صديقهم أبو عبدالله الكوفي ، وتم الاتفاق على أن يعودوا لضمان بقايا واسط مقابل ستمائة ألف دينار سنويا . وعلى هذا الأساس عاد ابن رائق إلى بغداد من غير قتال أو نزال . لكن أزمة أخرى أطلت برأسها وحملت البريديين إلى بغداد واضطرت أمير الأمراء والخليفة المتقي إلى الهرب من العاصمة . فقد تمرد بعض قادة جيش ابن رائق عليه وانشقوا عنه ، وفيهم توزون وغيره من كبار القواد ، ورحلوا في شهر ربيع الثاني لينضموا إلى قوات أبي عبدالله البريدي ، وهو مقيم بواسط . ومن غير الواضح إن كان تمرد أولئك القادة كان بتحريض من البريدي ، لكن ذلك أمر محتمل ، بل ومرجح بدرجة كبيرة . وشعر أمير الأمراء بضعفه وانكشافه ، فحاول تطييب نفس أبي عبدالله البريدي بتعيينه وزيرا ، وأرسل له الخلع ، على أن يظل حيث هو ، ويمثله نائب عنه في العاصمة . لكن هذه المراضاة لم تخدع ذلك الداهية ، بل فتحت شهيته لما هو أكبر ؛ ووصلت الأخبار إلى بغداد تنبيء بعزم البريدي على الزحف ليستولي عليها . وكان رد فعل ابن رائق عنيفا وسريعا ؛ فقد أعلن تجريد البريدي من منصب الوزارة ، وأعاد أبا إسحاق القراريطي ليلي المنصب ، ثم إنه أمر بلعن البريديين على منابر الجوامع في بغداد [1] . بيد أن ذلك كله لم يغير من عزم هذا العدو العنيد أو يحمله على التردد في قصده الاستيلاء على عاصمة الخلافة ، ولما تمض سنة واحدة على خروجه منها هاربا ببقية من حياته في المرة السابقة . وكلف أبو عبدالله البريدي أخاه أبا الحسين بقيادة الجيش ، كل الجيش الذي لديه ، ليتسنى له الاستيلاء على دار السلام . أما ابن رائق فقد عول على التحصن في دار الخلافة والصمود في وجه البريدي . ولذلك فقد رمم أسوارها ، ونصب عليها الأدوات الحربية من العرادات والمنجنيقات ، وعمل على تعبئة العامة ، أي الجماهير في بغداد ، وجند بعضهم ، فهاج نفر منهم وانطلقت أعمال النهب والفوضى .

---

(١) ابن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٨ ، ص ٣٧٩ .

ويبدو أن أمير الأمراء غير خطته الدفاعية ، فخرج بقواته - آخذا معه الخليفة - إلى خارج بغداد ليتمركز عند نهر ديالي ، على مشارف العاصمة . وكان الخليفة قد كتب إلى الحسن بن عبدالله بن حمدان يطلب منه النجدة لدحر البريدي عن بغداد . ولا بد أن يكون هذا الطلب قد حظي بموافقة أمير الأمراء محمد بن رائق . واستجاب الحسن بن حمدان ، وأعد قوة كبيرة كلف أخاه علي بن عبدالله بن حمدان (سيف الدولة فيما بعد) بقيادتها . لكن البريدي وصل بقواته إلى عاصمة الخلافة قبل وصول النجدة المنتظرة ، وذلك لبعد المسافة وبطء حركة المواصلات . وبدأت الاشتباكات بين الجانبين ، واستسلمت فرقة القرامطة التابعة لابن رائق ، وحلت به الهزيمة ، وتمكن البريدي من الاستيلاء على دار الخلافة نفسها في التاسع من جمادى الثاني سنة ٣٣٠هـ بعد أن هرب المتقي وابنه الأمير أبو منصور ومعهما نحو عشرين فارسا ؛ ولم يلبث ابن رائق أن لحق بهم ، وسار الركب مجتمعا صوب الموصل . ولما وصلوا إلى تكريت قابلهم سيف الدولة على رأس الجيش الذي تحرك لنجدة الخليفة . وقدم علي بن حمدان كل مراسم الطاعة والاحترام والترحيب بالخليفة ومن معه ، ثم صاحبهم في سيرهم إلى الموصل . وعندما اقتربوا من المدينة غادرها الحسن بن حمدان متجها شرقا نحو معلثايا . «وترددت الرسل بينه وبين ابن رائق حتى تعاهدا واتفقا ، فحضر الحسن ، ونزل على دجلة بالجانب الشرقي . وعبر إليه الأمير أبو منصور بن المتقي وابن رائق[1] .

مصرع ابن رائق:

واستقبل الحسن بن حمدان الزائرين ، فأبدى احتراما وإكراما ظاهرا لابن الخليفة دون صاحبه ؛ فلما أرادا الانصراف من عنده قاما وركب ابن المتقي فرسه بينما يحدث ابن حمدان محمد بن رائق ويلح عليه كي يبقى عنده «لنتحدث فيما نفعله .» وخاف ابن رائق فأراد أن ينزع يده إذ كان الحسن ممسكا بذراعه ، فتشبث بكمه بشدة فتمزق . وحاول ابن رائق ركوب فرسه ، فشب به الفرس فسقط ، فصاح ابن حمدان برجاله أن يقتلوه ، ففعلوا ، والقوا جثته في دجلة . وبرر الحمداني فعلته أمام الخليفة بأن أبن رائق كان يريد أن يغتاله ، ولذا فقد قتله .

(١) ابن الأثير ، *الكامل* ، مجلد ٨ ، ص ٣٨٢ .

ولم يكن أمام الخليفة سوى الرضى ، أو إظهار الرضى بما حدث ، وطلب من الحسن أن يأتي إليه ، ثم خلع عليه ، ولقبه ناصر الدولة ، وعينه أميرا للأمراء بدل ابن رائق ، وذلك في أوائل شعبان سنة ٣٣٠ هـ/٩٤٢م . ثم خلع على أخيه علي بن عبدالله بن حمدان وأعطاه لقب «سيف الدولة[1] .» وهكذا نجد أن ولاية ابن رائق لمنصب أمير الأمراء في هذه المرة الثانية كانت قصيرة بحيث لم تزد عن ستة أشهر فقط .

بغداد تتعرض لعاصفة من النهب والاعتداءات:

أما بغداد ، بعد أن هرب منها الخليفة وابن رائق ، فقد اجتاحتها عاصفة من أعمال السلب والنهب قام بها أتباع البريدي ، ليلا ونهارا ، وكان مما نهبوه دار الخليفة ، ودور حريم الخليفة والحاشية ، وقتلوا كل من وجدوه فيها . كما أخذوا دواب الناس ، وكبست منازلهم وسكن فيها من شاء من أتباع البريدي غصبا عن أهلها ، وفرضت الضرائب والرسوم على المواد التموينية الأساسية خاصة ، فارتفعت الأسعار . ووقعت اشتباكات وحروب بين فئات الجند المتنوعة ، وبينهم وبين العامة . وعين أبو الحسين البريدي القائد التركي توزون رئيسا للشرطة في الجانب الشرقي من بغداد ، بينما عين نوشتكين لقيادة الشرطة في الجانب الغربي من المدينة . وفي الوقت نفسه أخذ رهائن من القواد الأتراك الذين كانوا مع توزون ، نساءهم وأولادهم ، فأرسلهم إلى واسط . ولا مراء في أن هذا التصرف مع القادة العسكريين الأتراك أثار حفيظتهم ، بالإضافة إلى أن قسوة إجراءات البريدي نفرت منه العدد الأكبر من الناس ؛ ولذا فإنه لم يمض وقت طويل حتى هرب خجخج من البريدي تاركا الناحية التي كان ولاه عليها ، واتجه إلى الموصل للالتحاق بالخليفة المتقي بعد سماعه بقتل ابن رائق . ومن ناحية أخرى كان توزون ونوشتكين وعدد آخر من القادة الأتراك والديلم قد اتفقوا على مهاجمة البريدي والتخلص منه ، لكن نوشتكين خان جماعته وتقرب إلى البريدي بإبلاغه الخبر وتحذيره . وهكذا يئس توزون ، على ما يبدو من إمكانية إزاحة كابوس البريدي ، ولعل خواطره شغلت بمنصب أمير الأمراء بعد معرفته بقتل ابن رائق ، ولذا فقد أخذ معه عددا كبيرا من الأتراك وتوجه إلى الموصل ليلتحق بالمتقي

---

(١) *المصدر نفسه* ، ص ٣٨٢ -٣٨٣ .

وابن حمدان ، غير عابيء ، أو غير مدرك لما في نفسيهما من غضب من جراء تعاونه مع البريدي ، وعمله في خدمته .

الحرب بين ناصر الدولة والبريديين:

وعاد المتقي إلى بغداد ، يصحبه أمير الأمراء الجديد ، ناصر الدولة الحسن بن حمدان وجيشه فوجدوا أن أبا الحسين البريدي قد فر من عاصمة الخلافة عندما علم باقترابهم منها ، واتجه إلى واسط ، ليتخذها قاعدة لتحركاته المقبلة . وبعد استراحة قصيرة خرج ناصر الدولة بقواته متجها إلى واسط ، لمحاربة البريديين ؛ وعندما علم البريدي بذلك قاد قواته لملاقاته بعيدا عن واسط ؛ وجرت المعركة قرب المدائن ، التي لا تفصل بينها وبين بغداد سوى مسافة قصيرة . وكان ناصر الدولة كلف أخاه سيف الدولة بقيادة الجيش الحمداني ، بينما ظل هو في المدائن . وحلت الهزيمة بسيف الدولة وقواته ، فتقهقر إلى المدائن حيث زوده أمير الأمراء بقوات إضافية ، فعاد إلى المعركة ، وتمكن من هزيمة البريديين ، حيث فروا من أرض المعركة عائدين إلى واسط . ولم يلبث ابو الحسين البريدي أن انسحب بقواته من واسط وتراجع إلى البصرة ، القاعدة الأساسية للبريديين . ودخل ناصر الدولة بغداد وأمامه الأسرى من قواد وجند البريدي ، فاطمأنت القلوب بعد فزع شديد ، وأعاد الخليفة عائلته وحاشيته التي كانت لجأت إلى سرمن رأى ، وأعاد مياسير البغداديين عائلاتهم . لكن الحمدانيين اضطروا إلى الانسحاب من بغداد والعودة إلى الموصل بعد أن ثار قادة الجند الأتراك والديلم ، الذين كانوا مع سيف الدولة ، طمعا في المال المرسل إليه من أمير الأمراء ، خاصة توزون ونوشتكين ، فحاولوا الاستيلاء عليه منه بالقوة ، ولما فشلوا تمردوا عليه وهزموه في ساحة القتال أكثر من مرة . وعندما انسحب ناصر الدولة من بغداد نهاية شهر شعبان سنة ٣٣١هـ/ ٩٤٣م . قاصدا الموصل ، لحق به الخليفة وتشبث به طالبا منه ألا يتركه ويترك بغداد غنيمة للطامعين ؛ فأظهر الأمير الحمداني الاستجابة إلى أن اطمأن الخليفة وعاد إلى مقره ؛ وإذ ذاك استأنف الحمداني رحلة الهرب[١] . وهكذا غادر ناصر الدولة عاصمة الخلافة ووسط العراق عائدا إلى قاعدته في الموصل ، فكانت مدة انتفاشه بلقب «أمير الأمراء» ثلاثة عشر شهرا وخمسة أيام

---

(١) مسكويه ، ***تجارب الأمم*** ، مجلد ٢ ، ص ٣٩ – ٤١ .

فقط[١] . ولم يصمد سيف الدولة في محاولة متأخرة لدحر توزون ، فحلت به الهزيمة وولى الأدبار كما فعل في مرات سابقة . وأدرك توزون فرصة فراغ السلطة فوثب على بغداد ودخلها في الخامس والعشرين من رمضان سنة ٣٣١هـ/ ٩٤٣م .

توزون أميرا للأمراء:

ولم يجد المتقي مناصا من الاعتراف بالأمر الواقع ، فسارع بتقديم الخلع إلى «السيد الجديد» ، وعينه في منصب أمير الأمراء ؛ ولا بد أنه أرسل له العبارات التي تشير إلى مدى سعادته واستئناسه بقدومه[٢] . وبعد تقلده منصبه الجديد عين توزون له كاتبا ، (ويمكن أن يسمى وزيرا ، أو مديرا لأعماله ، ومستشارا في الوقت نفسه) . وكانت أول إجراءات قام بها أمير الأمراء بعد ذلك أنه « . . . قبض على جماعة من التجار وطالبهم بمال . . . ووجه بالديلم [وهم فرقة من جنده] إلى قطيعة أم جعفر [إحدى محال بغداد] فكبسوا الدكاكين وأخذوا من الدقيق زورقين عظيمين[٣] . . .» ونتيجة لحالة الرعب التي سادت البغداديين في تلك السنة ، ٣٣١هـ/٩٤٢-٩٤٣م ، «خرج كثير من تجار بغداد مع الحاج للانتقال إلى الشام ومصر لاتصال الفتن ببغداد ، وتواتر المحن عليهم من السلطان .[٤]» ، وقد روي أنه «أخذ أموال أهل بغداد ، وأخذ من دعلج العدل مائة ألف درهم٤١٥ .» ولم يكتف بذلك بل تملك القرى القريبة من بغداد ، وضمنها لأبي الحسين علي بن محمد بن مقلة[٥] . وفي ظل هذه الأجواء سيطر القلق على نفوس البغداديين ونفوس القادة على السواء ، «وغلب القنوط على الكافة من أهل الحضرة [بغداد] فوقع التدبير بين أبي الحسين ابن مقلة وبين الترجمان على مكاتبة ناصر الدولة في إنفاذ من يشيع المتقي ويخرجه إليه . . .» ثم إنهما خوفا المتقي من ابن شيرزاد ، كاتب توزون ،

---

(١) ابن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٨ ، ص ٣٩٧ .

(٢) ابو الفدا بن كثير ، ***البداية والنهاية*** ، ج ١١ ، ص ٢٠٥ ؛ الهمداني ، ***تكملة*** ، مجلد ١ ، ص ١٣٢-١٣٤ .

(٣) الهمداني ، ***تكملة*** ، مجلد ١ ، ١٣٤ .

(٤) ابن الجوزي ، ***المنتظم*** ، مجلد ٦ ، ص ٣٣١ ؛ الهمداني ، تكملة ، مجلد ١ ، ص ١٣٥ .

(٥) ابن الجوزي ، ***المنتظم*** ، مجلد ٦ ، ص ٣٣٨ .

(٦) ابن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٨ ، ص ٤٠٠ - ٤٠١ .

وأنه قادم ليخلعه من منصب الخلافة ، فانزعج الخليفة أيما انزعاج ، واقتنع – على ما يبدو – بفكرة مغادرة بغداد والاحتماء ببني حمدان . ووصل ابن شيرزاد إلى بغداد ، فبدا وكأن المخاوف والظنون والإشاعات قد تأكدت بمجيئه . وقدم الحسين بن سعيد بن حمدان على رأس جيش كثيف ، فخرج إليه المتقي وحرمه ، كما خرج الوزير ابن مقلة ، ومحمد بن ينال الترجمان ، وكان نائب توزون في بغداد ، إلا أنه تخوف منه ولاحت له الآن فرصة لينشق عنه . واختبأ ابن شيرزاد ، وخرج وجوه بغداد وكتابها . وانطلق الجميع نحو الشمال ، في اتجاه الموصل ؛ فلما وصل ركب الخليفة إلى تكريت تأكد ابن شيرزاد من ابتعادهم ، فخرج من مخبئه ، واستأنف ممارسة النهب والظلم . ولما علم توزون ، وهو بواسط ، ما جرى ببغداد أرسل إليها أحد قادته على رأس قوة من ألف رجل ، وتأخر هو في واسط حتى عقد ضمانها على أبي عبدالله البريدي ، ثم اتجه إلى بغداد . وواصل الخليفة مسيرته إلى الموصل ، بينما سير ناصر الدولة جيشا بقيادة أخيه علي ، سيف الدولة ، للقاء توزون ، الذي كان قد زحف نحو الشمال لفرض هيمنته على المنطقة ، ولإذلال الحمدانيين . واشتبك الجيشان في معركة جرت إلى الجنوب قليلا من تكريت واستمرت ثلاثة أيام ، وحلت الهزيمة بسيف الدولة في اليوم الرابع فانسحب صوب الشمال ، وانسحب معه أخوه ناصر الدولة ، ونهب الأعراب الذين كانوا معهما معسكريهما . أما في معسكر المنتصرين فقد شغب أتباع توزون عليه طلبا للمال والغنائم ، على الأرجح ، فاضطر للعودة إلى بغداد . وقوى أمير الأمراء علاقته بالبريدي فصاهره وزوجه ابنته . وحاول الحمدانيون إعادة الكرة ليمسحوا أثر ما حل بهم من هزائم ، وليبعدوا خطر هذا العدو الرهيب ، فقاد سيف الدولة جيشا إلى تكريت ، وخرج توزون بقواته من بغداد ، واقترب الجيشان إلى أن اشتبكا في معركة تكررت فيها هزيمة سيف الدولة . فلما عاد إلى الموصل بهزيمته سيطر الفزع على أميرها الحسن بن حمدان وعلى الخليفة ومن معه فغادروها إلى نصيبين . وواصل توزون زحفه بقواته نحو الشمال فاستولى على الموصل ، وبدأ كاتبه ابن شيرزاد يجمع المال من أهلها بطريقته المعهودة . ولما وصلت الأخبار إلى ناصر الدولة ومعه الخليفة وهم في نصيبين ارتاعوا وتملكهم الخوف فغادروها إلى الرقة(١) ، ولحق بهم سيف الدولة(٢) .

---

(١) وهي الآن في سوريا .

(٢) مسكويه ، ***تجارب الأمم*** ، مجلد ٢ ، ص ٤٧ – ٤٩ .

الخليفة يسعى لمصالحة توزون:

وبعد أن عانى الخليفة كل هذه المعاناة ولحقت به كل هذه الإهانات شعر أن بني حمدان في ضيق من صحبته، فحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه، وعول على مصالحة توزون لعله يتمكن من العودة إلى دار الخلافة وينهي رحلة العذاب والمهانة. وهكذا كلف أبا زكرياء السوسي - وكان أحد العلماء الذين خرجوا معه من بغداد - كلفه بأن يحمل رسالة إلى توزون تتضمن النقاط التالية:

(١) إنه، أي المتقي، فارق بغداد غضبا من توزون لأنه تحالف مع البريديين على الرغم من كل الأعمال السيئة التي ارتكبوها.

(٢) دعوة لطي صفحة الماضي، وإجراء مصالحة بين توزون وناصر الدولة الحسن بن حمدان.

(٣) فإذا أطاع وقبل اقتراح الخليفة فإنه سيعود إلى بغداد.

وتم الصلح على ذلك. وكان ابن شيرزاد - كاتب توزون - قد تمكن من تحصيل مائتي ألف دينار من أهل الموصل قبل أن يتم الصلح. فلما اتفق الفريقان على المصالحة عقد ابن شيرزاد ضمان الموصل على الحسن بن حمدان بمبلغ ثلاثة ملايين وستمائة ألف درهم سنويا؛ وعاد توزون إلى بغداد[1]. كل ذلك والخليفة مازال بعد في الرقة. بيد أن سعيه لهذا الصلح يبين مدى حرصه على العودة إلى عاصمة الخلافة. وبينما كان في الرقة قدم لزيارته محمد بن طغج الإخشيد، حاكم مصر والشام آنذاك، في شهر محرم سنة ٣٣٣هـ/أيلول (سبتمبر) ٩٤٤م، وأبدى له غاية الاحترام، ووقف بين يديه كما يقف الغلمان. ولما ركب المتقي فرسه ظل الإخشيد يمشي مواكبا له، رغم أنه أمره بالركوب. وقدم له ولمن معه كثيرا من الهدايا النفيسة، وحاول أن يقنعه بالذهاب معه إلى الشام ومصر، مؤكدا أنه سيكون في خدمته، لكن الخليفة امتنع عن ذلك. وعلى أساس الثقة التي استمدها المتقي من الصلح توجه إلى بغداد وسار حتى اقترب منها ووصل إلى السندية، وهناك استقبله توزون ونزل عن فرسه متظاهرا باحترامه، وقبل الأرض بين يديه، ثم سلمه لوزيره، أي وزير توزون، فسمله. «فلما سمله صاح، وصاح من عنده من الحرم والخدم، وارتجت الدنيا، فأمر توزون . . .» بقرع الطبول للتغطية على الصياح والعويل. وقد روى ابن

---

(١) الهمداني، *تكملة*، مجلد ١، ص١٣٦-١٣٧؛ مسكويه، *تجارب الأمم*، مجلد ٢، ص ٦٧ - ٧٢.

كثير أن توزون نفسه هو الذي أمر بسمله : «وأمر بسمل الخليفة فسملت عيناه ، فصاح صيحة عظيمة سمعها الحريم ، فضجت الأصوات بالبكاء . . .» [١] . ما الذي حمل توزون على ارتكاب هذه الجريمة؟

تذهب رواية نقلتها ، أو أشارت إليها المصادر منسوبة إلى «ذكا» ، أحد خدم الخليفة الراضي - وكان مرافقا للمتقي في رحلة العودة إلى بغداد - أن أحد أعمام المتقي ، وهو عبدالله بن المكتفي ، سعى للوصول إلى منصب الخلافة بعد إزاحة ابن أخيه المتقي (إبراهيم بن المقتدر) . وقد وسط لذلك عددا من الأشخاص من بينهم امرأة شيرازية كانت تتهم بسوء السلوك والفاحشة . وقد عرض عبدالله بن المكتفي هذا أن يقدم لتوزون مبلغ ستمائة ألف دينار ، وأن يستخرج أموالا أخرى مما كان للخلفاء - مودعا عند أشخاص أو في مخابيء سرية . وقد تمكن الوسطاء من إقناع توزون ، الذي كان شابا طائشا ، بأن المتقي يشكل خطرا عليه . فلما اقتنع قابل عبدالله بن المكتفي سرا ، للتأكد . ويبدو أن توزون استرجع تطورات علاقته مع الخليفة المتقي ، وكيف استدعى الحمدانيين إلى بغداد ، ثم هرب معهم إلى الموصل ، ثم إلى نصيبين والرقة ، وكيف وقعت المعارك باسمه وللدفاع عنه ، وكيف تخلى الحمدانيون عن الخليفة بعد أن انهارت قوتهم العسكرية ، واعتبروا أن علاقتهم بالخليفة جلبت لهم النكبات؟؟؟ . وهكذا حلت الكارثة بالمتقي . وبغض النظر عما إذا كانت القصة عن دور المرأة الشيرازية صحيحة أو لا ، فإن المتقي لم يكن أول مسمول ولا آخر المسمولين ؛ فقد سبقه القاهر إلى تجرع هذه الكأس سنة **٣٢٢**هـ . ثم إن توزون كانت لديه أسباب التخوف من الخليفة المتقي كما أشرنا ، بغض النظر عن تحريض المحرضين . والحقيقة أننا لا نستطيع استبعاد قصة المرأة المدعوة «حسن الشيرازية» بل نقول إن الظروف الموضوعية المحيطة بالواقعة تجعل إمكان حدوثها على النحو الذي أوردته الرواية يبدو محتملا جدا ، بل ومرجحا . لكننا لا نستطيع تأكيد ذلك أو تبنيه بشكل مطلق .

---

(١) ابن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٨ ، ص ٤١٨ - ٤١٩ ؛ أبو الفدا ابن كثير ، ***البداية والنهاية*** ، ج ١١ ، ص٢١٠ .

توزون يولي المستكفي خليفة جديدا:

وحين عاد توزون إلى بغداد – بعد سمل عيني المتقي – استدعى عبدالله بن المكتفي فبايعه بالخلافة ، وتكنى بـ «المستكفي بالله» . ثم جلس توزون بين يدي المستكفي ، فطوقه ، أي ألبسه طوقا ، وسوره ، وكلاهما من أنواع الأوسمة ، ثم وضع على رأسه التاج المرصع بالجوهر . ثم أجبر المتقي على الحضور بين يدي الخليفة الجديد ومبايعته ، وانتزع المستكفي من سلفه رموز الخلافة ، «البردة والقضيب» . ثم أخرج المتقي إلى جزيرة فسجن بها خمسا وعشرين سنة إلى حين وفاته سنة ٣٥٧هـ . أما المرأة الشيرازية ، حسن ، فقد أصبحت قهرمانة (مديرة القصر)الخليفة الجديد ، الذي لقب نفسه بـ «المستكفي بالله» ، وغيرت اسمها إلى «علم» ، وأصبحت لها سيطرة وسلطة كبيرة على الخليفة وشئون الدولة [١] .

واختار المستكفي له وزيرا هو أبو الفرج محمد بن علي السامرائي ؛ ولم تكن للخليفة أو لوزيره أية سلطة ، بل كان الأمر كله بيد محمد بن شيرزاد ، كاتب توزون . وبعد اثنين وأربعين يوما ، أي في السابع من ربيع الثاني سنة ٣٣٣هـ قبض المستكفي على وزيره المذكور وصادر منه ثلاثمائة ألف درهم . ثم بدأ المستكفي يبحث عن أبناء عمومته الذين يمكن أن ينافسوه على منصب الخلافة . وحاول القبض على ابن عمه ، الفضل بن المقتدر ، لكن الفضل نجح في الهرب ، واختبأ مختفيا عن الأنظار ، فأمر المستكفي بهدم داره التي عند دجلة .» وظل الفضل مختفيا طيلة خلافة المستكفي[٢] وهذا بحد ذاته يكشف لنا شخصية هذا الخليفة ، ومستواه الخلقي، ويجعل الحديث عن دور المرأة الشيرازية يبدو ممكنا .

وحيث انفرد ابن شيرزاد بالحكم – فيما يتعلق بالإدارة والمال والتعامل مع الناس – فقد مارس سياسة ابتزاز ونهب لا رحمة فيها ، فقسط على العمال والكتاب

---

(١) الهمداني ، ***تكملة*** ، مجلد ١ ، ص ١٤٢ – ١٤٣ ؛ ابن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٨ ، ص ٤٢٠ – ٤٢١ ؛ المسعودي ، ***مروج الذهب*** ، جز ٤ ، ص ٢٤٩ – ٢٥٠ ؛ مسكويه ، ***تجارب الأمم*** ، مجلد ٢ ، ص ٧٢ – ٧٥ ، مؤلف مجهول ، ***العيون والحدائق*** ، ج ٤ ، قسم ٢ ، ص ١٤٤ – ١٤٦ ؛ وكانت رواية مسكويه ، وصاحب العيون والحدائق هي الأكثر تفصيلا .

(٢) إبن كثير ، ***البداية والنهاية*** ، جزء ١١ ، ص ٢١٠ ؛ وقارن مع : ابن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٨ ، ص ٤٢١–٤٢٢ ؛ والهمداني ، ***تكملة*** . . . ، مجلد ١ ، ١٤٧ .

والتجار المبالغ اللازمة لدفع رواتب الجند . وكان له جواسيس يبحثون عن كل من عنده مال ، أو من لديه قوت لعياله ، وينقلون له الأخبار فيستولي على المال . وبهذه الإجراءات ، فضلا عن الضرائب الثقيلة التي قررها ، صار البلد محاصرا ، وتوقف جلب السلع التجارية[1] . ولما مات توزون في شهر محرم سنة ٣٣٤هـ/آب (أغسطس) ٩٤٥م أجمع الجند على أن يتولى الرئاسة ابن شيرزاد ، مع أنه لم يكن عسكريا . ويبدو أن قدراته على جمع المال وإرضاء الجند كانت الدافع وراء هذا التأييد . وهكذا اضطر الخليفة إلى تعيينه أمير الأمراء . ولم تغير الرتبة الجديدة لابن شيرزاد من سلوكه وتصرفاته وظلمه الصارخ للناس ، بل زاد من حدة وتيرتها ، حتى لقد شارك رئيس عصابات اللصوص فيما يحصلونه . وكان اللصوص قد دوخوا البغدادين من جراء قيامهم باقتحام البيوت والسطو على ما يجدونه فيها : وقد وصف ذلك ابن الأثير بقوله : «وكثرت الكبسات من اللصوص بالليل والنهار من أصحاب ابن حمدي ؛ وتحارس الناس بالبوقات . وعظم أمر ابن حمدي فأعجز الناس ، وأمنه ابن شيرزاد وخلع عليه وشرط معه أن يوصله كل شهر خمسة عشر ألف دينار مما يسرقه هو وأصحابه . . . فعظم شره حينئذ ، وهذا ما لم يسمع بمثله [2] .»

ولم تطل أيام المستكفي ، فقد زحف أحمد بن بويه على العراق ، ووصل بغداد في جمادى الأولى سنة ٣٣٤هـ/كانون الأول (ديسمبر)٩٤٥م ؛ وبعد أقل من شهرين خلع المستكفي من منصبه وسلم إلى خليفته المطيع فسملت عيناه ، كما سنرى في الصفحات التالية .

---

(١) الهمداني ، ***تكملة*** ، مجلد ١ ، ص ١٤٧

(٢) ابن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٨ ، ص ٤١٦ ؛وانظر : الهمداني ، ***تكملة تاريخ الطبري*** ، المجلد ١ ، ص ١٣٧ ؛ السيوطي ، ***تاريخ الخلفاء*** ، ص ٣٩٦ ، غير أن السيوطي ذكر أن المبلغ الذي كان ابن شيرزاد يحصل عليه من حمدي خمسة وعشرين ألف دينار ، لا خمسة عشر ألفا .

الفصل الثامن

الخلافة في سجن البويهيين

نشأة القوة البويهية:

ينسب البويهيون إلى جدهم (بويه) الملقب بأبي شجاع ، بن فناخسرو . وقد ظهر اسمهم على صفحات التاريخ أول مرة سنة ٣٢١هـ/٩٣٣م ؛ وهم ينتسبون إلى شعب الديلم ، إحدى الجماعات البشرية التي كانت تستوطن المنطقة الشمالية الغربية من إيران الحالية ؛ أي أنهم كانوا يجاورون الأكراد . وكثيرا ما أطلق المؤرخون على البويهيين اسم (الديلم) . وفي فترة الفوضى والصراع التي شهدتها دار الخلافة وشهدها العراق بعد قتل المتوكل سنة ٢٤٧هـ إنحسرت سلطة بغداد عن جميع الأقاليم الشرقية والشمالية الشرقية التي تمتد حتى حدود الصين ، وتمتد شمالا لتشمل أذربيجان وجنوب القوقاز وأرمينيا ، فصارت كل هذه المناطق ميدانا لمختلف المغامرين وأصحاب الطموح إلى العلو السياسي والعسكري ، أو حتى إلى إشباع الرغبات المنفلتة للحصول على الأموال عن طريق السلب والنهب .

وكان بويه بن فناخسرو رجلا متوسط الحال ؛ وقد أنجب ثلاثة أبناء : علي ، وحسن ، وأحمد . وعندما ظهر بعض الزعماء الطموحين في بلاد الديلم ، ومنهم (ماكان بن كالي) ، و(مرداويج بن زيار) انضم علي وحسن إلى رجال (ماكان) بينما كان أخوهما أحمد صغيرا . وتقدم علي بن بويه ضمن جماعة (ماكان) وصار أحد القادة التابعين له ؛ ثم ضعفت أحوال (ماكان) فتركه الأخوان علي وحسن وانضما إلى (مرداويج بن زيار) فأحسن استقبالهما (١) ، وما لبث أن عين علي بن بويه أميرا

---

(١) مما تجدر ملاحظته هنا أن عددا من كبار القادة الأتراك الذين صار لهم شأن كبير في دار الخلافة قبل العهد البويهي كانوا أيضا من أتباع (ماكان بن كالي) ، ثم من أتباع (مرداويج بن زيار) ؛ ومن هؤلاء القادة بجكم وتوزون ، وكلاهما صار أميرا للأمراء في عاصمة الخلافة ، وصارت له السلطة العليا ، كما مر معنا في الفصل السابق . .

على أحدى النواحي التابعة له ، وهي (كرج) ، وتعرف أحيانا (الكرج) ، وتقع حاليا ضمن أراضي جمهورية جورجيا الحالية مما يسمى بجمهوريات الاتحاد السوفييتي السابقة .

وبعد تطورات تخرج عن موضوعنا استقل علي بن بويه بعد أن استطاع كسب ولاء أهل المنطقة ، وانضم إليه الكثير من الجند ، ليبدأ - بعد ذلك - مسيرة الصعود ، له ولأخويه من غير تبعية لأي من المتغلبين الآخرين . ولم يكن من الضروري أن تنحصر تطلعات الطامحين إلى التغلب في المنطقة التي ظهروا فيها أول مرة ، بل كان ميدان آمالهم وتطلعاتهم يشمل كل ذلك الفضاء الذي كان خاضعا للخلافة العباسية ثم انحسرت سلطتها عنه منذ منتصف القرن الثالث الهجري . وفي سنة **٣٢٢هـ/٩٣٤م** تمكن علي بن بويه من الاستيلاء على مدينة شيراز (وسط إيران) فصارت منذئذ مقر ملكه وعاصمته . وكان قد دخل في معارك مع الولاة المعتمدين من قبل دار الخلافة ، وعلى رأسهم ياقوت ، وابنه محمد بن ياقوت فهزمهم . وعندما وصل إلى هذا الحد راسل الخليفة الراضي ووزيره محمد بن مقلة يعرض طاعته وتبعيته واستعداده لتقديم ثمانية ملايين درهم مقابل اعتراف الخلافة به [(١)] ؛ فاستجابت بغداد ، وأرسلت له «الخلع واللواء» مع مندوب من دار الخلافة أوصوه بأن لا يسلمها إلا إذا دفع له المال الذي تعهد ابن بويه بدفعه . «فلما وصل الرسول خرج . . .]علي بن بويه [لاستقباله ، وطلب منه الخلع واللواء ، فذكر له الشرط ، فأخذهما منه قهرا ، ولبس الخلع ونشر اللواء بين يديه ، ودخل البلد ، وغالط الرسول بالمال . . .» وأخذ يماطله ، فظل مبعوث الخليفة ينتظر دون جدوى إلى أن أدركته الوفاة سنة **٣٢٣هـ** من غير أن يبرح شيراز ، ومن غير أن تحصل بغداد على درهم واحد . وما وافت سنة **٣٢٥هـ** حتى صارت بلاد فارس كلها «في يد علي بن بويه ، و[صارت] الري وإصبهان والجبل في يد أخيه الحسن بن بويه . . . [(٢)]»

وأراد الأخوان - علي وحسن إبنا بويه - أن تكون لأخيهما الأصغر أحمد - بعد أن كبر وصار يقود الجيوش - مملكة خاصة به فوجهاه إلى كرمان ، في جنوب إيران الحالية ، فنجح في الاستيلاء علي عاصمتها (جيرفت) مؤقتا ، لكن مشروعه اصطدم

(١) إبن الجوزي ، ***المنتظم في تاريخ الملوك والأمم*** ، مجلد ٦ ، ص ٢٧١ .

(٢) المصدر نفســه ، مجلد ٦ ، ص ٢٨٨ .

بمقاومة شديدة من جانب القفص والبلوص (البلوش) المسيطرين على تلك النواحي ، ففقد جيرفت ، كما فقد إحدى يديه وبعض أصابع اليد الأخرى في المعارك التي دارت بينه وبينهم .

التحول نحو العراق:

ولكن ، إذا كان مشروع إنشاء مملكة خاصة لأحمد بن بويه في كرمان قد فشل بسبب مقاومة السكان المحليين ، فقد كانت هناك غنيمة أكبر وأسمن تنتظره ، وهي – فضلا عن ذلك أقرب موقعا إلى مملكتي أخويه علي وحسن ، وأعني بذلك العراق . وجاءت حادثة لجوء أبي عبدالله البريدي ، المتغلب على البصرة ، للإحتماء بعلي بن بويه فنبهت البويهيين إلى ما كان يعانيه العراق العباسي من صراعات داخلية جعلته يبدو غنيمة سهلة . وهكذا تحول اهتمامهم وتركيزهم إلى العراق ، باعتباره قلب الدولة الإسلامية ومركز الخلافة . وقد بدأت عمليات جس النبض باستيلاء معز الدولة على الأهواز سنة ٣٢٦هـ/ ٩٣٨م ؛ وزحف ركن الدولة على واسط وعودته عنها دون الاستيلاء عليها ، ثم وصوله إليها وإلى ديالى سنة ٣٣٢هـ/٩٤٤ م ومن ثم العودة إلى قاعدته في الري .

وعندما وافى شهر جمادى الأولى من سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م وصل أحمد بن بويه إلى بغداد على رأس قواته ، واستقبله الخليفة المستكفي في اليوم التالي معلنا سروره به ، فبايعه ابن بويه ، وحلف المستكفي له على الوفاء ، وأعلنه أميرا للأمراء ، بدلا عن الأمير المختفي (إبن شيرزاد) . وبهذه المناسبة صيغت ألقاب تشريفية جديدة ، لم تكن معروفة أو مستخدمة من قبل ، حيث أعطى الخليفة لأحمد بن بويه لقب «معز الدولة» ، ولقب أخاه الأكبر ، علي بن بويه ، بلقب «عماد الدولة» ، بينما لقب أخاه الآخر ، حسن ، بلقب «ركن الدولة» ؛ فصار الإخوة الثلاثة – حسب ألقابهم – عماد الدولة وركنها ومعزها . وكان معز الدولة الذي استولى على العراق ودخل بغداد لتوه ، هو أصغر الإخوة ، كما مر معنا . ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن المستكفي ، والوزير محمد بن شيرزاد وأتباعهما كانوا قد اختفوا واختبأوا عندما وصلتهم أخبار تحركات أحمد بن بويه قاصدا الاستيلاء على بغداد . فلما وصل استقبله الخليفة استقبالا وديا ، كما ذكرنا ، وأفهمه أنه إنما اختبأ خوفا من الأتراك ، فلما رحلوا عن بغداد واتجهوا إلى الموصل ظهر ليرحب به . وبهذا التطور الصاخب انتهت حقبة من تاريخ

الخلافة العباسية لتبدأ فترة أخرى ، تميزت واختلفت عن سابقتها بعض الاختلاف ، وشابهتها إلى حد كبير بالنسبة لوضع الخلافة ، وفيما يتعلق بظروف حياة الناس في العراق خاصة . لقد انتهت فترة الفوضى في دار الخلافة ووصلت إلى نهايتها بدخول أحمد بن بويه بغداد سنة ٣٣٤هـ .

وبعد أن تم لمعز الدولة احتلال بغداد وخضعت له معظم الأقاليم والنواحي العراقية نراه يعمل على استكمال السيطرة على ما تبقى منها خارج سيطرته . ولذا فقد بدأ بالاستيلاء على البصرة ، فأنهى حكم بني البريدي فيها سنة ٣٣٦هـ/٩٤٧م ، ثم زحف صوب الموصل في السنة التالية وتمكن من احتلالها ، إلا أنه انسحب منها بعد أن تعهد له أميرها – الحسن بن عبدالله بن حمدان – بدفع إتاوة سنوية ، حسبما جرت العادة في العقود السابقة . وقد تكرر زحفه على الموصل في سنتي ٣٤٧و ٣٥٣هـ ، وفي كل مرة كان يحصل على تعهد من ابن حمدان ، مثل تعهده السابق دون الحرص من الأمير الحمداني على الوفاء . ويبدو أن الحسن بن حمدان كان يتحين الفرص للتخلص من التعهد الذي كان يضطر إلى تقديمه للملك البويهي ، كما كان يفعل مع القادة الأتراك المسيطرين على بغداد في فترة الفوضى التي عاشتها دار الخلافة . ولم يكن الحمدانيون أو غيرهم من الأمراء المتغلبين على أكثر النواحي مقتنعين بأن عليهم أن يحولوا أموالا إلى بغداد ، لأن تحويل الأموال الفائضة عن حاجة الولاية كان إجراء متبعا في ظل الخلافة الحقيقة ، صاحبة السلطة في دار الخلافة ، وليس للمتغلبين الذين أسروا الخلافة وسجنوها بعد تلاشي قوتها ، وانحدارها إلى مهاوي الضعف والعجز والهوان . ولم تكن للأمير الحمداني ، أمير الموصل والجزيرة وجوارها ، قوة يمكن أن تجعله ندا يتحدى البويهيين ، ولذا فقد كان يلجأ إلى أساليب الكر والفر ، أو ما يشبه حرب العصابات ، حيث يتجنب المواجهة فينسحب بقواته وأمواله من وجه الغزاة ، فإذا لاحقوه انسحب مجددا ، ثم رتب من رجاله من يقطع خطوط مواصلات العدو ، ويمنع وصول التموين والضروريات إليه .

وبنجاح معز الدولة في إخضاع العراق ، أصبحت للبويهيين ثلاث ممالك واسعة غنية بمواردها الطبيعية والبشرية ، متصل بعضها مع بعض بحيث تشكل كل واحدة منها عمقا وامتدادا لقرينتيها . وقد تمتعت هذه الممالك البويهية التي شملت بلاد فارس ، وبلاد الجبال ، بالإضافة إلى العراق ، تمتعت وتمتع سكانها ، بمستوى حضاري هو الأرفع بالنسبة لذلك العصر ، وشملت مدنا مهمة مثل بغداد والري وهمذان

وإصبهان والبصرة ، وشيراز والموصل ، وغيرها كثير . وفي عهد المؤسسين : علي وحسن وأحمد ، ظلت الكلمة واحدة ، والتعاون والتعاضد قاعدة في العلاقات البينية يستندون إليها . وسنركز النظر خلال هذا الفصل على المملكة البويهية في العراق ، مع الإشارة إلى المناطق الأخرى حسب مقتضيات البحث كلما كان ذلك ضروريا ومناسبا .

تطور أوضاع العراق في ظل البويهيين:

خلال استعراضنا لأحداث دار الخلافة في المرحلة السابقة – خاصة من عهد المقتدر إلى عهد المستكفي – حددنا القوى التي شغلت المسرح السياسي والعسكري بتحركاتها وصراعاتها . لكن الوضع في العهد البويهي لم يبق كما كان في الفترة السابقة بالنسبة للقوى المشاركة والمؤثرة في الحراك االسياسي ،لقد اختفت بعض العناصر التي كان لها تأثير بارز في الفترة السابقة ، كما لحق التطور درجة الأهمية التي لعناصر أخرى . وقد بدا أن اللاعبين الرئيسيين الجدد على المسرح هم :

(أ) الملوك من بني بويه
(ب) ولاة بعض الأقاليم
(ت) القادة العسكريون وجماعات الجند
(ث) الوزراء وكبار الإداريين .

لقد بدأ الحكم البويهي في العراق قويا ثابت البنيان ، فاختفى الصراع الذي كان ينشب بين قادة الجند من حين لآخر في فترة الفوضى والصراعات في دار الخلافة ، بل إن لقب ومنصب أمير الأمراء اختفى من الناحية الفعلية ، على الرغم من أن الخليفة المستكفي خلعه على الفاتح الجديد ، أحمد بن بويه ، توهما منه بأن وصول معز الدولة إلى بغداد وسيطرته عليها يشبه فعل السابقين من قادة الجند ، أمثال محمد بن رائق ، والحسن بن عبدالله بن حمدان ، وبجكم ، وتوزون ، وكورتكين . وقد استمر الاستقرار والسلام البويهي طوال عهد الإخوة الثلاثة المؤسسين في إطار القيم العائلية للأسرة البويهية ، وهي قيم كانوا متمسكين بها أشد التمسك .

تلاشي دور الخلافة والحاشية:

بعد أقل من شهرين من استيلائه على بغداد قدم معز الدولة إلى مجلس الخليفة ، وقبل الأرض بين يديه ، وقبل يده ، وجلس والمكان غاص بعلية القوم . ثم تقدم جنديان ديلميان من أتباعه نحو الخليفة ، ومدا أيديهما إليه ، فتوهم أنهما أرادا تقبيل يده ، فمدها إليهما ، فما كان منهما إلا أن جذباه عن «سريره ، وجعلا عمامته في حلقه . ونهض معز الدولة ، واضطرب الناس ، ونهبت الأموال . وساق الديلميان المستكفي بالله ماشيا إلى دار معز الدولة ، فاعتقل بها ، ونهبت دار الخلافة حتى لم يبق بها شئ ، وقبض على أبي أحمد الشيرازي (كاتب المستكفي) ، وأخذت علم القهرمانة (مديرة القصر) فقطع لسانها[1] .» ثم إن معز الدولة استدعى الفضل بن المقتدر ، وأمر بتعيينه في منصب الخلافة ، فأخذت له البيعة ، ولقب بـ «المطيع لله .» وقد حدد للخليفة الجديد مخصصات يومية بمقدار ألفي درهم . وأثناء عمليه استبدال الخليفة هذه جرى سمل عيني سلفه (الخليفة المستكفي) بأمر من معز الدولة . وبهذه الحادثة انتهى الدور الذي كان لأفراد حاشية الخليفة ، كما انتهى دور الخليفة نفسه . ويبدو أن المطيع كان مطيعا للملوك البويهيين فعلا ، ولذلك فقد ظل في منصبه تسعا وعشرين سنة وأشهرا دون أن يسبب لهم أي إزعاج ؛ ولم يجر إسقاطه إلا بعد أن أصيب بشلل نصفي سنة ٣٦٣هـ ؛ وإذ ذاك خلع ، وأحل مكانه ابنه (الطائع) ، فكان مثل أبيه . والطائع هو أبو بكر ابن المطيع ؛ وكان عمره يوم تولى الخلافة ثلاثا وأربعين سنة . وقد مكث في منصبه ثماني عشرة سنة انتهت بخلعه عندما تجرأ على حبس رجل من أتباع الملك البويهي بهاء الدولة . ويبدو أنه لم يكن يعرف ، أو لم يتنبه في وقتها ، إلى أن الرجل كان من أتباع الملك . ومن المفيد أن ننقل كيفية تنفيذ أجراء الخلع ، كما روته المصادر : فقد جاء بهاء الدولة (الملك البويهي صاحب العلاقة) إلى مجلس الخليفة الطائع سنة ٣٨١هـ ، فلما اقترب من الخليفة «قبل الأرض وجلس على كرسي ، وتقدم أصحاب بهاء الدولة فجذبوا الطائع من سريره ، فتكاثر الديلم ولفوه في كساء ، وأصعد إلى دار السلطنة . وارتج البلد . . . وأجبر الخليفة المهان على خلع نفسه وتسليم منصبه إلى القادر ، وشهد عليه الأكابر والأشراف ، وذلك في

---

(١) إبن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٨ ، ص ٤٥٠ – ٤٥١ ؛ وانظر أبو الفدا ابن كثير ، ***البداية والنهاية*** ، ج ١١ ، ص ٢١٢ .

١٩ شعبان[١] . . .» من تلك السنة ، ٣٨١هـ/٩٨٨م . أما القادر ، الخليفة الجديد ، فقد ظل في منصب الخلافة حتى وفاته سنة ٤٢٢ هـ/ـ١٠٣١م ، وهي مدة تزيد على إحدى وأربعين سنة ؛ وقد تولى بعده ابنه (القائم بأمر الله) أبو جعفر عبدالله بن القادر ؛ وقد شهد هذا الخليفة نهاية السيطرة البويهية سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م ، حين وصل السلاجقة إلى مدينة السلام ، وأنهوا الحكم البويهي .

ولعل القارئ يلاحظ أننا مررنا سريعا على سني ولايات هؤلاء الخلفاء الأربعة : المطيع والطائع والقادر والقائم ، على الرغم من أنها بلغت مائة وثلاث عشرة سنة تقريبا ، إذ لم نجد فيها ما يستحق الذكر . ومما يثير السخرية تلك المشاهد العبثية التي كان الملك البويهي يأتي فيها بأعمال توهم بأنه يعامل الخليفة بأقصى درجات الاحترام ، حين يقبل الأرض بين يديه ، ثم يقبل يده ، وقد يقبل رجله ، ويبالغ في ذلك متجاوزا حدود المقبول والمعقول في المنظور الإسلامي ، ثم يتبين أن ذلك كله كان خلوا من أية درجة من الصدق أو الجد .

وقد تميزت في حياة الحكم البويهي في العراق مرحلتان يبدو الفرق بينهما واضحا كل الوضوح . في المرحلة الأولى كانت القوة البويهية موحدة ، ومركز السيطرة واحدا ؛ أما في المرحلة الثانية فقد بدأ التصدع والانشقاقات بصورة عنيفة ، حيث حارب الإخوة بعضهم بعضا ، وكذلك فعل أبناء العمومة . فلو عدنا إلى السنوات الأولى من ظهور البويهيين على المسرح ، خاصة بعد أن استولى علي بن بويه على شيراز سنة ٣٢٢هـ واتخذها عاصمة للقوة البويهية الناشئة ، نجد أن عليا كان رئيس البيت البويهي بحكم سنه وخبرته وقدراته المتميزة بالنسبة لأخويه . وبعد ست عشرة سنة ، أي سنة ٣٣٨هـ ، بدأت تساور عليا الهموم بشأن مستقبل الملك البويهي والأسرة البويهية نفسها بعد أن يدركه الموت ، سيما وأنه لم يخلف ولدا ذكرا يخلفه في الزعامة . ومما زاد من مخاوفه أنه لم يكن يأمن كبراء قادة الديلم أن يطمعوا في انتزاع الملك من بني بويه . ولذا فقد اتصل بأخيه ركن الدولة ، ملك بلاد الجبال ، وطلب منه أن يبعث له بابنه فناخسرو (عضد الدولة فيما بعد) ليكون وريثه في حال وفاته ، وليرتب أمر انتقال السلطة له بيسر ، ومن غير مشاكل . وقد تمت تلك

(١) السيوطي ، ***تاريخ الخلفاء*** ، ص ٤١٠ – ٤١١ .

الإجراءات كلها قبل وفاة علي بن بويه [١] سنة ٣٣٨هـ/٩٤٩م . بيد أن كل هذا الحرص وهذه الإجراءات التي رتبها زعيم البيت البويهي لم تحل دون سقوط الأسرة البويهية في حمأة الصراعات العائلية . وقد حدث أول انشقاق خطير في الأسرة سنة ٣٦٤هـ عندما دخل عضد الدولة في حرب مع ابن عمه بختيار بن معز الدولة واستولى على العراق . ولما علم ركن الدولة (حسن ابن بويه) بما فعله ابنه عضد الدولة أصيب بصدمة شديدة ، فألقى بنفسه من سريره إلى الأرض ، وامتنع عن الطعام والشراب ، ومرض مرضه الذي كانت فيه وفاته . وهكذا وجد عضد الدولة نفسه مضطرا إلى الانسحاب من العراق ، والإفراج عن بختيار والسماح له بالعودة إلى دار ملكه . وهكذا نجد أن الجيل الأول من حكام بني بويه كان الأكثر التزاما بقيم العائلة ، وبوقف أي تعد عليها مهما كلف ذلك من ثمن ، حتى عندما جاء التعدي من عضد الدولة (فناخسرو) ؛ وكان الذي وقف في وجهه بصلابة ، وضغط عليه أشد الضغط هو والده [٢] حسن بن بويه (ركن الدولة) . وقد واجه عضد الدولة كثيرا من المشاكل على أثر ما عرف من غضب والده عليه ، بيد أنه تدارك الأمر قبل فوات الأوان ، حيث اتصل بأبي الفتح ابن العميد – الذي كان وزيرا لوالده – لكي يعمل الوزير على إزالة ما في نفس الوالد ، ثم يقنعه بأن يعهد إليه بالملك من بعده . وعندما نجحت مساعي الوزير أقام حفلا كبيرا في إصبهان حضره ركن الدولة وجميع أولاده ، كما حضره القادة العسكريون وكبار الديلم ، وفيه أعلن ركن الدولة أمام الحفل الكبير أنه يعهد إلى ولده فناخسرو (عضد الدولة) بالملك من بعده . أما ولده علي (فخر الدولة) ، فقد جعل له همدان وأعمال الجبل ، بينما جعل لابنه الآخر (مؤيد الدولة) إصبهان وأعمالها . وهكذا حدد انتقال رئاسة البيت البويهي لابنه الأكبر ، وقسم أقاليم مملكته بين أبنائه ، لكنه لم ينس أن يؤكد تبعية فخر الدولة ومؤيد الدولة لأخيهماعضد الدولة ؛ وما لبث ركن الدولة أن عاد إلى الري ، لتدركه الوفاة بعد ذلك بقليل[٣] .

وبغياب ركن الدولة ، الذي كان صمام أمان بالنسبة لوحدة البيت البويهي ،

---

(١) مسكويه ، مجلد ٢ ، ص ١٢١ ؛ وقارن مع إبن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٨ ، ص ٤٨٢ – ٤٨٣ .

(٢) إبن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٨ ، ص ٦٤٨ – ٦٥٥ .

(٣) ***المصدر نفسه*** ، مجلد ٨ ، ص ٦٦٩ – ٦٧٠ .

اندلع الصراع مجددا بين عضد الدولة وابن عمه بختيار ، ملك العراق . ذلك أن بختيار – على ما يبدو – لم ينس ما كان حدث له على يد عضد الدولة ، ولذا فقد أخذ يقيم التحالفات مع مختلف القوى استعدادا لحربه المقبلة ضده . ولما ظن أنه استوثق من وقوف أولئك الحلفاء بجانبه في الصراع الوشيك زحف بقوته إلى واسط ومعه وزيره ومستشاره ابن بقية . غير أنه لم يلبث أن قبض على وزيره لأنه كان أهمله وانفرد بتسيير شئون العراق ، «وجبى الأموال إلى نفسه ولم يوصل إليه منها شيئا[1] .» ولم يجد عضد الدولة صعوبة في الاستيلاء على العراق ، وقتل وزير بختيار بإلقائه تحت أقدام الفيلة ، ثم ألحق به بختيار نفسه . وهكذا خلص له حكم العراق دون منازع ، بيد أن فترة حكمه لم تزد عن خمس سنوات تقريبا ، حيث أدركته الوفاة سنة ٣٧٢هـ .

البويهيون بعد عضد الدولة:

وقد انتقل الحكم بعد عضد الدولة إلى ولده أبي كاليجار المرزبان . وكان كبار رجال الدولة قد تكتموا على خبر وفاة سيدهم أملا في أن يمر التغيير بسلام ، ومن غير مشاكل تقود إلى الحروب والنزاعات . وقد وجهت إلى المرزبان رسالة باسم والده تدعوه إلى الحضور – من غير أن يعلم بما جرى لوالده – فلما حل في القصر علم بالخبر ، وبأنه صار الملك محل أبيه . وبجانب ذلك فقد تم تعيين أخيه أحمد بن عضد الدولة ليكون نائبا عنه في بلاد فارس وأعمالها . وقد وجهت رسالة إلى الخليفة الطائع لإصدار الاعتماد الشرعي الشكلي لهذه التعيينات ، مع ما كان يصاحب الاعتماد والتقليد من اللواء والخلع والألقاب . ولم يكن في وسع الخليفة أن يتأخر في تلبية هذه الطلبات . وهكذا صار الملك البويهي الجديد يحمل لقب «صمصام الدولة» . وفي الوقت نفسه خلع على أخوي الملك – وهما أحمد وفيروزشاه ، ثم توجها إلى شيراز ليكون أحمد نائبا لصمصام الدولة فيها وحاكما على بلاد فارس[2] .

وقبل أن يجف تراب قبر عضد الدولة اندلع الصراع بين أولاده ؛ إذ عندما وصل

---

(١) *المصدر نفسه* ، ص ٦٧٢ .

(٢) أبو شجاع ، *ذيل تجارب الأمم* ، ص ٧٧ – ٧٨ .

الخبر إلى أبي الفوارس شيرزل – وهو في كرمان – أخذ زمام المبادرة ، واعتمد التكتم والسرعة في التنفيذ ، فتمكن من الوصول إلى شيراز ، عاصمة إقليم فارس والاستيلاء عليها قبل وصول أخويه أحمد وفيروزشاه . ووصل الخبر إلى الأخوين وهما في أرجان ، فتوقفا عن مواصلة السفر إلى شيراز رغم اقترابهما منها ، وما لبثا أن عادا إلى الأهواز . وهنا أيضا أعلن أحمد استيلاءه على الأهواز واستقلاله عن أخيه صمصام الدولة ، وأمر خطباء المساجد بأن يكون الدعاء له على المنابر في شعائر صلوات الجمعة . وفضلا عن ذلك فقد لقب نفسه بـ «تاج الدولة .» وهكذا صار ثلاثة من أولاد عضد الدولة يحملون ألقابا ملكية ، ويقف كل منهم متحفزا للحرب ضد أخويه .

وانزعج صمصام الدولة عندما وصلت هذه الأخبار إلى بغداد وسارع بإرسال جيش أمر عليه قائدا اسمه علي بن دبعش – وكان حاجب أبيه – ليضع حدا لهذا التمرد المزدوج قبل أن يستفحل ويستعصي . وكان طبيعيا أن يبدأ بأخيه أحمد في الأهواز القريبة قبل أن يفكر في شيراز البعيدة . أما أحمد فقد كلف شيخ قبيلة عربية من بني أسد ، وهو دبيس بن عفيف الأسدي ، بالتصدي للجيش الزاحف من بغداد . وتمكن بنو أسد من هزيمة جيش صمصام الدولة وأسر الحاجب على بن دبعش . وبهذا النصر السهل الذي حصل عليه أحمد غنم أموالا كثيرة تقوى بها ، فالتحق به عدد كبير من الجنود المرتزقة ، وتقدم نحو البصرة فاستولى عليها ، وعين أخاه فيروز شاه نائبا عنه فيها ، وأعطاه لقب «ضياء الدولة» ؛ ومنذئذ صار يفكر في الزحف على بغداد وانتزاعها من يد أخيه الأكبر صمصام الدولة[(١)] .

ولم ينتظر شرف الدولة تطور الأحداث ليجد نفسه محكوما بنتائجها من غير أن يكون له الخيار ، ولذلك نجده يتحرك سنة **٣٧٥هـ/٩٨٥م** من قاعدته في شيراز فيتمكن من السيطرة على إقليم الأهواز الغني بثرواته والفائق الأهمية . ولم يكتف بذلك بل راقب ردود الفعل ، على ما يبدو ، ثم اندفع بقفزة أخرى فاستولى على مدينة البصرة ذات الأهمية البالغة . وهكذا اشتد التوتر بينه وبين أخيه صمصام الدولة ملك العراق . بيد أن الطرفين مالا إلى المصالحة ، وتم الاتفاق بينهما على أن

---

(١) ***المصدر نفسه*** ، ص ٧٨ – ٨– ؛ وانظر إبن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٩ ، ص ٢٢ – ٢٣ ، مع الأخذ بعين الاعتبار أن نص ابن الأثير فيه شيء من الإضطراب .

يكون صمصام الدولة نائبا لأخيه شرف الدولة في العراق ، وأن يذكر اسم شرف الدولة أولا – في شعائر صلاة الجمعة في مساجد العراق – ثم يذكر اسم صمصام الدولة تاليا . ولإعطاء الاتفاق صدقية أكبر ، ونوعا من التوثيق ، فقد طلب من الخليفة أن يعتمده ويعلن تأييده له بالطرق المتبعة ، ففعل . ومن الواضح أن شرف الدولة تمكن من قلب الترتيبات التي أعدها كبار مساعدي والده قبيل وفاته سنة ٣٧٢ هـ ، وفرض على أخيه صمصام الدولة أن يتنازل له عن المركز الأول في أمبراطورية البويهيين ، ويقنع بالمركز التالي . ولا مراء في أن هذا التطور قد عكس موازين القوى ، وتناسب مع القدرات التي كان يتمتع بها كل من الأخوين . ومهما يكن من أمر ، فإن اتفاق شرف الدولة وصمصام الدولة لم يكن نهاية المطاف ؛ ذلك أن شرف الدولة لم يقنع بما حصل في يديه من السلطة ، أو لعله شعر بعجز أخيه عن إدارة شئون العراق بطريقة صحيحة وناجحة ، فلذلك نجده يتجاهل اتفاق سنة ٣٧٥هـ ، ويستجيب للإغراء الذي كان يمثله العراق بثرواته وبأهميته السياسية والجغرافية (أو الجيوسياسية) ويزحف على العراق ليسيطر عليه وعلى دار الخلافة سنة ٣٧٦هـ/٩٨٦م . أما صمصام الدولة فقد أمر بوضعه رهن الاعتقال ، على الرغم من أن معاونيه ظلوا يحرضونه على قتله . فلما مرض شرف الدولة خاف أولئك المعاونون من أن يموت سيدهم فيفلت صمصام الدولة من معتقله فينتقم منهم ؛ ولذا فقد كرروا القول وألحوا لحمل شرف الدولة على قتل أخيه ، أو الأمر بسمل عينيه على الأقل حتى يأمنوا شر انتقامه ، ويأمن ذلك أيضا أبناء شرف الدولة . وهنا استجاب شرف الدولة وأمر بسمل عيني أخيه المعتقل . ولم يكد خبر موت شرف الدولة ينتشر حتى ارتخى النظام الأمني الذي أقامه ، وأطلق حراس السجن سراح صمصام الدولة وسراح أخيه ، فتوجها إلى مدينة سيراف ، المركز التجاري المشهور على الساحل الفارسي للخليج . وحل بهاء الدولة بن عضد الدولة في منصب أخيه شرف الدولة ، وخلع عليه الخليفة الطائع ، وأجرى له مراسيم التقليد على النحو المعتاد[١] . لكن هذه الترتيبات التلقائية والسريعة ما كانت لتستمر إلا إذا كانت معبرة في تركيبها وهيكليتها عن ميزان القوى على أرض الواقع .

---

(١) إبن الأثير ، *الكامل* ، مجلد ٩ ، ص ٤٨ و٦١و٦٣ .

ويبدو أن العيون المتطلعة لافتراس العراق كانت كثيرة ؛ وكان أحد أولئك المتطلعين إلى بغداد الصاحب بن عباد ، وزير فخر الدولة ، ملك بلاد الجبال . وكان الصاحب يرصد تطورات الوضع في بغداد لاقتناص الفرصة المناسبة . وجاءت وفاة شرف الدولة فرأى الوزير أن الفرصة أصبحت متاحة ؛ وإذ ذاك أخذ يحرك الموقف ، ويعمل على إثارة اهتمام سيده بالمشروع قبل فوات الأوان . ومع ذلك فقد كان الوزير حذرا من احتمال الفشل ، فلم يضع نفسه في الواجهة ، بل لجأ إلى استخدام أشخاص آخرين قريبين من أذن فخر الدولة ، يزينون له أخذ العراق والسيطرة على دار الخلافة . ولما سأل الملك وزيره عن رأيه لم يبد اعتراضا ، بل شجعه على المضي فيه من غير أن يظهر تحمسا لذلك .

وهكذا تجهز فخر الدولة وأتم استعداداته لغزو العراق ، وتحرك بقواته متجها إلى همذان ، توطئة للزحف على بغداد . وقد انضم إلى حملته الزعيم الكردي بدر ابن حسنويه ، كما انضم إلى الحملة أيضا دبيس ابن عفيف الأسدي ، شيخ بني أسد . وفي همذان تقرر أن يسير الوزير ، الصاحب ابن عباد ومعه القوة الرئيسية لجيش فخر الدولة منطلقا من همذان إلى بغداد ، على الطريق الرئيس ، بينما يقود الملك بقية القوات ليستولي بها على إقليم خوزستان في الجنوب ، ثم ينطلق من هناك في اتجاه بغداد لتلتقي القوتان على مشارفها . ويبدو أن فخر الدولة كان ضعيف الرأي ، سماعا ومتأثرا بالآخرين أكثر من قدرته على اتخاذ قرارات مستقلة ؛ فقد أثار بعض الوشاة شكوك الملك في وزيره الصاحب بن عباد ، وخوفوه من أن يكون أولاد عضد الدولة قد استمالوه إلى صفهم . وتأثر فخر الدولة بهذا الدس ، وعدل عن الخطة الأولى ، واستدعى وزيره لينضم إليه في الزحف على الأهواز ، التي ما لبثت أن سقطت في يده بيسر وسهولة . غير أن شخصية فخر الدولة الضعيفة المترددة لم تكن أهلا للتفوق في صراع السلطة الهائل الذي بات – آنئذ – وشيكا ، وبدأت بوادر الفشل في الأهواز . فقد توقع الجند المنهزمون أن يقدم لهم القائد المنتصر الأموال لينضموا إلى صفوف قواته ، بينما توقع جنده الذين أحرزوا النصر أن يعطيهم المكافأة على دورهم فيما حققوه من إنجاز . لكن الملك خيب ظنون هؤلاء وأولئك ، فأحبطوا جميعا وسيطرت عليهم روح التخاذل واليأس . هذا بينما كان الوزير ابن عباد يتجرع غصص ما دار حوله من شكوك ؛ وكان طبيعيا أن يلتزم الصمت ، ويمتنع عن المبادرة بالنصيحة . وزاد الطين بلة عندما فاضت مياه دجلة وأدى فيضانها إلى تفجر بعض

السدود ، وانغمرت الأراضي القريبة من قوات فخر الدولة بالمياه ، فظن الجند أن العدو (قوات بغداد) هو الذي دبر لهم هذه المكيدة ليغرقهم ؛ وإذ ذاك أصابهم الذعر والفزع ، ففروا منهزمين . وأصاب القلق فخر الدولة نفسه ، فعاد يسعى إلى نصيحة وزيره . وقد أشار عليه ابن عباد بالتوقف عن الإساءة إلى الجند ، وشجعه على تفريق الأموال عليهم ليستعيد ولاءهم وثقتهم وحماستهم لمناصرته ، ووعده بأنه - إن فعل ذلك - فإنه ، أي الوزير ، يضمن له استعادة أضعاف الأموال المصروفة بعد سنة واحدة . لكن الملك كان ضنينا بالمال ، بشكل مبالغ فيه بمقاييس ذلك العصر ، فتفرق عنه كثير من عساكر الأهواز الذين كانت قواته قد هزمتهم في البداية ، وتعقدت المشاكل ، فاضطر إلى الرحيل عن الأهواز والعودة إلى عاصمته ، الري . وبينما هو في الطريق قبض على عدد من قواد جنده الرازيين . أما إقليم الأهواز الغني بثرواته المائية والزراعية والصناعية والتجارية فقد استعادت قوات بهاء الدولة السيطرة عليه[1] .

بهاء الدولة يطمع في بلاد فارس:

ويبدو أن بهاء الدولة قد تشجع باندحار قوات عمه فخر الدولة وفشل الحملة التي قادها لاحتلال العراق ، واعتبر أن تحرك عمه العدواني ثم فشله يمكن أن يكون مبررا في نظر الناس ، يسمح له بالتحرك للتوسع ، ما دام الباب أصبح مفتوحا لمثل هذا السلوك في العلاقات بين البويهيين . وقد اختار بهاء الدولة هدفه وحدده بالاستيلاء على بلاد فارس ، وانتزاعها من أخيه صمصام الدولة . وقبل أن يغادر بغداد سنة ٣٨٠هـ عين نائبا له فيها هو أبو نصر خواذشاه . ثم سار بحملته فمر بالبصرة واجتازها متجها إلى خوزستنان ، وانطلق بعدها إلى أرجان فاستولى عليها وأخذ ما فيها من الأموال ، حيث بلغ مقدار ما استولى عليه مليون دينار ، وثمانية ملايين درهم ؛ فضلا عن كميات كبيرة من الثياب والجواهر تفوق الحصر ، حسب قول المصادر . وعندما عرف الجند حصول ملكهم على هذه ا لأموال شرهت نفوسهم لها واشتد بهم الطمع فيها ، فأحدثوا شغبا واضطرابا متصلا لا يتوقف ، إلى أن اضطر الملك بهاء الدولة إلى تفريق معظم المال الذي غنمه عليهم ، ليرضيهم . وعندما وصلت الأمور إلى هذا الحد كان صمصام الدولة قد أتم استعداداته لمواجهة قوات

---

(١) إبن الأثير ، *الكامل* ، مجلد ٩ ، ص ٦٤ - ٦٥ .

أخيه ، ووقعت بين الفريقين معارك وصدامات كثيرة لم تؤد إلى حسم الموقف لصالح أي منهما ، إلا أن قوات بهاء الدولة منيت بعدة هزائم متتابعة فاضطر إلى قبول المصالحة ، وتم الاتفاق على أن تكون أرجان وبلاد فارس لصمصام الدولة ، بينما يكون العراق وخوزستان لبهاء الدولة (١) .

الحالة في بغداد :

وأثناء غياب بهاء الدولة في حملته الفارسية الفاشلة سنة ٣٨٠هـ انتشرت الفوضى في «مدينة السلام» ، واشتد نشاط العيارين (٢) في جانبي بغداد ، وتفجرت الصدامات بين السنة والشيعة التي أدت إلى سقوط الكثيرين من القتلى ، وفقدت السلطة السيطرة على الوضع العام ، وإحرقت عدة أحياء ، «ونهبت الأموال ، وأخربت المساكن ، ودام ذلك عدة شهور ، إلى أن عاد بهاء الدولة إلى بغداد (٣) .

لم تكن عودة الملك نهاية لمشاكله ولا لمشاكل المجتمع البغدادي ، والعراقي بصفة عامة ؛ فبجانب ما كان يعانيه من مشاعر الإحباط فقد كانت تحاصرة كثير من الهموم ؛ وكانت أكثر مشاكله إلحاحا حاجته الماسة إلى المال ؛ ففضلا عن أن حربه الفاشلة في بلاد فارس استنفدت أمواله وأفرغت خزائنه فقد وجد نفسه في مواجهة مطالب الجند بالمال ، بغض النظر عما إذا كانت المطالبات تتعلق بمستحقات متأخرة ، أم لممارسة الإبتزاز ، كما جرت عادة الجند في ذلك العصر . وتطلع الملك حولة بحثا عن المال فلم يجد أمامه سوى وزيره أبي نصر سابور ، فاعتقله وصادر أمواله ، كما اعتقل أبا نصر خواذشاه الذي كان عينه نائبا عنه في بغداد قبيل خروجه في حملته على بلاد فارس . لكن كل ما حصل عليه لم يف بالاحتياجات الضخمة لتلبية مطالب الجند ، أو بعض مطالبهم . وهنا نصحه أحد مستشاريه بالقبض على الخليفة

---

(١) ***المصدر نفسه*** ، مجلد ٩ ، ص ٧٥ -- ص ٧٥ - ٧٦ .

(٢) العيارون : أشخاص ومجموعات ظهرت في بعض المدن الكبيرة في عالم الإسلام ، خاصة في فترات الإضطراب والفوضى ، تمارس النهب المسلح ، أو السرقة ، وأحيانا تعبر عن الطبقات المسحوقة المعدمة بما كانت تمارسه من العنف ضد الظلمة والموسرين والمتجبرين . وكانت النظرة إلى العيارين تتراوح - في نظر الطبقات الشعبية - بين اعتبارهم نهابين لصوصا ، أو أبطالا شعبيين .

(٣) إبن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٩ ، ص ٧٦ .

«الطائع لله» وحرك طمعه في ماله ، وأقنعه بأن ذلك لن يكلفه شيئا ولن يثير له أية مشكلة . وهكذا قبض الملك البويهي على الخليفة سنة ٣٨١هـ ، ونهب كل ما وجده له من مال ، كما نهب كل ما في دار ا لخلافة من الأشياء القيمة . وفي جو عدم الثقة ، وتحت ظلال الهزيمة والفشل الذي عانته السلطة وكابده المجتمع البغدادي ، اتسعت موجة النهب خارج نطاق السلطة ، وخارج إمكانات السيطرة ، فنهب الناس بعضهم بعضا ، وكان الشريف الرضي أحد ضحايا النهابين . أما عن منصب الخلافة فلم يجد بهاء الدولة صعوبة في جلب أحد العباسيين المتهافتين عليها ، فعينه خليفة ، حيث اختار الخليفة الجديد لنفسه لقب «القادر بالله .» وحلف الملك البويهي على الإخلاص للخليفة – كما كان أسلافه يفعلون – وحلف القادر على الإخلاص للملك ، وأعلن «أنه قد قلده كل ما وراء بابه ،» أي فوضه السلطة والحكم على كل ما هو خارج باب دار الخلافة[١] . ولقد امتدت الحياة ببهاء الدولة عشرين سنة أخرى (توفي سنة ٤٠٣هـ) ظل الصراع فيها يتجدد بينه وبين أخيه صمصام الدولة ، وتكرر تبادل النصر والهزيمة ، وتبادل الأقاليم التي كانت موضوع الصراع ، تبادلا من خلال المعارك والعنف ، إلى أن قتل صمصام الدولة نفسه سنة ٣٨٨هـ . وجاء قتل صمصام الدولة انتقاما لقيام والده بقتل بختيار ابن معز الدولة .

وعندما توفي بهاء الدولة سنة ٤٠٣هـ خلفه في الحكم ابنه أبو شجاع سلطان الدولة الذي فضل أن يحكم من شيراز ، ويعين نائبا عنه في بغداد لحكم العراق . وظل العراق يحكم عن طريق نائب للملك حتى سنة ٤١١هـ . وتحت ضغط من شغب الجند اضطر سلطان الدولة لتعيين أخيه مشرف الدولة ملكا على العراق ؛ وما لبث الأخوان إلا قليلا حتى اشتبكا في حرب كان النصر فيها لمشرف الدولة ؛ وإذ ذاك خطب له في مساجد العراق سنة ٤١٢هـ ، وقطعت خطبة سلطان الدولة . ثم تصالح الأخوان على أن يكون العراق كله لمشرف الدولة ، وفارس وكرمان لسلطان الدولة . لكن الأخوين لم يعمرا طويلا بعد ذلك الصلح ؛ فقد توفي سلطان الدولة سنة ٤١٥هـ ، بينما توفي مشرف الدولة في السنة التالية لوفاة أخيه . وبعد وفاة سلطان الدولة خلفه ابنه أبو كاليجار المرزبان ، الذي توفي بدوره سنة ٤٤٧ هـ/١٠٥٥ ، مع زوال البويهيين نهائيا من مسرح الأحداث .

---

(١) ***المصدر نفسه*** ، ص ٩١ وانظر ص ٨٠ – ٨٢ .

وقد أحجمت عن عرض تفاصيل أوسع عن هذه الفترة الأخيرة من العهد البويهي في العراق ، مكتفيا بهذه النبذة المركزة والمختصرة جدا إذ لن يجد القارئ في تفاصيلها إلا التكرار الممل وصورا معادة لا جديد فيها . لقد كان البويهيون إحدى القوى الكثيرة التي نبتت في أراضي دولة الخلافة بعد انهيار نظامها ، وكانت أهميتها التي استدعتنا لدراستها بهذا الشكل الموجز أنها سيطرت على العراق ، قلب الدولة الإسلامية ، وقلب الأمة ومركز الخلافة في ذلك العصر ، وكانت الفترة البويهية مرحلة مهمة من مراحل الإنحدار .

الفصل التاسع

الخلافة في سجن السلاجقة

ظهور السلاجقة في المشرق:

وبينما يعاني سكان العراق وتعاني الخلافة من هذه الفوضى ، ومن موجات التخريب والقتل في المرحلة الأخيرة من العهد البويهي ظهرت في الشرق قوة جديدة تمكنت من تثبيت أقدامها في منطقة خراسان . تلك هي قوة السلاجقة . وينسب السلاجقة إلى جدهم سلجوق بن تقاق (دقاق؟) . وقد ترك سلجوق من الأولاد أرسلان وميكائيل وموسى . وقد قتل ميكائيل في احدى غزواته ، وخلف من الأولاد بيغو وطغرلبك وجغري بك . وقد أطاعت العشائر التركية أولاد ميكائيل [١] .

وكان السلاجقة من القبائل والشعوب التركية التي عاشت حياة البداوة والترحال في سهوب وسط آسيا ، وكان أغلبهم من الرعاة . وقد بدأت جماعات من تلك الشعوب تتسرب بالتدريج إلى منطقة الحدود الشمالية الشرقية لعالم الإسلام ، جنوب شرقي بحر قزوين في وقت مبكر ربما سبق ظهور الإسلام . ويبدو أن عملية الانتشار التركي المتدرجة هذه استغرقت وقتا طويلا . والمعلومات الموثقة عنها تكاد تكون معدومة . وكان السلاجقة إحدى هذه الجماعات التركية المتسربة[٢] . وبغض النظر عن تفاصيل الروايات الإسلامية التي يمكن أن يكون بعض مادتها موضع شك فإننا نستطيع القول إن الوجود السلجوقي غدا حقيقة ملموسة منذ أوائل القرن

---

(١) إبن الأثير ، ***الكامل*** ، م ٩ ، ص ٢٧٣-٢٧٤ . ويبدو أن الروايات قد بدأت هنا تدخل نطاق التاريخ وابتعدت عن الأسطورة .

(2) C.E. Bosworth, "Barbarian Incrusions: The Coming of the Turks into the Islamic World," ***Islamic Civilization 950-1150***, A Collocuium Published under the auspices of The Near Eastern History Group, Oxford, and The Near Eastern Center, University Of Pennsylvania (Oxford: Cassirer, 1973), p.1.

الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي .

ولم يكن منتظرا أن ينحصر السلاجقة في منطقة صغيرة من أراضي أقاليم الشرق الإسلامي ويستقروا فيها ، وذلك بحكم طبيعة حياتهم المتسمة بالترحال والتنقل ، وهذا هو شأن المجتمعات الرعوية على مدار التاريخ . ولم تلبث تحركاتهم أن أدخلتهم في حالة صدام مع الدولة الغزنوية التي كانت أكبر قوة إسلامية في تلك الفترة في شرق عالم الإسلام ، وكان مقرها الرئيسي في غزنة ، من أقاليم أفغانستان الحالية . وكانت الدولة الغزنوية قد تعرضت لصراعات بين أبناء الأسرة الحاكمة ، من أجل السلطة ، فانتابها الضعف ، وانتهت إلى السقوط ، خاصة بعد دخولها في صراع شامل مع السلاجقة ، الذين خرجوا منه منتصرين ، وتمكنوا من الاستيلاء على مدينة مرو حوالي سنة ٤٢٨هـ / ١٠٣٧م ، وهناك تأسست لهم أول مملكة ، وكان أول ملوكهم داود بن سلجوق الذي لقب نفسه بملك الملوك .[(١)] وفي سنة ٤٣١هـ/١٠٤٠م أنزل السلاجقة بمسعود بن محمود الغزنوى هزيمة ساحقة ، ففر في مائة من أصحابه عائدا إلى غزنة .[(٢)] وبعد هذا الانتصار واصل السلاجقة توسعهم غربا وجنوبا . وفي سنة ٤٣٢هـ/١٠٤١م تمكنوا من السيطرة على جميع أنحاء خراسان ، وأشاعوا القتل في أرجائها .[(٣)] وهكذا أصبحوا قريبين من دار الخلافة ، «على مرمى النظر» ، كما تقول الأمثال الدارجة .

وكانت الخلافة ، كما كان العراق في هذه الفترة خاضعا للبويهيين ، غير أن قوة بني بويه كانت قد وهنت وغلبت عليها الفوضى والصراعات ، ومع ذلك ظلت الخلافة مستذلة وعاجزة . وحيث اصبح السلاجقة قريبين فقد تطلع الخليفة شرقا ، آملا أن يحصل على مساعدتهم لانتشال الخلافة والعراق من براثن الفوضى والصراع ؛ وربما كان مما شجع الخلافة على الاستنجاد بالسلاجقة أنهم كانوا من السنة ، وعلى المذهب الحنفي ، بينما كان البويهيون على المذهب الشيعي الزيدي ، مع أن هذه التبعية المذهبية كان ضعيفة من ناحية الممارسة والالتزام بالنسبة للفريقين ، بل وأقرب إلى الشكلية .

---

(١) ابن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٩ ، ص ٤٨٠ .

(٢) ***المصدر نفسه*** ، ص ٤٨٢ - ٤٨٣ .

(٣) أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ، ***المنتظم في تأريخ الملوك والأمم*** (حيدر إباد : مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، ١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠ م) ، مجلد ٨ ، ص ١٠٧ .

وهكذا وجه الخليفة القائم بأمر الله القاضي أبا الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي إلى طغرلبك ، ملك السلاجقة ،وحمله رسالة تتضمن – من بين أمور أخرى – استنكار ما سببه من تخريب في خراسان ، وأمرا « بالاحسان في الرعية . فمضى الماوردي ، وخرج طغرلبك فتلقاه على أربعة فراسخ [١] ، إجلالا لرسالة الخليفة .»[١] «ومن المؤكد أن رسالة الخليفة لم تقتصر على المجاملات ، بل لا بد أن موضوعها الرئيسي كان رغبة الخليفة في الحصول على عون ودعم من السلاجقة[٣] ، خاصة وأن القائد التركي أرسلان البساسيري كان قد اختلف مع الملك البويهي ، فأعلن ميله إلى التعاون مع الفاطميين في مصر ، وكاتب الخليفة الفاطمي ، غير مدرك بأن الدولة الفاطمية كانت قد دخلت مرحلة الذبول والانحدار . بينما كان الهم الأول للسلاجقة هو الحصول على الشرعية باعتراف الخلافة بهم وبمركزهم . ولم يواف شهر رمضان من عام ٤٤٧هـ/١٠٥٥م حتى كان طغرلبك قد حل ببغداد . ومع ذلك فإن علينا أن نلاحظ أن وصول السلاجقة إلى العراق جاء ضمن سياق عملية التوسع السلجوقي التي بدأت منذ أوائل القرن الخامس الهجري ، فكان العراق ودار الخلافة بالذات هي الهدف الأسمى ، أي أنه لم يكن بسبب الإتصالات والمراسلات بين الخلافة والقيادة السلجوقية . ومهما يكن من أمر فقد انتهت مرحلة الغزل ، وتم الزواج ، ووضعت العلاقات الخليفية السلجوقية موضع الاختبار .

الحكم السلجوقي المباشر في العراق

أقبل طغرلبك بجحافله على بغداد فدخلها في الخامس والعشرين من رمضان سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م وكان الخليفة قد أرسل وزيره (رئيس وزرائه) على رأس موكب عظيم لاستقباله . وفي أثناء هذا اللقاء الأول بين الخلافة والسلطنة على هذا المستوى

---

(١) *المصدر نفسه* ، ص ١١٦ ؛ وللإطلاع على دراسة حديثة وموسعة عن سيطرة السلاجقة على خراسان وبلاد فارس واستقرارهم فيها أنظر :

Ann K.S. Lambton, Aspects of Saljuq-Ghuzz Settlement in Persia, Islamic Civilisation 950-1150, Oxford : Brono Cassirer (Publishers) Ltd., l973, pp. 105-125.

(٢) الفرسخ ، وحدة قياس طولي للمساحات والأطوال الأفقية .

(٣) إبن كثير ، *البداية والنهاية* ، ج ١٢ ، ص ٥٨-٥٩ (أحداث سنة ٤٤٧) .

(الرجل الأول من جانب السلطنة مع الرجل الثاني من جانب الخلافة) استحلف الوزير السلطان تأكيدا لإخلاصه للخليفة ، ومن أجل حسن معاملة آخر ملوك بني بويه ، الملقب بالملك الرحيم ، الذي كان استجار بالخليفة عندما علم بزحف السلطان السلجوقي على بغداد ، وقد وعده الخليفة بالحماية .

وفي شهر ذي الحجة من سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٧م استقبل الخليفة السلطان وقال له بلسان وزيره :

«**إن أمير المؤمنين شاكر لسعيك ، حامد لفعلك ، مستأنس بقربك ، وقد ولاك جميع ما ولاه الله عليه من بلاده** ، ورد عليك مراعاة عباده ، فاتق الله فيما ولاك ، واعرف نعمته عليك في ذلك ، واجتهد في نشر العدل وكف الظلم وإصلاح الرعية . وقد خاطبه الخليفة بلقب ملك المشرق والمغرب ، وتسلم العهد بولايته وغادر قصر الخلافة . وما لبث – بعد مغادرته – أن أرسل للخليفة هدايا كثيرة من ضمنها خمسون ألف دينار ، وخمسون مملوكا أتراكا بخيولهم وأسلحتهم ، فضلا عن هدايا ثمينة أخرى[(١)]» .

الخليفة والسلطان:

للوهلة الأولى من قراءة المعلومات المدونة عن هاذا اللقاء الأول بين الخليفة والسلطان ، وما سبقه من اتصالات وتهيئة وترتيبات عن طريق أعوان الخليفة ، تبدو أسس العلاقة بين الجانبين على النحو التالي :

أ – أن الخليفة هو صاحب السلطة ، وهو الذي يملك منحها أو جزءا أو أجزاء منها إلى جهة أخرى .

ب – أن حكم السلطان وسلطاته ما هما إلا منحة وتفويض من الخليفة .

ج – لكن الواقع والمقدمات والممارسات السابقة واللاحقة تثبت أن هذين الفرضين كانا يحظيان بالاعتراف من الناحية النظرية فحسب . أما في حقيقة الأمر ، ومن الناحية العملية ، فقد كان السلاجقة أبعد ما يكونون عن القبول بتطبيق هذا المضمون النظري للسلطة الخليفية . وكما أشرنا من قبل فقد كان وصولهم إلى بغداد استكمالا لحركة توسع وصعود بدأت في العقود الأولى من القرن الخامس

---

(١) إبن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٩ ، ص٦٣٣-٦٣٤

الهجري واستمرت بعد ذلك حتى وصلت إلى نهايتها . إن حصول السلاجقة على الشرعية من خلال اعتراف الخليفة بسلطانهم لم يكن يقوي ويثبت مركزهم بالنسبة لما يقع تحت سيطرتهم فحسب ، بل كان يقوي مركزهم أيضا فيما يرغبون في الاستيلاء عليه في المستقبل . والذي نراه أن الخلافة نفسها لم تكن تعيش في وهم عندما استعملت هذا الأسلوب في صياغة عهد التولية للسلطان السلجوقي ، وإنما كانت تواقة لتحقيق وتثبيت فرضية مرغوبة ، كانت موجودة تاريخيا لكنها لم تعد موجودة ، إذ اندثرت قبل نهاية القرن الثالث الهجري . لقد كانت الخلافة تدرك ان مركز الخليفة الديني واستقرار نظرية حق العباسيين في الخلافة ، في نفوس المسلمين من أهل السنة ، وعدم تصور انتقال الخلافة إلى السلاجقة ، وحاجة هؤلاء إلى اكساب حكمهم وتسلطهم صفة الشرعية الدينية في نظر الشعوب التي انطوت تحت لوائهم ، وفي نظر القوى الإقليمية المنافسة ، كل ذلك هو الذي مكنها ، أي الخلافة العباسية ، من الاستمرار في عهد السلاجقة وعهد البويهيين الذين سبقوهم ، كما كانت تدرك جيدا أنها لا تملك أية قوة عسكرية أو مادية أخرى يمكن أن توفر لها الاستقرار والاستمرار .

السلطان يمارس حقوق السيطرة:

وبعد مقابلة الخليفة له بدأت أوائل خطوات السلطان في ممارسة السلطة الجديدة :

١) تعمير دار المملكة التي كانت للملوك البويهيين توطئة لترسيخ السلطة السلجوقية الرسمية في عاصمة الخلافة ، وفي كل أراضي دولة الخلافة .

٢) تعيين حاكم عسكري لبغداد ، صار يعرف باسم «الشحنة» ؛

٣) التصرف بتضمين الرسوم والعشور والضرائب لأشخاص يدفعون قيمة الضمان لخزينة السلطان ؛ ومن أمثلة ذلك أننا نجد السلطان طغرلبك يعقد ضمان البصرة والأهواز بثلاثمئة ألف وستين ألف دينار لبعض «رجال الأعمال» إن جاز لنا استعمال هذا الاصطلاح الحديث .[1] ثم يضمن واسط بمائتي ألف دينار ، ثم

---

(١) ابن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٩ ، ص ٦١٣ - ٦١٤ .

يضمن البصرة من جديد على ما يبدو[١] . وفي السنة التالية نراه يولي محمود بن الأخرم الخفاجي على الكوفة ، ويضمنه خواص السلطان فيها بأربعة آلاف دينار في السنة بعد صرف واليها السابق .[٢] وفي سنة ٤٥٥ هـ/١٠٦٣م نجد السلطان يعقد «ضمان بغداد على أبي سعيد القايني بمائة وخمسين ألف دينار . . . .[٣]»

٤) تصرف السلطان بالأرض ، حيث قدم أراض عراقية لتكون جزءا من مهر ابنة الخليفة الذي أكرهه أن يزوجه إياها ؛ وكان بعض تلك الأرض مما كان السلطان أهداه لزوجته السابقة قبل وفاتها ؛ أي أنه منح أرضا لزوجته الأولى قبل أن يعقد اتفاقات مع الخليفة .

٥) كما أن إكراه السلطان للخليفة على تزويجه ابنته كان مثلا صارخا من أمثلة التسلط لم يفعله أحد من المتسلطين السابقين .

جدول بسلاطين السلاجقة

١- طغرلبك ، ركن الدين أبو طالب	٤٢٩ - ٤٥٥هـ
٢- ألب أرسلان ، أبو شجاع محمد بن داود	٤٥٥ - ٤٦٥ هـ
٣- ملكشاه ، أبو الفتح بن ألب أرسلان	٤٦٥ - ٤٨٥ هـ
٤- محمود بن ملكشاه بن ألب أرسلان	ت ٤٨٧ هـ [٤]
٥- تتش بن ألب أرسلان	ت ٤٨٨ هـ
٦- بركياروق بن ملكشاه	ت ٤٩٨ هـ
٧- محمد بن ملكشاه	ت ٥١١ هـ
٨- محمود بن محمد بن ملكشاه	ت ٥٢٥ هـ
٩- طغرل بن محمد بن ملكشاه	ت ٥٢٩ هـ

---

(١) ***المصدر نفسه*** ، مجلد ١٠ ، ص ٨ .

(٢) ***المصدر نفسه*** ، ص ١٢ .

(٣) ***المصدر نفسه*** ، ص ٢٥ - ٢٦ .

(٤) اقتصرنا على ذكر مدة حكم السلاطين الذين انفردوا بالحكم وساد في عهدهم استقرار نسبي ، أما الآخرون فقد تداخلت سنوات حكمهم وغلب عليها النزاع والحروب .

١٠- مسعود بن محمد بن ملكشاه ت ٥٤٧ هـ
١١- سنجر بن ملكشاه ت ٥٥٢ هـ
١٢- داود بن محمود بن محمد بن ملكشاه ت؟ هـ [١]
١٣- محمد شاه بن محمود بن محمد بن ملكشاه ت ٥٥٤ هـ
١٤- ملكشاه بن محمود بن محمد بن ملكشاه ت ٥٥٥ هـ
١٥- سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه ت ٥٥٦ هـ
١٦- أرسلان شاه بن طغرل بن محمد بن ملكشاه ت؟ هـ [٢]

الصراع الداخلي بين السلاجقة واندثار إمبراطوريتهم:

لم يدم تماسك الإمبراطورية السلجوقية وقوتها أكثر من سبعة وثلاثين عاما (٤٤٧هـ/١٠٥٥م - ٤٨٥هـ/١٠٩٢م) ، ثم انفرط العقد بعد ذلك فدخلوا في دوامة من الصراع لم تنته إلا بسقوط تلك الإمبراطورية وتمزقها إلى غير رجعة . لقد كانت فترة القوة والوحدة هي تلك التي قاد السلطنة فيها كل من طغرل بك ، وألب أرسلان ، وملكشاه . وعندما مات ملكشاه سنة ٤٨٥هـ ، بعد فترة وجيزة من موت وزيره القوي نظام الملك في نفس السنة ، انفرط العقد . فبمجرد موت السلطان اندفعت زوجته (تركان خاتون) لوضع الترتيبات التي تضمن أن يؤول منصب السلطنة لابنها محمود ، البالغ من العمر خمس سنوات وعشرة أشهر . وكانت من قوة الشكيمة والجلد بحيث استطاعت أن تضبط الجيش وتمنع اللطم والعويل لموت السلطان الراحل لإخفاء خبر موته ، واستخدمت المال لإرضاء الجند وتسكينهم . ومن ناحية أخرى لم تنس أن ترتب الإجراءات والمواقف مع الخليفة المقتدي ليقلد ابنها محمود منصب السلطنة . وربما سهل مهمتها - في المرحلة الأولى - حرص مجموعة قادة الجيش على أن تظل السلطة العليا تحت حمايتهم ، لتظل مصالحهم المادية مضمونة ، ولا تنتقل إلى كتلة عسكرية أخرى . وهكذا دعا خطباء المساجد للسلطان الطفل محمود على المنابر في بغداد ، وأفاض الخليفة عليه الخلع . ويبدو أن المقتدي كان يترقب فرصة ضعف من السلاجقة ليستعيد للخلافة شيئا من هيبتها وسلطتها

---

(١) لم أعثر في المصادر على سنة وفاته .

(٢) لم أعثر في المصادر على سنة وفاته .

الضائعتين ، إذ نراه يبذل قصارى جهده ليكون بيده هو تعيين أمير الجيوش ومتولي شئون العمال وجباية الأموال ؛ وفي المقابل كانت أرملة السلطان الراحل حريصة على أن تكون هذه السلطات من اختصاصات ابنها . والظاهر أن المساومة كانت عنيفة ، فلجأ الخليفة للإستقواء على تلك السيدة العنيدة بالفقهاء لحسم الخلاف بفتوى فقهية ، فأفتى أبو حامد الغزالي بعدم جواز ما تطلبه تركان خاتون ، بينما أفتى فقهاء آخرون بجواز ذلك [١] . وكان الغزالي آنذاك استاذا في المدرسة النظامية ببغداد ، أهم جامعات ذلك العصر . وقد عملت «أم محمود» للقبض على بركياروق ، الأخ الأكبر المنافس لابنها على عرش السلطنة [٢] – وكان من أم ثانية – فنجحت ووضعته قيد الاعتقال . غير أن ترتيباتها ما لبثت أن انهارت عندما شاع خبر موت السلطان ملكشاه ووصل إلى حامية إصبهان فثار جندها (مماليك نظام الملك) الذين تكونت منهم الحامية ، واقتحموا معتقل بركياروق في إصبهان وحرروه ، وأعلنوه سلطانا . وردت تركان خاتون بأن قادت الجيش زاحفة على إصبهان للقضاء على الحركة في مهدها ، لكن القوات الموالية لبركياروق ألحقت الهزيمة بجيش تركان خاتون بعد أن انضم أكثر القادة الذين كانوا معها إلى الجانب الآخر . وهكذا أصبحت تركان خاتون والقوات الموالية لها محاصرة في إصبهان في شهر محرم سنة ٤٨٦ هـ/شباط ١٠٩٣ [٣] .

وفي بلاد الشام ، حيث كان الملك تاج الدولة تتش – أخو السلطان الراحل ملكشاه – واليا عليها ، أعلن أنه الأحق بالعرش من أولاد أخيه القاصرين ، وأصدر أمرا بأن تكون الخطبة في مساجد الجمعة باسمه هو . ثم إنه حرك قواته واستولى على الرحبة ، ودخل في طاعته والي حلب (آقسنقر قسيم الدولة ، والد عمادالدين زنكي) ، كما انضم إليه (بوزان) والي الرها . ثم إن تتش رفع من مستوى تحركاته فطلب من الخليفة أن يقلده السلطنة ، لكن طلبه لم يلق الاستجابة المرغوبة لأن «أمير

---

(١) إبن الجوزي ، مجلد ٩ ، ص ٦٢ – ٦٣ ؛ إبن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد١٠ ، ص ٢١٠ – ٢١٤ .

(٢) وكان من أم ثانيـــة .

(٣) إبن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ١٠ ، ص ٢١٥ ؛ وقد ذكر ابن الجوزي (***المنتظم*** ، مجلد ٩ ، ص ١٤٤) أن تركان خاتون نفسها دبر ت ، أو اشتركت في التدبير لقتل الوزير نظام الملك ، جزاء معارضته لأن يكون ابنها محمود – الطفل – وليا للعهد ، وذلك قبل موت السلطان .

المؤمنين» لم يكن يمتلك حرية التصرف . وفي أواخر تلك السنة (٤٨٦هـ) وصل بركياروق بن ملكشاه إلى بغداد مطالبا الخليفة بأن تكون الخطبة في مساجد بغداد باسمه هو (أي بركياروق) ، وتعهد بدفع مبلغ من المال . وقد تم الاتفاق بالفعل ، وأمر الخليفة كاتب إنشائه بأن يعد العهد لبركياروق فأعده ، وجلس المقتدي يقرأه قبل إعلانه بينما يتناول طعامه ، وقهرمانته شمس النهار قائمة على رأسه ، وإذا به يتلاشى فجأة ويسقط فاقد النطق والحركة . وقد اتهمت القهرمانة بدس السم للخليفة ؛ وذلك أمر محتمل جدا ، سيما في وسط دوامة التآمر والدسائس والصراع الذي عاشته الساحة آنذاك . والمرجح أن هذه المؤامرة - إن صح حدوثها - كانت لصالح تركان خاتون ، أم محمود ، التي كانت ماتزال بإصبهان تواصل مساعيها لاستخلاص السلطنة لابنها الطفل . وفي شعبان من سنة ٤٨٦هـ/١٠٩٣م دعت أحد أمراء السلاجقة ، وهو اسماعيل بن ياقوتي بن داود ، ابن عم ملكشاه ، وخال بركياروق ، دعته إلى اصبهان ، واعدة اياه بأن تتزوج منه وأن تجعل كل السلطات الفعلية بين يديه . وقد استجاب ذلك الأمير للإغراء ، واشتبك مع القوات الموالية لابن أخته في معركة كان نصيبه منها هزيمة منكرة ، حيث فر للاحتماء بأسوار أصبهان . ومع ذلك فقد تلقته تركان خاتون بالاكرام وأمرت بذكر اسمه في خطبة الجمعة بعد اسم ابنها ، كما أنها أمرت بأن يكتب اسمه على النقود . ولكن قادة جيشها عارضوا مشروع الزواج هذا ، واضطروا اسماعيل لمغادرة أصبهان ، فقتله بعض رجال بركياروق [١] . ثم توفيت تركان خاتون «فانحل أمر ابنها محمود بموتها ، وعقد الأمر لبركياروق [٢] . . .» الذي كان قد خطب له بالسلطنة في مساجد بغداد أوائل السنة ذاتها [٣] . وخلال تلك الفترة اندلعت نيران الحرب أيضا بين بركياروق وعمه تتش بن ألب أرسلان قرب أصبهان ، فحلت الهزيمة ببركياروق ، حتى أنه اضطر للجوء إلى أسوار المدينة وهي تحت سيطرة أنصار أخيه محمود . وقد أدخله رجال محمود خدعة ليقبضوا عليه ، بعد أن كانوا قد عارضوا في دخوله . ولقد حاولوا سمل عينيه ، ولكن أخاه محمود وقع آنذاك فريسة مرض الجدري ، فنصح الطبيب (ابن

(١) ابن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ١٠ ، ص ٢٢٤ .

(٢) ابن الجوزي ، ***المنتظم*** ، مجلد ٩ ، ص ٨٤ .

(٣) ابن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ١٠ ، ص ٢٢٩ .

التلميذ) رجال محمود أن يبقوا على بركياروق ، حتى إذا ما أصاب سيدهم مكروه نصبوه مكانه . [١] وابتسم الحظ لبركياروق إذ مات أخوه بعلته بعد أيام ، فتسنم هو عرش أصبهان . ثم حالفه الحظ ثانية عندما تمكنت القوات المناصرة له من هزيمة عمه تتش وقتله قرب الرى ، وذلك في صفر من سنة ٤٨٨هـ/شباط ١٠٩٥م .[٢] ويورد ابن الجوزي عبارة يفهم منها أن خطبة بركياروق كانت مقطوعة في بغداد أوائل عام ٤٨٨هـ [٣] واشارة أخرى مفادها أن علاقة هذا السلطان بالخلافة كانت حسنة في رمضان من تلك السنة . [٤] وفي سنة ٤٩٢هـ وصل السلطان محمد بن ملكشاه إلى بغداد مصطحبا أخاه سنجر ، وجلس لهما الخليفة المستظهر في قبة التاج ، وخلع على محمد « الخلع السبع التي جرت عادة السلاطين بها ، والبس الطوق والتاج والسوارين ، وعقد له الخليفة اللواء بيده ، وقلده سيفين ، وأعطاه خمسة أفراس بمراكبها ، وخلع على أخيه سنجر خلعة أمثاله ، وخطب لمحمد بالسلطنة في جامع بغداد . . . وتركوا الخطبة لبركياروق . . . ثم قوى أمره واستظهر ، وجرى بينه وبين أخيه محمد المصاف على الرى ، وانكسر محمد . . . »[٥] ثم يأتي بركياروق إلى بغداد في صفر ٤٩٣هـ/١١٠٠م فيستقبله وزير الخليفة ، ويدخل المدينة ، ويقيم بدار السلطنة .[٦] ثم قطعت الخطبة للسلطان بركياروق في رجب من السنة ذاتها ، وأعيدت للسلطان محمد [٧] وكان ذلك بسبب هزيمة بركياروق . وخلاصة القول أن خطبة بركياروق قطعت ست مرات [٨] خلال مدة سلطنته التي دامت اثنتي عشرة

---

(١) ***المصدر نفسه*** ، ص ٢٣٤ .

(٢) ***المصدر نفسه*** ، ص ٢٣٤ و٢٤٤ – ٢٤٥ .

(٣) ابن الجوزي ، ***المنتظم*** ، مجلد ٩ ، ٨٤ .

(٤) ***المصدر نفسه*** ، ص ٨٧ .

(٥) ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ١٦٣ .

(٦) ابن الجوزي ، ***المنتظم*** ، مجلد ٩ ، ص ٨٤ .

(٧) ***المصدر نفسه*** ، ص ١١٣ .

(٨) ابن الجوزي ، ***المنتظم*** ، مجلد ٩ ، ص ١٤٤ .

سنة وأشهرا .[١] وعندما توفي عام ٤٩٨هـ/١١٠٥م .[٢] صفا الجو للسلطان محمد ، ولم يبق له منازع ، حتى توفي عام ٥١١هـ/١١١٧م .[٣]

وهكذا نرى أن السنوات التي تلت وفاة السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك كانت طافحة بالفوضى والحروب والدمار ، وأن الخلافة عانت مر المعاناة من تصارع المطالبين بلقب السلطنة والخطبة بأسمائهم على المنابر ، وأن وصول الصليبيين سنة ٤٩٢/١٠٩٩م واحتلالهم بيت المقدس وإقامتهم بضعة ممالك في بلاد الشام ، كل ذلك لم يكف لإيقاف الصراع الداخلي بين السلاجقة ، ولم يحمل أئمة المساجد – في طول البلاد وعرضها – على «الإضراب» ، أو الامتناع عن الدعاء لأولئك الأطفال ، والتوقف عن السير وراء المجرمين من القادة العسكريين وأتباعهم ، ممن دمروا البلاد باسم الدفاع عن حقوق السلاطين الأطفال المزعومة . وفي مثل هذا الجو كان من المحتم أن تفكر الخلافة في محاولة استرداد شيء من هيبتها وسلطانها ، حتى بالرغم من استكانتها طوال ما يزيد على مئتي سنة . وربما كان مما شجع الخلفاء على هذا التوجه أن قاعدة الحكم السلجوقي الرئيسية كانت خارج العراق ؛ وأن الصراع الدامي الذي دار بين الجيوش السلجوقية باسم الملوك والسلاطين الأطفال كانت تحركه النساء وشراذم المغامرين الطامعين في مغانم الحكم [٤] ؛ ولم تكن وراءه قيادة جامعة . ويبدو لي أن الخلافة تلمست طريقها نحو التحرر بحذر شديد ، سيما بعد سقوط السلطان محمود ، الذي تمكن الخليفة أن يحرز على حسابه بعض السلطات . ومن نشاط الخليفة في هذا الميدان محاولاته اغراء السلاجقة بعضهم ببعض ، فنراه ينهض لمناصرة السلطان محمد في حربه مع بركياروق سنة ٤٩٥هـ/١١٠٢م ، بل ويجمع

---

(١) ابن خلكان ، مجلد ١ ، ص ٢٤٣ .

(٢) *المصدر نفسه* ، والصفحة ذاتها .

(٣) *المصدر نفسه* ، مجلد ٤ ، ص ١٦٤ .

(٤) كان عمر محمود بن ملكشاه خمس سنوات وأشهرا ، ويذكر ابن الجوزي (*المنتظم* ، ٩ ، ص ١٤٤) أن عمر بركياروق عند وفاته بلغ أربعا وعشرين سنة وشهرين . وقد ذكر ابن خلكان (مجلد ١ ، ص ٢٤٣) أن بركياروق مكث في السلطنة اثنتي عشرة سنة وأشهرا . ومعنى ذلك أنه تسلطن وعمره اثنتا عشرة سنة ، أو أقل من ذلك بقليل .

السفن للقتال ، ويتخذ الاستعدادات للدفاع .[١] وفي سنة ٤٩٦هـ نجد الخليفة المقتدى يتجرأ فيأمر بقطع الخطبة للسلطان بركياروق في المحرم من السنة ذاتها .[٢]

ولم يكد السلطان محمد بن ملكشاه يقضي نحبه سنة ٥١١هـ حتى بدأت حلقة جديدة من حلقات الصراع على منصب السلطنة ، بين سنجر بن ملكشاه ، وبين ابن أخيه محمود بن محمد بن ملكشاه ، الذي تولى السلطنة بعد وفاة أبيه . لقد استنكف سنجر أن يكون تابعا لابن أخيه ، فقامت بينهما حروب كان النصر النهائي فيها حليف سنجر ، الذي كان قد أعلن نفسه سلطانا وأقيمت له الخطبة ببغداد أثر أول انتصار أحرزه ضد ابن أخيه .[٣] ثم إنه رق لابن أخيه ، وصالحه وجعله ولي عهده ، وأعاد عليه ما كان انتزعه من بلاد ، باستثناء الرى ، ثم إن سنجر أمر بأن يخطب للسلطان محمود على المنابر بعده ، وطلب من الخليفة تنفيذ ذلك .[٤] ولكن إذا كان النزاع بين سنجر وابن أخيه قد انتهى بالصلح على النحو الذي ذكرنا فانه احتدم من جديد بين السلطان محمود بن محمد وأخيه مسعود .[٥] وبعد موت السلطان محمود بن محمد سنة ٥٢٥ هـ/١١٣١م نشبت الحرب بين مسعود وعمه سنجر ،[٦] ثم بين طغرل بن محمود وأخيه داود ، ثم بين مسعود وطغرل ، مما لا يتسع المجال لتفصيله في مثل هذه الدراسة .

أما في جانب الخلافة فان شخصية قوية تسنمت المنصب ، أعني الفضل بن المستظهر ، الذي لقب بالمسترشد ، وتولى سنة ٥١٢هـ/١١١٨م ،[٧] بينما كان الصراع على أشده بين المتنازعين على كرسي السلطنة ؛ وهو صراع عجزت معه الخلافة عن ارضاء أي من الأطراف المتعاركة في حلبته ، لأن تلك الأطراف تبادلت النصر والهزيمة مرارا ، ولأنه كان على الخلافة أن تذعن للمنتصر على الدوام . ويبدو أن المسترشد

---

(١) ابن الجوزي ، ***المنتظم*** ، مجلد ٨ ، ص ١٣٠ – ١٣١ .

(٢) ***المصدر نفسه*** ، ص ١٣٤ .

(٣) ابن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ١٠ ، ص ٥٤٨-٥٥٣ .

(٤) ***المصدر نفسه*** والصفحة ذاتها .

(٥) ابن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ١٠ ، ص ٥٦٢ ، وابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ٢٨٨ .

(٦) ***المصدر نفسه*** ، ص ٢٨٩ .

(٧) ابن الجوزي ، ***المنتظم*** ، مجلد ٩ ، ص ١٩٧ .

عقد العزم على استرجاع سلطة الخلافة وشئ من هيبتها والتخلص من نير السلاطين . ويصف ابن الأثير المسترشد بقوله : «تمكن في خلافته تمكنا عظيما . . . فانه استبد بالعراق بعد السلطان محمود ، ولم يكن للسلطان معه في كثير من الأوقات سوى الخطبة . واجتمعت عليه العساكر ، وقاد الجيوش وباشر الحروب . . .»[1] ولكن المسترشد كان - على ما يبدو - يعد العدة للتخلص من السلاجقة منذ وقت مبكر ، فيرسل الرسل إلى مختلف الجهات التي تتبع الخلافة العباسية نظريا ، ويتصل بالقوى التي ينتظر منها العون والتأييد ، ففي سنة **٥١٥هـ** نصادف رسولا من قبل المسترشد عند بني منقذ بشيزر ، قرب حماه ، وبالرغم من أننا لا نعرف طبيعة المهمة التي جاء من أجلها أبو طالب الواعظ ، سوى أنه «وصل إلى حلب رسولا من الخليفة المسترشد سنة ست عشرة وخمس مائة ، واجتمع ببني منقذ[2] ،» فان معرفتنا بطموح هذا الخليفة تشجع على ترجيح ما استنتجناه . وفي سنة **٥٢٦هـ** تعرضت بغداد للحصار على يد السلطان مسعود ومعه عماد الدين زنكي ، حاكم الموصل . ودافع المسترشد عن بغداد ، كما أنه قام بالاتصال بحاكم فارس ، قراجا الساقي ، الذي خف لنجدة الخليفة ، فانهزم المهاجمون[3] وفي السنة التالية نجد الخليفة المسترشد يحاصر الموصل التي جاء حاكمها معاونا للسلطان مسعود على حصار بغداد ، ولكن زنكي كان قد حصن الموصل وترك فيها نائبه يدافع عنها ، فارتد المسترشد إلى بغداد دون أن يتمكن من فتح المدينة [4] وفي سنة **٥٢٨هـ**/١١٣٤م نجد السلطان مسعود في بغداد وقد ساء مركزه ، حيث أن أخاه طغرل تفوق عليه . ويشعر مسعود بالضعف فيطلب من الخليفة المسترشد أن يمده ، فيزوده المسترشد بالمال والرجال ، ومع ذلك بدا منه التخاذل . وهنا نلاحظ مدى شعور المسترشد بقوته ، إذ نراه يوجه رئيس شرطة بغداد برسالة إلى ذلك السلطان ليحضه على الخروج إلى محاربة أخيه ، كما أوصى الخليفة رئيس الشرطة بأن يهدم خيمة مسعود ان رأى منه عدم امتثال . ولم يكن أمام مسعود سوى الامتثال ، فعجل

---

(١) ابن الأثير ، ***الباهر في التاريخ الأتابكي*** ، ص ٥٠ - ٥١ .

(٢) ابن العديم ، ***بغية الطلب*** ، مجلد ٨ ورقة ١١٣/ق ، و١١٤/و .

(٣) ابن خلكان ، مجلد ٦ ، ص ١٤٢ .

(٤) ابن خلكان ، مجلد ١ ، ص ٣١٥ .

بالرحيل صوب همدان . بيد أن خبر وفاة أخيه طغرل أراحه من عناء القتال فاغذ السير صوب همدان واستولى عليها . ثم أن بعض رجال مسعود تمردوا عليه وجاءوا إلى المسترشد وشجعوه على مهاجمة مسعود[1] ، بيد أنهم تخلوا عن الخليفة في لحظة الشدة وانهزموا . ويبدو أن مسعودا كان استمالهم أو أغراهم ، فانهزمت قوات الخليفة وتم أسره ، ثم اغتيل وهو في الأسر ، واتهم السلطان بتدبير اغتياله [2] . ولكن قتل المسترشد على الصورة التي وصفنا لم يوقف الصدام بين الخليفة والسلطان ، فقد قامت الحرب بين مسعود وبين الخليفة الراشد الذي خلف أباه المسترشد ، وانهزم الخليفة ، ودخل مسعود بغداد ، وغادرها الراشد ، وأقدم السلطان على خلع الخليفة وتولية آخر مكانه ، هو عمه المقتفي بن المستظهر ، وذلك في ذي القعدة **٥٣٠** هـ/ آب ١١٣٦ م . ومضى الراشد إلى الموصل ، ثم أخرج منها وكان مصيره الاغتيال ، كمصير أبيه [3] . وقد كان أسر المسترشد ثم قتله ، وخلع الراشد بعده ، في سنتين متتاليتين ضربة ساحقة نزلت بالخلافة وحطمت قوتها ؛ فقد استولى السلطان مسعود على كل أموال المسترشد ثم فعل الشيء نفسه بالنسبة للراشد ، بل ونهب اثاث دار الخلافة وتصرف في دار الضرب [سك النقود] ، وأخذ التركات ، ثم طالب الخليفة الجديد ، المقتفي بمائة الف دينار ، فرد المقتفي بأنه لم يبق للخلافة شيء سوى الدار «وما بقي الا أن نخرج من الدار ونسلمها [4] . . . » وعندما بويع المقتفي اشترط عليه مسعود أن «لا يكون عنده خيل ولا آلة سفر [5]» كذلك فقد «استحلف على أنه لا يشتري مملوكا تركيا . وكان يقتني مدة خلافته إما أرمنيا أو روسيا ، ولم يكن له من الأتراك الا ترشك ، ملكه قبل الإمامة [6] . . .» ، أي قبل توليه الخلافة .

ورغم هذه الضربة التي أصابت مكانة الخلافة وقوتها ، فقد وجدت بغداد في

---

(١) ابن الأثير ، ***الباهر*** ، ص ٤٨ – ٥٠ .

(٢) محمد بن شاكر الكتبي ، ***فوات الوفيات*** ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ١٩٥١) ، مجلد ٢ ، ص ٢٤٨ – ٢٥٠ .

(٣) ابن القلانسي ، ص ٢٥٦ و٢٥٩ و٢٦٧ .

(٤) ابن الجوزي ، ***المنتظم*** ، مجلد ١٠ ص ٦٠ – ٦١ .

(٥) ***المصدر نفسه*** والصفحتان ذاتهما .

(٦) الكاتب الاصفهاني ، ***تواريخ آل سلجوق*** ، ص ٢٣٥ .

الخليفة المقتفي خير من يقيلها من عثارها . وقد اسعفه الحظ برجل صلب سديد الرأي كان كاتبا في الديوان ، فاظهر من الحكمة ونفاذ البصيرة ما أهله لتولي الوزارة وهكذا أصبح أبو المظفر عون الدين يحي بن هبيرة يد المقتفي اليمنى فيما نذر نفسه له من انقاذ الخلافة[(١)] وكان المقتفي « شجاعا يباشر الحروب بنفسه ، ويبذل الأموال العظيمة لأصحاب الأخبار في جميع البلاد ، لا يفوته منها شيء [(٢)] ويبدو أن عدم استقرار أوضاع السلطان مسعود ساعد المقتفي ووزيره فيما كانا بصدده . فقد جاء رجال السلطان مسعود المتمردون عليه وهددوا بغداد وحاولوا ابتزاز اتاوة من الخليفة حتى ينصرفوا ، ولكن الخليفة جمع بالمبلغ جنودا وتمكن من طرد اولئك الأمراء الذين كان من ضمنهم ابن أخي السلطان نفسه [(٣)] وكانت وفاة السلطان مسعود سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م هي الحد الذي انتهى عنده تسلط السلاجقة على الخلافة ، إذ بمجرد وفاة ذلك السلطان صمم الخليفة المقتفي ووزيره ابن هبيرة على التحرر نهائيا من كابوسهم ، فكونت الخلافة لها جيشا ، وأصلحت أسوار العاصمة وتحصيناتها ، وأعيد حفر الخندق المحيط بها ، وعين الخليفة عمالا للولايات وبعث بعيونه إلى كل صقع وناحية ، ثم أنه طرد شحنة بغداد ، وممثل السلطان المعين من قبله ، والذي يمكن اعتباره ، حسب المصطلحات الحديثة ، حاكما عسكريا ومندوبا ساميا في العراق ؛ وعندما سار الشحنة إلى ناحية الحلة وجمع جيشا لتحطيم قوة الخلافة النامية ، تمكنت قوات بغداد ، بقيادة الوزير ابن هبيرة ، من أن تمزق ذلك الجيش وتقضي عليه[(٤)] .

وهكذا انتهت الفترة الثانية من فترات النضال بين الخلافة والسلطنة بانتصار الأولى ، بعد أن عانت من الخضوع والاستكانة والاهانة والاذلال والتنكيل طوال مائة عام . ولكن القصة لم تنته عند هذا الحد ، فقد كان مازال على الخلافة أن تستقبل بضع حملات سلجوقية نجحت في دفع خطرها .

---

(١) ابن خلكان ، مجلد ٥ ، ص ٢٧٥ – ٢٧٧ .

(٢) ابن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ١١ ، ص ٢٥٦ .

(٣) الكاتب الأصفهاني ، ***تواريخ آل سلجوق*** ، ص ٢٢٢ – ٢٢٣ .

(٤) ***المصدر نفسه*** ، ص ٢٣٤ – ٢٣٥ .

وكان مسعود قد أوصى بولاية عهده لابن أخيه ملكشاه بن محمود [١] وقد نصب هذا في السلطنة ، ولكن قادة الجيش ما لبثوا أن عزلوه وعينوا بدلا منه أخاه محمد شاه . وبعد أن قتل محمد شاه الأمير خاصبك بن بلنكرى ، أكبر قادة الجيش ، وهو الذي كان السبب في تعيينه ، أرسل إلى الخليفة المقتفي يطلب اقامة الخطبة له ببغداد . ولما أهمل الخليفة طلبه عول على الزحف على بغداد . وخرج الخليفة على رأس قواته ، ونشبت المعركة في بجمزا ، وتمكن جيش الخليفة من الحاق الهزيمة بالقوة الغازية [٢] وفر محمد عائدا إلى همذان ، ورجع الخليفة إلى بغداد تسبقه بشائر النصر المؤزر .[٣] ومع ذلك فقد ظلت الخلافة ، رغم انتصارها ، معنية بما يجري في معسكر العدو ، عاملة على اضعافه بكل وسيلة . ففي سنة ٥٥٠هـ/١١٥٥م وصل إلى بغداد أحد المتطلعين إلى كرسي السلطنة ، وهو سليمان بن محمد بن ملكشاه ، الا أنه لبس ثوب الخضوع والتذلل للخليفة حتى سمح له بدخول بغداد[٤] . وقد استقبل سليمان بوفد رسمي أرسله الخليفة ، وأنزل في دار السلطنة ، وخطب باسمه على المنابر ، بيد أن استقباله كان دون ماجرت به العادة للسلاطين ، كما أنه لم يحظ من الخليفة بلقب السلطنة ، إذ لم يمنح سوى لقب المعظم . ثم أن المقتفي عين لسليمان وزيرا ، وجهز له جيشا ، ووجهه إلى أذربيجان لحرب السلطان محمد بن محمود . ولكن سليمان انهزم أمام خصمه ، وعاد قاصدا بغداد ، فاعترض طريقه زين الدين علي كوجك ، نائب صاحب الموصل ، وقبض عليه واعتقل في قلعتها في شعبان ٥٥١هـ/١١٥٦م .[٥]

ولكن إذا كان الخليفة قد رفض منح سليمان لقب سلطان ، فقد ظلت الخلافة

---

(١) ابن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ١١ ، ص ١٦١ .

(٢) ابن الفوطي مجلد ٤ ، قسم ٢ ، ص ١٢١٦ ، جعل ابن الفوطي هذه المعركة في أواخر سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م ، ولكن ابن الجوزي (***المنتظم*** ، ١٠ ، ص ١٥٣ - ٤) ذكرها ضمن حوادث سنة ٥٤٨ هـ/١١٥٣م وابن الجوزي عاصر هذه الأحداث بنفسه وكان ببغداد وفي سن الرجولة ويؤيد ذلك ما أورده ابن الأثير ، الكامل ، ١١ ، ص ١٦٢) من أن محمد تولى السلطنة سنة ٥٤٨ هـ .

(٣) ابن الفوطي ، مجلد ٤ ، قسم ٢ ، ص ١٢١٦ .

(٤) ***المصدر نفسه*** ، ص ١١٩١ - ١١٩٢ .

(٥) الكاتب الأصفهاني ، ***تواريخ آل سلجوق*** ، ص ٢٤٠ - ٢٤٢ .

تعترف للسلطان سنجر بن ملكشاه ، صاحب خراسان ، بلقب السلطنة ، وظل اسم سنجر يذكر على منابر بغداد ، مقرونا بلقب سلطان حتى وفاته سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م .[١]

وفي تلك السنة تعرضت بغداد لحصار شديد حين غزاها السلطان محمد ، يظاهره على كوجك نائب صاحب الموصل ، وانقطعت الطرق وتعرض الكثيرون من الحجاج للنهب والقتل ،[٢] وقد أشرف الخليفة ووزيره على القتال الذي دار عدة أيام ، صنعت خلالها ثمانية عشر ألف قارورة للنفط ، استعملها جيش الخليفة والبغداديون سلاحا في قذف عساكر محمد شاه بها وهي مشتعلة .[٣] ثم اضطر الجيش المهاجم إلى الانسحاب بسبب صمود المدافعين عن المدينة ، وبسبب ما وصل من أخبار من أن ملكشاه ، أخا محمد ، قد احتل همذان ، ونهب أموال محمد وأسر نساء وأطفال قادته وجنوده [٤] . وكان الخليفة المقتفي قد حرض أصحاب الأطراف على مهاجمة بلاد الملك محمد وأقطعهم اياها سلفا [٥] وهكذا نجحت الخلافة سياسة وحربا . ومما يجدر ذكره أن السلطان محمد حاول ، عندما أحس بعجزه عن احراز نصر عسكري على الخلافة ، أن يلجأ إلى الدسائس . وكان الطبيب المسيحي المشهور ابن التلميذ يداوي الخليفة من مرض ألم به ، وفي الوقت نفسه مرض السلطان محمد فاستدعى له ابن التلميذ . فعرض وزير السلطان على الطبيب عشرة آلاف دينار لكي يسم الخليفة ولكنه أبى رادا بأن ذلك يخرج عن حدود مهنته كطبيب .[٦]

وفي سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م توفي المقتفي وورث الخلافة ابنه المستنجد الذي وصف بأنه كان « صارما متيقظا فتاكا [٧] » وقد أقر وزير أبيه يحي بن هبيرة على

---

(١) ابن الجوزي ، ***المنتظم*** ، مجلد ١٠ ، ص ١٦٤ و١٧٨ .

(٢) محي الدين أبو محمد عبد القادر بن أبي الوفاء ، ***الجواهر المضية في طبقات الحنفية*** (حيدر آباد : مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية ، د . ت .) ، جـ١ ، ص ٨٧ .

(٣) ابن الجوزي ، ***المنتظم*** ، مجلد ١٠ ، ص ١٦٨ – ١٧٥ .

(٤) ***المصدر نفسه*** والصفحة ذاتها .

(٥) ابن الأثير ، ***الباهر*** ، ص ١١٣ – ١١٤ .

(٦) ابن أبي أصيبعة ، ص ٣٤٨ .

(٧) ***المصدر نفسه*** ، ص ٣٤٧ .

الــوزارة (١) . وكان الصراع بين الخليفة والسلطان قد خفت حدته ، بسبب التطاحن المستمر بين السلاجقة على منصب السلطنة وقد حاول ملكشاه بن السلطان محمود ، الذي حالف الخليفة ضد السلطان محمد ، وكان لاقتحامه عاصمته همدان حين كان محمد يحاصر بغداد أثر كبير في اجباره على تركها ، حاول أن يعيد نفوذ السلاجقة إلى بغداد ذلك أنه عندما قويت شوكته وكثرت جموعه وجه رسولا إلى بغداد وطلب أن يقطعوا خطبة عمه سليمان شاه ويخطبوا له ، ويعيدوا القواعد بالعراق إلى ما كانت أولا ، والا قصدهم (٢) . ويبدو أن الوزير ابن هبيرة لم يشأ أن يجازف بحملة عسكرية لتأديب هذا السلجوقي المتجرئ فعمد إلى الأسلوب الذي كان شائعا في ذلك العصر ، وهيأ لملكشاه من قضى عليه بالسم (٣) وفي أواخر سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م قتل سليمان شاه على يد رجاله (٤) ، وعلى أثر ذلك قطعت خطبته في بغداد في المحرم من العام التالي (٥) وهو آخر سلجوقي خطب له في العاصمة العباسية وإن كان قد حرم من لقب سلطان كما ذكرنا ثم كانت خاتمة جهود السلاجقة لاسترداد نفوذهم مجيء قائد تركماني اسمه شملة ، على رأس قوة سلجوقية ، فطلب من الخليفة أن يسلمه بعض المناطق العراقية (٦) باعتبارها اقطاعا لسيده الملك السلجوقي ، منحه اياه سلطان السلاجقة آنذاك ، أرسلان شاه . وقد رفض المستنجد بحزم ، ولم يجد صعوبة في طرد القوة الغازية .(٧)

---

(١) ابن الجوزي ، ***المنتظم*** ، مجلد ١٠ ، ص ١٩٣ .

(٢) ابن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ١١ ، ص ٢٦٣ .

(٣) ***المصدر نفسه*** ، والصفحة ذاتها .

(٤) ***المصدر نفسه*** ، ص ٢٦٧ .

(٥) ابن الجوزي ، ***المنتظم*** ، مجلد ١٠ ، ص ١٩٨ ، ابن الأثير ، الكامل ، مجلد ١١ ، ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .

(٦) ابن الجوزي ، ***المنتظم*** ، مجلد ١٠ ، ص ٢٢٠ .

(٧) ابن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ١١ ، ص ٣٢٨ - ٣٢٩ .

الحملات الصليبية:

وبعد سبع سنوات من اندلاع الصراع الحاد والمتواصل بين القوى السلجوقية المتكالبة على السلطة سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م وصلت الحملة الصليبية الأولى إلى أراضي الدولة البيزنطية في آسيا الصغرى سنة ٤٩٢/ ١٠٩٩م ، حيث كان الإمبراطور البيزنطي (أليكسيوس كومنينس) قد أعد جيشا بيزنطيا ليسبق الحملة الصليبية ويتقوى بها ، فتم له احتلال أنطاكيا . ثم تقدم الصليبيون إلى بلاد الشام ونجحوا في الاستيلاء على القدس وقتلوا ستين ألفا من المسلمين في ساحة المسجد الأقصى وخارجه . ويخبرنا ابن كثير أن الناس قد هربوا من الشام إلى العراق ليستغيثوا بالخليفة والسلطان على الإفرنج فلم يجدوا منجدا أو مغيثا . وقد انتدب الخليفة الفقهاء للخروج في حملة إعلامية لحض الملوك على الجهاد وصد المعتدين ، وألقيت خطب على منابر المساجد فارتفع بكاء الناس وعويلهم ؛ لكن الملوك كانوا منشغلين بصراعهم على كرسي السلطنة وما يتبع الكرسي من مغانم ، ولم يتحرك منهم أحد لمواجهة الصليبين ، وهكذا لم يبق سوى البكاء بالدموع وبالشعر البكائي ، من مثل قول الشاعر أبي المظفر الأبيوردي في قصيدة له بكائية نجتزئ بعضا من أبياتها :

مزجنا دمانا بالدموع السواجم
فلم يبق منا عرضة للمراحم
وشر سلاح المرء دمع يريقه
إذا الحرب شبت نارها بالصوارم
فإيها بني الإسلام إن وراءكم
وقائع يلحقن الذرى بالمناسم
وكيف تنام العين ملء جفونها
على هفوات أيقظت كل نائم
وإخوانكم بالشام يضحي مقيلهم
ظهور المذاكي أو بطون القشاعم
تسومهم الروم الهوان وأنتم
تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
أرى أمتي لا يسرعون إلى العدا
رماحهم والدين واهي الدعائم

أيـرضـى صـنـاديـد الأعـــــــاريـب بـالأذى
ويغـــضـي عـلـى ذل كــــمـــاة الأعـــاجـم
فليـــتـــهـــمـوا إذ لـم يـذودوا حــمـــيـة
عـن الـديـن ضـنـوا غـــــيــــرة بـالمحــــارم
وإن زهـدوا بـالأجـــــر إذ حــــمـي الـوغـى
فـــهـــلا أتـوه رغـــبـــة فـي المغـــانـم [1]

وخلال عقدين من الزمن أقيمت مملكة القدس اللاتينية وشملت أجزاء من أراضي بلاد الشام ، منها فلسطين ولبنان الحالية . وبين سنتي ١١٤٠ و١٢٧٠م وجهت أوروبا الغربية خمس حملات صليبية أخرى لتثبيت مرتكزاتها في الأراضي الإسلامية ، بيد أن حماسة الحركة الصليبية كانت قد فترت ، وكان من أبرز مؤشرات هذا الفتور أن الحملة الرابعة غيرت هدفها واتجهت إلى القضاء على الدولة البيزنطية الأرثذوكسية ، إذ احتلت عاصمتها ، وأقامت فيها مملكة لاتينية ، وظل الصليبيون في القسطنطينية حتى سنة ١٢٦١م .

(١) إبن كثير ، ***البداية*** ، ج ١٢ ، ص ١٣٤ .

الفصل العاشر

صحوة الموت ومرحلة الاحتضار

(٥٥٥ هـ/ ١١٦٠م - ٦٥٦هـ /١٢٥٨م):

وبانتهاء التسلط السلجوقي عادت للعباسيين السلطة المباشرة على العراق ، وقدر من السلطة المعنوية والشكلية على بلاد الشام . أما في مصر فقد كانت الدولة الفاطمية تعيش سنيها الأخيرة واهنة مصدعة البنيان ، وما لبثت أن سقطت سنة ٥٦٧هـ . وكان سقوطها تلقائيا ، لم يحتج إلا إلى أن يدعو خطيب الجمعة في المسجد الرئيسي في القاهرة للخليفة العباسي دون أي قتال ، فلم ينتطح في ذلك عنزان ، كما ذكر أحد المؤرخين .

وقد حكم في تلك المرحلة الأخيرة ، التي امتدت مئة سنة تقريبا ، خمسة من الخلفاء العباسيين هم المستضيء ، واسمه الحسن ، وقد توفي سنة ٥٧٥هـ ، ثم ابنه أحمد ، الذي تلقب بـ «الناصر لدين الله» ، وكان اطول الخلفاء العباسيين حكما حيث توفي سنة ٦٢٢ هـ ، أي أن مدة حكمه استمرت سبعا وأربعين سنة تقريبا ؛ وجاء إلى المنصب بعده ابنه محمد ، ولقب بـ «الظاهر بأمر الله» ، فتولى الخلافة سنة ٦٢٢ هـ ؛ ولم تطل أيامه أكثر من سنة واحدة وأدركته الوفاة ليخلفه ابنه «المستنصر بالله» ، واسمه منصور . وقد امتدت خلافة المستنصر سبع عشرة سنة تقريبا ، حيث توفي سنة ٦٤٠هـ . وكان آخر خلفاء بني العباس هو عبدالله ، الذي حمل لقب «المستعصم بالله» ، وحكم ما يقرب من ست عشرة سنة ، وقتله المغول بعد اجتياحهم بغداد سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م . وفي فترة هؤلاء الخلفاء الخمسة كان الخليفة في وضع وفي دائرة تسمح له بأن يكون القائد الفعلي للدولة والمجتمع ، ولم تكن هناك قوة أو سلطة أخرى في الدولة يمكنها أن تحجم سلطاته أو تحد من فاعليتها إلا في الحدود التي يرسمها الخليفة نفسه ، أو تحددها قدراته الشخصية . لقد كان الناصر طاغية بأشد ما يكون الطغيان ، وذلك في الأمور الداخلية بطبيعة الحال . أما في العلاقات الخارجية فتعرضه المصادر وكأنه كان يحاول ضرب القوى الخارجية بعضها ببعض

ليبعدها عن العراق ، وليتمكن من مد سلطته على الأقاليم المجاورة في الشرق ؛ وفي هذا السياق اتهم بأنه هو الذي حرض المغول على مهاجمة الدولة الغزنوية والقضاء عليها . ولما تم ذلك انفتح الطريق أمام المغول ليتجهوا إلى بغداد . ولسنا نستطيع تأكيد ذلك أو نفيه ، لأن هذا الموضوع يحتاج إلى دراسة أوسع وأعمق ، وهو يخرج عن موضوع كتابنا هذا . أما المستعصم ، وهو آخر الخمسة ، فيبدو من سيرته أنه اختار أن يخلد إلى الراحة والمتعة ، ويدع لمعاونيه تصريف أمور الدولة ، دون متابعة أو اهتمام من جانبه ؛ وقد وصف بأنه «كان مستضعف الرأي ، ضعيف البطش ، قليل الخبرة بأمور المملكة ، مطموعا فيه ، غير مهيب في النفوس ، ولا مطلع على حقائق الأمور ، وكان زمانه ينقضي أكثره بسماع الأغاني ، والتفرج على المساخرة . وفي بعض الأوقات يجلس في خزانة الكتب جلوسا ليس فيه كبير فائدة . وكان أصحابه مستولين عليه ، وكلهم جهال من أراذل العوام [(١)] . وبينما كان المغول يحاصرون بغداد ويشددون الهجوم عليها كان المستعصم جالسا في قصر الخلافة يستمتع برقص وغناء تقدمه إحدى حظاياه ، وكانت مولدة إسمها عرفة . وبينما كان الخليفة خائفا قلقا ، يشتد خوفه كلما اشتد الهجوم ، فإن الحظية المسكينة لم يسمح لها بالخوف ، بل أجبرت على إظهار السعادة لتسعد الخليفة أمير المؤمنين وتبعد الخوف عنه . وبينما ترقص وصل إليها سهم مما كان يطلقه المهاجمون فخرت ميتة «بين يديه ، فانزعج الخليفة من ذلك وفزع فزعا شديدا ؛ وأحضر السهم الذي أصابها بين يديه فإذا عليه مكتوب – حسب قول بن كثير– : **إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره أذهب من ذوي العقول عقولهم** ؛ فأمر الخليفة عند ذلك بزيادة الاحتراز ، فكثفت الستائر ، وزيدت الحراسة على دار الخلافة [(٢)] ؛ ولسنا ندري إن كان الخليفة قد طلب حظية أخرى لكي تسليه برقصها بدل تلك التي أصابها السهم فقتلها . والظاهر أن ابن كثير حرص على أن يبين لقرائه – من خلال النص الذي زعم أنه مكتوب على السهم – بأن اجتياح المغول لبغداد ، وسقوطها بأيديهم ، وقتل الخليفة وغيره من مئات الآلاف من الضحايا ، كل ذلك كان قدرا إلاهيا لا يرد ، ولا دخل للبشر فيه . ولم يعبأ أبو الفدا ابن كثير بأن يعرفنا بالشخص الذي كتب ذلك النص على السهم : هل كتبه

(١) إبن الطقطقا ، ***الفخرى*** ، ص ٣٣٣ .

(٢) إبن كثير ، ***البداية*** ، ج ١١ ، ص١٧١ .

الجندي المغولي الوثني الذي أطلق السهم أم أن جنيا ، أو واحدا من الملائكة ، اعترض السهم في انطلاقه وكتب عليه تلك الحكمة . ومع تأكيده على أن الكارثة كانت «قدرا إلهيا» ، فقد استدار في اتجاه معاكس ليخبرنا أنها كانت نتيجة عمل بشري تم على يد الوزير «الرافضي» ابن العلقمي . وقد برأ ابن كثير الخليفة من المسئولية ، وحملها للوزير . وبعد أن أنهى وصفه للمذابح والحرائق والتدمير الذي حل ببغداد ، قدم لنا ترجمة ليعرفنا بـ «خليفة الوقت المستعصم بالله ، أمير المؤمنين ، آخر خلفاء بني العباس بالعراق ، رحمه الله ، وهو أبو أحمد عبدالله بن المستنصر بالله أبي جعفر منصور بن الظاهر بالله [ومضى في تعداد أجداده بأسمائهم وألقابهم حتى وصل بنا إلى العباس بن عبدالمطلب ، عم رسول الله ﷺ ، ثم وصف المستعصم بأنه] كان حسن الصورة ، جيد السريرة ، صحيح العقيدة ، مقتديا بأبيه المستنصر في المعدلة وكثرة الصدقات ، وإكرام العلماء والعباد . . . الخ ، ثم يذكر أن هذا المستعصم بالله خان الأمانة ، واستحل الوديعة التي كان أودعه أياها أحد الأمراء الأيوبين فأنكر أنه تسلمها ، وكانت قيمة الوديعة نحوا من مائة ألف دينار ، « فاستقبح هذا من مثل الخليفة ، وهو مستقبح ممن هو دونه بكثير ، بل [مستقبح] من أهل الكتاب . . .» ليت أبا الفدا أعفانا من مديحه للمستعصم وذكره لقائمة أسماء أجداده التي شغلت ثمانية أسطر ، لكان وفر علينا شيئا من الوقت .

الأتابكة والأيوبيون:

في فترة انشغال السلاجقة بالصراع على منصب السلطان وعرش السلطنة تفككت الأقاليم التي كانت خاضعة للدولة بالتدريج بعد موت السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ . ومن خلال عملية التفكك التدريجي ظهرت دولة الأتابكة في الجزيرة وبلاد الشام بزعامة عماد الدين زنكي . وكان والد زنكي ، ويدعى آقسنقر قسيم الدولة ، من كبار مساعدي الملك السلجوقي تتش . فلما دخل تتش في حرب الصراع على السلطنة مع ابن أخيه بركياروق انشق آقسنقر عن تتش وانضم إلى بركياروق ، لكنه ما لبث أن قتل في معركة خاضها ضد سيده السابق ، تتش . وظهر بعد آقسنقر ابنه زنكي ، الذي تلقب بـ «عماد الدين» ، وكانت أشهر إنجازاته أنه انتزع مدينة الرها من الصليبيين ، وأزال تلك المملكة ، وكان ذلك أول نصر بارز أحرزه المسلمون ضد الفرنجة ، أي الصليبيين . وبعد موت زنكي غيلة سنة ٥٤١ هـ قسمت مملكته بين

ولديه سيف الدين غازي ونور الدين محمود ، فكانت أمارة الموصل حصة غازي ,بينما كانت امارة حلب من نصيب محمود .

وقد كان نور الدين ، الذي لقب أيضا بـ «الملك العادل» شخصا مختلفا عن جميع الزعامات السلجوقية ، فقد كان متعلما ، يجتمع عنده العلماء ويشاركهم في مناقشاتهم ؛ وقيل إنه روى بعض الحديث ، كما أنه كان يجلس للمظالم – ليستمع الشكاوى ، وينصف الضحايا الضعاف من ظلم الأقوياء . وكان أكبر هموم هذا الأمير السلجوقي التركي الصالح ، نور الدين محمود ، أن يصفي الإمارات الصليبية ، ويطرد الصليبيين من بلاد الشام ؛ ثم دخلت مصر في دائرة اهتمامه بعدما صاردت مهددة من قبل الصليبيين ، حيث تحالف معهم الوزير شاور ، وزير الخليفة الفاطمي ، وأقام الصليبيون لهم قاعدة وجندا في القاهرة ، بينما كان علماء مصر يكاتبون نور الدين ويدعونه لأرسال قوة تقف في وجه الإفرنج . وقد نجح نور الدين في حربه ضد الإمارات الصليبية في بلاد الشام ، وانتزع منها الحصون حصنا بعد الآخر ، كما تمكن من الاستيلاء على دمشق ، وبذلك وحد بلاد الشام ، كما أنه أرسل جيشا إلى مصر سنة ٥٦٤هـ ، حيث كانت دولة الفاطميين في سنيها الأخيرة ، وقد وضع على رأس ذلك الجيش أسد الدين شيركوه بن شاذي الكردي ، واصطحب شيركوه معه ابن أخيه الشاب يوسف بن أيوب ، الذي اشتهر فيما بعد بلقبه «صلاح الدين» . وتوفي شيركوه فحل محله ابن أخيه يوسف في قيادة الجيش الشامي [١] . ومع ضعف الخلافة الفاطمية ، والصراع الفئوي بين أتباع تلك الخلافة تمكن صلاح الدين من توسيع سلطته بمصر ، حتى بدا وكأنه صاحب السلطة العليا فيها ، وجعل ينشئ مدارس للشافعية ، حتى عين قاضي القضاة شافعيا ، وجعل قاضي القضاة كل نوابه في مختلف مدن مصر من الشافعية ، وتمهد الجو لإحداث التغيير الذي كان نور الدين وصلاح الدين يتطلعان إليه . ومات العاضد ، آخرالخلفاء الفاطميين ، فأنهى صلاح الدين وجود الدولة الفاطمية سنة ١١٧١/٥٦٧ ، ولم تحتج هذه العملية أكثر من أن يدعو خطيب الجمعة باسم الخليفة العباسي إعلانا لتبعية مصر لخلفاء بغداد [٢] . ثم توفي نور الدين محمود سنة ٥٦٩هـ وخلفه ابنه إسماعيل ، الملقب بالصالح

---

(١) ابن الأثير ، ***الكامل في التاريخ*** ، م ١١ ، ص٣٢٦-٣٢٧ و٣٣٥ – ٣٤٧ .

(٢) المصدر نفسه ، م ١١ ، ص ٣٦٦ و٣٦٨ – ٣٧١ .

إسماعيل ، لكن أيامه لم تطل ، إذ طمع ابن عمه سيف الدين غازي في التوسع على حسابه . ثم توفي إسماعيل سنة ٥٧٧هـ ، وتمكن صلاح الدين من توحيد مصر والشام تحت لوائه ، واعترفت به الخلافة العباسية ، وصار يعرف بالسلطان صلاح الدين ، ثم أضيف لذلك لقب «الناصر» . وكان صلاح الدين ، كما كان سيده نور الدين من قبله ، يعلن الولاء للخلافة العباسية التي قلنا إنها دخلت حالة صحوة الموت التي امتدت أكثر من مئة سنة . وقد عرفت دولة صلاح الدين عند المؤرخين بأنها الدولة الأيوبية .

وفي فترة صحوة الموت العباسية صارت مملكة نور الدين محمود ، ثم السلطنة الأيوبية أكبر وأهم قوة في عالم الإسلام من الناحية العملية . وقد اضطلعت هاتان الدولتان بالعبء الأكبر في المواجهة مع الصليبيين ، وأحرزتا انتصارات كبيرة ، واحدة بعد الأخرى ، حتى تمكن صلاح الدين من استرجاع بيت المقدس من الصليبيين على أثر هزيمته لهم في معركة حطين ٥٨٣ هـ . وتوفي صلاح الدين وهو في دمشق سنة ٥٨٩ هـ/١١٩٣م ، ولم تمض على وفاته سنتان حتى بدأت الحرب بين أولاده [1] ، وبلغ من شدة الخصومة أن بعضهم صار يستعين بالصليبيين في حربه مع أخيه .

لقد كتب عدد من الباحثين في تاريخ هذه الفترة الممتدة من سنة ٥٤١هـ إلى سنة ٥٨٩هـ ، واعتبروا أن الانتصارات العسكرية التي تحققت ، وكان على رأسها استرجاع القدس من الصليبيين ، كانت ثمرة لنهضة غيرت أوضاع المجتمع الإسلامي . وكان من الكتب التي ظهرت في هذا السياق كتاب بعنوان : **هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس** ، للدكتور ماجد عرسان الكيلاني ، وهو ممن نقدر ونحترم . ومع ذلك فإنني لم أجد ما يحملني على مشاركته الرأي بالنسبة لحدوث تلك النهضة . وأقوى دليل ينفي حدوثها هو أن ما بناه صلاح الدين ما لبث أن انهار بعد وفاته مباشرة ، حيث تصارع أولاده وحارب بعضهم بعضا نزاعا من أجل امتلاك الأقاليم والاستئثار بها دون الإخوة الآخرين . «وكان [صلاح الدين] قد قسم البلاد بين أولاده ، فالديار المصرية لولده العزيز عماد الدين أبي الفتح ، ودمشق وما حولها لولده الأفضل نور الدين علي ، وهو أكبر أولاده ؛ والمملكة الحلبية

---

(١) *المصدر نفسه* ، ص١٠٩ ، ١١٨ ، ١٢١ ، ١٤٣ .

لولده الظاهر غازي غياث الدين ؛ ولأخيه العادل الكرك والشوبك وبلاد جعبر وبلدان كثيرة قاطع الفرات ؛ وحماه ومعاملة أخرى معها للملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر بن أخي السلطان ؛ وحمص والرحبة وغيرها لأسد الدين بن شيركوه بن ناصر الدين بن محمد بن أسد الدين شيركوه الكبير . . . واليمن بمعاقله ومخاليفه جميعه في قبضة السلطان ظهير الدين سيف الإسلام طغتكين بن أيوب أخي السلطان صلاح الدين ؛ وبعلبك وأعمالها للأمجد بهرام شاه بن فروخ شاه ؛ وبصرى وأعمالها للظافر بن الناصر . ثم شرعت الأمور بعد موت صلاح الدين تضطرب وتختلف في جميع هذه الممالك . .[(١)] .»

وهكذا نرى أن صلاح الدين رحمه الله لم يقسم أراضي الدولة ونواحيها بين أولاده فقط ، بل قسمها بين أفراد العائلة السلطانية ، ومن ضمنهم عدد من أولاده ، وأحد أخوته وبعض أبناء إخوته . ولم يمض وقت طويل حتى بدأ هؤلاء الورثة صراعا قتاليا ، ووصل الحقد ببعضهم لدرجة دفعته إلى الاستعانة بالصليبيين ضد أخيه ، كما أشرنا . ولم تقف المصائب والانهيار عند هذا الحد ؛ ففي سنة ٦٢٦هـ قام الملك الكامل بن الملك العادل الأيوبي ، وهو ابن أخي صلاح الدين بالتفاوض على اعادة القدس إلى الصليبيين ، فتم تسليمها وبعض المناطق المحيطة بها على أن تظل باقي البلاد مثل نابلس والخليل والغور وملطية ، وغير ذلك بيد المسلمين . . . واستعظم المسلمون ذلك وأكبروه ، ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه .[(٢)] . .» ليس هذا فحسب ، بل إن الصالح إسماعيل ما لبث أن سلم صفد و[قلعة] الشقيف للإفرنج . وقد غضب ابن عبدالسلام لهذا التصرف وخرج «من الشام [إنكارا] على الصالح إسماعيل تسليمه صفد والثقيف إلى الفرنج ، ووافقه الشيخ أبو عمرو بن الحاجب المالكي ، فأخرجهما [الصالح إسماعيل] من بلده ، فسار أبو عمرو إلى الناصر داود ، صاحب الكرك ، فأكرمه ، وسار ابن عبدالسلام إلى الملك الصالح أيوب بن الكامل ، صاحب مصر فأكرمه وولاه قضاء مصر وخطابة الجامع العتيق ، ثم انتزعهما منه[(٣)] . .»

---

(١) ابن كثير ، ***البداية والنهاية*** ، ج ١٣ ، ص ٦ ، (أخبار سنة ٥٨٩هـ) .

(٢) عز الدين علي بن الأثير ، ***الكامل في التاريخ*** ، مجلد ١٢ ، ص ٤٨٢ – ٤٨٣ .

(٣) إبن كثير ، ***البداية والنهاية*** ، ج ١٣ ، ص ٢٣٥ – ٢٣٦ ، ضمن ترجمته للعز بن عبدالسلام – أخبار سنة ٦٦٠هـ .

وقد أخبرنا أبو الفدا ابن كثير أن سنة ٦٢٦هـ بدأت «وملوك بني أيوب مفترقون مختلفون ، قد صاروا أحزابا وفرقا ؛ وقد اجتمع ملوكهم إلى الكامل محمد ، صاحب مصر ، وهو مقيم بنواحي القدس الشريف ، فقويت نفوس الفرنج . . . بكثرتهم بمن وفد إليهم من البحر . وبموت الملك المعظم واختلاف من بعده من الملوك ، فطلبوا من المسلمين أن يردوا لهم بيت المقدس وحده ، وتبقى بأيديهم بقية البلاد ، فتسلموا القدس الشريف . . .[1]» ، وذلك بعد سبع وثلاثين سنة من وفاة صلاح الدين . وقد ظلت عكا في أيدي الصليبيين حتى سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م ، أي أكثر من مئة سنة بعد وفاة صلاح الدين رحمه الله .

فأية نهضة هذه التي تحدث عنها أخونا الكريم؟ وأين كانت نصيحة العلماء الذين كانوا حول صلاح الدين ، ولماذا لم يفهموه أن تقسيم أراضي الدولة على النحو الذي فعله يشكل خطرا كبيرا؟ وأنه لا يجوز شرعا . وأين كان الشعب الذي أنهض ونهض ثم لم يتحرك ليوقف كل ما صار من مهازل بعد صلاح الدين؟ وأين كان علماؤه الذين «صنعوا النهضة» حسب ما حدثنا الدكتور ماجد حفظه الله ورعاه . إنني أرجو ألا يعتبر هذا نقدا ، بل يعتبره نوعا من الحوار . ولعله يذكر أنه كان يكتب في مجلة الشهاب في فترة الستينات وأوائل السبعينات في القرن الماضي ، وكنت أنا أساهم بالكتابة فيها أيضا ، ومن هنا بدأت المعرفة ، والمحبة والاحترام ، وما زالت ، وستظل إن شاء الله .

أما عن الانتصارات التي حققها صلاح الدين أثناء حكمه فإن الباحث يستطيع أن يفسرها بأسباب أخرى ، منها :

(١) على الرغم من حالة الإنهيار التي عانت منها المجتمعات الإسلامية فإن مستواها الحضاري كان أعلى من مستوى الأوروبيين ، وظل كذلك حتى بداية القرن السادس عشر الميلادي ،

(٢) أن الحركة الصليبية كانت قد وهنت ولم تعد مندفعة بالحماسة التي كانت لديها عند بدايتها ،

(٣) إن شخصية نور الدين محمود ، ثم شخصية يوسف بن أيوب ، أي صلاح الدين ، كان لكل منهما الأثر الأكبر - بالتتابع الزمني - في توظيف ما تبقى

---

(١) ***المصدر نفسه*** ، ج ١٣ ، ص ١٢٣ (أحداث سنة ٦٢٦هـ) .

لدى الأمة من إمكانات – على قلتها – لتحقيق عدد من الانتصارات على عدو ضعيف يعتمد على الإمدادات من بلاد قصية تقع فيما وراء البحر المتوسط . وبمجرد أن غابت هاتان الشخصيتان انهار البناء وعاد إلى سابق عهده قبل ظهور نور الدين وصلاح الدين . ويجب أن لا ننسى أن الصليبيين ظلوا في بلاد الشام بعد وفاة صلاح الدين أكثر من مئة سنة ، وأن عكا والمراكز الساحلية التي كانت بيد الإفرنج الصليبيين لم يتم تحريرها إلا في شهر جمادى الأولى سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م .

النهضة الحقيقية التي تحرزها الشعوب تبقى فترات طويلة ولا تنطفئ بموت قائد أو زعيم ؛ أما القوة الطارئة التي تحدث بظهور قائد فذ وتحرك لقيادة مجتمع منهار ، فإنها لا تلبث أن تخمد وتخبو بمجرد غيابه عن المسرح . وهذا ما حدث .

الفصل الحادي عشر

لمحات عن الفوضى في الأقاليم

في مقدمة هذه الدراسة بينت أن ميدانها الأساسي والرئيسي سيكون في بلاد الشام وفي العراق، حيث كان مقر الخلافة الأموية، ثم الخلافة العباسية، حتى سقوط بغداد والعراق في أيدي المغول سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨م. وبطبيعة الحال كانت بدايتنا في المدينة، يثرب، وفي الحجاز حيث بدأت الدعوة الإسلامية، وقامت أول دولة إسلامية استمرت ما يقرب من خمسين سنة. أما هذا الفصل فقد خصصته لإعطاء ومضات سريعة تبين أن ما كان يجري في إقليم موطن دولة الخلافة كان يتكرر مثله في الأقاليم القريبة والبعيدة، وإن كان ذلك على نطاق أضيق. ولا ينبغي أن ينتظر القارئ أي تفصيل، فذلك ما لا يتسع له المجال؛ كل ما في الأمر أنني أحاول إبعاد الانطباع بأن الأقاليم البعيدة، أو القريبة من إقليم مقر الخلافة والدولة كانت فيها أنماط مختلفة من مشاهد ومظاهر الحياة السياسية والاجتماعية. كذلك فقد أردت أن أبعد عن القراء الإحساس بأن الأقاليم الأخرى - غير إقليم المقر - قد أرخي عليها ستار من الظلام أو التعتيم المقصود.

كانت الأندلس قد انفصلت عن جسم الخلافة في وقت مبكر، سنة ١٣٨هـ/٧٥٦م، عندما هرب عبدالرحمن بن هشام من دمشق ووصل إلى الأندلس، ونجح في إقامة دولة أموية مستقلة تماما عن العباسيين. وبعد ذلك نجد إدريس بن محمد بن حسن (العلوي) يهرب إلى المغرب الأقصى ويقيم دولة علوية سنة ١٧٢هـ/٧٨٨م، مثل جيرانه الأمويين في الأندلس[١]؛ بيد أن كلا من هذين الإقليمين كان في موقع متطرف بالنسبة للأقاليم الواسعة التي ظلت تدين بالتبعية والولاء الشكلي للخلفاء في بغداد وسامراء. أما بعد قتل المتوكل سنة ٢٤٧هـ فقد

(١) أنظر: أبو عبدالله التنسي التلمساني، ***تاريخ دولة الأدارسة*** (من كتاب نظم الدر والعقيان)، تح. د. عبدالحميد حاجيات، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ١٩٨٤، ص ٣٣ - ٥٣.

خرجت جميع أقاليم الدولة عن سلطة الخلافة . وحتى العراق ، مقر الخلافة ، لم ينج من ظاهرة التفسخ هذه ، فقد غدت السيطرة الفعلية فيه لقادة الجند ، كما مر معنا .

بعد حادثة قتل المتوكل على أيدي قادة الجند برزت على مسرح الحياة السياسية ظاهرة جنوح ولاة الأقاليم إلى الاستقلال عن السلطة المركزية استقلالا يكاد يكون تاما ، مع الاحتفاظ بشكلية التبعية للخليفة عن طريق الدعاء له في خطب الجمعة ، والحرص على استصدار تصريح خليفي بالاعتراف بوضع الوالي يعطيه الصفة الشرعية . وقد عرف هؤلاء الولاة باسم «المتغلبين» ، لأنهم أخذوا الولايات واستقلوا بها رغم إرادة الخلفاء ، تغلبا .

حركة صاحب الزنج:

لقد كانت محاولة علي بن محمد ، الذي عرف بـ «صاحب الزنج» من أولى المحاولات التي شهدها المشرق الإسلامي لاقتطاع جزء من أراضي الدولة ؛ وقد مر معنا كيف انتقل صاحب الزنج إلى جنوب العراق وأحرز انتصارات كثيرة ومتتابعة على قوات الخليفة إلى أن تم القضاء عليه وعلى حركته سنة ١٧٠هـ . وقبل أن تنتهي حركة صاحب الزنج ظهر يعقوب بن الليث الصفار متغلبا على إقليم سجستان ، مع إظهار أنه يقر بالتبعية للخلافة ؛ بيد أنه أخذ يتوسع في الأقاليم المجاورة التي كانت محافظة على ولائها للخلافة ، حتى استولى على هراة ، وبوشنج ، وما لبث أن استولى على أقليم كرمان ، وعلى أقليم فارس ، ثم زحف على الأهواز ودخل في مواجهة مع القوات العباسية . وقد شجعت هذه الانشقاقات والي مصر ، أحمد بن طولون على إعلان الاستقلال بمصر ، ونشبت المعارك بينه وبين القوات العباسية في بلاد الشام . وقد فشلت الخلافة في اخضاعه فتوارث أبناؤه حكم مصر والشام وبرقة (ليبيا) ، ولم تسقط الدولة الطولونية إلا سنة ٢٩٢هـ ، بعد أن أنهكها الصراع الداخلي على الحكم في مصر نفسها .

ومع ازدياد ضعف الخلافة في عصر المقتدر (٢٩٥-٣٢٠هـ) ومن تلاه من الخلفاء ازدادت حركات المغامرين للإستيلاء على أقاليم الدولة وإرغام الخلافة على الاعتراف بوضعهم ، فظهر الحمدانيون في الموصل والجزيرة وشمال سوريا ، والإخشيديون في مصر ، والقرامطة في البحرين وشرق الجزيرة العربية ، والفاطميون في تونس والشمال الإفريقي حيث سيطروا فيما بعد على مصر وبلاد الشام ؛ كما ظهر الساجيون في

أذربيجان ، والسامانيون في خراسان . وقد مررنا بذكر البويهيين والسلاجقة وسيطرتهم على العراق بشئ من التفصيل . واستمرت عملية التفكك والتفتت مما تطفح بأخباره كتب التاريخ التي صنفها كبار مؤرخي الإسلام ، كالطبري ، والخطيب البغدادي ، وابن الجوزي ، وابن الأثير ، وسبط بن الجوزي ، والمقريزي ، وابن كثير ، وابن خلدون ، وغيرهم ، وكلهم من كبار الفقهاء والحفاظ .

ولم تنحصر أعمال المغامرين في التغلب على الأقاليم وإنشاء الأسر الحاكمة المستقلة ، بل ظهر مستوى آخر من الصراع بين القوى المحلية داخل الإقليم الواحد ، فنشبت الصراعات المحلية الصغيرة من حين لآخر . ففي الأندلس الأموية «قام محمد بن هشام بن عبدالجبار بن عبدالرحمن الناصر على هشام بن الحكم . . . فخلعه وتسمى بالمهدي . . . ولم يزل المهدي واليا إلى أن قام عليه . . . سنة ٣٩٩ هـ هشام بن سليمان بن عبدالرحمن الناصر مع البربر ، فحاربه بقية يومه والليلة الآتية وصبيحة اليوم الثاني ، فقام عامة أهل قرطبة مع المهدي ، فانهزم البربر وأسر هشام بن سليمان ، فأتي به إلى المهدي فضرب عنقه . . . واجتمع البربر عندئذ [تحت قيادة] سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبدالرحمن الناصر ، فنهض بالبربر إلى الثغر ، واستجاش[(١)] النصارى ، وأتى بهم إلى قرطبة ، فبرز إليه جماعة من أهل قرطبة ، فلم تكن إلا ساعة حتى قتل من أهل قرطبة نيف وعشرون ألف رجل في جبل هناك يعرف بجبل قنطش ، وهي الوقعة المشهورة ، ذهب فيها من الفقهاء والخيار وأئمةالمساجد والمؤذنين خلق كثير .»

«واستتر محمد بن هشام المهدي أياما ، ثم لحق بطليطلة . وكانت الثغور [الأندلسية] كلها ، من طرطوشة إلى الأشبونة باقية على طاعته ودعوته ؛ واستجاش بالإفرنج وأتى بهم إلى قرطبة ، فبرز إليه سليمان بن الحكم مع البربر ، إلى موضع بقرب قرطبة . . . فانهزم سليمان والبربر واستولى المهدي على قرطبة . ثم خرج بعد أيام إلى قتال جمهور البربر ، وكانوا قد عاثوا بالجزيرة . . . فكانت الهزيمة على محمد بن هشام المهدي ، وانصرف إلى قرطبة ، فوثب عليه العبيد مع واضح الصقلبي فقتلوه ، وردوا هشاما المؤيد [(٢)] .»

---

(١) أي طلب أن تأتي الجيوش لمساعدته ، وهي في هذه الحالة جيوش المسيحيين .

(٢) عبدالواحد المراكشي ، ***المعجب في تلخيص أخبار المغرب*** ، ص ٨٨-٨٩ .

وفي أفريقية ، أي تونس الحالية تقريبا ، كان الوالي إبراهيم بن أحمد بن الأغلب التميمي « شديد الظلم متعطشا لسفك الدماء امتدت ولايته ثمان وعشرين سنة ، حيث «أسرف في القتل وأفنى أصحابه وكتابه وحجابه ، حتى قتل ابنه المكنى بأبي الأغلب . وقد قيل إنه افتقد منديلا صغيرا كان يمسح به فمه من الشراب ، وقد سقط من يد بعض جواريه ، وألقاه خادم له فقتل بسببه ثلاثمائة خادم . ولما قتل ابنه أبا الأغلب [كان ذلك] لظن ظنه به ، فضربت عنقه بين يديه ، وقتل ثمانية إخوة له رجالا صبرا بين يديه [(١)] . . .» وفي أواخر أيامه استدعى ابنه عبدالله بن إبراهيم من صقلية وعينه نائبا له في القيروان (تونس) ، وذهب هو إلى صقلية ليتولى أمو رالغزو و«الجهاد» فيها . وبعد موت إبراهيم تولى عبدالله الحكم خلفا لوالده . وقد وصف عبدالله بأنه كان «شجاعا ثبتا ذا بصر بالحروب وتجربة فيها ؛ وكان أديبا عاقلا . . . وفتح بلادا كثيرة للروم . . . فكانت ولايته رحمة نسخت العذاب [الذي سببه والده] ، فقعد بتونس لمظالم الرعية ، ولبس الصوف وأظهر العدل . . .» وكان قد سجن ابنه زيادة الله عقابا على ذنوب ارتكبها . ولم تطل أيام عبدالله بن الأغلب ، إذ تآمر عليه بعض خدمه فقتلوه وهو نائم ، وقطعوا رأسه ثم قدموه إلى ابنه المسجون زيادة الله ، تقربا إليه . «ولما صح عند زيادة الله قتل أبيه فك قيوده ، وبادر [إلى تولي السلطة] خوفا من أن يسبقه إلى الأمر أحد أعمامه . . .» ثم استدعى الوزير ، وكبار القواد العسكريين ، ودفع لهم الأموال ، وأخذ عليهم البيعة لنفسه ، ووزع على الجند بعض الأموال ، وخاطب عمال الأقاليم ، ثم أمر بالقبض على جميع أعمامه ، »وبعث بهم إلى جزيرة الكراث ، من بحر تونس ، فقتلوا بها . . . ثم قتل عمه الزاهد بسوسة ، وولى وزارته عبدالله بن الصائغ المشهور بالفضل والأدب[(٢)]» .

وفي سنة ٢٦٠ هـ كان والي الموصل يسمى أذكوتكين ، نائبا عن أبيه الذي كان من كبار القواد ببغداد . «فلما كان يوم النيروز من هذه السنة [وهو يوم عيد موروث عن الفرس القدماء] ، وهو الثالث عشر من نيسان . . . دعا أذكوتكين وجوه أهل الموصل إلى قبة في الميدان ، وأحضر أنواع الملاهي ، وأكثر الخمر ، وشرب ظاهرا ، وتجاهر أصحابه بالفسوق وفعل المنكرات ، وأساء السيرة في الناس . وكانت تلك السنة

(١) لسان الدين ابن الخطيب ، *أعمال الأعلام* ، قسم ٣ ، ص ٢٩-٣٠ .

(٢) المصدر نفسه ، قسم ٣ ، ص ٣٧-٣٨ .

[ذات] برد شديد أهلك الأشجار والثمار والحنطة والشعير ، [ومع ذلك فقد]طالب الناس بالخراج على الغلات التي هلكت ، فاشتد ذلك عليهم . وكان لا يسمع بفرس جيد عند أحد إلا أخذه ؛ وأهل الموصل صابرون ، إلى أن وثب رجل من أصحابه على امرأة فأخذها في الطريق ، فامتنعت واستغاثت ، فقام رجل اسمه إدريس الحميري ، وهو من أهل القرآن والصلاح فخلصها من يده . فعاد الجندي إلى أذكوتكين فشكا من الرجل ، فأحضره وضربه ضربا شديدا من غير أن يكشف الأمر [دون تحقيق] ، فاجتمع وجوه أهل الموصل إلى الجامع وقالوا : قد صبرنا على أخذ الأموال وشتم الأعراض وإبطال السنن ، وقد أفضى الأمر إلى أخذ الحريم ، فاجتمع أمرهم على إخراجه والشكوى منه إلى الخليفة . وبلغه الخبر ، فركب إليهم في جنده ، وأخذ معه النفاطين ، فخرجوا إليه وقاتلوه قتالا شديدا حتى أخرجوه عن الموصل ، ونهبوا داره وأصابه حجر فأثخنه . . .» فترك الموصل وسار إلى سامرا . ولما عاد إلى سامراء وعرف والده (أساتكين) تفاصيل ما جرى عين نائبا غيره على الموصل ، اسمه إسحاق بن أيوب التغلبي ؛ وتوجه التغلبي إلى الموصل على رأس جيش من عشرين ألفا . . . فقاتله أهل الموصل ومنعوه ، فبقوا كذلك مدة ، ثم مرض يحيى بن سليمان الأمير ، [أمير أهل الموصل] ، فطمع إسحاق في البلد ، وجد في الحرب . . .» وأحرز نصرا أوليا ودخل البلد ، فبرز من بين الموصليين قائد جديد ، فشنوا هجوما مضادا وتمكنوا من طرد إسحاق وجنوده وأبعدوهم عن المدينة [1] .

وفي سنة ٣٠١هـ انفجر الصراع داخل الأسرة السامانية الحاكمة في ولاية خراسان . فقد كان حاكم الولاية هونصر بن أحمد بن إسماعيل الساماني ، وقد حاول عم أبيه ، واسمه إسحاق بن أسد ، اغتصاب الحكم من نصر . وكان إسحاق في سمرقند ، ومنها أعلن انشقاقه بمساعدة ابنه إلياس الذي تولى قيادة الجيش . وبعد قتال شديد فشلت المحاولة الانقلابية وحلت الهزيمة بإسحاق ، وطاردته قوات الحاكم وتمكنت من الاستيلاء على سمرقند . أما إلياس بن إسحاق فقد فر إلى فرغانة وبقي بها فترة ترقب ثم قام بمحاولة ثانية لم يكن حظه فيها بأفضل من حظ أبيه إسحاق[2] . وفي سنة ٣٠٢هـ قام منصور بن إسحاق بتمرد حاول به انتزاع إمارة

---

(١) إبن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٧ ، ص ٢٦٩-٢٧١ .

(٢) ***المصدر نفسه*** ، مجلد ٨ ، ص ٨٠ .

خراسان من قريبه نصر بن أحمد الساماني ، لكن تمرده أخمد أيضا [(١)] . وفي سنة ٣١٠هـ عاود إلياس بن إسحاق الساماني المحاولة لانتزاع الحكم من قريبه الأمير نصر بن أحمد الساماني ، فتحرك على رأس جيش من ثلاثين ألف فارس للاستيلاء على سمرقند ، لكن التمرد سحق مثل ما حدث في المحاولات السابقة [(٢)] .

وهذا الذي مررنا على ذكره باختصار عن الصراعات في الأقاليم البعيدة عن دار الخلافة ، وبين أفراد وفروع الأسر الحاكمة فيها ، إنما عددنا فيه أمثلة قليلة جدا ، وتركنا كثيرا غيرها . ولم يكن غرضنا فيما سبق رواية تاريخ ملوك البويهيين ، أو سلاطين السلاجقة أو الخلفاء ، بل أردت - كما بينت في المقدمة - البحث عن المحرك الإسلامي والدافع العقيدي في المواقف والسلوك ، وما إذا كان حاضرا أم غائبا ؛ وكذلك كان يهمنا البحث عن المستوى الحضاري في سلوك الأفراد ، وسلوك مختلف الشرائح المجتمعية في مجمل الفترة التي تغطيها هذه الدراسة . وإذا كنا قد استعرضنا سلوك الخلفاء عبر عهود الأمويين والعباسيين المتقدمين والمتأخرين ، كما استعرضنا سلوك الملوك البويهيين والسلاطين السلاجقة بالقدر الذي رأيناه مناسبا ، وكان حديثنا عنهم أحد المحاور الرئيسية في تتبعنا لمسيرة الأحداث ، فقد بقي علينا أن نقدم أمثلة من سلوك الشرائح المجتمعية الأخرى ، من العسكريين ، والوزراء ومعهم الإداريين ، ثم ما كان يسمى بـ «العامة» ، أي عامة الناس البسطاء والفقراء . أما الشريحة التي لا يصح أن تنسى ، أو يغض الطرف عن سلوكها وتصرفاتها ، فهي شريحة العلماء والفقهاء ومن دخل في معنى هذه التسمية ، بقدر أو آخر ، من العناصر الناشطة والمتحركة والمؤثرة من خلال منظورها الديني . غير أننا لن نتناول موضوع العلماء والفقهاء على غرار تناولنا للشرائح التي تحركت من خلال الأطر السياسية السائدة ، بل سنتناوله ضمن بحثنا عن دور الفكر والتشريع ؛ ذلك لأن علماء الدين والفقهاء حرصوا ، أو حرصت أغلبيتهم الساحقة ، على تجنب القيام بأي دور سياسي ، بينما كان دورهم الرئيسي في مجال الفكر ، إيجابا أو سلبا .

---

(١) ***المصدر نفسه*** ، ص ٨٧-٨٩ .

(٢) ***المصدر نفسه*** ، ص ١٣٢-١٣٤ .

الفصل الثاني عشر

الشرائح الإجتماعية: عبء الكوارث وردود الفعل

العسكر:

مقدمة:

لما اضطر المسلمون إلى الدفاع عن أنفسهم وعن عقيدتهم بقوة السلاح وأذن لهم بذلك [(١)] صار كل الرجال البالغين الأصحاء جندا تحت الطلب ، يلبون النداء كلما دعت الحال إلى التصدي للعدو وخوض غمار الحروب . لم يكن للمسلمين جيش محترف ، ومتفرغ أثناء السلم والحرب سواء ؛ ولم يكن المقاتلون المسلمون في حالة الحرب يتلقون عطاء أو مرتبات منتظمة ، لا في عهد الرسول ﷺ ولا في عهد خليفته الأول وبعض من عهد خليفته الثاني رضي الله عنهما ، بيد أنهم كانوا يحصلون على أنصبة من غنائم الحرب ، تبلغ في مجملها أربعة أخماس الغنائم ، حسب نص القرآن الكريم .

وفي عهد عمر بن الخطاب أمر الخليفة بتسجيل أسماء الناس في الديوان ، أي ألسجل ، لتحديد مقدار ما يعطى إلى كل منهم ، وهو مقدار مالي أو ما يساويه . وفي السنوات الأولى من عهد الفتوح بنيت القواعد العسكرية في الأقاليم التي غطتها أجنحة الدولة الإسلامية ، مثل البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان ، وتمركزت في تلك القواعد قوات شبه محترفة ، ترابط لتثبيت الفتح ، وللمساهمة في الحملات الموجهة للدفاع عن الكيان الإسلامي كلما دعت الحاجة . بيد أنها كانت تمارس قدرا من الأنشطة المدنية في الفترات التي لا يكون فيها قتال .

ومع مجئ القرن الهجري الثاني أخذت تتزايد أعداد الداخلين في الإسلام من أهل البلاد المفتوحة ، كما أخذ بعض الفاتحين العرب يستقرون في تلك الأقاليم أو يميلون إلى الاستقرار والاندماج في الحياة المحلية ، حيث يمارسون الزراعة والتجارة .

(١) **سورة *الحج*** ، آية رقم ٣٩ .

كـذلك بدأت العناصـر المنضـوية تحت لواء الإسـلام في الأقـاليم تدخل الخـدمـة العسكرية . حتى إذا قامت الثورة العباسية التي ساهم فيها الموالي مساهمة كبيرة بجانب عرب خراسان أصبحت العناصر الفارسية تمثل شطرا كبيرا من القوات العسكرية ، رغم أن هذه العناصـر لم تكن كل أو جل القوى التي أطاحت بالحكم الأموي كما كان شائعا .

إلا أن العباسيين اتجهوا - بعد استقرار الحكم في أيديهم - إلى زيادة اعتمادهم على العناصر غير العربية في تكوين جيوشهم ، من أتراك وسط آسيا ، ومن الفراغنة والهياطلة وغيرهم من الشعوب . ولم يكن صحيحا نسبة إحداث هذا التطور إلى المعتصم العباسي ، فقد ظهرت هذه العناصر الآسيوية في الجيش العباسي منذ عهد المهدي (١٥٨ - ١٦٩هـ) ؛ ففي الثغور الشامية حيث تركزت الجهود العسكرية للعباسيين نجد أعدادا من القيادات العسكرية العليا في أيدي الأتراك وغيرهم من الآسيويين . وهنا زاد مستوى الاحتراف العسكري لدرجة كبيرة ، بيد أنه كان احترافا تعوزه «بوصلة» تحدد الولاء [١] . بل إننا نجد في مصادرنا ذكر الموالي المقاتلين حتى في زمن الصحابة رضوان الله عليهم . ولسنا هنا بصدد تفسير هذه الظاهرة ، إذ سنحاول تفسيرها فيما بعد ، لكن الذي يهمنا هنا هو أن نرسم صورة للمراحل التي تدرج فيها الجند على طريق التحول من كونهم أداة عسكرية تحقق أهداف الأمة ، وتنفذ سياسات وتوجيهات القيادة المتمثلة بالخليفة ، رأس الدولة والمجتمع ، إلى حيث صاروا قوى تسيطر على الخليفة وتعبث بالخلفاء وتعزلهم وتوليهم ، وتشيع التفكك واليأس في بناء الدولة والأمة ، ثم تعيث هي نفسها بكيان الأمة ؛ بينما تفشل فشلا ذريعا صارخا في أداء واجباتها العسكرية ، سواء في حماية المجتمع من القلاقل الداخلية أو في مواجهة الأعداء الخارجيين . ولسنا نبتعد عن الحقيقة إن قلنا إن بعض دول عالم الإسلام ما زالت تحت حكم هؤلاء العسكر الذين وصفنا فشلهم وعبثهم ، سواء كان حكمهم بإسمائهم وبزاتهم العسكرية أو كان بواجهة مدنية فاسدة تتقاسم معهم المنافع المسروقة أو تنال نصيبا ضئيلا منها ؛ والنتيجة هي خراب الوطن وتخلفه وتفكيك بنيته الاجتماعية ، وما يتبع ذلك من نتائج معروفة يغنينا وضوحها عن شرحها . وبينما ينشغل المؤلف بإعداد نص الطبعة الثانية من هذا الكتاب ونحن في

(١) موالي عثمان بن عفان (رضي . . .) ، موالي عمرو بن سعيد .

منتصف شهر شباط (فبراير) ٢٠١٢ م فإن بإمكاننا أن نشير إلى ثورات عدد من الشعوب العربية حيث تمكن الشعب التونسي والشعب المصري والشعب الليبي من إسقاط الأنظمة الفاسدة التي قامت بفعل الانقلابات العسكرية واستمرت بالاستناد إلى الدكتاتورية المدعومة من العسكر الذين ضعف ولاؤهم لأوطانهم وشعوبهم (١) . وما زال الشعبان السوري واليمني يجاهدان للتحرر من الدكتاتورية العسكرية ، وقد تلتحق شعوب أخرى بالقطار في وقت غير بعيد .

لقد كانت حادثة اغتيال المتوكل سنة ٢٤٧هـ هي التي فتحت الباب على مصراعيه لتسلط الجند وعبثهم ، لكنها كانت حلقة في سلسلة تطورات سابقة ولاحقة ظلت تسير في اتجاه منحدر يزداد سوءا وتزداد شروره استفحالا . ولا حاجة بنا إلى إعادة سرد أخبار الاضطرابات التي تلت قتل المتوكل واستمرت ما يقرب من عشر سنوات ، إذ أننا أشرنا إليها في صفحات سابقة . وقد طرأ تحسن مؤقت في مستوى انضباط قوات الجيش العباسي استمر خلال عهود المعتمد ، والمعتضد ، والمكتفي (٢٥٦-٢٩٥هـ) ، وذلك نتيجة لسياسة وصلابة طلحة ، أخي الخليفة المعتمد ، الذي عرف بلقب الموفق ، ثم سياسة ابنه وحفيده اللذين توليا الخلافة تباعا بعد موت المعتمد سنة ٢٧٩هـ . بيد أن هذا التحسن ما لبث أن انتكس بتولي المقتدر ، الخليفة الطفل سنة ٢٩٥هـ في الظروف التي وصفنا فيما سبق . ويمكن أن نعدد مظاهر الفساد التي صبغت حياة الجند وتفشت من خلال ممارساتهم على النحو التالي :

١ - الميل إلى حياة الدعة والتهرب من المشاركة في تأدية الواجبات العسكرية بجدية وإخلاص .

٢ - الجشع للمال واللجوء إلى الشغب للضغط على الحكام للحصول على علاوات ومنح وعطاءات إضافية ، خاصة في المناسبات ، عند تولي خليفة أو ملك ، أو عندما يطلب منهم الذهاب إلى الحرب أحيانا ، أو عندما يتحقق النصر في معركة بعينها .

---

(١) وستحتاج هذه الشعوب الثلاثة إلى وقت قد يمتد سنوات لتثبيت مبادئ الحرية وحكم الشعب نفسه بنفسه . الطبري ، م ٨ ، ص ٢٩٠ ، ٤١١- ٤١٤ ، ٤١٦ - ٤١٧ ، ٤٢٥ - ٤٢٩ ، ٤٧٨- ٤٧٩ ، ٤٨٦- ٤٨٧ .

٣ – الفشل في الثبات أمام العدو والفرار من ميدان المعركة طلبا للنجاة .
٤– تسلط قادة العسكر على الخلفاء والحكام الضعاف ، خاصة منذ منتصف القرن الثالث الهجري .
٥ – التنافس الشديد بين القادة العسكريين تنافسا سرعان ما يتحول إلى صراع دموي للسيطرة على المراكز المهمة التي تمكن شاغلها من التحكم في الأموال ، والمناطق الغنية وغير ذلك من الفوائد المادية المتنوعة .
٦ – تولي بعض القادة العسكريين حكم أقاليم الدولة عن طريق التغلب عليها رغم إرادة الخليفة ، وإجبار الخلفاء على الرضوخ للأمر الواقع .
٧ – التعدي على المدنيين والإسراف في جمع الضرائب ، وجمعها أكثر من مرة في السنة الواحدة .
٨ – اللجوء إلى السلب والنهب في حالات التمرد أو بغرض إعلان عصيان أوامر الخليفة أو الملك أو الوالي – إن حدث ذلك في الأقاليم – أو لمجرد الحصول على المال ؛ وفي كل الحالات يذهب المدنيون ضحية الانفلات المجنون .
٩– تغيير الولاءات بشكل متكرر من حاكم إلى آخر ، ومن قائد إلى غيره ، تحت وطأة الإغراءات المالية .
١٠– تدني المستوى الخلقي الشخصي حيث فشا شرب الخمر والزنا وممارسة العمل الجنسي بين الذكور ، وغير ذلك من الانحرافات .

وإذا غضضنا الطرف عن التفكك الذي اعترى الجيش الإسلامي المكون من العرب نتيجة للصراع الداخلي الذي نشب في أواخر العهد الراشدي وأثناء العهد الأموي ، فإن علينا ان نتلمس جذور تدهور القوة العسكرية لدولة الخلافة من خلال تتبع تطور الجيش العباسي . لقد انطلقت الثورة العباسية ترفع السلاح أول مرة في خراسان ، وبرز على رأس القوات العباسية الثائرة ، وعلى رأس الإدارة العباسية فيما بعد نفر من الموالي . وكان من أبرز الأسماء المشهورة في هذا السياق عبدالرحمن بن مسلم ، الملقب بأبي مسلم الخراساني ؛ ومن هذه الفئة أيضا أبو سلمة الخلال ، وآل برمك ، وآل سهل ، وطاهر بن الحسين وأبناؤه وحفدته . ويبدو أن بروز هذه الأسماء على السطح ، مع وجود عدد كبير من الموالي بين أنصار الثورة العباسية حمل كثيرين من المؤرخين المعاصرين ، الغربيين والعرب ، على الاعتقاد بأن الثورة كانت ثورة

فارسية ، أو أن الفرس كانوا عمادها والمستفيد منها . وقد شاعت هذه المقولة سنين طويلة ، غير أن الدراسات الحديثة أثبتت عدم صحتها ؛ فنقباء الدعوة العباسية في مرحلة السرية كان منهم العرب ومنهم الموالي ، بعدد يكاد يكون متساو لكل من هذين الفريقين ؛ كما أن الذين حركوا الثورة وقاموا بدور عسكري رئيسي فيها كانوا من عرب خراسان ، من قبائل تميم والأزد وبكر بن وائل وعبد القيس . وقد ظل العرب يشكلون عنصرا مهما في القوات العباسية ويحتلون أرفع المناصب القيادية إلى ما بعد وفاة الرشيد سنة ١٩٣هـ . ومنذئذ أخذ العنصر العربي في الجيش يفقد قيمته بسرعة كبيرة ؛ وما لبث العرب أثناء هذا التطور أن فقدوا صفاتهم وميزاتهم العسكرية والقتالية ؛ وسرعان ما صرنا نشاهد القبائل العربية ، في قلب جزيرة العرب ، تعود إلى حياة السلب والنهب والغزو الداخلي ، حتى أن المدينة – مدينة رسول الله ﷺ – نفسها تعرضت لمثل هذا الغزو . [أنظر ص ١٩٥ــ من هذا الكتاب ط ٢٠٨] .

والذي يعنينا هنا ليس تكوين الجيش من الناحية العرقية ، بل تدهور هذا الجيش وتفسخه وتحوله إلى مصدر فساد وتخريب ، واضطراب وقلق ، بدلا من أن يكون مصدر أمان واستقرار .

بداية التفسخ:

فعلى أثر انتصار العباسيين وإحساس المنتصرين بضخامة الإنجاز الذي حققوه ظهر اتجاه لمكافأة من ساهموا فيه بمساهمات كبيرة ، رغبة في استدامة ولائهم للأسرة العباسية ، سيما مع ظهور تحركات المعارضة العلوية . وهكذا أغدقت الأموال والامتيازات على المقاتلين الذي أطلق عليهم اسم «الأبناء» ، أبناء الدعوة ، أو الثورة أو الدولة العباسية ، تكريما لهم . وقد اتخذ هؤلاء الجند من بغداد دارا ومستقرا ، وانغمسوا في حياة الدعة والترف ، وأصبحت امتيازاتهم حقا ثابتا لا يجوز – في نظرهم – أن يبخسوه أو ينقصوه . وورث أولادهم مراكزهم ومكانتهم وامتيازاتهم . وقد ظل الأبناء يشكلون نسبة كبيرة من جنود الجيش العباسي حتى انفجار الصراع بين الأمين والمأمون سنة ١٩٥هـ . بل إن القوات التي وجهها الأمين لحرب قوات أخيه كانت ، في معظمها ، من الأبناء (١) .

---

(١) مجلد ٩ ، ص ١٨.

ويبدو أن تدهور المستوى العسكري للأبناء دفع العباسيين إلى تكوين قوات جديدة من خراسان ، نسب تكوينهم إلى الفضل بن يحيى [البرمكي] وأطلق عليهم اسم «العباسية» ؛ ويقال إن عدتهم بلغت خمسمئة ألف رجل ، وأن عشرين ألفا منهم أرسلوا إلى بغداد [١] . . وتحدثنا الروايات التاريخية التي تناولت الصراع بين ولدي هارون الرشيد عن وجود فرقة من الجيش عرفت باسم «الحربية [٢]» .

وعندما تسلم المعتصم منصب الخلافة توسع في إدخال الأتراك في تكوين الجيش ، في محاولة منه – على ما يبدو – للتخلص من مشاكل الجند الذين أفسدتهم حياة المدينة . وقد استقبل البغداديون الأتراك بعداء شديد ، خاصة من الأبناء ، فكانوا يهاجمونهم في شوارع المدينة . وتعلل إحدى الروايات التي نقلها لنا الطبري خروج المعتصم من بغداد وإقدامه على بناء سامراء بأن «غلمانه الأتراك كانوا لا يزالون يوجدون ، الواحد بعد الآخر منهم ، قتيلا في أرباضها ، وذلك لأنهم كانوا عجما جفاة يركبون الدواب فيتراكضون في طرق بغداد وشوارعها ، فيصدمون الرجل والمرأة ويطأون الصبي ، فيأخذهم الأبناء فينكسونهم عن دوابهم ويجرحون بعضهم ؛ فربما هلك من الجراح بعضهم ، فشكت الأتراك ذلك إلى المعتصم ، وتأذت به العامة . . .» فوجد الخليفة الحل في بناء مدينته الجديدة ، والإقامة مع جنده الأتراك فيها . ولعل أحد أهم الأسباب التي حملت المعتصم على الركون إلى الفرق المكونة من الأتراك هو ما اشتهر عنهم من الطاعة المطلقة لرؤسائهم . بيد أن الظروف التي[٣] أفسدت الأبناء ما لبثت أن أفسدت الأتراك كذلك ، وحولتهم من أداة قوة وقهر استخدمها المتربع على كرسي الخلافة ضد المعارضين إلى مصدر رعب وقهر للخلفاء أنفسهم .

تعديات الجند في فترة إضطراب دار الخلافة:

لم يمض على موت المعتصم سوى عشرين عاما حتى أقدم قادة الجند الأتراك على قتل حفيده ، الخليفة المتوكل سنة ٢٤٧هـ ، وأصبحوا – منذئذ – يتحكمون في

---

(١) *المصدر نفسه* ، م ٨ ، ص ٢٥٧ .

(٢) *المصدر نفسه* ، م ٨ ، ٤٢٨–٤٣١ .

(٣) *المصدر نفسه* ، م ٩ ، ص ١٨ .

تعيين الخلفاء وعزلهم أو قتلهم . وقد تآمر على قتل المتوكل كبار قادة الجند الأتراك ، خاصة وصيف وبغا . وتروي المصادر أنهم دخلوا عليه وهو سكران ، يتقدمهم جندي يدعى بغلون التركي ، يتبعه باغر ، وموسى بن بغا ، وهارون بن صوراتكين ، وبغا الشرابي ؛ وقد «ابتدره بغلون فضربه ضربة على كتفه وأذنه فقده . . . فاستقبله بيده فأبانها ، وشاركه باغر ، فقال الفتح [ابن خاقان ، الوزير] : ويلكم ، أمير المؤمنين! فقال بغا : يا حلقي ، لا تسكت! فرمى الفتح بنفسه على المتوكل ، فبعجه هارون بسيفه ، فصاح : الموت! واعتوره هارون وموسى بن بغا بأسيافهما [كذا] فقتلاه وقطعاه . . .» وكان خمسة من أبناء وصيف ضمن الجماعة التي قتلت المتوكل . وبعد أن تمت العملية خرجوا إلى المنتصر «فسلموا عليه بالخلافة ، وقالوا : مات أمير المؤمنين . . .» وهكذا خلف أباه [(١)] .

ومكث المنتصر في الخلافة ستة أشهر فقط ، مات بعدها ، ووردت في تعليل موته عدة روايات ، ذهب بعضها إلى أنه مات مسموما ، بينما ذهبت رواية أخرى إلى أن موته كان بعلة مرضية . وحرص الجند ، بعد المنتصر ، على ألا يتولى الخلافة أحد من أبناء المتوكل ، فنصبوا المستعين ، وهو أحمد بن محمد بن المعتصم . وقد أراد الأتراك قتل المعتز والمؤيد ابني المتوكل ، لكن الوزير أحمد بن الخصيب أقنعهم بحبسهما ، ففعلوا . وقد كوفئ قتلة المتوكل بالإقطاعات ، على الدور الذي قاموا به . وروى الطبري أن باغر قال لأصحابه : «الزموا الدار [دار الخلافة] حتى نقتل المستعين وبغا ووصيف ، ونجيء بعلي بن المعتصم ، أو بابن الواثق ، فنقعده خليفة حتى يكون الأمر لنا كما هو لهذين اللذين استوليا على الدنيا ، وبقينا نحن في غير شئ . [(٢)]»

وما لبث المستعين أن غادر سامراء إلى بغداد خوفا من القتل ، وسار معه بغا ووصيف وشاهك الخادم ، وأحمد بن صالح بن شيرزاد . لكن قادة الجند الذين ظلوا في سامراء لم يمكثوا طويلا حتى قرروا التوجه إلى بغداد ، ودخلوا على الخليفة «وألقوا بأنفسهم بين يديه ، وجعلوا مناطقهم في أعناقهم تذللا وخضوعا ، وسألوه الصفح عنهم والرضا . لكن المستعين رد عليهم بقوله : «أنتم أهل بغي وفساد . . . ألم ترفعوا إلي في أولادكم فألحقتهم بكم ، وهم نحو ألفي غلام؟ [الحقهم بهم في العلاوات

(١) *المصدر نفسه* ، مجلد ٩ ، ص٢٢٢-٢٢٨ .

(٢) الطبري ، مجلد ٩ ، ص ٢٧٨-٢٨١ .

ومنافع الوظيفة] ، وفي بناتكم فأمرت بتصييرهن في عداد المتزوجات وهن نحو من أربعة آلاف؟ وغير ذلك كله أجبتكم إليه ، وأدررت عليكم الأرزاق ، واقتنيتم آنية الذهب والفضة ، ومنعت نفسي لذتها وشهوتها إرادة لصلاحكم ورضاكم ، وأنتم تزدادون بغيا وفسادا [(١)] .» وقد رفض المستعين أن يعود معهم إلى سامراء فامتلأت نفوسهم عليه حنقا وحقدا ، فعادوا من غيره ، إلا أنهم لم يلبثوا أن خلعوه وعينوا المعتز خليفة بعد أن أخرجوه من الحبس . ثم حاصر جند سامراء بغداد ، وصاحبت الحصار معارك استمرت أحد عشر شهرا بين كر وفر حتى تمكنوا من خلع المستعين وأجبروه على أن يبايع المعتز بالخلافة . وقد اعتقل الخليفة المخلوع إلى أن قتل بعد ذلك بفترة قصيرة [(٢)] .

وبجانب هذا الصراع فقد وقعت مناوشات بين فرقة الجند المغاربة وفرقة الجند الأتراك ، وكلا الفريقين كانا ممن أيد بيعة المعتز وخلع المستعين . وقد بدأ الصراع بينهما عندما وثب الأتراك بعيسى بن فرخانشاه فضربوه وأخذوا دابته ، فثار له المغاربة وهاجموا الأتراك وأخرجوهم من الجوسق . فاستنجد الأتراك ببقية جماعتهم «وتلاقوا هم والمغاربة . وأعان الغوغاء والشاكرية المغاربة ، فضعف الأتراك وانقادوا . . .» وجرى الصلح بين الفريقين [(٣)] .

وكان الأتراك والمغاربة قد عاثوا في ولاية حوض الفرات من أرض العراق ، وأفسدوا وتلصصوا ، فوجه إليهم واليها جندا لإخراجهم منها [(٤)] . وبجانب ذلك كان أحد قادة الجند قد هرب بعد قتل المعتز ومعه ثلة من الجند الأحباش ، واسمه شريح الحبشي . وقد سار بجنده إلى منطقة تقع بين واسط والأهواز وبلاد الجبل ، وأخذ يقطع الطريق . ثم أنه نزل في خان إحدى القرى ومعه زمرته فشربوا وسكروا ، فوثب عليهم أهل القرية فكتفوهم . . .» وحملوا إلى بغداد حيث أعدم قائدهم وجلد الباقون[(٥)] . وقد كثرت النزاعات بين فرق وجماعات الجند المختلفة في تلك الفترة ، إذ

---

(١) إبن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٧ ، ص ١٤١-١٤٢ .

(٢) الطبري ، مجلد ٩ ، ص ٢٨٢-٣٥٣ .

(٣) إبن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٧ ، ص ١٧٣-١٧٤ .

(٤) الطبري ، م ٩ ، ص ٣٥٣ .

(٥) ***المصدر نفسه*** ، ص ٣٥٤ ، والطبري كان معاصرا للأحداث ، وكان يعيش في بغداد .

نقرأ انه في تلك السنة نفسها انفجرت صدامات بين الجند ببغداد بسبب مطالبتهم برواتبهم وأرزاقهم ، الأمر الذي لا يتسع المجال لعرضه بالتفصيل ، وذكر ما كان ينتج عنه من خراب ودمار ، وما لحق بعامة الناس من جرائه من أذى [١] .

وتواصل عبث الجند بالخلافة ، فقد أقدم الجند على عزل المعتز بعد أن عجز عن إعطائهم ما طالبوه به من مال ؛ وقد قيل إنهم دخلوا عليه «فجروه برجله إلى باب الحجرة ، وضربوه بالدبابيس ، وخرقوا قميصه ، وأقاموه في الشمس في الدار ، فكان يرفع رجلا ويضع أخرى لشدة الحر ؛ وكان بعضهم يلطمه وهو يتقي بيده .» وقد أنهوا هذا الفصل بأن أدخلوا الخليفة المذكور في سرداب ، وجصصوا عليه ، فمات» [٢] ؛ أي أنهم جعلوا عامل بناء يسد باب السرداب بالجص ليختنق المحبوس بفقدان الأكسجين .

وقد ألقى صالح بن وصيف ، أحد قادة الجند وابن «الجنرال» وصيف الذي شارك في قتل المتوكل ، ألقى القبض على أم المعتز وصادر أموالها ثم تركها تذهب إل مكة . ويروى أن بعض من كانوا يشاركون في الحج ويطوفون حول الكعبة سمعها وهي تدعو بصوت عال على صالح بن وصيف وتقول : «اللهم اخز صالحا كما هتك ستري ، وقتل ولدي ، وشتت شملي ، وأخذ مالي ، وغربني عن بلدي وركب الفاحشة مني [٣]»

ثم تولى المهتدي منصب الخلافة في رجب سنة خمس وخمسين ومئتين لكنه خلع وقتل بعد سنة واحدة ؛ على الرغم من أنه يوصف بالصلاح والزهد والاستقامة – حسب ما ترويه المصادر – وأنه كان يجلس للمظالم ، فضلا عن أنه حاول إصلاح أوضاع الخلافة المتردية إلا أنه تحطم على صخرة العسكر . ثم إنهم أحضروا أحمد بن المتوكل ، وجعلوا منه خليفة جديدا ، وبايعه عامة الناس [٤] .

---

(١) ***المصدر نفسه*** ، ص ٣٥٦ و٣٦١ و٣٦٩ .

(٢) إبن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٧ ,ص ١٩٥ – ١٩٦ .

(٣) ***المصدر نفسه*** ، ص ٢٢٩ – ٢٣٠ .

(٤) ***المصدر نفسه*** ، ص ٢٢٩ – ٢٣٠ و٢٣٥ .

مزيد من مشاهد عبث الجند :

وبعد وفاة المكتفي (علي بن المعتضد) سنة ٢٩٥هـ انتكس وضع الخلافة والمجتمع ، وعاد عبث الجند بالخلفاء والخلافة من جديد . ففي السنوات التسع والثلاثين التي تلت موت المكتفي تولى منصب الخلافة خمسة من بني العباس ، هم : المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ) ، والقاهر (٣٢٠ - ٣٢٢ هـ) ، والراضي (٣٢٢ - ٣٢٩ هـ) ، والمتقي (٣٢٩ - ٣٣٣ هـ) ، والمستكفي (٣٣٣ - ٣٣٤ هـ) . وكان أطول هؤلاء الخمسة مدة هو جعفر المقتدر ؛ وقد خلعه الجند سنة ٢٩٦ هـ ، وعاد إلى منصبه بعد يوم واحد ، ثم خلع مرة ثانية سنة ٣١٧هـ ، وعاد إلى منصبه في نفس السنة ، ثم قتله الجند سنة ٣٢٠هـ . ثم ولى الجند القاهر الخلافة مدة تقرب من سنتين ، ثم هاجموا دار الخلافة وسملوا عينيه وعزلوه وعينوا الراضي بدلا منه . وقد استمرت خلافة الراضي سبع سنوات تقريبا ، وتوفي وفاة طبيعية سنة ٣٢٩ هـ ، ومع ذلك فقد تعرض للمهانة ، واضطر إلى مغاردة بغداد هربا ، لكنه لم يسمل ولم يقتل ، وهذا يعتبر إنجازا عظيما في التلك السنوات المثقلة بالدماء والقساوات . وقد خلع المتقي وسملت عيناه ، كما أن المستكفي - الذي شهد سقوط بغدداد في أيدي البويهيين - خلع وسملت عيناه .

الجند وتعدياتهم في عهد البويهيين:

وفي العهد البويهي ظهرت مشكلة تكرار تمرد الجند منذ السنة الأولى لسيطرتهم على العراق ، أي سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م ؛ فقد تمرد الجند على معز الدولة ، فوجهوا له الإهانات وشتموه بسبب تأخره في دفع مخصصاتهم . وفي هذا الموقف الصعب تعهد لهم أحمد بتسوية الموضوع في وقت قريب حدده من غير أن يكون واثقا من قدرته على الوفاء . وهكذا اضطر إلى اغتصاب أموال الناس ظلما وعدوانا . ولما لم تف الأموال المغتصبة بالمتطلبات الملحة لجأ إلى اغتصاب ضياع الخليفة ، وضياع المستترين ، وضياع ابن شيرزاد ، وحق بيت المال في ضياع الرعية [١] ، وصار أكثر

(١) أي العشور ، أو الخراج التي كانت تجبى عن ناتج تلك الضياع لصالح بيت المال ، فصارت تذهب إلى المقطعين (بفتح الطاء) من كبار قادة الجند وليس إلى بيت المال .

السواد مغلقا ، وزالت أيدي العمال عنه (١) . ونتج عن ذلك أن خرجت القرى التي كانت لدار الخلافة من حسابات الدخل العام لأن ناتجها صار للمقطع ، (أي الذي أعطي له الإقطاع) وليس إلى بيت المال . وكان كثير من تلك القرى قد أصابها الخراب والدمار بسبب المصادمات والنزاعات المتكررة وأعمال النهب والتخريب في مرحلة الفوضى التي رانت على دار الخلافة ، أي قبل مجيئ البويهيين إلى العراق . وقد أخذ كبار المقربين من معز الدولة لأنفسهم القرى العامرة ، وتركوا القرى الخربة لمن هم دونهم في المرتبة . وقد ازدادت القرى العامرة ازدهارا وعمارا من خلال سعة نفوذ أصحابها الجدد ، بينما ازدادت القرى الضعيفة والخربة خرابا ، فأصبحت عبئا على أصحابها بدلا من أن تكون مصدر دخل ومنفعه ؛ وهنا ردها أصحابها إلى الملك معز الدولة وطلبوا تعويضهم عنها ، فلم يستطع إلا أن يلبي طلباتهم . ولم يكن العسكريون يهتمون بصيانة وتنظيف قنوات الري ، وصيانة الطرق ، لأن ذلك كان يحملهم بعض المصاريف . وهكذا تلف الكثير من شبكة قنوات الري .

وكان من الإجراءات الأمنية التي اتخذها معز الدولة بعد امتلاكله العراق أنه كان يكلف بعض كبار أتباعه حماية منطقة معينة وحفظ الأمن فيها ، فكان المكلف يتخذ المنطقة مقرا له ، ولأخوته وأقاربه وعشيرته . ثم صار أولئك المكلفون يدعون أن الإنتاج قليل ، وأن ذلك يؤدي بهم إلى تحمل خسائر مالية . وقد استخدمت الرشوة أحيانا ، ونفوذ الأقوياء في حالات أخرى لمنع الوزير أو المفتشين المنتدبين من الوزارة من زيارة المنطقة للتأكد من صحة تلك الإدعاءات وإعلان الحقيقة القائمة على الأرض . ويبدو أن الديلم كانوا هم الأكثر جرأة على بني بويه ، باعتبارهم من جنسهم (٢) ؛ ولذا فقد اتجه معز الدولة إلى الاعتماد على غلمانه من المرتزقة الأتراك ليحصن نفسه بهم من خطر بني جنسه . وهكذا صار يقوي الأتراك ويزيد في

---

(١) مسكويه ، *تجارب الأمم* ، مجلد ٢ ، ص ٩٦ ؛ والمقصود بـ«السواد» وهو جميع الأراضي الخضراء بالأشجار والمزروعات ، لأن العرب كانوا يسمون القسم الأخضر من العراق بـ«السواد» لأنه كان يبدو لهم أسودا عندما ينظرون إليه من بعيد .

(٢) يقارن ذلك مع موقف كبار الديلم من علي بن بويه ، المؤسس الأول لملك بني بويه قبل فتحهم للعراق عندما كان علي ملكا على شيراز ، إذ كانوا يرون أنفسهم أكرم أرومة ومحتدا ، وأحق بالملك منه . أنظر مسكويه ، تجارب الأمم ، مجلد ٢ ، ص ١٢١ – ١٢٢ .

إقطاعاتهم ، فحسدهم الديلم وحقدوا عليهم ، وأدى ذلك إلى التنافر والعداء ، وكثير من الصدامات والحروب بين مختلف جماعات الجند ، من الديلم والأتراك ، والأكراد ، والعرب ، والسودان ، وغيرهم (١) ، الأمر الذي يتكرر ذكره كثيرا في حوليات المؤرخين . والحقيقة أن مشاكل الجند لم تكد تخلو من ذكر أخبارها سنة واحدة في الحوليات التاريخية المعاصرة للأحداث ، ومن غير الممكن أن نحاول استقصاءها في السياق الحالي ؛ ولذا فسنكتفي بإضافة بعض الأمثلة الأخرى ثم نحيل من يريد معرفة المزيد إلى المصادر المعتمدة .

فقد انفجر النزاع المسلح بين الأتراك والديلم على نطاق واسع في عهد عزالدولة بختيار ، خاصة سنة ٣٦٣هـ ، وتداخل ذلك مع اندلاع العنف بين السنة والشيعة ، حيث احترقت أحياء بكاملها في جانبي بغداد ، واحترق رجال ونساء وأطفال أحياء ، مع احتراق عدد كبير من الدكاكين والممتلكات (٢) . ومن ذلك ما واجه الملك بهاء الدولة سنة ٣٨٠هـ/٩٩٠م ، فقد حاول هذا الملك البويهي أن يمد سيطرته لتشمل بلاد فارس ، وقام بحملة أشرنا إلى بعض تفاصيلها فيما سبق ، حيث غنم أموالا وذهبا بكميات كبيرة ، وعلم الجند بذلك فبدأوا بالشغب عليه واستمروا في ذلك إلى أن وزع عليهم معظم تلك الأموال (أنظر ص ــ فيما سبق) . وفي السنة التالية ذهب الملك بهاء الدولة إلى مجلس الخليفة الطائع ، وكانت زيارة قصيرة بدات بمظاهر الاحترام الكاذب المبالغ فيه وانتهت بالقبض على الخليفة بشكل مذل ومخز ، وحدثت فوضى ، فظن الجند البويهي المنتظر في الخارج أن المقبوض عليه هو ملكهم ، فانفلتوا يمارسون السلب والنهب حتى انتزعوا ثياب الأشراف والشهود وعلية القوم من الحاضرين . وعندما تبين لهم أن الملك هو الذي قبض على الخليفة ونصب خليفة آخر بدلا منه انفلت شغب الجند الديلم والأتراك – الفئتان الرئيسيتان في الجيش البويهي – مطالبين برسم البيعة . وقد تردد الوسطاء بينهم وبين الملك ، ومنعوا خطبة الجمعة حتى لا يذكر اسم الخليفة الجديد إلى أن تم إرضاؤهم بالمال (٣) . ولم يكن القادر

(١) ***المصدر نفسه*** ، ص ٩٦ – ١٠٠ ؛ إبن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٨ ، ص ٤٥٦ – ٤٥٧ .

(٢) أنظر إبن الجوزي ، ***المنتظم*** ، مجلد ٧ ، ص ٦٠ ؛ الهمداني ، ***تكملة*** ، مجلد ١ ، ص ٢١١ – ٢١٢ ؛ إبن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٨ ، ص ٦٣٤ – ٦٣٧ .

(٣) إبن الجوزي ، ***المنتظم*** ، مجلد ٧ ، ص ١٥٦ – ١٥٧ .

(الخليفة الجديد) في بغداد آنذاك ، بل كان هاربا ملتجئا إلى زعيم البطيحة (التي تعرف الآن باسم الأهـوار) ، وقد جهزه مهـذب الدولة (وهو زعيم البطيحة) ، وأمده بالمال والفرش ، وأعطاه طياره [١] . وسار موكب الخليفة متجها إلى بغداد ، فلما وصل إلى مدينة واسط اعترضه الجند وطالبوه برسم البيعة ، ومنعوا موكبه من السير إلى العاصمة «وجرت معهم خطوب انتهت إلى أن وعدوا بإجرائهم مجرى البغداديين . . . فرضوا . [٢] . .» ويلاحظ هنا أن الخليفة كان معدما ، أي مفلسا ، وأن صاحب البطيحية كان قد زوده ببعض الضروريات تبرعا منه حتى لا يبدو في وضع مزر وهو سائر لتسلم منصبه في العاصمة . أما الأشخاص الذين عرفتهم كتب التاريخ بلقب (صاحب البطيحة) فقد كان أكثرهم من أصل وضيع ، قاطع طريق يحتمي بمياه الأهوار (البطيحة أوالبطائح) وتعجز السلطة المركزية عن إخضاعه بعد أن يتجمع حوله كثيرون ، فتضطر إلى معاملته باحترام ، وتعطيه الألقاب أحيانا [٣] .

وكان عهد جلال الدولة في بغداد هو الذي شهد أكثر عدد من حوادث التمرد من قبل الجند ، وتعرضهم للملك شخصيا بصنوف الإهانة . ومن أمثلة ذلك ما حدث سنة ٤١٩هـ عندما ثار الجند ونهبوا دار الوزير ، ودور كتاب الملك وحواشيه ، بما في ذلك دور المغنين والمخنثين ، الذين كانوا يعتبرون من مكونات الحاشية ؛ بل لقد أقدموا على نهب المصوغات الذهبية التي كان الملك قد أخرجها لتصنع منها دنانير توزع عليهم ، فنهبوها ، وحاصروا الملك في داره ومنعوا الطعام عنه وعن أسرته . وفي هذا الموقف الصعب أضطر الملك لأن يلجأ إلى الخليفة ليصلح بينه وبين جنده الأتراك ، وتمت المصالحة ، لكن الجند عادوا إلى الشغب بعد أيام ، فاضطر الملك إلى بيع فراشه وثيابه وخيامه ، وفرق ذلك عليهم ليشبع نهمهم [٤] . وكانت مخصصات الجند تزيد عن حدود الممكن بالنسبة للدخل ، ومع ذلك تستمر محاولات الحكام كسب تأييد الجند واستبقاء ولائهم عن طريق المال ، سواء بتوزيع مبالغ إضافية في المناسبات ، أو

---

(١) الطيار نوع من السفن النهرية الفخمة الخاصة بكبار القوم ، ويمكن أن يسمى في عصرنا (اليخت) ، وهي كلمة أنكليزية الأصل .

(٢) إبن الجوزي ، ***المنتظم*** ، مجلد ٧ ، ص ١٥٦ - ١٥٧ .

(٣) أنظر كتابنا ***الخليج العربي في العصر الإسلامي . . دراسة تاريخية وحضارية*** ، ص ب٣٢٠-٣٢٢ .

(٤) إبن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٩ ، ص ٣٦٦ .

زيادة مقدار المخصصات والرواتب (العطاء) ، حتى لا يتحول الولاء إلى جهة تدفع أكثر . وكان المتصارعون من الملوك والأمراء ، والمتغلبين ، والمتطلعين إلى الملك والإمارة ، والطامحين إلى النصر قبيل المعارك الكبرى يلجأون إلى إغراء جندهم ، وأحيانا جند خصومهم بالمال ، كي يتركوا سادتهم ويلتحقوا بصفوف جند أعدائهم . وعندما كان يتواجه جيشان ويهزم أحدهما الآخر ينضم المهزومون إلى الجيش الذي هزمهم ؛ وكان الحرص على هذا التحول في الولاء يأتي من الملك المنتصر ، أو يأتي من الجند الذين يعرضون أنفسهم ، أو يتوقعون أن تأتي المبادرة من المنتصرين . والأمثلة على ذلك كثيرة جدا ، طوال الفترة التي يغطيها هذا الفصل من دراستنا . أما تفسير هذه الظاهرة فهو أن الجند لا يقاتلون بدافع الولاء لأي عقيدة أو مبدأ ، ولا بدافع الولاء للملك ، او للوطن ، أو القومية ، بل للمال والمال فقط . لقد كانوا مرتزقة ، وكذلك كان المرتزقة في تاريخ الشعوب كلها . الجند لا يتحركون إلا بالمال ؛ فإذا شح العطاء ، أو رغبوا في الاستزادة لجأوا إلى الشغب وإثارة المشاكل ؛ ولعل هذا المثل الذي نستدعيه من أحداث سنة ٤١٥هـ يلقي مزيدا من الضوء على هذه الظاهرة .

ففي تلك السنة استأذن وزير الملك (أي رئيس وزرائه) ، واستأذن معه كبير معاوني الملك ، بأن يسمح لهما بترك البلد خوفا من الجند الأتراك ؛ وقد فوجئ الوزير والمعاون بأن الملك سار بنفسه معهما ، وترك الثلاثة بغداد ، عاصمة الملك البويهي وعاصمة الخلافة . وقد فزع الجند الأتراك عندما تركوا ، لأنهم كانوا لا يعيشون إلا أتباعا في كنف ملك أو أمير متغلب ، أو قاطع طريق - بغض النظر عن جنسه ، تركيا أو غير تركي - يوفر لهم المال ويستخدم قوتهم القتالية لتحقيق أهدافه . وقد فزع الجند من تصور أنفسهم دون قائد أو زعيم ، فأرسلوا الوسطاء لإقناع الملك بالعودة ، فقال لهم الوزير : «إني تأملت ما لديكم من الجامكيات [المخصصات والرواتب] فإذا هي ستمئة ألف دينار ؛ وعملت دخل بغداد [أي حساب تقدير الدخل السنوي] فإذا هو أربعمئة ألف دينار ؛ فإن أسقطتم مئة ألف دينار تحملت بالباقي . . .» أي أنه سيتدبر توفير المئة الألف الباقية . وقد وافق الجند على هذا العرض ، لكن الوزير لم يأمنهم على حياته لكثرة تقلبهم ، فهرب طلبا للنجاة [(١)] . وبعد بضع سنوات اتهم صغار الجند الأتراك كبار قادتهم (من الأتراك أيضا) بأنهم نهبوا الأموال لأنفسهم ،

---

(١) ***المصدر نفسه*** ، مجلد ٩ ، ص ٣٣٥ .

وأفقروا الملك وأفقروهم . وأمام تكرار تمرد الجند وإثارتهم للفوضى أغلق الملك جلال الدولة بابه في شهر ربيع الأول سنة ٤٢٣هـ ، فجاء الأتراك ونهبوا داره ، وانتزعوا ثياب الكتاب وموظفي الديوان ، ثم حاولوا العثور على الوزير فهرب طلبا للنجاة أيضا .

وعندما وصل التمرد إلى هذا الحد هرب الملك نفسه في شهر ربيع الثاني من تلك السنة .

وهنا أحس الجند بالخطر من بقائهم من غير ملك ، فأمروا خطباء مساجد بغداد بالدعاء للملك أبي كاليجار بن سلطان الدولة ، ملك إقليم بلاد فارس البويهي ، وكتبوا إليه الرسائل يرجونه أن يأتي إلى بغداد ويتخذها مقرا لملكه ، إلا أنه لم يجبهم . وهنا أعادوا الدعاء في خطب الجمعة إلى الملك جلال الدولة [(١)] . إن هذه الحادثة ، وهذا السلوك الذي ظهر من الجند لا بد أن تلفت نظر الباحث والقارئ إلى حقيقة في غاية الأهمية ؛ وهي أن الطغاة الذين يذيقون الشعوب أشد العذاب لم ينحصروا في السلاطين ، وفي الملوك البويهيين الذين شغلوا المنصب الأعلى في الدولة ، بل إن الطغاة من الدرجة الثانية قد يكونون أكثر شرا وحقدا . ومع ذلك فإنهم ضعاف إلى أقصى درجات الضعف ، يظهر طغيانهم عندما يكونون عبيدا لطاغية أكبر ، ولا يستطيعون أن يعيشوا أو يمارسوا الطغيان دون وجوده ، فإذا زال أو مات أصبحوا مثل القطيع الشارد ، وداروا يبحثون عن سيد آخر يوفر لهم جو العبودية .

فساد الوزراء والكتاب

برزت هذه الطبقة بشكل واضح في العصر العباسي الأول . ومع أن الأمويين كان لهم كتاب إلا أن الإدارة لم تتطور بالقدر الذي يجعل نشاط هذه الطبقة محسوسا وبارزا في المجتمع . وفي ظل الخلفاء العباسيين الأوائل كان دور الوزراء والكتاب يخضع لسلطة الخلفاء الذين كان معظمهم قوي السطوة ، وفير الهيبة في نفوس من حوله . وحتى حينما تسلط البرامكة على إدارة الدولة العباسية وتصرفوا فيها بحرية كاملة ، فإن ذلك لم يجعلهم خارجين عن سيطرة الخليفة ؛ ولهذا لم يجد هارون الرشيد صعوبة في القضاء عليهم وسحق كل مظاهر القوة التي كانت لديهم بسهولة ، وبضربة واحدة . ومن هنا فإن مركز هذه الطبقة اختلف بعد عصر المتوكل عما كان

---

(١) *المصدر نفسه* ، ص ٤٢٣ .

عليه قبل ذلك العصر . ومع ذلك فإننا نجد مظاهر الفساد في سلوكهم حتى في عصر الخلفاء الأقوياء ، إذ كانوا كلما وجدوا ثغرات في النظام نفذوا منها وساهموا في إفساد البناء وتصديعه ، مما أدى إلى التصدع الصارخ الذي شهدته القرون التالية ، كما سنرى . ومعنى هذا أن الفساد كان موجودا في العصر العباسي الأول ، لكن بنيان الدولة كان متماسكا لدرجة جعلت آثار فساد هذه الفئة محتملا ومغمورا . ولعل من المناسب أن نعطي هنا بعض الأمثلة من المرحلة المبكرة ، ثم نتبعها بأمثلة أخرى من العصر العباسي الثاني .

أمثلة قديمة من فساد الوزراء:

روي عن عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه نهيه الولاة وحكام الأقاليم عن تعاطي التجارة [١] . ويمكن ا ، نستنتج من هذا النهي أن بعض الولاة قد مارسوا التجارة واستغلوا نفوذهم فيها حتى وصل الخبر إلى إلى الخليفة العادل ، فحرم ذلك .

وتحدثنا المصادر عن أن أبا أيوب المورياني ، وزير أبي جعفر المنصور – ثاني الخلفاء العباسيين – لاحظ أن أسعار المواد الغذائية رخيصة ، فاشترى محاصيل منطقة الكوفة وما يتبعها من ضياع وقرى ومزارع ، كما اشترى محاصيل منطقة البصرة وتوابعها أيضا ، وذلك ليختزنها حتى ترتفع الأسعار فيبيعها بأسعار عالية تحكمية . ويروى أن المنصور عاقبه على ذلك دون أن يعزله [٢] .

وقد عمد والي الأهواز في عهد الرشيد إلى مشاركة تجار منطقته في أعمالهم التجارية فجنى من ذلك أرباحا ضخمة بلغت عشرة ملايين درهم . وقد اعترف للخليفة عندما ظن أنه سرق الأموال العامة ، وعرض على الرشيد أخذ المبلغ ، فتركه الخليفة له ولم يعاقبه [٣] . وعندما جاء التجار إلى وزير المأمون لشراء المحاصيل من الحكومة طلب منهم أن يقبلوا صديقا له ليكون شريكا معهم ، ووعدهم أن يخفض لهم الأسعار لقاء ذلك [٤] .

---

(١) إبن عبدالحكم ، ***سيرة عمر بن عبد العزيز*** ، ص ٩٩ .

(٢) الجهشياري ، ***كتاب الوزراء*** ، ١١٧ .

(٣) ***المصدر نفسه*** ، ص ٢٧١-٢ .

(٤) ***المصدر نفسه*** ، ص ٣١٩-٣٢٠ .

كان هذا والخلفاء أقوياء ,والمجتمع ما زال على قدر كبير من تماسكه وتمسكه بقيمه . ولنا أن نتصور مدى انتشار عمليات الاستغلال والاختلاس بعد أن زالت هيبة الحكام ، وضعف احترامهم لدى القادة والولاة وعامة الناس . لقد صار التجار مقربين من الحكام ، وانغمس كثيرون من الحكام في الأعمال التجارية ، كما انغمس بعض التجار في أعمال الحكومة عن طريق ضمان الضرائب والدخل العام في منطقة محددة . وقد حدثت أمثلة من محاولة ترقية بعض رجال الأعمال أنفسهم بحيث صاروا يسعون للوصول إلى المناصب الأدارية العالية ، منصب وزير وما دون ذلك ، بأعتبار أن جميع هذه المناصب كانت بحاجة إلى الخبرة المالية والتجارية . ومن المعروف أنه لم تكن هناك جامعات أو معاهد تدرس التجارة وإدارة الأعمال والإدارة العامة باعتبارها علوما تخصصية ؛ بل إن منافذ التخصص كانت تنحصر في الاحتراف التجاري ، أو معرفة القراءة والحساب على الأقل .

عندما ضعفت قبضة الدولة صار منصب الوزارة سلعة تشترى ، حيث كان الطامع في الوزارة يأتي إلى الخليفة أو المتنفذ في قصر الخلافة فيطمعه بمبلغ ضخم من المال إن هو ولاه الوزارة وترك له حرية القبض على الوزير الذي يشغل المنصب آنذاك ومعاونيه ليستخلص منهم الأموال العامة التي اختلسوها . ولم تقتصر هذه العملية على منصب الوزارة بل تعدته إلى ولايات الأقاليم . لقد عرفت مصادرة الولاة في وقت مبكر من التاريخ الإسلامي ، فعمر بن الخطاب رضي الله عنه صادر شطر أموال عمرو بن العاص عندما كان عمرو واليا على مصر ، كما صادر شطر أموال أبي هريرة عندما كان واليا على البحرين ؛ إلا أن عمر كان يخاف الله ويبتعد عن الظلم ويفرق منه . ولكن كم من الخلفاء والولاة كان مثل عمر؟

لقد تردى الحال بصورة شنيعة منذ بداية عهد المقتدر العباسي الذي تولى الخلافة وهو صبي سنة ٢٩٥هـ . وسنكتفي هنا بإيراد بعض الأمثلة ، وهناك من أمثالها الكثير ، مما لا يتسع المجال لحشده هنا .

فالوزير محمد بن عبيدالله بن خاقان ، الذي تولى وزارة المقتدر سنة ٢٩٩هـ/ ٩١١ م تحكم أولاده بسلطات وواجبات منصبه ، إذ صار كل «منهم يسعى لمن يرتشي منه ؛ وكان يولي في الأيام القليلة عدة من العمال ، حتى أنه ولى بالكوفة في مدة عشرين يوما سبعة من العمال . . . فسار الأخير إلى الولاية وعاد الباقون يطلبون ما خدموا به أولاده . . .» أي عادوا يطالبون بمبالغ الرشوات التي دفعوها لأولاده . «ثم زاد

حتى تحكم أصحابه فكانوا يطلقون الأموال ويفسدون الأحوال ، فانحلت القواعد وخبثت النيات ، واشتغل الخليفة بعزل وزرائه والقبض عليهم والرجوع إلى قول النساء والخدم ، والتصرف على مقتضى آرائهم ، فخرجت الممالك ، وطمع العمال في الأطراف . . .»(١)

وفي سنة ٣٠٦هـ/ ٩١٨ م . كان ابن الفرات يلي وزراة المقتدر ، وكان حامد بن العباس يتضمن أعمال واسط ، فطالبه الوزير بأن يدفع إلى الخزينة مليوني دينار زيادة على ضمانه ، إذ اعتبر أن بيت المال مغبون في ذلك الضمان . فما كان من حامد إلا أن اتصل بحاشية الخليفة يخطب الوزارة لنفسه ، ويعد بتقديم مبالغ طائلة للخليفة ؛ فما كان من المقتدر إلا أن أمر بالقبض على الوزير بن الفرات ، ونصب حامد بن العباس وزيرا مكانه . وقد صودرت أموال وممتلكات ابن الفرات وولده وأصحابه ، وطلبت منهم أموال عظيمة (٢) .

ولم يلبث الموقف طويلا حتى انعكس ، فقد فشل حامد بن العباس في إرضاء الخليفة والحاشية وقادة الجند المرتزقة ، سيما وأنه لم تكن له سابق خبرة أو دراية بالأعمال الوزارية ، فصار المقتدر يتصل بابن الفرات وهو في حبسه ويستشيره ، فضمن ابن الفرات للخليفة أن يوفر المال أضعاف ما تعهد به حامد وعجز عن الوفاء بتعهده ، شريطة أن يعاد إلى الوزارة ، وأن يمكنه الخليفة من حامد وأتباعه . وكان المحسن بن الوزير السجين طليقا ، وكان يسعى هو الآخر لإطلاق سراح والده وإعادته إلى الوزارة ، وتعهد بأن يحصل «أموالا جليلة ، وكتب على يده رقعة يقول : «إن يسلم]إليه [الوزير وعلي بن عيسى وابن الحواري وشفيع اللؤلؤي ونصر الحاجب ، وأم موسى القهرمانة والمادرائيون يستخرج منهم سبعة آلاف ألف دينار .» وكان هؤلاء الأشخاص أعوان الوزير حامد بن العباس . وقد استجاب الخليفة المقتدر وأخرج ابن الفرات من السجن وأعاده إلى الوزارة ، فقام الوزير العائد بمحاسبة حامد بن العباس ومناظرته في مجلس عام ، فأقر حامد بمليون دينار . وبعد ذلك ضمن المحسن ، وهو ابن الوزير – كما أشرنا – أن يستخرج من حامد خمسمئة ألف دينار أخرى ، فتسلمه وأنزل به صنوفا من العذاب ، ولم يلبث قليلا حتى مات ، حيث ذكر أن المحسن دس له

(١) إبن الأثير ، ***الكامل*** ، م ٨ ، ص ٦٤ – ٥ ؛ مسكويه ، م ١ ، ص٢٠ – ٢٥ .

(٢) ***المصدر نفسه*** ، م ٨ ، ص ١١٠-١١٣ .

السم[١] . وقد ذكر ابن كثير أن حامد بن العباس عمد سنة ٣٠٨هـ إلى احتكار الغلال وحبسها حتى غلت الأسعار ، فثار العامة وتم عزل الوزير ، فانخفضت الأسعار[٢] .

أما محمد بن علي بن مقلة ، المشهور بفن الخط العربي ، فقد تولى الوزارة لثلاثة من الخلفاء ، هم : المقتدر ، والقاهر ، والراضي . وقد عرف بأنه كان ذا كيد ودسائس ومؤامرات في صراعه من أجل الوزارة . وفي أواخر أيامه كان ابن رائق – أمير الأمراء – قد استولى على أمواله ، ولم يجد كل الاستعطاف والتذلل الذي أظهره (أي ابن مقلة) ، فانقلب يعمل ضده ويحرض الخليفة الراضي عليه . ويبدو أن الراضي كان يساير الوزير ويظهر له التجاوب والتعاطف لدرجة أنه وافق على أن يسكنه معه في القصر ؛ بيد أن الخليفة سرعان ما كشف عن حقيقة موقفه من الوزير الذي أفقده حقده المتأجج حسن البصيرة ، فحبسه في حجرة ثم سلم الرقاع التحريضية التي كان يكتبها له ضد «أمير الأمراء» إلى أمير الأمراء نفسه .

وقد انتقم ابن رائق بقسوة فقطع يد ابن مقلة . ومع ذلك فإن ابن مقلة لم يقتنع ، ولم يقو على لجم أطماعه ، إذ أنه صبر حتى التأم جرح ساعده الذي بترت منه اليد وأخذ يكتب إلى الخليفة سرا ويحاول اقناعه بأن يعيده إلى الوزارة ؛ وقد روي أنه كان يشد القلم على ساعده المبتور اليد ويكتب به . وقد ذكر ابن خلكان أن ابن مقلة تعهد للراضي بأن يستخرج له من ابن رائق مبلغ ثلاثمئة ألف ألف دينار ،» أي ثلاثمئة مليون!! ومع عجزه وفشله في إقناع الخليفة صار يدعو على من آذوه وتسببوا في نكبته فجلب على نفسه مزيدا من الغضب فقطعوا لسانه ، وتوفي سنة ٣٢٨هـ [٣] .

ويصف ابن الأثير الوزير العباس بن الحسين ، وزير عزالدولة بختيار البويهي بأنه كان «مضيعا لجانب الله ؛ فمن ذلك أنه أحرق [محلة] الكرخ ببغداد فهلك فيها من الناس والأموال ما لا يحصى ؛ ومن ذلك أنه ظلم الرعية وأخذ الأموال ليفرقها على

(١) مسكويه ، ***تجارب الأمم*** ، م ١ ، ص ٨٥–٨٧ ؛ إبن الأثير ، ***الكامل*** ، م ٨ ، ص ١٤٠ ؛ وانظر أيضا الصفحات ١٣٩– ١٤٣ .

(٢) إبن كثير ، ***البداية*** ، ج ١١ ، ١٣١ .

(٣) مسكويه ، م ١ ، ص ٢٨٩–٢٩٠ ؛ إبن الأثير ، ***الكامل*** ، م ٨ ، ص٣٤٥–٣٤٦ ؛ ابن خلكان ، ***وفيات الأعيان*** ، تح . إحسان عباس ، م ٥ ، ص ١١٣– ١١٧ .

الجند ليسلم ، فما سلمه الله . . . وكان ما فعله من ذلك أبلغ الطرق التي سلكها أعداؤه من الوقيعة فيه . . .» وقد قيل إن عدد من احترق في الكرخ «سبعة عشر ألف إنسان ، وثلاثمئة دكان ، وكثير من الدور ، وثلاثة وثلاثون مسجدا ، ومن الأموال ما لا يحصى [(١)] .»

وفي سنة ٣٣٩هـ/ ٩٥٠م . خطب أبو علي الطبري وزارة معز الدولة ابن بويه ، وعرض عليه مبالغ طائلة إن هو اختاره لوزارته ؛ وقد أوهمه الملك البويهي بالموافقة فأدى إليه أبو علي الأموال ، فلما وصل المال إلى خزينته عدل عن أبي علي هذا واختار للوزارة غيره . وقد وصفت المصادر أبا علي الطبري هذا بأنه «كان رجلا أميا [وكان] في أول أمره نخاسا يبيع الرقيق [(٢)] .»

وعند الحديث عن المشاورات التي سبقت اختيار المقتدر لمنصب الخلافة سنة ٢٩٥هـ - مر معنا كيف نصح أحد المشيرين الوزير بأن لا يختار لمنصب الخلافة « . . . طماعا فيشره في أموالهم فيصادرهم ويأخذ أموالهم وأملاكهم . . . ولا يولي من عرف نعمة هذا وبستان هذا وضيعة هذا ، وفرس هذا . . . ويتخيل ويحسب نعم الناس ويعرف وجوه دخلهم وخرجهم . أي أن الشخص المطلوب لمنصب الخلافة يجب أن يكون جاهلا قاصرا لا يعرف ، ولا يقوى على أن يكون نهابا فيستولى على أموال معاونيه من الوزراء ومن هم دونهم . وهذه الكلمات التي اقتبسناها في هذه الفقرة الأخيرة تشي بالممارسات المنحرفة التي كانت سائدة ، وتصور المخاوف التي تملأ قلوب الناس .

ولا يسعنا أن نختتم هذا الحديث الموجز عن الممارسات المشينة لكثيرين من الوزراء دون أن نذكر بالبريديين ، الإخوة الثلاثة ، الذين بدأوا عملهم العام بإدارة بعض الممتلكات الخاصة لعلية القوم ، أو بضمان ضرائب ودخول بعض النواحي ، وانتهى الأمر بهم إلى تكوين الجيوش وغزو عاصمة الخلافة ، وتولي الوزارة أكثر من مرة ، رغم أنف الخليفة ، ورغم أنف أمير الأمراء ؛ ولا يسعني أن أكرر الحديث عنهم هنا ، ويمكن للقارئ أن يراجع سيرتهم في الصفحات السابقة من هذا الكتاب .

---

(١) إبن الأثير ، *الكامل* ، م ٨ ، ص ٦٢٨- ٦٢٩ .

(٢) مسكويه ، م ٢ ، ١٢٤ .

العامة:

«العامة» مصطلح خاص بالتاريخ الإسلامي والعصور الإسلامية . ونحن نستخدمه في هذا الإطار فقط . وهو لا يوازي مصطلح «عامة الشعب» المستخدم حاليا . وقد ظهر هذا المصطلح «العامة» في التاريخ الإسلامي في أواخر القرن الثاني وأوائل الثالث للهجرة ، بعد قيام الدولة العباسية . وربما يستعمله غيرنا من الباحثين في حضارات أخرى ، بمعناه لا بلفظه ، في أوقات كانت الحياة العامة فيها مشابهة لما كان في عالم الإسلام في الفترة التي ندرسها ؛ مشابهة في الخطوط العريضة ، لا مشابهة التفاصيل . ومما يحسن بنا التنبيه إليه هو أن «طبقة العامة[1]» ، أو شريحة العامة حتى لا نثير حساسية بعض الإسلاميين العاطفيين ، نشأت قبل ظهور المصطلح ، وليس المصطلح هو الذي أنشأها ، وكانت حقيقة ملموسة قبل ظهوره بعقود من الزمن . فمنذ قيام الدولة العباسية بدأت تتجمع العناصر التي ساهمت تدريجيا في نشأة واقع ظهرت فيه طبقات في التجمعات السكانية التي ضمتها المدن الكبيرة ؛ وكان هذا التطور مناقضا لمبادئ القرآن الكريم وما يشبهها ويتبعها من المبادئ في الحديث النبوي الصحيح . ففي القمة كان الخلفاء ، ثم الوزراء وكبار الإداريين ، ثم ظهرت طبقة العسكر ، وما لبثت أن ارتفعت إلى القمة وخفضت ما كان فوقها ؛ كما كانت هناك طبقة الأشراف العباسيين والأشراف العلويين ، لهم مرتبات خاصة ، بل ولهم قضاة ، وترتيبات مميزة عن بقية الطبقات . ثم كانت هناك طبقة المشتغلين بالعلوم الدينية بمختلف تفرعاتها ؛ وطبقة الشعراء والأدباء . وفي حواشي هذه الفئات جميعا كانت أعداد كبيرة من الرقيق ، من الجواري والغلمان ؛ ثم يأتي عامة الناس في أدنى السلم . ويدخل في طبقة العامة صغار «علماء» الدين ، بما في ذلك صغار الصوفيين ؛ ثم صغار التجار وأصحاب الحرف .

وفيما يلي نعرض أمثلة من تحركات العامة في أوقات مختلفة :

إن أول لقاء يتعرف فيه الباحث على طبقة العامة نصل إليه عند دراستنا لأحداث سنة ١٩٧هـ حين كانت بغداد تتعرض للحصار والهجمات من قبل القوات

---

(١) الأستاذ محمد قطب كتب فصلا بعنوان «الإسلام ونظام الطبقات» في كتابه ***شبهات حول الإسلام*** نفى فيه وجود نظام طبقات في الإسلام . حقا أن المبادئ القرآنية والحديث الصحيح ، لا يؤيدان نظام الطبقات ، أما حياة المجتمعات الإسلامية عبر التاريخ فقد ظهرت فيها الطبقية .

الموالية لعبدالله المأمون بن هارون الرشيد في حربه ضد أخيه محمد الأمين ، الذي ورث الخلافة بعد موت أبيه الرشيد مباشرة . فقد حارب «العامة» دفاعا عن مدينتهم عندما رأوا فيها الحرائق والتدمير ، وأنزلوا بالقوات المهاجمة إصابات كثيرة . وعلى أثر ذلك تقدم أحد قادة جيش المأمون ليرى العدو الذي يقاتلهم ، فإذا به يرى أناسا عراة لا سلاح ولا عدة لديهم ؛ فأخذ يؤنب جنده : كيف يعجزون عن هؤلاء! ثم تقدم القائد وهو يحمل قوسه ، وأطلق سهما على العيار ، أحد مقاتلي العامة ، فتفاداه ، وأخذ السهم بعد سقوطه ، ثم وضع في مقلاعه حجرا فرماه بمقلاعه فلم يخطئ عين القائد ، ثم ثنى بحجر آخر فكاد يصرعه ؛ فنجا القائد هاربا وهو يقول : ليس هؤلاء من الإنس . وهكذا واجه جيش المأمون مشكلة كبيرة ، رغم تفوقه وانتصاراته الميدانية المتتابعة . وقد ألهمت تلك الحالة بعض شعراء بغداد ، فنظموا قصائد كثيرة نجتزئ أبياتا منها :

خرجت هذه الحروب رجالا
لا لقحطانها ولا لنزار
ليس يدرون ما الفرار إذا الأبـ
طال عاذوا من القنا بالفرار
واحد منهم يشد على ألفين
عار ما له من إزار
ويقول الفتى إذا طعن الطعنة
خذها من الفتى العيار(١)
كم شريف قد أخملته وكم قد
رفعت من مقامر طرار(٢)

وقد شن هؤلاء المقاتلون العراة هجوما مفاجئا على إحدى فرق الجيش المحاصر فأنزلوا بها إصابات كثيرة ففرت من مواقعها ، وفر قائدها عبيدالله بن الوضاح تحت جنح الظلام . وحيث كان كبار تجار الكرخ [أحد أحياء بغداد] يدركون أن قوات المأمون ستستولي على المدينة في النهاية ، فقد كتبوا إلى طاهر بن الحسين ، قائد قوات

(١) العيار تعني : شابا صعلوكا من أبطال الأحياء الشعبة .

(٢) الطبري ، ٨ ، ٤٥٧-٨ وانظر ص ٤٦٥ .

المأمون ، ليبرئوا أنفسهم من تهمة مقاومة قواته ، فقالوا : إنهم يعلنون طاعتهم له وللمأمون ، وأنهم يحبونه ؛ أما الذين يحاربونه فليس منهم ، «ولا لهم بالكرخ دور ولا عقار ، وإنما هم بين طرار وسواط ونطاف [١] ، وبعضهم من أهل السجون ، وأن مأواهم الحمامات والمساجد ؛ والتجار منهم إنما هم من باعة الطريق ، يتجرون في محقرات البيوع ، وقد ضاقت بهم طرق المسلمين [٢] . . .» وفي نص آخر نقرأ أن محمد بن عيسى ، «صاحب الشرطة الموالية لمحمد الأمين ، استسلم لطاهر بن الحسين . وكان ابن عيسى «يقاتل مع الأفارقة وأهل السجون والأوباش .» ، كما نقرأ في نص ثالث «وأقبلت الغواة من العيارين وباعة الطرق والأجناد فاقتتلوا داخل قصر صالح وخارجه إلى ارتفاع النهار [٣] .»

وقد بينت لنا هذه النصوص أن المقاومين كانوا من أبناء الطبقات الفقيرة المعدمة المسحوقة ، المتشردين في الشوارع ، والذين لا بيوت لهم حيث ينامون في الأماكن العامة ، مثل الحمامات والمساجد . وإذا كان منهم تجار فإنهم من الباعة المتجولين الذين يتاجرون بأخس السلع ، ويضايقون الناس في الشوارع ؛ وهذه الفئات هم من ينطبق عليهم وصف العامة .

وفي سنة ٢٠١هـ نجد مثلا آخر من التحرك الذاتي للعامة ، للقيام بعمل خير . فمتشردوا بغداد الذين ظهروا لنا في المثل السابق مدافعين عن المدينة ضد القوات المهاجمة ، أخذوا يقومون بدور آخر : «ذلك أن فساق الحربية[٤] والشطار الذين كانوا ببغداد والكرخ آذوا الناس . . . وأظهروا الفسق وقطع الطريق ، وأخذ الغلمان والنساء علانية . . . فكانوا يجتمعون فيأتون الرجل فيأخذون ابنه فيذهبون به فلا يقدر أن يمتنع .» وكانوا يفرضون الإتاوات على الناس وينهبون أموالهم . وكان بعض المسئولين يعتبرون هذه الجماعات المفسدة حلفاء لهم فلا يتحركون لردعهم ، ولا يستجيبون عندما تشكوا لهم الضحايا .

---

(١) وهذه الألقاب تشير إلى المهن الدونية والإحتقار .

(٢) *المصدر نفسه* ، ص ٤٦٨-٤٦٧ .

(٣) *المصدر نفسه* ، ص٤٥٥ .

(٤) «الحربية» فرقة عسكرية ، يبدو أنها انحلت في فترة الفوضى فصار الضائعون منها يشتركون في السلب والنهب .

وهنا قام فريق آخر من العامة ، أفراد عاديون متدينون ليس فيهم أي من العلماء المعروفين المشهورين ، فتداعوا ، وكونوا من أنفسهم جماعات تلاحق أولئك المفسدين وتقاتلهم وتطردهم أو تسجنهم حتى أنهوا تلك المشكلة [1] .

وفي سنة ٢٤٩هـ/٨٦٣م تعرضت القوات الإسلامية المرابطة على الجبهة مع الروم (البيزنطيين) إلى هزيمة ثقيلة من جراء هجوم شنه الروم فقتل عدد من مشاهير القادة المسلمين ، مع ألفين من المحاربين . أي أن الحادثة كانت تدميرا كاملا لتلك القوة الإسلامية . وكان للتوقيت أثر كبير على مشاعر عامة الناس ، إذ جاءت هذه الكارثة بعد سنتين من قتل الخليفة المتوكل وانطلاقة مرحلة عبث الجند بكيان دولة الخلافة . وفي ظل هذا الانهيار لم تبدر ردة فعل مناسبة لا من جانب الخلفاء الضعاف ، ولا من جانب العسكر ، وهنا انفجرت ردة فعل «شعبية» . ومن المحزن أن ردة الفعل هذه وصفت بأنها فتنة عظيمة . قال ابن كثير : «ووقعت فتنة عظيمة ببغداد . . . وذلك أن العامة كرهوا جماعة من الأمراء الذين قد تغلبوا على أمر الخلافة ، وقتلوا المتوكل ، واستضعفوا المنتصر والمستعين بعده ، فنهضوا [أي العامة] إلى السجن فأخرجوا من كان فيه ، وجاءوا إلى أحد الجسرين فقطعوه ، وضربوا الآخر بالنار ، فأحرقوه ، ونادوا بالنفير ، فاجتمع خلق كثير . . . ونهبوا أماكن متعددة ، وذلك بالجانب الشرقي من بغداد . ثم جمع أهل اليسار أموالا كثيرة من أهل بغداد لتصرف إلى من ينهض إلى ثغور المسلمين لقتال العدو عوضا عن من قتل من المسلمين هناك ؛ فأقبل الناس من نواحي الجبال ، والأهواز وفارس وغيرها فغزوا الروم ؛ وذلك أن الخليفة والجيش لم ينهضوا إلى بلاد الروم وقتال أعداء الإسلام ؛ وقد ضعف جانب الخلافة ، واشتغلوا بالقيان والملاهي ؛ فعند ذلك غضبت العوام من ذلك وفعلوا ما ذكرنا .» وبعد بضعة شهور ، في السنة نفسها ، تكرر الشئ نفسه في سامراء ، التي كانت عاصمة الدولة آنذاك " ,حيث نهض عامة أهل سامراء إلى السجن ، فأخرجوا من فيه أيضا ، كما فعل أهل بغداد ، وجاءهم قوم من الجيش يقال لهم الزرافة ، فهزمتهم العامة . فعند ذلك ركب وصيف وبغا الصغير وعامة الأتراك ، فقتلوا من العامة خلقا كثيرا ، وجرت فتن طويلة ثم سكنت .» [إبن كثير ، البداية ، ج ١١ ، ص ٣] .

وعندما ارتفعت أسعار المواد التموينية في بغداد سنة ٣٠٨هـ بسبب متاجرة

(١) الطبري ، مجلد ٨ ، ص ٥٥١ .

الوزير (رئيس الوزراء) حامد بن العباس بها ، حيث ضمن غلات السواد من الخليفة بغرض احتكارها وبيعها بأسعار يحددها ، إذ ذاك تحركت العامة بردة فعل غاضبة ، ومن غير تفكير ، فاضربوا ، وتوجهوا إلى دار حامد بن العباس ، ثم توجهوا بعد ذلك إلى المساجد فمنعوا خطباء الجمعة من إلقاء خطبهم ، وكسروا منابر المساجد ، وقتلوا أعدادا من الشرطة ، وأحرقوا عددا من جسور بغداد . وقد أمر الخليفة المقتدر الجند بقتال العامة ، بيد أنه اضطر في النهاية إلى نقض عقد الضمان وإلغائه ، فنزلت الأسعار فورا ، فشعر الناس بالرضا وسكنت ثورتهم [1] . وهذا مثل صارخ من تحرك العامة تحت ضغط الكارثة التي حلت بهم من جراء جريمة احتكار الضروريات ، تلك الكارثة التي ساهم في صنعها الخليفة والوزير معا .

وفي سنة ٣٢٩هـ تظلمت العامة من الجنود الديلم لأنهم كانوا يأخذون دورهم ، فشكوا إلى كورتكين ، أمير الأمراء ورئيس الديلم ، فلم يبد اهتماما بالشكوى ، فتجمعت العامة في المساجد ومنعوا الخطباء أن يصلوا في الجوامع ؛ وقد نشب القتال بين الديلم والعامة فقتلت من الفريقين اعداد كبيرة [2] . [العامة : صفحات ٢٢٦] .

بعد خروج الملك بهاء الدولة من بغداد قاصدا بلاد فارس سنة ٣٨٠هـ ، كما أشرنا قبل قليل ، انتشرت الفوضى وطغت على أجواء عاصمة الخلافة ؛ فقد انطلق العيارون يمارسون التسلط والنهب ، وتحولت الفوضى إلى اقتتال طائفي بين السنة والشيعة ، «ووقعت بينهم حروب . . . واتصل القتال بين الكرخ وباب البصرة ، وصار في كل حي أمير ، وفي كل محلة متقدم . . .»

وأحرقت الأحياء ، وتعرضت الأموال للنهب والمساكن للتخريب ، واستمر الوضع كذلك عدة شهور ، حتى عودة الملك إلى بغداد [3] ؛ وهذا مثل صارخ من تشرذم المجتمع الشعبي . وقد شهد عام ٤٢٢هـ/١٠٣١م مثلا آخر من أمثلة تمزق المجتمع ، وافتقاره إلى الحد الأدنى من مقتضيات التعايش الهادئ ؛ فقد أعلن «الخزلي

---

(١) السيوطي ، ٣٨١-٣٨٢ ؛ إبن كثير ، ج١١ ، ص١١٣-١١٤ .

(٣) إبن كثير ، *البداية* ، ج١١ ، ص ١٧٢ ، وانظر السيوطي ، ٣٦٢ ؛ وعن انتفاضات أخرى للعامة أنظر صفحات ـــ -٢٢٦-٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٦ ، ٢٤٨ ، ٢٧١-٢٧٣ ، ٣٩٠-٦ ، من هذا الكتاب .

(٣) إبن الجوزي ، *المنتظم* ، مجلد ٧ ، ص ١٥٣ ؛ وقارن مع إبن الأثير ، *الكامل* ، مجلد ٩ ، ص٧٥- ٧٦ .

الصوفي ، الملقب بـ «المذكور» عن نيته الخروج إلى الغـزو ، بعد أن حصل على موافقة الخليـفة . واجتـمع حوله عـدد كبـير من الناس وهم يحملون السـلاح ، ومروا ببـعض أحياء الشيعة ، وأخذ العوام من أتباعه يصيحون بمدح أبي بكر وعمـر ، «وقالوا : هذا يوم معاوية [(١)] . . .» في تحد ظاهر للشيعة ، وشب العراك بين الجانبين ، « ونقبت دار المرتضى فخـرج منهـا مرتاعـا منزعجا ، فجاء جيرانه من الأتراك فدافعوا عنه وعن حرمه . . . ونهبت دور اليهود . . . لأنه قيل عنهم إنهم أعانوا أهل ا لكرخ . فلما كان من الغد اجتمع عامة أهل السنة من الجانبين وقصدوا ، فأحرقوا وهدموا الأسواق . . . وكـتب الخليـفـة إلى الملك . . . ينكر ذلك . . . إنكارا شـديدا . . . فـركب وزير الملك]وذهب محاولا وقف الفوضى والاقتتال [فوقعت في صدره آجرة ، وسقطت عمامته ، وقتل من أهل الكرخ جماعة ، وانتهب الغلمان ما قدروا عليه . . . وخرب في هذه الفتنة سوق العروس ، وسـوق الأنماط ، وسوق الصفـارين ، وسوق الدقاقين ، ومواضع أخـرى [(٢)] . وهذا مـثل سلبي من التـصـرف الطائش ، وضـعف وبلاهة القـيـادات الشعبية ، أو غيابها . . . الخ .

وأثناء غـياب بهاء الدولة في حملته الفـارسـية الفاشلة انتشـرت الفـوضى في «مدينة السـلام» ، واشتد نشاط العيارين[(٣)] في جانبي بغداد ، وتفجرت الصدامات بين السنة والشيعـة ، فأدى ذلك إلى سـقوط الكثيـرين من القـتلى ، وفقـدت السلطة السـيطرة على الوضع العـام ، وأحـرقت عـدة أحـيـاء ، «ونهـبت الأمـوال ، وأخـربت المسـاكن ، ودام ذلك عـدة شـهور ، إلى أن عـاد بهـاء الدولة إلى بغـداد [(٤)] ؛ وهذا مثل

---

(١) إبن الأثـيـر ، ***الكـامـل*** ، مجلد ٩ ، ص ٤١٨ – ٤٢٠ .

(٢) إبن الجـوزي ، ***المـنـتـظـم*** ، مـجلد ٨ ، ص ٥٥ ؛ إبن الأثـيـر ، ***الكامل*** ، مـجلد ٩ ، ص ٤١٨ – ٤٢٠ ؛ ويلاحظ هنا أن الملك الذي كانت بيده السلطة كان شيعيا كما العهد البويهي كله من سنة ٣٣٤-٤٤٧هـ .

(٣) العيارون : أشخاص ومجموعات ظهرت في بعض المدن الكبيرة في العالم الإسلامي ، خاصة في فترات الإضطراب والفوضى ، تمارس النهب المسلح ، أو السرقة ، وأحيانا تعبر عن الطبقات المسحوقة المعدمة بما كانت تمارسه من العنف ضد الظلمة والموسرين والمتجبرين . وكانت النظرة إلى العيارين تتراوح – في نظر الطبقات الشعبية – بين اعتبارهم نهابين لصوصا ، أو أبطالا شعبيين .

(٤) إبن الأثير ، ***الكامل*** ، مجلد ٩ ، ص ٧٦ .

سلبي آخر من سلوك العامة وضعف القيادات الشعبية وانحدارها إلى الحضيض ، أو غيابها وانعدامها .

وفي سنة ٧٠٩ هـ/١٣٠٩م اندلعت معركة بين القيسية واليمانية في السويداء قتل فيها حوالي ألف رجل . وقد حلت الهزيمة باليمانية فهربوا من أرض المعركة حتى وصل فلهم إلى دمشق وهم في أسواء حال . بيد أن المنتصرين ، أي القيسية ، هربوا كذلك ، خشية انتقام الدولة منهم ، «وبقيت القرى خالية والزروع سائبة . فإنا لله وإنا إليه راجعون .» (١) ويفهم من هذا الخبر أن القتال اندلع على أساس العصبية القديمة بين المنتمين إلى «**القيسية واليمانية**» ، «**عدنان وقحطان**» ، عرب الشمال وعرب الجنوب ، أو غير ذلك من التعبيرات . وقد استمر هذا النوع من العصبية حتى العصر الحديث . وهذا لا ينفي – بطبيعة الحال – أن الأسباب الحقيقة للصراع كانت تنطلق من المصالح المادية ، الاقتصادية والمالية للفرقاء ؛ لكن وضعها تحت عنوان «عدنان وقحطان» يبدو أمرا مؤسفا بعد مرور المئات من السنين حياة في ظل شعارات الإسلام والأخوة الإسلامية . ومهما يكن من أمر فإن هذا الحدث وأمثاله يزيد التأكيد بوضوح أن المجتمع بات مهلهلا ضعيف البنية ، متشرذما حتى النخاع .

قوة ضخمة ضائعة مضيعة ومخربة:

وحديثنا عن العامة لا يلفت النظر إلى تشرذم المجتمع ، وضياع الإحساس بالانتماء . . فحسب ، بل إنه ينبهنا أيضا إلى أن هذه القوة الضخمة ، هي الكتلة البشرية الكبرى في الدولة ، أضخم عددا من جميع الشرائح الأخرى مجتمعة ، لو أحسن توجيهها واستعادة وعيها وانتماءها ، واعتني بتنميتها علما وقدرة لأصبحت هي المدافعة عن كل ما يمثل الأمة من طموح ومثل وقيم ، وما يدافع عن مصلحة الأجيال اللاحقة ، ولما استطاع الجند المرتزقة ، ولا بنو بويه والديلم معهم ، ولا السلاجقة ولا البدو أن يعبثوا بالخلفاء وبالدولة والمجتمع ؛ بل ولتمكنت هذه القوة من صد المغول (التتار) ومطاردتهم والقضاء عليهم . لكن الخلفاء المستبدين فضلوا اللجوء إلى الجند المرتزقة ليستخدموهم في قهر خصومهم ومنافسيهم ، ولقهر كل معارضة يمكن أن تتجرأ بالاحتجاج على تصرفاتهم وتضييعهم لمصالح الأمة . ذلك لأن

---

(١) إبن كثير ، ***البداية*** ، ج ١٤ ، ص ٥٥ .

الاستناد إلى القوة الشعبية كان يعني أنهم سيكونون تحت رقابتها ، وسيكونون – إن أسرفوا في شذوذهم عن الطريق السوي – تحت سلطتها ورحمتها . وكان هذا هو السبب في اختيارهم الاعتماد على المرتزقة . ومما يدعو إلى الأسف أن العامة كانوا موضع احتقار ، حتى من جانب العلماء المفترض أنهم كانوا الزعامة الشعبية! إن ما كتبته عن العامة في هذا الفصل لا يعدو لمحات مختصرة يمكن أن تعطي فكرة عامة . وللقارئ الراغب في الاستزادة عن حياة العامة أن يطلع على كتب أخرى ، خاصة كتب الحسبة ، التي تصف حياة الناس في الأسواق ، وتعدد الأسواق حسب تعدد الحرف والمهن . ولعل من أفضل الكتب في هذا الميدان كتاب **نهاية الرتبة في طلب الحسبة** ، من تأليف عبدالرحمن بن نصر الشيزري ، المتوفى حوالي سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م . وتوجد من الكتاب طبعة محققة نشرتها دار الثقافة في بيروت ، دون إثبات تاريخ الطبع .

الصوفية:

لقد ترددت في أن أضع الصوفية ضمن قائمة الطبقات الإجتماعية ، كما أنني لم أجد من المناسب أن أضعهم في قائمة الفرق الدينية ، ولم أجد مؤشرا يحملني على إدراجهم في قائمة المذاهب السنية أو الشيعية . وبعد تأمل وتفكير ، على ضوء وجودهم وحياتهم في صورها المختلفة وجدت أن من الأقرب إلى الموضوعية أن يتحدد مكانهم بين الشرائح الاجتماعية .

والذي يهمنا هنا هو إعطاء لمحة عن المضمون العام والملامح الرئيسية لحركة التصوف ، آملين أن تساعد هذه اللمحة على فهم صحيح للآثار التي تركتها الطرق الصوفية وأتباعها وأفكارها في المجتمعات الإسلامية التي ندرسها . وهذا الاختيار يبدو لي أقرب إلى الصواب ؛ ومع ذلك فربما يبدي بعض الناقدين ملاحظات مغايرة لا تخلو من الحقيقة .

بداية التصوف:

يذهب دعاة التصوف إلى أن بداية ظهور الصوفية كانت مع بداية العصر الإسلامي ، أي منذ العهد النبوي ، وأن رسول الله ﷺ أخذ «الخرقة» ، أي «العهد الصوفي» من الله سبحانه وتعالى ، وأن عليا وأبا بكر رضي الله عنهما أخذاها من

النبي صلوات الله عليه . وهم ينسبون جميع الصحابة – خاصة كبار الصحابة – إلى التصوف ، ويزعمون أنهم أوائل المتصوفين [(١)] . لكن الحقيقة غير ذلك ؛ فبين أيدينا كتاب **طبقات الصوفية** ، وهو من أقدم الكتب المؤلفة للتأريخ للصوفية والتصوف ، وما نقرأه في هذا الكتاب يمكن أن يدلنا على أن بدايات الصوفية كانت في القرن الثالث الهجري تقريبا . ومؤلف الكتاب هو أبو عبدالرحمن محمد بن الحسين السلمي المتوفى سنة ٤١٢هـ/١٠٢١م ، الذي كان ، هو نفسه ، من كبار المتصوفة . وقد قدم لنا السلمي تراجم مختصرة لحوالي مئة من كبار المتصوفة الذين ظهروا قبل جيله ، وأدرج أسماءهم في خمس طبقات ، جعل في كل طبقة عشرين ترجمة . وعندما نقرأ ما كتبه عن الطبقة الأولى نجد أن أول اسم في الطبقة الأولى هو الفضيل بن عياض ، المتوفى سنة ١٨٧ هـ/٨٠٣م . وفي هذه الترجمة يبدو الفضيل زاهدا مستقيما مسلما صالحا ، ولكن لا تبدو فيه كثير من المظاهر والصفات الأخرى التي ألحقت بالصوفية . أما الإسم الثاني من قائمة الطبقة الأولى فهو ذو النون المصري ، المتوفى سنة ٢٤٨هـ . وأما الطبقة الثانية فأول الأسماء فيها أبو القاسم الجنيد المتوفى سنة ٢٩٧هـ ؛ وتبدأ الطبقة الثالثة بأبي محمد الجريري ، المتوفى سنة ٣١١هـ . أما الطبقة الرابعة فقد بدأها السلمي بأبي بكر الشبلي ، المتوفى سنة ٣٣٤هـ . وآخر طبقات السلمي هي الطبقة الخامسة التي بدأها بأبي يوسف الأعرابي ، المتوفى سنة ٣٤١هـ [(٢)] .

وعدا عن كتاب السلمي فإننا لا نجد في رجالات القرنين الأول والثاني ، ممن ذكروا في المصادر ، من تنطبق عليه أوصاف المتصوفة فيما بين القرن الثالث إلى القرن السابع وما بعدها . وقد أخبرنا السلمي أنه ألف كتابا آخر بعنوان : **الزهد** ، أورد فيه قوائم بأسماء من اعتبرهم من الزاهدين ، من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين . بيد أن من المؤكد أن مجرد صفة الزهد لا تجعل الزاهد صوفيا ، ولا صفة التقوى والتواضع . لأن هذه صفات إسلامية عامة ، يحرص عليها كثيرون ممن لم يعتبروا أنفسهم من الصوفية أو يتسموا بذلك . لذا فإنني اعتقد

---

(١) أبو نعيم الإصفهاني ، ***حلية الأولياء*** ، مجلد ١ ، ص ٢٧– ٧٨ .

(٢) محمد بن الحسين السلمي ، ***طبقات الصوفية*** ، تح . نور الدين شربية (القاهرة : مكتبة الخانجي ، ١٩٦٩ .

أن بداية الصوفية كانت في القرن الثالث الهجري ؛ أما ما سبق ذلك فإننا نصادف مسلمين صالحين أتقياء زهادا ، فيهم بعض الصفات التي للصوفية ، فقط ، وهي الصفات المشتركة بين الصوفية وغيرهم من المتدينين . وأعتقد أن الفضيل بن عياض - الذي ابتدأ به السلمي كتابه - كان من هذا النوع الزاهد التقي ولكن من غير أن يربط نفسه باعتقاد وجوب ترك الدنيا والانخلاع منها ، والعزلة عن الناس ، أي «ترك العلائق» ، ثم «ترك الصنائع» ، أي ترك العمل من أجل الكسب [١] ، والاتجاه بكليته للوصول إلى الله بالمعنى الصوفي الخاص الذي يذكر الفتح والمشاهدة المباشرة والحضور ، وتبادل الخطاب - كما سنرى في بعض النماذج والأمثلة التي سنستعرضها من الشخصيات الصوفية في الصفحات التالية .

ولا مراء في أن التقوى والصلاح والزهد المعتدل ، غيرالمسرف ، صفات إسلامية محمودة ومرغوبة ؛ بيد أن من غير المقبول الادعاء بأن كل مسلم صالح صوفي ، أو أن يكون كل صوفي مسلما صالحا ؛ وسنأتي بأدلة موثقة تؤكد ذلك إن شاء الله . وهناك كثير من علماء المسلمين يرفضون تلك الادعاءات الصوفية ، ويوجهون للصوفية سهاما من النقد تتفاوت شدة ولينا ، والأمثلة على ذلك كثيرة على امتداد ساحات تاريخ الشعوب الإسلامية طولا وعرضا ؛ بين اتهامات لعدد من مشاهير المتصوفة بالانحراف ، أو الكفر والخروج من دائرة الإسلام ، والكذب والاختلاق [٢] .

وقد ذهب العلامة عبدالرحمن بن خلدون إلى أن « المتأخرين من المتصوفة المتكلمين في الكشف وفيما وراء الحس ، توغلوا في ذلك ، فذهب الكثير منهم إلى الحلول والوحدة . . . وملأوا الصحف منه [من الكلام في هذه الموضوعات] ، مثل الهروي في كتاب **المقامات** . . . ، وغيره ، وتبعهم إبن العربي ، وابن سبعين . . . ثم ابن العفيف ، وابن الفارض ، والنجم الإسرائيلي ، في قصائدهم .» ويعرفنا ابن خلدون أن أسلافهم ، أي الأجيال التي سبقتهم من المتصوفة ، كانوا «مخالطين للإسماعيلية المتأخرين من الرافضة الدائنين أيضا بالحلول وإلهية الأئمة ، مذهبا لم

---

(١) نقل السلمي : ***طبقات الصوفية*** ، (ص٤٥) عن بشر الحافي : «إني لأشتهي الشواء منذ أربعين سنة فماصفا لي درهمه .»

(٢) الشيخ عبدالرحمن عبدالخالق ، ***الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة*** ، القاهرة : دار الحرمين للطباعة ، الطبعة الخامسة ، ١٩٩٣ ، والكتاب من أوله إلى آخره نقد صريح وحاد للتصوف .

يعرف لأولهم ، فأشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر . واختلط كلامهم وتشابهت عقائدهم ، وظهر في كلام المتصوفة القول بـ «القطب» ، ومعناه : رأس العارفين ، يزعمون أنه لا يمكن أن يساويه أحد في مقامه في المعرفة حتى يقبضه الله ، ثم يورث مقامه لآخر من أهل العرفان . . . وهو بعينه ما تقوله الرافضة في توارث الأئمة عندهم . فانظر كيف سرقت طباع هؤلاء القوم هذا الرأي من الرافضة ودانوا به . ثم قالوا بترتيب الأبدال بعد هذا القطب كما قاله الشيعة في النقباء (١) . . .»

كبار الصوفيين يشكون من انحرافات المتصوفة:

بيد أن تعدد المشايخ كان أكبر بكثير مما ذكرنا ، ولا يكاد يقع تحت الحصر عبر القرون ؛ فالمريد يبدأ تلميذا لشيخ ، ثم يستقل ويصبح شيخا بعد أن يأذن له شيخه ؛ وقد يؤسس له طريقة تبقى ضمن الطريقة الأكبر التي عليها شيخه ، أو تنفصل وتصبح طريقة مستقلة . ومع ذلك فقد كثر انتقال المريدين من مرحلة التلمذة إلى مرحلة المشيخة دون إذن الشيخ ، حتى لقد اشتكى بعض كبار الصوفية ورموزها المشهورة من ذلك ، ومما صاحبه من انحرافات أخرى ، منذ النصف الأول من القرن الخامس الهجري . فهذا عبدالكريم بن هوازن القشيري (توفي ٤٦٥هـ) يحدثنا بألم شديد عما آل إليه أمر الصوفية في عصره فيقول : «إن المحققين من هذه الطائفة [المتصوفة] انقرض أكثرهم ، ولم يبق في زماننا [زمان القشيري] . . . إلا أثرهم . . . لا ، بل اندرست الطريقة بالحقيقة . . . وزال الورع واشتد الطمع . . . وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة ، فعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة . . . واستخفوا بأداء العبادات . . . وركنوا إلى اتباع الشهوات ، وقلة المبالاة بتعاطي المحظورات ، والارتفاق بما يأخذونه من السوقة والنسوان ، وأصحاب السلطان . . . وادعوا أنهم تحرروا من رق الأغلال ، وتحققوا بحقائق الوصال . . . وليس لله عليهم فيما يؤثرونه أو يذرونه عتب ولا لوم ، وأنهم كوشفوا بأسرار الأحدية ، واختطفوا عنهم بالكلية ، وزالت عنهم أحكام البشرية (٢)» . كما يشكوا أبو نعيم الإصبهاني الذي عاش وتوفي قبل القشيري بخمس وثلاثين سنة (ت ٤٣٠هـ) بنفس اللغة والألفاظ تقريبا . فإذا مضينا

---

(١) المقدمة ، ص ٥٨٤-٥٨٥ .

(٢) عبدالكريم بن هوازن القشيري ، ص ٢٠-٢١ .

إلى الأمام بضعة قرون أخرى ، نجد عبدالوهاب الشعراني (توفي سنة ٩٧٣هـ) يشكو من نفس الانحرافات [١] ، كما شكا بعض اسلافه السابقين ، أبو نعيم الإصبهاني ، وعبدالكريم بن هوازن القشيري .

وقد انتشرت الزوايا والرباطات و«الخانقاهات» الصوفية للرجال والنساء انتشارا واسعا في طول عالم الإسلام وعرضه ، ووقفت عليها الأوقاف الواسعة لسد نفقات المعتقلين فيها ، المترفعين عن العمل من أجل الكسب ، المتفرغين للعبادة بزعمهم وزعم أساتذتهم وشيوخهم . وقد صار الانتساب إلى الطرق الصوفية بديهية من البديهيات بالنسبة للمسلمين ؛ غير أن الأكثرين لم يتفرغوا لحياة التصوف . وقد ساهمت الحركة الصوفية في تفكيك بنية الأمة وتحويلها إلى جزر صغيرة ، في محيط طريقة أو محيط أتباع شيخ ؛ وفي الزاوية ، والخانقاه ؛ وفي نطاق الأحلام والكشف والرؤى الخارجة عن هذا الكون المادي ، المحومة في عالم الخيال ، مما لا يتسع المجال له أمامنا للإطالة فيه . لكن من المهم أن نلاحظ هنا أن حياة مجموعة من الأشخاص الذكور ، مختلفي الأعمار ، في أحد الرباطات ، يعني عزلة عن المجتمع من حوله ، مما اقتضى وضع قواعد تتعلق بالرقابة على بعض التصرفات ، مثل الخروج إلى الشارع ، او محاولة النظر إلى الشارع ، وأمورا أخرى تتعلق بالأكل الذي لم يكسبوه بجهدهم . ويلمح الباحث وهو يقرأ في سير بعض الناس الذين عاشوا في الزوايا ، إشارات إلى الممنوعات والمباحات ، حيث يظهر وجود مشكلات اجتماعية تولدت عن طريقة الحياة وطريقة التفكير والتربية ، بما في ذلك وقوع بعض الانحرافات ، قلت أو كثرت ، مما لا نستطيع الإفاضة فيه [٢] .

وهناك من الباحثين ، **خاصة من أساتذة الفلسفة** ، من يرجع مقولات وأفكار وتصورات المتصوفة إلى الفلسفات الشرقية ، من هندية وفارسية ، وإلى الفلسفة

---

(١) الشعراني ، ***الأنوار القدسية*** ، م ١ ، ص ٧٧ – ٧٩ .

(٢) أنظر نص شكوى عبدالكريم القشيري ، وشكوى الشعراني من الانحرافات والممارسات الجشعة ، ص ٣١١-٣١٢ ، في الحاشيتين السابقتين مباشرة . الدكتور غسان سلامة ، ***أفلوطين رائد الوحدانية ومنهل الفلاسفة العرب*** ، بيروت – باريس : منشورات عويدات ، ١٩٨٣م ؛ الدكتور إبراهيم هلال ، ***نظرية المعرفة الإشراقية وأثرها في النظرة إلى النبوة*** ، القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٧٧ .

الإغريقية اليونانية ، خاصة الأفلاطونية المحدثة المنسوبة إلى أفلوطين . ولم يكتف هؤلاء بمجرد سوق الاتهامات ، بل إن بعضهم ترجم كتبا إغريقية ، وقارن نصوصها بنصوص مما قاله المتصوفة ، وبنوا على ذلك أن منابع الصوفية وأفكارها ليست إسلامية . وقد ذهب بعضهم إلى القول بأنه وجد تماثلا في كثير من العناصر الرئيسية بين التصوف اليهودي والتصوف المسيحي والتصوف الإسلامي ، خاصة فيما يتعلق بالاقتباس من تلك المصادر الإغريقية والشرقية (١) .

لا يسمح لنا المجال هنا ، في هذه العجالة ، ومن خلال «اللمحة» التي قلنا إننا سنقدمها ، ولا يتسع للخوض في هذا الجدل ، أو محاولة تتبع شواهد نشأة الصوفية والتصوف . ولذا ، فإننا سنقدم وجهة نظر مختصرة ، بطريقة مختلفة عن أسلوب تتبع وتحليل الادعاءات المتعارضة ومحاولة الوصول إلى الحقيقة من خلالها .

للمتصوفة سمات رئيسية خاصة بهم ,ولهم صفات أخرى يشتركون فيها مع غيرهم من المسلمين ، بالإضافة إلى صفات بشرية يشتركون فيها مع غيرهم من المسلمين ، ومع البشر جميعا . والصفات التي يشاركون فيها غيرهم من المسلمين منها الإيمان والعبادات ، ودرجات من التقوى والزهد ، وأمثال ذلك ؛ ولكن ليس كل صوفي صالحا أو عابدا أو زاهدا أو مخلصا ؛ وهذا كلام سبق أن قلناه ، وهاكم الدليل على صحته من كلام نفر من مشاهير ورموز المتصوفة .

السمات الرئيسية الخاصة بالمتصوفة:

يمكن لأي باحث أن يتعرف على السمات الخاصة بالصوفية من خلال كتبهم وما يقولونه عن معتقداتهم ، ومن خلال المثل السلوكية للشخصيات «المثالية» الأهم – من وجهة نظرهم – التي ترجموا لها في كتبهم . ومما أوردوه في ذلك نستطيع أن نحدد هذه السمات كما يلي :

*** ترك الدنيا ؛ إذ أركان الطريق : الجوع ، والعزلة ، والسهر ، وقلة الكلام(٢) ؛**

---

(١) الدكتور عبدالرحمن بدوي ، ***الأفلاطونية المحدثة عند العرب*** ، الكويت : وكالة المطبوعات ، ١٩٧٧ .

(٢) أنظر عبدالوهاب الشعراني ، ***الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية*** ، ج ١ ، (بيروت : مكتبة المعارف ، د .ت .) ، ص ٥٦ –٦٠ .

ويترتب على ذلك ضمنا الابتعاد عن «العمل من أجل الكسب» ؛ ويترتب على هذه الحالة : - ممارسة السؤال (أي الشحاذة) ، أو : قبول الصدقات ، وليس في ذلك أدنى لوم . وقد قسم بشر الحافي المتصوفة ثلاث درجات بالنسبة «للسؤال» : حالة من يمتنع عن قبول الصدقة ، وهذا هو الموقف الأرفع ، ثم حالة : عدم المبادرة بالسؤال ، مع القبول إن أعطي ؛ ثم حالة السؤال والأخذ (١) . ويبدو لي أن هذا التوجيه قد شجع المتصوفة على أن يعيشوا على «الصدقة» دون حرج أو لوم ، كما فتح بابا لممارسة الشحاذة طمعا وشرها وجمعا واستكثارا تحت ستار التصوف . ومما يؤكد هذه الحالة الأخيرة ما جأر به بعض كبار المتصوفة من الشكوى من الانحرافات الواسعة بالنسبة لهذه الحالة : الإسراف والشره والسعي المسعور للحصول على الصدقات وجمع الثروات .

* **الحقيقة عندهم غير الشريعة ، وهي مقابلة لها ، مقابلة تغاير في كثير من الحالات ، بينما تعطى الأفضلية في حالات أخرى .**
* **الإشراق والكشف مقابل الإدراك العقلي والحسي** ، أي أن الوصول إلى العلم الحقيقي يتم عن طريق الكشف الإشراقي . والكشف الإشراقي حالة يدخل فيها الصوفي بعد الانغماس والإمعان في عملية الذكر ، الفردي والجماعي ، بالصوت والحركة الجسدية (الرقص الصوفي) ليصل إلى الشعور بأن الباب قد فتح له ، وأنه صار في حضرة الله - جل وعلا - أي صار من الواصلين ، وأن الغطاء قد رفع عن بصره . وهذه الحالة تجعله يشعر أنه خرج برؤيته وأحاسيسة من الحالة البشرية التي يحسها الإنسان العادي ، غير الصوفي . والوصول إلى هذه الحالة صعب المنال ، وقد يستغرق وقتا طويلا ، ومحاولات متكررة ، وقد لا يتحقق ، حسب ما يزعمون .
* **المعنى الباطن مقابل المعنى الظاهر ، والصحيح أو الأهم عندهم هو المعنى الباطن ، وقد كانت حملة أبي حامد الغزالي ضد العقل ، ودعوته الناس إلى الإيمان بالكشف وأنه وحده الطريق الصحيح إلى المعرفة الحقة ، وتقسيمه العلم إلى علم الظاهر المستند إلى ظاهر النصوص الدينية وعلم الباطن الذي يأتي عن طريق الكشف ، جاءت سندا قويا للاتجاهات**

---

(١) أبو عبدالرحمن السلمي ، ***طبقات الصوفية*** ، ص ٤٧ (آخر صفحة من ترجمة بشر الحافي ، رقم٤ .)

الغيبية المسرفة[1] . ومن العجيب أن يؤكد الغزالي أن علوم الباطن ، أو علوم المكاشفة ، التي هي «مقصد الطالبين ومطمح نظر الصديقين . . .»[2] - حسب رأيه - غير مرخص بإيداعها الكتب ، «ولا يتحدث بها من أنعم الله عليه بشيء منها إلا مع أهله ، وهو المشارك فيه ، على سبيل المذاكرة ، وبطريق الإسرار . . .»[3]

* **الشيخ مقابل المريد** (الأستاذ والتلميذ) ، وعلاقتهما المقننة المحددة ،
* **الفتح** ، أي القول : إن بالإمكان الوصول إلى الله عن طريق «الذكر» بكيفية محددة ، وأن الشخص الممارس لهذه العملية يشعر بالفتح عندما يحدث ؛ بل ويذهب بعضهم إلى أنهم يسمعون كلام الملائكة من بداية الطريق ؛وهذا المفهوم غير بعيد عن حالة الكشف ،
* الكرامات الخارقة للممكن في حياة الإنسان ،
* القطب عندهم هو «رأس العارفين» ، ويزعمون أنه لا يمكن أن يساويه أحد في مقامه في المعرفة حتى يقبضه الله ، ثم يورث مكانه لآخر من أهل العرفان .
* الأبدال ، أي الأشخاص الذين يقال إنهم يكونون في أكثر من مكان في وقت واحد ، كأن يشاهد نفس الشخص في مكة أثناء الحج ، ويشاهد في الوقت نفسه في القاهرة أو دمشق أو الرباط ،
* رؤية مكة من القاهرة ، والانتقال إلى مكة في لمح البصر .
* الزعم بأن نفرا من مشاهير الصوفية التقوا بالنبي ﷺ ، بعد موته بمئات السنين ، ثم رووا أحاديث نبوية مصدرها مثل هذه اللقاءات ، أو رؤيا في المنام .

هذه الأفكار والمصطلحات والممارسات ، وغيرها مما لم نذكره ، نجدها منتشرة بشكل طاغ بين القرن السادس الهجري والثاني عشر الهجري ، من خلال مطالعتنا لكتب الطبقات والتاريخ والأدب والشعر وغيرها ، ويضعف وجودها وشيوعها كلما عدنا إلى الوراء ، حتى تصبح نادرة في القرن الثالث ، وتتلاشى في القرنين الثاني والأول للهجرة .

---

(١) الغزالي ، ***المنقذ من الضلال*** ، ص ٧٩ ، ***والإحياء*** ، جـ ١ ، ص ١٨-١٩ .

(٢) الغزالي ، ***الإحياء*** ، جـ ١ ، ص ٤ .

(٣) ***المصدر نفسه*** ، ص ١٩ .

نماذج من الشخصيات الصوفية:

- كتب الشيخ علي ، ابن بنت عمر بن الفارض ، نقلا عن خاله ابن عمر بن الفارض سيرة لجده عمر ؛ وكان مما قاله فيها : إنه بعد وفاة والد عمر بن الفارض عاد عمر للتجريد والسياحة : «فعاودت التجريد والسياحة ، وسلوك طريق الحقيقة ، فلم يفتح علي بشئ . فحضرت يوما من السياحة إلى القاهرة ، ودخلت المدرسة السيوفية ، فوجدت رجلا شيخا بقالا على باب المدرسة ، يتوضأ وضوءا غير مرتب ؛ فقلت له : يا شيخ ، أنت في هذه السن ، على باب المدرسة ، بين فقهاء المسلمين ، وتتوضأ وضوءا خارجا عن الترتيب الشرعي؟ فنظر إلي وقال : يا عمر ، أنت ما يفتح عليك في مصر ، وإنما يفتح عليك في الحجاز ، في مكة شرفها الله تعالى ، فاقصدها ، فقد آن لك وقت الفتح . فعلمت أن الرجل من أولياء الله تعالى ، وأنه يستتر بالمعيشة ، وإظهار الجهل بلا ترتيب الوضوء . فجلست بين يديه وقلت له : يا سيدي ، أين أنا وأين مكة؟ . . . فنظر إلي وأشار بيده ، وقال : هذه مكة أمامك . فنظرت معه فرأيت مكة . . . فتركته وطلبتها ، فلم تبرح أمامي إلى أن دخلتها في ذلك الوقت ، وجاءني الفتح حين دخلتها ، فترادف ولم ينقطع .[١] » [معنى يستتر بالمعيشة : أنه يشتغل ببيع البقالة لإخفاء شخصيته وولايته ، وربما كان في ذلك شبه اعتذار ضمني عن ممارسته للعمل من أجل الكسب] .

«ثم شرعت في السياحة في أودية مكة وجبالها ، وكنت أستأنس بالوحش ، وأقمت بواد كان بينه وبين مكة عشرة أيام للراكب المجد ، وكنت آتي منه كل يوم وليلة وأصلي في الحرم الشريف الصلوات الخمس ، ومعي سبع عظيم الخلقة ، يصحبني في ذهابي وإيابي ، وينخ لي كما ينخ الجمل ، ويقول : يا سيدي اركب ؛ فما ركبته قط .[٢] » [انتهى الاقتباس] .

[هذه الفقرة ، السطور الأربعة الأخيرة تبين معنى التجريد والسياحة ، ومعنى الفتح الذي قال ابن الفارض أنه كان يسعى إليه ويطلبه .

---

(١) معنى يستتر بالمعيشة : أنه كان يشتغل بالبقالة لإخفاء شخصيته وولايته ؛ وربما كان في ذلك اعتذار ضمني عن ممارسته للعمل من أجل الكسب .

(٢) ***ديوان عمر بن الفارض*** ، تح . فوزي عطوي (بيروت : الشركة الوطنية للكتاب ، ١٩٦٩) ، ص ١٦ .

وقال الشيخ علي : نقلا عن خاله ولد عمر بن الفارض : «كان الشيخ [عمر بن الفارض] في غالب أوقاته لا يزال دهشا ، وبصره شاخصا ، لا يسمع من يكلمه ولا يراه ، فتارة يكون واقفا ، وتارة يكون قاعدا ، وتارة يكون مضطجعا إلى جنبه ، وتارة يكون مستلقيا على ظهره مسجى كالميت ، ويمر عليه عشرة أيام متواصلة وأقل من ذلك وأكثر ، وهو على هذه الحالة ، ولا يأكل ولا يشرب ولا يتكلم ولا يتحرك (١) .»

[وهذه الصورة تضع أمامنا مثالا وأنموذجا للشخصية الصوفية ؛ وما علينا إلا أن نحاول رسم الصورة _نتخيل شخصا حيا - يحمل هذه الصفات ، ويتصرف في حياته بهذه الكيفية ، وبذلك نفهم الصوفية والتصوف وأثرها في المجتمع بشكل أفضـــل] .

وحكى لي ولده ، قال : كان الشيخ [ابن الفارض] ماشيا في السوق بالقاهرة ، فمر على جماعة من الحرسية ، يضربون بالناقوس ، ويغنون بهذين البيتين ، وهما :

مـــولاي ســهـــرنا نبـــتـــغي منك وصـــال
مــــــولاي لـم تسـمح فنمنا بخـــــيـــــال
مــــــولاي فلـم يطرق ، فـــــلا شــك بأن
مـــــا نحن إذا عندك مــــــولاي ببــــــال

فلما سمعهم الشيخ صرخ صرخة عظيمة ، ورقص رقصا كثيرا في وسط السوق ، ورقص جماعة كثيرة من المارين في الطريق ، حتى صارت جولة وإسماع عظيم ، وتواجد الناس إلى أن سقط أكثرهم إلى الأرض ، والحراس يكررون ذلك ، وخلع الشيخ كل ما كان عليه من الثياب ، ورمى بها إليهم ، وخلع الناس معه ثيابهم ، وحمل بين الناس إلى الجامع الأزهر ، وهو عريان مكشوف الرأس ، وفي وسطه لباسه ، وأقام في هذه السكرة أياما ، ملقى على ظهره ، مسجى كالميت ، فلما أفاق ، جاء الحراس إليه ومعهم ثيابه ، فوضعوها بين يديه ، فلم يأخذها (٢) . . .» كانت هذه بعض مشاهد من حياة هذا الصوفي الكبير الشهير ، كما رواها ابن بنته عن ولده . [انتهى الاقتباس والمثال] .

-قال أبو حمزة الخراساني : حججت سنة من السنين ، فكنت أمشي ، فوقعت

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٠ .

في بئر ، فنازعتني نفسي بأن أستغيث ، فقلت : لا والله ، لا أستغيث! فما استتممت هذا الخاطر حتى مر برأس البئر رجلان ، فقال أحدهما للآخر : تعال نطم رأس هذا البئر من الطريق ، فأتوا بقصب . . . وهممت أن أصيح ، ثم قلت : يا من هو أقرب إلي منهما! وسكت حتى أتموا ومضوا ، فإذا أنا بشئ قد تدلى برجليه في البئر وهو يقول : تعلق بي ؛ فتعلقت به فإذا هو سبع ، وإذا هاتف يهتف بي ويقول لي : يا أبا حمزة ، هذا حسن ؛ نجيناك من التلف في البئر بالسبع .» [انتهى الاقتباس] . وهنا أتوقع أن يتساءل القارئ عن شخص «الهاتف» الذي نطق بالعبارة الأخيرة : « . . . نجيناك من التلف بالسبع .» وأدع للقارئ أن يتوصل إلى الإجابة بنفسه (١) .

– « قال أبو سعيد الخراز : كنت في البادية فنالني جوع شديد ، فطالبتني نفسي بأن أسأل الله طعاما ؛ فقلت : ليس هذا من فعل المتوكلين ؛ فطالبتني نفسي بأن أسال الله صبرا ، فلما هممت بذلك سمعت هاتفا يقول :

ويزعم أنه منا قريب
وأنا لا نضيع من أتانا
ويسألنا القوى عجزا وضعفا
كأنا لا نراه ولا يرانا

دلا لة هاتين الحكايتين : **السلبية المطلقة ، الإتكالية المطلقة ، بل والمبالغ فيها** إذ يمتنع حتى عن سؤال الله شيئا ، باسم الإيمان ، زد على ذلك أن السيد الخراز زعم أن الله يكلمه شعرا .

– «وقال ذو النون [المصري] : رأيت فتى عليه أطمار رثة فتقذرته نفسي ، وشهد له قلبي بالولاية ، فبقيت بين قلبي ونفسي أتفكر ؛ فاطلع الفتى على سري ، فنظر إلي فقال : يا ذا النون ، لا تبصرني لكي ترى خلقي ، وإنما الدر داخل الصدف! (٢) . . .» أي أنه علم ما في نفسه .

– وهذا مثل آخر أنقله عن والدي محمد مصطفى أبو عزة ، رحمه الله (توفي سنة ١٩٧٢) وقد سمعته منه مرات كثيرة في أوقات مختلفه عبر السنين ، ومفاده أن

---

(١) أبو بكر محمد بن إسحاق الكلاباذي ، ***التعرف لمذهب أهل التصوف*** (بيروت : دار الكتب العلمية ، ، ١٤٢٢/٢٠٠١) ، ص ١٦٨ ، وقد توفي الكلاباذي سنة ٣٨٠ هـ .٦١١.

(٢) ***المصدر نفسه*** ، ص ١٧٠ .

الصوفي يعلم الغيب بما في ذلك علم ما في نفس محدثه ، وأظن أن المثل كان متداولا في مجتمعنا ، بين المتصوفة الشعبيين وأشياعهم المصدقين والمتقبلين لمقولاتهم ، وهو مثل يعرض في مشهد قصير يجمع بين عالم فقيه وأحد المتصوفة : يتقابل العالم والصوفي صدفة من غير معرفة سابقة فتتحرك في دماغ العالم الفقيه خاطرة : «ما اتخذ الله من ولي جاهل!» فيرد عليه الصوفي بصوت قوي بقوله : «اتخذه وعلمه ؛ إسأل يا حمار زينب .» وشرح العبارة الأخيرة : أن زينب هي امرأة العالم الفقيه ، وأنه كان يلاعب زوجته وتلاعبه عندما يمارسان حبهما ومتعتهما والبيت خال ، ومن ضمن حركات اللعب أنها كانت تركب على ظهره . . .» وهكذا تفيد الحكاية : أن الصوفي علم – بمجرد لقائه مع العالم – بما كان يدور بين العالم وزوجته في داخل غرفة في بيت الزوجية ، وعلم أن اسمها زينب ، وبذكاء وسرعة خاطر مدهشة صاغ له لقب «حمار زينب!»

ووالدي رحمه الله لم يكن صوفيا ، ولم يكن من العلماء ؛ كان متدينا يقرأ ويكتب في إطار الثقافة الشعبية في مجتمعه ، وكان يطالع الصحف والمجلات ، وقد خدم في الجيش العثماني أثناء الحرب العالمية الأولى خيالا ، وشارك في معركة الدفاع عن العراق عندما اقتحمته القوات البريطانية سنة ١٩١٤م ، كما شارك في بعض المعارك على الجبهة الروسية ووقع في الأسر هناك سنة قبل أن يتمكن من العودة إلى قريته يبنا . وليس المقصود من الحديث في هذه السطور الأربعة التنويه بوالدي الذي كان إنسانا عاديا بسيطا كغيره من القرويين في عصره ، بل القصد هو بيان الأجواء والإطار الاجتماعي الذي كانت تنتشر فيه هذه الاعتقادات .

وهذا مثل آخر من سيرة أحد الصوفية من غير المشاهير الكبار ، بنصها الكامل :

السيد علي البكري المتوفى سنة ١٢٠٧هـ/ ١٧٩٢م .

«الشريف الحسيب النسيب المعتقد ، صاحب الكرامات ، وخوارق العادات ، السيد علي بن السيد مصطفى بن السيد درويش بن علي تقي الدين النحراوي بن السيد تقي الدين بن السيد صدرالدين بن السيد صفي الدين بن السيد صالح بن السيد محمد كمال الدين بن السيد إبراهيم القرشي بن السيد أبي المجد الدسوقي الشاذلي رضي الله عنهم أجمعين ، فهو رضي الله عنه من ذريته الأشراف الدسوقية البراهمة . وكان رضي الله عنه من المجاذيب ، أرباب الأحوال الصادقة ، واشتهر بالبكري لسكناه بسويقة البكرية .

أقام رحمه الله على قدم التجريد سنين عديدة ، **يمشي في الأسواق عريان ، ويخلط في الكلام ، وبيده نبوت طويل يصحبه معه في غالب أوقاته ، وكانت تتبعه امرأة يقال لها الشيخة أمونة ، من المجاذيب ، وكانت من الزهاد أرباب الأحوال .**

وكان يحلق لحيته ، وللناس فيه اعتقاد عظيم ، وينصتون إلى تخليطاته ، ويوجهون ألفاظه ويؤولونها بما في ضمائرهم ، ومقتضيات أحوالهم ووقائعهم ، وحصلت له هذه الجذبة بعد نشأته حتى أسكرته طول حياته ؛ فكان ﵁ لا ينال إلا في الأزقة ، وعلى قوارع الطرق ، ويبيت غالب لياليه طاويا من غير أكل ولا شرب .

وكان له أخ من مساتير الناس ، فحجزه أخوه في بيته ، وكساه وأطعمه ، وأنفق على أتباعه ، وألبسه ثيابا حسناء [كذا] ، فصارت الناس تتردد إلى زيارته ، **وكان يكاشفهم بإمورهم وأحوالهم ، ورأوا منه كرامات عظيمة ، فصاروا يأتونه بالهدايا والنذور** ، فيأخذها أخوه ، فأثرى بسبب ذلك . ولما رآى أخوه كثرة تردد الناس إليه وبذل أموالهم بين يديه ، بالغ في إكرامه ، وقيد له من يخدمه ، ويقوم بمصالحه ، ويراعيه في نومه ويقظته وقضاء حاجته .

وكان في بدايته ﵁ إذا مشى في الأزقة تتعلق به أصحاب الحوانيت والمارة ، وسكان الدور ، حتى النساء ، فصار له أتباع يمشون خلفه ، ويلازمونه أينما ذهب ، وكل من التصق به أو مر على حانوته وباب داره حصلت له جذبة ، وتبعه ، حتى شاع هذا الأمر ، وبلغ العلماء وولاة الأمور ، وصارت له شنة ورنة ، وباتت الناس تتحدث في ذلك ، فأمر الوالي بإرساله إلى المارستان [المستشفى] ، فمكث أسبوعا ، وبعد الأسبوع رئي في الأزقة كحالته الأولى ، فتعجب الناس ، وبلغ الأمر أرباب الدولة فتركوه ؛ ولكن قلت أتباعه ، ما عدا الشيخة أمونة ، فإنها زادت في الانجذاب ، وكشفت وجهها ، ولبست ملابس الرجال ، ولازمته أينما توجه ، وصار كل من يعترض عليه يمسه سيدنا فينجذب ، ويخلع ثيابه ، ويتحنجل في مشيته ، حتى تبعهم خلق كثير من النساء والرجال ، وصار لهم ضجة عظيمة في الأسواق . وكانت تتبعهم الأطفال والكبار والصغار ، ويصير لهم كوكبة [جمهور من الأتباع] . وكثر هرج الناس ومرجهم . وكانت الشيخة أمونة تقف على دكة حانوت أحد التجار ، وتتكلم وتخلط في الكلام ، وتارة تتكلم بالعربية ، وتارة بالتركية ، وتارة بالفارسية ، وهكذا ، والناس ينصتون لها ، ويقبلون يديها ، ويتبركون بها . ودام الحال على ذلك مدة إلى أن

انفرد الأستاذ عنها وعن أتباعه ، ولزم بيت أخيه ، وانفردت هي في منزلها ، واعتقدها الناس من كل طائفة من الخواص والعوام ، وتفرقت باقي المجاذيب ، وظل سيدنا علي ملازما في دار أخيه على هذه الحالة حتى توفاه الله سنة سبع ومئتين وألف ، **واجتمع الناس لتشييع جنازته من كل ناحية ، ودفنوه بمسجد الشرابي ، بالقرب من جامع الرويعي ، وعملوا له مقصورة ، ومقاما يقصد للزيارة ، واجتمعوا عنده ثلاث ليال ، وعملوا الحضرات والأذكار ، وصارت [كذا] المنشدون تنشد [كذا] ، واعتادوا كل عام بإحياء ليلة مولده بمثل يوم توفي ، وضريحه مشهور ، ينذرون له النذور ، وله كرامات ظاهرة ، ويتوالى على ضريحه الزائرون ، نفعنا الله به آمين .** [1] .» [إنتهــت الترجمة] .

وسيرة السيد علي البكري ، هذه ، لا تعطينا معلومات ، أو ما يشبه المعلومات فقط ، عن حياته ويومياته وموته ، وعن اعتقاد الناس فيه ، وإنما تقدم لنا مشاهد من أيام حياته ، ومشاهد أخرى من الشارع الذي كان يمر به ، ومشاهد من حياة الجمهور الرتيبة في الأيام المتوالية ، ومشاهد من حياة الأفراد . كما أن سيرته تحمل بعضنا على تصور واستدعاء مشاهد من حياة المئات من مشايخ المتصوفة ، غير السيد علي البكري ، ومن حياة مجتمعهم ، وحياة الأفراد والجماعات في الشوارع التي دبت على أديمها أقدامهم ، وجلجلت فيها أصواتهم وأصوات أتباعهم ، وأصوات وتعجب المشدوهين برؤيتهم ، ودبيب طبولهم ورنين كاساتهم النحاسية ، وحلقات الذكر في الشوارع وفي داخل البيوت والأروقة ؛ كما أنها تعطينا معلومات عن طريقة تفكير الناس وعواطفهم وانفعالاتهم . ومن أراد من القراء والقارئات أن يمضي للوصول إلى أعماق أبعد في فهم ما كان يجري فما عليه إلا أن يحاول في تفكيره أن يتصور نفسه فردا في ذلك الزمان والمكان ، وأن يتقمص عقول وقلوب أفراد تلك المجتمعات ، سواء من المتصوفين البارزين ، أو من الجمهور الذي يحتضنهم ، أو من الأفراد الذين كانوا منشغلين فقط بالسعي لكسب قوتهم وقوت عيالهم ؛ كيف كان يفكر أولئك الناس ، وماذا كان يدور في أدمغتهم وهم يعيشون المشاهد التي عرضت لنا ، وكيف كانت

---

(١) الحسن بن محمد بن قاسم الفاسي المغربي ، ***طبقات الشاذلية الكبرى المسمى جامع الكرامات العلية في طبقات السادة الشاذلية*** ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ٢٠٠٥م/١٤٢٦هـ . ، ص١٤٤– ١٤٥ .

عواطفهم ترتفع ثم تنحني وتهبط قليلا أو كثيرا . إن البحث عن النشاط العقلي ، وعن العواطف والأحاسيس التي اعتملت في النفوس آنذاك ، يمكن أن يجعلها ترتسم أمامنا إن نحن استخدمنا ملكة التخيل ، استنادا إلى ما بين أيدينا من مؤلفات مشايخ المتصوفة وأدبياتهم .

لقد تعددت الطرق الصوفية ، وأشهرها القادرية ، والرفاعية ، والنقشبندية ، والدراقوية ، والتيجانية ، والخلوتية ؛ وكان من أقدمها الطريقة القادرية ، نسبة إلى الشيخ عبدالقادر الجيلاني (أو الكيلاني) المتوفى سنة ٥٦١هـ/١١٦٦م . أما الرفاعية فتنسب إلى الشيخ أحمد الرفاعي (ت . سنة ٥٧٠هـ) ، الذي أقام في بلدة أم عبيدة في منطقة البطائح (أو الأهوار) في جنوب العراق ، وربى كثيرين من المريدين ، «وتلمذ له **خلائق لا يحصون**» ، وتبعه كثير من أهل القرى المحيطة بأم عبيدة .

وموضوع الصوفية بحر واسع ، ألفت وتؤلف فيه آلاف الكتب ، ولم يكن في مقدوري أن أتجاهله ، كما لم يكن في مقدوري أن أتوسع في تناوله ضمن هذه الدراسة ؛ ولذلك اخترت أن أفتح للقارئ والقارئه كوة ، أو نافذة ، ليطلع من خلالها على بعض المشاهد التي اخترناها من حياة بعض الشخصيات الصوفية ، من مستويات ، وأزمنة وأماكن متنوعة ؛ ومع المشاهد نقلت بعض النصوص عن مشاهير المتصوفة وأئمتهم . والمشاهد التي استعرضتها ليست من إنشائي أو رسمي ، ولكنها من المصادر الصوفية الأصلية القديمة ، وبنصوصها الأصلية . وبطبيعة الحال يستطيع أي قارئ أو قارئة أن يرجع بنفسه/بنفسها إلى المصادر ليطلع على مشاهد أخرى كثيرة ، بالمئات أو أكثر . وهنا أنصح بعدم الاعتماد على الكتابات الحديثة والمعاصرة التي ينشرها دعاة الصوفية والداعين للتصوف ، لأنهم يحاولون أن يرسموا صورة مقبولة ، ويعطون جزءا من الحقيقة . المصادر الصوفية القديمة (المؤلفة قبل مئتي سنة) هي التي تبين الأحوال والمعتقدات والأفكار والممارسات الصوفية على حقيقتها . أما المراجع المؤلفة حديثا فإن مؤلفيها يحرصون على رسم صورة تجد القبول في عالمنا الحديث والمعاصر .

الفصل الثالث عشر

الشتـات الفكري ودور العلماء فيه

مقدمـة:

قبيل منتصف القرن الهجري الأول بدأ المجتمع الإسلامي يتدحرج ليدخل في حالة من الشتات الفكري التي أخذت تتعمق وتتسع بالتدريج من غير أن تلحظها عيون الرقباء في مرحلتها الأولى ؛ واستمرت هذه العملية مضطردة حتى اكتملت في منتصف القرن الثالث الهجري ، وألفى عالم الإسلام نفسه في بحر لجي من الضياع والشتات ، ولا ربان! لقد ضل الربابنة ، بعد أن فقدوا البوصلة ، وعشيت أبصارهم عن الاهتداء بالنجوم ، فضاعوا في لجج البحر وبين أمواجه العاتية . ويبدو لي أن من اللازم إيضاح ما نعنيه بهذا العنوان : **الشتات الفكري** الذي سيتداوله هذا المؤلف مع قرائه تسهيلا للتفاهم المتبادل بشأن موضوع الحديث في هذا الفصل الذي تتجسد فيه ومن خلاله النتائج النهائية لهذه الدراسة .

١- ما الذي نعنيه بالشتات الفكري :

الذي نعنيه بالشتات الفكري خروج المجتمع من حالة التوحد بالنسبة لجوهر العقيدة ولبها ، وفي الخطوط العريضة لتوجهاته الفكرية والسلوكية إلى حالة تحدث فيها الانقسامات المؤدية إلى الافتراق ، إفتراق الأجزاء وتنافرها ، ثم عداء بعضها لبعض ، عداء يتحول إلى خصومات وقطيعة مسرفة في العداء ، وانزلاق إلى الحروب لإبادة الخصوم ، والانفراد بالتسيد ؛ ثم يتواصل التشرذم بعدئذ بطريقة الانقسام والتكاثر الجرثومية المعروفة .

٢- وهل كانت هناك حالة توحد قبل الدخول في حالة الشتات؟

الجواب : نعم! لقد كانت هناك حالة توحد ، وما زالت قائمة بين الأفراد والجماعات التي لم تنزلق إلى حالة الشتات . وقد برزت حالة التوحد ونمت وارتفعت قامتها سامقة في عهد رسول الله ﷺ ، وفي

عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما إلى أن بدأت تتصدع بتجمع العشيرة الأموية وتحركها العشائري والقبلي .

٣- وماذا كانت المرتكزات الأساسية لحالة التوحد؟

الجواب : كان المرتكز الأساسي الأول والرئيس هو : الإيمان بالله الواحد ، وإسلام النفس له والالتزام بتوجيهاته وهدايته ؛ وقد تحددت هذه التوجيهات في سبع كلمات : الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، وباليوم الآخر . وإذا كان الأيمان حاضرا وحقيقيا فلا بد أن يتبعه وينشأ عنه العمل ، عملا من جنسه ، وهو : «العمل الصالح» الذي يتردد ذكره في كتاب الله تعالى ، وفي سنة رسوله عليه الصلاة والسلام .

٤- إتساع دائرة التوحد والتوحيد :

ويتبين لنا من خلال آي القرآن الكريم والحديث النبوي أن دائرة التوحد والتوحيد واسعة بحيث تعطي مساحة للتعددية ، وذلك في قول الله سبحانه وتعالى : ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا . . .﴾ هنا تتكون الأهلية للدخول في الدائرة ، دائرة التوحد والتوحيد : (١) الإيمان بالله إيمانا صادقا فعالا (٢) الاستقامة في السلوك والتعامل . ثم تعزز ذلك بآية أخرى : ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا ، والنصارى والصابئين ، من آمن بالله واليوم الآخر ، وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون .﴾ [البقرة : ٦٢] . وهناك آيات أخرى بهذا المعنى ، أو هي تشاطره مثل : ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .﴾

ثم يأتي بعد ذلك حديث رسول الله ﷺ : «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة ، وإن زنى وإن سرق .»

وهكذا نجد أن هناك مكانا لغير المسلمين ممن عاشوا ضمن دائرة الأمة ، وضمن حدودها ، تتسع لقبولهم ، ومسالمتهم ، واحترام حقوقهم ، ومعاملتهم على قاعدة المساواة المبدئية في الأمور الاجتماعية والحياتية ، وإقامة روابط الود معهم . وهذا كله يرتكز على إيمانهم بالله ، واستقامتهم وعملهم الصالح مرتبطين .

ماذا كانت الأسباب التي أدت إلى الشتات الفكري؟

كانت هناك ستة أسباب هي الأهم :

أولا : التعثر ببعض الموروثات الجاهلية .

ثانيا : الدعاية السياسية المسرفة في التضليل .

ثالثا : انتشار وغلبة الأمية ، وشبه الأمية على أوسع نطاق ، وفي كل المستويات .

رابعا : افتقار المجتمع الإسلامي الناشئ للخبرة في معالجة ما استجد من المشكلات السياسية والاجتماعية .

خامسا : تسرب الفكر الدخيل من خارج الإسلام .

سادسا : عجز القيادات الفكرية – وهم العلماء – وانهيار دورهم القيادي .

ولعل من المناسب والمفيد أن نوضح ما نعنيه بهذه الأسباب الستة :

فالروح العشائرية والقبلية التي حدت بالأمويين إلى السعي لاغتصاب الخلافة كانت نبتا جاهليا معادا ، استأنفت بعض جذوره النمو . وكان المجتمع الإسلامي الناشئ قد تمكن من تجاوز ما حدث يوم السقيفة بسلام بعد وفاة رسول الله ﷺ ، حيث أطلت العشائرية والقبلية ؛ كما تعامل ذلك المجتمع مع أحداث الردة باقتدار وأخمد نارها بسرعة ؛ بيد أنه عجز عن ردع الهجمة الأموية ، لأنها كانت متخفية متسترة ، وقد نجحت في تمويه تحركاتها . ولم تنحصر الروح العشائرية في مساعي الأمويين وحدهم ، بل لقد استغل الأمويون الروح القبلية ووظفوها لخدمة أهدافهم ، واستخدموا في ذلك الأموال والمناصب وغير ذلك ، وسمحوا لها أن تنتعش وتنمو وتتمدد ، لتزاحم المبادئ والقيم الإسلامية ، وتقصي بعضها من الساحة ، وتلوث كثيرا مما تبقى وتشوهه وتقلل من فاعليته أو تعطلها بشكل كلي .

وكانت الدعاية السياسية هي إحدى الأدوات المهمة التي استخدمتها الحركة الأموية بنجاح فنفذت من خلالها وأحدثت ارتباكا في فكر قطاعات كبيرة من الأمة أعجزها عن إدراك ما يجري ، وعن رد الفعل الرادع . واستمرت الدعاية السياسية مندفعه بقوة أكبر ، بعد نجاح الانقلاب الأموي ، ثم استخدمها العباسيون الذين ساروا على آثار الأمويين ، واستخدمها من بعد العباسيين العلويون بمختلف تفرعاتهم ؛ وقد تناولنا ذلك بقدر مناسب من التفصيل . لقد تحرك العباسيون ثم العلويون بمختلف

فروعهم من خلال منظور عائلي عشائري ، ولكنهم تمكنوا من تغليفه وتمويهه بدعوى وراثتهم للنبي ﷺ .

من يقرأ تاريخ الشعوب الإسلامية بشئ من التعمق والتوسع يستطيع أن يدرك بسهولة ووضوح مدى انتشار الأمية وشبه الأمية . وهذا القول سيصدم الكثيرين ممن عاشوا على مقولات حض الإسلام على العلم والتأكيد على مكانته العالية ؛ وهي مقولات صحيحة بكل تأكيد ، لكن تطور أحوال المجتمعات على النحو الذي استعرضناه في الفصول السابقة ، وفي هذا الفصل يبين بوضوح أن الشريحة العليا من المتعلمين ما لبثت أن حفرت لعقولها أنفاقا ، ولحركات تفكيرها مسارب مسورة . أما الكثرة الكاثرة ممن تعلموا القراءة والكتابة بمستويات متواضعة فقد كان علمهم محدودا وسطحيا ، فكانوا لا يكادون يختلفون عن الأميين إلا قليلا جدا .

أما نقص خبرة المجتمع الإسلامي الناشئ فأمر واضح بذاته ، باعتبار أن الإسلام نشأ في مكة ثم في المدينة ، ولم تكن فيهما خبرة تتعدى خبرات المجتمع القبلي الصحراوي الصغير ، وحياة الصحراء ، والقيم القبلية المصوغة من خلال حياة الصحراء . وقد أحدثت حركة الإسلام الجديدة تطورات سريعة وهائلة لم يكن في مقدور المجتمع أو أفراده استيعابها ، فحدثت الاختراقات ، وظهر العجز ، فكان ما كان . وعندما انتقل مركز الدولة خارج شبه الجزيرة العربية ظلت الشريحة العربية الرقيقة المحدودة الحجم ، الصحراوية الأصل ، هي المسيطرة ، بخبراتها المحدودة ، وما صاحبها من الموروث الجاهلي الذي فرض نفسه على مسرح الأحداث .

أما عن تسرب الفكر الدخيل فقد حدث نتيجة للاتصال والاختلاط الذي تم على نطاق واسع من جراء توسع المسلمين العرب الأوائل وانتشارهم خارج المناطق العربية ، وكذلك نتيجة لانثيال أعداد كبيرة من أهالي الأقاليم غير العربية إلى قلب الدولة ، سواء في المدينة ، أو دمشق أو بغداد ، ومن خلال اعتناق أعداد متزايدة من سكان البلاد المفتوحة للإسلام ، والسفر للحج ، وطلب العلم ، والسياحة ، والتجارة ، والبحث عن الفرص ، والانضمام إلى الجيوش الإسلامية ، وجلب الجواري والغلمان والخدم ، وغير ذلك . وكان زوال الحدود بين الأقاليم التي انطوت كلها تحت سلطة الدولة الإسلامية في المركز ، قد سمح بتدفق البشر في كل الاتجاهات ؛ وساهم كل ذلك في انتشار عناصر الثقافات الأجنبية . ثم بدأت الترجمات من التراث الأجنبي في أواخر القرن الهجري الأول ، فكان لكل ذلك آثار نافذة ، منها الإيجابي ومنها السلبي .

أما عجز القيادات الفكرية فقد بدا واضحا في اختلافها وإخفاقها في الوصول إلى فهم وموقف موحد من الانحرافات الخطيرة التي هددت مصير الأمة ، بل إن بعض تلك القيادات شارك في صناعة الانحرافات . ومع حالة التشرذم التي أفرزتها الأطماع السياسية والصراع على المغانم أصاب التشرذم كثيرين ممن يعدون في زمرة العلماء .

مقدمات الدخول في حالة الشتات الفكري:

اختلفت ردود فعل «النخبة» من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين عند استيلاء معاوية على الخلافة ، ثم بعد أن عين ابنه وليا للعهد ليورثه المنصب . وقد تركزت هذه الاختلافات في اتجاهين ، تطور كل منهما فصار نواة لمدرسة ؛ فأصبحت لدى المسلمين مدرستان مثلهما في بداية ظهورهما :

أولا : جابر بن عبدالله الأنصاري ، ﵁ .

ثانيا : والمدرسة الأخرى مثلها عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما .

وفيما يلي نص يبين رد فعل جابر ابن عبدالله لاغتصاب معاوية الخلافة . وقد ظهر منه هذا الموقف عندما وصلت إلى المدينة الحملة التي أرسلها معاوية لمعاقبة أهلها .

> «أرسل معاوية . . . بعد تحكيم الحكمين بسر بن أبي أرطاة . . . في جيش فساروا من الشام حتى قدموا المدينة ، وعامل علي على المدينة يومئذ أبو أيوب الأنصاري ؛ ففر منهم أبو أيوب ، فأتى عليا بالكوفة . ودخل بسر المدينة . . . فصعد منبرها ولم يقاتله بها أحد . . . ثم قال : يا أهل المدينة ، والله لولا ما عهد إلي معاوية ما تركت بها محتلما إلا قتلته . ثم بايع أهل المدينة . **وأرسل إلى بني سلمة [عشيرة جابر بن عبدالله] فقال : والله ما لكم عندي من أمان ولا مبايعة حتى تأتوني بجابر بن عبدالله . فانطلق جابر إلى أم سلمة زوج النبي ﷺ فقال لها : ماذا ترين؟ إني خشيت أن أقتل ، وهذه بيعة ضلالة! قالت : أرى أن تبايع . . . فأتى بسر فبايعه . وهدم بسر دورا بالمدينة** [1] . . .» .

وهكذا نرى أن جابر بن عبدالله ، ﵁ ، اعتبر بيعة معاوية «بيعة

(١) الطبري ، مجلد ٥ ، ص ١٣٩ [أحداث سنة ٤٠ هـ] .

ضلالة» ، ومع ذلك اضطر للمبايعة حتى لا يقتل ، متبعا نصيحة أم المؤمنين ، أم سلمة . وجابر بن عبدالله من كبار الصحابة وكان واحدا من أول ستة من الأنصار قابلوا رسول الله ﷺ سرا بمكة أول مرة قبل الهجرة ، واعتنقوا الإسلام ؛ وشهد مع النبي بدرا وأحدا والخندق ، والمعارك كلها [1] .

وفضلا عن ذلك فقد ظهر - في مرحلة تالية- أن معظم الصحابة وأبناءهم ومواليهم كانوا ممن يتبنى موقف هذه المدرسة حيث ثاروا ضد خلافة يزيد ؛ فعندما تولى يزيد بن معاوية الخلافة غداة موت أبيه معاوية بن أبي سفيان أعلن أهل المدينة من المهاجرين والأنصار وأبنائهم ومواليهم الثورة ضده ، فما كان منه إلا أن أرسل حملة عسكرية اجتاحت مدينة رسول الله ﷺ وقتلت عددا كبيرا من الصحابة وأبنائهم ولم تسلم النساء من الاعتداء كما ذكرنا عندما تعرضنا لأخبار معركة الحرة في الفصل الثالث (ص ١٠٣ - ٤ في الطبعة الأولى) . وكان من ممثلي هذه المدرسة سعيد بن المسيب ، الملقب بسيد التابعين وغيره من العلماء الذين شاركوا في الثورة ضد الحجاج في خلافة عبدالملك بن مروان ، كما مر معنا ، وغيرهم كثيرون .

عبدالله بن عمر بن الخطاب، رائد المدرسة الثانية:

ويوضح موقف عبدالله بن عمر ما رواه أبو بكر بن العربي عن ابن عمر ؛ قال ابن عمر رضي الله عنه : «دخلت على حفصة ونوساتها تنطف [ذوائبها تقطر ماءا]قلت : قد كان من الأمر ما ترين ، فلم يجعل لي من الأمر شئ ؛ فقالت : إلحق ، فإنهم ينتظرونك ، وأخشى أن يكون في احتباسك عنهم فرقة ؛ فلم تدعه حتى ذهب [إلى حيث ذهب الناس للاستماع إلى معاوية] . فلما تفرق الناس خطب معاوية [موجها حديثه لمن بقوا] فقال : من كان يريد أن يتكلم في هذا الأمر [أمر الخلافة وأخذ البيعة ليزيد بن معاوية] فليطلع لنا قرنه ، فلنحن أحق به منه ومن أبيه . ويبدو أن معاوية وجه هذا التهديد لابن عمر نفسه . قال حبيب بن مسلمة [لعبدالله بن عمر] : فهلا أجبته؟ قال عبدالله ، فحللت حبوتي[2] وهممت أن أقول : أحق بهذا الأمر من قاتلك وأباك

(١) انظر ترجمته : محمد بن سعد ، ***الطبقات الكبرى*** ، مجلد ٣ ، ص ٥٧٤ .

(٢) في المعجم الوسيط : الحبوة تعني الثوب ، ونحوه مما يلتف به الإنسان . ومعنى عبارة ابن عمر أنه تهيأ لكي يرد على معاوية ،لكنه غير رأيه .

على الإسلام ؛ فخشيت أن أقول كلمة تفرق بين الجمع ، وتسفك الدم ، ويحمل عني غير ذلك ، فذكرت ما أعد الله في الجنان . فقال حبيب : حفظت وعصمت .» [المصدر : أبو بكر بن العربي ، العواصم من القواصم ، ص ٢٢٣-٢٢٤ ؛ وقد أرجع محقق كتاب ابن العربي - وهو محب الدين الخطيب - حديث ابن عمر إلى صحيح البخاري ، كتاب الفتن ، ك ٩٢ ب ٢١ ، ج٥ ، ص ٤٨] .

وثمة رواية أخرى للبخاري توضح موقف ابن عمر : فعندما خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية جمع ابن عمر حشمه وولده وقال : «إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة ، وإنا قد بايعنا هذا الرجل [يزيد] على بيع الله ورسوله ، وإني لا أعلم غدرا أعظم من أن نبايع رجلا على بيع الله ورسوله ثم ننصب له القتال ، وإني لا أعلم أحدا منكم خلعه ولا بايع في هذا الأمر إلا كانت الفيصل بيني وبينه .» [أبو بكر بن العربي ، العواصم من القواصم ، ص ٢٢٤-٢٢٥ ؛ وقد أحال محقق كتاب بن العربي هذا النص إلى صحيح البخاري [كتاب الفتن ، ك٩٢ ب٢١ ج٨ ، ص ٩٩] . والذي يظهر من نص كلام عبدالله بن عمر أنه لم يفرق بين بيعة تتم بالاختيار الحر ، وبيعة تتم بالإكراه والترويع ، حيث اعتبر أن البيعة ليزيد ملزمة [١] . وروي عن ابن عمر : «قال ابن عمر حين بويع يزيد : إن كان خيرا رضينا ، وإن كان شرا صبرنا .» ومما قاله ابن عمر أيضا بشأن بيعة يزيد : «والله وأنا أقول ذلك [إن يزيد ليس الأفضل] ، ولكن ، والله لأن تجتمع أمة محمد أحب إلي من أن تفترق[٢] .»

هذه النصوص لا تبين موقف ابن عمر ورأيه فحسب ، ولكنها تبين أيضا طريقة تفكيره ووصوله إلى الرأي ؛ فهو استمع لخطاب معاوية ، وشعر أنه لا يقول الحق ، وكان رد فعله أنه تحفز للرد عليه بعبارات شديدة ، لكنه سرعان ما تراجع تجنبا لأن يحدث صدام وقتال ، فآثر السكوت طلبا لأن يكافئه الله بالجنة . ثم عاد وأكد أنه يفضل وحدة الأمة على أي شئ آخر ؛ وبجانب ذلك فقد ظهر في بداية كلامه مع

(١) أنظر رواية ابن كثير عن نفس الموضوع وعن نفس رواية عبدالله بن عمر ، ***البداية والنهاية*** ، ج ٨ ، ص ١٩٨-١٩٩ .

(٢) أبو بكر بن العربي ، ***العواصم من القواصم*** ، ص ٢٢٤ - ٢٢٧ .

أخته حفصه أنه كان حزينا : «قد كان من الأمر ما ترين ، **فلم يجعل لي من الأمر شيء**» ، كانه كان يرغب أن لو جعلوا له من الأمر شيئا .

هل كان تفكير ابن عمر ، ورد فعله وما انتهى إليه من تصرف ، وما عبر عنه من رؤية ، هل كان كل ذلك هو الأمثل والأصوب؟ أترك للقراء والقارئات ، أن يشاركوا في التفكير ، فقد يتقبلون هذا الموقف ويتبنونه ، وقد يختارون موقفا آخر .

وهنا ينبغي أن نشير أيضا إلى موقف سعيد بن المسيب من مبايعة الوليد بن عبدالملك بولاية العهد ؛ لقد رفض سعيد أن يبايع للوليد ، ورفض أن يزوجه ابنته ، بل زوجها لرجل صالح وفقير [(١)] .

وعندما تمردت القوات المرابطة في سجستان بقيادة عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث (٨١هـ - ٨٣هـ) انضم إليها عدد من رموز هذا التيار المعارض للخلافة الاموية ، وشارك عدد منهم في القتال الفعلي بجانب الثائرين ؛ بل إن أنس بن مالك - خادم رسول الله ﷺ كان ممن أيد تلك الحركة وساندها . وقد تعرض كل أولئك لقمع شديد من جانب الحجاج ، فقتل بعضهم (مثل سعيد بن جبير) ، وتعرض آخرون للاضطهاد ومختلف صنوف الإهانات بما في ذلك أنس بن مالك [(٢)] .

وهكذا تسيد الاتجاه الثاني ، الذي مثله عبدالله بن عمر ، رضي الله عنه ، على واجهة الفقه والتفقه ، باعتبار أنه كان مناسبا لمسيرة الدولة الأموية ، ويتغاضى عن خط سير الأمويين منذ بداية تحركهم للسيطرة على الدولة . وعلى الرغم من التطورات والانقلابات السياسية فقد استمر التيار المنادي بالطاعة والصبر على فساد الحكم ، وبعدم إحداث فرقة بين المسلمين ، باعتبار ذلك أداء لحق البيعة - رغم أنها بيعة بالإكراه والإغراء - وظل يترسخ وينتشر ، على الرغم من سقوط الأمويين وحلول العباسيين مكانهم ، واستمرارهم على نفس النهج الذي فرضه أسلافهم . ولقد استمرت الدعاية السياسية في عهد العباسيين لإعلاء شأن العشيرة العباسية ، وإثبات أحقيتها بالخلافة دون غيرها . وبجانب الدعاية السياسية استمر اضطهاد الخصوم المنافسين ؛ وهم أبناء الأسرة والعشيرة العلوية في هذه المرحلة ، بعد أن زال الأمويون . ومن الجانب الآخر تحول عداء العشيرة العلوية بمختلف فروعها إلى أبناء

---

(١) ابن كثير ، ***البداية*** ، ج ٩ ، ص ٥١ .

(٢) أنظر ص ١٢١-١٢٢ فيما سبق من هذا الكتاب .

العمومة العباسيين ؛ وصاحبت مشاعر العداء والنقمة دعاية سياسية علوية هدفها إثبات أن ميراث النبي ﷺ حق لعلي وأولاده وأحفاده ، دون غيرهم . **وبصورة تلقائية صارت سيرة الأمويين ، ومن بعدها سيرة العباسيين هي التي جسدت الشخصية السنية في فكر المسلمين ، وفي اعتقادهم ، سواء على المستوى العالم أو المستوى الشعبي الساذج** . وبعد فترة من الزمن تناسل العلويون وأصبحت العشيرة فروعا متعددة ما لبث التنافس على الزعامة وادعاء الأحقية بالخلافة أن دب وانتشر بين فروعها والشخصيات البارزة منها . ومع تكاثر الجهات المتنافسة وتعددها صار أتباع كل فرقة يبالغون في أهلية رموزها وما اختص به أولئك الرموز من مميزات منحهم الله إياها دون غيرهم من البشر ، فخرجت بادعاءاتها عن كل ممكن وكل معقول في حياة الناس ، كما رأينا في النصوص التي نقلناها من مصادر كل فرقة . وهكذا فإن هذه الادعاءات المتعارضة من جانب الفرقاء المتصارعين على منصب الخلافة رئاسة الدولة باعتبار أنها حق إلهي ، وعطية من الله ، أو – على الأقل – حق موروث ، كان من نتيجة هذه الادعاءات وذيوعها على نطاق واسع تقوية التوجه الذي رفض مبدأ اختيار الخليفة بعملية انتخاب حرة ، من غير ترهيب أو إغراء . وكان قد ساير هذا الاتجاه اكثر العلماء وأهل الفقه من السنة ، وكان من بين من سايروه أبو بكر محمد بن العربي ، الفقيه الأندلسي ، وعمر بن اسماعيل بن كثير ، الملقب بأبي الفدا ، وكلاهما قال : « . . . الفاسق لا يجوز خلعه . . .» ، وكلاهما استنكر ثورة أهل المدينة ضد خلافة يزيد ، وكلاهما كان منحازا للأمويين ، وكلاهما يمكن أن يعد مثالا وأنموذجا لأعداد كبيرة من العلماء ، ربما بلغو الأكثرية ، أو أقل قليلا . وقد ظهر نص حديث نبوي صار يساق لتأييد الاتجاه الثاني : «اسمعوا وأطيعوا وإن أمر عليكم عبد حيشي كأن رأسه زبيبية . . . « وأحاديث أخرى تقاربه في المعنى واللفظ . والذي أعتقده حسب فهمي للقرآن والسنة أن هذه الأحاديث صدرت عن رسول الله ﷺ عند توجيهه للمسلمين الخارجين في الغزوات ، في ساحة المعركة ، حيث لا مجال للمناقشة أو الحوار ؛ أما في حالة السلم فلم يكن الأمر كذلك . لقد قاد النبي ﷺ المواجهات العسكرية بنفسه سبعا وعشرين مرة ، لم يحدث في أكثرها قتال ، كما أنه أرسل حملات عسكرية كبيرة أو صغيرة عين لكل منها قائدا من أصحابه سبعا وأربعين مرة . وفي كل مرة من هذه المرات السبعة والأربعين كان يعطي تعليماته وتوجيهاته للقائد ، كما يعطي توجيهات

للأفراد المشاركين في السرية أو الكتيبة أو الجيش . وكان من أهم توجيهاته لأفراد القوة المجاهدة : الطاعة المطلقة للقائد أحبوا الفعل أم كرهوه ، ما لم يكن في أمر القائد معصية لله أو «كفرا بواحا ، ظاهرا للعيان» . وقد حفظت كتب الحديث وكتب السيرة والتاريخ معظم نصوص هذه التعليمات والأحاديث النبوية الحاضة على الطاعة المطلقة . وهنا يجب علينا أن نتذكر ونعي أن الرسول ﷺ لم يعين رئيس دولة أو خليفة ولو مرة واحدة . ولذلك فقد كان على العلماء أن يفهموا أن أحاديث الطاعة المطلقة خاصة بطاعة أمراء الجيوش أو الغزوات في حالة الحرب وأثناء المعركة خاصة ، وليس رئيس الدولة المدني أو الخليفة في حالة السلم . والطاعة المطلقة لقائد المعركة أثناء الحرب القتالية أمر متبع في كل الدول قديما وحديثا . وما زال كذلك في جميع الدول الإسلامية وغير الإسلامية حتى الآن ، وسيظل كذلك ، لأنه ضرورة عملية لا ينتظم من غيرها وضع القوة المقاتلة في سلم أو في معركة حربية . أما رئيس الدولة في غير حالة الحرب فيمكن الاختلاف معه أو رفض أوامره حفظا لمصالح الأمة وأمنها وسلامتها . وهنا نستحضر قول الله تبارك وتعالى : ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول﴾ . . . أي أن الاختلاف الحاد ، الذي يصل إلى حد أن يوصف بانه « نزاع « بين الحاكم والمحكومين يعتبر أمرا جائزا وطبيعيا ومشروعا في حياة البشر ، بل إنه سنة من سنن الله ، وليس ضلالا وكفرا . وهنا نستدعي نصا قرآنيا :

﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾ .

ولكن . . كيف يكون المخرج من حالة النزاع؟ الجواب : بالاحتكام إلى القرآن وإلى سنة رسول الله ﷺ ، أي ليس بفرض الطاعة بالقوة . وفي عالمنا المعاصر يرجع الفرقاء وزعماؤهم إلى الدستور الذي يعنى بإحكام تنظيم الإجراءات الحكومية ، على أساس أن الشعب المتمسك بإسلامه يشتق دستوره من القرآن والسنة ، وما يحقق المصلحة العامة للأمة .

ومن خلال الزخم الذي شاع به مبدأ الرضا ببيعة الإكراه **ظهرت الفتوى القائلة بشرعية الاستيلاء على منصب الخلافة بالسيف ، وشرعية تداول السلطة بقوة السلاح .**

ولقد سبق أن مررنا بمقولات الدعايات السياسية الأموية ، والعلوية الحسنية ، والعباسية .

الدعاية السياسية العلوية الإمامية:

لقد لجأت فرقة الإمامية إلى ممارسة «التقية» على نطاق واسع ، بحيث توقف منتسبوها عن حمل السلاح ، وتظاهروا بأنهم أخلدوا إلى الطاعة والسكون ؛ وقالوا إنهم ينتظرون قدوم المهدي ليصلح ويقيم ميزان العدل . . . الخ . وما نريد أن نستعرضه هنا هو أمثلة قليلة من دعايتهم السياسية التي تحولت بالتدريج إلى عناصر عقيدية زاحمت العقائد الإسلامية الأساسية في مفاهيمهم ، وفاقمت من درجة الشتات الفكري . وأنا أسميها دعاية سياسة ليس على سبيل التشنيع والذم ، بل لأنها انطلقت من دوافع الصراع السياسي حول المنصب الأعلى في الدولة الإسلامية ، منصب الخلافة ، أو الإمامة ، وكانت تتركز على موضوع الإمامة ، والأحق بها ، والمؤهلات التي بررت هذه الأحقية :

* إن الخلافة والإمامة حق لعلي بن أبي طالب ليس لمجرد سبقه في الإسلام ، وصحبته لرسول الله ﷺ ، ودوره في الدفاع القتالي عن الإسلام ومساهمته في تحطيم القوة القتالية لأعداء الإسلام من قريش ، ليس من أجل كل ذلك ؛ بل لأن فاطمة وعليا وأولادهما وما تتابع من ذريتهم عبر الخط الوراثي للإمامة – حتى الجيل الثاني عشر – فوق البشر جميعا ، وفوق الأنبياء جميعا ، باستثناء نبي الإسلام ، محمد بن عبدالله ، ﷺ . تلك كانت ، وما زالت ، المقولة الرئيسية في فكر الإمامية الإثني عشرية والأمثلة المتوافرة لرسم صورة ما نقول ، ولتوثيقه وتأكيده تعد بالمئات ، مما لا يمكن حصره أو تقديم الكثير منه[1] ، ولذا فإننا سنقدم أمثلة قليلة ، ونحيل القارئ إلى المصادر الإمامية لمن أراد التوسع .
* **الأئمة نور الله في الأرض :** عن . . عن «سألت أبا جعفر [محمد الباقر] عليه السلام عن قول الله عز وجل : ﴿فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا﴾ ، فقال : . . . **النور والله الأئمة ، من آل محمد إلى يوم القيامة**[2] . . .ً»

وقد نسب إلى جعفر الصادق في تفسير الآية : ﴿**الله نور السماوات والأرض ، مثل نوره كمشكاة . . .**﴾ : **كمشكاة : فاطمة . . . ؛ مصباح :**

(١) أنظر كتابي : ***حوار لإخواننا وأخواتنا الشيعة*** ، عمان ، الأردن ، ٢٠١٠ ، ص ٤٦ – ٧٠ .

(٢) الكليني ، ***أصول الكافي*** ، ١١٠ .

الحسن ؛ في زجاجة : الحسين ؛ ((الزجاجة كأنها كوكب دري)) : فاطمة كوكب دري بين نساء أهل الدنيا [١] . . .»

❋ عن . . . عن . . . «سمعت أبا الحسن [علي بن أبي طالب] يقول : بينا رسول الله ﷺ جالس إذ دخل عليه ملك له أربعة وعشرون وجها ، فقال رسول الله . . . حبيبي جبريل ، لم أرك في هذه الصورة [من قبل] ؛ قال الملك : لست بجبريل يا محمد ، [لقد] بعثني الله أن أزوج النور من النور . قال : من ممن؟ قال : فاطمة من علي . قال : فلما ولى الملك إذ [ظهرت مكتوبة] بين كتفيه [عبارة] ، محمد رسول الله ، علي وصيه . فقال رسول الله ﷺ [للملك] : مذ كم كتب هذا بين كتفيك؟ فقال : من قبل أن يخلق آدم باثنين وعشرين ألف عام [٢] .»

والنقطة المهمة في هذه الحكاية الإدعاء بأن عليا هو وصي رسول الله ، أي أنه الأحق بالخلافة والإمامة والقيادة بتعيين الرسول له ، وأن هذه «الحقيقة» كانت مقدرة ومكتوبة ومفروضة قبل أن يخلق الله آدم باثنين وعشرين ألف سنة .

❋ عن . . . عن جعفر الصادق : عرج بالرسول ﷺ إلى السماء مرتين ، وعندما وصل إلى أقصى نقطة أوقفه جبريل قائلا : «إن ربك يصلى . . .» ثم قال له : «يا محمد ، . . . من لأمتك بعدك؟ قال : الله أعلم . قال : علي بن أبي طالب ، أمير المؤمنين ، وسيد المسلمين ، وقائد الغر المحجلين . . .» ثم قال أبو عبدالله ، أي جعفر الصادق ، «**والله ما جاءت ولاية علي عليه السلام من الأرض ، ولكن جاءت من السماء مشافهة** [٣] .»

وهذه مثل سابقتها تؤكد أن رئاسة علي جاءت من عند الله ، وليس من الأرض من عند رسول الله فقط ؛ ولا بمبايعة المسلمين من الصحابة له ، بل إنها تؤكد كذلك أن لا شأن للبشر في اختيار الإمام .

❋ وتحت عنوان : «**باب في شأن إنا أنزلناه في ليلة القدر**»

نقرأ مقولات الهدف منها تأكيد أن رسول الله ﷺ قد استخلف عليا ، وبجانب ذلك إضافة : **أن عليا يتلقى العلم من السماء - بعد وفاة الرسول - يتنزل**

---

(١) *المصدر نفسه* ، ١١٠ - ١١١ .

(٢) *المصدر نفسه* ، ص ٢٧٦ .

(٣) الكليني ، *الكافي* ، ٢٦٤-٢٦٥ .

عليه في ليلة القدر ، وأن الآخرين غير علي يفتقرون إلى ذلك ، ومن بعد ذلك يستمر الأئمة الأوصياء من نسل علي ، يتلقون العلم المنزل من السماء في ليلة القدر ، وهم أحد عشر إماما تمتد أيام آخرهم (المهدي المنتظر) حتى ما قبيل قيام الساعة . كذلك فإن في هذا الباب رواية منسوبة إلى جعفر الصادق ، يرويها عن أبيه محمد الباقر ، أنه - الباقر - شن هجوما على عبدالله بن عباس ، يتسم بالسخرية منه ، وتجهيله بألفاظ وعبارات لا ترعوي عن الإهانة والتشنيع . ثم ينتقل الحديث بعد ذلك في رواية أخرى عن جعفر بن محمد ، أي جعفر الصادق ، ينقل عن علي بن أبي طالب - فيما تزعمه الرواية - أن عليا هاجم أبا بكر وعمر بقوله : [ما] اجتمع التيمي [أبو بكر] والعدوي [عمر بن الخطاب] عند رسول الله ﷺ وهو يقرأ : ﴿إنا أنزلناه﴾ بتخشع وبكاء فيقولان : ما أشد رقتك لهذه السورة! ، فيقول رسول الله ﷺ . . .» ما خلاصته إن التنزيل يستمر من بعده ، أي بعد وفاة رسول الله ، في ليلة القدر ، وأنه ينزل إلى علي بن أبي طالب ؛ وتمضي الرواية إلى أن قوله هذا يصيب أبا بكر وعمر بالرعب (١) .

ومما يؤسف له أن هذا الموقف من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما استمر حتى عصرنا ، وما زال ، وأبرز مثل على ذلك نستدعيه من كتاب لواحد من أبرز الشخصيات العلمية الشيعية في القرن العشرين ، وهو محمد باقر الصدر ، رحمه الله ، وذلك في كتابه المعنون : **أهل البيت : تنوع أدوار ووحدة هدف** . لقد وصف الصدر الصحابة بأنهم متآمرون منذ لقائهم في سقيفة بني ساعدة يوم وفاة رسول الله ﷺ ؛ ومن قوله :

«المؤامرة على وجود الأمة الإسلامية» . . . «وهذه المؤامرة هي التي كان يسعى خط السقيفة بالتدريج ، عامدا أو غير عامد إلى تعميقها (٢) . . .» . «الانحراف في داخل المجتمع الإسلامي على يد المؤامرة التي قام بها جناح من المسلمين بعد وفاة رسول الله ﷺ . . .» (ص ٤٥) . ويتكرر مثل هذا التعبير باللفظ أو بالمعنى في الصفحات : ٥٧ و٧٣ و٧٥-٧٦ . «الانحراف

---

(١) الكليني ، *أصول الكافي* ، ١٣٨ - ١٤٥ .

(٢) محمد باقر الصدر ، *أهل البيت : تنوع أدوار ووحدة هدف* ، ص ٢١ و٢٧ ، والصفحات الأخرى التي زدناها في المتن .

كان قد بدأ منذ خلافة أبي بكر ، لا . . . في تغيير شخص الحاكم ، بل الانحراف في تغيير مضمون الحكم والسياسية (ص ٩٩) . « الانحراف بدأ في أيام ابن أبي قحافة وعمر ، وكان انحرافا مستورا ، وكان عمر موفقا جدا في أن يلبس هذا الانحراف الثوب الديني المناسب .(ص ١٠١) . « نعم ، بدأ أمير المؤمنين [علي رضي الله عنه] . . . معارضته لأبي بكر وعمر وعثمان وللزعامات المنحرفة جميعا ، بشكل مكشوف وصريح بعد وفاة عمر مباشرة . . . « (ص ٩٩ - ١٠٠) . ويمضي محمد باقر الصدر في مثل هذه الإهانات والتهجمات على أبي بكر وعمر في صفحات تالية من كتابه : ,١٠٢ ١١٧-١٢٠ ، ١٢١-١٢٢ ، ١٢٨-١٢٩ ، وصفحات أخرى غيرها . [إنتهى الحديث عن السيد الصدر ، رحمه الله وغفر له] .

ثم يأتي بعد ذلك تأكيد على أن الأئمة العلويين ، بعد رسول الله ، يتلقون العلم من الله ، وذلك في أكثر من رواية :

عن . . . عن أبي عبدالله [جعفر الصادق] : «إن لنا في ليالي الجمعة لشأنا من الشأن . . . يؤذن لأرواح الأنبياء الموتى عليهم السلام ، وأرواح الأوصياء الموتى ، وروح الوصي الذي بين ظهرانيكم [الحي] ، يعرج بها إلى السماء حتى توافي عرش ربها ، فتطوف به أسبوعا ، وتصلي عند كل قائمة من قوائم العرش ركعتين ، ثم ترد [الأرواح] إلى الأبدان التي كانت فيها ، فتصبح الأنبياء والأوصياء قد ملئوا سرورا ، ويصبح الوصي الذي بين ظهرانيكم وقد زيد في علمه بين جم غفير .[1] »

وأخيرا تقدم لنا الدعاية السياسية مثلا عن سعة علم الأئمة ، رواية منسوبة إلى جعفر الصادق ، الإمام السادس عند الإمامية الإثني عشرية ، رحمه الله :

عن . . . عن أبي عبدالله جعفر الصادق ، قال : «إن الحسن [ابن علي] . . . قال : إن لله مدينتين ، إحداهما بالمشرق والأخرى بالمغرب ، عليهما سور من حديد ، وعلى كل واحد [كذا] ألف ألف مصراع [أي ألف ألف باب] ، وفيها سبعون ألف ألف لغة ، يتكلم كل لغة بخلاف لغة

---

(١) الكليني ، *الكافي* ، ص ١٤٢ - ١٤٥ .

صاحبها ؛ وأنا أعرف جميع اللغات وما فيها وما بينها ، وما عليهما حجة غيري وغير الحسين أخي [(١)] .»

وكتاب الكليني - الذي استقينا منه هذه النصوص - من أقدم كتب الشيعة الإمامية ، وهو عندهم معتبر في المستوى الذي ينظر به السنة إلى صحيح البخاري ، بل أكثر من ذلك [(٢)] .

بقي أن أقول إنني لا أعتقد أن أحدا من الأئمة تفوه بهذا الذي اقتبسناه من كتاب الكليني ، كما أن أهل السنة لا يقبلون نسبة هذا الكلام إلى الأشخاص الذين نسبته الروايات إليهم . ثم إنني أكن احتراما كبيرا لأشخاص «الأئمة» ، ليس باعتبارهم «أئمة كما تصورهم الروايات الإمامية» ، ولكن لأنهم كانوا من أهم وأجل علماء وقادة المسلمين ، وأن هذا الذي نسب إليهم جرت نسبته بعد عشرات السنين من وفاتهم . وأنا لا أدعي أنني أمثل السنة أو أتكلم بلسانهم ، لكن ما أقوله هو رأي أهل السنة أيضا .

الدعاية السياسية الشيعة الإسماعلية الفاطمية:

وفيما يلي نص مجتزأ من مقدمة رسالة وجهها الخليفة الفاطمي معد ، الملقب بـ «المعز لدين الله» ، إلى الحسن الأعصم ، قائد حملة القرامطة ، التي غزت مصر الفاطمية سنة ٣٦٠-٣٦١هـ/٩٧٠-٩٧١م قادمة من البحرين وبلاد الشام ؛ والنص الكامل للرسالة يقع في اثنتي عشرة صفحة من الحجم الكبير ، نجتزئ بعضا منها هنا :

* «بسم الله الرحمن الرحيم ،

رسوم النطقاء ، ومذاهب الأئمة والأنبياء ، ومسالك الرسل والأوصياء ، السالف والآنف منا ، صلوات الله علينا وعلى آبائنا أولي الأيدي والأبصار ، في متقدم الدهور والأكوار . . . عند قيامهم بأحكام الله ، وانتصابهم لأمر الله .

. . .

أيها الناس ، إن الله جل وعز إذا أراد أمرا قضاه ، وإذا قضاه أمضاه ؛ وكان من

---

(١) *المصدر نفسه* ، ص ٢٧٧ .

(٢) أنظر توثيق الكليني ومدح كبار علماء الشيعة الإمامية له في مقدمة طبعة أصول الكافي .

قضائه فينا – قبل التكوين – أن خلقنا أشباحا ، وأبرزنا أرواحا ، بالقدرة مالكين . . . حين لا سماء مبنية ، ولا أرض مدحية ، ولا شمس تضئ ، ولا قمر يسري ، ولا كوكب يجري . . .

فنحن أول الفكرة ، وآخر العمل ، بقدر مقدور ، وأمر في القدم مبرور . . .

وكان من حكمه السابق في علمه ما ترون من فلك دوار ، وكوكب سيار ، وليل ونهار ، وما في الآفاق من آثار معجزات ، وأقدار باهرات ، وما في الأقطار من الآثار ، وما في النفوس من الأجناس والصور . . .

«كل ذلك لنا ومن أجلنا ، دلالة علينا ، وإشارة إلينا ، يهدي به الله من كان [له] لب سجيح ، ورأي صحيح ، قد سبقت له منا الحسنى ، فدان لنا بالمعنى .

ثم إنه – جل وعلا – أبرز من مكنون العلم ومخزون الحكم آدم وحواء . . . سببا لإنشاء البشرية . . . فتوالد الأولاد ، وتكاثرت الأعداد ، ونحن ننتقل في الأصلاب الزكية ، والأرحام الطاهرة المرضية ، كلما ضمنا صلب ورحم أظهر منا قدرة وعلم ، وهلم جرا إلى آخر الجد الأول ، والأب الأفضل ، سيد المرسلين . . . أحمد ومحمد صلوات الله عليه . . .

«وكل ذلك دلالات لنا ، ومقدمات بين أيدينا ، وأسباب لإظهار أمرنا . . .

«فما من ناطق نطق ، ولا نبي بعث ، ولا وصي ظهر ، إلا وقد أشار إلينا ، ولوح بنا . . . فمن غفل منكم أو نسي . . . فلينظر في الكتب الآولى ، والصحف المنزلة ، وليتأمل آي القرآن . . .

«وليعلم من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد أننا كلمات الله الأزليات ، وأسماؤه النامات ، وأنواره الشعشعانيات ، وأعلامه النيرات ، ومصابيحه البينات . . . لا يخرج منا أمر ، ولا يخلو منا عصر(١) . . .» إنتهى الاقتباس (٢) .

وخلاصة مقولة الخليفة الفاطمي الإسماعيلي : أن الله جل وعلا خلقهم أرواحا قبل أن يخلق أي شئ في الكون – وليس في الأرض فقط – ثم خلق الكون كله

---

(١) أنظر النص الكامل للرسالة : أحمد بن علي المقريزي ، إتعاظ الحنفا بأخبار الأيمة الفاطميين الخلفا ، ص ١٨٩-٢٠١ .

(٢) ملاحظة للقارئ : لقد حذفت السجع الذي لا يضيف معنى ورمزت إلى موضع الحذف بثلاث نقاط .

مقدمة لإظهارهم . . . الخ . وهذه الدرجة من التفاخر بالذات وبالأصل درجة لا مثيل لها في كل ما ادعاه الآخرون مما أوردناه في الصفحات والفصول السابقة ، ولا يمكن لأحد أن يزاود عليها ، لأنها لم تترك مجالا لأحد غير الفاطميين الإسماعيليين .

وليس من قبيل المصادفة أننا نجد نفس فكرة الأشباح ومتعلقاتها عند الشيعة الإمامية ، وهذا نص لواحد من أشهر علمائهم القدامى :

« والصحيح من حديث الأشباح الرواية التي جاءت عن الثقات بأن آدم عليه السلام رأى على العرش أشباحا يلمع نورها ، فسأل الله تعالى عنها ، فأوحى إليه أنها أشباح رسول الله وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين ، صلوات الله عليهم ، وأعلمه أن لولا الأشباح التي رآها ما خلقه الله ولا خلق سماء ولا أرضا .

والوجه فيما أظهره الله تعالى من الأشباح والصور لآدم عليه السلام أن دله على تعظيمهم وتبجيلهم . . . وجعل ذلك إجلالا لهم ومقدمة لما يفترضه من طاعتهم ، ودليلا عن أن مصالح الدين والدنيا لا تتم إلا بهم [(١)] .» انتهى الاقتباس .

* وفيما يلي مقتبسات أخرى من النصوص الإسماعيلية مجتزأة من كتاب للداعية الإسماعيلي أبي إسحاق ، يعقوب السجستاني :

«المقالة السادسة

في كمية أدوار النطقاء وما بين كل دور والدور الآخر . . .

«إن معنى اسم الدور على نوعين : دور كبير ، ودور صغير ؛ فالدور الكبير يبتدئ من آدم عليه السلام إلى القائم سلام الله عليه [القائم هو الإمام السابع ، محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، بدأ حوالي منتصف القرن الثاني للهجرة] . أما الدور الصغير فهو بين كل ناطق وناطق [ناطق تعني : نبي] ؛ ويتخلل الدور سبعة أئمة مستقرين ، إلا في الفترات التي تحدث لعلل وأسباب . فمن آدم إلى نوح دورا صغيرا [كذا] ، ومن نوح إلى إبراهيم دورا صغيرا [كذا] ، ومن إبراهيم إلى موسى دورا صغيرا [كذا] ، ومن موسى إلى عيسى دورا صغيرا [كذا] ، ومن عيسى إلى محمد دورا

---

(١) العكبري ، محمد بن محمد بن النعمان ابن المعلم أبي عبدالله العكبري ، مسار الشيعة ، ***رسالة المسائل السروية*** ، ***رسالة تفضيل أمير المؤمنين*** ، ص ٣٩-٤٠ .

صغيرا [كذا] ، ومن محمد إلى القائم دورا صغيرا [كذا] . وهذه الأدوار الصغيرة عددها سبعة . . .

«إن أول الأدوار هو دور آدم ، وهو أول مرتبة النطقاء ، وأول مرتبة دور الستر ، ولم يكن له شريعة يأتي بها . أما القائم فهو صاحب دور الكشف الذي يكشف ما استتر من أدوار النطقاء . . .

«الفصل الثاني من المقالة السادسة : في الأدوار التي كانت قبل آدم

روي عن النبي ﷺ أنه قال : بعثت إلى الأحمر والأسود ؛ فالأحمر هم أهل الظاهر المنتسبون إلى الإنس ؛ والأسود هم أهل الحقائق المنتسبون إلى الجن . فأما وقوع الفرق بينهما فإنه من جهة إشراف الجن على العلوم الخفية المستجنة في التراكيب والشرائع . . .

«إن القائم سلام الله على ذكره في الولادة والاغتذاء وظهور النسل عنه كآبائه عليهم السلام ، ولا فرق بينه وبينهم من هذه الجهة إلا بشرف الرتبة . والقائم هو متمم النطقاء [أي متمم الأنبياء] ؛ وإن القائم هو نهاية الكل من الرسل ، وهو يجمع بين النواميس المختلفة . . . بالكشف عن حقائقها ، فتصير مجموعة كأنها شريعة واحدة وكأن أممها أمة واحدة . . .

الفصل العاشر من المقالة السادسة :

«في أن الدور لا يكون إلا من اثنين : ناطق وصامت»

لما كان الناطق يأتي لينسخ شريعة ما [كذا ، وصحتها من] قبله بإظهار شريعة جديدة ، كذلك يكون الصامت فيأتي لينسخ التأويل الذي قبله ، وإنه لا بد من صامت يكون قريبا منه وأساسا له . . . وقد وجب أن يكون الصامت قد اطلع مثل الناطق على جميع الأسرار النبوية ليمكنه مؤازرته ومعاونته . . . بتنفيذ أحكامها . . .

«إن أدوار النطقاء سبعة ، وتبدأ من آدم ، صاحب الدور الأول ، وتنتهي بالقائم ، صاحب الدور السابع . . . فآدم هو الناطق الأول للدور ، وأساسه الصامت شيث ، وبعده ستة أئمة . . .» ثم يعدد السجستاني الأدوار الثاني إلى الخامس ، والنطقاء نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ، ثم يقول : «ومن بعده محمد [بن عبدالله] صاحب الدور السادس ، وأساسه علي ، ومن بعده القائم [محمد بن إسماعيل] الذي هو صاحب الدور السابع وصاحب الكشف والظهور ، فاعلمه [1] . [انتهى الاقتباس]

---

(١) أبو يعقوب إسحاق السجستاني ، ***كتاب إثبات النبوات*** ، تح . عارف تامر ، (بيروت : دار المشرق ، ١٩٨٢م ، ص ١٨١- ٣ .

وهنا يجب أن نلفت انتباه القارئ إلى أن هذا الوصف الذي عرضه السجستاني لعقيدة الإسماعيلية يعني بالضرورة ، وبكل وضوح ، أن صاحب الدور السابع ، محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، قد نسخ شريعة صاحب الدور السادس – محمد بن عبدالله ، ﷺ – وأحل محلها شريعته وشريعة خلفائه الفاطميين من بعده .

المؤثرات الأجنبية في إحداث الشتات:

كانت حركة الفتح والتوسع قد بلغت أقصى مداها قبل أن ينصرم العهد الأموي ، وكان ما استمر بعد ذلك من قتال هو تمرد بعض سكان المناطق الخاضعة ، وإعادة السيطرة على مناطق كانت تحت السيطرة ثم خرجت . وعندما جاء العباسيون كان الشرق الإسلامي مركز انطلاقهم ، وصار أهله مشاركين فيما سمي بـ«الحركة التصحيحية العباسية» بالمعنى وليس باللفظ . وبعد توقف حركة الفتح وانتهائها ، وحدوث الاستقرار في العلاقات بين المسلمين من ناحية وأهل فارس وما وراء النهر ، والهند من ناحية أخرى ، زالت آثار الصدمة كما انزاحت الحواجز النفسية وأخذ التفاعل الثقافي يتسارع ، وأخذت عناصر كثيرة تعتنق الإسلام ، كما أخذ العرب يقتبسون كثيرا من المعارف والخبرات ؛ والواقع أن هذا التلاقح كان قد بدأ منذ العصر الأموي في بلاد الشام ، عندما اضطر الأمويون إلى تبني الأنظمة الإدارية نفسها التي كانت قائمة في تلك المناطق قبل الإسلام ، كما اضطروا إلى استخدام الإداريين من أبناء البلاد المفتوحة لعدم توافر البدائل المناسبة والكفؤة لديهم في تلك المرحلة المبكرة . ولسنا نستطيع أن نتابع هذا التطور بأي درجة من التفصيل خلال هذا البحث لأن ذلك يخرج بنا عن موضوعنا ، وكل ما يمكننا فعله هو أن نقدم أمثلة على حدوث هذا التفاعل ، توطئة للتعرف على آثاره العميقة في الفكر الإسلامي والحياة العقلية التي نتحدث عنها في هذا الفصل . وقد تزايد هذا التفاعل مع مرور الزمن لتدفق أعداد كبيرة من أبناء البلاد المفتوحة وغيرها على المراكز الرئيسية للدولة الإسلامية في العواصم والحواضر ، فضلا عن اختلاط العناصر العربية التي ذهبت واستقرت في الأقاليم الجديدة ، بالعناصر الأخرى السابقة واللاحقة .

وهكذا أخذت المؤثرات الإغريقية (اليونانية) والفارسية والهندية وغيرها تتسرب إلى عقول العلماء والمتعلمين ، الأمر الذي ظهر أثره في الكتب المؤلفة في القرون الأولى من العهد الإسلامي كما ترك اختلاط الناس من مستوى العامة آثارا واضحة

في اللغة وطرائق الحياة والمهن والمطالب الحياتية اليومية . وللتدليل على تنامي قوة هذا التأثير حتى تسرب إلى من كانوا في مستوى العلماء اخترنا كتبا لثلاثة علماء دين مشهورين عاش أولهم في القرن الثالث الهجري ، وثانيهم في القرن الخامس بينما عاش ثالثهم في القرن السادس الهجري . والعلماء الثلاثة المشهورون هم : المحدث والأديب أبو محمد عبدالله بن محمد بن قتيبة ، المتوفى سنة ٢٧٤هـ ، والفقيه الشافعي أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي ، المتوفى سنة ٤٥٠هـ ، وهو الذي كان يلقب بأقضى القضاة ، وشيخ الشافعية ؛ أما الثالث فهو الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ، الحنبلي ، المتوفى سنة ٥٩٧هـ ، كبير علماء الحنابلة في عصره ، والواعظ الأشهر الذي كان يؤم مجلس وعظه ثلاثون ألفا ، على رأسهم الخليفة العباسي نفسه . ومن كتب هؤلاء الأعلام حاولت تكوين فكرة عامة عن المرات استشهد فيها كل منهم بأفكار وأقوال من مصادر غير عربية وغير إسلامية ، مما اعتبروه نماذج من الحكمة السياسية والأخلاقية ؛ ولذا فقد مررت سريعا بالصفحات المائة الأولى من كتاب عيون الأخبار لعبدالله بن مسلم بن قتيبة ، فوجدته قد استشهد بأمثلة من الحكمة الفارسية اثنتين وعشرين مرة(١) في هذه الصفحات المئة فقط ، ومن الحكمة الهندية بإحدى عشرة مرة(٢) ، وبالحكمة الإغريقية (اليونانية) مرة واحدة(٣) . أما الماوردي فقد نظرنا في كتابه المعنون بـ : نصيحة الملوك(٤) ، فوجدنا الماوردي ، في هذا الكتاب الصغير ، ينقل شواهد من مصادر إغريقية أربعين مرة(٥) ؛

---

(١) أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، ***عيون الأخبار*** ، المجلد الأول ، ص ٥ و٧-٨ و ١١ و١٣ و١٥ و١٧ و٢٠ - ٢١ و٢٣ و ٢٧و٣٠ و٣٢ و٣٧ و٤٠ و٥٩ و٦٢ و٨٤ و٩٨ .

(٢) ***المصدر نفسه*** ، ص ٣و١٨-١٩و٢٣-٢٥و٢٧و٣٠و٤٥ .

(٣) ***المصدر نفسه*** ، ص٨ .

(٤) أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي ، ***نصيحة الملوك*** ، تح . الشيخ خضر محمد خضر ، الكويت : مكتبة الفلاح ، ١٩٨٣ .

(٥) الماوردي ، ***نصيحة الملوك*** ، صفحات : ٤٤ و٤٦ و٦٣ (شاهدان)و ٨٤ و٩١ و١٠٠ و١٠٥و ١١٥ (شاهدان) و١٢٠ و١٢٧ -١٢٨ و١٣٣ و١٣٦ و١٤٠ و١٤٤ و١٥٥ و١٦٣ و١٨٠-١٨١ و١٨٤-١٨٥ و٢٠٣ و٢٠٨ (شاهدان) و٢١١-٢٢٣ و٢٣٠-٢٣١ و٢٦٧ و٢٧٧ و٢٧٩ و٢٨٤ و٢٩٧ و٣٠٠ و٣٠٢ و٣٠٤-٣٠٥ و٣٠٦ .

ومن المصادر الفارسية ثمانية وثلاثين مرة[١] ؛ ومن المصادر الهندية تسع عشرة مرة[٢] . كما ورد في الكتاب استشهاد واحد منسوب إلى مصدر حميري (اليمن) ، واستشهاد آخر من مصدر صيني . أما ابن الجوزي فقد نظرت في الجزء الأول من كتابه : المصباح المضئ في خلافة المستضئ فوجدته قد استشهد بأردشير (أحد ملوك الفرس القدماء) واقتبس من أقواله أربع مرات ، واستشهد بأقوال نسبها إلى الحكماء سبع مرات ، ومرة واحدة ببعض ملوك الهند ؛ كما اقتبس مقولة عن كسرى الإمبراطور الساساني مرة واحدة ؛ ومقولة عن الحكيم الفارسي بزرجمهر الذي عاش في العهد الساساني ، ، وعن الأمبراطور الساساني كسرى ثلاث مرات ، مرتان باسم كسرى ، والأخرى باسم أنوشروان ، وهو نفسه . كما أن أبا الفرج ابن الجوزي اقتبس عن أفلاطون مرة واحدة ، واقتبس عن أرسطاطاليس (أي أرسطو) مرة واحدة . وقد وردت كل هذه الاقتباسات في الصفحات من ١٤٧ إلى ٢٨٩ من الجزء الأول [٣] . وبطبيعة الحال فقد استشهد هؤلاء الفقهاء المشهورون بالقرآن الكريم والحديث الشريف وأقوال الصحابة والتابعين أكثر بمرات من عدد استشهادهم بأقوال حكمية من مصادر غير إسلامية ، في نفس الكتاب ، لكن هذا القدر من الاستشهادات المأخوذة من المصادر غير الإسلامية ليدل على أن حجم المؤثرات غير الإسلامية كان كبيرا جدا .

وإذا كان الماوردي وابن قتيبة وابن الجوزي قد حصروا استعاراتهم من المصادر الإغريقية والفارسية والهندية وغيرها فيما رأوا أنه يمثل حكمة سياسية أو أخلاقية سلوكية طيبة ، بعد استعراضهم عددا غير قليل من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، فضلا عن مرويات عن الصحابة والتابعين وغيرهم ، فإن كثيرين من

---

(١) ***المصدر نفسه*** ، الصفحات : ٣٤ و٤٢ و٤٣ (شاهدان) و٥٦ و٦١ و٦٣ و٨٤ و١٠٢ و١١٥ و١٢٠ و١٢١ (شاهدان) و١٢٤ و١٣٠-١٣١ و١٣٣ و١٣٦ (ثلاث شواهد) و١٤٠ و١٥١ و١٥٤ و١٦٣ و١٧٣ و١٩٨ و٢١٥ و٢٢٤ و٢٦٦ و٢٧١ و٢٧٦ (شاهدان) و٢٧٧ و٣٠٤ و٣٠٧ .

(٢) ***المصدر نفسه*** ، الصفحات : ٥٢ و٦١ (ثلاث شواهد) و١١٥ و١٢٧ و١٣٤-١٣٥ و١٤٥ و١٤٦ (شاهدان) ١٥٠ و٢٠٩ و٢١٧ و٣٠١ و٣٠٤ (شاهدان) و٣٠٥-٣٠٦ .

(٣) إبن الجوزي ، ***المصباح المضئ في خلافة المستضئ*** ، المجلد الأول ، تحقيق ناجية عبدالله إبراهيم (بغداد : إصدار وزارة الأوقاف العراقية ، ١٣٩٦/١٩٧٦ ، ص ١٤٧و١٦٠و١٨٩-١٩٠ و٢١٤-٢١٦و ٢٣١و ٢٣٨و ٢٤٦و ٢٥٠ و٢٦١و ٢٧٧ و٢٨٨ - ٢٨٩ .

المترجمين من غير علماء الدين لم يحصروا استعاراتهم فيما اتفق مع المصادر الإسلامية ؛ لقد اتسع النقل وبدأت ترجمة كتب كاملة في موضوعات متعددة . ويكفي أن نلقي نظرة على كتاب الفهرست لمحمد بن إسحاق النديم (ت ٣٨٥هـ) ، لنجد فيه قوائم كثيرة لأسماء المؤلفين وعناوين كتبهم في موضوعات متعددة مما ظهر متداولا في أيدي المسلمين في عصره ، قبل سنة ٣٧٧هـ ، وهي السنة التي صنف فيها كتابه المذكور . وابن النديم كان وراقا ، بائع كتب ، ومن خلال مهنته عرف الكتب التي مرت عليه وعلى زملاء المهنة ، ويبدو من طريقة عرضه أنه قرأ كثيرا منها وذكر أسماء مؤلفيها بالإضافة إلى عناوينها ، وأحيانا قدم نبذة مختصرة عن محتوى الكتاب . ومن ضمن هذه القوائم أسماء عدد كبير من الكتب المترجمة عن الإغريقية والفارسية وغيرها ، إلى اللغة العربية [١] . وقد قسم كتابه عشرة أقسام ، أو عشرة مقالات ، كما سماها . ولعل المقالة الثامنة هي الأكثر إثارة فيما نحن بصدده . فالمقالة الثامنة تشمل ثلاثة أقسام ، أو ثلاثة فنون ؛ وقد بدأها هكذا : «المقالة الثامنة من كتاب الفهرست في أخبار العلماء وأسماء ما صنفوه من الكتب ، وهي ثلاثة فنون : الفن الأول في أخبار المسامرين والمخرفين وأسماء الكتب المصنفة في الأسمار والخرافات .» وقد ذهب إلى أن «أول من صنف الخرافات وجعل لها كتبا وأودعها الخزائن . الفرس الأول ؛ ثم أغرق في ذلك ملوك الأشغانية ، وهم الطبقة الثالثة من ملوك الفرس ، ثم زاد ذلك واتسع في أيام ملوك الساسانية ونقلته العرب إلى اللغة العربية ، وتناوله الفصحاء والبلغاء فهذبوه ونمقوه وصنفوا في معناه ما يشبهه[٢] . . .» وقد ذكر أن أول كتاب ألف في هذا الموضوع هو كتاب **هزار أفسان** (ألف خرافة) ، ثم ذكر السبب في تأليفه فإذا به يماثل حكاية شهرزاد **ألف ليلة وليلة** ، التي تزوجت ملكا كان يقتل عروسه كل ليلة فأخذت تحكي له حكايات مشوقة ، وتقطع الحكاية بحجة النعاس لتستأنفها في الليلة التالية حتى بلغت ألف ليلة وقد صار لها منه أطفال ، فصارحته بلعبتها الذكية ولم يقتلها .

وقد كنت قرأت كتاب **ألف ليلة وليلة** في أربعينات القرن الماضي حيث كنت

---

(١) محمد بن إسحاق النديم ، ***الفهرست*** ، بيروت : مكتبة خياط ، وهي مصورة عن الطبعة الأوربية بعناية Gustav Flugel وآخرين .

(٢) محمد بن إسحق النديم ، ***الفهرست*** ، ص ٣٠٤ .

في سن المراهقة ، وحكاياته متنوعة تنوعا شديدا ، وتضم عددا غير قليل من الحكايات والعبارات الجنسية المكشوفة ، فضلا عن حكايات العفاريت والجن .

والمهم فيما يذكره صاحب الفهرست أن «محمد بن عبدوس الجهشياري ، مؤلف كتاب الوزراء ، وضع كتابا على شاكلة كتاب **هزار أفسان** جمع مادته من المسامرين ، ومن الكتب المصنفة قبله ، أودع فيه أربعمائة وثمانين حكاية ثم توفي قبل أن يتمه . وقد ذكر محمد بن إسحق أنه اطلع بنفسه على أجزاء الكتاب [(١)] . وبجانب كتاب **ألف ليلة وليلة** نورد فيما يلي عناوين بعض الأقسام من المقالة الثامنة ، وهي تشير إلى الكتب المؤلفة والموضوعات التي طرقتها واهتمت بها :

(١) أسماء الكتب التي ألفها الفرس ، (٢) أسماء كتب الهند في الخرافات والأسمار والأحاديث ، (٣)أسماء كتب الروم في الأسمار والتواريخ ، (٤) أسماء العشاق الذين تدخل أحاديثهم للسمر ، (٥) أسماء عشاق الإنس للجن وعشاق الجن للإنس ، (٦) الحيل والطلسمات ، (٧) الكلام على الطريقة المحمودة في العزائم ، (٨) أسماء العفاريت الذين دخلوا على سليمان بن داود ، (٩) آريوس الرومي . . . وله من الكتب كتاب يذكر فيه أولاد إبليس وتفرقهم في البلاد ،

أما الفن الثالث من المقالة الثامنة من كتاب الفهرست فنذكر منه العناوين التالية :

(٢) الكتب المؤلفة في البيطرة وعلاج الدواب وصفات الخيل ، (٣) الكتب المؤلفة في الجوارح واللعب بها وعلاجاتها للفرس والروم والترك والعرب ، (٤) أسماء الكتب المؤلفة في المواعظ والآداب والحكم للفرس والروم والهند والعرب مما يعرف مؤلفه أو لا يعرف ، (٥) الكتب المؤلفة في الطبيخ ، (٦) الكتب المؤلفة في التعاويذ والرقي .

أما المقالة التاسعة ، أو الجزء التاسع من كتاب الفهرست فموضوعه المذاهب والاعتقادات . وتضم القائمة الأولى في هذا القسم : الكتب المؤلفة في «مذاهب الحرنانية الكلدانيين المعروفين بالصابئة ، ومذاهب الثنوية الكلدانيين . أما القائمة الثانية من المقالة التاسعة فتتحدث عن مذاهب الهند ومذاهب أهل الصين .

لقد توسعنا قليلا في النقل عن كتاب الفهرست لأننا نريد أن نستعرض صورة

---

(١) ***المصدر نفسه*** والصفحة ذاتها .

حقيقية لحجم تغلغل الثقافات غير الإسلامية في فكر المجتمعات الإسلامية خلال القرون الأولى من التاريخ الإسلامي . والحقيقة أن انتشار بعض هذه الكتب وتداولها استمر حتى منتصف القرن العشرين ، على الأقل ، ثم أخذ يتناقص ويتلاشى مع انتشار التعليم وارتفاع مستواه نسبيا في بلاد المسلمين ، وكذلك بفعل تطور وسائل المواصلات والاتصال ، فتبددت كثير من الغيوم المعتمة التى كانت توشح كثيرا من جوانب حياة شعوبنا بالعتمة وضعف الرؤية . وقد كنت قرأت كتاب ألف ليلة وليلة في أربعينات القرن الماضي حيث كنت في سن المراهقة ، ومررت بحكاياته المتنوعة تنوعا شديدا ؛ فضلا عن حكايات العفاريت والجن . وكان هذا الكتاب ، الذي يقع في بضع مجلدات (ربما كانت ثلاثة) يعتبر من مصادر الثقافة الشعبية ، وبجانبه كتب أخرى منها الزير سالم ، أبو **ليلى المهلهل** ، **وتغريبة بني هلال** ، **والأميرة ذات الهمة** . وكنت قرأت هذه الكتب كما قرأت غيرها . وكان مما قرأته في بعض تلك الكتب حكاية عن شخصية خرافية : (عوج بن عنق) . وكان عوج هذا ، كما تصوره الرواية طويلا لدرجة أنه عندما حدث الطوفان في عهد نبي الله نوح عليه السلام لم تصل مياه الطوفان إلا إلى تحت ركبتيه ؛ وكانت ضخامة جسمه تتناسب مع طوله . وقد زعم مؤلف هذه الأسطورة أن نوحا عليه السلام استعان بعوج بن عنق كي ينقل له الخشب الذي أعده لبناء سفينته إلى المكان الذي كان سيبنيها فيه [1] ؛ وبهذه الجزئية من الأسطورة ، أعني العلاقة المزعومة بنبي الله نوح عليه السلام صارت عملية ربط بين هذه الخرافة من جهة وإسم نبي الله نوح عليه السلام من ناحية أخرى ، وبذلك أضفيت عليها صفة اعتقادية دينية تجر عقول البسطاء والسذج من المسلمين إلى عالم الخرافة .

وكانت الأجيال الإسلامية مولعة بمعرفة غيب المستقبل ؛ أي ما سيحدث في السنين والقرون التالية . ونتيجة لذلك كثرت القصص التي تلبي هذه الحاجة . ومن الشخصيات الإسلامية التي نقل عنها مثل هذا العلم كعب الأحبار ، ووهب بن منبه ؛ واخبارهما متداولة في كتب أهل السنة ، فضلا عن روايات منها كثيرة

(١) ولقد أصبت بالدهشة عندما دخلت مكتبة عامة في عمان في شهر حزيران ٢٠٠٨ فوجدت ذلك الكتاب نفسه في طبعة ظهرت سنة ٢٠٠٤م .

نصادفها في تاريخ أبي الفدا ، أي البداية والنهاية [١] . ومن الكتب التي اشتهرت أسماؤها في هذا الموضوع ، علم الغيب والأحداث المستقبلية : كتاب **الجفر** ، المنسوب إلى الإمام جعفر الصادق ، الذي يعتبره الشيعة الإمامية الإمام السادس في سلسلة أئمتهم . وأنا أعتقد أن هذه النسبة غير صحيحة ، وأن الإمام جعفر الصادق أجل وأسمى من أن تكون له علاقة بمثل هذا الكتاب وهذا الادعاء . ومما تجدر ملاحظته والإشارة إليه أن الحديث عن كتاب **الجفر** والاعتقاد بما ينسب إليه من تسجيل علم الغيب لم يكن محصورا في المجتمعات الشيعية بل إنه انتقل أيضا إلى عقول السنة ؛ فبينما كنت أعيش في أوائل سن المراهقة في قريتي يبنا في أربعينات القرن العشرين كنت أسمع من جدتي لأمي – رحمهما الله – أن عمها لم ينجب ذرية لأنه كان يفتح كتاب **الجفر** ويقرأه . وقد كانت جدتي رحمها الله أمية وسنية ، إذ القرية كلها كانت سنية ؛ وعمها المتحدث عنه ربما عاش في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . وكان من الكتب التي تحتوي على معرفة الغيب المستقبلي أيضا كتاب دانيال ، وكلا الكتابين كان يفترض فيهما تسجيل معلومات عما سيحدث إلى يوم القيامة ، حسبما يدعي المدعون ، وليس في الحقيقة والواقع . ويلاحظ أن الكتاب الثاني منسوب إلى أحد الأنبياء عند المسيحيين واليهود ؛ وهو كذلك في الاعتقاد الشعبي التاريخي عند المسلمين .

التنجيم:

ويتصل بهذه الآفات التي زادت من تشتت العقل الإسلامي أن المعاصرين آمنوا بالتنجيم واعتقدوا صحة أقوال المنجمين . ومن مظاهر ذلك ما يلاحظه القارئ لتاريخ ابن القلانسي ، المتوفي ٥٥٥ هـ من حرص المؤلف على أن يذكر «الطالع» : عند ذكره ابتداء السنين التي تقع فيها أحداث يعتبرها مهمة [٢] ، وقد فعل ذلك مؤرخون آخرون غيره . أما على صعيد الجمهور ، بكل شرائحه وطبقاته ، فقد كان الإيمان بالتنجيم ظاهرة متأصلة تعبر عن نفسها على نطاق واسع ؛ وسنستعرض بعض الأمثلة : ففي سنة ٤٨٩هـ أكثر المنجمون وأتباعهم الحديث عن طوفان شامل سيحيق

---

(١) ابن كثير ، ***البداية والنهاية*** ، ج٧ ، ٢٠٧-٢٠٨ وج٨/١٠١- ١٠٢ وج٨ / ٢٦٠ .

٢٠) انظر ابن القلانسي ، ص ٢٥٧ و٢٩٧ و٣١٩ و٣٢٦ و٣٣١ و٣٣٣ و٣٣٧ و٣٥٠ .

بالعالم في تلك السنة ، فأمر الخليفة باحضار ابن عيشون ، وهو اشهر المنجمين ، لاستشارته . وقد نفى ابن عيشون احتمال حدوث الطوفان ، لكنه قال : «إن مدينة أو بقعة من البقاع يجتمع فيها [1] عالم من بلاد كثيرة فيغرقون . . .»[2] فتوقع الناس أن تغرق بغداد ، وأمر الخليفة بالاستعداد لمواجهة احتمال فيضان دجلة ، وبحراسة المواضع التي يخشى أن تنبثق منها المياه .[3]

ويذكر ياقوت أن البديع الاسطرلابي (ت ٥٣٤ هـ) «عمل الطلاسم ورصد لها ما يوافقها من الأوقات السعيدة ، وحملها إلى الملوك والأمراء والوزراء ، فجربوها فصححت وحصل له منها . . . أموال جمة . . .»[4] والأمثلة على ممارسة التنجيم كثيرة جدا في مصادرنا ، وقد ظل الإيمان بالتنجيم منتشرا حتى في أعلى المستويات السياسية والاجتماعية إلى نهاية العهد العثماني ؛ وكان من وظائف كبار رجال القصر السلطاني وظيفة شيخ الإسلام ، كما كان منها وظيفة «رئيس المنجمين» الملقب بـ «منجم باشـي» [5] . وما زال كثيرون في مجتمعاتنا المعاصرة يؤمنون بالتنجيم والشعوذة . ويمكن استخراج كثير من الأمثلة مما تنشره الصحف اليومية . ولسنا نريد أن نتطرق إلى موضوع «الهواتف» والجن ، فذلك مالا نجد له ضرورة ، وأعتقد أن فيما أوردته كفاية وزيادة .

ماذا كان دور العلماء؟:

إن كلمة «علماء» كانت مستخدمة في عالم الإسلام لتشير إلى من يسمون الآن رجال الدين فقط . والسبب في عدم ظهور صيغة **علماء الدين** هو أن كلمة «العلم» و«العلماء» كانت تنصرف إلى واحد من العلوم الإسلامية ، أو إلى الأشخاص

---

(١) في الأصل «فيه» .

(٢) ابن الجوزى ، ***المنتظم*** ، مجلد ٩ ، ص ٩٧ .

(٣) ***المصدر نفسه*** ، والصفحة ذاتها .

(٤) ياقوت ، ***معجم الأدباء*** ، مجلد ١٩ ، ص ٢٧٤ .

(٥) ***الدولة العثمانية تاريخ وحضارة*** ، بإشراف الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلي ، ترجمة صالح السعداوي ، (إستانبول : منظمة المؤتمر الإسلامي ، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة ، ١٩٩٩) ، المجلد الأول ، ص ١٦٣ .

المتخصصين في علوم الدراسات الإسلامية ، بعضها أو كلها . وعلى ذلك فإن تسمية «عالم» أو «علماء» كانت تشير إلى المفسرين ، والفقهاء ، والحفاظ ، والمحدثين ، والمختصين بعلم الرواية (رواية الحديث) ، وأصحاب السير والأخبار ، أي المؤرخين وكتاب تراجم الرجال ، والنسابين . . . الخ . ولم يكن التخصص المنفرد شائعا ، وإنما كان يفترض في العالم أن يلم بمعظم العلوم الإسلامية ، وربما يركز في عمله ودراساته على بعضها بشكل خاص ، ضمن مجموعة العلوم ، فيغلب عليه الوصف والنسبة إلى الموضوع الذي ركز عليه ، مع عدم نفي التخصصات الأخرى .

ومن ناحية ثانية لم يكن اصطلاح «رجال الدين» شائعا فإن الذي كان متعارفا عليه ، والمفترض ، أن كل الأشخاص المسلمين - رجالا ونساءا - رجال دين ، أو أشخاص منسوبين إلى الدين ضمنا . أما الشخص غير الديني فهو الشخص المنحرف عن الدين ، أو المقصر الذي لا يحرص على الاتصاف بالانتماء إلى الدين ؛ وهاتان حالتان كانتا مذمومتين إلى أقصى درجات الذم ، وكان هذا الوصف يعرض حياة الشخص منهم للخطر الجسدي ، زيادة على الاحتقار والكره الاجتماعي .

ولقد شاعت في كتابات الناشطين الإسلاميين في عصرنا الحديث مقولة : «ليس في الإسلام رجال دين» لأن هذا المصطلح يعني أن هناك فئة تختص بالدين وتنسب إليه ، وفئة أخرى لا شأن لها بالدين ، أو ليس لها اختصاص به . وحتى كاتب هذه السطور كان استخدم عبارة «ليس في الإسلام رجال دين» ، وذلك في أحد كتبي الذي نشر قبل عشرين سنة أو أكثر [١] . وكانت فكرتي التي أوضحتها في الكتاب بشأن هذه النقطة أن كل مسلم ومسلمة شخص ديني ، بمعنى أنه/أنها ينتسب إلى الدين ، وأن ذلك الانتساب مهم للشخص المعني ، يمثل هويته ، فضلا عن أن كل مسلم قادر يدخل في دائرة التكليف بـ«الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» . ولست أقول إن موقفي من استخدام هذا المصطلح ومثله قد تغير تماما ، ولكن حدث شئ من الاستدراك في التعبير ؛ ذلك أن الوظائف الاجتماعية في حياة شعوبنا قد تطورت ، إذ صار العلم والتعليم تخصصات متشعبة كثيرة ، تتميز حدود بعضها من بعض بفواصل ظاهرة واضحة ؛ وكذلك الأمر بالنسبة للوظائف

(١) عبدالله أبو عزة ، **الإسلام** . . ***رسالته ، حضارته ، مستقبله*** (بيروت : دار العلم للملايين ١٩٨٨) ص ١١٤ - ١١٥ .

التخصصية ؛ ولم يعد الوضع كما كان في العصر الإسلامي ، حيث العالم الفرد – في المستويات العليا من أفراد العلماء – يحيط بكل العلوم والتخصصات ، أو بمعظمها ، أو بعدد كبير منها ؛ فهذا لم يعد ممكنا في العصر الحديث ؛ والاستحالة هنا لأسباب عملية وليست نظرية أو منطقية .

والبحث عن دور رجال الدين ، أو علماء الدين ، في العصر الإسلامي يشبه السباحة في بحر واسع ، وذلك لامتداد الزمان والمكان ، وشدة التنوع في الأشخاص والأفكار والقدرات وأساليب التعبير التي تنسب إلى هذا «العالم» أو ذاك ، أو هذا التيار أو المذهب ، أو ذاك . ومع ذلك فإن من الخطل ، ومن غير الممكن إغفال هذا الدور ,وكأنه من الموضوعات الهامشية . وهكذا يجد الباحث نفسه ملزما بالسباحة والإقلاع في هذا البحر . ونظرا لأهمية ومركزية دور العلماء وتأثيره فلا بد أن يحدد الباحث الأمور التالية :

١- دور وموقف العلماء من الصراع الذي بدأ في القرن الإسلامي الأول ، واستمر حتى ما بعد منتصف القرن السابع للهجرة ، الثالث عشر للميلاد ؛ وهذا الحد الزمني الأخير هو نهاية الفترة التي جعلناها ميدانا لهذه الدراسة وركزنا الأضواء عليها ؛ وقد استمرت الحال بعدها دون تغيير يذكر .
٢- عرض مثال أو أنموذج من سلوك ومواقف العلماء في سعيهم لصياغة وتحديد أطر المفاهيم الإسلامية المتعلقة بمشاكل الحكم وقيادة الأمة
٣- مثال مفصل لطريقة تفكير إحدى الشخصيات العلمية المشهورة
٤- الاستنتاج العام بالنسبة لرحلة البحث في شأن العلماء .

نقطة البداية:

سؤال : كيف تشكلت لدى المجتمع الإسلامي ، ولدى العلماء خاصة ، المفاهيم المتعلقة بالقيادة العليا والحكم وإدارة الدولة ومصالح الأمة؟

جواب : من الناحية النظرية المثالية ، ينبغي أن يكون الأصل الذي تشكلت منه هذه المفاهيم هو القرآن الكريم والسنة النبوية ؛

بيد أن الواقع العملي والتاريخي المألوف في حياة المجتمعات الإنسانية يدل على أن «الموروث الفكري» السابق ، بما في ذلك التقاليد الاجتماعية ، لا يندثر بمجرد وقوع منعطف أو حادث تغييري كبير ؛ بل إن ذلك الموروث يظل – وإن بشكل غير واضح –

جزءا من النسيج الثقافي للمجتمع المعني . وإذا حدثت ردة فعل قوية للعودة إلى القديم ، وكان دخول المنعطف الرجعي - أعني الارتدادي - قويا فإن الدعاية السياسية المصاحبة له قد تترك في فكر الحقبة الجديدة أثرا يتفاوت في قوته وعمقه ومدى ديمومته ؛ وهذا ما حدث نتيجة للتحرك الأموي . وقد تلقى «العلماء» في فترة الحرب الأهلية الأولى (٣٥هـ - ٤١هـ) هذه المؤثرات جميعا ، وتفاعلوا معها - سواء بوعي أو بغفلة - وظهرت آثار هذا التفاعل في سلوكهم ومواقفهم . وكان من الطبيعي ان يختلف مقدار تلقي كل منهم ، ومقدار ما يستوعبه أو يقبله ، ويتمسك به أو يهمله من هذه المؤثرات ؛ ونتيجة لذلك التلقي ظهرت الاختلافات ، وما زالت ، أو ما زال كثير منها على حاله .

لقد ظهرت الخلافات في الرأي والاجتهاد منذ عصر الصحابة ، واستمرت بعد ذلك خلال مراحل الصراع التي مررنا بها في الفصول السابقة ، وكانت إحدى ساحات الخلاف عقول وعواطف وتوجهات العلماء . وأثناء الصراعات المتعددة كان العلماء هدفا للإستقطاب والاستتباع ، باعتبار أن تأييدهم لموقف معين يعطيه نسبة من الشرعية والقوة ؛ ولذا نجد أن العلماء ساهموا ، وبقدر كبير أحيانا ، في تشكيل مفاهيم المجتمع وعامة الناس ، وكان لهم دور كبير في الدعاية السياسية ؛ وسنستعرض قدرا من مساهمة العلماء ، مقدمة لمعرفة دورهم في صياغة التشريع والفكر السياسي المتعلق بالحكم والقيادة العليا وإدارة الدولة والمجتمع . وهنا يلزمنا أن نستعيد إلى الذاكرة المفاهيم والمقولات التي طرحت من قبل الأمويين وأنصارهم ، أثناء العهد الأموي وما بعده ، ثم مقولات العباسيين ، ومقولات أول معارضة علوية ظهرت في العهد العباسي ، ثم مقولات الجماعات العلوية الأخرى التي تشكلت مفاهيمها الفرقية (نسبة إلى الفرقة ، واحدة الفرق) بعد منتصف القرن الثالث للهجرة ، خاصة : الإمامية الإثني عشرية ، والإمامية السبعية ، أي الإسماعيلية .

وحيث أن الأمويين والعباسيين محسوبون على السنة ، وقد زالوا فإن ما تبقى من أثارهم في هذا الموضوع تجسد فيما يعرف بـ «**فقه أهل السنة**» ، وظل هو الغالب على تفكير التيارات الإسلامية في عالم الإسلام . وعندما ننظر في أصول هذا الفقه نجده ينقسم في ثلاثة مراتب :

١) التشــريع الذي ورد من خلال آيات القرآن الكـريم ،

٢) التشريع الذي جاء في السنة النبوية الصحيحة ،

٣) التشريع الذي سنته وتسنه المجتمعات الإسلامية من خلال علمائها ومفكريها وقادتها ، ومجاله الأحوال المتجددة التي لم يرد فيها نص مباشر في المصدرين السابقين ، أو باجتهاد في تفسير نص على غير وجهه ، أو تأويله .

وهذه المرتبة الثالثة من التشريع يجب أن تكون محكومة بماورد في القرآن الكريم أولا ، ثم بما ورد في السنة النبوية من المبادئ العامة والأصول ، فضلا عن أنها لا تلزم الأجيال التالية من المسلمين ؛ أي أن القرآن الكريم حاكم على كل ما عداه من مواد وأصول التشريع .

فإذا تحددت الأصول التشريعية الأصيلة التي لم يتجرأ أحد على إعلان رفضها ، فإن المقولات الدعائية الأموية ، والعباسية ، وما تبعها من اجتهادات بعض الفقهاء المسايرة لها ، ثم المقولات العلوية الحسنية ، ثم العلوية الإمامية ، و«العلوية الإسماعيلية» ، ثم الدرزية المنشقة عن الإسماعيلية ، كل هذه تشكل في مجموعها صنفا آخر لا ينتمي إلى أية درجة من درجات التشريع الثلاث التي حددناها . إنها تشكل بنية وتجسيما لشئ سميناه **الدعاية السياسية** . وقد شكلت هذه «**الدعاية السياسية**» ، إرثا فكريا سياسيا اختمر وتفاعل عبر السنين ، حتى ظهر فيما بعد ، فيما يمكن أن نسميه بـ «بواكير التفكير السياسي للمجتمع الإسلامي» . وعندما ظهرت حركة التدوين ، وتطورت نواة الحركة العلمية ، وظهر الفقه مكتوبا في مؤلفات في عصر التابعين [الجيل الذي تلا جيل الصحابة] ، وجد المشتغلون بالفقه أنفسهم أمام ضرورة تحديد القواعد والمبادئ التي يقوم عليها النظام **السياسي ؛ وقد ألفوا أمامهم هذا** الإرث الذي خلفته الدعاية السياسية ، بجانب ما تضمنه القرآن وما تضمنه الموروث من السنة ، أصيلا أو مفتعلا . فماذا كانت النتيجة في الفكر التشريعي؟؟ يبدو أن بعضهم تأثر بالواقع السياسي المنحرف وما جلبه من فكر جاهلي أكثر من تأثره بالقرآن والسنة الصحيحة ، أو ربما ذهل هذا البعض بضغط الواقع وشغل به لدرجة أنسته استحضار النصوص والمبادئ القرآنية وهو يفكر في صياغة لما اعتبره القواعد الشرعية للفكر السياسي . ونتيجة لذلك فقد واجه العلماء والفقهاء خلال نشاطهم الفكري للتعامل مع الموروث الذي وجدوه أمامهم عددا من المعضلات :

أولا : لقد أصبح الفقه – في قسم كبير من إنتاج الفقهاء – تابعا لخطط ومقولات وقرارات القوى السياسية الخاصة التي عبثت بالتاريخ الإسلامي ، كما مر

معنا في الفصول السابقة . ومعنى ذلك بوضوح أن انشقاقا وشرخا حدث في الفكر الإسلامي جعل جانبا كبيرا من هذا الفكر مبتعدا ومختلفا عن الأصل القرآني والنبوي كما بيناه في الفصل الأول ، وهو الفصل التمهيدي [١] .

ثانيا : لقد ابتعد التشريع في مستواه الثالث – دون وعي في الأغلب – عن مبادئ وأصول التشريع في مستواه الأول (القرآني) ، وفي مستواه الثاني (السنة الصحيحة) . وهكذا صار كثير مما سماه بعض الباحثين بـ «**النظم الإسلامية**» مجرد اجتهادات لبعض الفقهاء في عصر تال لإعطاء الشرعية لواقع منحرف كان قائما . وبعبارة أخرى فإن الإسلام التاريخي صار كيانا مغايرا للإسلام القرآني النبوي ؛ لا أقول مغايرة كاملة ، ولكن مغايرة كبيرة . وأبرز مثل على ذلك إقرار وشرعنة تولي شخص فاسق منحرف لأكبر منصب في الدولة ، منصب الخلافة ؛ مع جعل الحد الذي يوصله إلى عدم الأهلية هو أعلانه أنه ملحد أو مشرك لا يؤمن بالله إيمان المسلمين ؛ أما ما دون ذلك من قتل وترويع واغتصاب للمال والممتلكات ، وإذلال وقهر للناس ، وتفريط في مقدرات الأمة المادية ، ومقدساتها المعنوية ، كل ذلك مقبول للضرورة – في رأي أولئك الفقهاء – لتجنب الفتنة ، أو لسد حاجتنا إلى حاكم قوي بطاش . وهذا ما نجد عليه مقولات معظم الفقهاء من القرن الثالث للهجرة إلى بدايات عصرنا الحديث . زد على ذلك إقرار وشرعنة اغتصاب السلطة ، بمعنى : إذا قام شخص قوي واغتصب المنصب الأعلى بقوة السلاح وسيطر على الوضع يصبح خليفة شرعيا وتصبح طاعته مفترضة وعصيانه خروجا على الأمة . ومعنى هذه المقولة في ضوء التجارب الحديثة للشعوب الإسلامية ، أنه إذا قام خمسة من ضباط الجيش بحركة للإستيلاء على السلطة بالقوة وتمكنوا من السيطرة على البلد بما تحت أيديهم من جنود وسلاح وعتاد فإن حكم زعيمهم يصبح شرعيا «الزعيم الأوحد» الذي تلزم طاعته وتحرم معارضته ، ويجرم من لا يمتثل لذلك ؛ فإذا قام شخص آخر (ضابط مثله) بعد سنتين أو ثلاثة ، وكرر فعلته يصبح هو الخليفة الشرعي ، والزعيم «الأوحد الجديد» ، يلزم الناس طاعته ، والصلاة خلفه والغزو معه . وأمثلة هذه الانقلابات نجدها في التاريخ المعاصر لدولنا الإسلامية ، مثل تركيا وباكستان وعدد من الدول

---

(١)

العربية ، خاصة في العراق وسوريا ؛ كما أننا نجدها فيما استعرضناه في فصول هذا الكتاب من الانقلابات الأموية والعباسية ، وتسلط الجند على الخلفاء ، وتسلط البويهيين ، ثم السلاجقة والأتابكة ، وفي عصر الأيوبيين ثم عصر المماليك .

ودعونا ننظر الآن في بعض الآثار التي ظهرت في التشريع الإسلامي من المرتبة الثالثة :

لقد كانت أول «فتوى» أو «بيان» خرج به علينا اثنان من أكبر وأشهر العلماء ، أو الفقهاء ، أواخر القرن الثاني – أوائل القرن الثالث للهجرة على النحو التالي :

«**من غلب على الخلافة بالسيف حتى سمي خليفة ، واجتمع الناس عليه ، فهو خليفة إذا كان من قريش ، يغزى معه ويصلى خلفه الجمعة ، ومن لم يفعل فهو مبتدع** (١) .» وقد أسقط أحد الفقيهين شرط القرشية .

وبعد قرنين من صدور هذه الفتوى يظهر لنا أبو الحسن علي بن محمد الماوردي بكتابه **الأحكام السلطانية والولايات الدينية** ، فيتناول مسألة الخلافة واختيار رئيس الدولة بكثير من التفصيل . وأهمية كتاب الماوردي أنه صار وما زال المرجع الأول الذي يشار إليه ويرجع إليه عند الحديث عن الخلافة والإمامة ، واختيار الخليفة والإمام ، وأدوات الاختيار ، والبدائل الشرعية ، حسب رأيه ؛ وفضلا عن ذلك فإن تقريرات الماوردي النظرية تشمل فيما تضمه وظائف «الوزارة» ، أي رئاسة الوزراء ، و«صاحب المظالم» ، و«المحتسب» ، بالإضافة إلى القضاء ، والشهود ، ووضع الأشراف ونقبائهم . والماوردي كان أشهر فقهاء عصره في عالم الإسلام ، وكان يلقب بأقضى

---

(١) أبو عاصم محمد بن أحمد العبادي ، ***كتاب طبقات الشافعية*** ، ص ١٧ . وقد ذكر هذه الفتوى منسوبة للعالمين الكبيرين أيضا الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله ، وذلك في كتابه ***تاريخ المذاهب الإسلامية*** ، ج ١ ، ص ١٠٤ . والشيخ أبو زهرة كان من مشاهير العلماء في مصر خلال القرن الماضي ، وعضوا في هيئة كبار العلماء وأستاذا للشريعة في كلية الحقوق بجامعة القاهرة ، وكان شخصية محترمة على الصعيد العام ؛ ويلاحظ أنه لم يذكر لقرائه المصدر الذي نقل عنه ، بل اكتفى بعزو الفتوى إلى العالمين القديمين . وممن أشار إلى هذه الفتوى أيضا أبو الفرج عبدالرحمن بن الجوزي ، المتوفى سنة ٥٩٧ هـ كبير علماء الحنابلة في عصره ، وذلك في كتابه المعنون ***كتاب المناقب*** ، ص ١٧٦ .

القضاة ، وهو الذي حمل رسالة الخليفة إلى سلطان السلاجقة توطئة لبداية العلاقة بينهم وبين دار الخلافة سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م . وقد كتب له ابن كثير ترجمتين إحداهما مطولة ومستقصاة ، حسب وصفه لها ، والأخرى مختصرة في كتاب البداية والنهاية ، ضمن تراجم سنة ٤٥٠هـ . وكان مما ذكره في الترجمة المختصرة :

«القاضي الماوردي ، صاحب كتاب الحاوي الكبير . . . شيخ الشافعية ، صاحب التصانيف الكثيرة ، في الأصول والفروع والتفسير ، والأحكام السلطانية ، وأدب الدنيا والدين . قال [الماوردي] : بسطت الفقه في أربعة آلاف ورقة ، يعني كتاب الإقناع ؛ وقد ولي الحكم في بلاد كثيرة ، وكان حليما وقورا ، أديبا ؛ لم ير أصحابه ذراعه يوما من الدهر ، من شدة تحرزه ؛ توفي عن ست وثمانين سنة . [(١)]» ومعنى ذلك أنه ولد بعد استيلاء البويهيين على بغداد بثلاثين سنة ، وأنه شاهد بنفسه وهو بالغ مكتمل الرجولة ، ما كان يحدث في بغداد طوال السبعين سنة الأخيرة من حكم البويهيين ؛ وفي هذه الفترة نفسها خرج علينا وعلى من سبقنا من أجيال الأمة ، بفتاواه ومقولاته وتقريراته .

لقد حدد الماوردي طريقتين رئيسيتين لاختيار الخليفة/الإمام ، أو رئيس الدولة في حالة شغور المنصب ، كما أنه أجاز طرقا متعددة ينطوي ضمنها كل ما يمكن أن يخطر على البال . والطريقتان هما :

(١) إختيار أهل الحل والعقد

(٢) أن يقوم الخليفة الذي يشغل المنصب باختيار من يخلفه ؛ ثم إنه أضاف بدائل أخرى كثيرة جائزة في نظره ومن تابعوه ، وهي في حقيقتها لا تجسد إلا أقصى درجات الفوضى المؤدية إلى الدمار .

كيفية الممارسة حسب تصور الماوردي:

أولا : **إختيار أهل الحل والعقد :**

إذا شغر منصب رئيس الدولة «خرج من الناس فريقان» ، أحدهما أهل الإختيار ، والثاني أهل الإمامة ؛ [أي الأشخاص الذين يعتبرون مؤهلين للترشح للمنصب] . ولم يقل لنا كيف يخرج الفريقان ، «خرج من الناس

---

(١) إبن كثير ، ***البداية والنهاية*** ، ج ١٢ ، ص ٨٠ ، ضمن أخبار سنة ٤٥٠هـ .

فريقان» ؛ هل يخرج كل فريق من تلقاء نفسه ليقول للناس : «نحن أهل الإختيار» ، ويقول الآخرون : نحن أهل الإمامة ، أم أن جهة ثالثة تختص بانتقائهم وإخراجهم؟ ومن هي تلك الجهة؟

وقد حدد الماوردي مؤهلات «**أهل الاختيار**» على النحو التالي :

أ - العدالة الجامعة لشروطها

ب - العلم الذي يتوصل به إلى معرفة من يستحق الإمامة

ت - الرأي والحكمة المؤديان إلى حسن الاختيار .

كذلك فقد حدد الماوردي مؤهلات المرشحين لمنصب **الإمام ، رئيس الدولة والأمة** :

١- العدالة على شروطها الجامعة ،

٢- العلم الذي يمكن صاحبه من الاجتهاد في اتخاذ القرارات ومواجهة المشكلات

٣- سلامة الحواس

٤- سلامة الأعضاء

٥- حسن الرأي والقدرة على التصرف المناسب ،

٦- الشجاعة والنجدة

٧- النسب القرشي ، أي أن يكون من قريش .

ثانيا : **التعيين** ، أي أن يعين الخليفة من يشغل المنصب بعده : وفي ذلك قال الماوردي :

«أما انعقاد الإمامة بعهد من كان قبله فهو ما انعقد الإجماع[١] على جوازه ، ووقع الاتفاق على صحته . . .»

مثل الإجماع على تولية معاوية ابنه يزيد؟ أو تولية هارون «الرشيد» أولاده الثلاثة وتقسيمه أقطار دولة الخلافة بينهم؟ أم كما فعل محمد الأمين عندما عين ابنه الرضيع وليا للعهد وعزل أخاه عبدالله المأمون؟ أم كما فعل المتوكل العباسي ،

---

(١) إدعاء الإجماع هنا مبالغة كبيرة ؛ وكان يكفي الماوردي أن يقول : لا نعلم خلافا حول هذا الرأي ، كما قال الإمامان أحمد والشافعي وغيرهما .

عاشر الخلفاء العباسيين الذي ولى أولاده الثلاثة وقسم أقاليم الدولة بينهم؟ . ونعود لنصوص الماوردي :

فإذا أراد الإمام أن يعهد بها ، أي الخلافة ، فعليه أن يجهد رأيه في الأحق بها ، والأقوم بشروطها :

١) يجوز للخليفة أن يعين «أهل العقد والحل» ،
٢) يجوز للخليفة أن يعين مجموعة أشخاص لاختيار أحدهم ،
٣) ويجوز للخليفة أن يعين اثنين أو أكثر لكي يخلفاه واحدا بعد الآخر ، كأن يقول : الخليفة بعدي فلان ، فإن مات يحل محله فلان ، فإن مات فالخليفة بعده فلان .

وقد شدد أبو الحسن الماوردي على ضرور التقيد بما قرره الخليفة ، **لأن ذلك من حقوق ولايته** [١] .

ومن المؤسف والمحزن معا ، أن قاضى القضاة - الماوردي - قد كتب هذا الكلام ، وألف الكتاب الذي حواه ، وعاش حياته كلها ، تقريبا ، في العصر البويهي ، أثناء تسلط البويهيين على دار الخلافة ، كما ذكرنا قبل قليل ، وعاش بعد طردهم من بغداد والعراق ثلاث سنوات ، وتوفي سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م . ومعنى ذلك أنه رأى بعينيه وسمع بأذنيه كيف كان الخلفاء يعينون ويعزلون ويقتلون أو تفجر عيونهم بالنار عند «سملهم» ؛ وكيف كانوا (أعني الخلفاء) يتهافتون على ذلك النوع من الخلافة تهافت الذباب ، مما أوردنا كثيرا من مشاهده في الفصل السابع من هذا الكتاب ؛ ومع ذلك يسطر لنا هذا الكلام النظري الذي لا علاقة له بالواقع الذي شهده وعايشه ، ولا بالواقع الذي كان قبل ولادته في فترة سيطرة الفوضى وعبث الجند في دار الخلافة وبدولة الخلافة (٢٤٧ - ٣٣٤هـ) ؛ ورغم كل ذلك يأتينا بهذه الفتاوى والتقريرات النظرية .

والواقع أن هذه الآراء والفتاوى لم تمثل رأي الماوردي ورأي الشافعية فقط ، بل إنها تمثل رأي الحنابلة أيضا ، خاصة وأن أحد العلماء المنتسبين إلى المذهب الحنبلي ألف كتابا بعنوان الأحكام السلطانية ، مثل عنوان مؤلف الماوردي ,بل نصه يماثل نص الماوردي حرفيا ، في معظم فصوله ، كلمة بكلمة ، إلا أن يخرج عن النص قليلا

(١) أبو الحسن علي بن محمد الماوردي ، ***الأحكام السلطانية والولايات الدينية*** ، ص ٥ - ١٥ .

بإضافة عبارة «**وقال أحمد** » ، يعني أحمد بن حنبل ، ويتبعها بتعليق من بضع كلمات ، ثم يعود إلى نص الماوردي ، ويكرر ذلك من حين لآخر .

ثم إن تقريرات وفتاوى الماوردي صارت تمثل رأي الغالبية العظمى من المسلمين السنة ، وصار كتابه أول كتاب يشار إليه ويرد إلى الذهن عند الحديث عن «النظرية السياسية» عند المسلمين . وهو بالطبع لا يمثل رأي الشيعة من قريب أو بعيد ، لأن لهم رؤيتهم الخاصة كما بينا .

ولقد ذكر الماوردي «الإجماع» ، دليلا ، ولكن ، أي نوع من الإجماع هذا؟ لعله قصد ما يسمى بـ «**الإجماع السكوتي**»؟ **وهو إجماع وهمي افتراضي ، رفضه كثير من كبار الفقهاء . إن السكوت لا يعني الموافقة . وعندما يسود السكوت أو يغلب فإنه يكون سكوت الخوف ، سكوت المرعوبين ، سكوت العاجزين والمتحيرين ، لا سكوت الموافقين ، حتى لو قالوا بألسنتهم إنهم موافقون** . وقد نقل الإمام ابن تيمية عن الأمام أحمد بن حنبل قوله : «**من ادعى [حدوث] الإجماع فهو كاذب ، ولكن يقال : «لا نعلم خلافا .**»

والمعروف أن أحدا لم يحدد الأشخاص الذين ينسب إليهم الإجماع ، ولم يذكر أي خبر مما روي عن الأحداث التاريخية أن العلماء اجتمعوا ليبحثوا أمرا ثم اتخذوا بشأنه قرارا ، فحدث الإجماع ؛ ومثل هذا الإجماع لم يحدث ، لا لجميع العلماء في أي عصر ، ولا لأغلبيتهم ، ولا حتى لمجموعة كبيرة أو صغيرة ، حتى ولو لبضع عشرات . ونظرا لعدم وجود أي مثال عملي من الممارسة لمسألة الإجماع ، أو ما يقرب من الإجماع ، فقد لجأ بعضهم إلى فكرة «**الإجماع السكوتي!**»

وعند حديث الماوردي عن شروط انعقاد البيعة وعدد الحد الأدنى المطلوب من المبايعين ، لكي يصبح الشخص الذي بايعوه خليفة شرعيا ، استعرض البدائل المتعددة ضمن آراء من سبقوه من العلماء على النحو التالي :

(١) من المطلوب أن يحصل الخليفة – قبل أن يصل إلى الشرعية – على تأييد أغلبية «أهل العقد والحل» في كل مدينة ، لكي يكون الرضا به عاما .

وقد اعترض الماوردي نفسه على هذا الشرط ورفضه ، واعتبره غير شرعي ، وذلك بقوله : « . . . وهذا مذهب مدفوع . . . » ، أي مرفوض ، بدليل أن بيعة أبي بكر كانت مقتصرة على من حضروها ، ولم ينتظر كبار الصحابة الحاضرين حتى يأتي الغائبون .

(٣) واشترط علماء أخرون مشاركة خمسة أشخاص على الأقل ،
(٤) وقالت فئة أخرى : أن العدد المطلوب ثلاثة على الأقل ،
(٥) وقالت طائفة ثالثة : إن البيعة يمكن أن تنعقد بواحد ، ويتم انتخاب الخليفة الشرعي على أساسها ، والدليل الذي ساقوه : لأن العباس قال لعلي رضوان الله عليه : أمدد يدك أبايعك ، فيقول الناس : «عم رسول الله ﷺ بايع ابن عمه فلا يختلف عليك اثنان . . .»

ونوجه عناية القارئ إلى أن الماوردي لم يكن ناقلا محايدا فيما أورده لنا من آراء ، وإنما كان يتدخل أحيانا ليبدي عدم موافقته ، وذلك عند قوله : «**وهذا مذهب مدفوع** . . .» كما أشرنا قبل قليل ، في رقم (١) أعلاه . وهذا يعني أن جميع الآراء التي ساقها الماوردي ولم يعترض عليها كانت مقبولة لديه . وعلى ذلك فإن البيعة تتم – حسب رأيه ومن تابعوه – لمن يتولى الخلافة بمجرد مبايعة شخص واحد ، أو ثلاثة ، أو خمسة ، او جماعة أكبر ، مع التأكيد على استبعاد اشتراط الأغلبية العددية ؛ هذا فضلا عن فتوى الاستيلاء على الخلافة بالسيف .

والأمر الذي يجعل الباحث يصاب بالصدمة لما قرره واستعرضه أبو الحسن الماردي أننا نجد شخصا من غير العلماء ، لم يكن يعرف القراءة والكتابة ، ولم يكن يحسن الحديث باللغة العربية ، وكان أميا على الأرجح ، ومن الجند المرتزقة ، ومع ذلك عرض بعقله السليم المعافى من أثقال الدعاية السياسية ، تصورا وخطة أرقى وأفضل ، وأكثر منطقية مما رأيناه في فتوى قاضي القضاة الماوردي ، وما تبناه كثيرون من العلماء من قبل ومن بعد .

وهذا الشخص الذي لم أذكر اسمه بعد مر معنا شئ من سيرته عندما استعرضنا أحداث فترة الفوضى التي سيطرت على دار الخلافة ، وذلك هو **بجكم** التركي الذي صار أمير للأمراء سنة ٣٢٦هـ ومات سنة ٣٢٩هـ . فبينما كان **بجكم** ، بعيدا عن بغداد ، ليعالج الوضع في مدينة واسط ، مات الخليفة (الراضي بالله) . وعندما تلقى **بجكم** الخبر أصدر أمرا بأن يعقد اجتماع عام يضم وزير الخليفة ، أي رئيس الوزراء بلغة عصرنا ، وكل من تقلد الوزارة [أي رؤساء الوزارة السابقين] ، وأصحاب الدواوين [أي الوزراء] ، والعلويين ، والقضاة ، والعباسيين ، ووجوه البلد ، ويشاورهم الكوفي [وهو مساعد بجكم وممثله في الاجتماع] فيمن يختارونه للخلافة . وقد جمعهم الكوفي واستشارهم ، وتم اختيار إبراهيم بن المقتدر ، وبويع ، ولقب

بالمتقي لله ، ثم بايعه عامة الناس . وقد تم كل هذا **وبجكم** ما زال في واسط [١] .»

فأين هذا من مقولات الماوردي؟ لقد مات بجكم في شهر رجب سنة **٣٢٩ هـ** ، ولم يجر اختيار أي خليفة بالطريقة التي أمر بها هذا العسكري التركي الأمي ، وظل أكثر العلماء يرددون فتاوى الماوردي ، ويكررون مقولة «من استولى على الخلافة بالسيف فهو الخليفة [٢] .» قرونا طويلة بعد ذلك دون أن يصدروا مثل ما أصدر بجكم أو قريبا منه . ولا يظنن أحد انني أعتبر «تصرف بجكم بشأن الهيئة الاستشارية لاختيار الخليفة» الصورة الإسلامية الأمثل ؛ ليس الأمر كذلك ؛ كل ما وددت قوله : إنني أردت أن أضع مقولتين ، أو تصورين ، أحدهما مقابل الآخر :

– البيعة (اختيار الخليفة) تتم بمن حضر ، ويمكن أن تتم بمبايعة شخص واحد ، كأن نقول : «بايع حسين حسنا بالخلافة ، فصار حسن خليفة .» وبهذه الطريقة تتم البيعة ، ويصبح الشخص المختار خليفة لا تجوز معارضته أو خلعه ، ويفرض على الناس طاعته والغزو معه والصلاة خلفة ؛ كما يمكن أن تتم البيعة بشخصين ، أو ثلاثة ، أو خمسة . كذلك يمكن أن تتم البيعة لمن قرر أن يستولي على الخلافة بالسيف ، فيسل سيفة بعد أن يضم له بعض الأتباع ، ويستولي على الدولة ، فيصبح خليفة ، بغض النظر عن الأرواح والدماء . . .

هذه مقولة وتصور تبناه كثير من الفقهاء ، والتصور المقابل له هو تصور بجكم ، العسكري التركي الأمي ، حسب ما بينا قبل قليل ؛ وقد طبق تصور بجكم عمليا وسجله المؤرخون ؛ وقد عاش بجكم ومات قبل عصر الماوردي بمئة سنة تقريبا .

الموثقات الشرعية:

من أين جاء علماؤنا الأجلاء بهذه الأحكام والفتاوى ، وعلى أية أسس بنوها وشددوا على ضرورة التزام المسلمين بها؟

(١) ترشيح أبي بكر عمر بن الخطاب لتولي الخلافة بعده ،

(٢) مقالة العباس لعلي : «أمدد يدك أبايعك . . .» ،

---

(١) إبن الأثير ، ***الكامل في التاريخ*** ، مجلد ٨ ، ص ٣٦٧ – ٣٦٨ .

(٢) أنظر مثلا : الإمام بدر الدين بن جماعة ، ***تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام*** ، تح . الدكتور فؤاد عبدالمنعم أحمد ، ص ٤٨–٥٧ .

(٣) ستة الشورى كما حددها عمر بن الخطاب ،

(٤) ما فعله معاوية بن أبي سفيان باغتصاب الخلافة بالسيف والغلبة ، وتوليته لابنه يزيد بالترغيب والتهديد ،

(٥) ما فعله عبدالملك بن مروان بتولية أولاده واحدا بعد الآخر : الوليد ، ثم سليمان ، ثم يزيد بن عبدالملك ؛

(٦) وما فعله بعد ذلك هارون «الرشيد» حين عين أبناءه الثلاثة : الأمين ، ثم المأمون ، ثم المؤتمن ، بالتتابع ، وقسم أراضي الدولة الإسلامية بينهم ،

(٧) ثم ما فعله المتوكل (عاشر الخلفاء العباسيين) حين اتبع سنة جده هارون «الرشيد» وعين أولاده الثلاثة للخلافة متتابعين ، وقسم بينهم أراضي دولة الخلافة .

(٨) ما ورد من أحاديث تحض على طاعة الأمير ، من مثل : «أسمعوا وأطيعوا ، وإن أمر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة .» ، وأحاديث أخرى كثيرة بنفس المعنى ، وبألفاظ ومعاني قريبة .

إستنتاجات وتقريرات متسرعة وخاطئة نتجت عن كسل ذهني انطلقت من منظور ضيق ، بل شديد الضيق ، وظلت محشورة في الأنفاق التي حفرها العلماء وأشباه العلماء جيلا بعد جيل ، وسجنوا فيها عقول المسلمين قرونا طويلة .

ولو أننا تأملنا هذه الاستنتاجات قليلا فسيتبين لنا ما قلناه عن الكسل الذهني المصحوب بالتسرع وضيق الأفق :

ترشيح ومبايعة عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان قد تم تحت ضغط ظروف خطيرة وملحة ؛ فقد كانت جيوش المسلمين مشتبكة في حرب مصيرية طاحنة على جبهتين ، في مواجهة الدولة البيزنطية (الروم) ، حيث كانت القوات الإسلامية تحاصر دمشق ، وفي مواجهة الدولة الساسانية ، شمال الخليج العربي وشرق الجزيرة العربية . وهكذا فعندما شعر أبو بكر رضي الله عنه بدنو أجله كان الموقف خطيرا ، ومفتوحا على كل الاحتمالات . ومع ذلك فقد استشار أبو بكر جميع ذوي الرأي في المجتمع الإسلامي في المدينة ، ومن حصيلة استشاراته ومعلوماته وخبرته العملية من خلال تعامله مع كبار الصحابة ، رشح عمر بن الخطاب ، وقوبل اقتراحه بالموافقة ؛ ومع كل ذلك فإن طريقة انتخاب عمر رضي الله عنه كانت صالحة في ظل الظروف التي أحاطت بها ، بيد أنها لا تصلح أن تكون مثالا لمجتمع إسلامي استقرت أوضاعه نسبيا ، مع حصوله

على خبرات عملية كثيرة فيما يتعلق بمشاكل الحكم والصراع على الحكم ، ومدى النفع والضرر الذي تتعرض له مصلحة الأمة بشكل عام ، وعناصر المجتمع ، وكذلك الأفراد بشكل خاص . فإذا انتقلنا إلى لجنة الستة التي شكلها عمر ، فقد كان تشكيلها أيضا في ظروف حرجة ، ولا تقل خطورة عما سبقها ؛ فقد تعرض الخليفة لعملية اغتيال ؛ وكانت جراحه تنزف بغزارة ، وقد سقي لبنا فخرج اللبن مع الدم من جراحة ؛ وبهذا الفحص البدائي البسيط غدا عمر ومن حوله شبه متأكدين من أن وفاته وشيكة . وبجانب ذلك فقد كانت جيوش المسلمين مشتبكة في معارك ضارية في الجبهتين اللتين أشرنا إليهما ، بجانب جبهة جديدة في أفريقيا . وفي الحالات الثلاث : بيعة أبي بكر ، وبيعة عمر ، ولجنة الشورى التي انبثقت عنها مبايعة عثمان كانت كلها في ظروف غير عادية اكتنفتها مخاطر كبيرة ؛ ومعنى ذلك أن تلك الممارسات لم تكن الخيار الأصلح في ظل ظروف أخرى هادئة وطبيعية ، ولم يكن من المناسب أن تصبح قاعدة يرسم على منوالها ؛ خاصة مع الظروف التي أحاطت بها .

أما ما نقل من قول العباس لعلي ﵁ : **أمدد يدك أبايعك** . . . فذلك ليس أكثر من اجتهاد فردي في تلك الظروف الخاصة أيضا ، هذا بجانب ما داخله من عنصر القرابة بين القائل والمقول له .

فإذا انتقلنا إلى ما فعله معاوية بن أبي سفيان ، حين اغتصب الخلافة ، وحين عمل على تنصيب ابنه خليفة له بكل الوسائل غير الإسلامية ، وما فعله عبدالملك بن مروان ، وخلفاء بني العباس . . . إلى آخر هذا المسار فإن كل ذلك لا صلة له بالمبادئ التي أقرها الإسلام . ولا يغير ذلك أنهم وجدوا من الفقهاء من اعتبر إجراءاتهم شرعية وبنى عليها ليجعلها تشريعا عاما للمسلمين في كل الأجيال ، وذلك خطأ واضح من غير شك .

أما الأحاديث النبوية الحاضة على طاعة ولي الأمر فقد صدرت كلها – دون استثناء – في ظروف خاصة ، وكان من الضروري أن تؤخذ خصوصيتها بعين الاعتبار عند توظيفها أو الاستدلال بها ؛ وبيان ذلك بالدليل : أن رسول الله ﷺ كان قد وجه – أثناء فترة قيادته للمجتمع الإسلامي وهو في المدينة – سبعا وأربعين بعثة ، أو غزوة أو سرية ، في مهمات حربية . وعندما كان يرسل أية بعثة كان يأمر رجالها ، بطاعة القائد ،

في كل الحالات والظروف ، إلا إذا أمر بمعصية صريحة لله سبحانه وتعالى ، أو صدر عنه ما يعتبر كفرا صريحا . وضرورة الطاعة المطلقة للقائد واضحة هنا وضوحا تاما . فلو تصورنا أن قوة من ثلاثة رجال أو خمسين رجلا قد خرجت في مهمة حربية ، للقتال أو الاستطلاع أو جمع المعلومات ، ثم حصل خلاف بينهم حتى ولو على مسألة صغيرة وبسيطة ، مثل : هل نسير في هذا الطريق الذي سيصعد بنا إلى قمة ذلك التل؟ أو نختار ذاك الطريق الثاني الذي سينحرف بنا يمينا لنلتف حول التل بدلا من الصعود إلى أعلاه . إن مثل هذا الاختلاف البسيط يمكن أن يفرق السرية ويفشل مهمتها إن لم تكن هناك طاعة مطلقة وصارمة لأمر القائد ، الأمير ، وقس على ذلك . . ، وقارن بما يحدث الآن في ممارسات العسكريين الحديثة في القرن الحادي والعشرين .

وإذا كان الرسول صلوات الله وتسليمه عليه قد وجه سبعة وأربعين أميرا لقيادة نفس العدد من السرايا لمهمات حربية أو استطلاعية ، فإنه لم يعين أميرا واحدا للقيادة العليا للأمة ، الخلافة ، أو الإمامة العامة ، رئاسة الدولة . وعندما شعر بدنو أجله ترك أمر اختيار الخليفة للمجتمع الإسلامي ، بغض النظر عن تلك الإيماءة البسيطة ، عندما كان في حالة مرضه الشديد وشعر بصعوبة إمامته للمصلين في المسجد فحول إمامة الصلاة لأبي بكر رضي الله عنه .

وفي ضوء ذلك كله فإنني لا أتردد في القول بأن جميع أولئك العلماء , وأشباه العلماء القدامى ، الذين دعوا وشددوا على ضرورة الطاعة المطلقة للحاكم المستبد الظالم المغتصب قد وقعوا في خطأ فادح ومشين حين فشلوا في التروي ولم يدركوا الخصوصية في الأحاديث التي ارتبطت بالأمارة الحربية ، على الرغم من وضوح تلك الحال ، كما فشلوا في فهم واستحضار معنى ومضمون قول الله سبحانه : «فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول . . .» وهو يعني بوضوح تام أن الاختلاف والتنازع بين الحاكم والمحكومين يمكن أن يحدث ، دون أن يترتب عليه لوم أو تثريب لمن خالفوا الأمير ، أو الخليفة ، بل إن القرآن الكريم وجه الفريقين إلى الاحتكام إلى كتاب الله ، ثم إلى رسول الله ولم يأمر المحكومين بالطاعة المطلقة دون

مناقشة أو جدال . كما أن أولئك العلماء وأشباه العلماء قد فشلوا عندما تناسوا مضمون قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون : ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا .﴾ ففي هذه الآية الكريمة يحض الله عبادة الصادقين ليس فقط على عدم طاعة الحكام الطغاة الظلمة ، بل يحضهم على حربهم وقتالهم ، ويعتبر هذا النوع من الحرب جهادا في سبيل الله ؛ وثمة معنى آخر مضمر وضمني بيد أنه واضح تماما : وهو أن الله تعالى لا يرضى أو يقبل للمؤمنين الصالحين أن يروا أو يعلموا بأفعال الظالمين ومعاناة المظلومين المستضعفين ، حتى عندما يقع الظلم على غيرهم ، ومع ذلك يظلوا لائذين بالموقف السلبي .

ولست أزعم أن تنحية أو إهمال توجيهات القرآن والأحاديث - من جانب بعض الفقهاء - كانت عن وعي وقصد واضح في كل هذه الحالات ، بل أعتقد أن ما أوصل الفقهاء إلى تبني تلك الخيارات ورفعها إلى مستوى المثل القابلة للإتباع ، أنهم وضعوا فرضية مفادها : أن الصحابة هم الأعلم بمطالب الإسلام ، وهم منزهون عن الخطأ ، وأنهم اشتقوا فهمهم وأحكامهم وممارساتهم من القرآن والسنة . وقد رتب الفقهاء على تلك الفرضية : أن ما فعله أي فرد من الصحابة حجة على من جاء بعدهم من الأجيال اللاحقة ، تلزمهم بالموافقة والاتباع ، والمشاركة في القتال ، فضلا عن الائتمام في الصلاة ، على ضوء ماحدث مع معاوية بن أبي سفيان وامتد بحكم الوراثة إلى ابنه يزيد ، وبقية خلفاء بني أمية .

أما مغتصبو منصب الخلافة فلم تكن تهمهم شرعية خلافتهم إلا في حدود إقناع أفراد المجتمع وحملهم على قبول ذلك التزوير . إنني أعتقد أن هذا الاجتهاد من جانب الفقهاء لم يكن صحيحا ؛ وقد جاء تأكيد ذلك في الصراعات العشائرية على الحكم ، وفي الاستبداد المفرط ، وتبديد الأموال والطاقات ، وإزهاق آلاف الأرواح **للحصول على شرعيات مزورة عن طريق الخداع** ، وتثبيت تلك الشرعيات وما ترتب عليها من السلطات ؛ وذلك ما شهدته القرون الثلاثة عشر الماضية ، وما كشفته وعرته أحداث سنتي ٢٠١١ و٢٠١٢ م . في مصر وليبيا واليمن ، وما زلنا نشهده في سوريا والعراق ، وما زالت تختزنه عقول كثيرين من عامة الناس ، بل وفي عقول أكثر الأشخاص الذين يعتبرون أنفسهم الأوصياء على الدين والعقيدة ، وأنهم أهل الذكر

الذين يسألون ، ويناط بهم تفسير الدين ، بل ويعتقد بعضهم أنهم هم «أولو الأمر» الذين ذكرهم القرآن الكريم ، ولا تجوز مخالفتهم . . .!!!

ثم إن هذا الخيار الخاطئ لبعض العلماء وأشباه العلماء يمكن أن يكون نتيجة لانتصار التوجه الذي دعا إلى استبعاد استخدام العقل في مقابل قبول النص دون تفكير ، مع أن القرآن الكريم أخبرنا أن القرآن قد أنزل ﴿لقوم يعقلون﴾ ، أو ﴿ . . . لعلكم تعقلون .﴾ وهذا يعني بكل وضوح أن العقل كان حاضرا ومعدا قبل نزول النص ، وأن وظيفته في هذه الحالة هي تلقي النص وتدبره وفهمه .

وهذا الاستبعاد للعقل هو أخطر ما أردى الحضارة العربية الإسلامية وحال بينها وبين القدرة على النهوض وتجديد البناء ، وما زال يقعدها عن ذلك .

الله سبحانه وتعالى يخاطب المسلمين ويوجههم ويأمرهم بقوله :

﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾

﴿ولا تقتلوا أنفسكم ، إن الله كان بكم رحيما﴾ .

﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا . . .﴾

﴿ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها ، وغضب الله عليه ولعنه ، وأعد له عذابا عظيما .﴾

ورسول الله ﷺ وجه أمته بقوله :

«إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار .»

« لا أفلح قوم أمهم رجل وفيهم من هو أفقه منه .»

« لا أفلح قوم أمهم رجل وهم له كارهون .»

فكيف أجاز العلماء أن يجعلوا منصب الخلافة دافعا للحرب بالسيف ، للوصول إلى المنصب بالقوة ، ثم فرضوا على المسلمين أن يقبلوا نتيجة هذه الجريمة الكبرى باعتبارها عملا جائزا شرعا ، ويشددون على الالتزام بطاعة الشخص الذي وصل إلى المنصب على آلاف الجثث والأشلاء والدماء ، ويؤكدون على ضرورة الصبر على فساد الحكم ونهب الأموال ، ويحرمون الانفلات من ربقة الطاعة المغموسة بالذل والقهر والجراح والألم . وهكذا وصلنا إلى أن من يخضع هذا الخضوع ويلتزم هذا الالتزام يكون جزاؤه الجنة!!!

إن أحدا من العلماء – منذ القرن الثاني للهجرة وحتى قرننا الحالي ، الخامس عشر للهجرة – لم يحدد للأمة بعبارة واضحة وقابلة للتطبيق والممارسة العملية «من

هم أهل الحل والعقد» المسمون «أهل الإختيار» . كما أن شرط انعقاد البيعة بواحد ، أو اثنين ، أو ثلاثة ، أو خمسة ، أو أكثر ؛ أو بقرار من الخليفة الذي يشغل المنصب بتحديد من يليه ، كل هذا لا يمثل شيئا عندما تكون هذه البدائل كلها خيارات مباحة وشرعية ومتساوية ؛ بل إن الشرط – في هذه الحالة – طريق للفوضى ، إنه تشريع يجيز الصراع والنزاع ، بل يشجع عليه بشكل غير مباشر ؛ وقد أوردنا في الفصول السابقة الكثير من الأمثلة للأبناء الذين تصارعوا على منصب الخلافة ، أو منصب السلطنة ، أو الملك ، قبل أن يجف تراب قبر أبيهم المتوفى . وفي كثير من الحالات كان الصراع بين المجموعات التي أحاطت كل منها بواحد من الورثة الذين جرى باسمهم الصراع .

وهنا يجب أن أنوه بأن هذا الموقف المبني على افتراض العدالة المطلقة لكل واحد من الصحابة ، أو من اعتبروا من الصحابة ، وافتراض آخر بقبول كل ما فعلوه أو قالوه واعتباره مصدرا تشريعيا لم يكن موقفا لجميع الفقهاء ، بل إن هناك من كبار الفقهاء من تحفظ عليه ؛ فهذا فخر الدين محمد بن عمر الرازي يعلن : « مذهبنا أن الأصل فيهم [الصحابة] العدالة . إلا عند ظهور المعارض للكتاب والسنة [(١)] .» وهذا تعبير دقيق عن فهم واع وصحيح . ونعود هنا فنذكر بما قلناه في مطلع هذه الدراسة ، من أن الصحابة كانوا جيلا من البشر ، لا من الملائكة ، وأن القرآن الكريم نفسه قد ذكر لنا أن بعض الصحابة قد أخطأوا ، ليس في إطار الاجتهاد ، بل كان خطأهم مما يدخل في عداد الذنوب . الصحابة لهم منا كل الاحترام والتوقير ؛ وعندما نتعرض لبعض تصرفاتهم فإنما نفعل ذلك مساهمة في تصحيح أخطاء وقع فيها كثير من الفقهاء أثناء نشاطهم التشريعي . وهذا التصحيح ضروري لما ننشده من إصلاح لحالة أمتنا وإنقاذ لها من حالة التردي والانهيار ، ومزيد من التردي والانهيار .

لقد بنى العلماء نفقا ، مسورا بثلاثة أسوار ليسير العقل الفقهي في داخلها ولا يخرج عنها أو ينظر إلى الآفاق الواسعة خارجها :

وكان **السور الأول** مكونا من تقديس الصحابة ، ورفعهم فوق البشر ، والقول بأنهم لا يخطئون ، وأن عملهم سنة متبعة ، وأن هذا الحكم لا ينطبق على جماعتهم

---

(١) فخر الدين محمد بن عمر الرازي ، ***المحصول من علم أصول الفقه*** ، القسم الثاني من الجزء الأول ، ص ٤٣٧ – ٤٣٨

فـقط ، بل ينطبق على كل فـرد منهم على حـدة . وقـد انبنى هذا الفـهم على أن الصحابة شـهدوا حياة رسول الله ﷺ ، وأنهم الأكثر والأولى بأن يفهموا القرآن ويفهموا سنة رسول الله ﷺ . وتبعا لذلك فإنه لا يجوز لأحد مخالفتهم أو نقد أعمالهم وأقوالهم ، أو حتى إبداء أي تساؤل حولها ، حتى عندما يتقاتلون ويسفك بعضهم دماء بعض!

أما **السور الثاني** فقد كانت مادة صناعته جيل التابعين ، أي ذلك الجيل الذي جاء وعاش بعد انقضاء جيل الصحابة . ومن هذا القرب الزمني من عصر الصحابة ، ومن تتلمذ على الصحابة نشأ افتراض أنهم الأقرب إلى العلم الصحيح ، والأولى بأن يكون علمهم ومعرفتهم الأصح .

وبعد انقضاء دور التابعين جاء دور تابعي التابعين ، ودور السلف ، فوصلنا إلى **السور الثالث** . وكلمة السلف لفظة مطاطة بمعناها الحرفي ؛ فهي تعني كل من سبقونا زمنيا من العلماء . لكنها – في الأغلب – تشير إلى الأجيال الأقدم ، كأن تقول القرون الثلاثة ، أو الأربعة أو الخمسة الأولى من العصر الإسلامي ؛ ويختلف العلماء في تعريف السلف .

ولم يقتصر الأمر على هذه الأسوار الثلاثة ، بل ما لبثت أن ظهرت مسارب أخرى كثيرة :

١) الأسوار والأنفاق التي أقامتها الفرق (سنة ، إمامية ، إسماعيلية . . .الخ)
٢) الأسوار والأنفاق التي أقامتها كل طريقة صوفية حول نفسها ومؤسسها
٣) وأخيرا الأسوار التي أقامتها الجماعات الإسلامية الحديثة حول طريقة ورؤية مؤسسيها ، والسوابق التي اعتبروها من أعمالها واجتهاداتها .
٤) بل إن بعض أتباع المذاهب السنية الأربعة أقاموا سورا بينهم وبين مذهب سني آخر في بعض الفترات الماضية البعيدة والقريبة ، وربما كان ذلك موجودا قبل أقل من قرن .

وداخل هذه الأسوار ، أو كل من هذه الأسوار ، المتعاقبة يوجد مسار ، أو نفق ضيق محكم ، لا يسمح بالسير خارجه . هكذا صار العقل المسلم أسيرا ، ومسجونا ، لا يسمح له بأن يخرج عن أقوال الصحابة ,والتابعين والسلف ، ومؤسسي الحركات الإسلامية الحديثة ، والزعامات ، والمشايخ والدراويش ؛ ومن تجرأ وخرج يرمى بالانحراف والزيغ والبدعة ، وما يوازي ذلك ويماثله من التهم حتى يصل إلى درجة

التكفير . ويمكن أن نعبر عن هذه المحصلة بأنها شكلت بمجموعها نفقا ضم في عتمته مسارب متعددة ، فزاد الطين بلة .

والحقيقة العملية التي ترتبت على ذلك أن هذه الأسوار أنشأت حواجز ، مقصودة أو غير مقصودة ، أبعدت الأجيال الإسلامية من الفقهاء ، وأبعدت العقل الإسلامي الجمعي عن الأصل القرآني ، وملأت الفراغ باجتهادات الصحابة ، والتابعين ، والسلف ، وغيرهم من المراتب التي عددناها ، ومنعت الأجيال اللاحقة من الاجتهاد إلا في الحدود الداخلية للنفق . وقد أثبتت الأحداث والتطورات التي مرت بها الأجيال الإسلامية أن كثيرا من الاجتهادات كان بعيدا عن الصواب ، خاصة المقولات والاجتهادات المتعلقة باختيار الخليفة وتشكيل البنية العليا لإدارة الدولة والمجتمع . ويكفي أن نتجه بذاكرتنا إلى الوراء عبر ما مر معنا في هذا الكتاب لنرى أن الصراع على المناصب كان ظاهرة متكررة مستمرة ، وأن «الخوف من الفتنة « الذي اتخذ مبررا للسكوت على كل الجرائم ، والخضوع للطغاة إنما كان هو الطريق لفتن مستمرة ، أو فتن متلاحقة في سلسلة متصلة لا تكاد تتوقف حتى يومنا هذا .

إنني مع كل المؤمنين الصادقين نحترم الصحابة ، وهم قدوتنا في كل الأعمال الصالحة ، نترحم عليهم ، ونترضى الله سبحانه وتعالى عنهم ، ولا نقول فيهم إلا خيرا ،لكننا لا نرفعهم فوق مرتبة البشر ، ولا نقول إنهم لا يخطئون حتى ولو كان الخطأ اجتهادا في تحريهم الوصول إلى الحق ؛ ولا نقول إن أحدا منهم لم يرتكب ذنبا . وكيف نقول ذلك ، والقرآن الكريم يتحدث عن أخطاء وعن ذنوب لبعضهم ، كما أن كبار المحدثين أوردوا أخبار ذلك في كتبهم . ومع ذلك فإننا نؤمن أن الله يجعل للمجتهد الصادق في البحث عن الحق أجرا ، وهذا ينطبق على الصحابة وغيرهم ، وأن الله يغفر الذنوب جميعا باستثناء الشرك بالله ، ونذكر ونتقبل حديث رسول الله ﷺ عن غفران الله سبحانه لأهل بدر . بيد أن كل هذا لا يحملنا ، ولا ينبغي أن يحملنا ، على أن نعتبر اقتتالهم وصراعهم البيني يمكن أن يكون مرضيا أو مقبولا من جانب الحق جل وعلا ، ولا على أن نعتبر أن هذه التصرفات يمكن أن تكون مصدرا للتشريع ، أو تعتبر شرعية وسليمة لا غبار عليها ، أو أن ندخلها كلها في إطار الاجتهاد ، مع وجود أدلة لا خفاء فيها تظهر غير ذلك . ولسنا مولعين بالحديث عما وقع بين أسلافنا للتشهير أو التندر ، لكن ما يجبرنا على طرق هذه القضايا هو احتجاج أكثر العلماء ببعض تصرفات الصحابة ، وتصرفات السلف ، وجعلهم

الخيارات الخاطئة مصدرا للتشريع في عصرنا .

وخلاصة القول أن شرخا حدث وظهر مباعدا بين موقف الطامعين في السلطة الذين تمكنوا من اغتصابها ، ومعهم أتباعهم وأنصارهم ومنافقيهم في ناحية ، وبين من استنكروا الانحراف وقاوموه . ثم استمر الشرخ في الاتساع طوال القرون واتسعت الخلافات لتشمل كثيرا من جوانب الحياة المدنية وأكثر الناس ، عدا عن قضية الخلافة والسلطة والطغيان والظلم ، مما تحدثنا عنه ببعض التفصيل من مقولات أتباع الفرق والمذاهب المختلفة ، والطرق الصوفية ، وغير ذلك . وهكذا صار لدى الشعوب المسلمة تعدد في فهم الإسلام ، وفي تحديد ما هو الإسلام ، وما هي متطلبات الإسلام بالنسبة لكثير من القضايا وموجهات وضوابط السلوك عند المسلمين . وهكذا غيب «الإسلام القرآني الأصيل» في متاهات هذه الغابة وما فيها من أنفاق ومسارب متعددة تلفها العتمة ، ويلفها الضباب أحيانا فيضيق أفق الرؤية ويحجبه . ونتيجة لذلك رأينا الكثيرين ممن يعادون التوجه إلى الإسلام ، ويعارضون اتخاذه مدخلا وركيزة للإصلاح ، يسارعون بطرح سؤال في صيغة تحد : «عن أي إسلام تتحدثون ، وأي إسلام تريدون؟» وهذا يعني ضمنا أن لفظة «الإسلام» ليس لها مدلول واحد جامع مانع . وهذا التنوع الكبير في صورة «الإسلام» لا يدخل من باب «أنه رحمة» ، بل إنه هو التضييع ، تضييع الأصل في زحام الكثرة غير الأصيلة ، والملفقة .

ابن كثير مثالا وأنموذجا للعلماء:

وقبل أن ننهي حديثنا عن شريحة العلماء ودور العلماء ، نستعرض فيما يلي أمثلة من الحيرة التي وقع فيها واحد من مشاهير العلماء ، وهو أبو الفدا إسماعيل بن كثير ، نتيجة لما تشربه من شطط الدعاية السياسية التي تحدثنا عنها ، ومن أثر الشتات الفكري والانشقاقات التي أصابت العقل المسلم . ويعتبر ابن كثير مثلا لكثيرين من العلماء الذين سبقوه ، ولمن أتوا بعده بالنسبة لتأثره أو مجاراته للدعاية السياسية ، والأموية منها خاصة ، ولما كان لها من أثر متصل ومتتابع على فكر ورؤية أجيال من العلماء والفقهاء والمشايخ . وسنعتمد في عرض «حالته الفكرية» على نصوص من كتاباته في مجموعته التاريخية «**البداية والنهاية**» :

قال ابن كثير :

* في أخبار سنة **٣٠** هـ : في هذه السنة وقع بين معاوية وأبي ذر بالشام [تنافر وخصومة] لأن أبا ذر أنكر على معاوية «بعض الأمور .» هنا تجنب أبن كثير ذكر تلك الـ «بعض الأمور» التي أنكرها أبو ذر على معاوية ؛ ثم انتقل ابن كثير إلى موضوع آخر : أن أبا ذر أنكر على من كانوا يقتنون المال من الأغنياء وذهب إلى أن عليهم أن يتصدقوا بما زاد عن حاجتهم .

[انتهى المقتبس من ابن كثير نصا ومعنى ، البداية ، ج ٧ ، ص ١٢٦] .

وهذه التهمة لأبي ذر مشكوك فيها لأن أبا ذر عاشر كثيرا من الصحابة الأغنياء سنين طويلة ، قبل الهجرة وبعد الهجرة ، وقبل فتح مكة وبعده ، ولم يعرف عنه مثل هذا الإنكار . ويمكن أن نستدل من رواية للطبري أن انتقاد أبي ذر كان يتعلق بسوء تصرف معاوية بالمال العام .

* سنة **٣٣**هـ : «سير أمير المؤمنين [عثمان بن عفان رضي الله عنه] جماعة من قراء [علماء [(١)]] أهل الكوفة إلى الشام ؛ وكان سبب ذلك أنهم **تكلموا بكلام قبيح في مجلس سعيد بن العاص**» ، فكتب إلى عثمان في أمرهم . وعند وصولهم إلى الشام أكرمهم معاوية ، ثم جاءهم بعد أيام ليناقشهم فيما نسب إليهم ، «**فأجابه متكلمهم والمترجم عنهم بكلام فيه بشاعة وشناعة** ، فاحتملهم معاوية **لحلمه** ، وأخذ في مدح قريش ، وكانوا قد نالوا منهم ، وافتخر معاوية بوالده وشرفه في قومه ، وقال فيما قال : وأظن أن أبا سفيان لو ولد الناس كلهم لم يلد إلا حازما . فقال له صعصعة بن صوحان : كذبت ، قد ولد الناس كلهم من هو خير من أبي سفيان ، ممن خلق الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا له ، فكان فيهم البر والفاجر ، والأحمق والكيس .

ثم بذل لهم معاوية النصح فإذا **هم يتمادون في غيهم ، ويستمرون على جهالتهم وحماقتهم** . فعند ذلك أخرجهم معاوية من بلده ، ونفاهم عن الشام لئلا يشوشوا عقول الطغام ؛ وذلك أنه كان يشتمل في مطاوت [مطاوي] كلامهم على القدح في قريش كونهم فرطوا وضيعوا ما يجب عليهم من القيام فيه ، نصرة الدين

---

(١) كلمة « القراء» كانت تطلق في تلك الفترة المبكرة على من يستطيعون قراءة القرآن في وسط غلبت عليه الأمية ، فهم «العلماء» بين مجموع الأمة الأمية ، أمة الأميين .

وقمع المفسدين . [إبن كثيرج٧ ، ص ١٣٤] . وواضح هنا في نص ابن كثير أنه متحمس في الدفاع عن معاوية ، ومتحمس بدرجة أكبر في التهجم على العلماء وإهانتهم ؛ هذا فضلا عن أنه أورد روايات غير صحيحة عن أن معاوية عاقبهم بالنفي إلى حمص تحت الإهانة والرقابة ، وغير ذلك . وقد كنت ناقشت هذا الموضوع فيما سبق من هذا الكتاب ، وبينت أن معاوية لم يكن يدافع عن قريش أو يفتخر بها ، بل كان يدافع عن العشيرة الأموية ، ويفخر بأبيه وجده ، وينسب إلى قريش أنها هي التي رفعت من شأن العرب ، وليس الإسلام ودعوته وحركته .

* وضمن روايته أخبار سنة ٣٥هـ : « . . . وكره أهل مصر عبدالله بن سعد بن أبي سرح بعد عمرو بن العاص ، **واشتغل عبدالله عنهم بقتال أهل المغرب ، وفتحه بلاد البربر ، والأندلس ، وأفريقيا** . ونشأ بمصر طائفة من أبناء الصحابة يؤلبون الناس على حربه والإنكار عليه (١) . . . »

* وضمن سرد أخبار سنة ٣٥هـ : تعرض ابن كثير لحادثة قيام مروان بن الحكم بتزوير خطاب بإسم أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه ، فنفى التهمة عن مروان ؛ ونسب تهمة التزوير إلى المعارضة التي قامت – حسب بعض الروايات التي نقلها – بتزوير خطابات على لسان الصحابة ، وأضاف بعد ذلك مباشرة ، «**وهكذا زور هذا الكتاب على عثمان أيضا ، فإنه لم يأمر به ولم يعلم به أيضا** .» لقد اجتهد ابن كثير بشكل واضح في استخدام هذه الصياغة لتأتي تبرئة مروان ملفوفة في ظل تبرئة أمير المؤمنين عثمان ، رضي الله عنه . وعثمان رضي الله عنه بريئ مما نسب إليه في الخطاب المزور ؛ وقد نفى علمه به أو أنه أمر بكتابته ، ولم يشك الصحابة في صدقه ، بيد أنهم وجهوا التهمة إلى مروان . وعندما روى ابن كثير الحادثة خلط الأمور بشكل ينفي التهمة عن مروان بن الحكم ، بقوله إن تزوير الكتاب تم ضمن موجة واسعة من التزوير قامت بها المعارضة . [ج ٧ ، ١٤١ ، وانظر ص ١٤٠] . بيد أن ابن كثير ناقض نفسه بالنسبة لهذه النقطة ، وعاد فاعترف بشكل واضح ومباشر بحقيقة أن مروان بن الحكم هو الذي زور الكتاب باسم أمير المؤمنين عثمان ، وأنه ختمه بخاتم أمير المؤمنين ، وعثمان لم يعلم ولم يأمر ولم يوافق عليه .

---

(١) إبن كثير ، ***البداية*** ، ج٧ ، ص ١٣٨ ؛ ونسبة فتح الأندلس لابن أبي سرح غير صحيحة ، ويؤخذ على ابن كقير أنه نقلها .

* وضمن روايته للتطورات التي أدت إلى قتل أمير المؤمنين عثمان ﵁ قال ابن كثير :

« وقد ذكر ابن جرير في تاريخه بأسانيده أن المصريين لما وجدوا ذلك الكتاب مع البريد إلى أمير مصر ، فيه الأمر بقتل بعضهم ، وصلب بعضهم ، وبقطع أيدي بعضهم وأرجلهم ، وكان قد كتبه مروان بن الحكم على لسان عثمان متأولا قوله تعالى : ﴿إنما جزاء الذي يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ، ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم .﴾ ، وعنده أن هؤلاء الذين خرجوا على أمير المؤمنين عثمان ﵁ من جملة المفسدين في الأرض ، ولا شك أنهم كذلك ، **لكن لم يكن له أن يفتات على عثمان ويكتب على لسانه بغير علمه ، ويزور خطه وخاتمه ، ويبعث غلامه على بعيره ، بعدما وقع الصلح بين عثمان وبين المصريين ، على تأمير محمد بن أبي بكر على مصر ، بخلاف ذلك كله . ولهذا لما وجدوا هذا الكتاب ، بخلاف ما وقع الاتفاق عليه ، وظنوا أنه من عثمان ، أعظموا ذلك ، مع ما هم مشتملون عليه من الشر ، فرجعوا إلى المدينة فطافوا به على رؤوس الصحابة ، وأعانهم على ذلك قوم آخرون ، حتى ظن بعض الصحابة أن هذا من أمر عثمان** ﵁ . فلما قيل لعثمان ﵁ في أمر هذا الكتاب بحضرة جماعة من أعيان الصحابة وجمهور المصريين حلف بالله العظيم ، وهو الصادق البار الراشد ، أنه لم يكتب هذا الكتاب ولا أملاه على من كتبه ولا علم به . وقالوا له : فإن عليه خاتمك ؛ فقال : إن الرجل قد يزور على خطه وخاتمه . . . الخ . [إبن كثير ، البداية ، ج٧ . ص ١٥١ – أحداث سنة ٣٥هـ] .

وهذا النص الذي كتبه ابن كثير وصدره بعبارة «وقد ذكر ابن جرير في تاريخه بأسانيده» هو من إنشاء ابن كثير نفسه ، لم ينقله نصا عن ابن جرير (محمد بن جرير الطبري) ؛ لقد لخص ابن كثير في أربعة أسطر مجمل الروايات التي أوردها الطبري ، ولم يقف عند ذلك ، بل ساق آية قرآنية ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله . . .﴾ . وهذه الآية لم يوردها الطبري قط ، وقد راجعت جميع الروايات التي نقلها الطبري فلم أجد فيها هذه الآية . واستخدام هذه الآية على هذا النحو يقصد به تخفيف جريمة مروان بجعلها اجتهادا بتأويل نص قرآني . لكنه لا يلبث أن أن يقر بالحقيقة عندما قال إن مروان « لم يكن له أن يفتات على عثمان . . .» لقد صب ابن كثير غضبه على

المعارضين ، لكنه لم يقس على مروان بالقدر الذي تستحقه جريمته .

* ويعود بن كثير مرة ثانية للإقرار بأن مروان هو الذي زور الخطاب ، وذلك في ترجمته لمروان بمناسبة وفاته سنة ٦٥هـ . فبعد أن مدح مروان بألفاظ كبيرة ، وزعم أنه صحابي [توفي رسول الله ﷺ وعمر مروان ثماني سنوات] أضاف ابن كثير : «**وقد كان عثمان بن عفان يكرمه ويعظمه ، وكان كاتب الحكم بين يديه ، ومن تحت رأسه جرت قضية الدار ، وبسببه حصر عثمان فيها ؛ وألح عليه أولئك [المعارضون] أن يسلم مروان إليهم فامتنع عثمان أشد الامتناع ، وقد قاتل مروان يوم الدار قتالا شديدا ، وقتل بعض الخوارج [يقصد المعارضين] ، وكان على رأس الميسرة يوم الجمل ، ويقال إنه رمى طلحة بسهم في ركبته فقتله ، والله أعلم** .» وفي هذه العبارات كلها يشعر القارئ بأن ابن كثير حريص على أن يعلي من شأن مروان . [ج ٨ ، ٢١٧-٢١٨ .] .

وعاد ابن كثير مرة ثالثة ليقر بأن مروان هو المزور فقال : «**ومروان كان أكبر الأسباب في حصار عثمان ، لأنه زور على لسانه كتابا إلى مصر بقتل أولئك الوفد**» [إبن كثير ، ج ٨ ، ص ٢١٩] .

* وتحدث ابن كثير عن معاوية فقال : «ثم كان ما كان بينه وبين علي بعد قتل عثمان على سبيل الاجتهاد والرأي ، فجرى بينهما قتال عظيم كما قدمنا . وكان الحق والصواب مع علي ؛ **ومعاوية معذور عند جمهور العلماء سلفا وخلفا . وقد شهدت الأحاديث الصحيحة بالإسلام للفريقين** ، أهل العراق وأهل الشام ؛ كما ثبت في الحديث الصحيح : «تمرق مارقة على خير فرقة من المسلمين ، فيقتلها أدنى الطائفتين إلى الحق ، فكانت المارقة الخوارج ، وقتلهم علي وأصحابه . ثم قتل علي فاستقل معاوية بالأمر سنة إحدى وأربعين . . .» [إبن كثير ، ٨ ، ١١٠] .

وهنا نلاحظ أن ابن كثير نسي ما كان كتبه في روايته لأحداث سنة ٣٧هـ عن تحديد الجهة الباغية ، حيث قال : «وهذا مقتل عمار بن ياسر رضي الله عنه مع أمير المؤمنين علي . . . قتله أهل الشام ، وبان وظهر بذلك سر ما أخبر به الرسول ﷺ من أنه تقتله الفئة الباغية ؛ وبان بذلك أن عليا محق ، وأن معاوية باغ ، وما في ذلك من دلائل النبوة . . .»[ابن كثير ، البداية ، ج٧ ، ص ٢١٧] .

لقد نسي ابن كثير قوله الأخير هذا ، وعاد إلى دفاعه عن العاطفي عن معاوية ، وحل المشكلة ، هو ومن وصفهم بأنهم «**جمهور العلماء سلفا وخلفا**» ، فقال :

وقالوا : «**معاوية معذور عند جمهور العلماء سلفا وخلفا**» ، بغض النظر عن عشرات الآف الضحايا من المسلمين! وكيف صار معاوية معذورا ، لأن الأحاديث الصحيحة – من وجهة نظره – قد شهدت للفريقين . أما أن عليا كان الخليفة الشرعي عندما رفع معاوية في وجهه السلاح وجمع الجيوش لقتاله وقاتله بالفعل ، وقتل من المسلمين ذلك العدد الضخم بأيدي بعضهم بعض لمجرد أن معاوية اجتهد ، ولم يتحرك بدافع الطمع ، ولم يخطط ويدبر . أما عندما بعث معاوية جيشا لمعاقبة أهل المدينة ، غداة توليه الخلافة بعد انتهاء الصراع ، فقد حاول ابن كثير أن يشكك بالخبر دون أن يقدم أي دليل . بل لقد نفى ابن كثير رواية لأنها تعني ضمنا أن عليا ذم معاوية وأباه صخر بن حرب (أبو سفيان) ، وقال عنهما **إنهما كانا من المؤلفة قلوبهم بعد فتح مكة** ، ولم يدخلا الإسلام بصدق وإخلاص ؛ هذا مع أن الحافظ الذهبي ، وهو شيخ ابن كثير وأستاذه أكد أن معاوية كان من المؤلفة قلوبهم . . . ، ومع أن ابن كثير نفسه أورد أن عليا كان يدعو على معاوية في دعاء القنوت صلاة الفجر . واللغز المتعسر على الفهم هنا : كيف يحاربه بهذا الحجم من الحرب ، وفي نفس الوقت يمتنع عن وصفه «بأنه من المؤلفة قلوبهم»؟ حسب فهم ابن كثير؟ وإذا كان إعلان معاوية الحرب بدعوى المطالبة بدم عثمان ﷺ عد «في إطار الاجتهاد» ، فماذا عن جهود وإجراءات معاوية لتنصيب ابنه في منصب الخلافة ، مع أن ابن كثير نفسه اعتبر يزيد بن معاوية «**فاسقا**» ، وإن كان قد نفى عنه الزندقة ، أي إعلان الكفر الصريح؟ هل كان معاوية **مجتهدا يبحث عن الخيار الأفضل للأمة؟ أم أنه فعل كل ذلك من أجل ابنه ، ومن أجل حفظ منصب الخلافة لسلالته؟**

وقد ذكر ابن كثير – مع ذلك – أن **أبا مسلم الخولاني وجماعته قالوا لمعاوية : «أنت تنازع عليا؟ أأنت مثله؟ فقال : والله إني لأعلم أنه خير مني . . . ألستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوما ، وأنا ابن عمه ، وأنا أطلب بدمه ، وأمره إلي؟ فقولوا له : فليسلم إلي قتلة عثمان وأنا أسلم له أمره . فأتوا عليا ، فكلموه في ذلك ، فلم يدفع لهم أحدا . فعند ذلك صمم أهل الشام على القتال** . . .» [كثير/٨/١١٢] .

هذه الرواية ، بالصياغة التي ساقها ابن كثير وتبناها تعني ضمنيا **أن معاوية قدم طلبا معقولا وصحيحا لكن عليا لم يرد عليه بما كان ينبغي أن يرد ، ونتيجة لذلك فقد صمم أهل الشام على القتال** . هنا نجد ابن كثير يناصر الموقف

الأموي ، سواء كان ذلك عن وعي وإدراك ، أو عن غير وعي وقصد ، وكلاهما محتمل ، كما أنه أدخل عنصر التحزب القطري الإقليمي «صمم أهل الشام على القتال .»

والرواية تعني ضمنا أيضا ، أن أبا مسلم الخولاني ومن معه قبلوا قول معاوية وعادوا إلى علي ليدفع لهم قتلة عثمان ، ليقوموا بتسليمهم إلى معاوية ، فيسلم معاوية لعلي بمنصب الخلافة ، وبذلك تنتهي المشكلة ؛ وصياغة الخبر بهذه الطريقة تنحي باللائمة على الخليفة علي بن أبي طالب وتحمله المسئولية عن عدم الوصول إلى صلح . هل كان الأمر كذلك؟ فإن لم يكن كذلك ، فأين الخطأ والخلل؟

عندما طالب معاوية بأن يسلم علي له قتلة عثمان كان أبو مسلم الخولاني ومن معه يعرفون أن الذين اشتركوا في قتل عثمان قتل اثنان منهم في دار عثمان قبل أن يبرحوها ، كما مر معنا ؛ وأن محمدا بن أبي بكر – المتهم بالتحريض – قد قتله أنصار معاوية في مصر وأحرقوا جثته . كذلك فقد كان الخولاني ورفاقه يعرفون أن ستمائة ممن وصفوا بأنهم قتلة عثمان قتلوا في البصرة قبل وقعة الجمل ، وأن بضعة آلاف آخرين قتلوا في موقعة الجمل ، وأن أولئك الذين قتلوا في البصرة قبل وبعد الجمل كانوا من معارضي السيطرة الأموية ولم يشاركوا بقتل عثمان فعليا ؛ لقد شارك بعضهم في الذهاب إلى المدينة للتعبير عن عدم رضاهم وليطلبوا تغيير الولاة المشكو منهم . والذي كان متوقعا من الخولاني ومن معه أن يسألوا معاوية : من هم قتلة عثمان؟ وأن يقولوا له إن قاتلي عثمان قتلا بعد أن ارتكبا الجريمة بمدة لا تزيد عن ساعة . لكن هذه الرواية الأموية لم تكمل لنا النقاش الذي جرى مع معاوية . وقد تكون الرواية كلها مما صاغه جهاز الدعاية الأموي ، وأن لا صلة لها بالواقع .

ومن ناحية أخرى فإن ابن كثير نفسه كان يعرف كل هذه الأخبار ، لأنه قرأ ما كتبه المؤرخون قبله ونقل منه الكثير ، وزاد عليه زيادات لم تكن كلها مبرأة من العاطفة والانحياز السافر للأمويين ، ومن حذف بعض المعلومات أو تجاهلها أحيانا . كما أن ابن كثير نقل لنا قول سفيان بن عيينة : «**ما كانت في علي خصلة تقصر به عن الخلافة ، ولم يكن في معاوية خصلة ينازع بها عليا** [على الخلافة] . ونقل عن شريك القاضي قوله عندما وصف أمامه معاوية بالحلم : «**ليس بحليم من سفه الحق وقاتل عليا** .» [ابن كثير ، ٨ ، ١١٣] . وكان ابن كثير يعرف آراء مشاهير العلماء في تصرف معاوية ؛ فقد نقل لنا قول الإمام أحمد بن حنبل : «**لم يكن أحد**

أحق بالخلافة زمن علي من علي ؛ ورحم الله معاوية» ؛ بالإضافة إلى ما أوردناه لتونا مما قاله أبو مسلم الخولاني لمعاوية «أأنت تنازع عليا؟ أأنت مثله؟» . بل إن ابن كثير نفسه عندما بدأ حديثه عن حكم معاوية بدأه بعنوان : «**معاوية بن أبي سفيان وملكه**» ؛ ثم ساق حديثا : «الخلافة بعدي ثلاثون سنة ، وبعد ذلك ملك عضوض .» – مما يعني أن ابن كثير لم يكن مؤمنا بأن معاوية كان خليفة لأنه أول من أدخل «الملك العضوض .» [انظر ابن كثير ، البداية ، م ١٣ ، ص ١٧٥-١٧٩] .

* وفي ترجمة ابن كثير ليزيد بمناسبة وفاته ، ضمن أحداث سنة ٦٤هـ ، نقل عن الطبراني : «كان يزيد في حداثته صاحب شراب ، يأخذ مأخذ الأحداث ، فأحس معاوية بذلك ، فأحب أن يعظه برفق ، فقال له : **يا بني ، ما أقدرك** أن تصل إلى حاجتك من غير تهتك يذهب بمروءتك وقدرك ، ويشمت بك عدوك ويسيء إلى صديقك . ثم قال : يا بني ، إني منشدك أبياتا فتأدب بها واحفظها :

أنصب نهارا في طلاب العلا
واصبر على هجر الحبيب القريب
حتى إذا الليل أتي بالدجى
واكتحلت بالغمض عن الرقيب
فباشر الليل بما تشتهي
فإنما الليل نهار الأريب
كم فاسق تحسبه ناسكا
قد باشر الليل بأمر عجيب
غطى عليه الليل أستاره
فبات في أمن وعيش خصيب
ولذة الأحمق مكشوفة
يسعى بها كل عدو مريب

قلت [والقول هنا لابن كثير وليس لي] : وهذا كما جاء في الحديث : «من ابتلي بشئ من هذه القاذورات فليستتر بستر الله عز وجل [1] .»

---

(١) الطبراني ، *صحيح الجامع* ، ص ١٤٩ ، ابن كثير ، *البداية والنهاية* ، ج ٨ ، ص ١٩٤ .

وهكذا نجد ابن كثير لا يكتفي بالسكوت وعدم استنكار فعلة معاوية لتشجيعه ابنه - الذي جعله ولي عهد الخلافة - على ممارسة السلوك المشين ، ويعلمه كيف يسلك سبيل المنافقين الذين يمارسون كل الجرائم في العتمة ثم يظهرون بزي النساك والمتقين نهارا - بل إن إبن كثير يؤيد معاوية باستحسان نصحه لابنه ، ويتبرع باستحضار نص حديث يخرجه من سياقه الزماني والمكاني ، ومن الحالة الخاصة التي قيل فيها ، يؤيد به ما فعله معاوية .

هل كان هذا التوجيه الذي قدمه معاوية لابنه هو المنتظر من «خليفة» أعد ابنه لتولي الخلافة من بعده وفرضه على المسلمين بقوة السيف والتهديد والإغراء بالمال والمناصب؟ أوليس هذا تشجيعا ليزيد على الإستمرار في سلوكه ، ومساعدته بإرشاده إلى أسلوب يستره ويبعد عنه الفضيحة ، وما يمكن أن يحمل الناس على معارضة خلافته؟ وإذا كان التوجيه بالتستر للمنحرفين الأفراد العاديين ، الذين لا يقبلون النصح ولا يرتدعون يهدف إلى تخفيف الأذى الذي ينال المجتمع من التعود على رؤية الفساد ، فهل هو التوجيه المناسب ليزيد الذي كان على وشك تولي منصب الخلافة؟ وهل كان ابن كثير جاهلا بهذه المعاني عندما سمح لنفسه بأن يدرج هذا الكلام في سياق مدحه لحكمة معاوية لإتيانه بهذه «الفضيلة « : تعليم ابنه ، الخليفة المنتظر ، اختيار سلوك طريق النفاق؟ ثم لا يكتفي بذلك ، بل يؤيده باستدعاء حديث نبوي يستخدمه استخداما سيئا لتأييد عمل معاوية ، وتبييض صورته وصورة ابنه .

* وبمجرد أن تولى يزيد الخلافة كتب أمرا إلى والي المدينة ، الوليد بن عتبة ، وهو ابن عمه : «أما بعد ، فخذ حسينا وعبدالله بن عمر ، وعبدالله بن الزبير بالبيعة أخذا شديدا ليست فيه رخصة حتى يبايعوا . . .» وقد استشار الوليد قريبه مروان بن الحكم ، فقال له مروان : أرى أن تدعوهم إلى البيعة قبل أن يعلموا بموت معاوية ، فإن أبوا ضربت أعناقهم . لكن الوالي لم يأخذ بنصيحة مروان . وقد اختار ابن الزبير الاحتماء بحرمة مكة والبيت الحرام ، وغادر الحسين المدينة وتوجه إلى الكوفة ، كما مر معنا ؛ وكلف يزيد عبيد الله بن زياد بجلب الحسين ، وتم قتله على النحو الذي ذكرنا في غير هذا المكان . وبشأن تلك المذبحة علق ابن كثير بما يلي :

وقد تأول عليه من قتله أنه جاء ليفرق كلمة المسلمين بعد اجتماعها ،

وليخلع من بايعه الناس واجتمعوا عليه[١] .»

هنا أيضا نجد ابن كثير يحاول تبرئة يزيد ، وتحويل التهمة إلى الحسين بن علي ، وإن بشكل غير مباشر!

* وبالمثل فقد حاول ابن كثير أن يبيض صفحة يزيد ويغسل يديه من دماء مئات الصحابة الذين قتلوا في المدينة ، ومئات النساء اللاتي اغتصبن وحبلن ، فقال : «وأما ما يذكره بعض الناس من أن يزيد لما بلغه خبر أهل المدينة وما جرى عليهم عند الحرة ، من مسلم بن عقبة وجيشه ، فرح بذلك فرحا شديدا . **فإنه كان يرى أنه الإمام ، وقد خرجوا عن طاعته ، وأمروا عليهم غيره ، فله قتالهم حتى يرجعوا إلى الطاعة ولزوم الجماعة** ، كما أنذرهم بذلك على لسان النعمان بن بشير ومسلم بن عقبة . . . **وقد جاء في الصحيح : «من جاءكم وأمركم جميع يريد أن يفرق بينكم فاقتلوه كائنا من كان .»**

هنا أيضا يتبرع ابن كثير باستدعاء حديث نبوي ، ليؤيد به عمل يزيد بن معاوية فيغسل يديه من الجريمة ، ويحول مسئوليتها على الضحايا! وهنا لا بد للقارئ أن يتساءل :

ولماذا لم يطبق ابن كثير هذه القاعدة على ما قام به معاوية ضد الخليفة علي بن أبي طالب من محاربته ، مع الفارق الكبير بين شرعية خلافة علي ، وعدم شرعية خلافة يزيد التي وصل إليها بالتهديد والوعيد والإغراء والمال؟

* وفي ترجمته ليزيد ضمن أخبار سنة ٦٤هـ بمناسبة وفاته ، قال ابن كثير :

وقد كان يزيد فيه خصال محمودة من الكرم والحلم والفصاحة والشعر والشجاعة وحسن الرأي في الملك ، وكان ذا جمال ، حسن المعاشرة .

وكان فيه أيضا إقبال على الشهواتِ ، **وترك بعض الصلوات في بعض الأوقات ، وإماتتها في غالب الأوقات . . .**

> «وقد روي أن يزيد كان قد اشتهر بالمعازف وشرب الخمر والغناء والصيد واتخاذ الغلمان والقيان ، والكلاب ، والنطاح بين الكباش ، والدبادب ، والقرود ؛ وما من يوم إلا يصبح فيه مخمورا . وكان يشد القرد على فرس

---

(١) ابن كثير ، ***البداية والنهاية*** ، ج ٨ ، ص ١٧٢

مسرجة بحبال ويسوق به ، ويلبس القرد قلانس [أغطية الرأس التي يلبسها الرجال] . . .»

[ثم أضاف] ، قلت : يزيد بن معاوية أكثر ما نقم عليه في عمله شرب الخمر وإتيان بعض الفواحش . . . فأما قتل الحسين . . . فـ [قد] قدمنا أنه قال : لو كنت لم أفعل ما فعله ابن مرجانة [أي عبيدالله بن زياد] ؛ وقال للرسل الذين جاءوا برأسه [رأس الحسين] : قد كان يكفيكم من الطاعة دون هذا ؛ ولم يعطهم شيئا ؛ **وأكرم آل بيت الحسين ، ورد عليهم جميع ما فقد لهم وأضعافه** [هل أعاد لهم من قتلوا؟] ، **وردهم** [إلى المدينة] **في محامل وأهبة عظيمة . وقد ناح أهله في منزله على الحسين حين كان أهل الحسين عندهم ثلاثة أيام ، وهذا خلاف ما ذكره الروافض عنه من أنه شمت بهم واستشفى بقتلهم . وقيل إن يزيد فرح بقتل الحسين أول ما بلغه ، ثم ندم . . . وحسنت بذلك منزلة ابن زياد عنده ؛ ثم لم يلبث قليلا حتى ندم** [وقال] **: لعن الله ابن مرجانة ، فإنه أحرجه** [أحرج الحسين] **واضطره . . . وقتله ، فبغضني بقتله إلى المسلمين ، وزرع في قلوبهم العداوة والبغضاء** [1] . . .»

هنا أيضا نجد ابن كثير يتهاوى تحت وطأة تناقض عواطفه ، فهو مسلم يحاول – أحيانا فقط – أن يكون متوازنا ، ينقل الرواية كما ينقل الأخرى المناقضة ، أو المغايرة لها ، بيد أنه لا يستطيع الاستمرار في المقاومة فتجتاحه عاطفة تعصبه للأمويين ويحاول تبرئة يزيد ، وتحويل التهمة إلى أدواته ، أي إلى ابن زياد ، ولم ينس أن ينوه بإحسان يزيد وكرمه ، وكيف أنه رد على آل الحسين جميع ما أخذ منهم وزيادة . . . الخ . ولم يلاحظ ابن كثير أن يزيد بن معاوية لم يعزل عبيدالله بن زياد ، ولم يقلص من سلطاته التي خولته إشاعة الرعب وسفك الدماء ، بل أبقاه في منصبه على حاله ، مما يعني أن ذلك الندم كان مجرد نفاق للتنصل من الجريمة أمام جمهور المسلمين .

وكانت خاتمة حديث ابن كثير عن يزيد بن معاوية رواية منسوبة إلى قاضي

(١) ابن كثير ، ***البداية والنهاية*** ، ج ٨ ، ص ١٩٦ – ٢٠٠ .

البحرين ، ونصها : «رأيت يزيد بن معاوية في النوم فقلت له : **هل غفر الله لك؟** قال : **نعم ، وأدخلني الجنة** .» وكانت دلالة الأحلام عند ابن كثير وجيله ومن سبقهم ولحقهم تساق وكأنها دليل إثبات قطعي .

والخلاصة : أن دراسة ابن كثير من خلال ما كتب تبين أنه جمع عواطف متضادة ، من حب الإسلام والغيرة عليه ، وحب للأمويين وتحمس مسرف لمناصرتهم وتلميع صورتهم ، وتغييب للحقيقة فيما يرويه أحيانا ، والتنبه في أحيان أخرى وإعلان الحقيقة واضحة بالنسبة لحادثة معينة . وقد ورد آخر ما كتبه عن الأمويين بعد روايته لأحداث سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨م ، في الجزء الثالث عشر من تاريخه البداية والنهاية ، قال : « . . . فكان أول ملوك الإسلام . . . معاوية بن أبي سفيان . . . «وقد ذم ابن كثير خلفاء بني أمية جميعا ، لم يستثن منهم إلا عمر بن عبدالعزيز ، حيث قال عنهم :

«وكلهم قد كان ناصبيا

إلا الإمام عمر التقيا»[١] .

وابن كثير يمثل عددا غير قليل من العلماء ، لعلهم يشكلون أغلبيتهم ، فكروا كما فكر ، وسلكوا السبيل الذي سلكه ، بعده أو قبله ، ويمكن اعتبارهم الطبقة الوسطى من العلماء ، لا العليا السامقة في تقواها وحذرها ، ولا الدنيا الفاسدة بشكل مطلق .

وآخرون أدنى منزلة:

ولا مراء في أن هناك عددا غير قليل من المنسوبين إلى العلم والفقه ، ممن انحرفوا انحرافات ظاهرة حتى بلغوا حد الإسراف . وهذا الصنف لا يمكن أن أشبههم بابن كثير ، لأنهم لا يساوونه ولا يرتفعون إلى منزلته ، لأن سلوكهم يدل على عدم حرصهم على الالتزام بمثل الإسلام . ومن هؤلاء من ذكرهم ابن كثير نفسه ، ونوه ببعض أفعالهم المشينة . فعند حديثه عن «الخليفة» الأموي يزيد بن عبدالملك بن مروان ، الذي تولى المنصب بعد وفاة عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه ، ذكر ابن كثير أن يزيد هذا أراد في بداية أيامه أن يواصل سيرة عمر بن عبدالعزيز ، فجاء له أقاربه الأمويون بأربعين شيخا أفتوه بأن الخلفاء ليس عليهم حساب ولا عقاب مهما فعلوا .

---

(١) ابن كثير ، ***البداية والنهاية*** ، ج ١٣ ، ص ١٧٥ و١٧٩ .

ومن الأمثلة التي ذكرها ابن كثير أيضا القاضي الحسين بن أبي الشوارب ، الذي سلك مسلك الوزراء والكتاب المنحرفين ، حيث تقدم لمعز الدولة ابن بويه بعرض يدفع له بموجبه مئتي ألف درهم سنويا لكي يضمنه القضاء - ضمان مثل ضمان السوق - فقبل معز الدولة العرض ، وخلع على ابن أبي الشوارب ، وولاه القضاء ، مع ما صاحب إعلان الولاية من المظاهر الاحتفالية : «وسار معه الدبابات [نوع من الطبول] والبوقات إلى منزله ؛ وهو أول من ضمن القضاء ورشى عليه . . .» وفي سياق سياسة معز الدولة المتسمة بالجشع ، لجمع أكبر كمية من المال أداة للقوة والسلطة ، فقد باع ضمان عمل الشرطة ، كما ضمن وظيفة المحتسب [(١)] ، ووظيفة المحتسب يتولاها العلماء . وربما بدا لبعض الظرفاء أن يعتبروا هذه التصرفات نوعا من الخصخصة المبكرة .

وكان مما ذكره ابن كثير أيضا مثال عن تهافت «العلماء» المتنافسين المتصارعين على الوظائف والأموال ، حتى في أسوأ الظروف والمواقف تحت الاحتلال المغولي ، بعد أن أستولى هولاكو وجنده المغول على بلاد الشام سنة ٦٥٨هـ ، ومن هؤلاء «العلماء» الذين سماهم ابن كثير القاضي كمال الدين عمر بن بدار التفليسي ، والقاضي صدر الدين أحمد بن يحيى بن هبة الله بن سني الدولة . وقد نجح التفليسي في الحصول على تقليد [قرار تعيين] من هولاكو بولاية القضاء على جميع المدائن : الشام ، والجزيرة ، والموصل ، وماردين ، والأكراد ، وغير ذلك . وكان التفليسي قبل ذلك في منصب نائب الحكم [(٢)] بدمشق ، نائبا للقاضي ابن سني الدولة لفترة خمس سنوات قبل اجتياح المغول لبغداد ، ثم لبلاد الشام ؛ وعندما « . . . وصل التقليد في سادس عشرين من ربيع الأول [سنة ٦٥٨ هـ] قرئ بالميدان الأخضر ، فاستقل [التفليسي] بالحكم في دمشق . . . فسار القاضيان المعزولان : صدر بن سني الدولة ومحي الدين بن الزكي إلى خدمة هولاكو خان إلى حلب [لأن هولاكو كان آنذاك في حلب] ، فخدع [كذا] ابن الزكي لابن سني الدولة ، وبذل أموالا جزيلة [لهولاكو] ، وتولى القضاء بدمشق ، ورجعا ؛ فمات ابن سني الدولة ببعلبك ، وقدم ابن الزكي على القضاء ومعه تقليده وخلعة مذهبة ، فلبسها ، وجلس في خدمة (إبل

(١) ابن كثير ، ***البداية*** ، ج ١١ ، ص ٢٠٦ .

(٢) تعبير الحكم ، ونائب الحكم ، والحاكم ، كلها تشير إلى القضاء ، والمناصب القضائية .

سنان) [نائب هولاكو في دمشق] تحت قبة النسر ، عند الباب الكبير ، وبينهما الخاتون زوجة إبل سنان حاسرة عن وجهها ، وقرئ التقليد هناك ، والحالة كذلك . وحين ذكر اسم هولاكو نثر الذهب والفضة فوق رءوس الناس ؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون . فقبح الله ذلك القاضي والأمير والزوجة والسلطان [1] . . . وذكر أبو شامة أن ابن الزكي استحوذ على مدارس كثيرة في مدته هذه القصيرة ؛ فإنه عزل في رأس الحول ، فأخذ في هذه المدة العذراوية ، والسلطانية ، والفلكية ، والركنية ، والقيمرية ، والعزيزية ، مع المدرستين اللتين كانتا بيده . . . وأخذ لولده عيسى : تدريس الأمينية ، ومشيخة الشيوخ ، وأخذ أم صالح لبعض أصحابه ، وهو العماد المصري ، وأخذ الشامية البرانية لصاحب له ، واستناب أخاه لأمه شهاب الدين إسماعيل بن أسعد بن حبيش في القضاء وولاه الرواحية والشامية والبرانية [وهذه كلها أسماء مدارس ، أو كليات] ؛ قال أبو شامة : مع أن شرط واقفها أن لا يجمع بينها وبين غيرها . ولما رجعت دمشق وغيرها إلى المسلمين سعى في القضاء ، وبذل ليستمر فيه وفيما بيده من المدارس ، فلم يستمر ، بل عزل بالقاضي نجم الدين أبي بكر بن صدر الدين بني سني الدولة ، فقرئ توقيعه بالقضاء . . . [2]» [انتهى الاقتباس] .

إذن هذا التزاحم والسعار لم يكن من أجل المناصب القضائية وحدها ، بل كان من أجل السيطرة على المدارس وأوقافها وأموالها ؛ كل ذلك على الرغم من الظروف العامة الكارثية التي خيمت على العراق والشام ووضعتهما تحت الاحتلال المغولي ، ورغم المذابح والدماء والحرائق التي قام بها المغول تحت قيادة هولاكو ، فإن كل ذلك لم يمنع بعض من كانوا يعتبرون «من أكابر العلماء» من سلوك هذا السبيل المشين . والأمثلة لهذا النوع من «العلماء» كثيرة ، لكنني فضلت الاقتصار على هذه الأمثلة القليلة .

ومع ذلك فإنني أود ألا يفوتني التنبيه في هذا المقام على أن العلماء والفقهاء لم يكونوا كلهم ولا أكثرهم مثل ابن سني الدولة وأضرابه . لقد كان فيهم الكثيرون من الأتقياء الذي ارتفعوا عن هذه المغريات وأمثالها ، كما كان فيهم أناس متوسطو المنزلة بين هذين الحدين : التميز بالتقوى والخلق العالي من ناحية ، والإخلاد إلى الأرض والدناءة وخيانة ثقة الأمة من ناحية أخرى .

---

(١) ابن كثير ، ***البداية*** ، ج ١٣ ، ص ١٨٩ .

(٢) ***المصدر نفسه*** ، والصفحة ذاتها .

ظهور الفرق والمدارس الفكرية:

لعل أول مدرسة ظهرت واشتهرت في مجال الفكر الإسلامي كانت مدرسة أهل الرأي ؛ وكان مركزها في العراق ؛ ومن أبرز ممثليها ومؤسسيها الإمام أبو حنيفة ، النعمان بن ثابت . وقد سماه محمد بن سعد – مؤلف الطبقات الكبرى – بـ«صاحب الرأي [١] .» وأبو حنيفة كوفي من أصل فارسي ؛ وفي الكوفة ظهرت مدرسته ، ثم انتشرت شهرتها في عالم الإسلام ، وقد توفي سنة ١٥٠هـ . ويبدو أن آراء هذه المدرسة ولدت ردود فعل حادة من جانب فقهاء التزموا حرفية النص ، نص القرآن أو نص السنة ، ووقفوا عنده ، واستنكروا على أصحاب الرأي طريقتهم ، وكان نقدهم عنيفا ، حيث نسبوهم إلى اتباع الهوى ، أي تنحية النص جانبا واتباع ما يرغبون عن طريق التحليل أو التحريم . وقد روي عن أحد رموز مدرسة النص أن رجلا راجعه في مسألة ، وظهر أن مراجعته كانت مستندة إلى موازنة عقلية ، فصاح به : «أعراقي أنت؟» وقد تطرف بعض منتسبي مدرسة النص فقالوا : «من تعرق فقد تزندق .»

ويبدو لي أن هذه المواجهات نتجت عن تسرع وحدة في الأحكام من جانب بعض ممثلي مدرسة النص ، خاصة فيما يتعلق باتهام أصحاب الرأي باتباع الهوى ؛ ذلك أن المؤمن الصادق الإيمان عندما يتبنى رأيا ، خاصة فيما يتعلق بالأحكام الإسلامية ، فإنه إنما يتبناه من رؤية كلية لمجموع النصوص الإسلامية ، ومن مجموع المبادئ الواضحة التي أنشأتها النصوص ، ومن خلال إدراكه لمقاصد الشريعة ، وليس من نص واحد بعينه . والحقيقة أن الرأي – بالمعنى الذي ذكرناه – كان اختيارا لنفر من كبار الصحابة ، حتى مع وجود النص : فهذا عمر بن الخطاب ﵁ يوقف تطبيق حد السرقة في عام الرمادة (عام المجاعة) ، مع وجود نص صريح لا جدال فيه . كما أنه أوقف صرف سهم المؤلفة قلوبهم ؛ مع وجود نص قرآني ، وسنة نبوية مشهورة لا خلاف على حدوثها ، مع قرب الفاصل الزمني بين عهد الفاروق وعهد رسول الله ﷺ . وبجانب ذلك فقد منع عمر تقسيم الأراضي المفتوحة بين المحاربين على أساس أنها غنائم ، وذلك رغم وجود نص صريح بشأن الغنائم .

لا يمكن أن يقال : إن عمر اتبع هواه ، مع أن كل تصرف من تصرفاته التي ذكرنا

(١) محمد بن سعد ، ***الطبقات الكبرى*** ، مجلد ٣ ، ص ٣٦٨ .

خالف نصا صريحا أو أكثر من نص واحد . لقد كان رأي عمر مشتقا من فهمه العام لمجمل نصوص الكتاب والسنة ، وثمرة لما تلقاه من تربية على يد رسول الله ﷺ ، ومن معرفته لمقاصد الشريعة . ويمكن اعتبار مدرستي الرأي ، والنص ، مقدمة لظهور السلفيين الأوائل (أهل النص أو أهل الحديث) ، **ومدرسة المعتزلة ، العقلانية . ومع ذلك فإننا لا نقول إن فرقة المعتزلة كانت امتدادا أو تطورا لمدرسة أهل الرأي ، وإن كانت بعض الظواهر تغري بمثل هذا القول ؛ بل نقول : إنها تأثرت باتساع حركة الترجمة ، وبالاحتكاك بأتباع الديانات الأخرى .**

لقد اتسعت حركة الترجمة من الكتب الفارسية واليونانية (الإغريقية) والسريانية والهندية ، منذ عهد الخليفة المأمون العباسي ، المتوفى سنة ٢١٨هـ ، وكان مما سهل ذلك تحول أعداد كبيرة من أبناء الثقافات الأخرى إلى الإسلام ، حيث حملوا معهم كثيرا من أفكار مجتمعاتهم السابقة وطرائق تفكيرهم تلقائيا ، لا عن تخطيط ونية في الغش . وقد دارت معارك فكرية كثيرة ، نتيجة للاحتكاك والعيش المشترك ، اضطر فيها المسلمون إلى محاربة الفكر المعادي ، أو الدخيل ، بأساليب أهله ، فتأثروا بأساليب التفكير الوافد أو المستعار . ولعل هذا القول ينطبق ، أكثر ما ينطبق ، على فرقة المعتزلة .

المعتزلة:

مع اختلاف الروايات عن بدء ظهور المعتزلة يبدو أن البصرة كانت الموطن الأول للحركة . وتذهب إحدى الروايات إلى أن الحسن البصري كان يدرس في مسجد البصرة ، واختلف معه أحد تلاميذه ، واصل بن عطاء ، حول مسألة مرتكب الكبيرة ، واعتزل واصل حلقة أستاذه نتيجة لذلك الخلاف ، فعلق الحسن البصري على ذلك بقوله : «إعتزلنا واصل» ، ومن هنا جاءت تسمية المعتزلة .

وقد تطور مذهب المعتزلة بين القرن الثالث والرابع للهجرة ، حيث اكتملت صورته فيما كتبه قاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد [الهمداني] ، خاصة كتابه المعنون : شرح الأصول الخمسة ، وهو كتاب ضخم يقع في ثمانمئة صفحة مطبوعا . والأصول التي بنى عليها المعتزلة مذهبهم هي :

١- التوحيد

٢- العدل

٣- الوعد والوعيد
٤- المنزلة بين المنزلتين
٥- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وهذه العناوين تبدو خالية من أي إشكال ، ولا تتضمن - كما تظهر لأول وهلة - أية دلالة خلافية . بيد أن مفهوم أصحابها لها وما طرحوه في شرحها يدخل في مضامينها أشياء كثيرة مما وقع الخلاف حوله .

مفهوم التوحيد:

« . . . هو العلم بأن الله تعالى واحد لا يشاركه غيره فيما يستحق من الصفات ، نفيا وإثباتا ، على الحد الذي يستحقه والإقرار به . ولا بد من اعتبار هذين الشرطين : العلم والإقرار جميعا ، لأنه لو علم ولم يقر ، أو أقر ولم يعلم ، لم يكن موحدا .»

«ما يلزم المكلف معرفته من علوم التوحيد هو : أن يعلم القديم[١] تعالى بما يستحق من الصفات في كل وقت ، وما يستحقه في وقت دون وقت ، ثم يعلم أن من هذا حاله لا بد أن يكون واحدا لا ثاني له يشاركه فيما يستحقه من الصفات نفيا وإثباتا على الحد الذي يستحقه[٢] .»

وحول الصفات دار الخلاف فكانت موضوعا رئيسيا للجدل والتكفير المتبادل[٣] .

تعريف العدل:

« . . . المراد به أن أفعاله كلها حسنة ، وأنه لا يفعل القبيح . . . وأنه لا يكذب في خبره ولا يجور في حكمه ، ولا يعذب أطفال المشركين بذنوب آبائهم ، ولا يظهر المعجزة على الكذابين . . .»

---

(١) لفظة القديم هنا تشير إلى الله سبحانه وتعالى .

(٢) قاضي القضاة عبدالجبار بن أحمد [الهمداني] ، ***شرح الأصول الخمسة*** ، ص ١٢٨-١٢٩ ، وانظر كذلك الصفحات ١٤٩-٢٩٨ .

(٣) إعتبر إمام الحرمين ، عبدالملك الجويني ، أن الركن الأعظم والخطب الأجل من [علم] الكلام ينحصر في الصفات ؛ وهي تحتوي على جمل أسرار التوحيد . . . أنظر كتابه الشامل في أصول الدين ، ص٦٠٩ .؟

وفي موضوع العدل أيضا اشتد الخلاف بين المعتزلة والسلفيين ، كما اشتد في موضوع التوحيد وما لحق به من موضوع الصفات .

تعريف الوعد والوعيد:

« . . . أما الوعد **فهو كل خبر يتضمن إيصال نفع إلى الغير أو دفع ضرر عنه في المستقبل . . . ألا ترى أنه ، كما يقال ، وعد المطيعين بالثواب** . . .»

« . . . وأما الوعيد **فهو كل خبر يتضمن إيصال ضرر إلى الغير ، أو تفويت نفع عنه في المستقبل** . . .»

«وأما المخالف في هذا الباب إما أن يخالف في أصل الوعد والعيد ، ويقول : إن الله لا وعد ولا توعد ؛ أو يقول : إنه تعالى وعد وتوعد ولكن يجوز أن يخلف وعيده ؛ فالكلام عليه أن يقال : إن الخلف في حق الله تعالى كذب لما تقدم ، والكذب قبيح ، والله تعالى لا يفعل القبيح . . . وإلى هذا أشار تعالى بقوله : ﴿ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد .﴾

تعريف المنزلة بين المنزلتين:

« . . . في اصطلاح المتكلمين . . . العلم بأن لصاحب الكبيرة اسم بين الإسمين ، وحكم بين الحكمين . . . وهذه المسألة تلقب بمسألة الأسماء والأحكام[1] . . .» أي أنه في نقطة وسط بين منازل الإيمان والكفر والنفاق . والأمر متعلق بالحكم على مرتكب الكبيرة : أهو مؤمن أم كافر ، أو منافق .»

وحول هذا الموضوع ثار الخلاف مع الحسن البصري والقاضي عبدالجبار :

وقد كتب القاضي عبدالجبار : أن الحسن البصري ذهب إلى أن مرتكب الكبيرة ليس مؤمنا ولا كافرا ، بل هو منافق ، وأن عمرو بن عبيد كان على رأي الحسن البصري ؛ لكن واصل بن عطاء قال : إنه ليس بمؤمن ولا بكافر ، ولا هو فاسق . وذكر أن مناظرة جرت بين واصل وعمرو ، فأقنع الأول الثاني ، فتنحى من حلقة الحسن البصري في المسجد ، واعتزل جانبا ، فسموه معتزليا ؛ وهذا أصل تلقيب أهل العدل

---

(١) القاضي عبدالجبار ، ***شرح الأصول الخمسة*** ، ص١٣٧-١٤١ ؛ وقارن مع الشهرستاني ، ***الملل والنحل*** ، ج ١ ، ص ٤٦ .

بالمعتزلة[١] . وهنالك اختلافات بسيطة حول دور واصل ودور عمرو بن عبيد في هذا الموضوع .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

« . . . لا خلاف على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ ولكن الخلاف في أن ذلك يعلم عقلا أو لا يعلم إلا سمعا . . . والذي يدل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من جهة السمع الكتاب والسنة والإجماع [٢] . . .»

ونحن لم نقصد في هذا العرض أكثر من أن نعطي لمحات سريعة تدخل القارئ في أجواء المشكلة ؛ ومن أراد التوسع فليقرأ مراجع كل فريق مما ذكرناه أو لم نذكره . ومن الحق أن كل من أراد التعرف على رأي فرقة فعليه أن يبحث في مصادرها هي ، لا في مصادر خصومها ، لأن الخصم غالبا ما تدفعه حماسته إلى عدم الدقة ، أو إلى المبالغة في تقبيح آراء مخالفيه ، ليبرر عداوته لهم ، وليستعدي عليهم غيره .

السلفية:

تلقى المسلمون الأوائل في العهد النبوي القرآن الكريم وقبلوه دون تفلسف أو تحليل ؛ وإنما انساقوا إلى الجدل ، في القرون التالية ، ليردوا على ما اعتبروه انحرافا من جانب المتكلمين . وقد أشرنا من قبل إلى أن المتكلمين اضطروا ، أو اضطر بعضهم ، لمجابهة أعداء الإسلام بأساليب الجدل الكلامي الفلسفي ليواجهوا خصومهم بسلاح من نوع سلاحهم . وهذا لا ينفي أن بعضهم قد تسربت إلى عقله – بوعي منه أو بغير وعي – مقولات أتباع الأديان والفلسفات الأخرى من شعوب الأراضي التي فتحها المسلمون .

لقد تميز اتجاه السلفية بعد أن بدأوا بالرد على ما اعتبروه انحرافات عن العقيدة السليمة ؛ ودعونا ننظر في الموضوعات التي ركزوا عليها ، وذلك من خلال ما كتبه أحد كبار أئمتهم ، وهو محمد بن إسحاق بن خزيمة ، المتوفى سنة ٣١١هـ .

---

(١) ***المصدر نفسه*** ، والصفحات ذاتها ، وانظر كذلك الصفحات ٦٩٧–٧٣٨ من نفس الكتاب .

(٢) ***المصدر نفسه*** ، ص ١٤١–١٤٢ ، وانظر الصفحات ٧٣٩–٧٤٩ من نفس الكتاب .

وكتاب ابن خزيمة يقع في ٣٨٨ صفحة من القطع الكبير مطبوعا ، تناول فيها القضايا التالية :

(١) إثبات النفس لله : ص ٦-٨ ؛

(٢) إثبات العلم لله ص ٩ ؛

(٣) إثبات وجه الله ، وذكر صورة ربنا جل وعلا ، ص ١٠-١٩ ؛

(٤) إثبات العين ، ص ٤٢-٤٣ ؛

(٥) إثبات السمع والرؤية ، ص ٤٤ ؛

(٦) إثبات اليد ، ص ٥٣-٧٦ ؛

(٧) إثبات الرجل لله عز وجل ،

(٨) ص ٩٠-١٠٠ ؛

(٩) إثبات استواء خالقنا على العرش ، ص ١٠١-١٣٥ ؛

(١٠) كلام الله وتكليم الله لموسى عليه السلام ، ص ١٣٦-١٦٦ ؛

(١١) إثبات أن الله جل وعلا ينظر إليه جميع المؤمنين ، ص ١٦٧-٢٢٩ ؛

(١٢) إثبات ضحك ربنا عز وجل ، ص ٢٣٠-٢٤٠ ؛

(١٣) شفاعة النبي ﷺ ، ويستغرق بحثها الصفحات من ٢٤١-٣١٣ .

لقد تجنبت الدخول في تفاصيل هذه العناوين ، لأن التوسع في هذه الجزئية الصغيرة لا يتناسب مع حجم هذا الموضوع بالنسبة للموضوع الرئيس للكتاب كله . ومهما يكن من أمر ، فإن مجرد هذه العناوين تبدو كافية لإدخال فكر القارئ في مجال ما تشير إليه .

والأمر المهم هنا أن السلفيين رفضوا بإصرار اعتبار هذه التعبيرات مجازية ، وأنها ليست حرفية ، محتجين بأن المجاز مغاير للحقيقة ، أي أنه نوع من الكذب ، ومن غير الممكن أن ينسب ذلك إلى الله جل وعلا .

والحقيقة أن المجاز ليس كذبا ، لأنه مفهوم لمن يصدر عنه ولمن يتلقاه بأنه مجاز ظاهره كذا والمقصود به كذا وكذا ، عند الطرفين . وبعد ذلك فإن المجاز مستخدم ومعروف في كل اللغات ، بل ويستخدم في كل اللهجات العامية . وإذا غضضنا الطرف عن كل المجادلات التي حفل بها تراث تلك الجماعات من المتكلمين فإننا لا نستطيع أن نتسامح في نسبة الضحك والغضب إلى الله في حالة رفض وصفهما بأنهما من التعبيرات المجازية ؛ ذلك أن الضحك والغضب أفعال عاطفية إنفعالية وغير

إرادية ، فهل نستطيع أن ننسب إلى الله جل وعلا عملا إنفعاليا لا إراديا؟ كلا . . ثم كلا!

وهناك غير ابن خزيمة كثيرون ممن عبروا عن المفاهيم والمواقف السلفية ,لكن تفصيل ابن خزيمة احتوى كل مشاكل الخلاف تقريبا ، بينما ركز غيره على بعض من القضايا فقط . وكما فعلنا في عرضنا لنماذج من أقوال المعتزلة سنعرض نماذج من أقوال السلفيين ، ونحيل القارئ بعد ذلك على المصادر ، مما نذكر وما لا نذكر .

وننقل فيما يلي قطعة مما كتبه إمام الحرمين ، عبدالملك الجويني المتوفى سنة ٤٧٨هـ في معرض حديثه عن إثبات وجود الخالق سبحانه وتعالى ، لنعطي فكرة عن المناقشات التي دارت بين أهل الكلام :

«**فصل في استحالة عدم القديم**»

أعلموا عصمكم الله أن أرباب الألباب اتفقوا على أن «ما ثبت له القدم استحال عليه العدم» . وليس في العقلاء من يجوز عدم القديم ، ولكن لا يسوغ الاستدلال في العقليات بالاتفاق . ولو قال قائل : فما الدليل على استحالة عدم القديم؟ قلنا : قد تمسك بعض المتكلمين بطريقة فقال : لو عدم القديم لوجب تجويز إعادته ؛ إذ ما تحقق وجوده وساغ عدمه ساغت إعادته . . . وإذا تجوز عوده فيكون حادثا ؛ وهو بعينه عين القديم الذي لم يكن حادثا ، فيلزم اجتماع صفتين متناقضتين ، الحدوث والقدم ، وإثبات الأولية ونفيها[1] .»

وهذه قطعة أخرى منقولة عن الإمام أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨هـ) مجتزأة من حديثه عن صفات الله تعالى :

«**فلله عز اسمه أسماء وصفات** ؛ وأسماؤه وصفاته أوصافه ؛ وهي على قسمين : أحدهماصفات ذات ، والآخرى صفات فعل ؛ فصفات ذاته ما يستحقه فيما لم يزل ولا يزال ، وهو على قسمين : أحدهما عقلي والآخر سمعي ؛ فالعقلي ما كان طريق إثباته أدلة العقول ، مع ورود السمع به ، وهو على قسمين : أحدهما ما يدل خبر المخبر به عنه ، ووصف الواصف له به على ذاته ، كوصف الواصف له بأنه شئ ذات موجود قديم ، إله ملك قدوس جليل عظيم ، متكبر ؛ والإسم والمسمى في هذا

(١) الجويني ، ***الشامل في أصول الدين*** ، ص١٩٤ .

القسم واحد . والثاني ما يدل خبر المخبر عنه ووصف الواصف له به على صفات زائدات على ذاته ، قائمات به ، وهو كوصف الواصف له بأنه حي عالم قادر مريد سميع بصير متكلم باق ؛ فدلت هذه الأوصاف على صفات زائدة على ذاته ، قائمة به ، كحياته وعلمه وقدرته وإرادته وسمعه وبصره وكلامه وبقائه [1] . . .»

وهذه بعض مقتبسات مما كتبه أبو الحسن علي الأشعري ، المتوفى سنة ٣٣٠هـ :

« . . . **إن الزائغين عن الحق من المعتزلة وأهل القدر مالت بهم أهواؤهم إلى تقليد رؤسائهم** . . فتأولوا القرآن على آرائهم تأويلا لم ينزل الله به سلطانا . . . ولا نقلوه عن رسول رب العالمين ، ولا عن السلف المتقدمين . . .وأنكروا شفاعة رسول الله ﷺ للمذنبين . . . وجحدوا عذاب القبر . . . وتكلموا بخلق القرآن نظير قول إخوانهم من المشركين . . . وأثبتوا أن العباد يخلقون الشر نظيرا لقول المجوس الذين أثبتوا خالقين . . .»

وهذا اقتباس آخر من كلام الأشعري ، في موضوع الإرادة ، إرادة الله سبحانه وتعالى :

«**ويقال لهم** [المعتزلة] : إذا زعمتم أنه قد كان في سلطان الله عز وجل الكفر والعصيان وهو لا يريده ، وأراد أن يؤمن الخلق أجمعون فلم يؤمنوا ، فقد وجب – على قولكم – أن أكثر ما شاء الله أن يكون لم يكن ، وأكثر ما شاء الله ألا يكون كان ، لأن الكفر الذي كان – وهو لا يشاء عندكم – أكثر من الإيمان الذي كان وهو يشاء ، وأكثر ما شاء أن يكون لم يكن ؛ وهذا جحد لما أجمع عليه المسلمون من أن ما شاء الله أن يكون كان ، وما لا يشاء لا يكون .» [انتهى الاقتباس] .

والحديث هنا عن إرادة الله الخالق في مقابل إرادة الإنسان المخلوق ؛ وهذه المقابلة ، أعني هذا التضاد بين إرادة الله وإرادة الإنسان تضاد مفتعل . . غير صحيح . إن كل الفرق التي تناظرت في هذا الموضوع تؤمن بأن الله «إذا أراد شيئا أن يقول له كن [فإنه] يكون فورا . أما إرادة الإنسان فهي منحة من الله يسترجعها في أي وقت . ولنضرب مثلا ، ولله المثل الأعلى :

أنت تترك طفلك ، وعمره سنتان أو ثلاث ، بإعطائه حرية الحركة واللعب وعينك عليه تراقبه . هذه حرية اختيار اعطيته إياها ليتعلم ويتدرب ، أو

(١) البيهقي ، ***الاعتقاد على مذهب السلف*** ، ص ٢١-٢٢ .

فضـولا منك لتـرى ما يفعـل . فـإن شعـرت - في أي لحظة - أنه تصـرف بما ينطوي على خطر وثبت إليه لتحميه ، ولتستعيد منه الحرية المحدودة التي منحتها إياه .

بيـد أن السلفـيين لم يستـمروا على هذه الطريقـة التي ترسـمها النصوص التي اقتبسناها من كتابات رموزهم : إبن خزيمة ، والجويني ، والبيهقي ، والأشعري ؛ فقد نشأ اتجاه - كـان جديدا عندمـا نشأ - يرفض علم الكلام ، ويعتـبره زيغا يستوجب التوبة ؛ وكان ممن قيل إنهم تابوا عن تعاطي علم الكلام إمام الحرمين ، الجويـنـي نفسـه .

وقـد تجنبنا الدخول في محـاولة التعليق على محـتوى هذه الاقـتبـاسـات التي أوردنا ، إلا في بعض الحالات التي وجدنا التعليق فيـها ضروريا . ومع ذلك فـإنه لا ينبغي أن يفوتنا التنويه بأن هذه الموضوعات لو نوقشت من قبل الأشخاص أنفسهم خارج أجواء التحدي والمناظرة ، ومن خلال حوار هادئ ، يستبعد الاتهامات والشتائم والتـحـريض ، إذن لضـاقت مـسـاحـة الخـلاف ، ولاكـتـشف المتـحـاورون أن الأسـاس العقيدي عندهم واحد ، وأن الاختلاف ناشئ عن أساليب التعبير أحيانا ، كمـا أنه ناشئ عن عدم الانتباه إلى نقطة أو أخرى يمكن أن تفسر أو تبرر تعبيرا معينا ، وتجعله شرعيا ومقـبولا . لكن المشاركين في المناظرات ، أو الاستجوابات أحيانا ، كثيرا ما استولى عليـهم الرعب والفـزع مما كـان يمكن أن يلحق بهم لو انهزموا وانتصر الطرف الآخر . وقد كان من أكبر الأخطاء التي وقع فيها الطرفان استدعاء السلطة وتحريضها ، وقد بدأ بذلك المعتزلة ، فكان خصومهم الضحايا ، ثم إنهم تبادلوا الأدوار والمواقع ، بعد ذهاب عصر المأمون ، والمعتصم ، والواثق ، فصار التحريض من جانب السلفيين ، بينمـا صـار المعـتـزلة هم الضـحـايا . وخـلاصـة ذلك كله أن الاخـتـلاف لم يبق عـقليـا ثقافيا ، بل تحول إلى حرب يستخدم فيها العنف ، سواء من قبل الأطراف أنفسهم ، أو عن طريق تحـريض السلطة وتدخلهـا ، أو عن طريق تحـريض جمـاهيـر العامـة الذين لا قدرة لديهم على فهم هذا الجدل .

ثم إن أكثر هذه الموضوعات وهذه المفاهيم والمقولات تقع خارج دائرة التكليف أي أن الله سبحانه وتعالى لم يكلف بها عباده ولا يحاسبهم يوم القيامة على أساسها ؛ لأن هذه التـصورات التي تصب في قوالـب «منطقـيـة» لا تسـتوعـبـهـا عـقـول الناس البسطاء ، ولا حتى عقول أكثر المنتسبين إلى مستوى الفقهاء والعلماء . هذا فضلا عن أن كثيرا منها جرت صياغته نتيجة تأملات واجتهادات لا تخلو من الزلل والشطط

في كثير من الأحيان ؛ ولم يكن من الجائز أن تبنى عليها اتهامات المخالفين بالكفر والزندقة ، بل ولا أقل من ذلك .

هنا أرى من المناسب أن أقدم رؤية وتعليقا وفهما أبداه الإمام محمد ابن إدريس الشافعي بشأن اختلاف النصوص ، التي يؤسس الأفراد المسلمون سلوكهم وممارساتهم عليها ، حتى في العبادات . قال الشافعي : «قال لي قائل : قد اختلف في التشهد ، فروى ابن مسعود عن النبي أنه كان يعلمهم التشهد كما يعلمهم السورة من القرآن ، فقال في مبتداه ثلاث كلمات : «التحيات لله» [كذا] فبأي التشهد أخذت؟ فقلت : أخبرنا مالك عن . . . عن عبدالرحمن بن عبد القاري أنه سمع عمر بن الخطاب يقول على المنبر : قولوا : التحيات لله ، الزاكيات لله الطيبات ، الصلوات لله . السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ؛ أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .» ثم أورد الشافعي روايات أخرى كلها تختلف بعضها عن البعض الآخر ، مروية عن عدد من الصحابة ، عن ابن عباس ، وابن مسعود ، وأبي موسى ، وجابر [ابن عبدالله] ، «وكلها قد يخالف بعضها بعضا في شئ من لفظه . ثم علم عمر خلاف هذا كله ، في بعض لفظه ؛ وكذلك تشهد عائشة [أي نص التشهد المروي عن عائشة أم المؤمنين] .

فقلت له [الشافعي قال لمن سأله] : الأمر في هذا بين . قال : فأبنه لي ؛ قلت :

> **كل كلام أريد به تعظيم الله فعلمهم]إياه [رسول الله ؛ فلعله جعل يعلم الرجل فيحفظه والآخر فيحفظه ، وما أخذ حفظا فأكثر ما يحترس فيه منه إحالة المعنى . . . فلعل النبي أجاز لكل امرئ منهم كما حفظ .»**

وساق الشافعي دليلا : أن رسول الله علم اثنين من الصحابة سورة الفرقان ، وفي النصين اختلاف ؛ فلما اكتشفا ذلك وجاءا إليه للتأكد ، قال لكل منهما :

> **« هكذا نزلت» [أي حسبما علمه إياها سابقا ، ثم قال لهما : «إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف ، فاقرأوا ما تيسر [1] .»**

---

(١) محمد بن إدريس الشافعي ، *الرسالة* ، تحقيق وشرح أحمد شاكر ، القاهرة ، مكتبة التراث ، ١٩٧٩ ، ص ٢٦٧ – ٢٧٦ .

والشافعي هو مؤسس علم أصول الفقه ، وكتابه الرسالة هو أهم كتبه ، وموضوعه هو تأسيس علم أصول الفقه . وخلاصة ما أوردناه عن الشافعي : أنه إذا اختلفت ألفاظ النصوص من حفظ صحابي بالمقارنة مع حفظ صحابي آخر فإن مثل هذا الاختلاف لا تأثير له ، ما دام التوجيه والتوجه الذي يحمله النص هو : «كل كلام أريد به تعظيم الله فهو مقبول ، ما لم يغير المعنى .»

وتأكيدا وتأييدا لفهم الشافعي وتعليمه نستدعي موقفا وأحاديث لرسول الله ﷺ بشأن أمثلة من قيام بعض الصحابة بمخالفات شكلية للنص الشرعي في مناسك الحج . عن ابن عباس : قال رجل للنبي ﷺ : زرت قبل أن أرمي . قال : لا حرج . قال : حلقت قبل أن أذبح . قال : لا حرج . قال : ذبحت قبل أن أرمي ، قال : لا حرج .» وهناك روايتان أخريان بنفس المضمون تنتهيان إلى ابن عباس ، ثم إلى رسول الله ﷺ ؛ ورواية ثانية عن جابر بن عبدالله مثلهما . [البخاري ، كتاب الحج ، ص ١٣٥ ، الكتب الستة . وقارن مع صحيح مسلم ، كتاب الحج ، ص ٨٩٤ – ٨٩٥ ، الكتب الستة أيضا . ونذكر أن من المعروف أن ترتيب هذه المناسك حسب السنة أن يرمي الحاج أولا ، ثم ينحر ثم يحلق .

وفي الأمثلة التي نقلناها ووردت بها روايات متعددة نجد أن أفرادا من الحجاج لم يلتزموا بالترتيب المذكور ، وجاءوا إلى النبي للتأكد من أن حجهم مقبول ، وذكروا له ما ارتكبوه من أخطاء ، فكان رده : لا حرج جوابا على كل سؤال .

ودلالة هذه الأحاديث – كما في المثل الذي نقلناه عن الإمام الشافعي – أن المهم هو الجوهر والنية ، والتوجه بها إلى الله ، وليست حرفية النص . وأهمية هذه الدلالة بالنسبة لموضوع الخلافات الحادة المسرفة بين الفقهاء أنها تبين خطأهم في التشدد في حرفية النصوص ، وفي دخول مجال خارج دائرة التكليف الشرعي ، وصياغة نصوص جدلية حول تفاصيل الصفات والأمور الغيبية مرهقة للعقل والفكر نتيجة صياغتها الجدلية المعقدة ، وذلك مثل قول البيهقي : «**أحدهما ما يدل خبر المخبر به عنه ، ووصف الواصف له به على ذاته ، كوصف الواصف له بأنه شئ ذات موجود ، قديم ، إله ملك قدوس ، جليل عظيم متكبر ؛ والإسم المسمى في هذا القسم واحد . والثاني ما يدل خبر المخبر عنه ووصف الواصف له على صفات زائدات على ذاته . . .** » أنظر ما نقلناه من نص البيهقي في ص ٣٥٨ قبل قليل .

على أن روح التعصب الأعمى المصحوبة بالعدوانية لا تقف عند حد ، بعد السماح لها بالانفلات وممارسة العنف ؛ فعلى الرغم من أن الأشاعرة كانوا من المعسكر السلفي فإن ذلك لم يمنع انفجار المواقف العدوانية بينهم والانتقال بالجدال إلى مرحلة العنف البدني البيني ؛ ومن شواهد ذلك ما نقله لنا ابن كثير عن أحداث سنة ٤٤٧هـ ، حيث كتب : «وفيها وقعت الفتنة بين الأشاعرة والحنابلة ، فقوي جانب الحنابلة قوة عظيمة ، بحيث أنه كان ليس لأحد من الأشاعرة أن يشهد الجمعة أو الجماعات [١] .»

ومنع الأشاعرة من المشاركة في صلوات الجمعة والجماعة يعني منعهم من دخول المساجد ، وذلك عن طريق إرهابهم بالعنف الجسدي الذي عرض حياتهم للخطر . وقد تخطى هذا النوع من الاعتداء المعتدى عليهم ، فصار اعتداء على الدين نفسه ، وذلك عن طريق منع مسلمين بالإكراه من أداء صلاة الجمعة ، وهي فرض عين على كل مسلم . وضمن أحداث سنة ٤٧٩هـ ذكر ابن كثير معارك أخرى جرت في شهر شوال ، بين الحنابلة وبين فقهاء النظامية ، وهي الجامعة الحكومية . وقد حمي لكل من الفريقين طائفة من العوام ، وقتل بينهم نحوا من عشرين قتيلا وجرح آخرون ؛ ثم سكنت الفتنة [٢] .» وقد كانت النظامية أكبر جامعة في أراضي الخلافة العباسية وفي عالم الإسلام ، وفي العالم كله آنذاك ؛ كما كانت القاعدة الرئيسية لكبار فقهاء الشافعية .

ولا يتسع المجال هنا لسرد مزيد من الأمثلة ، لكننا نود أن نشير إلى أن الذين مارسوا العنف لتحقيق الغلبة لمقولاتهم الفكرية قد خالفوا توجيهات القرآن الكريم ؛ فقد وجه القرآن المسلمين إلى الدعوة بالحسنى : ﴿أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن [٣] . . .﴾ ومنع القرآن شتم آلهة المخالفين بقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم[٤] . . .﴾ ، علما بأن النص في الآيتين يشير إلى طريقة التعامل مع غير المسلمين ، فكيف بالتعامل مع المسلمين؟

---

(١) إبن كثير ، ***البداية*** ، ج ١٢ ، ص ٦٦ .

(٢) ***المصدر نفسه*** ، ص ١١٧ .

(٣) ***سورة النحل*** ، آية ١٢٥ .

(٤) ***سورة الأنعام*** ، آية ١٠٨ .

وفي مواقف الحوار يوجه القرآن المسلمين بأن يؤكدوا للطرف الآخر - غير المسلم - الشروط الضرورية لنجاح الحوار ، بل ويلقن الله المسلمين عبارات تظهر الاحترام للآخر ، لأن المقصود والمرغوب من خلال الحوار ليس الغلبة والإفحام القهري ، بل المرغوب هو تحرير الخصم من حدة مشاعر العداء وجو التعارك لينفتح عقله وقلبه لتلقي الحقيقة الإيمانية وتقبلها والاعتراف بها دون كبير حرج . قولوا لهم : إن الحق يمكن أن يكون فيما نقوله نحن ، أو فيما تقولونه أنتم ؛ وهاكم النص القرآني : ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض؟ قل الله ؛ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين . قل لا تسألون عما أجرمنا ، ولا نسأل عما تعملون (١) . . .﴾

ويلاحظ هنا استعمال فعل «أجرمنا» ينسبه المسلمون إلى أنفسهم ؛ أما عندما يتحدثون مع الآخر ، مخالفهم غير المسلم ، فإنهم يؤمرون بعدم استعمال فعل «أجرم» ، «أجرمتم» ، بل يستعملون فعلا مشتقا من «**عمل**» ، «**عما تعملون**» وهو فعل ذو معنى محايد ، لأنه يستعمل للدلالة على عمل «خير» ، كما يستعمل للدلالة على عمل «شرير .» ولا مراء في أن هذا الأسلوب يرتفع إلى قمة الذوق والإحترام في مخاطبة المخالف على مائدة الحوار ، رغم أن المخالف المقصود في الآيات غير مسلم .

إن عدم الالتزام بروح الحوار السلمي خلال مناقشة الخصم خليق بأن يفضي إلى العناد والغلو ، والإصرار على تحقيق الانتصار وهزيمة الطرف المقابل بأي ثمن ؛ وبذلك يتحول الحوار إلى مراء وجدل عقيم ، ويدخل في غمار المعارك الحامية - قولا أو قتالا - مما يؤدي إلى ضياع قدر كبير من الحقيقة ، حيث تنغلق القلوب والعقول ، فلا ترى هدفا إلا تحقيق النصر ، بالحق أو بالباطل سواء . ومن المؤكد أنه لو سار الحوار سلميا مفعما بالمودة ، كما وجه القرآن الكريم ، من خلال النصوص التي اقتبسنا بعضا منها ، وأمثالها في القرآن كثير ، إذن لضاقت مساحة الخلاف بين الفرقاء ، وربما زالت نهائيا . لكن التطرف والحدة والعنف والدماء لا توصل إلى اتفاق وإن قهرت الخصم وأجبرته على الصمت مؤقتا ، إلى حين ؛ بل إنها تزيد من عمق واتساع الهوة بين الفرقاء ، كما يزيد الشعور بالهزيمة من حدة الأحقاد ، لكنه يظل منتظرا الوقت المناسب فينفجر ليحرق الأخضر واليابس . وقد ظهر

(١) سورة *سبأ* ، الآيات ٢٤ إلى ٢٦ .

صدق هذا القول في تصرفات كثير من المتطرفين ، قديما وحديثا .

إن ما مر معنا في الفصول السابقة من كتابنا هذا يزلزل الجبال ؛ جبال الأوهام التي عاشتها أجيال من المسلمين ، وما زال كثيرون منا يعيشونها . وهذه الزلزلة ليست أول الزلازل ، فقد تعرض أفراد كثيرون من المسلمين إلى الفزع ، فتنبه بعضهم ، واندفع بعض آخر منهم لدرجة الشرود من دائرة الوعي والإدراك السليم ، فانسلخوا من الإسلام بدرجات متفاوتة ، بيد أن أغلبية المؤمنين بقيت على حالها ، وفضلت أن تظل في عتمة الأوهام على أن تخرج من سراديبها إلى شمس الحقيقة . والأوهام التي نقصدها هنا هي الاعتقاد بأن أحوال المسلمين ظلت في صورة مثالية حتى سقوط الدولة العثمانية وإلغاء الخلافة سنة ١٩٢٤م ، أو ظلت كذلك حتى سيطرة العثمانيين على عالم الإسلام في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي ، أو ظلت حتى اجتياح المغول لبغداد وإسقاطهم الخلافة العباسية . أما ما نقصده بشمس الحقيقة فهو أن أعدادا قليلة من المسلمين أخذت تتزايد شيئا فشيئا ، بدأت تدرك أن الصورة الزاهية التي صنعتها الأوهام واستمرت في تلميعها كانت بعيدة عن الحقيقة ؛ وقد كانت نتائج هذا الوعي المحدود متنوعة التأثير على الأفراد والجماعات ، من حيث الدرجة ومن حيث اتجاهات التغير في تفكيرهم وسلوكهم على السواء .

وغني عن البيان أن هدف هذه الدراسة ، والاستعراض الواسع الذي قمت به من خلالها ، إنما يرمي إلى التأسيس لوعي صحيح وشامل ، إلى إقامة الوعي العام للأمة على مستند الحقائق البشرية الواقعية في حياة المسلمين ، وليس على الصور الخيالية المؤدية إلى استمرار السبات والغفلة ، واستنكار أي تحرك لإيقاظ الوعي وإزاحة الكرى من عيون ورءوس النائمين الغافلين . وهنا أود أن أؤكد أن هذا المؤلف لا يسمح لأي درجة من الوهم أن تجعله يعتقد بأن كتابه هذا سيغير واقع الأمة ويخرجها مما هي فيه . كلا . . الأمر ليس كذلك . كل ما آمله أن يكون هذا الجهد وهذا العمل أداة لتحريك بعض العقول والضمائر لتتواصل الجهود وتتابع لدفع الحركة وتقويتها لتتمكن في وقت غير بعيد – إن شاء الله – من إزالة القمامة من عقولنا ، وإحلال الوعي والإدراك الصحيح محلها ؛ الوعي المحفز للعمل الصحيح ، الذي يعيد أمة الإسلام وعالم الإسلام إلى الانطلاق المؤسس على ما جاء به القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة من هداية ، بعد قرون من الانفصال بين حقائق الإسلام من ناحية وشطر كبير من ممارسات شعوب عالم الإسلام وأنماطها السلوكية في معظم نواحي حياتهم إن لم يكن فيها كلها .

الفصل الرابع عشر

تعثر محاولات الإصلاح

لم يدرك عالم الإسلام أنه أصبح في حالة ضعف ظاهر في مواجهة عالم الغرب إلا في العقود الأخيرة من القرن السابع عشر الميلادي . وهذا الإدراك لم يكن عاما ، أو واسعا ؛ الجهة التي أدركت هي السلطة العليا في الدولة العثمانية ؛ ومع ذلك فإن هذا المستوى من الإدراك أنهى حالة الاطمئنان التي وصلت في حقيقتها إلى درجة من الغفلة استمرت حتى ما بعد منتصف القرن السابع عشر . بل إن عالم الغرب نفسه ، كان يرى أن الدولة العلية العثمانية كانت متفوقة عليه في كل شئ ، وأن أي صراع ستكون نتيجته محسومة لصالح الدولة العثمانية لأنها كانت الدولة الأعظم ، والقوة الأعظم كذلك ، في عالم القرن السابع عشر . غير أن هذا القرن السابع عشر الميلادي قد شهد بداية العد التنازلي نحو انهيار تلك القوة الأعظم عندما حلت الهزيمة بأضخم حملة عسكرية عثمانية كانت قد توجهت للاستيلاء على فينا ، عاصمة الإمبراطورية النمساوية سنة ١٦٨٣ . وقد أخضعت المدينة لحصار قاس استمر من منتصف تموز (يوليو) إلى الثاني عشر من أيلول (سبتمبر) ، غير أن ذلك الحشد الهائل سرعان من انهار تحت أول لطمة فسقط وتفرق بين هارب وقتيل ومأسور . وقد تبين أن سبب السقوط يعود إلى جهل القائد الأعلى للحملة بالعلم العسكري ، بجانب أنانيته العمياء . ولم يكن هذا القائد سوى الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) ، قارا مصطفى ، أي مصطفى الأسود ، صهر السلطان العثماني زوج ابنته . وبعد وقوع هذه الكارثة لم يعزل رئيس الوزراء وحده ، بل عزل السلطان محمد الرابع أيضا [(١)] . ومع ذلك فإن هذه الهزيمة لم تكن كافية وحدها لإقناع السلطة العثمانية بحدوث تغير في موازين

(١) وكانت حملة عثمانية أخرى قد حاصرت فينا سنة ١٥٢٩م وانتهت بالفشل أيضا ، وكان فشلها بقوة المقاومة الدفاعية .

القوى ؛ وربما كان السبب في حدوث هذا الاطمئنان أن الانتكاسة كانت نتيجة ضعف قيادة تلك الحملة بالدرجة الأولى .

بيد أن اطمئنان العثمانيين إلى تفوقهم لم يدم طويلا ؛ ففي بداية السبعينات من القرن الثامن عشر نشب الصراع بينهم وبين روسيا القيصرية فأوقع الروس بهم هزائم متتالية أجبرتهم على قبول صلح مذل سنة ١٧٧٤م اعتبر استسلاما ؛ وعرف باسم **معاهدة قينارجه** . وكانت قينارجة الحد الفاصل بين عهدين ، سواء بالنسبة للعثمانيين وعالم الإسلام ، أو لعالم الغرب .

وبعد قينارجه بدأت الدولة العثمانية ، تفكر في إصلاح الأداة العسكرية في المقام الأول ، ما دام الضعف الخطير الذي هزهم إلى الأعماق حدث في ميادين القتال . ولقد وجدوا أن الأداة التي حقق بها الروس التفوق في ميادين القتال هي التكنولوجيا الجديدة ؛ ومن أجل ذلك شعروا بأنهم مضطرون للحصول على هذه التكنولوجيا . وقد توقعوا أن يحصلوا عليها ويتقنوها في وقت قصير . وبعد تردد أرسلوا البعثات الطلابية إلى فرنسا لكي يدرسوا آخر ما وصل إليه العلم . وقد حرصت الدولة على أن تحمي مبعوثيها من التأثر بأنماط الحياة الاجتماعية الأوربية ، فاستأجرت لهم مساكن في المناطق الريفية خارج باريس ؛ وقد وضعت تعليمات تفرض على الطلاب التحدث بالتركية والعربية فقط ، فيما بينهم ، كما استأجرت لتدريسهم أقدر الأساتذة الفرنسيين[1] . وقد جرت أهم محاولات الإصلاح الحكومية في عهدي السلطان سليم الثالث (١٧٨٩-١٨٠٧م) ، والسلطان محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩) ، واستمرت بعد ذلك دون أن تحقق النجاح المطلوب . لقد كانت أمراض الدولة وعوامل الوهن في بنيتها كثيرة ومزمنه ، ولم تنحصر في الجانب العسكري .

قوى أخرى ترفع لواء الإصلاح:

لم ينحصر الهم الإصلاحي في جهود الدولة ، بل أخذت جهات متعددة تفكر في الإصلاح ، أو في التغيير ، من منظورها الخاص ، وكانت أكثر الحركات فعالية

---

(1) M. Sukru Hanioglu, ***The Young Turks In Opposition*** (New York Oxford: Oxford Univeristy Press, 1995),pp. 7-8.

(م .شكري هاني أوغلو)

وتأثيرا هي حركة «تركيا الفتاة» ، التي ركز عليها المؤرخون اهتمامهم ودراساتهم ؛ وكانت معارضة لحكم وعهد السلطان عبدالحميد الثاني . ففي **العقد الأخير** من القرن التاسع عشر كان عدد كبير من ضباط الجيش العثماني منغمسين في النشاط السياسي السري المخالف لما كان يفرضه عليهم الواجب الرسمي . وكان هذا النشاط قد تأسس وبدأ سنة ١٨٨٩م عندما قام أربعة من طلبة الكلية الطبية العسكرية ، برئاسة طالب «ألباني» يدعى إبراهيم تيمو ، أو أدهم -كما كان يسمى أحيانا - بتأسيس جمعية سرية أطلقوا عليها اسم «الترقي والاتحاد» التي صارت تعرف فيما بعد بـ«جمعية الاتحاد والترقي»(1) . والطلاب الثلاثة الآخرون الذين شاركوا أدهم في تأسيس الجمعية هم : إسحق سكوتي ، وشركس محمد رشيد وعبدالله جودت(٢) . وقد استخدم اسم «جمعية الاتحاد والترقي» من قبل الأعضاء والكتاب العرب فيما بعد . وما لبث طلاب المدارس العليا العسكرية الأخرى أن انضموا إلى عضوية الجمعية التي نظم أعضاؤها في خلايا على غرار جمعيات الكاربوناري السرية الإيطالية . وكانت الأهداف المعلنة للجمعية هي نشر الأفكار القومية والدعوة والعمل للإصلاح واستعادة دستور سنة ١٨٧٦ الذي كان السلطان عبدالحميد الثاني قد ألغاه ، وكذلك التخلص من السلطان نفسه ، الذي جعلته الدعاية الأوربية ودعاية جمعية الاتحاد والترقي منبع كل الشرور ورمزا للدكتاتورية المفرطة في قمع الحريات والقمع الدموي . وقد قامت عناصر أخرى مدنية من مثقفي ومتعلمي المجتمع العثماني بالانضمام إلى الجمعية الجديدة ، كما انضمت إليها والتحقت بها جمعية «تركيا الفتاة» ، التي كانت أقدم منها وسابقة لها (٣) ، بالإضافة إلى جمعيات أخرى . وقد اتسعت عضوية الاتحاد والترقي وكثر مؤيدوها - خاصة في صفوف الجيش العثماني - مع دقة التنظيم ومواصلة الدعاية في الداخل والخارج . وعندما اكتشف السلطان نشاط الجمعية تابعتها أجهزته وتعرض كثير من أعضائها للاعتقال

(1) Committee of Union and Progress

(٢) الدكتور أرنست أ . رامزور ***تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨*** ، ترجمة الدكتور صالح أحمد العلي (بيروت - نيويورك : دار مكتبة الحياة بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلسين ، ١٩٦٠) ، ص ٥٠ .

(3) George M. Haddad, ***Revolutions and Military Rule in the Middle East*** (New York: Robert Speller & Sons, Publishers,Inc., First ed., 1965, p. 49.

واستخدمت مختلف وسائل الضغط والإغراء لإضعافها والقضاء عليها . وعلى أثر ذلك اضطر عدد من أعضاء الجمعية ودعاة الإصلاح في الدولة العثمانية إلى مغادرة البلاد والالتجاء إلى العواصم والمدن الأوربية فرارا من ملاحقات السلطات لهم .

وفي خضم هذا التوجه العام للتعرف على أسباب قوة أوروبا وتفوقها واقتباس شيء منها قامت سلطات الدولة العثمانية بتأسيس الكليات والجامعات الحديثة على النمط الأوروبي ، ولم تكتف بذلك ، بل عمدت إلى إرسال البعثات الطلابية للدراسة في معاهد بعض الدول الأوروبية ، خاصة فرنسا ، التي كات في تلك الفترة تعتبر حليفاً للدولة العثمانية .

أما على الصعيد العام فقد ظهرت طبقة كبيرة من الشخصيات الثقافية والسياسية والإدارية المهمة لا تكتفي بمجرد التقليد والاقتباس الجزئي بل كانت تسعى إلى تبني الفكر الاجتماعي والسياسي الأوروبي جملة وتفصيلاً . وهنا لا ينبغي أن ننسى أن نضيف إلى ما سبق أن المكونات الأساسية لشعوب الدولة العثمانية كانت تضم شعوباً مسيحية هي شعوب الأقطار الأوروبية التي استولى عليها العثمانيون في عصر فتوحاتهم وتوسعهم الحربي ، ومنها صربيا والمجر واليونان وبلغاريا ورومانيا . وهذه الشعوب كانت أكثر رغبة وحماسة للإندماج في أوروبا الغربية .

دور الماسونيين:

ثـم تكشف لنا الدراسات التاريخية الجادة وجود نشاط آخـر كان يسير في موازاة حركـة «الاتحاد والترقي» وسـابقا لها في زمان تأسيسه وظهوره ، مما يحمل الباحث على تلمس وجود صلة بين الحركتين . والحقيقة أن اهتمامي بهذا الموضوع مر في ثلاثة مراحل ؛ : ففي سنة ١٩٦٨ كنت أعد للحصول على درجة الماجستير في الدراسات العربية وكان أحد المساقات بحثا فرعيا موضوعه : «رد الفعـل العربي تجاه الانقلاب العثماني ١٩٠٨-١٩٠٩م» أما المرحلة الثانية فقد بدأت عندما دعاني الصديق العزيز الأستاذ الدكتور سيف الدين عبدالفتاح ، أستاذ العلوم السياسية بجامعة القاهرة للمساهمة في عمل بحثي جماعي تحت عنوان : «الأمة في قرن» ، فكتبت في موضوع «العسكريون في السياسة» في القرن العشرين ، فكان الانقلاب العثماني أول انقلاب تناولته بالبحث ، وأول انقلاب كانت شهدته دولة إسلامية في القرن العشرين سنة ١٩٠٨م ، ثم تتابعت الانقلابات ، بعد قيام الدول العربية

المستقلة ، أوشبه المستقلة ، بكر صدقي ، ورشيد عالي الكيلاني في العراق ، وأديب الشيشكلي ، وبعده سامي الحناوي في سورية ، الخ . . . ، وها أنذا أعود لتناول الموضوع في هذا الفصل قبل الأخير من هذا الكتاب في طبعته الثانية . في المرحلة الأولى استخدمت في بحثي خليطا من المصادر والمراجع ، منها الصحف التي كانت تصدر في القاهرة وبيروت أوائل القرن العشرين ، وقت حدوث الانقلاب ، ومنها المقطم والأهرام القاهريتين ، وجريدتا (لسان الحال) والبيرق اللتان كانتا تصدران في بيروت ، وكذلك مجلة المنار التي كان يصدرها الشيخ محمد رشيد رضا في القاهرة ، فضلا عن الكتب التي عاش مؤلفوها من العرب في استنبول أثناء أحداث الإنقلاب ، مثل أحمد عزت الأعظمي ، وأسعد داغر ، والدكتور أحمد قدري ، وبجانبها كتاب آرنست رامزور عن «تركيا الفتاة» ، وأصله أطروحة جامعية ، وكان – حتى ذلك الحين – يعتبر المرجع الأول والأهم . أما في المرحلة الثانية ، فقد استخدمت نفس المصادر السابقة ، فضلا عن عدد من الوثائق البريطانية المتعلقة بالأحداث والمعاصررة لها ، مع بعض الكتب الأخرى ؛ ومع ذلك فقد فاتني الاطلاع على مرجع في غاية الأهمية ، تبنته وأصدرته جامعة أوكسفورد البريطانية سنة ١٩٩٥ . وأهمية هذا الكتاب الأخير أنه يسد ثغرة كبيرة في عمل الدكتور آرنست رامزور ؛ والمرجع الذي أتحدث عنه هو *The YoungTurks in Opposition* ، للباحث التركي الدكتور م . شكري هاني أوغلو (م . شكري بن هاني) .

ويكشف لنا هذا الباحث التركي في دراسة رائدة أن نشاط الماسونيين في الدولة العثمانية يمكن إرجاعه وتتبع مرحلته المبكرة إلى سبعينات القرن التاسع عشر ؛ وقد تمحور هذا النشاط حول ، ومن خلال شخصية أعلنت أن هدفها الأهم هو إعادة تأسيس الدولة البيزنطية التي أسقطها واستولى على أراضيها العثمانيون سنة **١٤٥٣**م بقيادة السلطان محمد الفاتح . لقد كان كلينتي سكاليري Cleanthi Scalieri مواطنا عثمانيا ، وكان إغريقيا (يونانيا) من مواليد استنبول ، وكانت أراضي اليونان قد ضمت إلى الدولة العثمانية منذ فتح القسطنطينية سنة **١٤٥٣**م كما ذكرنا ، وظلت تحت الحكم العثماني حتى انفجار الثورة وحرب الاستقلال اليونانية سنة **١٨٢١**م .

وكان سكاليري قد أدخل سنة ١٨٦٥ – في عضوية المحفل الماسوني الفرنسي الذي كان يعرف بإسم «إتحاد الشرق L'union d'Orient» ؛ وبعد عشر سنوات من بدء عضويته صار في مرتبة عالية في مركز المحفل في العاصمة الفرنسية . . . مستفيدا من

صداقته الوثيقة مع مراد أفنـدي ، ولي العهد العثماني المنتظر ، بجانب ما كان يدركه سكاليري من طموحات الحركة الماسونية الشرقية ، وغير ذلك من الظروف المساعدة .

ويبـدو أن سكاليـري كـان شـديد الحـذر في الحـديث عن أهدافه وعن تفـاصيل مـشروعه ؛ إذ قـدم صـورة مموهة ، حين أعلن أنه قـد وقف حيـاته كلهـا من أجل إنشـاء دولة بيزنطية جديدة . وكـان من تصريحاته أنه أراد دولة توحد الأتراك واليونانيين في ظل سلطان عثماني متنور ؛ وهنا يأتي دور مراد أفندي – ولي العهد العثماني – لكي يكون ذلك السلطان المتنور .

ولقد شرع في تنفيذ المراحل الأولية من خطته بالفعل ، وكان يساعده في ذلك أصدقاؤه وزملاؤه من الماسونيين ، حيث كان من أبرزهم الفرنسي فرانسس ل . إيمابل الذي كان يمارس مهنة المحاماة في العاصمة العثمانية استنبول ، ثم صار – فيما بعد – عمدة مدينة باريس ، العاصمة الفرنسية . كذلك كان ممن ساعده شخص دبلوماسي اسمه هولنك Holink.A ، بالإضافة إلى السفير البريطاني في استنبول س . جي . إليوت Elliot.G.S ؛ ومن بين الشخصيات العثمانية البارزة يأتي ذكر رئيس الوزراء الأسبق ، والمشهور جدا ، مدحت باشا . وعندما ووجهت تحركات سكاليري ومساعديه بالعداء الشعبي لجأ إلى استخدام عدد من الشخصيات العثمانية ذات النفوذ والكلمة المسموعة شعبيا فاستقطبهم ، ولقنهم النقاط الرئيسية في مشروعه لكي يقنعوا جمهورا أكبر بمناصرة المشروع أو عدم معارضته . وبجانب ذلك فقد حرص على ضم مجموعات أكبر ، من الشخصيات المهمة ، لحركته ، فقام بإنشاء محفل ماسوني سماه : محفل «الأنوار الشرقية Envar-I Sarkiya»[١] ، وضم إليه أعدادا كبيرة من المؤيدين ,وصارت له شهرة واسعة ، نظرا لشهرة الشخصيات التي انضمت إليه[٢] . وكان من بين هذه الشخصيات سياسيون بارزون ، بجانب

(١) هذا الإسم باللغة التركية الحدبثة بعد تغيير حروفها ؛ وحرف الشـين يعبر عنه بـ S لها شرطة في أعلاها لم أستطع إضافتها ولعلها تضاف في المطبعة .

(٢) M. Sukru Hanioglu, ***The Young Turks In Opposition***, p.34. ؛ وقد اعتمد هاني أوغلو على نص تقرير كتبه سكاليري نفسه محفوظا ضمن الأوراق الشخصية لسكاليري ، لدي حفيده الأكاديمي والأستاذ الجامعي . واسم Sukru أصله شكري بالعربية والتركية العثمانية ، ولم استطع إضافة علامة الشين على حرف S .

رجال دين رسميين ذوي مراتب عالية . ومن هذه النواة ولدت جماعة تركيا الفتاة[١] على ما يبدو ، سنة ١٨٨٩م .

وطوال السنوات الخمس عشرة الباقية من عمره وجه سكاليري كل جهوده للحصول على دعم الدول العظمى ، خاصة بريطانيا العظمى آنذاك ، من أجل تنصيب الأمير مراد أفندي سلطانا ، لكي ينفذ برنامجه ، أي برنامج سكاليري «التحرري» ؛ وكان من بين ما فعله أنه وجه رسائل شخصية للمسئولين الرسميين البريطانيين ، كل ذلك من خلال القنوات الماسونية الموجودة في استنبول آنذاك . وقد أثمرت هذه الجهود في بادئ الأمر ، وتم تنصيب الأمير مراد (مراد أفندي) سلطانا يوم ٣٠ أيار (مايو) ١٨٧٦ ؛ وعلى الرغم من كل تلك التحركات فقد خابت آمال سكاليري عندما انكشف عجز مراد الخامس عن التعامل مع الأوضاع المعقدة في الدولة ، وانتهى أمره وعزل في ٣١ آب (أغسطس) من نفس السنة ، أي بعد ثلاثة أشهر فقط ، على أساس أنه لا يصلح لممارسة الحكم من الناحية العقلية ، أو لأنه كان يعاني من اضطراب عقلي . وقد بذل سكاليري جهودا محمومة لإعادة تنصيب مراد الخامس سلطانا ، واستعان بكل من رأى أنه يملك النفوذ والتأثير لكن جهوده ذهبت هباء عندما أدركه الموت هو نفسه سنة ١٨٩١م [٢] . ومن الواضح أن جهود سكاليري لم تكن حبا في مراد ، ولكن الأمير مراد – بمواصفاته الحقيقية – كان الشخصية المناسبة لمشروع سكاليري ، الحقيقي أو المموه .

صورة التطورات كما عرضها رامزور:

اما الدكتور رامزور الذي كان كتابه يعتبر المرجع الأهم من بين الدراسات الحديثة قبل ظهور كتاب هاني أوغلو ، فقد ذكر أن حركة «الاتحاد والترقي» هي الحركة الأهم والأصل الذي انطلقت وتفرعت منه حركة الإصلاح العثماني التي ركز عليها المؤرخون اهتمامهم ودراساتهم ؛ وكانت معارضة لحكم وعهد السلطان عبدالحميد الثاني . وقد انطلقت رواية الدكتور رامزور للأحداث من أن **العقد الأخير** من القرن التاسع عشر الذي شهد وجود عدد كبير من ضباط الجيش العثماني منغمسين في

(١) ***المصدر نفسه*** ، والصفحة ذاتها .

(٢) ***المصدر نفسه*** ، ص ٣٥ .

النشاط السياسي السري المخالف لما كان يفرضه عليهم الواجب الرسمي ، وأن هذا النشاط قد تأسس وبدأ سنة ١٨٨٩م عندما قام أربعة من طلبة الكلية الطبية العسكرية ، برئاسة طالب «ألباني» يدعى إبراهيم تيمو ، أو أدهم -كما كان يسمى أحيانا - بتأسيس جمعية سرية أطلقوا عليها اسم «الترقي والاتحاد» التي صارت تعرف فيما بعد بـ «جمعية الاتحاد والترقي(١) . والطلاب الثلاثة الآخرون الذين شاركوا أدهم في تأسيس الجمعية هم : إسحق سكوتي ، وشركس محمد رشيد وعبدالله جودت (٢) . وما لبث طلاب المدارس العليا العسكرية الأخرى أن انضموا إلى عضوية الجمعية التي نظم أعضاؤها في خلايا على غرار جمعيات الكاربوناري السرية الإيطالية . وكانت الأهداف المعلنة للجمعية هي نشر الأفكار القومية والدعوة والعمل للإصلاح واستعادة دستور سنة ١٨٧٦ الذي كان السلطان عبدالحميد الثاني قد ألغاه ، وكذلك التخلص من السلطان نفسه ، الذي جعلته الدعاية الأوربية ودعاية جمعية الاتحاد والترقي منبع كل الشرور ورمزا للدكتاتورية المفرطة في قمع الحريات بالعنف الدموي . وقد قامت عناصر أخرى مدنية من مثقفي ومتعلمي المجتمع العثماني بالانضمام إلى الجمعية الجديدة ، كما انضمت إليها والتحقت بها جمعية «تركيا الفتاة» ، التي كانت أقدم منها وسابقة لها (٣) ، بالإضافة إلى جمعيات أخرى . وقد اتسعت عضوية الاتحاد والترقي وكثر مؤيدوها - خاصة في صفوف الجيش العثماني - مع دقة التنظيم ومواصلة الدعاية في الداخل والخارج . وعندما اكتشف السلطان نشاط الجمعية تابعتها أجهزته وتعرض كثير من أعضائها للاعتقال واستخدمت مختلف وسائل الضغط والإغراء لإضعافها والقضاء عليها . وعلى أثر ذلك اضطر عدد من أعضاء الجمعية ودعاة الإصلاح في الدولة العثمانية إلى مغادرة البلاد والالتجاء إلى العواصم والمدن الأوربية فرارا من ملاحقات السلطات لهم .

والنقطة الأساسية والجوهرية التي ركز عليها الدكتور رامزور أنه اعتبر أن «جمعية

---

(1) Committee of Union and Progress

(٢) الدكتور أرنست أ . **رامزور تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨** ، ترجمة الدكتور صالح أحمد العلي (بيروت - نيويورك : دار مكتبة الحياة بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلسين ، ١٩٦٠) ، ص ٥٠ .

(3) George M. Haddad, ***Revolutions and Military Rule in the Middle East*** (New York: Robert Speller & Sons, Publishers,Inc., First ed., 1965, p. 49.

الاتحاد والترقي» هي الأصل ، وهي نقطة البداية ونفى بشدة وجود أي دور للحركة الماسونية . وعندما ووجه بأن محفل باريس الماسوني قد أعلن أنه كان له الدور الرئسيي في إحداث الانقلاب العثماني لم يتردد السيد رامزور في أن يقول إن ذلك الإعلان كان مجرد تفاخر لا أساس له من الحقيقة!! غير أنني وجدت في الصحف اللبنانية الصادرة في بيروت أيام حدوث الانقلاب أدلة لا تقبل الشك أن الماسونيين هم الذين نفذوا الانقلاب ، يضاف إلى ذلك ما أكدته تقارير ضباط المخابرات البريطانية المتزامنة مع الحدث ، وهي محفوظة في ألأرشيف البريطاني Public Records Office وضمن وثائق مكتب الهند في لندن بصفة خاصة . وذلك عين ما أكدته دراسة الدكتور إبن هاني (هاني أوغلو) ، وقد ذكرت كل ذلك ووثقته في البحث المنشور بعنوان : «العسكريون في السياسة»(١) .

وقد نتج عن الاهتمام العام بمعرفة الأسباب التي مكنت أوروبا من التفوق وامتلاك العوامل والأدوات التي حملتها إلى مرتبة التفوق الكبير على الدولة العلية العثمانية ، شروع السلطات بإرسال البعثات الطلابية إلى أوروبا ، وتأسيس المعاهد الدراسية العالية ، من الكليات والجامعات في إستنبول ، عاصمة الإمبراطورية التي كانت تستوطنها أعداد كبيرة من رعايا الدولة المسيحيين ، بجانب الأغلبية المسيحية من سكان عدد من الأقطار الأوروبية التي كانت تشكل جزءا من الدولة العثمانية ، وهم الأكثر ميلا للإعجاب بالأوروبيين وتقليدهم والاقتباس منهم ، كل ذلك أدى إلى ظهور طبقة كبيرة من الشخصيات الثقافية والإدارية المهمة تبنت التوجه الغربي ، الرامي – ليس إلى تقليد أوربا فحسب – بل وإلى تبني الفكر الإجتماعي والسياسي الأوروبي وأنماط السلوك والحياة الإجتماعية الأوربية والإنغماس فيها إلى آخر مدى .

دور علماء الدين والمتصوفة بين الحركات «الإصلاحية»:

إذا كان كثيرون من الذي تعلموا في أوروبا ، أو اختلطوا بالأوروبيين ، أو تعلموا في الكليات والجامعات الجديدة التي أسستها الدولة العثمانية ، قد تأثروا بالفكر ونمط الحياة الإجتماعية الأوربية ، وانضموا إلى الحركة الماسونية وصاروا أدوات في تنفيذ مشروعها . . فماذا كان دور العلماء والمتصوفة والمتدينين بشكل عام؟

---

(١) أنظر عبدالله أبو عـزة ، *«العسكريون في السياسة»* ، ***الأمة في قرن*** ، مجلد ٤ ، ص . . . .؟

لقد كانت للعلماء والمتصوفة في المجتمع العثماني التقليدي قبل أن يكتشف ضعفه ويتجه إلى التغيير أو الإصلاح ، سلطة كبيرة ، وقوة اجتماعية لا يجهلها ولا ينكرها أحد . لقد كان العلماء ورجال الدين عامة مصدرا من مصادر إعطاء الشرعية للحكام في مناصبهم وفي قراراتهم وإجراءاتهم ؛ وإن كان ذلك من الناحية النظرية والشكلية في أغلب الأحوال . وقد كانت الشرعية الشكلية التصديقية مطلوبة لمن يتولى السلطة ، أو يريد أن يتولاها أو تثبت في يديه وتستمر بعد أن يتولاها ؛ بغض النظر عما إذا كان طالب السلطة وصاحبها متدينا ، أو غير مهتم بأمر الدين ، أو حتى معاد للدين ولا يعترف به . وبناء على هذا الوضع المعروف في تاريخ أمتنا ، في أكثر أقطارها ، قديما وحديثا فإن سير الأحداث وتطور العلاقات السياسية داخل مكونات المجتمع العثماني في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين لم يشذ عن هذا النمط من الممارسة وهذا السلوك ؛ ذلك من حيث المنطلقات والدوافع ؛ أما من حيث العلاقات التاريخية ، الأحداث التي عاشها الناس ورسمت مشاهدها لنا المصادر والمراجع ، فإنها تبين لنا حرص السلطان على إحاطة نفسه بعدد من العلماء البارزين ، وتأكيد شرعية سلطته وواجب «الرعية» في طاعته والولاء له والدفاع عن السلطنة بشكل عام . غير أن الأمور لم تسر كما أراد أو تصور . لقد كان هناك علماء مخلصون صادقون ، يريدون الإصلاح ، لكنهم لا يدركون كيف يكون الإصلاح ؛ وكان بعض هؤلاء ضمن معسكر القصر ، الباب العالي ، بينما كان آخرون أقرب إلى حركة الإصلاح المعارضة التي تزعمها وأدارها الماسونيون وحلفاؤهم وأنصارهم . وبينما حرصت مجموعات من العلماء على الاحتفاظ بموقف مستقل عن حركة تركيا الفتاة ، والاتحاد والترقي – وهما كيانان متداخلان – فإن أفرادا ومجموعات من العلماء قد انضموا إلى الاتحاد والترقي . وهذا الكلام ينطبق أيضا على الحركات الصوفية . « فمنذ وقت مبكر يعود إلى سنة ١٨٩٤م تمكن حسين زاده علي ، ومعه إسحاق سكوتي (Sukuti) من الحصول على وعد من الشيخ عبيد الله أفندي ، الذي كان من العلماء البارزين ، بدعم ومناصرة لجنة الاتحاد والترقي ، أو جمعية الإتحاد والترقي ، the Committee of Union and Progress ، والتي يختصر اسمها في المراجع الإنكليزية بالحروف الأولى (CUP) . وكان حسين زاده علي ، وإسحاق سكوتي هما اللذان قادا الفرع التنظيمي للنواة الأولى للإتحاد والترقي . غير أن الذي حدث ، بالرغم من الوعد الذي أعطاهما إياه الشيخ عبيدالله أفندي ، وما حصل بعده

من تحسن في العلاقات بين الجانبين ، أن العلماء ظلوا ينظمون أنشطة مستقلة خاصة بهم حتى سنة ١٨٩٧ ، وبعدها فقط بدءوا ينضمون إلى صفوف المعارضة التي شكلتها تركيا **الفتاة** [١] . » وكان للإتحاد والترقي فرع في مصر ، التي كانت في قبضة الاحتلال البريطاني . ومهما كان قدر التعاون فقد ظل الاختلاف الأساسي بين الاتحاد والترقي من جانب والعلماء من الجانب الآخر حاضرا ومؤثرا . لقد كانت الفلسفة المادية «الوضعية» التي اعتنقها أحمد رضا باشا ، رئيس لجنة الاتحاد والترقي ، وأتباعه ، عاملا مهما في إضعاف الثقة بين الجانبين ، كما أن جماعة الاتحاد والترقي لم يعودوا يشعرون بالحاجة إلى تعاون العلماء وتأييدهم بعد سنة ١٩٠٢ ، فأهملوهم ؛ ومن هنا وجد التباعد طريقه . ولسنا نستطيع التوسع في تتبع تفاصيل هذا الجانب الجزئي من إيماءاتنا السريعة بشأن صلة «علماء الدين المسلمين» بالاتحاد والترقي وتعاونهم معها [٢] ، لأن هذا الجانب يعتبر موضوعا صغيرا جدا في الإطار العام لدراستنا الحالية .

الطرق الصوفيــة:

في تاريخ الدولة العثمانية الطويل الذي امتد من أوائل القرن الرابع عشر الميلادي إلى أوائل القرن العشرين ، نمت الطرق الصوفية وتطورت بحيث صارت لها سمات خاصة لم تكن لها من قبل . وإذا كان يمكن أن يقال – بشكل عام – إن معظم الطرق الصوفية كانت تسعى للحصول على دعم ورعاية السلطة الحاكمة ، وتنافس ، او تصارع ، من أجل الاستئثار بهذا الدعم الحكومي السلطوي دون الطرق الصوفية الأخرى المنافسة ، فيبدو أن بعض الطرق الصوفية الرئيسية تخطت هذه الحدود ، بحيث صارت تتبنى سياسات عامة معينة ، وتدخل في تحالفات مع قوى أخرى . وفي ضوء ذلك يمكن القول إن الطرق الصوفية في الدولة العثمانية انقسمت في شأن تحديد مواقعها السياسية بين مؤيدين لحكم ونظام السلطان عبدالحميد الثاني ومعارضين له ؛ والمثير في هذه المعارضة أنها تجسدت في التحالف مع الماديين ، الذين

---

(١) ***المصدر نفســه*** ، ص ٥٠ .

(٢) للإطلاع على مزيد من التفاصيل أنظر م . شكري هاني أوغلو Sukru Hanioglu . M ، ص ٤٩-٥٣ . معذرة ، لم أستطع كتابة الحرف الذي يظهر صوت (ش) التركي .

يرفضون الاعتراف بما وراء المادة ، أتباع الفلسفة الوضعية ، بل والتحالف حتى مع الحركة الماسونية . وحتى الطريقة النقشبندية التي كانت موالية للسلطان وجد من بين شيوخها البارزين من انضم إلى جمعية «الإتحاد والترقي» ، وكان من أبرز هؤلاء الشيخ شوقي جلال الدين ، الذي شارك وكان عضوا في المؤتمر الذي عقده الإتحاديون في باريس سنة١٩٠٢م ، وكان الشخصية الصوفية الوحيدة في المؤتمر . أما أتباع الطريقة البكتاشية المعادون للنظام الحميدي فقد لعب أتباعها دورا في الحراك السياسي العثماني في الربع الأول من القرن التاسع عشر ، لدرجة أثارت السلطة فقامت بقمع البكتاشيين وحظرت تحركاتهم سنة ١٨٢٦م ، قبل نصف قرن من عهد السلطان عبدالحميد الثاني . غير أن أتباع الطريقة عادوا إلى الظهور بعد تتويج السلطان عبدالمجيد وأخذوا يعيدون فتح الزوايا . وبين سنتي ١٨٧٨ و١٩٠٨ وضعت أنشطة أتباع هذه الطائفة تحت رقابة شديدة بسبب دورها في الحركة القومية الألبانية الرامية إلى صياغة شخصية ألبانية قومية . ومنذ بداية حركة تركيا الفتاة وحتى ثورة ١٩٠٨ ظل أتباع الطريقة البكتاشية يتعاونون جنبا إلى جنب مع «تركيا الفتاة .» وفي سنة ١٨٩٩ أصدر شخص ألباني من البكتاشيين يدعى أحمد بابا ، أصدر في مصر(١) مجلة معارضة لحكم السلطان عبدالحميد الثاني ، باللغتين التركية والألبانية . كما أن البكتاشيين انضموا إلى الماسونيين الذي سمحوا لأعضاء تركيا الفتاة باستخدام محافلهم ومقراتهم بعد سنة ١٩٠٦ ، بجانب ما اتخذته السلطات بعد سنة ١٩٠٩ لمساندة البكتاشيين وقمع خصومهم ، وغير ذلك من مظاهر التأييد والمحاباة .

ولقد حاول السلطان عبدالحميد الثاني أن يوظف قوة الطريقة التيجانية والطريقة السنوسية اللتين كانتا منتشرتين في شمال ، أفريقيا لغلق الباب أمام عبور النفوذ الأوروبي إلى تلك الأقاليم العربية . ومن ناحية أخرى فإن توجه السلطان إلى استخدام الطريقة الرفاعية من أجل صد تسرب النفوذ الغربي إلى سوريا قد أدى إلى تأجج التنافس ثم الصراع بين الطريقتين الرفاعية والقادرية . وفي جو هذا الصراع نجح الشيخ أبو الهدى الصيادي – زعيم الرفاعية ، وهو حلبي – في إحراز مكانة عالية عند السلطان ، وصار مستشارا لـه ، كما صار «شيخ الإسلام» ، وحصلت الطريقة الرفاعية وأتباعها على كثير من المساعدات والتسهيلات والفرص . ويبدو أن السلطان أراد

---

(١) وكانت مصر آنذاك تحت الاحتلال البريطاني .

استخدام الرفاعية ضد البكتاشية التي كانت منتشرة في الأقطار الأوروبية العثمانية ، فشجع الرفاعية على فتح فروع وزوايا لهم في مقدونيا . وقد عمل أبو الهدى الصيادي ، بدعم من السلطان ، على نشر الطريقة الرفاعية لتصبح المسيطرة في البلاد العربية ؛ وكان غرض السلطان الأساس تقوية مركزه هو ، عن هذا الطريق . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل استمر الشيخ الصيادي وأتباعه الرفاعية في محاولة تحجيم «العدو» ، واتخذ الهجوم منحى آخر عندما أخذت الصحافة التركية تهاجم الشيخ عبدالقادر الجيلاني (٤٧٠هـ - ٥٦١هـ) بمناسبة صدور طبعة مترجمة إلى اللغة التركية من كتابه المشهور : الغنية لطالبي طريق الحق [1] ، وإذ ذاك تدخل السلطان وأمر بمنع نشر أية مقالات أخرى تتعرض للشيخ عبدالقادر . ونتيجة لهذا التنافس الذي تحول إلى صراع بين الرفاعية والقادرية اندفع أتباع القادرية ، أو دفعوا ، إلى التحالف مع «تركيا الفتاة .» وقد حاول الحليفان القيام بانقلاب ضد السلطان سنة ١٨٩٧ لكن المحاولة فشلت ، والقي القبض على أتباع القادرية الذين شاركوا في المحاولة أو اتهموا بذلك ، وأرسلوا إلى المنافي البعيدة ضمن أراضي الإمبراطورية العثمانية .

هذا الاستعراض السريع الموجز الذي اكتفينا فيه برسم الخطوط العريضة لمسارات المحاولات الإصلاحية في الدولة العثمانية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى يبين بوضوح أن ما جرى في البلاد العربية المشرقية خاصة ، في أواخر تلك الفترة ، لم يكن سوى أصداء خافتة لذلك الصراع الصاخب الذي شهدته استنبول وبعض البلدان العثمانية الأوربية .

وخلاصة القول أن الدولة العثمانية فشلت في مساعيها الإصلاحية بسبب ما كانت تحمله من إرث الماضي الثقيل ، وليس أقله تلك الأقطار وهاتيك الشعوب التي ضمتها إلى أراضيها عن طريق الغزو والفتح ، وظلت محتفظة بها كما ظلت تعتبر سكان تلك البلاد من رعاياها على الرغم من الجراح العميقة والمؤلمة التي لم يمحها كر السنين والقرون ،وعلى الرغم من أن أولئك الرعايا لم يعودوا حريصين على تلك الرعاية أو راغبين في استمرارها ، وبجانبهم الدول الغربية الناهضة تشجعهم على

(١)(والكتاب مطبوع باللغة العربية ، وهناك طبعة منه صدرت في بيروت ، : عبدالقادر بن موسى بن عبدالله الجيلاني ، ***الغنية لطالبي طريق الحق*** ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، لم يذكر تاريخ طباعتها .

الثورة والاستقلال وتعدهم وتقدم لهم المساعدة والدعم . ولم يكن للقيادات العثمانية الحكومية أو المدنية الرؤية التي تحملهم على إبدال العلاقة بإعطاء شعوب تلك الأقطار حرية الاختيار بين الاستقلال والانفصال الكامل ، أو إنشاء علاقات تقوم على أسس جديدة من حسن الجوار والتعاون الاختياري القائم على المصالح المتبادلة ، مع اختلاف الدين والثقافة ، وليس على السيطرة والتبعية[١] أو الرعوية .

ومن ناحية أخرى فإن القيادات الفكرية والثقافية – ونخص علماء الدين بالذات – لم تكن لديهم القدرة لاكتشاف المبادئ القرآنية الحاكمة التي يمكن أن توفر للمجتمع منطلقات الإصلاح والنهوض وبناء الدولة على أسس مجددة وحديثة تخرجهم من المسارب والأنفاق المعتمة القديمة التي تحدثنا عنها في الفصول السابقة ؛ وبهذا فقدوا مركزهم باعتبارهم قادة الفكر في مجتمعهم ، وتركوا الساحة خالية لتلك العناصر التي اختارت أن تدير ظهرها لكل التراث العثماني ولتلقي بنفسها في أحضان أوروبا .

الإصلاح في الأقاليم العربية:

فإذا التفتنا إلى الأقطار ، أو الأقاليم الإسلامية الأخرى التي كانت تشكل جزءا من بنية الدولة ، وبحثنا عن المفكرين في الإصلاح أو المشاركين في الجهود التي جعلته هدفها ، نجد آثارا من ذلك في الأقاليم العربية التابعة للدولة ، كما وجد في غيرها من الأقاليم . ففي هذه الأقاليم العربية نجد أن الفكر الإصلاحي ، غير الحكومي ، بدأ في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي ؛ وأن بعض الإصلاحيين استهدفوا الاستقلال ، أو التحرر من الحكم العثماني ، خاصة بعد سيطرة جمعية تركيا الفتاة على الدولة وممارستها لسياسة عنصرية وقهرية ضد العرب والإسلام ؛ وكان للبعثات التبشيرية الغربية تأثير على بعض المسيحيين العرب الذين تتلمذوا على أيدي أساتذة غربيين ، فرنسيين وغيرهم أيضا [٢] . وهذا أمر طبيعي في ظل كل

(١) كما فعلت بريطانيا عندما اعلنت ستة ١٩٦٨ عزمها على إنهاء سيطرتها وسحب قواتها من كل المناطق الواقعة شرق قناة السويس .

(2) ZEINE N. ZEINE, THE EMERGENCE OF ARAB NATIONALISM, With a Background Study of Arab-Turkish Relations in the Near East (Beirut: Khayats, 1966), p. 38, 42-47, 58-61.

الظروف السائدة المعروفة . ونظرا لوقوع معظم بلاد عالم الإسلام في دائرة التأثير القادم من عالم الغرب ، ولأن المكونات البشرية لشعوبنا كانت كثيرة التنوع من النواحي الإثنية والدينية فقد تعددت توجهات التيارات الفكرية ، والحركات الإصلاحية ، واختلفت وتناقضت في كثير من الأحيان . وكان مما ظهر على المسرح فكر ودعوة جمال الدين الأفغاني(١) وتلاميذه والمعجبين به ، وأبرزهم الشيخ محمد عبده ، وتلميذه الشيخ محمد رشيد رضا ، وعبدالرحمن الكواكبي ومن سار على نهجهم من بعدهم ؛ وقد اختلطت عند بعضهم التوجهات الإسلامية والقومية معا ، وعند البعض الآخر ، من غير المسلمين ، كانت الدوافع الدينية والظروف السائدة تشجع على الانسلاخ عن الدولة . ومن ناحية أخرى فقد انضم عدد كبير من الضباط العرب في الجيش العثماني إلى ما اعتبر حركة إصلاحية داخل الجيش ، ذات صلة بجمعية «تركيا الفتاة» ، أوجمعية «الاتحاد والترقي» ؛ وقام بعضهم بأدوار رئيسية في التحركات التي أدت إلى الانقلاب العثماني ، مثل العراقي اللواء محمود شوكت(٢) الذي زحف على رأس قواته من سالونيك إلى إستنبول ، وكان من مساعديه الضابط عزيز علي المصري . وسرعان ما اكتشف معظم الضباط والأعضاء المنتمين إلى الأقطار العربية أن الحركة التي أيدوها كانت حركة عنصرية تبدو متطرفة ، خاصة في عدائها للعرب وللإسلام بصفة عامة ، وكانت مسيرتها محفوفة بالألغاز والمتناقضات أحيانا . وفي نهاية المطاف قادت تركيا الفتاة الدولة العثمانية إلى الهزيمة الماحقة في الحرب العالمية الأولى ، حيث وقعت فريسة قسمت معظم أراضيها أسلابا للمنتصرين (٣) .

وفي فترة ما بين الحربين العالميتين ظهرت في عالم الإسلام ، وفي العالم العربي خاصة ، دول مستقلة بشكل منقوص ، أو سمها شبه مستقلة ، تحت إشراف الدول

---

(١) لقد تعرض الأفغاني لحملة شرسة ، حتى لقد نفى مهاجموه كونه أفغانيا مؤكدين أنه إيراني وشيعي ؛ لكن قيمة الرجل تتحدد فيما قاله وفعله ودعا إليه .

(٢) وهو من أصول قفقاسية ، من الناحية العرقية ، فضلا عن كونه ماسونيا . أنظر عبدالله أبو عزة ، «حول الدور السياسي للعسكريين في القرن العشرين» ، ***الأمة في قرن*** . . . ، إصدار مركز الحضارة للدراسات السياسية ،

(٣) (القاهرة : مكتبة الشروق الدولية ، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٣م) ، المجلد الرابع ، ص ٤٠٥ – ٤٣٨ .

التي كانت تستعمرها ، فتبنت النظام السياسي الغربي اللبرالي ، في شكله الخارجي ، ووضع لكل منها دستور حديث على النمط الغربي في مظهره وخطوطه العريضة . وقد واصلت تلك الدول مسيرتها بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ، لكن معظم تلك الأنظمة ما لبثت أن تعثرت وسقطت واحدا تلو الأخر حوالي منتصف القرن لأن مسيرتها لم تحقق الآمال المرجوة منها ، ولو في الحد الأدنى .

الأحزاب والحركات القومية والاشتراكية واللبرالية والإسلامية:

وكان مما ظهر في نفس الفترة أيضا حركات/أحزاب قومية ، ولبرالية ، وإسلامية ، واشتراكية ، وشيوعية ، كما ظهرت حركات فكرية وسياسية ، وأحزاب مسيحية ، من غير أن تسمي نفسها بهذه الصفة الدينية . وقد كانت كل من هذه الحركات والأحزاب – دون استثناء – تنشد التغيير والإصلاح من خلال منظورها الخاص ، أو من منظور الكتلة الدينية أو الإثنية التي مثلتها ؛ وكل هذا كان طبيعيا في حياة البشر ، لا ينبغي أن يستوجب أي نوع من اللوم أو الإدانة . وقد انتهت هذه المرحلة أو شارفت على الانتهاء في أواخر أربعينات القرن الماضي ، لتبدأ بعدها فترة مشوبة بالقلق والاضطراب ، حيث شهد العالم العربي خاصة ، وعالم الإسلام عامة ، كثيرا من الإنقلابات العسكرية التي حمل كل منها شعارات الإصلاح وادعى أن هدفه الإصلاح ، فأزاحت الانقلابات معظم تلك الأنظمة واحدا بعد الآخر ، كما بدأت تزيح انقلابات سابقة لها . أما النتائج : فقد كانت كلها مخيبة للآمال ، بشكل عام ، وليس بالنسبة لكل التفاصيل ؛ ولذا فإن محاولات البحث عن مخرج ، وعن طريقة للإصلاح الفعلي الناجح لم تزل مستمرة .

لماذا حدث الفشل:

أولا : لقد فشلت تجارب الأحزاب والأنظمة شبه اللبرالية التي ظهرت في البلاد العربية والإسلامية غداة استقلالها المنقوص لأن الأفكار التي انطلقت منها وبنيت عليها جلبت من بلاد قصية ، واستزرعت واستنبتت في بيئة اجتماعية وسياسية مختلفة عن بيئتها الأصلية ، وغير مهيأة لاستقبالها واحتضانها . فالأنظمة اللبرالية الديمقراطية ، والأحزاب اللبرالية التي شاركت فيها ونشطت ضمن مساراتها في المنطقة العربية إنما استلهمت النموذج الذي كان سائدا في أوربا الغربية . لكن عنصر

المفارقة بين النسخة المقلدة والنسخة الأصلية أن الأنظمة اللبرالية ظهرت في دول غرب أوروبا من خلال مسار طويل ، مليء بالمعاناة ، والنضال ، والمقاومة ، والثورات ، كل ذلك بمشاركة شعبية كاملة وجادة . وقبل نضج التجربة اللبرالية الديمقراطية في عالم الغرب كانت دول الغرب قد خرجت من دوامة الصراعات الدينية بتبني العلمانية السياسية ؛ وتم ذلك في معاهدة دولية عرفت باسم «صلح وستفاليا» سنة ١٦٤٨م ، بعد حروب دينية ظلت تتكرر اكثر من مئة سنة . وكان من الأهداف الرئيسية لإبرام هذه الاتفاقية منع البابوية ، والكنيسة الكاثوليكية من التدخل ، بل ومن التسلط ، على الأعمال والمواقف السياسية للدول الأوروبية ، ذلك التدخل الذي كان سببا رئيسيا للصراعات الدينية . ثم جاءت وحشية الحروب الدينية الفرنسية والصراع بين الهيغونوت (البرتستنت) والكاثوليك في فرنسا ، ثم مذابح الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩م وما بعدها ، فنقلت الفرنسيين من كونهم الأشد تعصبا وتشددا في عقائدهم الدينية إلى حالة فكرية ونفسية ساقتهم إلى تبني وقبول العلمانية الاجتماعية والسلوكية بجانب العلمانية السياسية . وصار تدخل الدين في السلوك الاجتماعي خارج القانون ، وحتى خارج العرف العام .

وكانت الدروس التي تعلمتها الشعوب الغربية من هذا المسار الطويل المشحون بالمعاناة والآلام ضمانا لأن تجعل المواطن العادي حريصا على أن يكون رقيبا حساسا جدا تجاه تعدي الأقوياء والمغامرين واللصوص على القوانين ، سواء كان هذا الاعتداء يمس حقوقه الشخصية ، أو حقوق غيره من مواطنيه ، أو الحقوق العامة للأمة والوطن . ولم تكن هذه الرقابة الشعبية مجرد أفكار نظرية ، بل إنها ثبتت ضمن القوانين الأساسية (الدساتير) ، والقوانين الفرعية كذلك . والأهم من الدستور والقوانين أن تصاحبها وتتابعها الرقابة الشعبية ؛ وأن يكون هناك اقتناع عام لدي مواطني الدولة المعنية بأن هذه الرقابة مسئولية كل فرد وكل مواطن ، حتى مع وجود مؤسسات رسمية تناط بها الرقابة والمتابعة . وهذه الرقابة الصارمة كبحت أطماع الكثيرين ، وجعلت الواحد منهم يحسب ألف حساب قبل الإقدام على سرقة المال العام ، أو حق الأفراد الضعفاء أو الغافلين . ولست أزعم أن الممارسة صارت مثالية ؛ ولكنني أقول إن الفرص قد ضيقت بشكل كبير على جميع الميالين إلى الانحراف والاختلاس والسرقة ، سواء كانوا ممن يتربعون على القمة ، أو ممن هم في أدنى درجات السلم ، أو ما بين هذين المقامين من الدرجات . وكان هذا مما حفظ مقومات تلك الشعوب

ومصادر قوتها من التبديد والضياع ، فصارت شعوبا ودولا قوية تملك أدوات لحماية عناصر الاستقرار والقوة لديها . وكلنا نقرأ ونسمع ونشاهد كيف تتعامل معظم المجتمعات الأوربية الغربية مع من تكتشف تجاوزاتهم على القوانين ، مهما كانت مناصبهم رفيعة ، من رؤساء الدول فمن دونهم . ولا يفوتني أن أشير هنا إلى أن ممارسات الشعوب في الدول الغربية الديمقراطية اللبرالية تبدو أكثر شفافية وأكثر صدقية والتزاما في الدول الأصغر حجما بالمقارنة مع الدول الكبيرة التي يصل سكانها إلى عشرات الملايين أو أكثر ؛ وكل ذلك ينطبق على الأمور الداخلية دون العلاقات الدولية . أما الرقابة على السلوك الدولي فتبدو أضعف بكثير ، بحكم محدودية فرص المواطنين للاطلاع على ما يجري خارج حدود دولتهم .

فإذا انتقلنا إلى أقطار عالم الإسلام التي استوردت هياكل الديمقراطية الغربية اللبرالية وحاولت تشغيلها في غير أرضها وبيئتها نجد أنها قد فشلت في كل التجارب والمحاولات التي قامت بها ، لأن المستورد كان هياكل وأشكالا فارغة ؛ خالية من مضامين مسيرات النضال والمعاناة الطويلة عبر القرون ، والثورات والتضحيات ، والتجربة والخطأ والتصحيح المضمخ بالدم ، وبالدموع والآلام المبرحة التي عرفتها التجارب الغربية ، عبر فترة طويلة ،تزيد على خمسة قرون . وفضلا عن ذلك ، فإن هذه الهياكل المستوردة إلى بلادنا وضعت في أرض وفي بيئة اجتماعية بشرية تنتفخ ثقافتها الشعبية التاريخية المنحرفة بمقولات واعتقادات معطلة ، متوارثة عبر الزمن ، من مثل :

«سلطان غشوم خير من فتنة تدوم» ، والحاكم «الفاسق لا يخلع ، لما يترتب على ذلك من الفتنة» ، ومن مثل «من استولى على الخلافة بالسيف واستقرت في يده يصبح هو الخليفة الذي تجب طاعته ، والائتمام به في الصلاة ، والغزو معه في الحرب ، ومن لم يقبل ذلك ويتبع الإمام الغاصب الفاسد يكون مبتدعا» ، و«فإذا قام شخص قوي آخر ، وضم إليه مجموعة من العسكر ، وسار بالدبابات واستولى على منصب رئاسة الدولة من المغتصب الذي سبقه ، واستقرت سيطرته ، فإنه يصبح «الزعيم الأوحد» ، أو رئيس الجمهورية ، لا تجوز معارضته ، ولا انتقاده ولا خلعه ، حتى ولا منعه من فعل شئ يريده وينفذه ،» لما يترتب على ذلك من فتنة ؛ والرضا بالسلطان الغشوم ، والخضوع لجبروته وظلمه هو الخيار الأفضل .»

وهذا القبول بالإغتصاب ، والخنوع ، والإغضاء عن الظلم الذي يقع على ذات

المواطن أو على المواطنين الآخرين ينزل من قمة المجتمع إلى أظافر رجليه ؛ وهذه مواقف تتناقض كلها مع توجيهات رسول الله ﷺ في الحديث المشهور :

«إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا علي يده [يردعوه] أوشك أن يعمهم الله تعالى بعقاب .»

وقوله :

﴿لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم .﴾

أما الأقلية التي تتجرأ وترفض الظلم ، وتدافع عن مستقبل الأمة ومصالحها الأساسية ومصالح أجيالها ، أو تنتقد الفاسدين المستبدين الذين سرقوا السلطان ، أي السلطة الأعلى ، هذه القلة التي تتجرأ على النقد فلها الويل والثبور وعظائم الأمور . وهكذا نهبت وضاعت كل عناصر القوة ومقومات الأمة نتيجة لهذه المفاهيم المنحرفة عن جادة الإسلام وجادة العقل ؛ مع أن تاريخنا الطويل شهد ثورات ضخمة ضد الظلم والفساد لا تقل عن ثورات الربيع العربي .

ونأمل ، ونرجو الله أن يستمر أثر الربيع العربي الذي عاشته منطقتنا (٢٠١١م – ٢٠١٢ م) وأن تستمر الاندفاعة حتى تتطهر كل بلاد العرب والمسلمين من كل أشكال الاستبداد والقهر وما يصاحبه ويتولد منه من فساد . وبعد هذه الأحداث التي ما زالت شعوبنا تدفع من خلالها ضريبة الدم ستصبح الأجيال القادمة – إن شاء الله – أكثر حرصا في الدفاع عن حقوقها ومصالحها الفردية والجماعية .

ثانيا : فشل الحركات القومية والاشتراكية العربية :

لقد فشلت الحركات القومية والاشتراكية لجملة أسباب : لأن الأفكار التي تبنتها وحاولت نشرها ودعت إليها كانت أفكارا غريبة أجنبية ، فلم تجد صدى في بلادنا الإسلامية إلا في زوايا ضيقة جدا . ونحن نفرق بين القومية بمعناها الذي يشير إلى وجود كتلة بشرية بصفات مشتركة تميزها عن غيرها ، وبين القومية الفكرة والأيديولوجيا السياسية ؛ الكتلة البشرية هي نحن ، أما الأيديولوجيا فغريبة كما قلنا ؛ وكونها غريبة لا يستوجب رفضها تلقائيا بل الصواب أن تفحص وتقوم على أساس مضامينها وإمكانات استخدامها ، وما يتوقع منها وينتج عنها من نفع أو ضر .

والفكر القومي اللبرالي الغربي يعود إلى القرن التاسع عشر ، وأوائل القرن

العشرين . وقد صاحبته نظريات عنصرية متعصبة وضيقة الأفق ، مثل النازية الهتلرية في ألمانيا ، والفاشية في إيطاليا موسوليني ، والفلانجية في إسبانيا فرانكو . ومهما يكن من أمر فقد ضعفت (موضة) القومية في الغرب بعد الحرب العالمية الثانية ، بل وصارت لفظة القومية ، وصفة «القومي» Nationalist تحمل معنى سلبيا في مواطنها الأصلية ، بينما ظلت تحمل شيئا من معنى النضال ضد المستعمر في البلاد المبتلاة بالاستعمار .

ومع ذلك فإن حزب البعث ، وحركة «القوميين العرب» ، التي ظهرت بعد القومية اللبرالية ، تبنت الاشتراكية الماركسية اللينينية وجعلتها مرجعيتها الأولى ؛ وهذا لغز يعسر على الفهم ؛ أعني الجمع والخلط بين الأيديولوجيتين القومية ، والأممية العالمية . وفي القطرين العربيين اللذين حكمهما البعث أنجب الحزب نظاما دكتاتوريا قمعيا وعائليا ، مع اختلاف في التفاصيل والنتائج .

حزب البعث:

وهذا الذي اكتبه ليس من قبيل الذم أو الإساءة ، إنني أحترم جميع المناضلين الصادقين المجتهدين للوصول إلى الحق ، حتى لو أخطأوا في التشخيص والتحديد والممارسة ؛ ولكننا في مرحلة نحتاج فيها أشد الحاجة إلى قدر كبير من النقد الذاتي ؛ وقد فعل ذلك الراحل منيف الرزاز في نقده الشديد لمسيرة وممارسات حزب البعث العربي الإشتراكي بعد أن كان أمينه العام القومي . وقد لمس الرزاز بحديثه ما جرى في حزب البعث العربي الإشتراكي ، بشقيه : الشامي والعراقي لمسا خفيفا وذلك لأنه لم يكن قد تخلى عن إيمانه بشعارات الحزب الأساسية والرئسية ، ولذا فقد اكتفى بلوم من اعتبرهم وحدهم المسئولين ، خاصة وأن كثيرا مما حدث صار معروفا ، وما زالت آثاره وتفاصيله تنكشف وتتفجر سنة بعد سنة ، سواء في الصراعات والانقلابات والاضطهادات البينية ، وتشريد الزعماء وسجن بعضهم واغتيال آخرين ، او في تجسيد الحزب في الزعيم الأوحد ، وكان مما قاله وكتبه :

«هذا هو الحكم في سورية الآن [منتصف الستينات في القرن العشرين] وهؤلاء هم حكامها : فئة صغيرة من ضباط الجيش ، يحركها ويقودها في واقع الأمر قائد واحد ، بدأ تنظيمها في داخل جيش الجمهورية العربية المتحدة أيام الوحدة . . . دفع إلى تشكيلها السخط الذي اعتمل في صدورها نتيجة نقلها إلى مصر . . . هدفت

الفئة إلى الاستيلاء على الجيش ، فباسم الحزب تخلصت أولا من جميع العناصر المناهضة للحزب . . . فلما تم لها ذلك انطلقت تتخلص من الحزبيين الذين لم يخضعوا لقيادة التنظيم . . . باسم تكوين الجيش العقائدي كونت الجيش العشائري . . . عقيدة ومبدأ رفعت شعار الوحدة ، وكان منطقها قطريا . . . رفعت شعار الوحدة ولم تعرف الحكم إلا تسلطا وتزييفا لإرادة الجماهير . . . كيف يمكن أن يقتنع الشعب بأن الحكم حكمه حين يعلم أن الذي يحكم فعلا هو فئة من ضباط الجيش ، وحين يرى الضباط وقد شكلوا طبقة خاصة متميزة تتمتع بشتى أنواع الامتيازات ، وأن محافظات أو مدنا أو دوائر حكومية يسيطر عليها فلان أو فلان من ضباط الجيش أو المخابرات فلا يجري فيها أمر إلا بموافقته ، حتى لكأن الحكم حكم ملوك الطوائف . . . وأن رجل المخابرات يتمتع بسلطات لا حد لها ، وأن من المصلحة أن تداريه وأن تنافق له حتى لا تتعرض لغضبه وبطشه .» [الرزاز ص ١٠٢] ثم تمكن أحد الضباط الذين أسسوا التنظيم العسكري أن يقضي على منافسيه كي يصبح الزعيم الأوحد ، ثم يؤسس أسرة حاكمة فيخلفة ابنه مع توقع نجاح الإبن بالاحتفاظ بالمنصب الملكي في سلالة حافظ أسد . ولم يمتد الأجل بالفقيد الراحل الدكتور منيف الرزاز ليشهد الفصول الأخيرة التي شهدتها سنتا ٢٠١١-٢٠١٢م .

والحقيقة التي ما زال البعثيون يتجنبون الاعتراف بها أن حزب البعث السوري عندما فشل في استقطاب أعداد من السوريين لتقبل شعاراته بحيث يكون له وزن شعبي ، تحول إلى إثارة وتوظيف أحقاد بعض الأقليات وتسريب أفراد منها للسيطرة على الجيش ، فما أن تم له ذلك حتى تحول إلى الانقلابات العسكرية ، والانقلابية التي تشكل الجزء الرئيسي من عقيدته ، ومن خلالها حول الحكم إلى نظام عشائري وطائفي في الوقت نفسه . وهكذا ظهرت أسرة حاكمة ملكية ، أو جملوكية كما سماها أحد الكتاب الظرفاء ، تنسب نفسها إلى اليسار العربي والعالمي ، وإلى الماركسية اللينينية . وهكذا صار من الممكن القول باختصار : إن حزب البعث ركب الأقلية العلوية ليصل على ظهرها إلى حكم سوريا ، لكن تلك الأقلية الطائفية لم تتركه يهنأ إلا قليلا حتى قلبت الموقف ، فركبت الحزب أداة لاستعباد الشعب السوري .

حركة القوميين العرب:

ظهرت الحركة في أواخر النصف الأول من القرن الماضي ، وكان منبتها في الجامعة الأميركية في بيروت . وكان من مقدمات ظهورها أنها تأثرت بنظرية ساطع الحصري في القومية ، كما تأثرت بفكر السياسي اللبناني علي ناصر الدين ، وكان التأثير الأكبر للدكتور قسطنطين زريق . كل هذا في مرحلة التكوين المبكرة . وعندما ظهرت على مسرح الأحداث تبنت الماركسية اللينية سنة **١٩٦٢** ، ثم اختارت الارتباط بالناصرية ، وربما شجعها على هذا الارتباط ذلك التحالف السياسي الذي أخذ يتطور بين نظام جمال عبدالناصر والاتحاد السوفييتي ، خاصة بعد صفقة الأسلحة السوفييتية لمصر ، واتفاقية بناء السد العالي . وعلى أثر هزيمة حزيران ١٩٦٧م ومحاولة الحركة دراسة أسباب الكارثة تشققت الحركة نفسها وصارت عدة حركات متنافرة تبنت كلها الماركسية اللينينية ، وكان أهم هذه الحركات الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بزعامة الدكتور جورج حبش ، والجبهة الديمقراطية بزعامة السيد نايف حواتمة . أما فرع جنوب اليمن فقد اختلف مع الآخرين بشأن فترة العلاقة بالناصرية ، وإن كان قد تبنى الماركسية .[(١)] واستمرارا في هذا السياق تكشفت التداعيات عن ثلاثة اتجاهات : «الأول أعلن تصفية الحركة وإنهاء العلاقة مع تاريخها وما يمثله من مواقف فكرية ، وأيديولوجية وسياسية ، شكلا ومضمونا ، واستبدالها بتأسيس منظمات قطرية ماركسية - لينينية ترتكز على ركائز فكرية وتنظيمية وعلاقات تحالفية جديدة . ومن أبرز ممثلي هذا الاتجاه نايف حواتمة ، ومحمد كشلي ، ومحسن إبراهيم ، ومنه تفرعت عدة منظمات سرعان ما أعلنت تبنيها الماركسية - اللينينية ، وكان من أبرزها الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين (نايف حواتمة) ، ومنظمة الإشتراكيين اللبنانيين بزعامة محسن إبراهيم ، وذلك استنادا إلى مقولة استحالة تحول تشكيل برجوازي صغير إلى حزب ماركسي - لينيني .

الاتجاه الثاني : وجه نقدا شديدا إلى سياسة التحالف مع الناصرية ، معلنا منذ وقت مبكر ، استلهامه لبعض أطروحات الماركسية اللينينية ، ومنها العنف الثوري الذي تبنى على خلفيته سياسة الكفاح المسلح التي ستقوده ، من خلال النضال

---

(١) أنظر الدراسة القيمة التي نشرها مركز دراسات الوحدة العربية ، من تأليف سهير سلطي التل بعنوان : ***حركة القومين العرب وانعطافاتها الفكرية*** ، ص ٦٥-٦٦

اليومي ، إلى الاقتراب أكثر وأكثر من المفاهيم الماركسية - اللينية . . . وهذا الاتجاه جمد عضويته في الحركة منذ سنة ١٩٦٦ . . . لكنه لم يقطع صلته بالتاريخ الذي تمثله الحركة ، وحافظ - فيما بعد - على علاقات وثيقة بالتنظيمين الكبيرين اللذين انبثقا عن الحركة : الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين (جورج حبش) ، والجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين (نايف حواتمة) . ويمثل هذا الاتجاه الجبهة القومية لتحرير الجنوب المحتل ، ومن ثم الحزب الحاكم في جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية . . .

الاتجاه الثالث : هو الذي أصر على استمرار الحركة وعدم تصفيتها تنظيميا . . .]و [اقترح تواصلها ، وتحولها إلى حزب ماركسي - لينيني . وبالفعل تم تأسيس الحزب الإشتراكي العربي سنة ١٩٧٠ كاستمرار للحركة ، وأبرز فروعه الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين . . . وحزب العمل في لبنان . . . وحزب الشعب الثوري في الأردن [١] . . .

« . . . إن أبرز الموضوعات التي استعرضتها وثائق هذه المرحلة الصادرة عن مختلف الفرقاء تركز الاهتمام حول موضوعين رئيسيين :

١- الموقف من الحركة الناصرية ، وبالتالي الموقف من البورجوازية الصغيرة

٢- تحليل ونقد تاريخ حركة القوميين العرب السياسي والفكري والتنظيمي . [ص ١٩٣] .

«شكلت هزيمة حزيران ١٩٦٧ الصدمة التي دفعت جميع القوى السياسية إلى مراجعة برنامج حركة التحرر الوطني ومن يمثلها من قوى وأحزاب وتيارات . وفيما يتعلق بالقوميين العرب ، في ضوء تفاعل بذور الخلاف الذي ظهر سنة ١٩٦٢ في صفوف الحركة ، كانت المراجعة النقدية لأسباب ودوافع وعوامل هزيمة حزيران ١٩٦٧ الداخلية والخارجية من الموضوعات الحاسمة التي حملت الحركة على تبني الماركسية - اللينينية [٢]

ولما حكم القوميون اليمن الجنوبي بعد الانسحاب البريطاني ، وتسلمهم الحكم أواخر سنة ١٩٦٧ م لم يمض عليهم سوى سنين قليلة حتى تقاتلوا وذبح بعضهم بعضا عندما اختلفوا في اختيار ولائهم أيكون للماركسية السوفييتية أو الصينية الماوية؟ وهكذا نرى أن الحركة ما لبثت أن فقدت وهجها ثم افرنقعت ولما تبلغ

---

(١) ***المصدر نفسه*** ، ص ١٩٠- ١٩٢ .

(٢) ***المصدر نفسه*** ، ص ١٩٦-١٩٧ .

العشرين من عمرها بعد ولادتها .

أما الأحزاب الشيوعية في أقطار عالم الإسلام فقد فوجئت بانهيار الاتحاد السوفييتي في بداية تسعينات القرن العشرين . وكان ذلك الانهيار تلقائيا ، ولأسباب داخلية ناشئة من خلل في النظرية ، وخلل في الممارسة والتطبيق بالدرجة الأولى ، كما كان مفاجئا . لقد أوقعت المفاجأة زعماء ومنتسبي الأحزاب الشيوعية في العالم غير الشيوعي في حيرة شديدة وهم يحاولون تفسير حدوثه ، حيث ذهب بعض المتشددين ، منهم – الروس وغيرهم – إلى نفي وجود أي خلل داخلي في النظرية أو في الممارسة والتطبيق . ومن أمثلة ذلك أن بعض الشيوعيين الروس ، الذين جمعتني الصدفة بنفر منهم سنة ٢٠٠٥م ، حملوا مسئولية السقوط إلى ميخائيل غوربتشوف ، واتهمه محدثي بأنه كان عميلا لـ .C.I.A . وأظن أن التهمة غير صحيحة ، وأرجح أنها ربما كانت ألصق بـ بوريس يلتسن ؛ لقد انهار النظام من الداخل ، لا بعوامل خارجية ؛ وإن كانت العوامل الخارجية موجودة ، لا تستبعد تماما .

ثالثا: الحركات الإسلامية:

لقد شهد النصف الأول من القرن العشرين ظهور عدد من الحركات الإسلامية ، في كثير من أقطار عالم الإسلام ، وقد تأثر كثير منها بما بدأه جمال الدين الأفغاني وتابعه تلامذته من بعده . وفي مسيرة هذه الحركات نجد أنها حددت لنفسها في بداية ظهورها أهدافا ملحة عاجلة ، إذ وجدت في أراضي أوطانها استعمارا أجنبيا بشقيه الاحتلالي والسياسي ؛ وهكذا تحدد أول الأهداف العاجلة ، وهو طرد المستعمر .

أما الهدف الثاني ، وكان أقل إلحاحا من سابقيه ، فقد تمثل في مواجهة الهجمة الثقافية الغربية التي أخذت تشكك في كل ما هو إسلامي ، وتحاول نقل المسلمين إلى قبول التبعية السياسية والاجتماعية ، وممارسة الأنماط السلوكية الغربية في العلاقات الإجتماعية خاصة ، وليس في اكتساب العلم والمعرفة العلمية والتكنولوجية . وقد تولد من هذا الهدف وارتبط به هدف ثالث ، وهو الحرص على استعادة الثقة بالنفس وبالإسلام بشكل عام .

أهداف أخرى للحركات الإسلامية:

وبجانب الأهداف الثلاثة الملحة كان للحركات الإسلامية أهداف آخرى رئيسية ، لا تنطبق عليها حالة الاستعجال والإلحاح . وكان حسن البنا رحمه الله قد حدد تلك الأهداف في عبارات قصيرة من نحو : «**نحن نريد الفرد المسلم ، والبيت المسلم ، والشعب المسلم ، والدولة المسلمة ، التي تقود الدول الإسلامية ، وتستعيد أمجاد الإسلام ، ومكانة الأمة الإسلامية ؛ وبجانب ذلك : تستعيد كل أرض كانت إسلامية وفقدها المسلمون .**» [النص ليس حرفيا كله] .

وهذه الأهداف الأخيرة ربما تكون – في نظر معظم الحركات الإسلامية – أكثر أهمية من من الأهداف الثلاثة الأولى ؛ ولعل الهدف الأعلى المعلن الذي أخذ منزلة الأولوية العليا كان : إعادة انتاج دولة إسلامية مثالية قوية بشعبها وقدراتها ، يتلوه هدف آخر هو توحيد العالم الإسلامي ، واستعادة أمجاد المسلمين القديمة ومكانتهم على مستوى القطر الواحد ، وعلى مستوى العالم الإسلامي ، بل وعلى مستوى العالم كله ؛ واستعادة كل أرض كانت إسلامية ثم فقدها المسلمون .

لقد كان كل ذلك أقرب إلى الأحلام المعبرة عن العواطف والرغبات ؛ ولذا لم يتحقق منها شئ ، ولم تقترب منه الحركات الإسلامية ، أو الشعوب الإسلامية ملمترا واحدا ؛ بل إنها ابتعدت ، وطالت المسافة الموصلة إليها . أما الأهداف الثلاثة التي ذكرناها أولا : التحرر من الوجود الاستعماري ، ، والتصدي للهجمة الثقافية ، واستعادة الثقة بالنفس وبالإسلام فقد تحقق فيها شئ من النجاح ، وشئ من التعثر ، كما أشرنا من قبل . لقد تحررت أرض الوطن من الاحتلال الأجنبي قبل أن تحل العقود الأخيرة من القرن العشرين ، واستعيدت الثقة بالنفس ، وبالهوية إلى حد كبير ، وصارت النسبة الأكبر في مجتمعاتنا تبدي اعتزازها بالانتماء إلى أمتها وتاريخها وعقيدتها ؛ بل إن هذا الاعتزاز والثقة بالذات شابه كثير من المبالغات ، وبذلك أضيفت نقطة ضعف أخرى ، أو مرض آخر لما تعانيه مجتمعاتنا الإسلامية من أمراض ؛ ذلك أن الإسراف في الثقة بالنفس وبالقدرة ربما كان أسوأ من الإحساس بالضعف ؛ وكم من جيش عظيم القوة والعدد والعدة تعرض لهزيمة شنيعة لأن قائده في المعركة أسرف في الاعتداد بقوته ، وأهمل سد بعض الثغرات ، وتوفير بعض الاحتياجات الضرورية في وقتها . والأمثلة على ذلك كثيرة في تاريخ البشرية .

كذلك فقد بذلت الأمة – في شتى أقطارها – جهودا في محاولاتها للتصدي للغزو الثقافي والفكري ، لكن هذا الجهد تخلله كثير من التخبط ، وعدم التمييز .

لقد كان من أهم أسباب القصور التي عانت منها أمتنا وما زالت ، تتمثل – بشكل رئيسي – في عدم إدراك الأسباب الأساسية لضعف وانهيار الحضارة الإسلامية وعجزها عن النهوض ، وعن عدم معرفة سبيل النهوض وتجديد البناء . بل إن هناك جهلا وعدم اعتراف بحدوث الانهيار ، هناك تهوين من الحالة التي عانتها وتعانيها الحضارة الإسلامية بسبب انهيارها . وهذا التهوين ينطوي على خطورة كبيرة ، لأنه يبعث على الاطمئنان والركون الغافل المسترخي والأعمى ، ويضعف العزيمة ، ويقلل من العزم على حشد أقصى قدر من الطاقات ، والاستمرار في الحشد ، ثم تحريك الطاقات لإحداث الفعل المحكم ، وتحقيق النتائج المرجوة . وبجانب التهوين من الخلل هناك أيضا ما يؤكد أن أكثر الأسلاميين ينظرون إلى مهمة إصلاح الخلل بتفاؤل مسرف ، واستسهال أكثر إسرافا ؛ «الإسلام هو الحل» ، «تبني النظام الإسلامي هو الحل لكل المشاكل» . والنظام الإسلامي الذي يتحدثون عنه يضم حزمة من الأنظمة المتعددة التي تغطي كل جوانب الحياة ، في نظرهم . وعندما يتحدثون عن ذلك يشعرونك وكأن العملية كلها ستكون على درجة من البساطة والسرعة بحيث لا تحتاج من الوقت والجهد أكثر من أن يقوم رجل فيخلع ملابسه ، ثم يفتح خزانة الملابس ، ويأخذ منها ثوبا من طراز آخر ، ثم يرتديه ويخرج لمباشرة حياته وعمله فيتغير كل شئ . وهناك فريق آخر من الإسلاميين ، وهم هنا حزب التحرير الإسلامي ، يرون أن حل المشكل إنما يتحقق بإقامة الخلافة ، وأن الخليفة بنفسه سيحل كل المشاكل ، سيتخذ القرارات المناسبة بسرعة ، وفي طرفة عين لكل حالة ، ثم يكلف شخصا بالتنفيذ ، من غير حاجة إلى أجهزة موظفين ولجان وغير ذلك مما يضيع الوقت ، ويستغرق زمنا طويلا!! وتبسيط الأمور بهذه الدرجة ، وعلى هذا النحو ، يدل على الإدراك الشديد السطحية ، المحدود الأفق .

أمل جديد:

ومع ثورات الربيع العربي (٢٠١١ – ٢٠١٢م) وظهور الحركات الإسلامية على رأس خيارات الشعوب الثائرة عندما أتيح لها الاختيار الحر بعد نصف قرن من القمع والتزوير المتتابع ، يراودنا الأمل بأن ترتفع القيادات الإسلامية الجديدة بمستوى

تفكيرها وعملها وحديثها عما اعتاده الناس منها قبل أن تصل إلى مواقع المسؤولية والقيادة : التصريحات والبيانات الخطابية الدعائية التي كانت تستثير عواطف الناس البسطاء وأشباه المتعلمين . كما ندعو لها وندعوها بأن تتجنب السقوط في شراك الاستغفال التي وقعت فيها سنة ١٩٤٢ (مصطفى النحاس باشا) ، ١٩٤٦م (إسماعيل صدقي باشا) وفي مطالع خمسينات القرن الماضي ، في العلاقة مع العسكريين ومنظور السلطة من خلال الانقلابات العسكرية ، أو الوصول إلى السلطة من خلال التفاهم مع أي من الطغاة الفاسدين أو التحالف معهم . لقد جلبت هذه السقطات القديمة للإخوان تهم الانتهازية ، والتعطش إلى السلطة . ومع إيماني بأن هذه الاتهامات غير صحيحة إلا أن بعض التصرفات السياسية لقيادات الإخوان كانت تشجع خصومهم وتسهل لهم إلقاء هذه التهم . لا مراء في أن كثيرا من القيدات الإخوانية كانت تستعجل الوصول إلى السلطة ليس من أجل الزهو والتباهي أو التمتع بمنصب وزاري ، ولكن من أجل استخدام سلطة المنصب أداة للإصلاح السريع يأسا من الاصلاح عن طريق الدعوة والتربية ، «لأنك تصلح وغيرك يخرب» ، كما كانوا يحتجون . كما كانوا يستدعون ويطرحون حكمة كما لو كانت حديثا نبويا : «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن .» وهي حكمة نصف صحيحة لأنها تصلح للتعامل مع الأفراد الشاذين الذين يخالفون القانون متعمدين عن إدراك وقصد ، لكنها لا تصلح للتعامل مع الشعوب بشكل عام .

الفصل الخامس عشر

إنجازات الحضارة العربية الإسلامية

لم يكن ضمن خطة البحث الأولى لهذا الكتاب فصل بهذا العنوان ، ولم يكن في نيتي أن أتناول موضوع «إنجازات الحضارة العربية الإسلامية» فيه ، وذلك لسببين : أولهما أنني سبق لي أن تناولت هذه الإنجازات بشكل سريع في كتاب سابق صدر سنة ١٩٨٨ ، كما تناولت الموضوع بشكل جزئي ضمن الأطروحة التي كنت تقدمت بها جزءا من متطلبات الحصول على درجة الماجستير سنة ١٩٦٩ . أما السبب الثاني فهو ، أن الموضوع الرئيسي لهذا الكتاب هو انهيار الحضارة العربية الإسلامية وسبيل النهوض ، حيث يغطي الحديث عن الانهيار ، واسباب الانهيار كل فصول الكتاب ، ما عدا الفصل الأخير الذي يأتي تحت عنوان : سبيل النهوض وتجديد البناء . ولقد كان مما انتقدته بشدة فيما يتعلق بمسار الفكر الإسلامي الحديث هو الاستنكاف عن الإقرار بالضعف الذاتي الذي بدأ يضرب الأمة وحضارتها منذ منتصف القرن الهجري الأول تقريبا ، ويزداد نموه ويتضخم حجمه مع مرور السنين والقرون حتى أرداها وأعجزها وأقعدها ؛ كما انتقدت – بجانب ذلك – الإسراف في التباهي والتفاخر بالإنجازات القديمة مع خواء الحاضر بدرجة محزنة مخجلة . وقد تراءى لي أن عودتي للحديث عن الإنجازات في هذا الكتاب قد يبعث إحساسا لدى القراء بشئ من التناقض ضمن خطابي البحثي الإنهاضي ، إذ يعتبر أنني أشارك في ممارسة التفاخر والتباهي بالماضي وأنعي ذلك على الآخرين . وهكذا صدرت الطبعة الأولى من الكتاب من غير أن تتضمن فصلا أو حديثا عن الإنجازات . غير أن بعضا من الإخوة والأصدقاء الأحبة الذين قرءوا الطبعة الأولى أبدوا ملاحظة حول غياب الحديث عن الإنجازات السابقة ، واعتبروا أن هذا النقص يمكن أن يحمل بعض القراء على الظن بأنني اهتممت بتسليط الضوء على العيوب والنواقص وسكت عن الإنجازات متعمدا لإعطاء صورة سلبية تبرر النقد الحاد ، وغيرالمتحفظ ، الذي جأرت

به في فصول الكتاب ، انطلاقا من موقف سلبي محض ؛ وهذا قد يحمل بعض القراء على عدم التجاوب مع ما أدعو إليه ، إن لم يقف ضده . وأذكر لأحد الإخوة أنه ثابر على مناقشتي بما يشبه العناد في ضرورة الحديث عن الإنجازات حتى وجدت نفسي أعيد التفكير في الموضوع [1] ، وفيما سمعت ، فألفيتني ملت إلى الاقتناع ، فولد هذا الفصل الرابع عشر . والحقيقة التي يلزم التنويه بها هنا أنني لم أفعل ذلك لإرضاء الناقدين ، خاصة من واصل الإصرار والجهد لإقناعي ، بل لأنني اقتنعت ، ورجح لدي أن إضافة الفصل ستكون لها فائدة أيجابية ، أو – على الأقل – درء بعض الأثر السلبي . ومع ذلك تظل المسئولية الكاملة عن كل كلمة وكل حرف هي مسئولية المؤلف دون غيره .

ما المقصود بالإنجازت الحضارية؟

في مقدمة هذا الكتاب حاولت شرح مفهوم الحضارة ، واستعرضت بعض الآراء السابقة ، ثم سلطت الضوء على معنى ومفهوم الحضارة كما أعتقده وأتحدث عنه ، ومضيت بعد ذلك في رحلتنا البحثية هذه في ضوء ذلك الفهم . وعدا عن عبارات الشرح المختصرة في المقدمة فإن مادة البحث المنتشرة في معظم فصول هذا الكتاب هي التي تبين المعنى والمفهوم المقصود بالحضارة ، وتلقى الضوء على كل جوانبه وتفاصيله . إذا أردنا أن نبحث عن الحقائق الحضارية ، والإنجازات الحضارية بالنسبة لأية أمة ينبغي أن نبحث عنها – أولا – في عقل الإنسان ووجدانه ، في مفاهيمه ومشاعره وسلوكه ونظرته وعلاقته بما حوله من إنسان وحيوان ونبات ، أفرادا وجماعات ، وبما أملت عليه المفاهيم والمشاعر من مواقف الإيثار أو الأثرة ، العيش لذاته ورغباته الحسية والمادية ، ولأسرته وعشيرته دون الآخرين ، أو أنه يشعر بالانتماء والواجب نحو مجتمعه الواسع . ونعود لما قلناه في المقدمة : إن الشرط الأساس للارتفاع إلى مستوى سام من الحضارة هو توافر الحرية التي لا تستمر المشاركة الواعية والطوعية إلا في ظلها ؛ ولا يفوتنا التنبيه هنا إلى أن السلوك الإنساني ، الفردي والجماعي ، في داخل أي شعب هو المكون الحضاري الأهم ، حيث يتسع نطاق شعور الفرد بالحب والانتماء والأمل ، متجاوزا دائرته الذاتية الفردية لتمتد مشاعره فتشمل

---

(١) هو الأخ والصديق العزيز خضر أحمد الخالدي ، فله الشكر مكررا .

الأسرة والأقارب والأصدقاء والحي والمدينة ، ثم تستمر في الاتساع لتحتضن الأمة التي ينتمي إليها ، ولا يقف اتساع أفقها عند هذا الحد ، بل يستمر في الاتساع ليشمل البشر جميعا ، ثم ينطلق ليشمل الكون المادي من حولنا أيضا ، باعتباره جزءا من صنع الله الخالق الواحد ، يسبح الله على نحو لا ندركه ، حسب إيمان المسلم . أما الإنجازات المادية والفنية فتأتي بعد ذلك في مرتبة ، أو مرتبات تالية .

عندما نشأت هذه الأمة ، مع ظهور الإسلام ، وظهور أول دولة إسلامية في المدينة (يثرب) ، في مطلع التاريخ الهجري قامت وبين أيديها مجموعة من المبادئ والفضائل والقيم المعبرة عن روح الحضارة وجوهرها ، وأهمها :

– الإيمان بالله الواحد الخالق الذي يحب المحسنين ، ولا يحب الظالمين .

– الله هو الذي خلق الرزق لكل مخلوقاته ، غير أن الرزق يحصل بالسعي والعمل ، ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . . .﴾ ، سواء في تحصيل رزقه أو ثروته ، أو في تحصبل جزاء أعماله في الدنيا يوم الحساب .

– الله يتصف بكل صفات الكمال ، وصفاته في أسمائه ، والله يدعو الناس لممارسة هذه الفضائل اقتباسا من توجيهات القرآن الكريم ، وتخلقا بها وتبنيا لها ، قبسا من هدى الله ، ومنها الإحسان والبر والتعاون في سبيل الخير العام ، والصدق ، والأمانة ، والاعتدال ، والإيثار سما ، ومساعدة الضعفاء والمحتاجين ، التزاما ، وتطوعا ، والتصرف في إطار العدل ، ومعارضة الظلم والعمل على إزالته ، والصفح والغفران والتسامح ، والتحاب ، وأن يحب الإنسان لأخيه ما يحب لنفسه ، والرحمة للإنسان القريب والبعيد ، وللحيوان ، وأن ينظر في ملكوت السماوات والأرض ، وفي التنوع الشديد في الخلق ، وهو دليل الإبداع ليتعلم فيعلم ، ودعاه للقراءة وتعلمها ليكتسب وسيلة الوصول إلى علم السابقين والآخرين من البشر (بفتح الخاء) ، وليكتب ويسجل ويحفظ ما يتوصل إليه من علم وتجارب ، وأن يواصل تركيمه وتعظيمه وتنميته وتوظيفه والاستفادة منه .

– ولقد زود الله الإنسان بالتوجيهات ، وعرفه بالخير الذي ينفعه فردا وجماعة ، وحضه عليه ، وخوفه من ممارسة الشر وكل نواقض الفضائل التي ذكرنا ، وهدده بالعقاب إن اختار الشر ، ولكنه :

– أعطاه الحرية في الاختيار في كل ما يقع تحت سيطرته ، وبين له أن اختيار الخطأ يستتبع ويستوجب المحاسبة والعقوبة من الله في الآخرة ، ومن السلطة الشرعية

في الدنيا بالنسبة لكل ما يوقع الضرر بالأفراد والمجتمع .

– ولكن ، لماذا أعطاه الحرية؟

الجواب أن الأ نسان هو المميز بالعقل ، بين جميع المخلوقات في هذه الدنيا ، وهذه القدرة على الاختيار هي الأمانة التي حملها الله تعالى لـه ، بعد أن زوده بالإرشاد والتوجيه ، ليصبح أهلا لخير الجزاء ، أو للعقوبة .

ما معنى وأهمية الإيمان بالله واستصحاب هذا الإيمان طوال مسيرة الحراك الفردي بالنسبة للأفراد والجمعي بالنسبة لحراك الأمة أو حراك مجموعات مميزة من مكوناتها . الله سبحانه وتعالى ليس إلـها وثنيا أو صنما أو واحدا من البشر مدعي الألوهية من الطغاة . واستصحاب الإيمان والاحتفاظ به في بؤرة الذاكرة والإحساس والوجدان هومعنى الذكر الذي يوجهنا القرآن إليه مرارا وتكرارا ، وذلك يعني ويساوي الاستصحاب الدائم لكل المبادئ والقيم والفضائل كي لا تتعرض المسيرة الخيرة لفقدان البوصلة وفقدان الإضاءة معا ، في أية مرحلة من مراحل انطلاقها . ذلك هو معنى الإيمان بالله والاستسلام له : «**أسلمت لله رب العالمين .**» بمعنى : جعلت كل حركة من حركاتي وكل سكنة منسجمة وطائعة لإرشاد الله وتوجيهه .

ولعل حرص أمتنا على تبني هذا الإيمان والاعتزاز به ، وبكل المبادئ والفضائل والقيم الفاضلة التي **استعرضناها في قائمة طويلة في غير هذا المكان مقرونة بموثقاتها من الآيات القرآنية** ، والتمسك بها ، ومقاومة القوى الطغيانية الفاسدة التي تسعى لاستبعادها باعتبارها عقبة تضيق عليها الطريق الذي يمكنها من فرض طغيانها ، لعل ذلك هو أول الإنجازات الحضارية وأهمها .

وهذه المبادئ والفضائل والقيم ليست من إنجاز الإنسان المسلم أو الحضارة الإسلامية ، بل هي مما زود الله به المؤمنين من أمتنا منذ البداية ، واضحة في القرآن الكريم ، وفي سنة رسول الله ﷺ ، كما زود بها الرسل السابقين وأتباعهم من المؤمنين السابقين قبل الإسلام . ومعنى ذلك أن أمتنا أعطيت أدوات العمل مع رسالة التكليف ، قبل أن تبدأ مسيرتها الطويلة عبر القرون . غير أن ذوي الأطماع من المفسدين عدوا على هذا الزاد من أدوات العمل وأدوات الحماية ، فعملوا على إفساده . أما وقد ألقينا الضوء على أركان وأسس الإنجاز فإننا سنمضي الآن إلى التنويه بما أنجزته حضارتنا في كثير من الجوانب العملية في مساراتها الطويلة ، دون أن نحاول الاستقصاء والإلمام بكل التفاصيل :

أول ميادين الإنجازات في الحياة العملية: العلم والتعليم:

«إقرأ» كانت أول كلمة أنزلت من كلام الله جل وعلا في القرآن الكريم، وذلك يبين مدى الأهمية والأولوية التي أعطيت للعلم، في كتاب الله تعالى، وفي تاريخ أمتنا عبر القرون. وقد مجد الله العلم في القرآن الكريم في آيات كثيرة، نذكر هنا بعضا منها:

﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات...﴾ [المجادلة/آية رقم ١١].

﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعلمها إلى العالمون.﴾ [العنكبوت/ آية رقم ٤٣].

﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور.﴾ [فاطر/آية رقم ٢٨].

﴿قل هل يستوي الذي يعلمون والذين لا يعلمون؟﴾ [الزمر/ آية رقم ٩].

وفي المسار الذي توجه إليه هذه الآيات الكريمة انطلق كثير من المسلمين الذين أولعوا بالعلم، ليحرز كل منهم القدر الذي تؤهله إليه فطرته ومساعيه وجهده وتسديد الله وتوفيقه له. ومن بين أولى خطوات التطبيق العملي والالتزام بهذا التوجيه الإلهي نجد في مصادرنا أن رسول الله ﷺ كان يعرض على الأسرى الذين يقعون في أيدي المسلمين: أن يقوم الأسير الذي يعرف القراءة والكتابة بتعليم عشرة من المسلمين، فإذا أتم ذلك اعتبر جهده مساويا ومقابلا للفدية التي يتحرر بها الأسير، فيطلق سراحه (١).

وسنستعرض هنا بعضا مما سجله التاريخ من مظاهر اهتمام المجتمعات الاسلامية والأفراد، وما أظهره بعض الحكام، وأمثلة من الإنجازات البارزة على المسار العلمي وتطور العلم في تاريخ البشرية. وغني عن القول أن الموضوع واسع، ويمكن أن يستغرق الحديث لوصفه كتبا ذات مجلدات كثيرة، وسنبدأ بالحديث عن الكليات في المستوى الجامعي - بمقاييس عصرنا - وعن الجامعات، وكان كل ذلك يطلق عليه إسم « مدرسة، المدرسة، المدارس.»

---

(١) محمد بن سعد (ت سنة ٢٥٠ه/٨٤٥م) ***كتاب الطبقات الكبرى*** (بيروت :دار صادر ودار بيروت، ١٩٥٧، مجلد ٢، ص ٢٢؛ وانظر كذلك: عبدالله أبوعزة، ***الإسلام: رسالته.. حضارته.. مستقبله*** (بييروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٨)، ص١٢٠-١٢٤.

كان المسجد ، منذ صدر الاسلام ، مركزا تعليميا بجانب كونه مركزا للعبادة . وقد ظل الأمر كذلك حتى القرن الخامس الهجري ، على الأرجح . لكن هذا القرن شهد انتشارا واسعا للمدارس ، التي غدت أكثر أهمية من المساجد في حقل التعليم ؛ و« المدارس « هي التسمية التي كانت تطلق على الكليات الجامعية والجامعات ، بلغة عصرنا الحديث .

ويبدو لي أن من غير السهل تحديد أول زمن بنيت فيه المدارس ، وأول من بناها . وقد ذكر السبكي أن الذهبي نسب إلى الوزير نظام الملك ، وزير السلطان السلجوقي ملكشاه (ت ٤٨٥هـ) ، أنه أول من بنى المدارس ، غير أن السبكي شكك في رواية الذهبي ، وقال إن المدرسة البيهقية بنيسابور كانت موجودة قبل عهد نظام الملك . وكان الأمير نصر بن سبكتكين ، أخو السلطان محمود الغزنوى ، قد بنى المدرسة السعدية بنيسابور قبل نظام الملك بزمن طويل . ويضيف السبكي أن أبا سعد إسماعيل بن علي بن المثني الاسترابادى بني مدرسة ثالثة في المدينة نفسها ، وأن مدرسة رابعة بنيت في تلك المدينة للأستاذ أبي اسحاق الاسفرائيني ، المتوفى سنة ٤١٨هـ . بل لقد كانت المدارس معروفة بنيسابور قبل أن تبنى هذه المدارس الأربع التي عددنا .[١]

أما في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري وما بعده ، فقد أصبحت المدارس العالية تنتشر في معظم المدن في المشرق العربي ، حتى لم تكد تخلو منها مدينة . والمهم في الأمر أن إنشاء المدارس غدا سياسة اتبعها الكثيرون من الحكام لاستخدامها ـ على ما يبدو ـ في تأييد الاتجاهات المذهبية والسياسية التي يعمل لها أرباب الحكم . وهذا لا يمنع ، بطبيعة الحال ، أن يكون اناس بنوا المدارس بقصد نشر العلم والحصول على الذكر الحسن أو المثوبة في الدار الآخرة .

وقد ذكر الرحالة ابن جبير أنه كان في بغداد وحدها نحو ثلاثين مدرسة ، « وما منها مدرسة الا وهي يقصر الوصف البديع عنها ، وأعظمها وأشهرها النظامية . . .»[٢] أما الموصل فقد كان فيها نحو ست مدارس أو أكثر ، تلوح «كأنها القصور

(١) السبكي ، مجلد ٤ ، ص ٣١٤ ؛ وانظر ص ٢٥٦ كذلك .

(٢) ابن جبير ، ص ١٨٣ .

المشرفة .»[١] وكانت لنصيبين مدرستان [٢] ولرأس العين مدرسة[٣] ولحران مدرسة[٤] ولدنيصر مدرسة .[٥] أما حلب فقد بلغ عدد مدارسها التي وردت اسماؤها في المصادر تسع مدارس ، وثلاث دور [كليات] للحديث . ويخبرنا ابن جبير أنه كان بها ، حين زارها ، ست مدارس [٦] . وكانت لمدينة حماه ثلاث مدارس[٧] ، وكان في دمشق نحو عشرين مدرسة [٨] .

ويذكر ابن الأثير أن نظام الملك بنى المدارس في أكثر البلدان « حتى جزيرة ابن عمر ـ التي هي زاوية من الأرض لا يؤبه لها ـ بنى فيها مدرسة كبيرة[٩] ؛ ويؤكد السبكي هذه الرواية ويقول إنه كان لنظام الملك في كل مدينة بالعراق مدرسة [١٠] . وقد اتفق ابن الجوزى ، الحنبلي ، والسبكي ، الشافعي ، على أن العلم كان منتعشا ، وأن سوقه كانت رائجة وأن أهله كانوا محل التكريم في عهد الوزير نظام الملك ، الذي استغرق ثلاثين سنة[١١] . أما في بلاد الشام فقد نشر نور الدين محمود المدارس في دمشق وحلب وحماة وحمص وبعلبك ومنبج والرحبة[١٢] .

وفي الموصل بنى الملك سيف الدين غازى بن زنكي المدرسة العتيقة ، وكانت

---

(١) ***المصدر نفسه*** ، ص ١٨٩ .

(٢) ***المصدر نفسه*** ، ص ١٩٦ .

(٣) ***المصدر نفسه*** ، والصفحة ذاتها .

(٤) ***المصدر نفسه*** ، ص ١٩٩ .

(٥) ***المصدر نفسه*** ، ص ١٩٣ .

(٦) ابن شداد ، مجلد ١ ، قسم ١ ، ص ٩٦ و٩٨ و١٠٠ و١٠٣ و١٠٥ و١١٠ و١١٣ و١٢١ـ١٢٢ ، ابن جبير ، ص ٢٠٤ .

(٧) ابن جبير ، ص ٢٠٧ .

(٨) ***المصدر نفسه*** ، ص ٢٣٠ .

(٩) ابن الأثير ، **الباهر في التاريخ الأتابكي** ، ص ٩ .

(١٠) السبكي ، مجلد ٤ ، ص ٣١٣ـ٣١٤ .

(١١) ابن الجوزي ، **المنتظم** ، مجلد ٩ ، ص ٦٨ ، السبكي ، مجلد ٤ ، ص ٣١٩ .

(١٢) ابن خلكان ، مجلد ٢ ، ص ٢٥٦ ، ومجلد ٤ ، ص ٢٧٢ .

أحسن المدارس وأكبرها [١] . وبنى الوزير ابن هبيرة مدرسة بمحلة باب البصرة في بغداد [٢] ، وقد حولت بنفشا الرومية ، وهي جارية للخليفة المستضيء ، دارا كانت تملكها إلى مدرسة وقفتها على الحنابلة [٣] . ووقفت عصمت خاتون بنت ملكشاه ، زوجة الخليفة المستظهر ، مدرسة على أصحاب أبي حنيفة . وقد وصفها ابن الساعي بأنها « ليس في الدنيا مدرسة أكبر منها . . . » [٤] وعندما قدم أبو سعد محمد بن منصور ، مستوفي المملكة إلى بغداد سنة ٤٥٦ هـ بنى مدرسة لأصحاب أبي حنيفة[٥] . ونقرأ أن نائب صاحب أربل بنى مدرسة للفقيه الشافعي أبي العباس الخضر بن نصر الاربلي [٦] . ويخبرنا الأمام السيوطي ، أن الخليفة المستنصر ، الذي بويع بالخلافة سنة ٦٢٣هـ ، بنى المساجد والربط والمدارس والمستشفيات ، وكان من أهم ما بناه الجامعة المستنصرية على الجانب الشرقي من نهر دجلة . وقد وصفت هذه المدرسة/الجامعة بإنها «ما بني على وجه الأرض أحسن منها» كما أن الأوقاف التي وقفت عليها لمواجهة نفقات أنشطتها تفوق كل ما ذكر لغيرها من الأوقاف . وقد كان فيها أربعة فقهاء مدرسين ، للمذاهب السنية الأربعة ، وزودت بمستشفى [٧] [لعله كان تعليميا بجانب دوره العلاجي] .

وكان الأثرياء يشاركون في بناء المدارس وسنجتزئ من ذلك بأمثلة قليلة ، فقد بني القاضي أبو سعد المخرمي مدرسة بباب الأزج ببغداد [٨] ، وبنى الشيخ عبد الوهاب بن الحنبلي مدرسة للحنابلة **بدمشق بباب الفراديس** [٩] **، وبنى تاج**

(١) ابن الأثير ، **الباهر** ، ص ٩٣ ، ابن خلكان ، مجلد ٣ ، ١٧٧ .

(٢) ابن خلكان ، مجلد ٥ ، ص ٢٨٤ ، ابن الفوطي ، مجلد ٤ ، قسم ٣ ، ص ٥٨١ .

(٣) ابن الساعي ، ***جهات الخلفاء*** ، ص ١١١-١١٢ .

(٤) ***المصدر نفسه*** ، ص ١٠٨-١٠٩ .

(٥) الكاتب الأصفهاني ، ***تواريخ آل سلجوق*** ، ص ٣٢ .

(٦) ابن خلكان ، مجلد ٢ ، ص ١٠ .

(٧) الإمام الحافظ جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي ، ***تاريخ الخلفاء*** . محمد محي الدين عبدالحميد ، القاهرة : المكتبة التجارية الكبرى ، ١٣٧١ /١٩٥٢ ، ص ٤٦١ .

(٨) ابن رجب ، مجلد ١ ، ص ٢٠٠ .

(٩) ***المصدر نفسه*** ، ص ٢٣٨ .

الملك أبو الغنائم مدرسته التاجية بباب أبرز ووقفها على أصحاب الشافعي[(١)] .

وكانت تخصص لهذه المدارس أوقاف كثيرة تغطي نفقاتها ونفقات الأساتذة والطلاب ، وكان يدفع للطلاب رواتب أيضا . وقد رجح السبكي أن نظام الملك هو «أول من قدر المعاليم (أي الرواتب) للطلاب» .[(٢)]

ولدينا العديد من الأمثلة لمحسنين ساهموا في تشجيع الحركة العلمية بوقف الكتب على طلبة العلم ، بجانب ما كان يقفه الحكام والوزراء ، فالطبيب الأديب علي بن يحيى بن عيسى بن جزلة وقف كتبه قبيل وفاته[(٣)] ، وكذلك فعل الفقيه ثابت بن منصور الكيلي [(٤)] ، وعلي بن طاهر بن جعفر السلمي النحوى ، الذي وقف خزانة كتب له في موضع حلقته بجامع دمشق [(٥)] . وقد ابتنى محمد بن هلال بن المحسن الصابي ، الكاتب المؤرخ (ت ٤٨٠ هـ) دار كتب ببغداد ووقف فيها نحوا من أربعمائة مجلد .[(٦)] وهناك أمثلة أخرى كثيرة [(٧)] .

ويستطيع الباحث في تأريخ الحركة التعليمية أن يحدد المستويات التي سارت فيها حركة التعليم والتعلم ، فقد كان هناك تعليم أولي ، يقابل المدرسة الابتدائية في عصرنا ، وتعليم عال ، يقابل الكليات والجامعات ، وتعليم في المساجد يمارسه كثيرون ممن اعتبروا من كبار العلماء . وهذا المستوى والنوع من التعليم كان سائدا قبل ظهور الجامعات ، أي المدارس

---

(١) ابن الجوزى ، *المنتظم* ، مجلد ٩ ، ص ٤٦ .

(٢) السبكي ، مجلد ، ص ٣١٤ ، ٣١٩ ، وانظر أمثلة أخرى : ابن الجوزى ، *المنتظم* ، مجلد ٩ ، ص ٦٦ و٢٦٢ ، ابن جبير ، ص ١٨٣ و٢٢٠ و٢٢٥ ، ابن الساعي ، ***جهات الخلفاء*** ، ص ١١١-١١٢ .

(٣) ابن خلكان ، مجلد ٥ ، ص ٣١١ .

(٤) ابن رجب ، مجلد ١ ، ص ٢٢٢ .

(٥) القفطي ، *إنباه الرواة على أنباء النحاة* ، مجلد ٢ ، ص ٢٨٣ .

(٧) ابن الجوزى ، *المنتظم* ، مجلد ٩ ، ص ٤٢-٤٣ ، ابن الفوطي ، مجلد ٤ ، قسم ٢ ، ص ١١٦٣-١١٦٤ .

(٧) انظر ابن عساكر ، جـ ١ ، ص ٤٠٨ ، ابن الجوزى ، *المنتظم* ، مجلد ٩ ، ص ١٣ ، السبكي ، مجلد ٤ ، ص ٣٥ .

العالية . وبعد ظهور هذه المدارس العالية صار ينتدب للتدريس فيها مشاهير العلماء ، وكانت تولية المدرس أمرا أعتبر خطيرا ، فكان الحاكم ، سواء كان سلطانا أو وزيرا أو ملك اقليم ، هو الذي يختار المدرس ويعينه [١] . وفي بعض الأحيان كان التعيين يتم بمرسوم [٢] . ويبدو أنه كان هناك ثمة نظام للتخرج ، إذ يذكر ابن خلكان أن أبا حامد الغزالي اختلف إلى دروس إمام الحرمين ، وجد في الإشتغال حتى تخرج في وقت قصير [٣] . وقد كانت المساجد مراكز يتلقى فيها الطلاب العلم عن كبار المشايخ ، فقد كان أبو اسحاق الشيرازى يدرس في مسجد باب المراتب ببغداد ، قبل أن تبنى المدرسة النظامية وينتقل للعمل أستاذا فيها [٤] ؛ وقد ظلت المساجد مقرات لإلقاء وإملاء المحاضرات والدروس التي كان يقدمها كبار الشيوخ الذين لم ينضموا للمدارس ، أو يختارون لها ، بسبب الاختلاف في الرأي أو المذهب عن مؤسس المدرسة ، سلطانا كان أو ملكا ، او واحدا من علية القوم وكبار الأثرياء أو المحسنين ؛ هذا بجانب ما كانت المساجد تحتضنه من أنشطة تدريسية أخرى ، مثل ما نقرأه عن جامع دمشق الذي كانت تعقد فيه حلقات ودورات تدريسية يحضرها من لا يجيدون قراءة القرآن . وقد بلغ عدد الذين كانوا يتعلمون القرآن في ذلك الجامع عند مرور ابن جبير بدمشق سنة ٥٨٠ هـ أكثر من خمسمائة شخص . وبجانب هؤلاء كانت تعقد حلقات التدريس للطلبة في الجامع نفسه [٥] .

وكان من المألوف جدا في ذلك العصر أن تجد رجالا من أهل العلم يطوفون البلدان والأقطار ، سعيا إلى العلماء المشاهير . ولعل من أبرز الأمثلة على ذلك نشاط

---

(١) ابن الجوزى ، ***المنتظم*** ، مجلد ٩ ، ص ٥٣ ، و٥٥ ، الكاتب الأصفهاني ، ***جريدة القصر*** ، مجلد ١ ، ص ٣٠٨ .

(٢) ابن الجوزى ، ***المنتظم*** مجلد ٩ ، ص ٥٣ .

(٣) ابن خلكان ، مجلد ٣ ، ص ٣٥٣ ، وانظر أمثلة أخرى : القفطي ، ***أنباء الرواة*** ، مجلد ٢ ، ص ١٢٣ ، السبكي ، مجلد ٤ ، ص ٣٨٦ .

(٤) ابن الجوزى ، ***المنتظم*** ، مجلد ٨ ، ص ٢٤٧ .

(٥) ابن جبير ، ص ٢٠ ، وانظر : ياقوت ، ***معجم الأدباء*** ، مجلد ١٣ ، ص ٢٥ ، القفطي ، ***أنباء الرواة*** ، مجلد ٢ ، ص ٢٨٣ .

تاج الاسلام أبي سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني الشافعي ، الذي رحل في طلب العلم والحديث إلى الشرق والغرب ، والشمال والجنوب ، كما يقول ابن خلكان ، وسافر إلى ما وراء النهر وسائر بلاد خراسان عدة مرات ، ودخل قومس والرى وأصبهان وهمدان وبلاد الجبال والعراق والحجاز والشام والموصل وغيرها من البلاد التي يطول ذكرها ويتعذر حصرها . وقد قيل أن عدة شيوخه (أي أساتذته) تزيد على أربعة آلاف [١] .

ومن أمثلة المسافرين بحثا عن العلم والحديث أحمد بن علي بن ثابت البغدادي ، الذي يقال أنه صنف قريبا من مائة مصنف ، ورحل إلى البصرة ونيسابور وأصبهان وسمع ببغداد والدينور والكوفة وهمدان والحجاز ، وسكن دمشق فترة من حياته [٢] .

ومنهم أبو القاسم علي بن الحسن بن عساكر الذي رحل وطوف وجاب البلاد ، وكان رفيق السمعاني . وعاد من رحلته إلى دمشق ، ثم ما لبث أن يمم شطر خراسان ودخل نيسابور وهراة وأصبهان والجبال [٣] . وهبة الله بن المبارك السقطي ، الذي سمع ببغداد وواسط والبصرة والكوفة والموصل وأصبهان والجبال وغيرها ، وبالغ في الطلب .[٤] ومحمد بن موسى الحازمي ، الذي تفقه ببغداد وسمع بهمدان وارتحل إلى عدة بلاد في العراق ، ثم سافر إلى الشام والموصل وبلاد فارس وأصبهان وهمدان وكثير من بلاد أذربيجان [٥] . ومحمد بن طاهر المقدسي ، المعروف بابن القيسراني ، الذي كان أحد الرحالين في طلب العلم والحديث ، وسمع بالحجاز والشام ومصر الثغور والجزيرة والعراق والجبال وفارس وخوزستان وخراسان واستوطن همدان ، وكانت ولادته بالقدس ووفاته ببغداد [٦] . وغيرهم كثيرون .

لقد أثمرت توجيهات القرآن الكريم للمسلمين نحو الاهتمام بالعلم والتعلم

---

(١) ابن خلكان ، مجلد ١ ، ص ٧٦-٧٧ .

(٢) ***المصدر نفسه*** ، مجلد ٢ ، ص ٤٧١ .

(٣) ***المصدر نفسه*** ، مجلد ٢ ، ص ٤٧١ .

(٤) ابن رجب ، مجلد ١ ، ص ١٤٠ .

(٥) ابن خلكان ، مجلد ٣ ، ص ٤٢١ .

(٦) ***المصدر نفسه*** ، مجلد ٣ ، ص ٤١٥ - ٤١٦ .

فشغفوا به لدرجة لم يرتق إليها شعب من الشعوب قبل العصر الحديث ؛ وخير ما يمثل مقدار حب المسلمين للعلم وتعشقهم له هذه العبارات التي ننقلها عن بعض الشخصيات العلمية البارزة التي عاشت قبل ما يقرب من ألف سنة ؛ فهذا أبو الوفاء بن عقيل ، العالم الفقيه المشهور الذي توفي سنة ١١١٩م ، يقول : «إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري ، حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة ، ومناظري وبصري عن مطالعة ، أعملت فكري في حال راحتي وأنا مستطرح ، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطره ؛ وإني لأجد من حرص على العلم وأنا في عشر الثمانين أشد مما كنت أجده وأنا ابن عشرين سنة . . . أنا أقصر بجهدي أوقات أكلي ، حتى أختار سف الكعك ، وتحسيته بالماء ، على الخبز لأجل ما بينهما من تفاوت في الوقت ، توفرا على مطالعة ، أو تسطير فائدة [(١)] ؛» أي بدلا من الخبز الذي يحتاج وقتا أطول في عملية المضغ . ومن أمثلة ذلك أيضا قول الفقيه المحدث محمد بن أحمد بن أبي السقر ، المتوفى سنة ١٠٨٣م : «هذه كتبي أحب إلي من وزنها ذهبا . . . [(٢)]» وهذا الأمير أسامة بن منقذ ، أمير بني منقذ في منطقة شيزر ، في شمال حماه في سوريا ، الذي توفي سنة ١١٣٦م وكانت له شهرة ودور كبير في محاربة الصليبيين ، وقد استقدم عائلته ومتاعه من مصر إلى الشام عن طريق البحر ، فاعترض الصليبيون السفن ، ونهبوا متاعه كما نهبوا كتبه ؛ وقد هنأه الملك العادل نور الدين الشهيد بن زنكي بسلامة عائلته ، وعزاه عن فقد ماله ، فعلق الأمير قائلا : «أما الكتب التي نهبت فكانت أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة ، فإن ذهابها سيبقى حزازة في قلبي ما عشت [(٣)] .» وهذا الإمام أبو حامد الغزالي المتوفى سنة ١١١١م يعتبر تعلم الطب والحساب والصناعات التي يحتاجها المجتمع فروضا دينية ، إذا لم يتوفر

---

(١) عبدالرحمن بن أحمد ، المشهور بابن رجب الحنبلي ، ***الذيل على طبقات الحنابلة*** (القاهرة : مطبعة السنة المحمدية ، ١٩٥٢م) ، جزء ١ ، ص ١٤٦ ، إبن الجوزي ، ***المنتظم في تاريخ الملوك والأمم*** ، مجلد ٩ ، ص ٢١٤ .

(٢) إبن الجوزي ، ***المنتظم*** ، مجلد ٩ ، ٩ .

(٣) أسامة مبن منقذ ، ***كتاب الإعتبار*** ، ص ٣٥ .

عدد كاف من العارفين بها لخدمة المجتمع يصبح الناس كلهم آثمين يستحقون العقوبة من الله بسبب هذا التقصير[1] .

الموضوعات التي كانت مادة للتدريس والدراسة:

كانت علوم القرآن الكريم ، وعلوم الحديث النبوي ، والسيرة النبوية وسير الصحابة ، والعلوم الفقهية الشرعية ، وعلوم اللغة من النحو والأدب ، والشعر ونقد الشعر ، وعلوم التاريخ والأنساب أهم العلوم الشائعة والمطلوبة بشكل إجمالي . أما الجغرافية الوصفية فقد عدد كبير من أولئك الرجال الذين تعلقت قلوبهم بالترحال والسفر متعة أو مهنة . وإذا بحثنا عن التفاصيل فإنا نجد في المصادر معلومات وارفرة عن المواد التعليمية التي كان يتلقاها الطلاب عن شيوخهم ؛ فكثيرا ما تشير المصادر ، في تراجم الأعيان إلى شيوخ المترجم له وتعددهم وتعدد العلوم التي تلقاها منهم ؛ فأبو الوفاء بن عقيل ، مثلا قرأ علم القراءات على أبي الفتح بن شيطا وآخرين ، وتلقى الأدب والنحو عن أبي القاسم بن برهان ، والزهد عن أبي بكر الدينورى ، وعن الحرانية ، وعن بنت الجنيد ، وتلقى آداب التصوف عن أبي منصور العطار ، والحديث عن التوزى وجماعة غيره ، وتعلم الشعر والترسل من ابن شبل ، ودرس الفرائض على أبي الفضل الهمداني ، والوعظ على أبي طاهر بن العلاف ، والأصول على أبي الوليد بن البيان . وأخذ الفقه عن أبي يعلى الفراء ، والمناظرة عن أبي اسحاق الشيرازى[2] كذلك فاننا نعرف أن الأدب والشعر والنحو كان يدرس في المساجد ، جنبا إلى جنب مع العلوم الدينية [3] . ويبدو أنه كان من أساليب التعليم في ذلك الزمان أن تطرح المواضيع ويتداولها الطلاب بالمناقشة تحت إشراف أستاذهم ، وعن ذلك يقول الفقيه أبو سعد عبد الرحمن المتولي أنه حضر مجلس الأستاذ أبي الحارث السرخسي . وكانت ثياب عبد الرحمن خلقة ، لا تشبه أهل العلم ، فجلس في أخريات الطلاب . «فتكلموا في مسألة ، فقلت واعترضت . فلما انتهيت من نوبتي أمرني أبو الحارث

---

(١) أبو حامد الغزالي ، ***إحياء علوم الدين*** ، مجلد ١ ، ص ١٥ .

(٢) ***المصدر نفسه*** ، ص ٢١٢ ـ ٢١٣ ، وهناك أمثلة أخرى كثيرة ، انظر ابن عساكر ، جـ ٤ ، ص ١٦٦ ـ ١٧٠ ، القفطي ، ***إنباء الرواة*** ، مجلد ١ ، ص ٣٠٥ ، الذهبي ، مجلد ١ ، ص ٢٨١ .

(٣) ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ٤٢٥ .

بالتقدم . ولما عادت نوبتي استدناني وقربني حتى جلست إلى جنبه ، وقام بي وألحقني بأصحابه ، فاستولى علي الفرح .» [١] وكان لكبار الأساتذة معيدون ، يعيدون دروسهم للطلاب ، مثال ذلك أن محمد بن هبة الله السلماسي تولى الإعادة بالمدرسة النظامية ، وكان الكيا الهراسي من رؤوس معيدي إمام الحرمين في الدرس [٢] ، وقد شغل أبو اسحق الشيرازى وظيفة الاعادة في مطلع حياته التعليمية [٣] .

ولم تكن علوم الطب والفلسفة والفلك والكيمياء والرياضيات تلقى الاهتمام المناسب في ذلك العصر ، فأبو حامدا الغزالي يشكو انصراف طلاب العلم عن العلوم الطبية ، مع لزومها وضرورتها ، واهتمام المعاصرين بفروع العلوم الدينية مع كثرة المتخصصين فيها ، ويقول إن أكثر الأطباء من أهل الذمة [٤] . وكانت الفلسفة من فروع المعرفة الممقوتة عند كثيرين من العلماء في ذلك العصر . وقد ألف الغزالي كتابه تهافت الفلاسفة لتنبيه «من حسن اعتقاده في الفلاسفة ، وظن أن مسالكهم نقية عن التناقص ، ببيان وجوه تهافتهم .»[٥] وفي ترجمة ابن عساكر لتوفيق بن محمد بن زريق الاطرابلسي (ت ٥١٦ هـ بدمشق) ، الذي كان أديبا شاعرا مهندسا منجما وحاسبا ، يصفه بأنه «كان يتهم بقلة الدين ، والميل إلى مذهب الأوائل . . .»[٦] ويخبرنا ابن الجوزى أن أبا علي المعتزلي ، الذي كان يدرس علم الفلسفة والمنطق «اضطره أهل السنة إلى أن لزم بيته خمسين سنة لا يتجاسر أن يظهر . . .»[٧] ويذكر ابن الفوطي أن عبد الله بن محمد الميانجي الصوفي (ت ٥٢٥ هـ) خلط كلام الصوفية بكلام الحكماء ، وصلب .[٨]

---

(١) ابن خلكان ، مجلد ٢ ، ص ٣١٥ .

(٢) ***المصدر نفسه*** ، مجلد ٢ ، ص ٤٤٨ ، وانظر القفطي ، ***أنباء الرواة*** ، مجلد ٢ ، ص ٢٤١-٢٤٢ .

(٣) السبكي ، مجلد ٤ ، ص ٢١٥ .

(٤) الغزالي ، ***إحياء علوم الدين*** ، جـ ١ ، ص ١٩ .

(٥) الامام الغزالي ، ***تهافت الفلاسفة*** ، تحقيق سليمان دنيا (القاهرة : دار المعارف ، د . ت .) ، ص ٨٠ .

(٦) ابن عساكر ، جـ ٣ ، ص ٣٦٠ .

(٧) ابن الجوزى ، ***المنتظم*** ، مجلد ٩ ، ص ٢٠ .

(٨) ابن الفوطي ، مجلد ٤ ، قسم ٢ ، ص ١١٣٠ -١١٣٢ .

وعلى الرغم من ذلك فإن حالة العناية بهذا النوع من العلوم المهمة التي لم يكن اكثر الناس يأبهون بها لم تكن بهذه الكآبة ، أو كما تشير إليه هذه الأخبار ؛ لقد كان هذا موقف كثيرين من المتدينين ، مع وجود استثناءات ، كما رأينا في موقف أبي حامد الغزالي من علوم الطب والحساب ، وكما عرف عنه من احتفال بعلم المنطق . وحتى في ميدان الفلسفة فإن ذكر أبي الوليد محمد بن رشد الأندلسي (١١٢٦ – ١١٩٨م) قد ملأ الدنيا . لقد ولد ابن رشد في قرطبة وتوفي في مراكش في عهد الموحدين . وكان فقيها وقاضيا (بمعنى وزير العدل) قبل أن يكون فيلسوفا . وقد طلب منه الخليفة – خليفة الموحدين –أبو يعقوب يوسف بن تاشفين أن يكتب شرحا وتفسيرات وتعليقات على مؤلفات وفلسفة أرسطو ، الفيلسوف الإغريقي الأشهر ، فألف ابن رشد سلسة من الملخصات والشروح والتفاسير التي غطت معظم مؤلفات أرسطو . وبالمثل تناول كتاب جمهورية أفلاطون بالشرح والتفسير والتعليق ؛ وأفلاطون أستاذ أرسطو كما هو معروف . وقد كان لمؤلفات ابن رشد هذه تأثير واسع في العالم الإسلامي ، كما كان لها تأثير كبير في أوروبا على السواء استمر قرونا طويلة ، وشمل تأثيرها المسيحيين واليهود مثل ما شمل المسلمين بل أكثر وأعمق . وفي أوروبا ضمت جميع مؤلفات ابن رشد هذه وأدمجت ضمن مجموعة الأعمال الكاملة لأرسطو باللغة اللاتينية . حتى تلك الأجزاء التي فقدت نصوصها الأصلية باللغة العربية وترجماتها إلى العبرية ما زالت محفوظة ضمن مجموعة أرسطو الكاملة باللغة اللاتينية[١] . وابن رشد يضع الشريعة الإسلامية في المكان الأعلى ، فوق الفلسفة ؛ ومع ذلك فقد أشار إلى أن هدف الشريعة وهدف الفلسفة هو تحقيق السعادة للإنسان . وقد أثرت كتابات ابن رشد في عدد غير قليل من رجال الدين المسيحيين واليهود ، وعرف من بينهم تيار فكري عريض صار يعرف باسم «الرشديين» ، نسبة إلى أبي الوليد ابن رشد . وكان أبوحامد الغزالي قد ألف كتابا بعنوان : «تهافت الفلاسفة» ؛ وقد رد عليه أبو الوليد بن رشد بكتاب بعنوان : «تهافت التهافت» .

ولا ينبغي أن يغيب عن البال أن البلاد التي فتحها العرب المسلمون لم تكن متلقية فقط لما تولد ونشأ من العلوم الإسلامية بل كان لديها الكثير مما تقدمه وقدمته بالفعل لهذه الحضارة الجديدة التي أنشأها الإسلام وساهم العرب ، كما ساهمت فيها

(1) Encyclopedia Britannica, 2011 edition, article Averroes.

شعوب المناطق التي انضوت تحت راية الدولة الإسلامية . ومن المعروف أن العراق ومصر وبلاد الشام كانت مهد الحضارات الإنسانية الأولى ، وأن جذوة الحضارة ظلت تتألق فيها حينا وتضعف في فترة أخرى لتشتعل من جديد ، واستمرت آلاف السنين ، فتراكم فيها رصيد ضخم من التراث الحضاري . ويميل كثير من الباحثين الأوروبيين عادة إلى نسبة كل إنجاز أحرزته البشرية إلى أنفسهم ، خاصة إلى الإغريق والرومان من بعدهم ؛ لكن هذه الادعاءات لا تمثل الحقيقة ، إذ أن الحضارات القديمة للبلدان العربية كانت هي المنبع الأول . فالروايات الإغريقية القديمة تذكر أن فيثاغورس Pythagoras تعلم في بابل (العراق) على أيدي أساتذتها ؛ وكان أفلاطون Plato تواقا لزيارة الشرق للدراسة وتلقي العلم عن أساتذته ، ولكن حالت الحرب الفارسية الإغريقية دون تحقيق رغبته . وقد كان سقراط ، ودينون ، وأيودوكس ، وغيرهم من مشاهير الفلاسفة الإغريق يفخرون بحصولهم على علوم الشرق ومعارفه[١] . ثم جاء الفتح الإغريقي لمصر وبلاد الشام والعراق وفارس على يد الإسكندر المقدوني ، بين سنتي **٣٣٢ – ٣٢٣** قبل الميلاد ، والتقت الحضارتان وتبادلتا التأثير والتأثر ، وقامت في مصر وبلاد الشام والعراق وفارس مدارس مشهورة للفلسفة الإغريقية ، خاصة مدرسة الإسكندرية ، ثم ظهرت بعدها مدرسة أنطاكية .

وعندما قامت الحضارة الإسلامية ورثت كل هذا التراث القديم من الهندسة والرياضيات والطب والفلك والفلسفة ، وأخذت هذه العلوم تنتقل إلى اللغة العربية من خلال الترجمة والنقل الواعي ، وكذلك من خلال الأعداد الكبيرة من الذين تحولوا إلى اعتناق الإسلام . وقد تبنى الحكام المسلمون ، خاصة في العصر العباسي الأول ، ترجمة الكتب من الإغريقية إلى العربية ، وكان الخليفة المأمون المتوفى سنة ٢١٨هـ/٨٣٣م هو أبرز من اهتم بالترجمة من بين الخلفاء ، وأنفق عليها أموالا جزيلة . وقد شارك الأفراد التواقون إلى العلم في هذا النشاط بمبادرات ذاتية ، بجانب الجهود التي تبناها الحكام .

ولم يكتف المسلمون بمجرد الترجمة والنقل ، بل إنهم نقحوا وطوروا وصححوا ، واضافوا إضافات نوعية ، وتقدموا بكل هذه العلوم أشواطا كبيرة لا يتسع المجال هنا

---

(١) A.V. Williams Jackson, ***Zoroaster*** (New York: AMS Press Inc. , 1965, pp. 7 - 8. ، وانظر كتابي : ***الإسلام . . رسالته ، حضارته ، مستقبله*** ، ص ١٩٨ – ١٩٩ .

لتتبعها وتفصيلها . وفي هذا الميدان تبرز أسماء عربية وإسلامية لعلماء كبار ، مثل يعقوب الكندي ، وجابر بن حيان ، والرازي ، وابن سينا ، والحسن بن الهيثم ، وابن النفيس ، وأبو القاسم خلف الزهراوي ، وغيرهم كثيرون ، ممن اشتغلوا بالفلسفة والطب والكيمياء والبصريات ، والميكانيكا [1] ، وأجروا التجار ب العلمية . وقد علق الأستاذ Dunlop.M.D الإستاذ في جامعة كولمبا (نيويورك) على طريقة الكندي في محاولته تصويب بعض آراء أرسطو ، فقال : إن شهرة أرسطو واحترام الكندي له لم يمنعاه من نقد آرائه . وقد بنى الكندي نقده لرأي أرسطو على أسباب نظرية ، بينها في البداية ، ثم اختبرها عن طريق التجربة . وأضاف الدكتور دنلوب :

“A modern scientist could scarcely be more scrupulous, and he might very well be much more dogmatic about contemporary theory.

The examples given show al-Kindi's recognition of the value of direct observation and his willingness to use experiment, involving in the second case the construction of a special piece of apparatus."[٣]

وفي ميدان الفكر الإجتماعي والحضاري يحق لنا أن نشيد بالعلامة عبدالرحمن بن خلدون ، خاصة ريادته في مختلف فروع علم الاجتماع ، كما بدت فيما دونه في المقدمة ، التي شغلت المجلد الأول من تاريخه : **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر** ، واعتنى بها الباحثون والمؤرخون في عالم الغرب وعرفوا بها قدر بن خلدون ؛ ويكفي أن نشير هنا إلى ما قاله المؤرخ والفيلسوف البريطاني أرنولد توينبي ، وما تتضمنته الموسوعة البريطانية عن ابن خلدون وعما كتبه في مقدمته ، بأنه كان أعظم المفكرين على مستوى العالم في كل الأزمنة وكل الأقطار حتى ظهور المؤرخ

(١) لا نقصد الميكانيكا الحديثة ، بل مستوى من الأجهزة مثل الساعة التي رآها في دمشق ، ووصفها ، الرحالة ابن جبير ، وآلات نقل المياه إلى الأماكن المرتفعة ؛ والسفن النهرية التي صنعت للخليفة العباسي الأمين ، وذكرناها في الفصل الخامس من هذا الكتاب . توفي الكندي سنة ٢٥٣هـ/ ٨٦٧م .

(2) D. Meyerhof, ***Legacy of Islam***, London, 1931, p. 323.

والفيلسوف الإيطالي جيامباتستا فيكو Giambatista Vico المتوفى سنة(١٧٤٤) . **ولم يكن أفلاطون وأرسطو والقديس أوغسطين من أقران ابن خلدون ، كما ورد في الموسوعة البريطانية .**

أما عن منجزات العلماء المســلمين في ميدان الطب ، علما وممارسـة وتعليما ، فلدينا الكثير من الأمثلة المشهورة ، منها الطبيب أبو بكر محمد بن زكريا الرازي الذي وصفه الأستاذ مايرهوف بأنه أعظم الأطباء المسلمين ، وأنه من أعظم الأطباء في العالم في كل عصور التاريخ . وقد ولد الرازي سنة ٢٥١هـ/٨٦٥م ، وتوفي سنة ٣١٣هـ/٩٢٥م . ومن أشهر كتبه التي ترجمت في أوروبا كتاب المنصوري ، وهو الذي ترجمه إلى اللاتينية Gerard of Cremona في القرن الثاني عشر الميلادي ، بعنوان : *Liber and Almansorem* بينما ترجم كتابه الأكبر في الطب ، وهو كتاب الحاوي ، في القرن الثالث عشر الميلادي .

أما الطبيب ابن سينا فقد ولد عام ٣٧٠هـ/٩٨٠م وتوفي سنة ٤٢٨هـ/١٠٣٧م ؛ وقد ظل كتابه القانون في الطب يستعمل كتابا دراسيا جامعيا Text-book في أوروبا الغربية حتى القرن السابع عشر الميلادي (١) .

وقد اهتم الأطباء المسلمون بالطب السريري ، وتشخيص الأمراض ، والمعالجة النفسية ، وعلاقة الطبيب بالمريض ، والمداواة بالعقاقير الكيماوية ، بجانب الاهتمام بالتعاريف الطبية العامة ، والأطعمة والعقاقير وأثرها في الجسم الإنساني ، والنظام الحياتي للمحافظة على الصحة ، والعناية بالأم والطفل ، والأمراض الجلدية ، ونظافة الفم ، ونقاوة الماء والهواء ، وأثر المناخ والبيئة في الصحة . ولقد وضع الطبيب الأندلسي عريب بن سعد كتابا في أمراض النساء ، وعلم الأجنة .

وكان المسلمون أول من أنشأ المستشفيات ، الحكومية منها والأهلية ، وكانت المستشفيات الإسلامية في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) تستقبل الرجال والنساء في أجنحة منفصلة . وفي عهد الخليفة المقتدر (ت سنة ٣٢٠هـ/٩٣٢م وسع سنان بن ثابت خدمات المستشفى لتفي بحاجة المناطق القروية المجاورة ، والسجون ، والأحياء الفقيرة للمدن . وكانت المستشفيات الكبيرة علاجية وتعليمية ، ونعرف أن

---

(1) D.M. Dunlop, ***Arab Civilization to AD 1500*** (Longman Group Ltd., London, 1971) , p. 192 .

كبار الأطباء الذين كانوا يشرفون على المستشفيات كانوا يشرفون على تعليم الأطباء فيها ، فمحمد بن عبيد الله الباهلي ، الطبيب المشهور ، كان مشرفا على المستشفى (البيمارستان) الكبير بدمشق ، وكان الأطباء يجلسون بين يديه ، ويتداولون علومهم تحت اشرافه (١) . أما أمين الدولة هبة الله بن التلميذ فقد كان رئيس البيمارستان العضدي حتى وفاته سنة ٥٦٠ هـ ؛ وقد فوض إليه الخليفة رئاسة مهنة الطب ببغداد ، وكان عنده خمسون طالب طب يتلقون التدريب على يديه . ونقرأ أن مريضا جاءه وطلابه الخمسون بين يديه ، فسألهم أمين الدولة عن مرض ذلك الرجل فلم يعرفوا ، فوصف له دواء وصرفه (٢) . وكان هذا المستشفى قد أنشئ في بغداد حوالي منتصف القرن العاشر الميلادي ، وكان له جهاز يضم أربعة وعشرين طبيبا ، وله مبان تضم قاعات للمحاضرات ومكتبة يصرف عليها بسخاء ، وأماكن إقامة للطلبة . وكان الطلبة يتلقون رواتب لينفقوا على أنفسهم . وكانت كل هذه المصروفات تأتي من ريع الأوقاف الكبيرة التي كانت تخصص لهذه المؤسسات التي انتشر ت في معظم المدن الإسلامية .

وقد بلغ تقدم المسلمين في طب العيون ذروته أواخر القرن الحادي عشر الميلادي بدراسة وضعها طبيب العيون البغدادي علي بن عيسى ، الذي كان كتابه المعنون بـ ذخيرة الكحالين ملخصا جامعا لكل منجزات الماضي في هذا الحقل . وفي الفترة نفسها كان هناك طبيب آخر في الموصل (شمال العراق) ، اسمه عمار بن علي الموصلي هو أول من ابتكر طريقة امتصاص الماء الضار **من العين لتلافي فقدان البصر ، مستخدما إبرة مجوفة . وقد عاد الطبيب الفرنسي بلانشيت إلى إحياء هذا الأسلوب العلاجي عام ١٨٤٦م . وقد أورد كل من الطبيب أبي القاسم خلف الزهراوي ، ومحمد بن قسوم الغافقي ، في كتابيهما الطبيين صور الآلات الجراحية التي كانا يستعملانها . وقد تناول الزهراوي في موسوعته الطبية فن التوليد وطب الأطفال ، والقبالة ، بالإضافة إلى التشريح العام للجسم البشري ، وخصص المقالة الأخيرة منها للجراحة ، والعلاج**

---

(١) ابن أبي أصيبعة ، ص ٦٢٨ .

(٢) *المصدر نفسه* ، ص ٣٧١ وانظر الصفحات ٣٤٩-٣٧١ ، والقفطي ، *أخبار العلماء* ، ص ٢٢٢-٢٢٤ .

بالكي ، ولأم الجروح ، ونزع السهام من الجسم ، وصحة نمو الأسنان وتركيبها في الفم ، وتجبير كسور العظام البسيطة والمضاعفة . وقد استعمل الزهراوي المطهرات في علاج الجروح والإصابات الجلدية ، وابتكر خيوطا للجراحة من أمعاء الحيوان ، ومن الحرير والصوف ، واستحدث أساليب لتوسيع المسالك البولية ، ولفحص تجاويف الجسم جراحيا ؛ وكان يستخدم في عملياته ما يقرب من مئتي أداة جراحية صمم أغلبها بنفسه ووصفها في كتبه . وقد أجرى بعض العمليات التي تماثل العمليات التي يجريها الأطباء في وقتنا الحاضر (١) .

ولقد اهتم المسلمون بعلاج الحيوانات وألفوا في ذلك الكتب ، فضلا عن اهتمامهم البالغ بالصيدلة وعلم الأدوية . والحقيقة أن الصيدلة لم تصبح علما مستقلا ومهنة معترفا بها إلا في رعاية المسلمين ، حيث ارتقت إلى هذا المستوى حوالي نهاية القرن الثاني للهجرة (أي حوالي سنة ٨١٥م) حيث افتتحت لأول مرة صيدليات خاصة في عاصمة الخلافة العباسية بغداد ؛ ثم ما لبثت الصيدليات أن انتشرت في مختلف مدن الدولة الإسلامية . وكانت المستحضرات الصيدلية تركب وتوزع تجاريا في الأسواق .

[هنا توضع صفحتان فيهما صور الآلات الجراحية ، ص ٢٠٢و٢٠٣ من كتاب الإسلام : رسالته ، حضارته ، مستقبله] .

وقد كان هناك المئات من العلماء المسلمين في الطب ، والصيدلة ، والكيمياء ، والبصريات ، والزراعة ، والفلك ، والموسيقى ، ممن كان لهم سبق كبير في علومهم . وقد ترجمت مئات من كتبهم إلى اللغة اللاتينية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين ، فكانت أساسا ومنطلقا للنهضة الأوروبية أواخر العصور الوسطى ، خاصة وقد توفر للأوروبيين الاحتكاك المباشر بالمسلمين في إسبانيا والبرتغال وجنوب إيطاليا ، وفي الدويلات الصليبية التي أقيمت في بلاد الشام ، كما هو معروف . ويجد القارئ في الحاشية قائمة بعناوين بعض الكتب التي تناولت هذه الموضوعات بشئ

---

(١) أي في أيام المؤرخ البريطاني الذي نقلنا عنه (ستانلي لاين بول) ، أوائل القرن العشرين . ***Stanley Lane-Poole***, pp. 135-136.

من التوسع[1] ؛ وهناك كتب كثيرة غيرها في نفس الموضوع .

ونختتم هذا الفصل بوصف كتبه مؤرخ بريطاني عاش في القرن العشرين الميلادي يتحدث فيه عن قرطبة ، عاصمة الدولة العربية الإسلامية في الأندلس (إسبانيا) ، وعن بعض جوانب الحضارة العربية الإسلامية في تلك البلاد :

«إنها قرطبة ، تستحق ما قيل فيها من مدح قد يظن البعض أنه مسرف ؛ كان طول المدينة يبلغ عشرة أميال ، وكانت ضفتا نهر الوادي الكبير تتألقان بالبيوت والمساجد المبنية من الرخام ؛ والحدائق التي غرست فيها بعناية أكثر الزهور ندرة والتي أحضرها العرب من جميع الأقطار . وقد أدخل العرب نظام الري الخاص بهم ، وهو نظام ري لم يعمل الإسبان نظاما يساويه من قبل ، كما أنهم لم يستطيعوا عمل نظام يساويه حتى الآن [أيام ستانلي لين بول أوائل القرن العشرين] . وقد جلبت المياه التي كانت تروي هذه الحدائق العديدة من الجبال (حيث ما زالت بعض آثار تلك الأعمال الهيدروليكية ماثلة للعيان حتى اليوم) بواسطة أنابيب من الرصاص ، لتصب في أحواض من الذهب أو الفضة ، أو النحاس ، أو في بحيرات وخزانات للمياه وصهاريج ، ولتغذي النوافير

---

(1) 1) D.M. Dunlop, ***Arabic Sciences in the West***, published by the Historical Society of Pakistan, 1965;

2) A. Mieli , La science Arabe et son Role dans l'Evolution scientifique, Leiden: Brill, 1939.

3) Sigrid Hunke, Allah Sonne Uber Dem Abendland Unser Arabisches Erbe Deutshe Verlag-Anstalt, Stutgart, 1975,

وله ترجمة عربية نشرت في بيروت بعنوان تجاري شمس العرب تسطع على الغرب ، بدلا من «شمس الله» كما هو في الأصل الألماني .

4) John R. Hays (ed.) The Genious of Arab Civilization, New York: Columbia University Press, 1975.

وله ترجمة عربية نشرها مركز الوثائق والدراسات سنة ١٩٧٧

المبنية بالرخام الإغريقي[1] .» ولقد وصل بين ضفتي النهر جسر أقامه العرب ، يتكون من سبعة عشر قوسا ، وما زال قائما إلى الآن ليشهد على قوة الهندسة المعمارية لدى العرب . وكانت المدينة كلها مليئة بالمباني الراقية التي عدت فكان من بينها أكثر من خمسين ألف بيت للطبقة الأرستقراطية وموظفي الحكومة ، وأكثر من مائة ألف مسكن لعامة الناس ؛ وسبعمئة مسجد ، وتسعمئة من الحمامات العامة . وكانت الحمامات مظهرا مهما في جيمع المدن الإسلامية ، لأن النظافة عند المسلمين – وإن كانت لاتأتي في الدرجة الثانية بعد الإيمان بالله – فإنها تعتبر من الاستعدادات الأساسية للدخول في الصلاة ، أو أي عمل من شعائر العبادة . هذا ، بينما المسيحيون في العصور الوسطى يحرمون الاستحمام على أساس أنه من عادات الكفار ، وكان الرهبان والراهبات يفتخرون بقذارتهم لدرجة أن إحدى القديسات سجلت بكل فخر أنها لم تغسل أي جزء من جسدها إلى أن بلغت الستين من العمر ، باستثناء أطراف أصابعها عندما كانت تشارك في القداس . وبينما كانت القذارة هي السمة المميزة للقداسة عن المسيحيين كان المسلمون حريصين على أصغر أمور النظافة ؛ ولم يكونوا يتجرأون على الوقوف أمام الله إلا بعد تنظيف أجسامهم وتطهيرها . وعندما تم للحكام المسيحيين استرجاع إسبانيا في النهاية ، بادر فيليب الثاني – وهو زوج ملكتنا الإنكليزية الملكة ماري – فأصدر أمرا بتدمير جميع الحمامات العامة باعتبارها من مخلفات الكفر[2] .

ومهما كان جمال قصور وحدائق قرطبة فإن مفاخرها في الأمور الأكثر سموا لم تكن أقل من ذلك ؛ لقد كان العقل جميلا مثلما كان الجسم ، فقد جعل منها أساتذتها ومعلموها مركز الثقافة الأوروبية ، حيث توافد إليها الطلاب من كل أجزاء أوروبا للدراسة تحت إشراف المشاهير من أساتذتها (her famous doctors) ؛ بل إن الراهبة Hroswitha التي كانت تعيش في دير ناء في ولاية سكسونيا الألمانية الشمالية ، لم تستطع أن تتجنب التغني بمدح قرطبة ، جوهرة العالم الأكثر إشراقا (the brightest splendour of the world) .

---

(1) Stanley Lane-Poole, ***The Moors In Spain*** (Beirut: Khayats, 1976, reprint), pp.131-132 .

(٢) ***المصدر نفسه*** ، ص ١٣٥ – ١٣٦ ، والكلام هنا للمؤرخ البريطاني ؛ وعندما يقول «إلى الآن يكون ذلك في أيامه» ، وليس أيامنا في القرن ٢١ .

لقد اعتاد الباحثون في سير الحضارات وإنجازاتها أن يعدوا المباني ذات المواصفات المتميزة في تصميمها وزخارفها باعتبارها من الإنجازات الحضارية ، سواء في ذلك المساجد والكنائس والكاثدرائيات ، بجانب القصور ، وغيرها ؛ ومثل ذلك أيضا يتناولون الأواني المنزلية ، وتصميمها وزخارفها وزينتها ، سواء كانت من الفضة والذهب أو من النحاس والخزف ، وغير ذلك ، هذا فضلا عن الرسوم واللوحات ، والمجسمات التي تمثل الإنسان والحيوان والنبات ، وغير ذلك من الأعمال الفنية . ولا مراء في أن هذه العناصر تعتبر من تراث الحضارات ، لكنها تأخذ – في رأيي – منزلة أدنى في سلم الإنجازات الحضارية ، لأنها من مظاهر الترف التي تبنى وتصنع للأغنياء . وهي ليست من ضرورات وظيفة المساجد ، ولا أريد أن أتحدث عن قيمتها ودورها بالنسبة للكنائس والكاثدرائيات وغيرها . أما السيوف والخناجر ذوات القبضات المذهبة والمزركشة فهي ليست سيوف الحرب لردع الظلم والطغيان ، بل هي سيوف الترف والتباهي والزينة ، التي تصنع لتشبع رغبات الطغاة والمسرفين في التعالي .

لكل هذا ، فإنني اكتفي بالأمثلة التي قدمتها من إنجازات الحضارة العربية الإسلامية . ثم إنني أعيد التنبيه إلى أن هذه الإضافة ، ضمن هذا الفصل ، ليست من قبيل التفاخر بالماضي الذي كانت فيه جوانب كثيرة مشرقة ومتميزة ومتقدمة بل إن هدفها أن أدفع وأبعد الظن بأنني أتبنى الحكم السلبي المطلق على حضارتنا ، أو وصفها بأنها لم تنجز شيئا ذا أهمية . إنني أقول عكس ذلك تماما ، لقد قدمت الحضارة العربية الإسلامية كثيرا من الإنجازات المعجبة ، لكنها توقفت عن الإنجاز منذ زمن طويل ، وصارت تكتفي – في عصرنا الحديث – بالتفاخر بإنجازات الأجيال الماضية ، مع بؤس الحاضر ، وعقمه وضعته ومهانته . ولعل الثورات والانتفاضات التي شهدتها البلاد العربية وما زال بعضها يعيشها هذا العام – ٢٠١٢م – لعلها تأتي بتغيير إيجابي مفيد ومستمر إن شاء الله .

الفصل السادس عشـر

سبـيـل الـنـهـوض وتـجـديـد الـبـنـاء

في الفصول السابقة سرت والقراء في رحلة طويلة نحاول تتبع آثار الجراثيم الممرضة التي أثقلت حياة الحضارة العربية الإسلامية وأوردتها موارد الضعف والانهيار . وفي هذا الفصل الأخير سنحاول اكتشاف طريق النهوض ، أو نلقي بعض الأضواء على المنطلقات الموضوعية والعملية ، التي يساعد فهمنا لها ، المسيرة على اختيار الطريق الصحيح الذي ييسر الوصول إلى الأهداف المرجوة بإذن الله تعالى . وبجانب المنطلقات الموضوعية حرصت على إضاءة جوانب الطريق لكشف الكمائن والعقبات ، والشراك المنصوبة التي أعدها ويعدها الحاقدون والفاسدون المفسدون ، بغية إفشال المسيرة الخيرة البناءة ودفن أهدافها ومناراتها قبل أن ترتفع . وكمااعتدت في كل ما أكتب فإنني أجد من اللازم ، بل من الضروري أن أحدد مدلولات بعض الكلمات والألفاظ التي تجري كالمصطلحات في هذا الفصل النهائي :

النهوض، والنـهضـة:

النهوض ، أو النهضة كلمة تشير إلى فعل يقوم به شخص واحد أو اكثر ، فينتقل من حالة إلى حالة أخرى تناقضها ، فيتحول من وضع النوم أو الجلوس إلى وضع الوقوف ، أو الوقوف والحركة . وغني عن القول أننا لا نقصد هذا المعنى المباشر والبسيط للكلمة .

النهوض المقصود هنا ينسب إلى الأمة بكاملها ، ويستخدم بصيغة مجازية ، ويعني تحول الأمة وانتقالها من حالة الخمود والركود وقلة الحركة والانتاج إلى حال الحركة والفعل والإنتاج والتغيير . وإذا اقتربنا من الهدف على نحو الصق وأوثق فإننا نقول إننا نريد لأمتنا الحركة والقوة المؤدية بها إلى الاعتماد على الذات في العمل والإنتاج وتوفير كل احتياجاتها ، أو أهم احتياجاتها ، في كل نواحي الحياة ، وزيادة

عليها ، بحيث تكون في منزلة عالية بين أمم الأرض ، تعطي وتساعد الآخرين بعزة وكرامة ، لا تحتاج أحدا ولا تتسول على باب أحد ، ولا تحني رأسها لأحد ، ولا تضعف أمام الأعداء أو تستسلم وتدير الخد الأيسر .

تجديد البناء:

لقد استخدمت كلمة «تجديد» لأبعد عن ذهن القارئ/القارئة فكرة إعادة البناء كما كان .

إنني أحاول أن أقدم مساهمة في مشروع إقامة بناء جديد بدلا من ذلك الذي انهار وتهدم ، مع الحرص على استبعاد ونفي العناصر والعوامل والتعديلات والإضافات الغريبة ، ويمكن أن نسميها البدع السيئة ، التي كانت سببا في انهيار البناء القديم .

البناء:

والذي نعنيه بهذه الكلمة هو إقامة البنية الشاملة التي تتكون منها أمتنا بكل جوانبها التي تشمل الناس كائنات حية ، وتشمل الأرض والمباني والمكونات الزراعية والصناعية ، كما تشمل الجوانب الفكرية والمعرفية ، العلمية والعملية ، والتطبيقية والتنظيمية ، بما في ذلك المعتقدات(١) والمقدسات ، والتراث الفكري والثقافي السليم منه والسقيم ، كما تشمل الميراث السياسي المعقد بكل تعرجاته ومساربه وقممه ووهاده ، وكل ما يدخل في هذه المعاني مما يخص الأمة (٢) .

إنتهت التعريفات وتحديد معاني المصطلحات ، بيد أننا نحتاج إلى أن نستحضر في أذهاننا أن عناصر الحقائق التي نتناولها بالبحث إنما هي غير المجاز ، والفرق بين الحالتين يتضح عندما نفكر في توظيف كلمتي النهوض والبناء : فعل النهوض بالنسبة لشخص واحد أو عدة أشخاص عمل سريع يتم في ثوان قليلة ، أو حتى ثانية

---

(١) بالنسبة إلى المعتقدات ، المقصود إقامتها على أصولها الصحيحة وتنقيتها من آثار الشوائب المضافة .

(٢) كثيرون من الناس يستخدمون كلمة الأمة بمعنى «الشعب» . وهذا يكون صحيحا عندما نتكلم عن أمة تضم شعبا واحدا ينتمي إلى دولة واحدة . أما حين نتكلم عن أمة تضم شعوبا متعددة ، عندما نقول : الأمة الإسلامية ، الأمة العربية ، فإن علينا أن نستخدم «الأمة» للمجموع فقط .

واحدة ؛ وعندما نبني بيتا أو عمارة أو قصرا جميلا فإن ذلك يمكن أن يتم في بضعة أشهر ، أوحتى بضعة أسابيع . أما عندما نتكلم عن الفكر والثقافة والعقائد والمجتمعات البشرية فإن الأمر يستغرق عشرات السنين في معظم الحالات ، ويحتاج إلى النفس الطويل والصبر والأناة .

المنطلقات الواقعية والعملية:

أولا- واقع التعددية الناتجة عن الانهيار والتباعد والتشرنق:

نحن أمة مكونة من عدد كبير من الشعوب الموزعة في دول متعددة ، كل دولة لها حدودها الجغرافية ، ولغتها/لغاتها ، بجانب التعدد العرقي والإثني ، وتعدد الدين بين سكانها ؛ كما أن لها دستورها وقوانينها وجنسيتها وعلمها ونشيدها الوطني وارتباطاتها والتزاماتها الإقليمية والدولية ، خاصة ما لها من وضع معتمد دوليا ، من خلال القوانين والمواثيق والمنظمات الدولية ؛ وفي داخل كل دولة تمزق وتفتت وتشرنق في البنية الاجتماعية . وبجانب ذلك ، فإن في كل واحدة من هذه الدول كتلة بشرية ، أو تيار فكري ، يتبنى القومية القطرية والانعزالية ، المحدودة بوطنه الصغير ، وبجانب كتل وجماعات تتبنى أيديولوجيات مختلفة .

وهذه كلها حقائق واقعية ، لا يمكن تجاوزها أو إغفالها واستبدالها بأية شعارات أو عواطف ، ويجب أن تؤخذ بعين الاعتبار ؛ وأي تجاهل لها أو إغفال ، أو غفلة ، في مرحلة البداية والانطلاق ، سوف يقود إلى الفشل والكوارث . وفي ضوء ذلك ينبغي أن يكون انطلاقنا في طريق النهوض وإعادة البناء متسقا ومنسجما مع الضرورات التي تفرضها هذه الحقائق ، متشعبا وموزعا في هذه الدول المنفردة ، بقوانينها وأنظمتها التي لا يصح أن نهون من شأنها أو أن نتجاهلها . وليس ثمة شك في أن كثيرا من هذه المكونات الواقعية التي وصفنا باختصار شديد تشتمل على كثير من الخطأ وعوامل الخلل والضعف ، ولا ينبغي أن يكون من أهدافنا الاحتفاظ بهذه الأوضاع والعناصر الخاطئة ، بل المقصود أن ندرك وجودها ، ونتلمس الأساليب العملية والموضوعية لتنحيتها وإزالتها برفق وسلام من خلال التربية والإرشاد ؛ وهو ما لا يمكن أن يتم بالتجاهل أو الجهل أو القفز الحماسي الأعمى .

وفي ضوء هذه التعددية الواسعة في مكونات بنية الأمة ، والمتناقضة أحيانا ، فإن الجهود المستخدمة في سبيل **النهوض وتجديد البناء** ينبغي أن تسير ضمن رؤية

وأفق يشمل ويستصحب أربعة مستويات للعمل معا ، وينطلق بها متوازية ، موزعا القدرات والجهد وفق أوليات عملية مدروسة ؛ وهذه المستويات هي :

(أ) الصعيد الوطني في حدود الدولة القطرية ،

(ب) الصعيد العربي

(ت) صعيد الأمة الإسلامية العام

(ث) الصعيد الإنساني العام

ولا مراء في أن ميدان الدولة القطرية سيكون المجال الأول والأهم ، بسبب القرب والوشائج الأقرب أولا ، ثم بسبب العقبات الحاجبة والمانعة على الأصعدة الأخرى ، قانونية وغير قانونية .

ثانيا- ارتباط أمتنا وشعوبها بالاسلام:

نحن أمة أنشأها الإسلام ، وقد جبلت به وبقرآنه وثقافته ، كما اندمجت وانصهرت في بوتقة التطورات التي مرت بها المجتمعات الإسلامية عبر ما يزيد على أربعة عشر قرنا ؛ وعقائد الإسلام وتعاليمه الأساسية راسخة في عقولها ووجدانها على الرغم من كل ما حدث من انحرافات ؛ وقد أثبتت التطورات الأخيرة التي شهدتها المنطقة العربية عام ٢٠١١ و٢٠١٢م . أن هذه الأمة تختزن الاستعداد للتجاوب السريع مع أي نداء إسلامي أكثر من أي نداء أو شعار آخر . وهذه الحقيقة لايمكن تجاهلها أو التهوين من دورها وأثرها . وأظن أن هذه الحقائق الواقعية لا بد أن تكون موضع إدراك واهتمام وعناية بالنسبة لكل الناشطين والعاملين في سبيل النهوض ، بما في ذلك الأفراد والشرائح المكونة من غير الإسلاميين ، ومن غير المسلمين من المواطنين ، دون تجاهل أو تفريط في حقوق أي من الأفراد والجماعات المنتسبة للوطن . وهذا التنويه لا يرمي إلي أي استبعاد ، أو تهوين من مكانة أية تيارات ، فجميع الأفراد والتيارات أمام القانون سواء .

ثالثا- الإسلام القرآني مقابل التاريخي:

في مسار أمتنا عبر التاريخ الإسلامي الطويل حدث شرخ ثم انفصال وتباعد بين الإسلام بمبادئه وطرائقه التي رسمها وحددها القرآن ومعه السنة النبوية الصحيحة من ناحية ، وبين الأنماط السلوكية والحياتية والثقافية المجتمعية ، التي تشكلت تحت

ضغط الأحداث التاريخية والدعاية السياسية والانحرافات التي مررنا بها في الفصول السابقة ، وفوق ذلك تأثير الهيمنة الثقافية الغربية بدرجات متفاوتة . ولقد حدث خلط في أذهان المسلمين وفي سلوكهم الإتباعي ، بين ما هو إسلامي قرآني من ناحية ، وما هو إسلامي بنسبته إلى المجتمع الإسلامي المترهل الذي فقد البوصلة ، وفقد الإضاءة ، وغرق في مستنقعات الصراعات والدعاية السياسية وظلامها من الناحية الأخرى . إن كل سير في **سبيل النهوض وتجديد البناء** لا بد أن ينطلق من مبادئ الإسلام القرآني ، وفي إطاره وتوجيهاته ، وليس ضمن رؤى ومقولات وانحرافات الأجيال الإسلامية التي سقطت في مستنقعات كثيرة وظلت تتخبط فيها وما زالت ، سواء في خياراتها الجمعية أو في الخيارات الفردية الخاصة ؛ وذلك هو ما نسميه «الإسلام التاريخي» المختلف عن «الإسلام القرآني» . وفي مسيرة **الإنهاض وتجديد البناء** يتحتم علينا الاسترشاد دائما بتوجيهات وضوابط القرآن الكريم والسنة الصحيحة ، وليس بممارسات وتقريرات ومخلفات الإسلام التاريخي . إن الملزم لنا إنما هو الأسلام القرآني ؛ أما تراث الإسلام التاريخي فهو اجتهاد قام به أصحابه تحت ضغط الظروف التي مروا بها ، فخالطته أخطاء وانحرافات كثيرة ، واجتهادات ابتعد بعضها بأصحابها عما يوجه إليه القرآن والسنة .

رابعا - نحن والمجتمع الدولي

فكرة المجتمع الدولي وتصور حقيقة هذا المجتمع ووجوده تعتبر أمرا طارئا من إفرازات العصر الحديث . إن تطور نشأة وقيام المجتمع الدولي الحديث كان من ثمار تغير وسائل السفر والانتقال ، والتطور المذهل في وسائل الاتصالات ، وما وازاه من تطور الأسلحة ، ثم فترة ضعف وتراجع انتشار الفكر القومي المتطرف الذي أشعل الحروب المحلية والاقليمية والدولية ، وبلغ ذروته في الحربين العالميتين الأولى والثانية . وقد أتت أولى محاولات تشكيل وتجسيد فكرة المجتمع الدولي من خلال إنشاء منظمة عصبة الأمم بعد الحرب العالمية الأولى ، بينما أتت المحاولة الثانية بمنظمة الأمم المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية . وقد فشلت المنظمة الأولى وانتهت ، بينما الأمم المتحدة ظلت تفقد مصداقيتها عبر السنين ، لأن المنظمتين أسستهما الدول القوية التي حققت النصر في الحربين وحرصت على أن تكون المنظمة أداة طيعة في أيديها ، وإن اضطرت إلى تقاسم هذه السيطرة مع قرنائها من الكبار . لذا فإن مصالح الضعاف ومن

ليس لهم سند هي التي تضيع في حمأة الصراعات التي تنفجر في مختلف أنحاء العالم . وعلى الرغم من كل هذه السلبيات في سجل الأمم المتحدة فإننا لا نستطيع القول بأن ذهابها أفضل من بقائها ، أو أنها لم تفعل أي شئ مفيد ، وإن كل ما قدمته ضئيل يتقازم أمام التوقعات التي كانت منتظرة منها عند ولادتها .

ليس ثمة شك في أن المبادئ والمقاصد التي تبنتها وقامت عليها الأمم المتحدة ، كما بينتها المادتان الأولى والثانية من ميثاقها ، قمينة بأن تظل منارا ومرشدا - بجانب أمور أخرى - لمختلف دول العالم في علاقاتها الدولية[١] . ومن نافلة القول أن نشير إلى أن في بعض تفاصيل الميثاق وما يتبعه شيئا مما نتحفظ عليه ، وقد يتحفظ عليه غيرنا. بيد أن كل ذلك لا يبرر الدعوة للتخلي عن فكرة وجود المنظمة أو رفضها ؛ ففي بقائها أقدار من المصلحة لجميع الشعوب والجماعات ، ومن الضروري أن يمارس كل الأعضاء ، منفردين ومتعاونين دورهم في مقاومة كل الانحرافات التي تتجاهل متطلبات الالتزام والتقيد بالميثاق . الأمم المتحدة ليست كيانا مستقلا منفصلا عن كل ما عداه ، وهي ليست الأمانة العامة وموظفيها ؛ إنما هي مجموعة الدول الأعضاء بكياناتها ومختلف قدراتها واختلاف أهدافها الخاصة ومصالحها المشروعة وغير المشروعة . وكل ذلك وأمثاله يدخل في دائرة الضغوط والمقاومة والمساومات ، ويقبل التعديل والتبديل . وقد أدخلت على الميثاق تعديلات في سنتي ١٩٦٣ و١٩٦٥ . ومن المهم الذي ينبغي الإشارة إليه أن حقيقة وجود المجتمع الدولي وصلت بنا إلى الحديث عن القرية العالمية ، وما يشيره إليه مفهوم هذه التسمية من دلائل القرب والمصالح المترابطة .

خامسا- إنتزاع العقل الإسلامي من أحضان الغفوة :

ومع الانطلاقة المرجوة يلزمنا إستعادة دور العقل وإعادته إلى الفاعلية والتأثير ؛ لأن الله سبحانه ذكره في القرآن أكثر من مئة مرة باعتباره وعاء لتلقي آيات الله

---

(١) وبالنسبة لنا نحن المسلمين نتذكر قول نبينا صلوات الله عليه : حضرت في دار عبدالله بن جدعان حلفا لو دعيت لمثله في الإسلام لأجبت ؛ وذلك في إشارة إلى حلف الفضول في مكة قبل البعثة النبوية ، كما ورد في كتب السيرة والتاريخ الإسلامي . وحلف الفضول كان لقاء بين عدد من فضلاء مكة بهدف حماية المجتمع المكي من الظلم وطغيان الأقوياء على الضعفاء وعلى السلم العام في المجتمع الصغير ، وكل ذلك قبل ظهور الإسلام .

وفهمها والعمل بها . وعلى الرغم من ذلك فإن أفرادا وجماعات من بعض المدارس والمذاهب ، والفرق ، والطرق الصوفية ، بذلوا جهودا ضخمة لتنحية العقل وتغييبه ، مدعين أن ذلك هو المنهج الإسلامي الصحيح ، أي أن يتبع النص من غير تدخل العقل ؛ وهذا توجه ظهر قديما في ثنائية العقل والنقل ، لكنه ضعف في عصرنا الحديث ، وإن استمر إلى الآن ، خاصة على أيدي المتصوفة ، وأيدي السلفيين ، ومن يتأثرون بالفكر السلفي . وأمامي وأنا أخط هذه السطور كتاب بعنوان : **العقلانية . . هداية أم غواية** ، صدر سنة ١٩٩٢م . ومما يؤسف له أن مؤلف الكتاب بدأ السطر الثالث من صفحة المقدمة بسيل من الشتائم لمخالفيه الذين انتقدهم حتى وصل إلى «آخرة هذه التلفيقات : الدعوة إلى الإسلام العقلاني ، وهي أحبولة مزوقة . . .» وأضاف بعد ذلك : «لكن المسترخصين في سوق الأفكار كثيرا ما لا ينتبهون إلى أن العقلنة لا تعني ما يتبادر لذهن السامع لأول وهلة ، بل تعني أن يحل العقل محل النص . . .» ، ص ٩-١٠ .

ولست أستحسن الدخول في مناقشة طروحات هذا المؤلف وأمثاله ، بل سأكتفي بإعطاء مثال مختصر عن تجربتي الشخصية عندما علقت في مواجهات العقل والنص أثناء بحثي في موضوع هذه الدراسة التي أضعها بين أيدي القراء . وقد اخترت من هذه «**المواجهات**» نصا من القرآن الكريم وجدت في مقابله نصا من أحد الأحاديث المنسوبة إلى رسول الله ﷺ . والحديث مروي عن أنس بن مالك من ثلاث طرق ، مع اختلاف يسير في اللفظ لا يغير من دلالته شيئا ؛ وهناك حديث رابع عن طريق عائشة رضي الله عنها بنفس المعنى ، وإن اختلف النص قليلا . ويبدو لي أن توصيل سلسلة السند باسم أنس بن مالك ، وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنهما ، لا يمكن إلا أن يكون موضع تساؤل ؛ ومع ذلك فإن الحديث مصنف في قمة الصحيح ؛ وفيما يلي نصه :

> **//حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة . . . عن أنس أن رجلا سأل رسول الله ﷺ : متى تقوم الساعة؟ وعنده غلام من الأنصار يقال له محمد ، فقال رسول الله ﷺ : «إن يعش هذا الغلام فعسى أن لا يدركه الهرم حتى تقوم الساعة .»// أما الحديث الثاني فعن حجاج بن الشاعر . . . عن أنس بن مالك ، والخلاف بين النصين يتعلق بالغلام ، ففي هذا الحديث الثاني نعت**

الغـلام بأنه من أزد شنوءة ، وليس من الأنصـار . أمـا الحـديث الثـالث فقد روي عن هارون بن عبـدالله . . . عن أنس قـال : مر غلام للمغـيرة بن شعبة ، وكان من أقراني ، فـقال النبي ﷺ : «إن يؤخـر هذا ، فلن يدركـه الهـرم حـتى تقـوم السـاعـة .» أمـا الحـديث المروي عن عـائشـة فقـد نسب إليـهـا القـول : بأن الذين سألوا الرسول كانوا من الأعراب ، وأن الغلام كـان من الأعراب أيضا .

إذن صار لدينا حديث ورد من أربع طرق وصلت ثلاث منها إلى أنس بن مالك ، بينمـا وصل الحـديث الرابع عن طريق عـائشـة ، وذلك حـسب ادعـاء واضـعي هذه الأحـاديث . وهذه الأحـاديث الأربعة توصف بأنها أحاديث صـحيـحة ، لا أقل من ذلك ؛ فإذا قبلت نسبة هذه الروايات إلى الصحيح ، وصدق من قرأها أن الرسول ﷺ قـالها ، مرة واحـدة ، أو مرتين فإن الموقف ينتهي دون إشكال لمن واجهه . غـير أنني أصبت بالصدمة عندما قرأتها أول مرة ، ولم أصدق نسبتها إلى رسول الله ﷺ . إنني أحترم كبار محدثينا ، بيد أنني لا أنزه أيا منهم عن الخطأ في اختيار حديث واعتباره صحيحا ، ثم القيام بضمه إلى مجموعته أو صحيحة ، معتقدا أنه حديث صحيح ، وبنيـة حسنة وصادقة تماما . لماذا رفضت هذا الحديث ، أو هذه الأحـاديث دون تردد؟

الجواب : بمجرد أن قرأت هذه الأحـاديث قفزت إلى ذاكـرتي آية قرآنية هذا نصها : ﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، قل : إنما علمها عند ربي ، لا يجليـهـا لوقـتـهـا إلا هو ، ثقلت في السمـوات والأرض ,لا تأتيكم إلا بغـتـة . يسألونك كـأنك حفي عنها ؛ قل : إنما علمـها عند ربي ، ولكن أكـثـر الناس لا يعلمون .﴾ الأعراف/١٨٧ .

لقـد تحـرك عـقلي وناقش الموقف على النحـو التـالي قـبل أن يصل إلى القرار السريع :

في هذه الآية نجد : أن الله سبحـانه وتعـالى أصـدر أمرا إلى رسـوله : ﴿قل [لمن يسألونك] : **إنما علمـهـا عند ربي . . . لا تأتيكم إلا بغـتـة . . . إنما علمـهـا عند الله ، ولكن أكـثـر الناس لا يعلمـون .**﴾ ويتكرر نفس الأمـر والتـوجـيـه في آية أخرى : ﴿**قل إنما علمها عند الله . . .**﴾ (الأحزاب/٦٣) .

إذن ، رسول الله تلقى أمرا واضحا بما ينبغي أن يقوله لمن يسألونه عن الساعة ؛ فهل كان من الممكن أن يعصي الرسول الأمر ، ويحدد لهم الموعد بشكل اعتباطي ، مع أن الله وجهه بأن يخبرهم بأنه (اي الرسول) لا يعلم ، ولا يستطيع إجابة سؤالهم ، لأن العلم بجوابه عند الله وحده ، وليس عند غيره . لو صدقناالحديث واعتبرناه صحيحا نكون قد قبلنا الزعم بأن الرسول اقدم على فعل العصيان عن وعي ، وحدد الموعد اعتباطا ومن غير علم ، ثم ظهر بعد بضع عشرات من السنين أن ما قاله لم يكن صحيحا ، وقد مضت على هذا الحديث الموضوع أكثر من ألف وأربعمئة سنة تقريبا دون أن يطالب واحد من الغيورين على سلامة الأصول باستبعاده . هنا إذن ، تدخل العقل ضد نص موصوف بأنه حديث صحيح ، ورفض قبوله وتصديقه . وهذا الذي حدث معي ربما حدث مع كثيرين ممن لا ينيمون عقولهم .

هل كان علي أن أحجر الحركة على عقلي وأترك الموقف ليتحكم فيه نص موضوع ، احتراما لمن أخطأوا بنية حسنة فقالوا إن الحديث صحيح؟ لقد أخطأوا باتباعهم قاعدة احترام النص «الصحيح» في نظرهم ، مع أن مناقضته للنص القرآني في أكثر من آية واضح وضوح الشمس . لكن العقول تعشوا ، أو يغشاها النعاس في عتمة الأنفاق وكوابح الأسوار . **أم أن علينا أن نغمض عيوننا وننيم عقولنا لنسمح لحديث موضوع وغير عقلاني أن يجتاح آية قرآنية واضحة المعنى والهدف ، ونقبل نسبة ارتكاب المعصية إلى رسول الله ﷺ ؟**

سادسا: الخروج من الأنفاق والأسوار الموروثة:

كنا قد تحدثنا عن بناء الأنفاق والأسوار والمسارب القديمة التي صنعها بعض الفقهاء والعلماء وسجنوا فيها عقول المسلمين ، وذكرنا أن بناءها قد تم تحت ضغوط الصراعات والانحرافات والدعايات السياسية الصاخبة التي عاش في ظلها المسلمون منذ ما قبل منتصف القرن الأول الهجري . لقد كانت الصراعات والانحرافات والدعايات السياسية المستمرة هي التي أوقعت العقل السياسي الإسلامي في الشتات الفكري ، ثم جاء بناء الأنفاق والأسوار والمسارب المسورة لحماية شظايا هذا الفكر بعد تشرنقها ، ونشأة السلفيات المتعددة ليمد حالة الشتات بالاستمرار ، وليمنع الفكر من الخروج من العتمة إلى النور ، وذلك إنما يتحقق عندما يتم التعامل مع تراث الصحابة والتابعين وتابعي التابعين وغيرهم ، على أنه إنتاج بشري ، وأن من أنتجوه

كانوا معرضين – كغيرهم من البشر في كل العصور – للصواب والخطأ . وهنا ينبغي أن نذكر بحديث رسول الله ﷺ : «**كل الناس خطاءون ، وخير الخطائين التوابون** .» ثم إن علينا أن نجتاز المساحة التي تفصل بين تراث الصحابة والتابعين وتابعي التابعين ومن خلفهم من السلف من شيوخ المذاهب ، والطرق ، والجماعات والمنظمات والأحزاب الإسلامية الحديثة ، وبين النص القرآني ، استنادا إلى قول الله تعالى : ﴿**إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم . . .**﴾ لنربط فكرنا وتحركنا بهذا الأصل الأهم ، **الذي يهدي للتي هي أقوم** ؛ وبينما نحن مع النص القرآني ننظر إلى السنة النبوية ، ونشدها إلى دائرة الضوء القرآني ، ونقيس بهذا الميزان كل ما يحتاج إلى فحص وقياس . ولو افترضنا أننا أخضعنا بعض المقولات إلى هذا الفحص ثم تبين أنها تقع في دائرة الصواب ، وليست من الخطأ الذي يراد إستبعاده ، فإن مثل هذه النتيجة لا ينبغي أن تسبب حرجا .

فإذا تيسر الخروج من الأنفاق عندها لن يكون تحرك المسيرة ، أو تحرك الأشخاص منفردين على غير هدى ، بل سيكون في الهواء الطلق والشمس والحرية ، وبأيديهم مقاييس صحيحة ودقيقة ؛ ولا شئ غير ذلك .

سابعا- أي سبيل نختار:

نحن الآن على مفترق طرق ، ليس لأننا دخلنا الفصل الأخير من هذا الكتاب فحسب ، ولا بد أن نحدد الطريق ، بل ولأننا شهدنا انطلاقة ثورات الشعوب العربية (٢٠١١ – ٢٠١٢م) ، ولأن بعض شعوبنا الثائرة أعلنت خيارها وظهر أمامها طريق طويل مزدحم بالأشواك والمشاكل والعقبات وكثير من الشراك والألغام . فمن خلال حراك ثورات الربيع العربي وتوابعها طرح الناشطون السياسيون أمامنا خيارين : الخيار الإسلامي الذي انحازت له الشعوب من خلال انتخابات نزيهة لم تعرفها البلاد العربية طوال نصف القرن الماضي ، وبذلك يمكن القول أنها تمكنت من قطع نصف الطريق ، أو أقل قليلا ، في تونس ومصر وليبيا والمغرب ، وربما تتبعها بقية الشعوب ، لو تمكنت من أن تحقق نفس القدر أو أكثر منه من الحرية . أما الخيار الآخر الصاخب الذي يزيد صخب أصحابه على حجمهم السياسي والواقعي زيادة طاغية ، فهو التيار الذي يمكن جمع ممثليه والسائرين في طريقه تحت مسمى العلماني والعلمانية بفتح العين واللام كليهما ، وبعضهم يسميه الديمقراطي والديمقراطية ،

والليبرالي ، والثوري ، والمدني . . . . وكل ذلك يشكل **عقبات ومعوقات في طريق النهوض ، تتمثل في الشعارات الحماسية التي تندفع عبر منظور ضيق ، وينتج عنها تجاهل المنطلقات الموضوعية والواقعية التي أشرنا إليها آنفا ، وتجاهل كل المخالفين الذين تظلهم الساحة الوطنية ؛ ومن هذه الشعارات** : - شعار العلمانية ، ويتبعه شعار اللبرالية والمدنية والثورية ، بل يمكن أن يضاف إلى ذلك أيضا : - شعار الإسلام هو الحل ، عندما تسخنه حمأة الاستعجال والمنظور الضيق ، والإسراف في التفاؤل والتوقعات الرغائبية . ومن المعوقات والعقبات أيضا - ركام الأنظمة الاستبدادية الفاسدة ، ما انهار منها وتشرذم ، وما انزوى ينتظر ثغرات ينفذ منها ليعود فيتسلق المسرح أو يحاول التسلق - مشكلة نقص الخبرة والممارسة التي تستوجب الصبر والتحرك بأناة .

والآن دعونا ننظر في هذه العقبات والمعوقات وما إذا كان من الممكن أن تمضي مسيرة النهوض وتجديد البناء في طريقها المرجو ، رغم وجودها . . .

العلمانية:

وهذه الكلمة لفظة مستحدثة للتعبير عن فكرة ومعنى ومبدأ ظهر في أوروبا في مطالع العصر الحديث ، خاصة في اللغتين الانكليزية والفرنسية ، المنتشرتين عبر العالم . والكلمة ترجمة لذلك المعنى ، ولا أصل لها في العربية . والمعنى الأصلي للكلمة - قبل ترجمتها إلى العربية يدور في نطاق المعاني التالية : عالماني - بفتح اللام ، أي منسوب إلى العالم ، أو دنيوي أي منسوب إلى الدنيا ، غير ديني [(١)] . ولما كانت كلمة دنيوي غير مستحبة عند جمهور المتدينين في مجتمعاتنا ، وهم يشكلون الأغلبية ، فقد حاول بعض من يتبنون السكيولارزم أو اللائكية تمويهها بكلمة العلمانية ، علمانية ، بكسرالعين وتسكين اللام ، وبذلك نسبوها إلى العلم خداعا وتشويها . والعالمانية عند العلمانيين تراوح بين تنحية الدين من حياة المجتمع وحصره في الخيارات الشخصية للفرد في اعتقاده وسلوكه الشخصي ، وبإنكار وجود

---

(١) أنظر معجم المورد الكبير ، تأليف منير بعلبكي ، طبعة سنة ٢٠٠٣ كلمةSecular, secularism وقارن مع معجم **وبستر** الأميركي .

الله أصلا وإنكار صدقية الدين ، أي دين ، بينما يجب أن يكون المجتمع محكوما بعقيدة ومبادئ العلمانية . والنفي والإنكار يعني أن لهم موقفا واعتقادا مغايرا معاكسا . وقد يتوهم بعض المتدينين أن ما يمكن أن يسمى دينا أو عقيدة إنما هو الدين الصحيح فقط ؛ إن هذا فهم مغلوط ، لانطلاقه من منظور ضيق ؛ ذلك أن كل متدين بدين يعتقد أن دينه فقط هو الدين الصحيح ، بينما كل الأديان الأخرى غير صحيحة ، أو محرفة ومشوهة على الأقل ، لدرجة تلغي صدقيتها . يمكن أن تصدر حكما فتقول إن دينهم غير صحيح ، أو فاسد ؛ لكن حكمك نفسه يظل أيضا موضع خلاف بين المتلقين . وكان الفيلسوف والمؤرخ البريطاني الراحل أرنولد توينبي (ت . ١٩٧٥) قداعتبر الماركسية دينا له أنبياؤه : كارل ماركس وفردرك إنجلز ولينين وتروتسكي ، وله كتابه المقدس : كتاب رأس المال . وعلى ذلك فإن بإمكاننا أن نعتبر العلمانية دينا له – بجانب اعتقادة السلبي في مسائل الألوهية والخلق والمبادئ الأخلاقية واليوم الاخر والثواب والعقاب – له أنبياؤه من أوغست كونت ، ودايفد هيوم ، وفردرك نيتشه ، وتشارلز دارون ، وتوماس هكسلي ، وله عقائد مغايرة أو مناقضة . ولماذا نذهب بعيدا ، والله سبحانه وتعالى علم النبي ﷺ أن كل الرافضين للإسلام لهم دينهم الخاص بهم ، وأمره أن يقول لهم : ﴿قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ،ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، لكم دينكم ولي دين .﴾ ونقرأ في سورة وآية أخرى : ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه . . .﴾ إذن كل من هذه الفرق المخاصمة للإسلام لها دينها ، بغض النظر عن صحته أم بطلانه .

ما المشكلة؟:

والمشكلة التي يثيرها العالمانيون في المجتمعات الإسلامية أنهم يريدون الحجر على كل الأديان في مجتمعاتهم ، وأن يتسيد اعتقادهم ودينهم وتتسيد مبادؤهم وحدها ، دون ترك مجال لحرية الاختيار والتنافس ، وحرية الرأي والتعبير عنه والإقتناع والقبول – أو عدم الاقتناع والرفض – حسب اختيار أغلبية المواطنين ، على أساس المساواة وعدم التمييز ، وعلى أساس حماية حق وحرية القابلين والرافضين على السواء ، ثم إخضاع خيار الأغلبية للتجربة العملية ؛ وبعد فترة التجربة ، وهي دورة برلمانية ، تعاد حرية الاختيار للناخبين للتغيير أو للإستمرار .

والمبدأ الذي نصل إليه من خلال هذا التحليل ونرجو تحققه وتبنيه هو مبدأ الحياة والتعايش السلمي المحكوم بضوابط وقواعد محددة وواضحة تجعله الخيار المفضل رغم الاختلاف والتنوع والتعددية ، وذلك ما يستلزم صياغة نظام ييسر التعاون الحر عمليا . وهذا المبدأ المفضل الذي ندعو إليه مبدأ إسلامي عميق الجذور ، وموثق وواضح بأشد درجات الوضوح ؛ وقد أشرنا إليه في غير هذا السياق ، وكذلك في غير هذا الكتاب من كتبنا . فالقرآن الكريم يرشدنا بقول الله تعالى : ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين ، إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم . . .﴾ وفي آية وسورة أخرى نقرأ قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض . . .﴾ ، وفي نص قرآني آخر نقرأ ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان .﴾ والذي تبينه هذه الآيات بوضوح ، أن الاختلاف بين الناس سنة من سنن الله سبحانه وتعالى ، أجراها عن قصد ، وأنها انبثقت من حرية الإرادة البشرية ، التي منحها الله سبحانه وتعالى للإنسان ، في حدود قدرات الإنسان ، وحدود ما يقع تحت سيطرته ، وكل ذلك خاضع لإرادة الله أولا وآخرا .

ومما يؤسف له أن العلمانيين عندما تعوزهم الحجة يلجؤون إلى المغالطة والخداع لدرجة أنهم يتهمون الإسيلاميين بأنهم يريدون احتكار الإسلام . وتهمة احتكار الإسلام هذه تلقفها ورددها وتبناها عدد من الحكام الطغاة ، وقد نجحت شعوبهم في إسقاطهم وطردهم . إن الإسلام ليس مالا ولا أرضا ولاتجارة تحتكر ، إنه عقيدة وإيمان مقرهما القلب والضمير ، وظاهرهما العمل الاختياري المعلن والخفي ، وهذه كلها لا يستطيع أي إنسان – فردا أوجماعة – احتكارها . واستمرارا في مغالطاتهم يقولون عن أنفسهم : «ونحن مسلمون أيضا ، كلنا مسلمون» ، ويسعدنا لو أنهم كانوا صادقين ؛ لكن من يؤمن بالماركسية اللينينية ، ومن يؤمن بالفلسفة الوضعية وأمثالهما لا يمكن أن يكون مؤمنا بالإسلام ، وذلك لوجود التناقض القطعي والمعلن بين الموقفين الإيمان بالله وبالإسلام ، والإيمان بالماركسية والوضعية .

العالمانية عندما حكمت:

ومن ناحية أخرى فإننا نعرف كلنا أن العالمانية حكمت دول أفريقيا ومعظم دول آسيا – بما في ذلك معظم الدول العربية والإسلامية – من إندونيسيا التي استعمرتها هولندا إلى السنغال وغيرها من الأقطار الإسلامية الإفريقية – خلال فترتين : الفترة

الأولى هي فترة الحكم الإستعماري المباشر ؛ والفترة الثانية فترة الاستقلال [١] ، وأعني بذلك الدول العربية والإسلامية التي استقلت خلال القرن الماضي وعاشت في ظل أنظمة ودساتير علمانية وسيطرت على سياساتها أحزاب وزعامات علمانية ، ومن أشهر هذه التجارب ماشهدته مصر منذ سنة ١٩١٩م ، حيث تزعمت الأحزاب العلمانية التي تأسست في تلك السنة وما بعدها ، وقادت الحراك السياسي فيها . ومثل ذلك يمكن أن يقال عن الأحزاب اللبرالية ، بما فيها حزب البعث في سوريا واالعراق ، والقوميين في اليمن ، والناصرية في مصر ، وما شهدته الدول المغاربية الأربع ؛ وحكم أحمد سوكارنو ، وخلفاؤه في إندونيسيا ؛ فماذا كانت النتائج في كل هذه الدول ، سواء في فترة الحكم الاستعماري الأوروبي العلماني المباشر أو فترة شبه الاستقلال؟ لم تكن النتائج إلا تخلفا وفسادا وتخريبا ، ستحتاج الشعوب عشرات السنين ، وإلى ثورات دامية ، كي تطهر حياتها من أمراضه ، ذلك إن نجحت في إسقاط الأنظمة العلمانية الفاسدة .

فلماذا الإصرار على فرض العلمانية على الشعوب بعد كل هذا الفشل الذي ما زلنا نعاني منه ومن آثاره المزمنة ، وحرمان شعوبنا من حرية الاختيار والتجربة؟ ولماذا يصر العالمانيون واللبراليون والشيوعيون ، على رفض مبدأ التنافس السياسي الحر مع الإسلاميين ، ويتحالفون مع الحكام المستبدين الطغاة [٢] ويقبلون أن يكونوا ستارا لتمويه الاستبداد الذي مارسه ويمارسه أولئك الطغاة؟ كيف يمكن أن تتعلم الشعوب ممارسة الحكم الديمقراطي وتألف وتتعود على تداول السلطة بطريقة سلمية؟ وهنا أود أن أذكر العلمانيين بخطر لا أشك أنهم يدركونه ، بيد أنهم يتجاهلونه على الرغم من ذلك ، وهو حدوث واستمرار القطيعة بينهم وبين الشعب الذي تميل أغلبيته الساحقة إلى تبني «الخيار الإسلامي» . وهذا الخطر ليس افتراضيا واحتماليا في المسقبل ، بل خطر حاضر وواقع بدليل فشل العلمانيين في الحصول على عدد ذي بال من مقاعد

---

(١) *أو شبه الاستقلال* .

(٢) مثل ما كان يسمى بالجبهة التقدمية المتحالفة مع حزب البعث «الحاكم» في سوريا ، وكما كان عدد من الأحزاب العلمانية واليسارية في مصر حسني مبارك (حزب التجمع) وغيره ، يقبلون أن تكون لهم حصة (كوتا) صغيرة وهامشية في البرلمان (مجلس الشعب) المكون من خلال انتخابات مزوة مفضوحة التزوير ، لمجرد إثبات وجودهم .

البرلمانات في دول الثورات العربية الأخيرة ، على الرغم مما تلقوه من دعم واضح لا نريد أن ندخل في الحديث عن تفاصيله . لقد دخلتم حلبة التنافس وخسرتم السباق ، غير أن هذا ليس نهاية المطاف ، أو نهاية الدنيا . استعدوا للجولة التالية خلال الدورة البرلمانية الحالية وحاولوا أن تقنعوا الشعب بأفكاركم وعقيدتكم ، وأن تربوه وتثقفوه كما تريدون ، وأعيدوا الكرة بعد خمس سنوات . أم أنكم تريدون وتشترطون أن تغلق كل الأفواه ، وتخرس كل الأصوات ما عدا صوتكم؟ لقد فعلتم هذا في النصف الثاني من الخمسينات والنصف الأول من الستينات ، في عهد جمال عبدالناصر ، رحمه الله (1) ، حيث تسلم الشيوعيون والعلمانيون «التقدميون» كل وسائل الإعلام ومؤسسات التوجيه والتثقيف . وقد حدث مثل ذلك في سوريا عندما عجز البعثيون عن إنشاء قاعدة شعبية لهم ذات وزن ، فتحولوا إلى الانقلابات العسكرية ، وإلى إثارة وتوظيف أحقاد الأقليات ، وتم لهم ما أرادوا منذ ستينات القرن العشرين .

إننا ننصح ونطالب الإسلاميين والعلمانيين ، وكل القوى التي تتولى الحكم أو تسعى لتوليه ، بالالتزام بمتطلبات وقواعد التنافس الانتخابي الشفاف والحر ، وتداول السلطة من خلال احترام رأي أغلبية الشعب ، ورضاها التام . وفي حال إخفاقهم أن يتحولوا إلى دراسة أسباب هزيمتهم ، وما إذا كانت بسبب قصورهم وعدم أهليتهم لممارسة الحكم وإدارة شئون البلاد بدرجة مناسبة من الكفاءة والإنتاجية أو لأن منهجهم وطريقهم وخطابهم غير مقبول للشعب الذي يعيشون بين ظهرانيه ويسعون لحكمه والسيطرة عليه . وفي كل الأحوال عليهم أن يقبلوا بالنتيجة كما هي ، ويستعدوا للدورة التالية من الانتخابات .

أهم مسببات اشتعال العداء بين المتدينين والعلمائيين في عالم الغرب:

١- تطور أسقفية روما وطموحاتها منذ نقل عاصمة الإمبراطورية من مدينة روما إلى بيزنطة سنة ٣٣٠م ، واستمرارا إلى القرن السادس عشر وما بعده ،

٢- ادعاء البابوات بأن الإمبراطور قنسطنطين الأول وهب إيطاليا للبابوية واكتشاف تزوير الوثيقة المستخدمة لإثبات الادعاء طوال عدة قرون ،

٣- انغماس بعض البابوات في الفساد المالي والأخلاقي وكان من بين أسوأ مظاهره

---

(١) وفي عهد بو رقيبة والقذافي ، وحكم البعث في سوريا والعراق أيضا .

إصدار البابوات صكوك الغفران ، والادعاء بأن الصكوك تغفر الذنوب جميعا حتى لو كان المستفيد من الصك قد اعتدى جنسيا على أم الله ، أي العذراء . وكان من أبرز مظاهر الانحدار الأخلاقي أن بعض البابوات الفاسدين كان لهم أولاد غير شرعيين ، مع أن الزواج محرم حتى على صغار القساوسة .

٤- صراع البابوات مع الأباطرة ، ومع الملوك ، ودخول البابوية في تحالفات مشينة هدفها غزو بعض الدول والاستيلاء على أراضيها وتقسيمها أسلابا .

٥- ظهور حركة النهضة في إيطاليا أواخر القرن الخامس عشر ، وانتشارها في أوروبا ، وما تركته من آثار واسعة في الفكر والثقافة والآداب والفنون ، وتراجع وتدني منزلة الدراسات اللاهوتية لصالح الدراسات المهتمة بشؤون الإنسان الحياتية ؛ بجانب اهتمامها بالدراسات الكلاسيكية ، اليونانية والرومانية القديمة ، وهي تتسم بالبعد عن الدين .

٦- حركة الإصلاح الديني وظهور الثورة البروتستنتية وما تلاها من الحروب الدينية التي استمرت أكثر من مائة سنة ، متحولة تكرارا بين الانفجار والتأجج والتطامن والهدوء .

٧- صحوة الحركة التوحيدية المسيحية واستمرار انتفاضاتها وسرعة انتقالها من بلد أوروبي إلى آخر ، من إيطاليا إلى بولندا ورومانيا ، ثم إلى الأراضي المنخفضة وبريطانيا وألمانيا وعبورا إلى الولايات المتحدة ، وما تعرضت له الحركة من اضطهاد ومطاردة عبر مختلف الأقطار حتى القرن التاسع عشر .

٨- معارضة البابوية وذراعها محكمة التفتيش للحركة والثورة العلمية التي ظهرت وانتشرت في غرب أوروبا في القرن السابع عشر وما بعده ، واضطهاد العلماء والمكتشفين ومطاردتهم وحرقهم حتى الموت .

وليس في الإمكان أن نستعرض أكثر من أمثلة قليلة ، نلقي بها مزيدا من الضوء على ما عددناه باختصار في هذه النقاط ، في إطار مشاهد وسجلات تصور بعض ما حدث من الصراعات التي مهدت لظهور العلمانية في عالم الغرب :

المثال الأول : في سنة ١٠٧٣م تفجرخلاف بين البابا والإمبراطور حول تعيين بعض الموظفين الكنسيين في مدينة ميلان الإيطالية ، حيث اعتبر البابا غريغوري السابع أن الإمبراطور تعدى على صلاحياته ، ولذا فقد وجه له رسالة توبيخ ، مع التهديد بعزله من منصبه .

وجاء رد الإمبراطور هنري الرابع في يناير ١٠٧٦ فدعى إلى مجلس كنسي ، وكان عدد كبير من الأساقفة الذين دعاهم ناقمين على البابا فأصدر المجلس قرارا بعزله . وكان والد هذا الإمبراطور قد عزل ثلاثة بابوات من قبل ؛ لكن غريغوري لم يستسلم ، بل أصدر قرارا بالحرمان بحق جميع الاساقفة الذين تعاونوا مع هنري ، وبعزل هنري نفسه من منصبه الإمبراطوري ، وأحل جميع المسيحيين من قسم الولاء له . ومن غير إطالة في تتبع التطورات التفصيلية فقد اضطر الإمبراطور في النهابة إلى الرضوخ المهين ، فذهب إلى بلدة كانوسا الجبلية حيث كان يقيم البابا في حصن فيها ، ووقف على الثلج حافي القدمين في شهر يناير ١٠٧٧م يطلب الصفح والرحمة من البابا الذي استجاب لتوسلاته بعد ثلاثة أيام من الانتظار والمذلة (١) .

المثال الثاني : في سنة ١٥٠٨م تشكل حلف كامبراي League of Cambrai وشارك في تشكيله البابا يوليوس الثاني ، وكل من الإمبراطور مكسمليان الأول ، وملك فرنسا لويس الثاني عشر ، وفردنند الثاني ملك أراغون الإسبانية . وكان الهدف المعلن لهذا الحلف هو مقاومة خطر الدولة العثمانية ؛ أما الهدف الحقيقي ، الذي تبين عمليا بعد ذلك ، فقد تمثل في غزو والاستيلاء على أراضي جمهورية البندقية وتقسيم ممتلكاتها وأراضيها بين أعضاء الحلف . وقد انتصر الجيش الفرنسي على قوات البندقية وقسمت الأسلاب ؛ وقد اعتبر ملك فرنسا أن من حقه أن يحصل على نصيب الأسد ، لأن فرنسا كانت القوة الأولى في أوروبا ؛ وهنا ثار الخلاف بين الحلفاء ، فشكل البابا حلفا جديدا ، باسم الحلف المقدس ، ضم الدولة البابوية ، والبندقية وإسبانيا وانكلترا وسويسرا ، ونجح الحلف في طرد الفرنسيين من ميلان . . وعندما حاولوا العودة الحق بهم السويسريون هزيمة كبيرة في معركة نوفارا (حزيران ١٥١٣م) ، وفقدت فرنسا كل فتوحاتها في إيطاليا . ونشبت الحرب من جديد سنة ١٥٢٢م عندما عاد فرانسس الأول ، ملك فرنسا ، لاجتياح إيطاليا ، وحاصر بافيا سنة ١٥٢٥م ، لكن جيشا إمبراطوريا قدم من ألمانيا وألحق الهزيمة بالجيش والملك الفرنسي الذي اضطر إلى الاستسلام ، وحمل أسيرا إلى مدريد سنة ١٥٢٦ ، وأجبر على توقيع

(١) أنظر عبدالله أبو عزة ، ***حوار الإسلام والغرب*** ، ص ٦٠ – ٦١ .

معاهدة مذلة تنازل فيها عن قسم كبيرمن الأراضي الفرنسية لصالح إسبانيا [١] . وكان الجيش الإمبراطوري الذي جاء من ألمانيا مكونا من المرتزقة ، وقد تأخرت رواتبه لفترة طويلة ، ولذلك قرر قادته نهب المدن الإيطالية الغنية ، فبدأوا بمهاجمة فلورنسا ، لكن قواتها الدفاعية تمكنت من صدهم ، فتحولوا لمهاجمة روما ، مركز البابوية وعاصمتها ، إذ وجدوها غنيمة سهلة ، فاجتاحوها سنة ١٥٢٧ وأعملوا فيها السلب والنهب والحرق والقتل ، واغتصاب النساء ، حتى لقد اغتصبوا الراهبات .

ووقع البابا كلمنت السابع في أيديهم فأخذوه أسيرا ؛ وقد ظل أسـيرا في سجن الإمبراطور ستة أشهر ، وفي فترة السجن هذه جرت مفاوضات الصلح بين الجانبين ، الأمر الذي يوحي بأن اجتياح روما كان بتشـجـيع من الامبراطور [٢] .

المثال الثالث : ويتعلق بالصراع بين البابوية والملوك الوطنيين : في سنة ١٢٩٦م أصدر البابا بونيفاس الثامن إعلانا يهدد بالحرمان كل حاكم مدني يجمع الضرائب من رجال الدين ، كما هدد الإعلان نفسه كل واحد من رجال الدين يدفع ضريبة من غير موافقة البابا ، هذا مع الأخذ بعين الاعتبار أن أعدادا كبيرة من رجال الدين والكنيسة كانوا يمتلكون أراض واسعة ونسبة كبيرة من الممتلكات في كل بلد أوروبي . وردا على مرسوم البابا أصدر الملك إدوارد في إنكلترا مرسوما يقضي بأنه إذا رفض رجال الدين دفع الضرائب فسترفع عنهم كل حماية قانونية وستصادر كل ممتلكاتهم . أما فليب ملك فرنسا فقد منع خروج الذهب والفضة والمجوهرات من فرنسا ، وبذلك حرم الخزينة البابوية من مصدر رئيسي للدخل مما كانت تجمعه الكنائس في فرنسا ، وقس على ذلك بقية الدول . وكان الملوك ، يظاهرهم عدد من الأساقفة كبار رجال الدين الوطنيين ، يعتبرون هذه السياسة دفاعا عن مصالح بلدهم وسلامة اقتصاده ضد تغول البابوية وجشعها إلى المال . وكانت هذه المشكلة أحد الأسباب التي أججت المشاعر القومية وساعدت على تقويتها في وجه محاولات السيطرة الخارجية ، سواء من جانب البابوات أو من جانب أباطرة الإمبراطورية

---

٧٩١ الإمبراطور كان هو نفسه ملك إسبانيا (شارل الأول) ، حيث جمع المنصبين ، بعد أن فاز بالمنصب الامبراطوري ، وكان ينافسه عليه ملك فرنسا (فرانسس الأول) . .

٧٩٢ عبدالله أبو عزة ، ***حوار الإسلام والغرب*** ، ص ١٠١ – ١٠٣ .

الرومانية المقدسة . وفي سياق هذه التحديات أمر الملك الفرنسي بالقبض على البابا بونيفاس ، البالغ من العمر ستة وثمانين عاما بتهمة الهرطقة وبيع الوظائف الدينية وغير ذلك ، من التهم الحقيقية أو الملفقة ، وقبض الجند عليه ، ووجهت له صنوف الإهانات ، فمات خلال أسابيع .

الكنيسة تحارب الاكتشافات العلمية والعلماء:

المثال الرابع : إقدام الكنيسة على إحراق منتقدي انحرافات بعض البابوات ، وحرق العلماء : وكان ممن أحرق حيا في هذا السياق جان هس ، رئيس جامعة براغ ، لانتقاده ممارسات البابوية وفسادها ، ومايكل سيرفت الذي ألف كتابا نفى فيه عقيدة التثليث ؛ ونجا مارتن لوثر – مؤسس البروتستنتية –- من الحرق بهربه واختفائه محتميا بأمير سكسونيا .

أما مشاهير العلماء الذين تعرضوا للإضطهاد والملاحقة والحرق من قبل محكمة التفتيش فكان منهم كوبرنيكس البولندي (١٤٧٣-١٥٤٣) الذي اكتشف خطأ وبطلان نظرية بطليموس عن الكون والتي كانت تقوم على فكرة أن الأرض مركز الكون ، وأنها ثابتة ، بينما الشمس والنجوم تدور حولها . وقد توصل كوبرنيكوس إلى أن الأرض وبقية الكواكب هي التي تدور حول الشمس . . . وكان ممن آمن بما اكتشفه كوبرنيكوس وتحمس في إعلانه والدفاع عنه برونو جيوردانو ، فأصدرت محكمة التفتيش قرارا بإحراقه حيا [(١)] ، وقد نفذ الحكم سنة ١٦٦٠م .

ولم تكن الكنيسة الأنغليكانية البرتستنتية في إنجلترا أقل تعصبا وتشددا من البابوية في ملاحقة المخالفين ؛ بما لا يتسع المجال إلى الحديث عنه في هذه العجالة[(٢)] ؛ ويكفي أن نشير إلى أسماء ثلاثة من العلماء والمشاهير الذين تعرضوا للإضطهاد أو أحسوا بوطأته وحاولوا تجنبه ، ونترك للقارئ أن يتابع سيرتهم في الموسوعة البريطانية أو غيرها : جون بدل John Biddle الذي استدعي للمثول أمام البرلمان عدة مرات ، كما سجن عدة مرات ، ولم ينقذه من الموت إلا تدخل أولفر

(1) Dorothy Mills, ***Renaissance and Reformationt Times***, pp. 180-182.

(٢) أنظر كتابي : ***حوار الإسلام والغرب*** ، ص ١٤٤-١٥١ .

كرومويل Oliver Cromwell ، الحاكم الفعلي وقائد الثورة البرلمانية آنذاك ، لصالحه ؛ أما الشخص الثاني فهو سير إسحاق نيوتن ، عالم الرياضيات والفلك ، ومكتشف قانون الجاذبية ورئيس الجمعية العلمية الملكية ، وقد كان من الموحدين ، وألف كتابا دافع فيه عن عقيدة التوحيد ثم تراجع عن نشره ليتجنب الإعدام حرقا [١] ؛ ثم جوزف بريستلي ، وكان كيميائيا ، وينسب إليه اكتشاف الأكسجين[٢] ، وكان رجل دين يؤمن بوحدانية الله وداعية للوحدانية . وقد اضطر إلى الهجرة إلى الولايات المتحدة نتيجة للإضطهاد .

المثال الخامس : الحروب الدينية : انفجرت الحروب الدينية بعد انطلاق حركة الإصلاح البروتستنتية ، وكان أولها ثورة الفلاحين في ألمانيا (١٥٢٤ - ١٥٢٦م) ، التي خلفت أعدادا كبيرة من الضحايا ، بجانب الدمار الهائل . وكان من فصول هذه الحروب ما شهدته فرنسا من مذابح تعرض لها الهيغونوت (البروتستنت) خاصة فيما عرف باسم «يوم القديس بارثلوميو» ؛ ثم حرب الثلاثين سنة التي شاركت فيها جميع القوى الأوروبية تقريبا ، وكانت مملكة السويد أبرز القوى الفاعلة فيها ، متزعمة الجبهة البروتستنتية . وقد عقدت عند نهايتها اتفاقية سلام وستفاليا ١٦٤٨م) التي فرضت العلمانية السياسية .

وهذا الذي ذكرناه مجرد أمثلة قليلة . ولا مراء في أن هذا الموقف من جانب الكنيسة ومحكمة التفتيش التابعة لها ، ثم من الكنيسة الأنغلكانية في بريطانيا هو الذي أسس للعداء بين تيار العلم الحديث من ناحية وتيار الدين ورجاله والتوجهات الدينية من ناحية أخرى[٣] . وعندما ندرس تاريخ التطور العلمي وظهور العلوم الحديثة في أوروبا منذ عصر النهضة وما بعده فإننا نلاحظ حالة المجابهة بين المدافعين عن

(1) Newton, Sir Isaac, Encyclopedia Britanica Ultimate Reference Suite, Chicago, Encyclopedia Britanica 2011.

(٢) ربما كان هناك مكتشف آخر للأكسجين ، وأن كلا منهما سار في الطريق إلى الاكتشاف ووصل إليه منفردا .

(٣) أنظر .Dr. Laurence B. Brown, MD, ***MisGoded***, 2010, pp. 54-136 ويمكن الحصول على الكتاب من : www.amazon.com

المسلمات الدينية المسيحية التي ظلت سائدة في فكر المجتمعات الغربية بين القرن الرابع والقرن السادس عشر للميلاد ، والمدافعين عن التوجهات والنظريات الحديثة التي **لم تكن كلها** حقائق علمية ملموسة وثابتة ، **بل كان بعضها** مجرد ظنون ظرفية متعجلة ، أفرزتها وولدتها أجواء المجابهة وتجييش الأنصار بين المؤيدين والمعارضين ، وكانت تستهدف نسف وتدمير القلعة الدينية التي ارتبطت وتلوث اسمها وسمعتها بكل الانحرافات التي أشرنا إليها ، وغيرها الكثير مما لا يتسع المجال لسرده هنا . وربما يستكبر ويستكثر مني هذا القول ويتشكك فيه بعض قراء كتابي هذا ، ولذا فإنني أجد نفسي مضطرا لاستعراض مثل واضح وصارخ وقوي من قمة هذه النظريات الحديثة المشار إليها ومن أشهرها ، نظرية تشارلز دارون التي يلخصها عنوان كتابه الأشهر والأول :

On the Origen of Species By Means of Natural Selection or The Preservation of Favoured Races in the Struggle for Life

وترجمة العنوان : (أصل الأنواع من خلال الانتخاب الطبيعي أو حفظ الأجناس المفضلة في مسار الصراع من أجل الحياة .)

وقد صدرت طبعته الأولى سنة ١٨٥٩ ، وطبع بعد ذلك طبعات كثيرة ، وهومتوفر بكثرة .

وخلاصة النظرية أن ظهور الإنسان *Homo Sapien* (أي الإنسان العاقل) كان ثمرة عملية تطور طويلة المدى أفرزت الإنسان من سلالات بعض فصائل الحيوانات الدنيا خاصة القرود ، الـapes . والمثل الذي أردت ذكره هنا يتلخص في أن بعض المتحمسين للنظرية والمتعجلين في محاولة إثباتها قاموا بعملية تزوير شنيعة عرضوها في إطار خداعي في الثامن عشر من ديسمبر سنة ١٩١٢م . وقد ظهرت المحاولة في إخراج براق في تظاهرة علمية الشكل ، في اجتماع لـ «الجمعية الجيولوجية في لندن» حيث قدم تشارلز داوسون Charles Dawson ورقة تصف اكتشاف جمجمة إنسان من فجر التطور البشري منذ مليون سنة يبدو الفك السفلي المرتبط بها وكأنه فك قرد من فصيلة الـ apes . وانتشر خبر الاكتشاف المزعوم حول العالم ، حيث حملته عناوين الصحف الباحثة عن الإثارة ؛ وطبيعي أن ينتفش به العلمانيون وتنتفش دعايتهم ، واستمر الوضع على ذلك أربعين سنة انخدع فيها علماء متخصصون وذووا مكانة محترمة ، على الرغم من أن بعض الخبراء كانوا متشككين في صحة ما قيل عن

الاكتشاف (١) . وفي أواخر أربعينات القرن العشرين تطورت تقنيات قياس واكتشاف أعمار المخلفات والمواد البيولوجية القديمة ، فقرر ثلاثة من العلماء المتخصصين التحقيق في الادعاءات التي صاحبت الإعلان عن اكتشاف ال Piltdown Man ، وقد رحب المتحف البريطاني ،ومتحف التاريخ الطبيعي فيه بالفكرة ، وسمحوا للباحثين بإعادة فحص الجمجمة وفك القرد المرتبط بها والأضراس ، وسمح لهم بأخذعينات صغيرة لإخضاعها للفحص الكيميائي والعلمي ، كما قام الباحثون العلماء الثلاثة بتتبع سير حياة الأشخاص المشتبه بأنهم شاركوا في عملية التزوير والخديعة ، وعددهم ستة عشر شخصا ، للتعرف على الدور الذي قام به كل منهم ، وكان كثيرون منهم قد أدركهم الموت ، ومنهم داوسون نفسه ، الذي مات سنة ١٩١٦م ؛ وقد وصف بأنه كان محام ، ومرة أخرى بأنه كان جيولوجيا ؛ ومما قيل عن دوافعه : أنه ربما كان يطمح أن يفتح له اكتشافه المزيف الباب لكي ينتخب ويصبح عضوا في الجمعية العلمية الملكية البريطانية ، التي كانت مطمح كل العلماء البارزين(٢) . فماذا كانت النتيجة؟ لقد أثبتت الفحوص المستقصية : أن عظام الجمجمة قديمة فعلا ، أما عظام الفك فكانت حديثة ، أو بالتعبير الدقيق الذي استخدم ، فإنها كانت «Fresh فرش» ، طازجة ، أي كأنك اشتريها من دكان الجزار في يومك هذا ، أو بالأمس . وقد استخدم المزورون أدوات ، منها منشارا ، ومبردا ، ليوائموا بين حجم الفك والجمجمة ، كما استخدموا ألوان الصباغ وصدأ الحديد ، ليبدو الفك وكأنه قديم من عمر الجمجمة . هذه هي النتيجة الحقيقية التي أثبتتها الفحوص ، أما النتيجة التي أراد المزورون أن يقنعوا بها الناس فهي إثبات نظرية دارون عن الأصل القردي للإنسان على أساس أن ما اكتشفوه هو الحلقة المفقودة التي تجمع بين جمجمة بشرية وفك قرد اجتمعا أثناء مسيرة التطور في شخص واحد (٣) .

ويمكن الحصول على الكتاب التقرير الذي كشف عملية التزوير وفضحها من خلال موقع شركة أمازون على الإنترنت : www.amazon.com ويتراوح ثمنه بين ١٦

(1) See Chris Stringer, his Introduction to ***The Piltdown Forgery***, by J.S. Weiner, Fiftieth anniversary edition, Oxford University Press, 1955 and 2003, reprinted 2009, pp. vii - viii.

(٢) أنظر قائمة الأسماء ، G.S. Weiner, ***The Piltdown Forgery***, pp. xi-xiii.

(3) ***Ibid***., p. vii.

و٢٠ دولارا للنسخة ، تجليد ورقي أو مقوى ، والثمن المذكور ظهر بتاريخ اليوم ٥ حزيران ٢٠١٢ . ومن الواضح أن جامعة أوكسفورد مصممة على جعل نسخ الكتاب متوفرة بشكل مستمر ، كما نوهت الجامعة نفسها بذلك وأكدته في صفحة viمن الكتاب نفسه قفا صفحة العنوان الداخلية ؛ وعنوان الكتاب هو : The Piltdown Forgery ومؤلفه هو Weiner, J.S. وكلمة Piltdown تعني اسم القرية التي يقع فيها المحجر ومكب النفايات القديمة التي ظهرت فيها قطع الجمجمة موضوع التزوير ، وتقع في محافظة Sussex في إنكلترا . وهذا التزويرجرى بعد موت دارون بثلاثين سنة تقريبا ، إذ أنه مات يوم التاسع عشر من نيسان (أبريل) سنة ١٨٩٢م .

والحقيقة أن المعركة لم تتوقف بعد ااكتشاف هذه الفضيحة ؛ وإذا كان ضجيجها قد خفت على المستوياتت العلمية التي تحكمها – إلى حد ما – مقتضيات المسئولية العلمية والمنهجية ، فإن ساحات الشبكة العنكبوتية ، أي الإنترنت ، ما زالت صاخبة بالجدال ؛ ويخبرنا Professor Chris Stringer ، وهو أهم وأكبر الخبراءعلى مستوى العالم ، أن هناك ثمانية مواقع على الإنترنت ما زالت حافلة بالجدال حول الموضوع(١) .

كلنا نريد الديمقراطية، وكل بلادنا العربية والإسلامية تتشوق إليها:

وهذه الأمثلة التي اكتفينا بالإقتصار عليها اضطرارا ، ويوجد من أشباهها الكثير(٢) ؛ تبين أهم الأسباب والتطورات التي دفعت الأوروبيين لتبني العلمانية ومعاداة الدين واستبعاده ومناوأته ؛ وقد قلد العلمانيون في بلادنا العربية والإسلامية مواقف الأوروبيين دون تبصر ؛ إذ ليس في تاريخنا ، نحن المسلمين ، أو في أوضاعنا الحالية مثل الأسباب الأوروبية ، لا بابوية ، ولا إمبراطورية ولا اضطهاد أو حرق للعلماء ، ولا رفض للاكتشافات العلمية ، ولا توجد في مجتمعاتنا طبقة متميزة ومتحكمة من رجال الدين ، كما كانت الحال في أوروبا . وعلى الرغم من ذلك فإن جميع القوى والتيارات العلمانية التي شاركت في حكم الاستبداد في بلادنا ، وناصرته ، وجميع الحكام المستبدين ، المدنيين والعسكريين ، لا يكتفون بمعارضة

(1) ***The Piltdown Forgery***, p.200.

(2) ***Ibid.***, pp. 257 - 278.

مشاركة الإسلاميين في العملية السياسية ، بزعم أنهم خطر على الديمقراطية ، بل يطالبون بإسكاتهم ومنعهم من رفع شعاراتهم كما يفعل غيرهم ، وكأن الديمقراطية في دولنا كانت وظلت مستقرة ،ولا يهددها سوى ظهور الإسلاميين على المسرح السياسي بعد استبعادهم القسري الدموي آمادا طويلة .

وفي الخطاب السياسي الصاخب للعلمانيين ومختلف الفصائل التي تندرج تحت شعاراتهم نسمع تحزنا على الديمقراطية ؛ وهي كلمة أسيئ استخدامها كما أسيئ فهمها من قبل كثيرين . ولعل من المفيد أن نقدم هنا نبذة مختصرة جدا عن ظهور الديمقراطية Democracy (حكم الشعب لنفسه) وممارستها وتطورها في عالم الغرب :

لقد عرفت الديمقراطية ومورست في حدود معينة في مدينة أثينا اليونانية في القرن الخامس قبل الميلاد إلى أن سقطت أثينا وسقطت معها ديمقراطيتها قبيل نهاية ذلك القرن . فنظرا لأن اليونان بلد جبلي بجغرافيته ؛ ولم تكن طرق الانتقال والسفر والاتصالات الحديثة معروفة أو متيسرة آنذاك أو تخطر على بال احد ، فقد ظهر في اليونان عدد من الدويلات الصغيرة عرفت الواحدة منها تاريخيا باسم «المدينة الدولة City-State» ، فصار كل واد بين جبلين تنحصر فيه قطعة أرض صغيرة أو كبيرة نسبيا يبدو مكانا مناسبا لتقوم فيها دويلة ملتفة حول مدينة تعتبر مركزا لتلك الدولة . وكذلك الحال بالنسبة لبعض المناطق الساحلية التي كانت تحاصرها الجبال ، وأمثال ذلك . وكان من أشهر هذه الدويلات أثينا وسبارطا ، وبين المدينتين تنافس وعداء . ونتيجة لصغر حجم المجتمع بسبب تحكم الجغرافيا ، فقد صار من الممكن عمليا أن يجتمع كل سكان الدولة الذكور الأحرار البالغين في مكان واحد ليبحثوا ويناقشوا قضاياهم ومشاكلهم العامة معا ويتخذوا بشأنها القرارات التي يتفقون عليها . وهكذا كانت أثينا هي التي تبنت ومارست في ذلك الوقت المبكر نمطا من الديمقراطية المباشرة ، كان من معايبه أنه كان ديمقراطية منقوصة تشوبها العنصرية ؛ إذ كانت تستبعد النساء كما تستبعد العبيد ؛ وكان الإغريق في ذلك العصر يعتبرون كل من عداهم من الأجناس والجماعات البشرية عبيدا[(١)] . وكان العدد الصغير الذي يضم المواطنين الذكور الأحرار يتيح ويسمح بممارسة هذه الديمقراطية ؛ وذلك هو معنى حكم الشعب بشكل مباشر .

---

(١) خاصة أولئك الذين كانوا يعيشون بينهم من غير جنسهم .

ونتيجة للتنافس نشبت الحرب بين أثينا وسبارطا [١] ، من سنة **٤٣١** قبل الميلاد إلى سـنة **٤٠٤** قبل الميلاد ، وتخللتها هـدنة ، وهي الحـرب التي عرفت في التاريخ باسـم الحرب البلوبونيـزية [٢] ، والاسم مشتق من اسم شبه جزيرة Peloponnisos اليونانية ، التي جرت فيـها المعارك الرئيسيـة . وقد أصيبت أثينا خلال تلك الفـترة بكارثة عندما ضـربها وباء مرضي شامل قضى على عـدد كـبـير من الجند والقـادة العسكريين ، وحلت بها الهزيمة وخرجت سبارطا منتصرة . ثم قامت الملكية في شمال اليونان ، أي مكدونيا ، وقد غـزا الملك فيليب الثـاني (وهو والد الإسكندر) غزا دويلة أثينا التي استسلمت بعد مقاومة ضعيفة . وعندما خلف ألكساندر والده في الحكم ثم نجح في فتوحه الخارجية وأنشأ إمبراطورية اعتبر نفسه شخصا مقدسا ، وفرض على الإغـريق أن يركـعـوا أمامـه عندمـا يقـابلونه . ومـات الإسكندر سنة **٣٢٣** قـبل الميلاد ، ثم ظهرت الإمبراطورية الرومانية وورثت ماتبقى من إمبراطورية الإسكندر ، وصـار الناس ملزمين بالركوع أمام الإمـبـراطور الرومـاني ، أو حتى أمـام تماثيله . وبعـد انقسام الإمـبـراطورية وتمزقـها وظهـور الملوك في مختلف الأقطار الأوروبيـة سـادت في العـصـور الوسطى (القـرن التـاسع إلى الـقـرن الخـامس عـشـر الميـلاديين) نظرية (الحق الإلهي المقدس للملوك Monarchical Divine Right) وهي تعني باختصار أن منصب الملك وسلطته عطية من الله مباشرة ولا يجوز لأية جهة أرضيـة أو بشرية الاعتراض عليـهـا أو الانتـقـاص منهـا . وقـد ظلت نظرية الحق الإلهي للملوك تتـرد وتوظف حـتى أوائل الـقـرن الـثـامن عـشـر الميـلادي ؛ فـفـي فـرنسـا كـان الملك لويس الرابع عـشـر (١٦٤٣-١٧١٥) من المتـمسكين بها ، يوظفـهـا متى شـاء . أما في إنكلترا فـقـد كـان الملك جيـمس الأول (١٦٠٣-١٦٢٥) من أشـد المتـحـمـسين لهـا . وعلى الصـعـيـد الفكري والثقافي كان رجل الدين الفرنسي الأسـقف جاك بنين بوسو (ت ١٧٤٤م) Jacque Benigne Bossuet واحدا من أبرز المنظرين لها والمدافعين عنها . وفي إنكلترا في منتصف القـرن السـابع عشر كان السـير روبرت فلمر Robert Filmer من الساعين لتثبيت النظرية والدعاية لها . هذا فضـلا عن الفيلسوف الإنجليزي توماس

---

(١) وفي اليونان الحديثة هي Sparti

(2) The Peloponnesian War

هوبز Thomas Hobbes . وخلاصة هذا الاستطراد أن النظرية التي قلنا إنها شاعت واستقرت في العصورالوسطى قد تجاوزت تلك العصور حتى بلغت العصر الحديث .

لكن حصيلة الثورات والتقلبات السياسية والتاريخية التي شهدتها أوروبا ، كالثورة الفرنسية ، والحروب النابوليونية ، وما سبق ذلك ، وما صاحبه وواكبه من انتشار التعليم وتغير منطلقاته وأهدافه ، منذ بدء حركة النهضة أواخر القرن الخامس عشر ، وحركة الإصلاح الديني أوائل القرن السادس عشر الميلادي ، مع تراكم التجارب المتنوعة ، وظهور المدن التجارية الغنية ، والطبقة الوسطى ، ثم الثورة العلمية في القرن السابع عشر ، والثورة الصناعية في القرن التاسع عشر ، كل ذلك وجه المجتمعات الأوروبية بالتدريج إلى تبني الديمقراطية ، هذا مع الأخذ بعين الاعتبار أن الطريق والمسيرة لم تكن سلمية وبغير مشاكل ، بل مرت عبر بحار من الدماء ، بالثورة الفرنسية ، والحروب النابوليونية ، وبالنازية والفاشستية ، ودكتاتورية الطغاة من زعماء الأنظمة الماركسية الذين حكموا باسم البروليتاريا والديمقراطيات الشعبية ، ومع حربين عالميتين ذهب ضحيتهما ما يقرب من ستين مليونا من البشر ؛ هذا مع عدم نسيان ممارسة الاستعمار بكل سيئاته ومصائبه خارج النطاق الجغرافي الأوروبي حتى النصف الثاني من القرن العشرين . وفي تاريخ الحركة الاستعمارية الغربية نجد أن المهاجرين إلى أميركا الشمالية ، في المستعمرات البريطانية اضطروا إلى الثورة ضد البلد الأم ، بريطانيا لأنها تعاملت معهم كما لو كانوا غير أوروبيين وغير بريطانيين . وغني عن القول أن حضارة عالم الغرب قد دخلت مرحلة جديدة بعد تحررها من سيطرة **البابوات** والأباطرة ، ثم من سيطرة الملكية المستبدة ، وفي المرحلة التالية ابتدعت تجديدات وإنجازات مذهلة في حقول العلم والتكنولوجيا وتسخير العلم لخدمة الإنسان ، فضلا عما أنجزته في حقول الدراسات الإنسانية ومختلف فروع التنظيم والإدارة . هذه إنجازات هائلة لا يقلل من شأنها إلا جاهل . وقد اصبح العالم كله ، بما في ذلك شعوب آسيا وأفريقيا ، وبما فيهم شعوب العالم الإسلامي ، تنظر إلى هذه الإنجازات الغربية بدهشة وإعجاب ، وتتمنى وتحلم في أن تحصل عليها أو على قسط منها . وقد خطت في هذا الاتجاه بعض الشعوب ، وحققت فيها نجاحات كبيرة ، ودخلت في منافسة ناجحة مع عالم الغرب ونجح بعضها في المنافسة وتفوق ؛ والمثال الياباني معروف للعالم الآن ، وهناك آخرون على الطريق . لكن الحضارة الغربية قد فشلت فشلا ذريعا على الصعيد الأخلاقي . «الأخلاق الإنسانية» وليس الأخلاق

من وجهة النظر الإسلامية[١] . ولم ينحصر هذا الفشل في تعامل الغرب مع الدول الأخرى وفي العلاقات الدولية ، بل إنه ظهر أيضا في التعامل الداخلي ، ضمن الدولة الواحدة في عدد من دول عالم الغرب . ولسنا نستطيع أن ندخل في التفاصيل ، فذلك ما لا يتسع له المجال في هذا البحث المحدود بموضوعه وميدانه وزمانه . وأمامنا مثال تركيا التي فرضت عليها العلمانية بكل شدة وقسوة ، وغير لباس الناس قسرا ، كما غيرت اللغة والتاريخ ، وديست المبادئ القانونية ، حتى الغربية منها والعلمانية ، لتخرج الناس من ثقافتهم وعقيدتهم بالقوة والعنف ، لكن ذلك لم يتحقق ، على الرغم من تكرار الانقلابات العسكرية أربع مرات . وأخيرا نجد أن الشعب التركي قد نجح – خلال العقد الأول من الألفية الثالثة – في إزاحة كابوس الانقلابات وتسلط العسكريين والعلمانيين ، كل ذلك من خلال العمل السياسي السلمي في إطار الدستور والقوانين التي صممها العلمانيون الأتاتوركيون لإبقاءالشعب التركي سجين مخططاتهم . وبين يدي ، وأنا اكتب هذه السطور على شاشة الحاسوب خبر نشرته جريدة تودايززمان التركية في طبعتها الإلكترونية بالانكليزية (٢ آذار ٢٠١٢م) يفيد بأن المجلس الأعلى للتعليم في تركيا قرر إلغاء المكتب الذي كان قد أنشئ بعد الانقلاب العسكري الذي تم في شهر شباط سنة ١٩٩٩ بغرض فرض رقابة صارمة على أساتذة الجامعات وطلبتها تتعلق بلباسهم وزيهم وأي مظهر يعبر عن ميول دينية ، تحت التهديد بالفصل من الجامعة . وهناك الآن مئتان من الجنرالات السابقين معتقلون رهن المحاكمات ، أمام القضاء التركي المدني [٢] .

هل عرف تاريخنا الديمقراطية؟:

الحقيقة الإسلامية التي لا يجادل فيها إلا جاهل أو متعصب هي أن العرب والمسلمين عرفوا جوهر الديمقراطية ومارسوها من غير فلسفة أو تفلسف ، ولأول مرة ،

(١) ومع ذلك فإن الأخلاق الإنسانية هي ، في معظمها ، نفس الأخلاق الإسلامية .

(٢) جريدة تو دايز زمان YOK remove to eraze traces of February 28,1999, ***Today's Zaman***
ولمتابعة التطورات الجديدة أنظر عدد ٣ آذار ٢٠١٢ وعدد ٢٧ نيسان ٢٠١٢ من نفس الجريدة . وانظر أيضا عدد ٢٤ ، ٢٠١٢ . ***Today's zaman***, 2.3.2012

بدءا من سنة ٦٣٢م ، في اليوم الثاني من شهر ربيع الأول ، سنة إحدى عشرة للهجرة ، بعد وفاة رسول الله ﷺ مباشرة ، وسنستعرض بعد قليل مشاهد من هذه الممارسة المبكرة . غير أن العرب لم يستخدموا كلمة «الديمقراطية « لأنها ليست من لغتهم ولم تكن الكلمة معروفة أو متداولة لديهم ؛ فهي كلمة إغريقية (يونانية) الأصل .

الديمقراطية الإسلامية في حال الحركة والممارسة:

وعندما نسمح لأنفسنا باستخدام هذا المصطلح «الديمقراطية الإسلامية» فإننا إنما نفعل ذلك من قبيل التحدث باللغة التي يفهما المخاطبون ، اهتداءا بقول الله سبحانه وتعالى : ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم . . .﴾ ، وقول الرسول صلوات الله عليه ، في صيغة استنكارية : «خاطبوا الناس بما يعرفون ، أتريدون أن يكذب الله!» ثم إننا نقصد بالاستعمال معناها الأصلي «**حكم الشعب نفسه بنفسه**» ، وسنستعرض بعضا من مشاهدها .

المبادئ والمنطلقات القرآنية:

تستند الديمقراطية الإسلامية إلى نصوص قرآنية مباشرة ، وإلى مواقف وممارسات نبوية : في سورة الشورى يصف الله سبحانه المؤمنين بأنهم : ﴿ . . . **وأمرهم شورى بينهم** . . .﴾ [(١)] ؛ وفي سورة أخرى يأمر الله نبيه ، صلوات الله عليه بالتشاور مع أصحابه [(٢)] . وفي سيرة رسول الله نمر بمشهد يختلف فيه صحابي مع الرسول بشأن خطة حربية في معركة بدر ، ويقترح عليه تغيير مكان تمركز القوة الإسلامية قبل بداية الاشتباك مع العدو . وقد قبل النبي رأي الصحابي ونفذه ، وتحقق النصر في بدر . وقبل خروج المسلمين لمعركة أحد لمواجهة قوة قريش التي جاءت لمهاجمة مدينة رسول الله ﷺ ، جرى تداول للرأي ، ونقاش قوي ، ونزل الرسول على رأي أغلبية

---

(١) *القرآن الكريم* ، سورة الشورى ، آية رقم ٣٨ .

(٢) *القرآن الكريم* ، سورة آل عمران ، آية رقم ١٥٩ .

أصحابه ، حتى أن بعضهم ندم وقال : «لقد استكرهنا رسول الله ﷺ[1]» .

والممارسة الإسلامية الديمقراطية التي سنستدعي بعض مشاهد منها ، ثم نقوم بتحليلها والتعليق عليها تبدأ من اليوم الأول بعد وفاة رسول الله ﷺ ؛ أي أنها طبقت من بداية العصر الإسلامي . محمد بن عبدالله لم يكن قائدا سياسيا اختاره المجتمع ، ولم يكن مستبدا فرض على المجتمع أن يقوده رغم إرادته . لقد كان نبيا ورسولا اختاره الله وأرسله ليبين للناس حقائق الإيمان ومبادئ وطرق الخير والسداد التي أرادها سبحانه لعباده ، وعندما وافاه الأجل بعد أن أدى الرسالة صار من اللازم والضروري أن يختار المجتمع من يخلفه في وظيفة القيادة السياسة فحسب ، أي أن هذا الخليفة لم يكن نبيا ولا رسولا ، لأن الرسالة بلغت وغدت محفوظة في القرآن الكريم وفي أحاديث وممارسات رسول الله ﷺ . وحيث أن المجتمع الصغير والجديد نسبيا – أعني مجتمع المسلمين في المدينة – لم تكن له أية خبرات سابقة – عدا المبادئ والمنطلقات التي جاء بها القرآن وتضمنتها السنة -- فقد كانت ردود فعله وتصرفاته تلقائية ، وغير متناسقة .

المشهد الأول من الممارسة الفعلية:

كما رواه البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، مشفوعا بسندالرواية . قال عمر رضي الله عنه بشأن انتخاب الخليفة الأول :

«الأنصار خالفونا واجتمعوا بأسرهم في سقيفة بني ساعدة ، وخالفنا علي والزبير ومن معهما ، واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر ؛ فقلت لأبي بكر : انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار . . . فانطلقنا حتى أتيناهم في سقيفة بني ساعدة ، فإذا رجل مزمل بين ظهرانيهم . . . [وهو] سعد بن عبادة . . .» وبعد أن تكلم أحد الأنصار يذكرأحقيتهم بالخلافة ، ورد أبو بكر رضي الله عنه بكلام رقيق ، لم يلبث الجدال أن اشتد حتى قال أحد الأنصار : أنا جذيلها المحكك ، وعذيقها المرجب ، [يصف قوته في الحرب] ، منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش ؛ فكثر اللغط وارتفعت الأصوات ، حتى فرقت من الاختلاف ؛ فقلت : أبسط يدك يا أبا بكر . . . فبايعته ، وبايعه المهاجرون ثم بايعه الأنصار ، ونزونا على سعد بن عبادة ؛ فقال قائل منهم : قتلتم

---

(١) محمد بن إسحاق ، *السيرة النبوية* ، جزء ١ ، ص ٣٣٢ .

ســعد بن عــبادة [١] ، فقلت : قتل الله سعد بن عبادة [٢] . . .»

[وسعد بن عبادة كان من كان من كبار صحابة رسول الله كما كان زعيم قبيلة الخزرج .] وبعد ذلك بايع عامة المسلمين ، المهاجرون والأنصار ، أبا بكر وانتهت الازمة ليباشر الخليفة الأول مهام وظيفته . وقد تخلف عن البيعة عدد قليل كان منهم سعد بن عبادة ، زعيم الخزرج ، كما تأخر عن البيعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وتخلف بنو هاشم والزبير بن العوام ، واستمر بعضهم على ذلك ستة أشهر حتى بايعوه . [٣]

شرح وتعليق، ومزيد من الضوء على المشهد الأول:

عندما نقرأ السطورالقليلة التي تضمنتها الرواية عن عمر بن الخطاب قد لا تظهر لنا بوضوح أهمية الموقف ، وأهمية الخطوات التي تمت ، وأهمية قبولها ووضعها موضع التنفيذ ، وذلك لأننا لم نر شيئا مما نعرفه عن عملية الانتخابات في عصرنا ؛ لا كشوف سجل الناخبين ، ولا بطاقات الانتخاب ولا الصناديق الشفافة التي تودع فيها البطاقات بعد ملئها بالمعلومات المطلوبة ، ولا ممثلي المرشحين المتنافسين ، ولا الإعلانات والدعاية الانتخابية ؛ غير أن الأجزاء التي تضمنها المشهد هي العناصر الأساسية في العملية الانتخابية ، بينما الذي افتقدناه إنما هو الأشياء التكميلية المساعدة . وهذه لم تكن معروفة ولامستخدمة في ذلك العصر في أي بلد في العالم . وغياب تلك العناصر التكميلية المساعدة لم يعطل عملية الانتخاب ، ولم يفسدها أو يؤثر على نتيجتها . لقد كانت هناك حالة وموقف جمع المهاجرين والأنصار ، وهم الهيئة الإنتخابية ؛ وهم جملة المسلمين وكيانهم الرئيسي . وكان هناك عدد من المرشحين تطلع كل منهم إلى المنصب واعتبر نفسه الأصلح له أو الأحق به . وبدلا من أن توضع البطاقات في صندوق شفاف عبر المصوتون عن اختيارهم بمصافحة المرشح الذي اختاروه بالأيدي ، عيانا وعلى مرأى من الجميع . كما نجد أن بعض

---

(١) واستعمال كلمة قتلتم هنا استعمال مجازي ، والمعنى الأصلي المقصود أنهم أحبطوا مسعاه الرامي إلى الفوز بالخلافة انطلاقا من كونه زعيم قبيلة الخزرج .

(٢) محمد بن إسماعيل البخاري ، ***الجامع الصحيح كتاب الحدود*** ، ، ص ٥٦٩ ، حديث رقم/ (٣٨٣٠) ؛ وانظر ***تاريخ الطبري*** ، أحداث سنة ١١ للهجرة .

(٣) إبن الأثير ، ***الكامل في التاريخ*** ، مجلد ٢ ، ص ٣٢٥-٣٣١ .

المرشحين المتطلعين إلى المنصب امتنعوا عن المصافحة ، أو تجنبوا الحضور عندما رأوا أن الأغلبية متجهة لتأييد أبي بكر ؛ أي رفضوا الاعتراف بالمرشح «الفائز» ، وظل بعضهم مستنكفين ستة أشهر . وربما لم تستغرق العملية كلها أكثر من ساعتين . فما الذي غاب من عناصر عمليات الانتخاب في أيامنا غير بعض الأدوات المساعدة والشكليات؟ لا شئ . إذن عندما استعرضنا المشهد الانتخابي الذي جرى في المدينة المنورة سنة ٦٣٢م ، وجدنا أنفسنا أمام عملية انتخاب حرة وشفافة بكل عناصرها . أما غياب بعض العناصر التكميلية الحديثة ، مع الفارق الزمني الهائل الذي يقرب من ألف وأربعمئة سنة ، فإنه لا يقلل من عظمة هذا المشهد الإنتخايي الديمقراطي الحر بكل معايير عالمنا الحديث والمعاصر .

المشهد الثاني:

وتولى أبوبكر رضي الله عنه الخلافة ؛ وفي المسجد صعد المنبر وألقى خطاب افتتاح ولايته فقال :

«أيها الناس ، وليت أمركم ولست بخيركم ، ولكن نزل القرآن وسن النبي صلى الله عليه وسلم السنن ، فعلمنا [بتشديد اللام] فعلمنا [كسر اللام وتسكين الميم] . . . إعلموا أن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ له بحقه ، وأن أضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه . . . أيها الناس ، إنما أنا متبع ولست بمبتدع ، فإن أحسنت فأعينوني وإن زغت فقوموني(١) .»

ومعنى هذا الكلام المختصر والدقيق ، بلغة سياسية حديثة أن أول رئيس منتخب للدولة الإسلامية قال عند افتتاح ولايته يوم وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه ولي المنصب وهو واحد من المسلمين ، ولا يرى نفسه أفضلهم . وأن القرآن نزل بالهداية ، وهو يمثل الدستور ، وقد سن الرسول القوانين ، وأنه – أي الخليفة – سيتقيد بما جاء فيهما ، ولن يبتدع شيئا من عنده ، أي من خارج الدستور والقوانين ، فإن أحسن فإنه يدعوهم لمعاونته ، أما إذا انحرف عن الطريق السوي فإنه يدعوهم لتصحيح انحرافه ، إن حدث .

---

(١) محمد بن سعد ، ***الطبقات الكبرى*** (بيروت ، دار صادر ودار بيروت – ١٩٥٧) ، مجبلد ٣ ـ ص ١٨٢ ؛ وقد توفي محمد بن سعد ٢٣٠هـ .=٨٤٤ م .

وهذه المشاهد التي استعرضناها للديمقراطية الإسلامية في حال الحركة والممارسة تبين وتثبت بما لا يدع مجالا لأي شك **أصالة الديمقراطية في عقيدتنا ومبادئنا ، ليس باسمها الأجنبي ، ولكن بحقيقتها وجوهرها ، باعتبارها «حكم الشعب نفسه بنفسه» ، بما في ذلك مواجهة الحاكم أذا انحرف وتصحيح مساره أو عزله واستبداله ، وعدم الرضوخ للدكتاتورية والطغيان بأية صورة من الصور** . وهذا مايدعونا اليوم إلى تأصيلها في خطابنا السياسي الحديث ، مع توضيح المعنى وربطه بالممارسة وجوهرها كلما كان ذلك لازما . وهذا ما يؤكد أن الخيار الإسلامي لا ينطوي على أي تضحية بالديمقراطية من الناحية الموضوعية أو حتى من الناحية الشكلية ، بل هناك تأكيد على التمسك بالديمقراطية – حكم الشعب – بجوهرها وبأزهى صورها ، مع تثبيتها على أسس كل المبادئ القرآنية الحاكمة التي مرت معنا منذ الفصل الأول من هذا الكتاب .

لم تطل فترة خلافة أبي بكر ﵁ أكثر من سنتين ونيف حيث توفاه الله ؛ غير أن هاتين السنتين شهدتا أخطر الأحداث ؛ فقد تمردت معظم القبائل العربية مستهدفة تقويض كل التغييرات التي صاحبت قيام الدولة الإسلامية ونتجت عنه ؛ كما نشبت الحرب مع أكبر قوتين في العالم آنذاك : الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الساسانية ، وأثبت أبو بكر في كل المواقف الحاسمة والصعبة أنه خير قائد في السلم والحرب على السواء ، حتى في حالات ظهور معارضة قوية لبعض خياراته وقراراته وهو في أصعب الظروف وأخطرها ، لم ينكل بإحد من معارضي بعض قراراته ، بل لم يهن أحدا ولم يبعد أحدا ؛ لقد ظهرت قوة تلك الشخصية التي تدفقت منها الثقة والإيمان ، وانتقلت إلى من حوله فأقر بها وتبعها المعترضون . وبعد وفاة أبي بكر تطورت الأ حداث على النحو الذي استعرضناه في الفصول السابقة من من هذا الكتاب ، حتى تمكن بنو أمية من اغتصاب الخلافة والسيطرة على الدولة ، وتثبيت حكم الاغتصاب والاستبداد . لكن المبادئ ظلت محفوظة وحاضرة في القرآن والسنة ، وفي سلوك بعض الصالحين من الحكام والقادة ، وهناك الكثير من الأمثلة .

الدولة الدينية:

أما الحديث عن الدولة الدينية فلا ينبغي أن يثار هنا فهو مصطلح أوروبي مترجم Theocracy ويعني الحكومة التي يتولاها ويسيطر عليها رجال الدين ، الذين

كان يربطهم نظام هرمي رسمي على رأسه البابا . وفي تاريخ المسلمين كله (أكثر من ألف وأربعمئة سنة) لم يتول أحد يمكن أن تنطبق عليه صفة «رجال الدين» رئاسة الدولة أو رئاسة الوزراء . كما أنه لم يكن يوجد أي نظام هرمي خاص برجال الدين . الخلفاء الثلاثة الأوائل (أبو بكر وعمر وعثمان) كانوا يعملون بالتجارة قبل توليهم الخلافة ، حتى أن أبا بكر قام صباح اليوم التالي بعد توليه الخلافة مبكرا ليذهب إلى السوق لممارسة العمل التجاري ليكسب قوت عياله ، لولا أن الصحابة اعترضوه ، وأخبروه أن عمله هو أن يرعى شئون الدولة والأمة الجديدة الناشئة . ولما سأل كيف يستطيع أن يتدبر نفقة بيته وعياله ، حددوا له مرتبا بسيطا من بيت المال . كما أن الخلفاء لم يكن لهم زي خاص ولم يتلقوا أي تعليم خاص برجال الدين . ومن بداية العهد الأموي واستمرارا في العهد العباسي وما بعده كان المؤهل الرئسي المشترط لتولي الحكم أن يكون الشخص من الأسرة الحاكمة . وهكذا كانت الحال حتى نهاية عهد الدولة العثمانية ، وكذلك في الدولة الفاطمية الشيعية في مصر أيضا . ولم تكن في الإسلام والتاريخ الإسلامي كنيسة [1] كما نشأت البابوية ، وتطورت .

أما أن يكون في المجتمع أشخاص وتيارات ثقافية وسياسية متدينة ، تتبنى العقائد والقيم والفضائل الدينية أو تنسب نفسها لدينها من خلال تسميتها لنفسها فهذا أمر طبيعي حتى في عالم الغرب المعاصر . ففي ألمانيا ما بعد الحرب العالمية الثانية ظل الحزب الديمقراطي المسيحي هو الأشهر والأهم ، سواء في عهد رئيسه المستشار كونراد أديناور – مؤسس ألمانيا بعد الحرب – أو المستشار هلموت كول الذي عمل على إعادة توحيد ألمانيا في تسعينات القرن الماضي ، أو المستشارة الحالية (سنة ٢٠١٢) انجيلا ميركل . وفي إيطاليا كان الحزب الديمقراطي المسيحي هو الحزب الأول والأهم حتى سبعينات القرن العشرين ، بزعامة رئيسه الراحل ألدو مورو . وفي الولايات المتحدة الأميركية تظهر استطلاعات الرأي أن أكثر الأميركيين يحبون أن يصفوا أنفسهم بالتدين والإيمان بالله . وأكبر المتحدثين عن الله وعن الإلهام الإلهي في سيرهم السياسي هم من أعضاء وأنصار الحزب الجمهوري GOP (Great Old Party) ، حتى أن جريدة الغارديان البريطانية ذات الشهرة والمكانة العالمية لم تتردد

---

(١) الكنيسة هنا ليست بمعنى المبنى بل هي مجموع رجال الدين المنتظمين في شبكة على رأسها البابا وغير ذلك من التنظيمات الكنسية المماثلة .

في أن تسمي الحزب الجمهوري بأنه «حزب الله» the Party of God ، ولا يشاركه في هذه التسمية سوى «حزب الله» اللبناني الشيعي .

على أنه لا يصح لي أن أنسى الإشارة إلى ما ابتدعه نظام الحكم في إيران بعد وفاة الخميني وما ابتدعه الخميني نفسه قبل وفاته ، بمناسبة الحديث عن الدولة الدينية . الخميني جاء إلى السلطة على أثر قيادته للثورة ضد نظام الشاه محمد رضا بهلوي سنة ١٩٧٩م . الخميني لم يشغل أي منصب رسمي بعد نجاح الثورة . والذي ظهر على المسرح السياسي الإيراني رئيسا للجمهورية هو السيد أبو الحسن بني صدر ، بينما كانت السلطة العليا والحقيقية في يد السيد الخميني نفسه . وبني صدر لم يكن من رجال الدين ، بل كان تعليمه العالي أوروبيا فرنسيا . أما ما ابتدعه الخميني فقد عرف باسم «ولاية الفقيه» ؛ فمن المعروف عن الشيعة الجعفرية أن من أهم مفردات عقيدتهم الإيمان بالإمام الغائب ، المفترض بأنه الإمام الثاني عشر محمد بن الحسن العسكري ، الذي يزعمون – حسب اعتقادهم -- أنه ولد حوالي سنة **٢٥٥** هجرية وغاب حوالي سنة **٢٦٠** هـ ٨٧٤ م ، أي عندما كان عمره خمس سنوات ، وأنه سيعود في آخر الزمان ، قبل يوم القيامة [١] . وهذه المفردة الاعتقادية خاصة بالشيعة الإمامية ، أي الجعفرية ، وهي ليست مما يعتقده أهل السنة وإن كان الشيعة قد نجحوا في تسريبها بشكل مموه إلى بعض مجموعات كتب الحديث السنية قبل عصر الطباعة أيام كانت أي نسخة من أي كتاب لا بد أن تنسخ يدويا (بخط اليد) لكل من يريدها ، أو لكي يدور بها الناسخ ليبيعها ، وقد يعرضها للبلل ، وللشمس والحرارة حتى تبدو وكأنها قديمة ، وذلك مما يعطيها ميزات ليست حقيقية ، ويدفع الباحثين عن الأصول القديمة ليدفعوا فيها مبالغ كبيرة مقابل صدقية وهمية مزورة . وما دام الإمام الثاني عشر قد غاب وطالت غيبته ، وهو القائد الأعلى ، فإن المجتمع الشيعي الجعفري لا يستطيع التحرك دون قيادته ، فقد ذهب الخميني إلى القول بأن أحد كبار الفقهاء لا بد أن يتولى القيادة نائبا للإمام إلى حين عودته من غيبته . وهذه هي خلاصة نظرية ولاية الفقيه الخمينية . وقد قوبلت النظرية باعتراضات من بعض كبار علماء الشيعة ، ومن أبرزهم آية الله شريعتمداري . كما طرح بعضهم ولاية الأمة

(١) أنظر كتابي : ***حوار لإخواننا وأخواتنا الشيعة*** ، ص ٦٦ – ٧٥ ، وانظر : العكبري ، ***مسار الشيعة*** ، ص ٤٩ ، ٥٨ و٦١ .

على نفسها بدل ولاية الفقيه . وهذا الذي ظهر في إيران الخمينية هو المثال الوحيد الذي ظهر في بلد إسلامي ويمكن وصفه بأنه حكم ثيوقراطي ، ولكنه خاص بإيران الخمينية وحدها .

حرية المرأة وحقوقها:

لقد كنت تناولت موضوع حرية المرأة في أكثر من كتاب من كتبي المنشورة ؛ والموضوع واسع ولست أستحسن تكراره هنا ، وإنما سأكتفي بتقديمه في نقاط مختصرة ، مع إحالة القراء إلى كتبي السابقة ، وربما إلى كتب لمؤلفين آخرين .

١- المرأة في الإسلام ليست موضع اتهام مبدئي أو عقيدي ، وهي مبرأة من تهمة إغواء آدم (عليه السلام) . وقد بين القرآن الكريم أن فعل الإغواء جاء من الشيطان ، ووقع على آدم وحواء كليهما : ﴿فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه [١] . . .﴾ .

٢- والمرأة في القرآن بجانب الرجل ، تتحدث عنها النصوص في سياق واحد متصل يظهر المساواة بينهما ، والشواهد في هذا متعددة وكثيرة ، وسنكتفي هنا بقليل منها :

(أ) ﴿**والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله ، إن الله عزيز حكيم .**﴾ [٢]

(ب) ومثل آخر من المساواة ، في حال اتهام رجل لزوجته بالخيانة يحدد القرآن أدوات النفي والإثبات التي يستخدمها الطرفان ، وهي نفسها لكليهما . «والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم ، فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ، والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين [٣] . وعقوبة الخيانة هي نفسها بالنسبة للرجل والمرأة سواء .

---

(١) *القرآن الكريم* ، سورة البقرة ، آية ٣٦ .

(٢) *القرآن* ، سورة التوبة ، آية ٧١ .

(٣) *القرآن* ، سورة النور ، آية رقم٦ -٩ .

(ت) والمرأة لها حق اكتساب وامتلاك المال والثروة ؛ وهي غير مكلفة بالإنفاق على أحد ، إذ المكلف هو الأب والأخ والإبن ؛ وفي حالة المرأة الزوجة يكون الزوج هو المكلف : ﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا (١) .﴾

(ث) ومن الناحية التاريخية والعملية مارست النساء كثيرا من ألأعمال التجارية والعملية وامتلكت كسبها من العمل . ومع ذلك فقد كانت هناك أعمال تقوم بها المرأة ضمن أسرتها تشاركها العمل ، ويكون الناتج للأسرة معا دون تمييز ، إلا أن تميز الأم والأب أولادهما عن نفسيهما (٢) .

(ج) وللمرأة حرية اختيار الزوج ، قبولا أو رفضا ، ولها أن تطلب الطلاق وتستجيب السلطة المختصة لطلبها ، وهي ملزمة بذلك ؛ وقد استجاب رسول الله ﷺ لمثل هذا الطلب ، وعندما كلم النبي المرأة عن زوجها وقال لها : «إنه زوجك ، وأبو أولادك» ، مؤملا أن تتراجع . سألته المرأة طالبة الطلاق : أتأمرني؟ [أن أتراجع عن طلب الطلآق] قال لا ، إنما أنا شافع ، فقالت : لا حاجة لي به . فتم طلاقها (٣) .

(ح) وكانت المرأة في عهد رسول الله تشارك في النشاط العام بما في ذلك تلبية الدعوة لاجتماع عام في المسجد . فقد سمعت أم سلمة (زوجة النبي ﷺ) سمعت النداء من المسجد يدعو لاجتماع عام ، وكانت عندها ماشطة تمشط شعرها (كوافيرة) فطلبت أم سلمة من الماشطة أن تتركها لتلبي النداء ؛ فقالت الماشطة : إنه يدعو الرجال ، فقالت أم سلمة : ألم تسمعي النداء : أيها الناس! وأنا من الناس . وكان المسجد هو مركز الاجتماع العام في المدينة

---

(١) ***القرآن*** ، سورة انساء ، آية ٧ و٣٢ .

(٢) مسلم ابن الحججاج ، ***صحيح مسلم*** ، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل زينب أم المؤمنين ؛ مسلم ، صحيح مسلم ، كتاب النكاح .

(٣) ***المصدر نفسه*** ، كتاب الفضائل ، رقم ١٢٩ ؛ وانظر ***صحيح البخاري*** ، كتاب الحيل ، حديث رقم ١١وكتاب النكاح ، حديث رقم ٤١ .

ولا مركز غيره[1] . ولم تكن المصادر تسجل مشاركة كل امرأة في اجتماع عام يعقد في المسجد ، لكن لدينا خبرا آخر مماثل عن مشاركة الصحابية فاطمة بنت قيس ، بعد أن سمعت النداء لاجتماع عام في المسجد ، مسجد رسول الله ﷺ[2] . ونستطيع أن نقول باطمئنان أن وضع المرأة المسلمة في عقيدة المسلمين يرتكز على مبادئ سامية حفظتها أصول الإسلام من نصوص القرآن وأحاديث رسول الله ﷺ ؛ وأن الانحرافات التي أصابت مكانة المرأة ظهرت ضمن موجات الانحرافات التي أصابت كثيرا من جوانب حياة المجتمعات الإسلامية وأفسدتها ، في ظل أنظمة الحكم الطغيانية الفاسدة ، في الماضي والحاضر . ولا مراء في أن الجهود الإصلاحية ستعمل من أجل إزالة كل الانحرافات ، سواء في حالة المرأة أو في حالات المشاكل الأخرى الناتجة عن الفساد والطغيان .

الحريات العامة في المجتمع:

تقدم لنا نصوص الأصول الإسلامية – ضمن المبادئ القرآنية الحاكمة – تأكيدا واضحا ومقنعا على ضرورة تبني واتباع مبدأ حرية الاختيار ، وسلمية وسائل الإقناع وإنسانيتها ، كما أكد ذلك سلوك وممارسات الحكام الصالحين . وقد مرت معنا أمثلة كثيرة ضمن هذه الدراسة ، كما مرت معنا من ضمن موثقات المبادئ القرآنية الحاكمة النصوص القرآنية التي تؤكد حرية الاختيار واستبعاد الإكراه واستنكاره وعقمه . ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين؟﴾ و﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي . . .﴾ و﴿أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة . . .﴾ و﴿وقولوا للناس حسنا . . .﴾ ، ﴿قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ماأعبد ، لكم دينكم ولي دين .﴾ وغير ذلك مما سبق أن ذكرناه في غير هذا المكان . وحصيلة ذلك كله أن يعيش المجتمع كله كجسد واحد ، في إطار حكمه

---

(١) أنظر كتاب ***فتح الباري في شرح صحيح البخاري*** ، جزء ٤ ص ٢٩– ٣٠ ؛ وانظر عبدالحليم أبوشقة ، تحرير المرأة في عصر الرسالة ، جزء ١ ، ص١٧٥–٦ .

(٢) ***صحيح مسسلم*** ، جزء ٤ ، ص٣٧٣ .

نفسه بنفسه ، وهو الوضع الذي تمثله كلمة الديمقراطية المعربة ، حيث تتنافس الأفكار والبرامج ، ويتداول الحكم بالوسائل السلمية .

بيد أن الحديث عن الديمقراطية يتمادى أحيانا ولا يقف عند حدودها المعقولة والمنطقية ، بل يتجاوزها في إطار مموه من خلال عبارات مخادعة يصل السير معها بأصحابه ، وبالمجتمع المخدوع إلى الانقلاب على الديمقراطية ؛ ويبدو لي أننا بحاجة إلى تقديم بعض الأمثلة :

«الإسلام السياسي»:

وهذا مصطلح يستخدمه العلمانيون وغيرهم من المناوئين للتوجهات الإسلامية بشكل عام . وهناك مصطلحات وتسميات أخرى يستخدمونها لنفس الغرض . والمراد منها أن الإسلام دين ، وليس فيه سياسة ، وأن «**المتأسلمين**» ، وهذا مصطلح آخر ، يحمل معنى : «إدعاء الإسلام ، المدعون للإسلام» ، يدخلون السياسى في الدين بهدف استغلاله وتوظيفه لأغراضهم الدنيوية» .

ومما يؤسف له أن العلمانيين بكل شرائحهم وتناسلاتهم ليسوا أصلاء في صياغة واستخدام هذه المصطلحات ، بل هم مقلدون ، ينقلون عن بعض الكتاب الغربيين الحاقدين والمتحاملين على الإسلام جهلا أو تعصبا . ولو أنهم أصلاء أو رغبوا في التعرف على الأصول الإسلامية بهدف الوصول إلى فهم صحيح إذن لأدركوا يقينا أن الإسلام جاء من يومه الأول معنيا بسياسة وإدارة وضبط حراك المجتمع وتعامله الداخلي والخارجي ضمن عقيدة ومبادئ ومواقف وتوجهات أخلاقية وسلوكية ، لها موازين وضوابط وحساب وجزاء وعقاب ، وهذه المبادئ والعقائد والموجهات مستقرة ومستكنة في نفس الفرد وضميره ، وفي إدراك ووعي السلطة الحاكمة باسم الإسلام ، وضمن واجباتها المعلنة في سياسة وتسيير حراك المجتمع في انسجام وتناسق وسلام ، وتحت رقابة المجتمع ، المكلف - جماعة وفرادى - بالمراقبة والتصحيح ، ضمن فريضة «**الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**» التي تحتاج أن تضبط بقانون ونظام عندما تطبق في أي مجتمع حديث ، ولا تترك في أيدي الجهلة والهمج من الناس .

هكذا كانت الحال عندما ظهر الإسلام في المجتمع المكي البسيط الصغير : عقيدة ومبادئ سلوكية مع موجهاتها وضوابطها ، للفرد والمجتمع ، كما ذكرنا ، دعوة سلمية تحمل أصحابها كل صنوف الإضطهاد ، بما في ذلك التعذيب الجسدي المفرط والحصار

الجماعي والمقاطعة ، والضغط المتواصل طيلة ثلاث عشرة سنة ، وهجرة بالإكراه شاملة ، بعد أن سبقتها هجرتان غير شاملتين إلى الحبشة . ومنذ أن استقر المسلمون في المدينة ٦٢٢م/١هجرية صاغ النبي ﷺ دستور المدينة ليحدد وينظم العلاقة بين فئات ذلك المجتمع الصغير . وبعد بضع سنوات وجه الرسول صلوات الله عليه مكاتبات إلى مختلف الزعامات في المناطق المحيطة ، القريبة والبعيدة ، بما في ذلك شيوخ القبائل ، والملوك في الدول المجاورة ، للوصول إلى علاقات واضحة ومستقرة . ثم جاء عصر الخلفاء الراشدين وانتخاب أول خليفة ؛ وتتابعت الأحداث بعد ذلك . . . ، فإذا لم يكن كل هذا سياسة وممارسة للسياسة بكل مستوياتها ، فما هي السياسة؟ ألسياسة مكون أساسي من مكونات أنشطة المجتمع الإسلامي ، كغيره من المجتمعالت ؛ وهي تغطي المساحة الأكبر من تلك الأنشطة . والسياسة ليست عيبا أو سبة [١] ، إنما هي ضرورة حياتية لإي مجتمع صغير أو كبير . السياسة = الإدارة . الدول تدار في عالمنا المعاصر من قبل سلطة مركبة من عدة مستويات ، رئيس الدولة ورئيس الوزراء والسلطات الثلاث المعروفة نزولا إلى أدنى المستويات مرتبة . ولقد أخطأ الدكتور حسين مؤنس رحمه الله خطأ كبيرا – وقد كان ولا شك مؤرخا كبيرا ومرموقا ومحترما ، وأنا أحترمه – حين زعم أن كلمة «السياسة» تسمية محرفة من كلمة «الياسا « المغولية التي استعملت اسما لمجموعة التشريعات التي صاغها جنكيزخان ، مؤسس إمبراطورية المغول في أواخر القرن السادس الهجري . **ولكن الصحيح أن كلمة السياسة عربية ولها اشتقاق فعلي[٢] ، وقد استخدمت قبل ولادة جنكيزخان بزمن طويل ، وانتقل استعمالها من العربية إلى الفارسية ، وقد ظهرت ضمن إسم كتاب ألفه نظام الملك ، الذي تولى الوزارة للسلطان السلجوقي ألب أرسلان ، ومن بعده لابنه السلطان ملكشاه من سنة ٤٥٥ إلى سنة ٤٨٥هجرية ، وهي سنة وفاته ، وذلك قبل عصر جنكيزخان بمئة سنة تقريبا . وعنوان كتاب نظام الملك المشار إليه هو سياستنامة أي**

---

(١) ولكنها سبة وعيب في تصرفات محترفي السياسة في المجتمعات الحديثة ، حيث يجري تجاهل كل المبادئ الفاضلة من أجل كسب رخيص .

(٢) ***ساس ويسوس*** ، مع اختلاف عن استعمالها في عصرنا حيث تشير إلى التنافس والعراك السياسي الذي يمارس في المجتمعات الحديثة .

كتاب السياسة وكلمة نامه بالفارسية تعني «كتـاب» . وفضلا عن ذلك فإننا نصادف في كتب الفقه الإسلامي القديم نص تعليق على بعض إجراءات وممارسات الحكام : « هذا [الاجراء] يجوز سياسة ولا يجوز شـرعا» ؛ أي أنه يجوزفي ظل ظروف معينة يقدر الحاكم ما يوجبها من المصلحة العامة ، ولا يجوز في حالات أخرى مغايرة .

حرية التعبير وحرية الفن:

حرية الدين والعقيدة وعدم الإكراه في الدين ، وعدم جواز اضطهاد أي إنسان بسبب عقيدته الدينية ، كل ذلك مؤكد في عقيدة المسلمين وفي تاريخهم ، ولم يحدث خروج أو انحراف عن ذلك إلا في الحالات التي كانت تسود فيها الفوضى أو يتعرض فيها المجتمع كله ، المسلم وغيرالمسلم من أفراده وجماعاته ، للظلم في حالات الفوضى والحروب الداخلية والانقلابات ، أوعلى يد حاكم طاغية . أما «**حرية التعبير وحرية الفن**» التي يطرحها بعض العلمانيين والمشتغلين في ميدان الإعلام في أيامنا هذه ، أيام الثورات وإعادة تأسيس البنى السياسية والتشريعية ، فتعني شيئا آخر ، غير ما ذكرنا . والفكرة وطريقة الممارسة المطلوبة منقولة تقليدا عن المجتمعات الأوروبية الغربية ؛ وخلاصتها المضمرة عدم التقيد بمبدأ أن حريتك تنتهي بمجرد أن تصل ، إلى حدود حرية الآخرين ، إذ عندها يجب أن تتوقف ولا تتجاوز الحدود . هنا – من مدخل حرية التعبير – يمكن أن يحدث التجاوز بطريقة مموهة وناعمة : بالرسوم الفنية ، أو بالتصوير النصي (الكوميدي) الساخر ، أو رشق شخصية كبيرة : وزير أو رئيس دولة بالبيض الفاسد أو الخضار المتعفنة . وهذه كلها تحمل معنى الإهانة ، أو الاتهام بصورة غير مباشرة . وقد توجه إلى العقائد والمقدسات . هذا النوع من الحرية المنفلتة غير جائز في ثقافتنا ، لا إهانة الشخصيات ولا العقائد والرسل والذات الإلهية . والإهانة غير النقد ، النقد الموضوعي ليس مسموحا به فحسب ، بل مطلوب ومرغوب(١) ، أما الإهانة فهي عقوبة ، كأنك قاض تصدر الحكم وتتولى تنفيذ العقوبة

(١) وقد مر معنا ضمن خطاب افتتاح ولاية أبي بكر : «***وإن زغت فقوموني*** . . .» وقد أثر عن عمر بن الخطاب مثل هذا القول : ***من رأى منكم في اعوجاجا فليقومه*** ، وقد رد أحد الصحابة : «***لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا*** » ؛ وعقب عمر على ذلك بالقول : ***الحمد لله الذي جعل في المسلمين من يقوم اعوجاج عمر بسيفه*** .

بنفسك . أنت حر في أن لاتؤمن ، وتعلن عدم إيمانك ، وتمتنع عن أداء العبادات التي يؤديها المؤمنون ؛ لكنك لست حرا في أن تهين ما يقدسه المؤمنون ؛ ذلك أنك لو شتمتني أو شتمت أبي فإن ذلك أهون وأقل من أن توجه الإهانة إلى من أقدس ، ومثل هذا التجاوز قد يهدد السلم الاجتماعي . وذلك كله في حدود قانون الدولة التي تعيش فيها . وقد جاءت لي الصدفة بمثال حي يلقي ضوءا على مثل هذه التجاوزات المموهة ، فبينما كنت منهمكا في التفكير في مشكلة ما سمي بـ «حرية التعبير « قرأت في جريدة النهار اللبنانية ، خبرا عن موقف تعرض له النائب والمحامي اللبناني بطرس حرب ، حيث أصدر مكتبه بيانا بذلك :

«أصدر المركز الإعلامي للنائب بطرس حرب البيان الآتي : نشر في جريدة «السفير» . . . تاريخ ٢٠١٢/٥/٤ في صفحتها الأولى ، صورة ملونة تظهر النائب بطرس حرب بين مساعد وزيرة الخارجية الأميركية جيفري فلتمان والسفيرة كونيللي ، وهو يهم بالجلوس ويدعو السفير فلتمان إلى الجلوس إلى جانبه ، وكتب تحتها حرب (يرحب بفلتمان وتبدو كو نيللي) في إيحاء أن النائب حرب منحن أمام السيد فلتمان . فتعليقا على هذه الصورة ونشرها في الصفحة الأولى يهم مكتب النائب حرب الإعلامي توضيح الآتي :

١- لم يكن النائب حرب يوما إلا مع حرية الإعلام وحرية التعبير ، وهو ما دفعه إلى الوقوف ، كنائب وكمحام ، إلى جانب وسائل الإعلام التي حاول البعض إقفالها أو قمعها أو ملاحقة رجال الإعلام فيها ، وله مع جريدة السفير بالذات ، ودفاعا عنها أمام القضاء أكثر من جولة .

٢- إلا أنه ، وعلى رغم حالة الغضب العارمة التي تسود أوساط النائب حرب ، ومطالبته بملاحقة ناشر الصورة قضائيا ، يرفض النائب حرب أن يسجل على نفسه واقعة ملاحقة وسيلة إعلامية ، حتى لو كان ما قامت به هذه الوسيلة **تشهيرا فاضحا** ، ويشكل **محاولة لاغتيال سياسي** ، وهو سيبقى دائما مع حرية الإعلام والتعبير ، ويدعو أن يبقى الإعلام على المستوى الأخلاقي والمسؤول ، وهو إذ يحيي أهل الإعلام والمصورين يعتبر أنه كان على المصور الذي نسبت الصورة إليه ، أن يقوم أيضا بدور المحرر ، ويشرح للناشر معنى الصورة التي التقطها كي لا توظف في غير مكانها . كما لا يمكنه أن يتصور أن الناشر طلال سلمان قد اطلع عليها وسمح بنشرها بالنظر إلى **الإساءة الكبيرة التي ألحقتها**

بمستوى صحيفة السفير، وهي إساءة لايمكن أن تطال النائب حرب الذي يعرف القاصي والداني أنه لا يعرف للتزلف طريقا، وأنه مشهور باستقامته الأخلاقية والوطنية والجسدية ولا ينحني إلاالله والحقيقة.

٣- ينتهز مكتب النائب حرب المناسبة لتحية كل الذين استنكروا واستغربوا قيام إحدى الصحف اللبنانية الأساسية بتحدي **مشاعرهم الوطنية**...» الخ.

إن هذا النص الذي اقتبسناه حرفيا مع كل مضامينه المعلنة والمضمرة يبين المزالق التي يمكن أن تسببها «حرية التعبير» المنفلتة، خاصة في بيئتنا الأخلاقية العربية. فالصورة، والرسم يستخدم أحيانا لقلب الحقائق وتشويهها، ويمكن أن يسيئ إلى شخص في منتهى النظافة والاستقامة فيحوله - في نظر البسطاء والجهلاء - إلى شخص فاسد وشرير. وهناك مجال واسع ونظيف في ميدان الفن الروائي والكوميدي، حيث يتمكن القصاص المتميز بقدراته الإبداعيية من رسم الشخصيات المتخيلة لنقل التأثير المراد إيصاله إلى القارئ والمشاهد والمتلقي، [دون ربطه بأي شخص حقيقي، ومن غير إهانة أية شخصية دون وجه حق. ويمكن أن يوظف الرسم بأنواعه ضد الأشخاص الذين ثبتت ضدهم التهمة، أو الذين يملك الفنان أدلة قانونية تدينهم.

تجديد البناء

البناء الذي نتحدث عن تجديده هنا هو بنية الدولة وأركان تلك الدولة ومكوناتها الأساسية؛ أما كلمة الدولة فدلالتها تنصرف - أحيانا - إلى الحكومة وكبار رجالاتها، وأحيانا أخرى تنصرف إلى الشعب والأرض في إطارهما العام. ونحن هنا نتحدث عن الدولة بالمعنى الأول. والركن الأول والأهم في الدولة التي نتحدث عنها هو الدستور. والدستور وثيقة مكتوبة[(١)] تعبر عن رؤية الشعب لنفسه وتطلعاته وطموحاته وأهدافه الأقرب، ورباط مكوناته البشرية وضوابط تعاملها وتدافعاتها الداخلية وعلاقاتها بالخارج. ووثيقة بهذه الأهمية لا بدأن يكتبها الشعب نفسه بنفسه، عن طريق ممثلين وخبراء يختارهم ويكلفهم بالمهمة. فإذا تمكن شعب من

(١) وهناك بعض الدول، وربما كانت دولة واحدة، دستورها غير مكتوب، وهي المملكة المتحدة.

صياغة دستوره بطريقة جيدة ومتكاملة ، فإنه يستطيع أن يمضي في حياته العامة بقليل من المشاكل ، إلا إذا فرضت عليه المشاكل من الخارج .

وماذا بعد الدستور في عملية تجديد البناء؟

هناك أمور كثيرة ومهمة لكن ترتيبها في الأولويات يأتي بعد الدستور ، وعلى رأسها التربية والتعليم ، وإدارة وتنمية الاقتصاد .

التربية والتعليم:

كثيرا ما سمعنا وقرأنا من خلال أجهزة الإعلام أن سبب الفقر والتخلف هو زياد عدد السكان عن التناسب مع طاقة الموارد الوطنية . وفي القرن الماضي كانت بعض الدول ، ومنها اليابان ، تبرر توجهاتها الاستعمارية بحاجتها إلى أراض جديدة لاستيعاب السكان . الإنسان الفرد يمكن أن يصبح عبئا على وطنه عندما يكون جاهلا وخاملا ، جاهل + خامل ؛ وقد أثبتت التجارب الحديثة في أكثر من دولة أن الكثرة العددية يمكن أن تتحول فتصبح أهم مصدر وأهم أداة لصنع الثروة وإنتاجها ، بشرط أن يمنع الأقوياء واللصوص من سرقة ونهب ثمرات جهود وعرق المنتجين والعاملين ، دون وجه حق ، وخارج حدود القانون .

والتعليم والتربية في بلادنا موضوع واسع يمكن أن تصنف في نقد مكوناته وإصلاحه عشرات الكتب ، بل مئاتها . وغني عن القول إن بلادنا العربية والإسلامية عندما تتجه لإصلاح التعليم فإنها لا تتحرك في فراغ ولا تبدأ من نقطة الصفر ، فالتعليم الحديث في دولنا مضى عليه أكثر من قرن ، ولدينا عدد كبير من الجامعات بمستويات مختلفة وإن كانت كلها دون مستوى الطموح ، هذا بجانب مافي عقيدتنا وتراثنا من مكانة كبيرة للعلم والتعليم والعلماء . ومن المؤكد أن التعليم في معظم بلادنا العربية الإسلامية ما زال قاصرا ، وما زال يعاني من ثغرات ليست بالقليلة . والإصلاح في هذه الحالة يعتبر من أهم الضرورات ، والذي يقوم بعملية الإصلاح هم المتخصصون ، وأعتقد أنهم سيكونون حريصين على دراسة تجارب الشعوب الأخرى التي سبقتهم في هذا المضمار ، خاصة الدول المتقدمة .

ومع تجنبي الخوض في مشكلات إصلاح التعليم دون أن يكون الحديث مرتبطا بحالة بلد معين فإنني أجد أن من المفيد أن أشير إلى بعض الجوانب المهمة التي

تحتاج إلى أن تلقى العناية المناسبة في كل دولنا :

١) التعليم يحتاج إصلاحا في كل مراحله من الابتدائي إلى مافوق الجامعي ،

٢) ضرورة الاهتمام بغرس روح البحث وجمع المعلومات والاستقصاء وتعويد التلاميذ على ذلك ، حتى في المرحلة المتوسطة ، ويبدأ بموضوعات بسيطة ، ثم تنمو وتتطور .

٣) من غير المناسب أن يحصر هدف التعليم في تخريج وتوفير مهنيين متخصصين ، مع أهمية ذلك ، بل من الضروري أن يكون بجانب التخصص المهني ، تخصصات في كل علم من العلوم شاملة لكل الموضوعات :الأرض وترابها وجيوجليتها وما تحتها ، ، والبحار ، والفلك والفضاء ، والعلوم الإنسانية بكل فروعها ، بجانب التخصصات المهنية . وفي حالة بعض التخصصات التي يتجنبها الطلبة المتميزون يمكن أن تشجعها الدولة بتخصيص منح دراسية ، والتهيئة لوظائف للناجحين بتقديرات مرتفعة ،

٤) المكتبات والمختبرات القوية الأثر والفاعلية من الضرورات التي لا يستغنى عنها ولا يصح إهمالها ، لأن الجامعة لا تكون جامعة حقيقية إذا افتقرت إلى المكتبات والمختبرات القوية ،

٥) عندما نضع برامج لتخريج مهنيين (مهندسين ، أطباء ، محامين ، رجال أعمال . . . الخ) فإن تعليم الدارس ينبغي أن يستهدف تخريج وتكوين إنسان ليكون عضوا نافعا بناء في مجتمع متماسك متعاون على الخير ، لا أن نزود الدارس بالعلم والمعرفة والخبرة المادية ليتخذ من كل ذلك أسلحة يعتدي بها على مصالح المجتمع والأفراد ، طريقا وأداة لنهب المجتمع والأمة ، وانطلاقا منفلتا في كل دروب الفساد ، إشباعا لجشعه وأنانيته المسرفة . والمهندس لا يكون مهندسا فقط إلا في السنوات الأولى من حياته العملية أما بعد أن تتراكم وتزداد خبراته فقد يرتفع ويتشعب مستوى مسئولياته فيصبح مديرا أو مشرفا على مشروع وطني كبير ، وقد يصير وكيل وزارة أو وزيرا أو رئيس وزراء ؛ وفي كل هذه المواقع يحتاج لما هو أكثر من العلم التخصصي وحده .

٦) **اللغة الوطنية** : هي وسيلة التفاهم ، الفهم المتبادل بين المواطنين داخل الدولة الواحدة ، ولذا يكتسب تعلمها وإتقانها أهمية فائقة ، إذ بغير ذلك يصبح التفاهم – على المستوى الشعبي العام صعبا وضعيفا . وتظهر خطورة ذلك عندما تواجه

الأمة بمشاكل وطنية عامة كبيرة تحتاج إدراكا وتعاونا من جميع المواطنين لتبريد سخونتها وتفكيكها وإزالتها . وفي الأزمات الكبرى تحدث الانقسامات واختلاف الآراء والجدال السياسي والتغليط والمغالطات والاتهامات التي تصل أحيانا إلى حد التخوين ، ويحوم في الجو خطرانقسام الشعب ، والتحول إلى العنف والحرب الأهلية وضياع الوطن . وهذا الذي أقوله ليس من قبيل التهويل والمبالغة ، ولعل ما يجري هذه الأيام في بعض دول الثورات العربية يصدق ذلك .

لقد صادفت وتعاملت مع شباب يحملون درجات جامعية يشكون من كونهم عاجزين عن الفهم والاختيار عندما يتجادل المتنافسون والمتخاصمون في شأن القضايا العامة والمواقف الوطنية الصعبة ، كلاما مكتوبا في الصحف والكتب ، أو محكيا مقروءا في النشرات الإخبارية والإعلامية . تستمع إلى مهندس أو طبيب في الثلاثين أو الأربعين من عمره حيران يقول لك «والله الواحد لا يستطيع أن يعرف الصواب من الخطأ ، أو الحق من الباطل ، لأن كلا من المتنازعين يقول كلاما عكس الآخر .» حقيقة المشكلة أنه لم يتعلم لغته الوطنية بشكل صحيح ؛ هو يستطيع أن يقرأ وأن يكتب ، ولكن من غير أن يفهم ما وراء الكلمات المباشرة ، ومن غير قدرة على التحليل والبحث لأنه لم يتعلم ذلك ؛ ليس أميا ، ولكنه شبه أمي قريب جدا من الأمي ، لا يكاد يختلف عنه في شئ خارج تخصصه ؛ كان الهم الأول والأخير في تعليمه الجامعي تخصصه ، وإهمال ما عدا التخصص واعتباره هامشيا . وهذا الحكم ينطبق على البعض منهم وليس الكل أو الأغلبية ، وهم الذين لم يهتموا بتثقيف أنفسهم .

٧) من الضروري أن يكون هناك امتحان قياسي لكل من يريد الالتحاق بالتعليم الجامعي عدا عن امتحان الثانوية العامة ،

٨) إن كل أصحاب مهنة من المهن العليا ، التي تحتاج تخصصا جامعيا ، ينبغي أن يكون لهم ميثاق شرف معلن ليحمي سمعة منتسبي المهنة من الفاسدين ، ويحمي المجتمع وأفراده ومصالحه القريبة والبعيدة من آثار الفساد والانحرافات المخربة التي تدمر الحاضر والمستقبل معا . وهنا أرى من المفيد أن أشير إلى سابقة مهمة جرت في جامعة هارفارد الأميركية ، إذ قامت مجموعة من طلبة الماجستير (MBA) بكلية التجارة Business School بصياغة وتبني ميثاق شرف

وقعه أربعمئة طالب ، وما لبث أن انتشـــر على مســـتوى العالم فتبناه الطلبة في ١١٩ كلية وجامعة [١] في كثير من دول العالم ؛ ومع ذلك ، فإن المشكلة ليست في غياب المبادئ والمواثيق ، أوعدم توافرها وعدم وجودها ؛ المشكلة في تجاهل المواثيق من الناحية العملية لا القولية ؛ وأهم هذه المواثيق التي تتجاهل بازدراء هي ميثاق الإمم المتحدة الذي يتجاهل على أعلى المستويات ، من قبل أكثر الدول الكبرى في العالم . والذين ينتهكون المواثيق ويزدرونها هم أكثر من يتحدثون عنها ويتباكون عندما ينتقدون انتهاك خصومهم ومنافسيهم لها ، أو عندما ينافقون شعوبهم ويخادعونها . لذا ، فإننا عندما ننوه بأهمية المواثيق في إطار محاولات الإصلاح ضمن الدولة الواحدة فإن المواثيق لا بد أن تربط بالقوانين الملزمة وما تنص عليه من عقوبات للمنحرفين ؛ وأهم هذه العقوبات – في رأيي المتواضع – استبعاد المجرم الذي تثبت عليه الجريمة قانونيا ويتكرر ارتكابه لها ، استبعاده من حق ممارسة المهنة – لخمس سنوات مثلا – أو بشكل دائم ونهائي ، سواء كان تاجرا ، رجل أعمال ، أو موظفا ، أو طبيبا أو مهندسا ، أو غير ذلك من المهن . ثم إنني أقترح وأدعو إلى أن تكون للمهن البسيطة أيضا إطارات وضوابط أخلاقية تحددها الوزارات والإدارات المعنية التي تصدر تراخيص ممارسة العمل ، وأن تكون هذه الضوابط الأخلاقية الخاصة بممارسة المهنة جزءا من اليرنامج الدراسي – التدريبي الذي يؤهلهم لممارسة حرفتهم . .

وفي تاريخنا الإسلامي القديم نجد أن مهمة مراقبة ومقاومة الانحرافات في ميادين العمل كانت تسند إلى موظف كبير يعينه الخليفة أو الحاكم يلقب بـ «**المحتسب**» ؛ ويمكن أن يعتبر – بمصطلحاتنا الحديثة – وزيرا ، أو مديرا عاما لهيئة مستقلة . وكان من اختصاص وظيفته ، بشكل رئيسي ، مراقبة عمل أصحاب المهن ، ومحال البيع في الأسواق . وما زالت المكتبات تضم عددا من الكتب القديمة التي تشرح هذا العمل بشئ من التفصيل ، وقد استخدمت عددا منها أثناء إعدادي لأطروحتي ضمن متطلبات الحصول على درجة الماجستير في ستينات القرن الماضي ، وكان من أهمها كتاب **نهاية الرتبة في طلب الحسبة** ،

---

(1) Linda K. Trevino et al, ***Managing Business Ethics*** (John Wiley & Sons Inc., fifth edition), pp.12-13, See Also: www.mbaoath.org.

لعبدالرحمن بن نصر الشيزري ، الذي كان قد ألفه للسلطان صلاح الدين الأيوبي . ومما نجده في هذا الكتاب حديثا للشيزري عن المحامين ، وكانوا يسمون الوكلاء ، فيقول : «والوكلاء في هذه الأيام لا خير فيهم ، فهم يتمسكون بشبه[1] الشرع ويأخذون من الخصمين فتضيع العدالة فيما بينهم» . وفي شرحه للتفتيش على صناع النقانق يشترط أن يكون اللحم المستخدم في حشوها جيدا وجديدا ، وخال من السواقط ، كما يشرح طريقة التفتيش على الصيادلة .[2] وبالنسبة للمخابز التي تعمل في الأسواق يفرض على من يعدون العجين أن يحلقوا الشعر الذي على أذرعهم ، وأن يربط العجان على جبينه عصبة من قماش تمنع تساقط عرقه في العجين ، وأن يضع على فمه وأنفه لثاما . .الخ . **وهكذا نرى أن المهن العليا والبسيطة كانت موضع نظر ومتابعة وضبط ، حتى في ذلك الزمن الموغل في الماضي البعيد .**

ولسنا ندعو إلى استعادة تلك الأشكال والمسميات ولكننا ندعو إلى نظام حديث يحقق نفس الأهداف بكفاءة أكبر وأشمل وأعمق وأكثر نفعا ؛ وإنما استدعينا المثل القديم لنؤكد أن مبدأ الحرص على صحة وسلامة المجتمع عامة كان عميقا في حضارتنا ، وأننا بحاجة إلى إحياء ذلك وتفعيله في محتمعاتنا الحديثة .

٩) **الإعــلام** : في المجتمعات الحديثة يمكن أن يقوم بدور مهم وبناء جدا ، كما يمكن أن يقوم بدور هدام ومخرب شديد الخطورة ؛ لذا فإنه ينبغي أن يتحرر من هيمنة السلطة ، ويتحرر من هيمنة المال والتجارة ، ويلزم أن تكون له مبادئ ضابطة ، وأن تشرف عليه هيئة وطنية مستقلة للحفاظ على استقلاليته وحريته وولائه للوطن . وهذه الترتيبات وحدها لن تكون كافية لوقف الانحرافات التي يمارسها الفاسدون من تجار الإعلام ، ولدينا أمثلة صارخة من الانحرافات الخطيرة ، تمارسها أكبر المؤسسات - بل الإمبراطوريات - الإعلامية على مستوى العالم ، ليس في بلادنا العربية والإسلامية وحدها ، ولا في بلدان العالم الثالث الغارقة في التخلف والفوضى ، وإنما في أكثر الدول تقدما وعراقة في

(١) جمع شبهة .

(٢) عبدالرحمن بن نصر الشيزري ، ***نهاية الرتبة في طلب الحسبة*** ، تحقيق الدكتور السيد الباز العريني ، القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٣٦٥ هـ .- ١٩٤٦م . ، ص ٨٩-٩٥ .

الديمقراطية . لذا نقول : إنه مهما كانت الضمانات والمبادئ والقوانين ، فأن الشعب لا بد أن يكون حارسا لمصالحه ، ومتابعا لكل ما يجري [١] ؛ ولا يتسع المجال هنا لأكثر مما قلنا .

إصلاح الأوضاع الاقتصادية:

ومعظم البلاد العربية والإسلامية - باستثناء المصدرة للنفط منها - تشكوا الفقر ، وقلة الموارد . وقد كانت البلاد البترولية نفسها هي الأشد فقرا قبل اكتشاف النفط . وفي فضاء كل بلد أو تحت أرضه وفي بحاره يمكن ان تكون ثمة ثروات مختزنة . والإنسان نفسه يمكن أن يكون مصدر ثروة مهم في حال القيام بعملية لتنميته بشرية واسعة .

والخطط والبرامج تصمم وفق الظروف الخاصة بكل بلد ، وإمكاناته واحتياجاته ، ويحددها أهل البلد نفسه . ومع ذلك فإن الإدارة الصحيحة وحماية مصادر الثروة من الأخطار الداخلية : الاختلاس والنهب والتبديد والإهمال والمحسوبية ، وأمثال ذلك كله ، يعتبر ضرورة لتنمية الثروة الوطنية ، وهذه الاحترازات ليست مهمة السلطة السياسية وحدها ، بل هي مهمة الشعب أيضا ، أفرادا ومجموعات ؛ **وكل مواطن حارس ، من خلال فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .**

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، والله هو الهادي إلى سواء السبيل .

---

(١) للإطلاع على معلومات وثيقة عن فضائح أكبر المؤسسات ، بل الإمبراطوريات الإعلامية في العالم في الدول الديمقراطية المتقدمة جدا أنظر جريدة

The Independent, 21/4/2012, Hacking scandal, the net tightens.

http://www.independent co.uk/news/uk/crime/hacking-scandal-the-net-tightens-on-the.m.

ومن بين التهم التي يتحدث عنها التقرير الذي تشرته الإندبندنت ، عدا عن التنصت على الهواتف : رشوة موظفين كبارا ، وتهديد النواب أعضاء مجلس العموم ، الذين يحققون في الممارسات المنحرفة . وقد صدرت أحكام قضائية بالإدانة ، والتحقيق مستمر . وقد وصفت الإمبراطورية الإعلامية بأنها دولة مؤذية في الظل ، داخل الدولة toxic shadow state

وقد ألقي القبض على عدد من كبار الصحافيين في الإمبرطورية التي قدر حجمها المالي بأربعة وثلاثين مليار دولار .

الملاحق

(١) رسالة أبي جعفر المنصور ، ثاني الخلفاء العباسيين ، إلى محمد بن عبدالله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، الملقب بالنفس الزكية :

– لما بلغ أبا جعفر المنصور ظهور محمد بن عبدالله بالمدينة كتب إليه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبدالله عبدالله أمير المؤمنين ، إلى محمد بن عبد الله ،

﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ، ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم . إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم .﴾

ولك علي عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله ﷺ ، إن تبت ورجعت من قبل أن أقدر عليك ، أن أؤمنك وجميع ولدك وإخوتك وأهل بيتك ومن اتبعكم على دمائكم وأموالكم ، وأسوغك ما أصبت من دم أو مال ، وأعطيك ألف ألف درهم ، وما سألت من الحوائج ، وأنزلك من البلاد حيث شئت ، وأن أطلق من في حبسي من أهل بيتك ، وأن أؤمن كل من جاءك وبايعك واتبعك ، أو دخل معك في شيئ من أمرك ، ثم لا أتبع أحدا منهم بشئ كان منه أبدا . فإن أردت أن تتوثق لنفسك فوجه إلي من أحببت يأخذ لك من الأمان والعهد والميثاق ما تثق به .» [انتهت الرسالة] .

فكتب إليه محمد بن عبدالله :

بسم الله الرحمن الرحيم ، **من عبدالله المهدي محمد بن عبدالله** إلى عبدالله بن محمد :

((طسم تلك آيات الكتاب المبين ، نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين . ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم في الأرض ، ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون .)) وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذي عرضت علي ، بأن الحق حقنا ، وإنما ادعيتم هذا الأمر بنا ، وخرجتم له بشيعتنا ،

وحظيتم بفضلنا ، وإن أبانا عليا كان الوصي ، وكان الإمام ؛ فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء! ثم قد علمت أنه لم يطلب هذا الأمر أحد له مثل نسبنا وشرفنا وحالنا وشرف آبائنا . لسنا من أبناء اللعناء ولا الطرداء ولا الطلقاء .

وليس يمت أحد من بني هاشم بمثل الذي نمت به من القرابة والسابقة والفضل ؛ وإنا بنو أم رسول الله ﷺ فاطمة بنت عمرو في الجاهلية وبنو بنته فاطمة في الإسلام دونكم . إن الله اختارنا واختار لنا ، فوالدنا من النبيين محمد ﷺ ، ومن السلف أولهم إسلاما ، علي ؛ ومن الأزواج أفضلهن ، وأول من صلى القبلة ، ومن البنات خيرهن : فاطمة ، سيدة نساء أهل الجنة ومن المولودين في الإسلام حسن وحسين سيدا شباب أهل الجنة ، وإن هاشما ولد عليا مرتين ، وإن عبدالمطلب ولد حسنا مرتين ، وإن رسول الله ﷺ ولدني مرتين من قبل حسن وحسين ، وإني أوسط بني هاشم نسبا وأصرحهم أبا ، لم تعرق في العجم ولم تنازع في أمهات الأولاد ، فما زال الله يختار لي الآباء والأمهات في الجاهلية والإسلام حتى اختار لي في النار ، فأنا ابن أرفع الناس درجة في الجنة ، وأهونهم عذابا في النار ، وأنا ابن خير الأخيار وابن خير الأشرار ، وابن خير أهل الجنة ، وابن خير أهل النار . ولك الله علي إن دخلت في طاعتي ، وأجبت دعوتي أن أؤمنك على نفسك ومالك ، وعلى كل أمر أحدثته ، إلا حدا من حدود الله ، أوحقا لمسلم أو معاهد ، فقد علمت ما يلزمك من ذلك ، وأنا أولى بالأمر منك وأوفى بالعهد ، لأنك أعطيتني من العهد والأمان ما أعطيته رجالا قبلي ؛ فأي الأمانات تعطيني! أمان ابن هبيرة ، أم أمان عمك عبدالله بن علي ، أم أمان أبي مسلم! [انتهى نص رسالة محمد بن عبدالله] .

رد المنصور :

فكتب إليه أبو جعفر :

بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ، فقد بلغني كلامك ، وقرأت كتابك ، فإذا كل فخرك بقرابة النساء ، لتضل به الجفاة والغوغاء ، ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء ، ولا كالعصبة والأولياء ، لأن الله جعل العم أبا ، وبدأ به في كتابه على الوالدة الدنيا . ولو كان اختيار الله لهن على قدر قرابتهن كانت آمنة أقربهن رحما ، وأعظمهن حقا ، وأول من يدخل الجنة غدا ، ولكن اختيار الله لخلقه على علمه لما مضى منهم ، واصطفائه لهم . وأما ما ذكرت من فاطمة بنت أبي طالب

وولادتها ، فإن الله لم يرزق أحدا من ولدها الإسلام ، لابنتا ولا إبنا ؛ ولو أن أحدا رزق الإسلام بالقرابة رزقه عبدالله ، أولاهم بكل خير في الدنيا والآخرة ؛ ولكن الأمر لله يختار لدينه من يشاء ؛ قال الله عز وجل : ﴿إنك لا تهدي من أحببت ، ولكن الله يهدي من يشاء ، وهو أعلم بالمهتددين .﴾ ولقد بعث الله محمدا عليه السلام وله عمومة أربعة ، فأنزل الله عز وجل : ﴿وانذر عشيرتك الأقربين﴾ فقطع الله ولايتهما منه ، ولم يجعل بينه وبينهما إلا ولا ذمة ولا ميراثا ؛ وزعمت أنك ابن أخف أهل النار عذابا وابن خير الأشرار ، وليس في الكفر بالله صغير ولا في عذاب الله خفيف ولا يسير ، وليس في الشر خيار ، ولا ينبغي لمؤمن يؤمن بالله أن يفخر بالنار ، وسترد فتعلم ﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .﴾

وأما ما فخرت به من فاطمة أم علي وأن هاشما ولده مرتين ، ومن فاطمة أم حسن وأن عبدالمطلب ولده مرتين ، وأن النبي ﷺ ولدك مرتين ، فخير الأولين والآخرين رسول الله ﷺ ، ولم يلده هاشم إلا مرة واحدة ولا عبدالمطلب إلا مرة واحدة .

وزعمت أنك أوسط بني هاشم نسبا وأصرحهم أما وأبا ، وأنه لم تلدك العجم ، ولم تعرق فيك أمهات الأولاد ، فقد رأيتك فخرت على بني هاشم طرا ، فانظر ويحك أين أنت من الله غدا! فإنك قد تعديت طورك وفخرت على من هو خير منك نفسا وأبا وأولا وآخرا : إبراهيم بن رسول الله ﷺ وعلى والد ولده ؛ وما خيار بني أبيك خاصة وأهل الفضل منهم إلا بنو أمهات أولاد ؛ وما ولد فيكم بعد وفاة رسول الله ﷺ أفضل من علي بن حسين ، وهو لأم ولد ، ولهو خير من جدك حسن بن حسن ، وما كان فيكم بعده مثل ابنه محمد علي ، وجدته أم ولد ؛ ولهو خير من أبيك ، ولا مثل ابنه جعفر وجدته أم ولد ولهو خير منك . وأما قولك إنكم بنو رسول الله ﷺ ، فأن الله تعالى يقول : ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم﴾ ، ولكنكم بنو ابنته ؛ وإنها لقرابة قريبة ، ولكنها لا تحوز الميراث ، ولا ترث الولاية ، ولا تجوز لها الإمامة ؛ فكيف تورث بها! ولقد طلبها أبوك بكل وجه فأبى الناس إلا الشيخين وتفضيلهما . ولقد جاءت السنة التي لا اختلاف فيها بين المسلمين أن الجد أبا الأم والخال والخالة لا يرثون . وأما ما فخرت به من علي وسابقته ، فقد حضرت رسول الله ﷺ الوفاة ، فأمر غيره بالصلاة ، ثم أخذ الناس رجلا بعد رجل فلم يأخذوه ؛ وكان في الستة فتركوه كلهم ، دفعا له عنها ولم يروا له حقا فيها . أما عبدالرحمن فقدم

عليه عثمان ؛ وقتل عثمان وهو له متهم ، وقاتله طلحة والزبير ، وأبى سعد بيعته ، وأغلق دونه بابه ، ثم بايع معاوية بعده . ثم طلبها بكل وجه وقاتل عليها ، وتفرق عنه أصحابه . وشك في شيعته قبل الحكومة ، ثم حكم حكمين رضي بهما وأعطاهما عهده وميثاقه ، فاجتمعا على خلعه . ثم كان حسن فباعها من معاوية بخرق ودراهم ولحق بالحجاز ، وأسلم شيعته بيد معاوية ودفع الأمر إلى غير أهله ، وأخذ مالا من غير ولائه ولا حله . فإن كان لكم فيها شئ فقد بعتموه وأخذتم ثمنه . ثم خرج عمك حسين بن علي على ابن مرجانة ، فكان الناس معه عليه حتى قتلوه وأتوا برأسه إليه ؛ ثم خرجتم على بني أمية فقتلوكم وصلبوكم على جذوع النخل ، وأحرقوكم بالنيران ، ونفوكم من البلدان ، حتى قتل يحيى بن زيد بخراسان ، وقتلوا رجالكم وأسروا الصبية والنساء ، وحملوهم بلا وطاء في المحافل كالسبي المجلوب إلى الشام ، حتى خرجنا عليهم فطلبنا بثأركم ، وأدركنا بدمائكم ، وأورثناكم أرضهم وديارهم ، وسنينا سلفكم وفضلناه ، فاتخذتم ذلك علينا حجة .

وظننت أننا إنما ذكرنا أباك وفضلناه للتقدمة منا على حمزة والعباس وجعفر ، وليس ذلك كما ظننت ، ولكن خرج هؤلاء من الدنيا سالمين ، متسلما منهم مجتمعا عليهم بالفضل ، وابتلي أبوك بالقتال والحرب ، وكانت بنو أمية تلعنه كما تلعن الكفرة في الصلاة المكتوبة . فاحتججنا له ، وذكرناهم فضله وعنفناهم وظلمناهم بما نالوا منه . ولقد علمت أن مكرمتنا في الجاهلية سقاية الحجيج الأعظم وولاية زمزم ، فصارت للعباس من بين إخوته ، فنازعنا فيها أبوك فقضى لنا عليه عمر ، فلم نزل نليها في الجاهلية والإسلام . ولقد قحط أهل المدينة فلم يتوسل عمر إلى ربه إلا بأبينا حتى نعشهم الله وسقاهم الغيث ، وأبوك حاضر لم يتوسل به . ولقد علمت أنه لم يبق أحد من بني عبدالمطلب بعد النبي ﷺ غيره ، فكان وراءه من عمومته . ثم طلب هذا الأمر غير واحد من بني هاشم فلم ينله إلا ولده . فالسقاية سقايته ، وميراث النبي له والخلافة في ولده . فلم يبق شرف ولا فضل في جاهلية ولا إسلام في دنيا ولا آخرة إلا والعباس وارثه ومورثه .

وأما ما ذكرت من بدر ، فإن الإسلام جاء والعباس يمون أبا طالب وعياله ، وينفق عليهم للأزمة التي أصابته ؛ ولولا أن العباس أخرج إلى بدر كارها لمات طالب وعقيل جوعا ، وللحسا جفان عتبة وشيبة ، ولكنه كان من المطعمين ، فأذهب عنكم العار والسبة ، وكفاكم النفقة والمؤونة ، ثم فدى عقيلا يوم بدر . فكيف تفخر علينا وقد

علناكم في الكفر ، وفديناكم من الأسر ، وحزنا عليكم مكارم الآباء ، وورثنا دونكم خاتم الأنبياء ، وطلبنا بثأركم فأدركنا منه ماعجزتم عنه ، ولم تدركوا لأنفسكم!

والسلام عليك ورحمة اللــه .

[انتهت الرسائل المتبادلة ، ومصدر نصوصها تاريخ الطبري ، مجلد ٧ ، ص ٥٦٦ - ٥٧١ ضمن رواية أحداث سنة ١٤٥هـ]

مصادر ومراجع مختارة

أولا: مصادر أصلية:

١ - القرآن الكريم ،

٢ - الحديث النبوي الشريف ، الكتب الستة ، بإشراف الشيخ صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ ، دمشق : دار الفيحاء ، في مجلد واحد (٢٧٥٤ صفحة) .

٣ - مختصر تفسير الطبري ، مصحف الشروق المفسر ، القاهرة : دار الشروق .

٤ - ابن الأثير ، عز الدين أبو الحسن علي (ت ٦٣٠هـ) . **التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية** . تحقيق عبد القادر أحمد طليمات . القاهرة : دار الكتب الحديثة ، ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م .

٥- ـــــ الكامل في التأريخ . (١٣ مجلدا) . بيروت : دار بيروت ودار صادر ، ١٩٦٦م . (المجلدات ٨-١١ فقط) .

٦- الباخرزى ، أبو الحسن علي بن الحسن . **دمية القصر وعصرة أهل العصر** . بعناية محمد راغب الطباخ . حلب : ١٣٤٨هـ/١٩٣٠م .

٧- البيهقي ، الإمام المحدث أبو بكر أحمد بن الحسين (ت ٤٥٨هـ) ، مختصر شعب الإيمان ، القاهرة : إدارة الطباعة المنيرية ، د .ت .

٨- البيهقي ، ظهير الدين . **تأريخ الحكماء** . دمشق : ١٩٤٦م

٩- ابن جبير ، محمد بن أحمد . **رحلة ابن جبير ، تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار** . بيروت : دار التراث ، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م .

١٠- ابن جماعة ، الإمام بدر الدين (ت ٧٣٣هـ) ، **تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام** ، تح . د . فؤاد عبدالمنعم أحمد ، الدوحة : رئاسة المحاكم الشرعية ، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧ .

١١- ابن الجوزى ، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي . المنتظم في تأريخ الملوك والأمم . حيدر آباد الدكن : مجلس دائرة المعارف العثمانية ، ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م-١٣٥٩هـ/١٩٤٠م . (المجلدات ظ ٨-١٠ فقط) .

١٢- **نواسخ القرآن** ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٥/١٩٨٥ .

١٣- ابن حوقل النصيبي ، أبو القاسم . **كتاب صورة الأرض** . بيروت : دار مكتبة الحياة ، د . ت .
١٤- الخطيب البغدادي ، الحافظ أبو بكر أحمد بن علي ، **تاريخ بغداد أو مدينة السلام** (١٢ مجلد) ، بيروت : دار الكتاب العربي ، د .ت .
١٥- ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين أحمدبن محمد ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تح . الدكتور إحسان عباس (في سبعة مجلدات والثامن للفهارس) ، بيروت : دار الثقافة ، د .ت .
١٧- إبن سعد ، محمد ، **الطبقات الكبرى** ، (في ثمانية مجلدات ومجلد للفهارس) ، بيروت : دار صادر ودار بيروت ، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م .
١٨- السلمي ، أبو عبدالرحمن محمد بن الحسين (ت ٤١٢هـ) ، طبقات الصوفية ، تح . نورالدين شربية ، القاهرة : مكتبة الخانجي ، ١٩٦٩ .
١٩- السمعاني ، عبدالكريم بن محمد ، الأنساب ، بعناية الشيخ عبدالرحمن المعلمي اليماني ، (٦ مجلدات) ، حيدرأباد ، الهند : مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م- ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م
٢٠- الشعراني ، أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد . **الطبقات الكبرى** ، المسماة بـ **لواقح الأنوار في طبقات الأخيار** . (جزآن في ١) . القاهرة : المطبعة الشرفية ، ١٢٩٩هـ/١٨٨٢م .
٢١- الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية ، المجلد الأول ، تح . طه عبد الباقي سرور وزميله ، بيروت : مكتبة المعارف ، د .ت .
٢٢- الشهرستاني ، أبو الفتح محمد عبد الكريم بن أبي بكر أحمد . **الملل والنحل** . تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل . (٣ ج في ١) . القاهرة : مؤسسة الحلبي وشركان للنشر والتوزيع ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٨م .
٢٣- الشيزري ، عبدالرحمن بن نصر ، **كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة** . تحقيق السيد الباز العريني . القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م .
٢٤- الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ) **تاريخ الرسل والملوك** المشهور باسم **تاريخ الطبري** ، تح . محمد أبو الفضل إبراهيم ، (في عشر مجلدات) ، القاهرة : دار المعارف ،

٢٥ــــ تاريخ الطبري ، بيروت : في ستة مجلدات ، وقد استخدمتها مضطرا في بعض الأحيان ، في السفر كلما كنت بعيدا عن مكتبتي البيتية .
٢٦- ـــــ مختصر تفسير الطبري (للقرآن الكريم) ، القاهرة : دار الشروق .
٢٧- ابن عبدالحكم ، أبو القاسم عبدالرحمن ، فتوح مصر وأخبارها ، بغداد : مكتبة المثنى .
٢٨- ابن العديم ، كمال الدين عمر . **بغية الطلب في تأريخ حلب** . (٩ مجلدات) . نسخة مصورة عن مخطوطة محفوظة بمكتبة أحمد الثالث باستنبول تحت رقم ٢٩٢٥ ، بخط المؤلف . وقد طبع الكتاب مصورا من هذه النسخة الخطية بعد سنين طويلة من استخدامي لها .
٢٩- **زبدة الحلب من تاريخ حلب** . (مجلدان) . تحقيق سامي الدهان . دمشق : المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، ١٩٥١-١٩٥٤م .
٣٠- ابن عساكر ، أبو القاسم علي بن الحسن (ت ٥٧١هـ) . **تأريخ مدينة دمشق** . تحقيق صلاح الدين المنجد . دمشق : مطبوعات المجمع العلمي العربي ، ١٩٥٤م . (المجلدة الثانية ، القسم الأول فقط) .
٣١ــــ تاريخ دمشق الكبير ، ثمانون جزءا في أربعين مجلدا ، طبعة كاملة ، بيروت : دار إحياء التراث العربي ، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م .
٣٢- مختصر تاريخ دمشق ، لابن عساكر ، اعتنى به وحذف أسانيده عبد القادر بدران . (٧ج في ٥) . دمشق : مطبعة روضة الشام ، ١٣٢٩-١٣٣٢هـ/١٩١١-١٩١٣م .
٣٣- العكبري ، الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان ، المشهور بالشيخ المفيد ، مسار الشيعة . . مختصر تواريخ الشريعة ، بيروت : دار المفيد ، الطبعة الثانية ، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م (طبعت بموافقة اللجنة الخاصة المشرفة على المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد .
٣٤- علوي ، ناصر خسرو . **سفرنامة** . ترجمة يحي الخشاب ، القاهرة : مطبوعات معهد اللغات الشرقية ، كلية الآداب ، جامعة فؤاد الأول ، ١٣٦٤هـ/١٩٤٥م
٣٥- الغزالي ، أبو حامد محمد بن محمد . **فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة** . تحقيق سليمان دينا . القاهرة : دار إحياء الكتب العربية ، ١٣٨١هـ/١٩٦١م .

٣٦- ـــــــ **المنقذ من الضلال** . بعناية عبد الحليم محمود . القاهرة : دار الكتب الحديثة ، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م .

٣٧- ـــــــ **فضائح الباطنية** . تحقيق عبد الرحمن بدوي . القاهرة : الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م .

٣٨- ـــــــ **إحياء علوم الدين** . القاهرة : مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح ، د . ت . (جـ ١ و٢ فقط) .

٣٩ - ـــــــ المستصفى من علم أصول الفقه ، القاهرة : المطبعة الأميرية ، **١٣٢٢**هـ .

٤٠- ابن الفارض ، عمر ، ديوان ابن الفارض ، تح . فوزي عطوي ، بيروت : الشركة اللبنانية للكتاب ، ١٩٦٩ .

٤١- الفراء ، أبو يعلى محمد بن الحسين . **الأحكام السلطانية** . بعناية محمد حامد الفقي . القاهرة : شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م .

٤٢- القشيرى ، أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن . **الرسالة القشيرية** . تحقيق عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف . القاهرة : دار الكتب الحديثة ، ١٣٨٥هـ/١٩٦٦م ، المجلد الأول

٤٣- ابن القلانسي ، أبو يعلى حمزة . **ذيل تأريخ دمشق** . بيروت : مطبعة الآباء اليسوعيين ، ١٩٠٨م .

٤٤- ابن كثير ، الحافظ أبو الفدا (ت ٧٧٤هـ) ، **البداية والنهاية** ، بيروت : مكتبة المعارف ، الطبعة الأولى ١٩٦٦ .

٤٥- المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين . **التنبيه والإشراف** . بيروت : دار التراث ، ١٩٦٨م .

٤٥-المقدسي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد . **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم** ، بيروت : مكتبة خياط ، د . ت .

٤٦- مسكويه ، أحمد بن محمد . **كتاب تجارب الأمم** . بعناية هـ . ف . آمدروز . الجزآن ٥ و٦ في مجلد واحد ، القاهرة : **١٣٣٢**هـ/١٩١٤م . (الجزء

٤٧- الماوردي ، أبو الحسن علي بن محمد . **الأحكام السلطانية والولايات الدينية** . القاهرة : شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م

٤٨- الهمداني ، محمد بن عبد الملك . **تكملة تأريخ الطبري** . تحقيق البرت يوسف كنعان . (مجلد ١ فقط) . بيروت ١٩٥٩م .
٤٩- ابن أبي يعلى ، أبو الحسين محمد . **طبقات الحنابلة** . بعناية حامد الفقي . جزآن في مجلد واحد . القاهرة : ١٣٧١هـ/١٩٥٢م .
٥٠- ابن منقذ ، أسامة بن مرشد . **كتاب الاعتبار** . بعناية فيليب حتى . برنستون : مطبعة جامعة برنستون ، ١٩٣٠م .
٥١- الكاتب الأصفهاني ، عماد الدين محمد بن محمد . **خريدة القصر وجريدة العصر** . بعناية شكرى فيصل . (٣ مجلدات) . دمشق : ١٩٥٩م .
٥٢- ـــــ **تواريخ آل سلجوق** ، وهو مشتمل على **كتاب زبدة النصرة ونخبة العصرة** . اختصره الشيخ علي بن محمد البنداري الأصفهاني ، وقام على نشره م . ث . هوتسما . ليدن : بريل : ١٨٨٩م .
٥٣- ياقوت الحموى الرومي . **معجم الأدباء** . راجعته وزارة المعارف العمومية . (٢٠ج) . القاهرة : دار المأمون ، د . ت .
٥٤- ـــــ **معجم البلدان** . بيروت : دار بيروت ودار صادر ، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م .
٥٥- ابن الطقطقي ، محمد بن علي بن طباطبا . **كتاب الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية** . القاهرة : شركة طبع الكتب العربية ، ١٣١٧هـ/١٨٩٩م .
٥٦- القفطي ، جمال الدين أبو الحسن علي . **أنباء الرواة على أنباء النحاة** . (٣ ج) . القاهرة : ١٩٥٠ـ١٩٥٢م .
٥٧- ـــــ **تأريخ الحكماء** . وهو مختصر الزوزني المسمى **بالمنتخبات الملتقطات من كتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء** . ليبسك : ١٣٢٠هـ/١٩٠٢م .
٥٨- سبط بن الجوزى ، أبو محمد يوسف . **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان** . (مجلد ٨ فقط) حيدر آباد الدكن : وقد سقط التاريخ من صفحة
٥٩- الكلاباذي ، أبو بكر محمد بن إسحاق (ت ٣٨٠هـ) ، **التعرف لمذهب أهل التصوف** ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م .
٦٠- الكليني ، ثقة الإسلام أبي جعفر محمد بن يعقوب (ت ٣٢٨هـ) ، **أصول الكافي ويليه كتاب الروضة** [في مجلد واحد من ٨٦٦ صفحة] ، بيروت : مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م

٦١- ابن قاضي شهبة ، بدر الدين أبو الفضل محمود بن أبي بكر . **الكواكب الدرية في السيرة النورية** ، وتسمى **الدر الثمين في سيرة نور الدين** . مصور بالميكروفيلم عن نسخة خطية محفوظة بمكتبة سوهاج بمصر ، رقم **٢٦٢** تأريخ .

٦٢- القمي ، الشيخ الجليل الأقدم الصدوق أبي جعفر/ محمد بن علي بن الحسين بن بابويه ، (ت ٣٨١هـ) **من لا يحضره الفقيه** ، بيروت – لبنان : مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م . الطبعة الأولى . مجموع صفحاته : ٨١٦ صفحة .

٦٣- ابن أبي أصيبعة ، موفق الدين أبو العباس أحمد . **عيون الأنباء في طبقات الأطباء** . بيروت : دار مكتبة الحياة ، ١٩٦٥م .

٦٤- الأربلي ، عبد الرحمن سنبط قنيتو . **خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك** . بغداد : مكتبة المثنى ، د . ت .

٦٥- ابن الساعي ، تاج الدين أبو طالب علي بن أنجب . **نساء الخلفاء المسمى جهات الخلفاء من الحرائر والاماء** . القاهرة : دار المعارف ، د . ت .

٦٦- ابن شاكر الكتبي ، أبو عبد الله محمد . **فوات الوفيات** . (مجلدان) . تحقيق محيي الدين عبد الحميد . القاهرة : مكتبة النهضة ، ١٩٥١م .

٦٧- ابن شداد ، عز الدين محمد بن علي . **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة** . تحقيق سامي الدهان ، دمشق : ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م .

٦٨- ابن الفوطي ، كمال الدين عبد الرزاق . **تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب** . تحقيق مصطفى جواد . دمشق ، د . ت .

٦٩- الذهبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد . **المختصر المحتاج إليه من تاريخ الحافظ أبي عبد الله . . . ابن الدبيثي** . تحقيق مصطفى جواد . بغداد : المجمع العلمي العراقي ، ١٩٥١م .

٧٠- السبكي ، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب . **طبقات الشافعية الكبرى** . تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود الطناحي . (مجلد ٤ فقط) . القاهرة : ١٣٨٥هـ/١٩٦٦م .

٧١- ابن أبي الوفاء ، أبو محمد عبد القادر . **الجواهر المضية في طبقات الحنفية** . حيدرآباد الدكن : دائرة المعارف النظامية ، ١٣٣٢هـ/١٩١٤م .

٧٢- ابن رجب ، أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد . **الذيل على طبقات الحنابلة** . بعناية هنرى لاووست وسامي الدهان . دمشق : المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، ١٩٥١م .
٧٣- ابن طولون ، محمد بن علي بن أحمد . **قضاة دمشق ، الثغر البسام في ذكر من ولي الشام** . تحقيق صلاح الدين المنجد . دمشق : المجمع العلمي العربي ، ١٩٥٦م .
٥٥- اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب . **تاريخ اليعقوبي** . مجلدان . بيروت : دار بيروت ودار صادر ، ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م .

ثانيا: المراجع الحديثة:

١- الأعظمي ، أحمد عزت ، **القضية العربية ، أساسها ، مقدماتها ، تطوراتها ونتائجها** ، بغداد : مطبعة الشعب ، ١٣٤٩/١٩٣١ .
٢- أمين ، حسين . **تاريخ العراق في العصر السلجوقي** . بغداد : المكتبة الأهلية ، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م .
٣- التل ، سهير سلطي . **حركة القوميين العرب وانعطافاتها الفكرية** ، بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩٦ .
٤- داغر ، أسعد ، **مذكراتي على هامش الثورة العربية** : القاهرة : دار القاهرة للطباعة ، د .ت .
٥- حسن ، زكي . **فنون الإسلام** . القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٨م .
٦- خلاف ، عبدالوهاب ، **علم أصول الفقه** ، الكويت : الدار الكويتية ، ١٩٦٨ .
٧- السبحاني ، الشيخ جعفر ، عقيدة الإمامية في عدالة الصحابة والتقية ، بيروت : دار الأضواء ، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م .
٨- حسنين ، عبد النعيم محمد . **سلاجقة إيران والعراق** . القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٩م .
٩- الدورى ، عبد العزيز . **دراسات في العصور العباسية المتأخرة** . بغداد : شركة الرابطة للطبع والنشر المحدودة ، ١٩٤٥م .
١٠- **مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي** . بيروت : دار الطليعة ، ١٩٦٩ .

١١- ديماند ، م . س . **الفنون الإسلامية** . تر . محمد عيسى . القاهرة : دار المعارف ، د . ت .
٨- الديوه جي ، سعيد . **الموصل في العهد الأتابكي** . بغداد : ١٩٥٨م .
٩- رامزور ، آرنست . **تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨** ، ترجمة الدكتور صالح أحمد العلي ـ ، بيروت – نيويورك : دار مكتبة الحياة بالايشتراك مع مؤسسة فرانكلن ، ١٩٦٠ .
١٠- أبو سليمان ، د . عبدالحميد أحمد ، **أزمة العقل المسلم** ، هيرندن : المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م .
١١- الصدر ، السيد محمد باقر ، **فدك في التاريخ** ، بيروت : دار التعارف للمطبوعات ، ١٤٠٠/١٩٨م .
١٢- الغزالي ، الشيخ محمد ، **كيف نتعامل مع القرآن** ، بعناية عمر عبيد حسنة ، هيرندن : المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ١٤١١هـ/١٩٩١ م .
١٣- المظفر ، المجتهد المجدد الشيخ محمد رضا ، **عقائد الإمامية** ، تهران : در كتب ملي
١٤- العلوي ، حسن ، **عمر والتشيع : ثنائية القطيعة والمشاركة** ، لندن : دار الزوراء ، ٢٠٠٧ .
١٥- الطهراني ، آية الله الحاج السيد محمد الحسين الحسيني ، **رسالة لب اللباب في سير وسلوك أولي الألباب** ، بيروت : دار المحجة البيضاء ، ١٤١٧هـ ، عربه عن الفارسية السيد عباس نورالدين .
١٦- الكبيسي ، باسل . **حركة القوميين العرب** . بيروت : دار الطليعة ، ١٩٧٤ .
١٧- منظمة المؤتمر الإسلامي ، **الدولة العثمانية تاريخ وحضارة** ، (مجلدان) ، بإشراف الدكتور أكمل الدين إحسان إوغلي ، إستانبول : مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية ، تر . صالح سعداوي ، ١٩٩٩ .
١٨--النفيسي ، د . عبدالله ، محرر ومشارك ، **الحركة الإسلامية : رؤية مستقبلية ، أواراق في النقد الذاتي** ، الكويت ١٤١٠هـ/١٩٨٩م .

19- Haddad, George, ***Revolutions and the Military in the Middle East***, New York: Robert Speller and Son, Publishers, 1965.

20-Hanioglu, M. Sukru, ***The Young Turks in Oppositio***, New York: Oxford University Press,1995.

21- Mills, Dorothy. ***The Renaissance and Reformation Times*** (New York,G.P. Putnam's Sons, 1939, ninth impresson.

22- Duffy, Eamon. ***Saints & Sinners, A History of the Popes***, Yale Univerdity Press, 1997.

23- Eckhardt, Carl Conrad. ***The Papacy and World Affairs as Reflected in the Secularization of Politics***, Chicago: The University of Chicago Press,1937.

24- Charles Darwin's ***Autobiography***, by Chrles Darwin,Amazon Kindle edition.

25- Dampier, Willam Cecil. ***A History of Science And Its Relations with Philosophy and Religion***, Cambridge: Cambridge University Press, 1949.

26-Weiner, J.S., ***The PiltDown Forgery***, The Classic account of the most famous and successful Hoax in Science, Oxford University Press, reprinted 2009.

27- Chris Stringer. ***The Origin of our Species***, Allen Lane, Penguin Group,2011.

المؤلف في سطور:

* عبدالله محمد مصطفى أبو عزة .
* ولد في قرية يبنا ، قضاء الرملة سنة ١٩٣١م .
* حصل على درجة الليسانس في التاريخ من جامعة القاهرة ، يونيو١٩٦١م .
* وعلى درجة الماجستير من الجامعة الأميركية في بيروت في حزيران (يونيو) ١٩٦٩م .
* كما حصل على الدكتوراة من جامعة إكستر في بريطانيا في أيار (مايو) ١٩٨٠م
* عمل في التدريس ، وفي تخطيط وإدارة الأنشطة الثقافية ، وشارك في عدد من المؤتمرات الثقافية العربية والدولية .
* له من الأولاد خمسة : سمية ، أسماء ، خولة ، محمد ، وعمر .
* يحمل الجنسية الأردنية ، ويعيش في عمان ، الأردن .

كتب وأبحاث للمؤلف

* **مع الحركة الإسلامية في الدول العربية** ، دار القلم ، الكويت ، ١٩٨٦ ، وقد أعيدت طباعته سنة دون علم المؤلف .
* **الإسلام . . رسالته ، حضارته** ، مستقبله دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٨ وقد صدرت له في اليابان طبعة مترجمة إلى اللغة اليابانية سنة ٢٠٠٤م .
* **الخليج العربي في العصر الإسلامي ، دراسة تاريخية وحضارية** ، مكتبة الفلاح ، الكويت ، ٢٠٠١م .
* **حوار الإسلام والغرب** ، عمان ، الأردن ، ٢٠٠٦م .
* **انهيار الحضارة العربية الإسلامية وسبيل النهوض** ، دار الفضيلة ، عمان ، ٢٠٠٨ .
* **حوار لإخواننا وأخواتنا الشيعة** ، عمان ، الأردن ، ٢٠٠٩م ، وهوهذا الكتاب الذي بين يدي القارئ .

كتب غير منشورة:

* **الإخوان المسـلمون . . الحركة الأم . . دراسـة نقـدية** ، ينتظر صدوره قبل نهاية العام الحالي ، ٢٠٠٩م
* **الحضارة العربية في المشرق في عهد السلاجقة** ، أطروحة ماجستير ، الجامعة الأميركية في بيروت ، حزيران ، ١٩٦٩م .
* ***The Syrian Thughur***, أطروحـة دكـتـوراه ، جـامـعـة أكـسـتـر (بريطانيـا) ، أيار ١٩٨٠م .

** وللمؤلف أكثر من خمسة وعشرين بحثا منشورة ، قدمت في ندوات جامعية ، وفي مؤتمرات ثقافية ، بينما نشـر بعضها ضمن أعمال مشتركة .